الكسندر فاديف

الحرس الفتى

رواية

الجزء الاول

موسكو • دار التقدم

ترجمة الدكتور سامى عماره

Александр Фадеев

МОЛОДАЯ ГВАРДИЯ

КНИГА I

На арабском языке

© الترجمة الى اللغة العربية – دار التقدم ، ١٩٨١

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Ф $\frac{70302—394}{014(01)—81}$ 532—81

4702010200

رواية البسالة والبطولة

حظيت رواية «الحرس الفتى» التى خلدت الاحداث البطولية للحرب الوطنية العظمى ، بشهرة فائقة لم تقتصر على الاتحاد السوفييتى فقط ، بل وتعدت نطاقه بعيدا .

ولقد كتب الكسندر فادييف هذه الرواية ، حيث سجل احداث تلك الايام فى حينها بما يعكس ابعادها ومآسيها وروح ذلك العصر الخالد .

جرت احداث «الحرس الفتى» فى اوج فترة الحرب الوطنية ، حين راحت غالبية الكتاب السوفييت تأخذ مكانها على الجبهة جنبا الى جنب مع بقية فصائل الشعوب السوفييتية . كانوا يحملون السلاح ، حيث لقى ما يربو عن اربعمائة كاتب – ثلث اعضاء اتحاد الكتاب – حتفهم على ارض المعركة . وكانوا يحاربون بالقلم ، حيث ظهر فى سنوات الحرب اشهر ما كتبه ميخائيل شولوخوف ، والكسى تولستوى ، وقسطنطين سيمونوف ، والكسندر تفاردوفسكى وغيرهم من فنانى الكلمة . وكان الكسندر فادييف من اولئك الذين انخرطوا فى العمل كمراسلين عسكريين . وبدأت مقالاته عن الجبهة تجد مكانا لها على صفحات «البرافدا» بانتظام ، وكذلك فى الاذاعة . وكانت هذه المقالات معبرة عن المعين الاول للالهام الادبى – عن الاهتمام الفائق الصادر من القلب بالمآثر البطولية لاولئك الذين هبوا يواجهون بصدورهم ، الفاشية المستأسدة والرغبة الجارفة فى سحقها .

كان فادييف فى زيارة لموسكو فى صيف عام ١٩٤٣ ، قصد خلالها اللجنة المركزية لمنظمة الكومسومول . وهناك وجدهم يناقشون امر وثائق وصلت على التو من مدينة كراسنودون – مدينة عمال المناجم الصغيرة – تتحدث عن تنظيم سرى للكومسومول «الحرس الفتى» . وسلم المجتمعون هذه الوثائق الى فادييف يسألونه :

– من ترشحونه من الادباء لكتابة رواية عن شباب كراسنودون ؟ او ربما ترغبون انتم يا الكسندر الكسندروفيتش فى القيام بهذا العمل ؟

وتعلل فادييف بانشغاله بأعمال الجبهة ، وبارهاقه صحيا ، ووعد بالتفكير فى مسالة المرشح المطلوب ، وبالحديث فى ذلك الامر مع نيكولاى تيخونوف وبوريس جورباتوف . واخذ الوثائق للاستفاضة فى دراستها . ولما لم يتلقوا ردا منه طيلة اسبوعين ، اتصلوا به تليفونيا لترد زوجته :

– لقد سافر الكسندر الكسندروفيتش الى كراسنودون ، واخذ معه كل الوثائق . . .

ولم يكن تصرف فادييف هذا مثارا للدهشة ، لانه عاش طيلة حياته بنمط مقاتل الثورة الذى كان نفسيا على استعداد للقيام باى عمل يوكل اليه . واذ نشأ فادييف فى اسرة ثوريين محترفين ، فقد اختار منذ صباه طريق النضال من اجل ارساء نظام جديد . وعن ذلك كتب فادييف فيما بعد يقول : «لم يكن صعبا علينا اختيار طريقنا . لقد تلقينا تعليمنا لقاء النقود المعدودة التى كان يتقاضاها والداى . كان ابى وامى الممرض والممرضة ، يعملان فى قرية نائية ، ويفلحان بنفسهما الارض . وهكذا كان حال العديد من رفاقى فى المدرسة . ومن ثم فقد كانت حياة العمال والفلاحين قريبة الى نفوسنا .

وانضممنا الى صفوف الثورة تجتاحنا آمال الصبا ، نحمل ما كتبه ماكسيم جوركى ونيكراسوف فى حقائبنا المدرسية . وكانت الرغبة الجارفة لتحرير الارض تتملكنا ، حيث فرض الادميرال كولتشاك فى سيبيريا والشرق الاقصى الروسى سلطة اقسى وطأة من تلك السلطة القديمة . كما وكانت روح الوطنية تسيطر علينا لان نعال المتدخلين قد وطأت ارضنا الحبيبة .

اننى ككاتب ، ادين بالكثير لتلك الفترة» . وقد انضم الكسندر فادييف الى حزب البلاشفة فى السابعة عشرة من عمره . وسرعان ما انخرط فى فصائل الفدائيين المقاتلة فى سبيل تحرير الشرق الاقصى ، حيث بدأ طريقه مقاتلا عاديا ، واختتمه قوميسارا للواء . وكم افادت مدرسة النضال الفدائى كثيرا كاتب المستقبل ! فقد قاتل

جنبا الى جنب مع كثير من مشاهير الحركة الثورية . ومن يدرى ، فربما تكون شخصية سيرجى لازو القائد الاسطورى لفدائى الشرق الاقصى ، او شخصية فسيفولود سيبيرتسيف قريب الكاتب ، اللذين اسرتهما عصابات البيض ووضعتها احياء وقودا للقاطرة ، قد تمثلتا امامه حين كتب «بدم قلبه» عن البطولة الفائقة لوطنيى كراسنودون .

وينتقل فادييف من جوار اتون نيران النضال فى ادغال سيبيريا ومن صحبته للبندقية الى القلم ، الى ممارسة الادب . لكن ذلك لم يحدث كطفرة مفاجئة . فقد التحق فى البداية بمعهد موسكو للتعدين ، حتى يعود فيما بعد مهندسا – كما كان يتوقع قبلا – الى مناجم مدينة بريموريه . وجمع الكسندر فادييف ما بين الدراسة فى المعهد والعمل الحزبى . وفى عام ١٩٢٤ انتقل الى القوقاز فى عمل حزبى . ولم يختر فادييف الادب كمهنة اساسية له الا فى عام ١٩٢٦ ، حين فرغ من كتابة روايته «الهزيمة» . وجمع ذلك الرجل ذو الطبع الحيوى ما بين الادب والنشاط الاجتماعى السياسى . واختير اكثر من مرة عضوا فى الهيئات القيادية للحزب وللدولة السوفييتية ، وكان عضوا نشيطا فى حركة انصار السلام العالمية . وكان يتراس اتحاد الكتاب السوفييت على مدى ثلاثين عاما . وكان فادييف الوسيم ذو القوام الفتى والشعر الابيض صديقا للكثيرين من المشاهير اعتبارا من فيدين وتفاردوفسكى حتى فريدريك جوليو كورى وبابلو نيرودا . وعكست طرق الابداع لدى فادييف مختلف مراحل طريق المجتمع السوفييتى ، وغدت مؤلفاته سجلا ادبيا للمآثر المجيدة التى قام بها ابناء وبنات الشعب السوفييتى .

واشتهرت اولى روايات فادييف «الهزيمة» – عن الحرب الاهلية فى الشرق الاقصى – كواحدة من احسن روايات الادب السوفييتى الفتى . ففى هذه الرواية تمثلت الحقيقة المرة للواقع المعاصر الى جانب الامل فى انسان جديد ، والروح الحماسية للنضال من اجله . ولقد سجل فادييف تطويرا لهذا الموضوع فى روايته الثانية : «الاخير من اوديجيه» . فقد كان يرى الانسان الجديد متمثلا فى ابطال الحرب الوطنية .

وها هو الكاتب يرى ويحصل على المادة التى تسجل مآثر

الانسان الجديد . وقد ذكر فادييف «ان هذه المادة قادرة على ان تصهر الحجر !» .

وانطلق فادييف قاصدا كراسنودون تحت تاثير فكرة ابداعية ملكت كل حواسه . وعاش هناك فترة طويلة ليضيف بمشاهداته وانطباعاته ما يستكمل به المعلومات التى تضمنتها الوثائق .

وحقا كانت كراسنودون مسرحا لاحداث عجيبة ، لاحداث كانت تحمل فى نفس الوقت طابعا مميزا اتسمت به البلاد السوفييتية .

ففى خريف ١٩٤٢ اقتحم المحتلون الالمان المدينة ، حيث اعلنوا فى احتفال كبير ارساء «النظام الجديد» . وفى ذلك الحين تشكلت بالمدينة منظمة سرية من اعضاء الكومسومول تسمى «الحرس الفتى» ضمت حوالى مائة شاب وفتاة . واعتبر الالمان المحتلون انفسهم سادة المدينة ، بينما راح شباب «الحرس الفتى» يعلقون الاعلام الحمراء لترفرف فوق رؤوس الفاشيست فى ايام الاعياد السوفييتية . وفى الوقت التى راحت اجهزة دعاية جوبلز تعلن «انهيار» اول دولة اشتراكية فى العالم ، كان سكان المدينة يطالعون المنشورات التى اعدتها هيئة اركان «الحرس الفتى» ، حيث تسجل المقاومة الشعبية المتنامية فى وجه المحتلين . وراح الفدائيون الشباب يحصلون على السلاح ، ويشنون هجماتهم الجسورة على العدو وينتقمون بلا رحمة من الخونة . ومن الجدير بالذكر انه بين المنظمات السرية التى شكلها المواطنون السوفييت المناضلون ضد الفاشية اثناء الحرب وفى المدن والقرى الرازحة مؤقتا تحت نير الاحتلال ، كانت ايضا مجموعات شبابية على نمط مجموعة كراسنودون .

وكان فتية كراسنودون يقاتلون كالابطال ويستشهدون ايضا كالابطال . وحين القى رجال الجستابو القبض عليهم جميعا تقريبا ، نتيجة وشاية احد الخونة لم يهتز منهم احد ، ولم يتسلل الروع الى قلبه ، وراحوا جميعا يواجهون الموت مرفوعى الهامة ، تردد شفاهم اغنية الثورة .

ولم ينس الوطن ابناءه وبناته الاوفياء . ففى الخامس عشر من شهر سبتمبر عام ١٩٤٣ صدر مرسوم مجلس السوفييت الاعلى ينص على منح الاوسمة لابطال «الحرس الفتى» ، وللكثير منهم بعد استشهادهم . ولقد مُنح قادة اركان «الحرس الفتى» : كل من اوليج

كوشيفوى وايفان زيمنوخوف وسيرجى توليتين واوليانا جروموفا وليوبوف شيفتسوفا بعد استشهادهم لقب بطل الاتحاد السوفييتى .

ولقد ساعدت لقاءات فادييف مع اقارب واصدقاء ابطال «الحرس الفتى» على ان يرسم وان يشكل وعيه صورة كاملة لنضال واستشهاد هؤلاء الابطال . وعايش فادييف عاما وتسعة اشهر هؤلاء الابطال ووهب حياته كلها لروايته الجديدة . وقد كتب بعد ذلك يقول : «اننى استطيع القول دون مبالغة اننى رسمت ابطال كراسنودون بحب بالغ ، ومنحتهم الكثير من دم قلبى» .

وظهرت رواية «الحرس الفتى» على صفحات الجرائد والمجلات فى غضون عام ١٩٤٥ ، ثم ظهرت كاملة فى طبعة خاصة فى عام ١٩٤٦ . وسرعان ما حظيت بشهرة فائقة (وقد ظهرت بعد ذلك على شاشة السينما ، وعلى المسرح كمسرحيات درامية وكاوبرا) .

وغدت «الحرس الفتى» ذروة لذلك الحماس الاخلاقى والجمالى الذى ساد المجتمع السوفييتى وراح ينتظر من يجسده ادبيا . ذلك لان فادييف استطاع ان يجيد رسم صورة لاولئك الابطال الحقيقيين ، للمنابع الاجتماعية والاخلاقية للمقاومة الشعبية التى هبت تواجه المحتلين الفاشيست .

وكانت هذه المنابع ماخوذة من واقع النظام المعيشى للاشتراكية . ولقد اثبت فادييف بشكل لا يرقى اليه الشك ان النمط السوفييتى للحياة ، هو النمط الوحيد الذى يلائم شعبنا ، وان المثل الشيوعية هى المثل القريبة والمحببة لكل الشعب من صغيره الى كبيره .

ويجد القارئ نفسه حين يتصفح كتاب فادييف ، فى عالم رحب لحياة حرة ترفرف عليها السعادة ، حيث يعيش المواطنون السوفييت ، فى عالم يكدحون فيه بشرف ، فى عالم الجمال الاخلاقى . وكما الزنبقة التى كانت تنظر اليها اوليا جروموفا ، وكما البرارى الغارقة فى بحر من اشعة الشمس ، والتى كانت تقطعها الفتيات فى خطوات سريعة ، كان ذلك الواقع الرائع الفريد الذى اعتاده الشباب السوفييتى ، الذى شب فى احضان الاشتراكية ، تسوده علاقات الصداقة الحقة ، وروح الجماعة والعون المتبادل . وكان فى «النظم» الفاشية ثمة ما يجعل الشعب ينظر اليها كشىء يتسم بالوحشية والبعد

عن الواقع . فقد كان سكان كراسنودون يعتبرون «خدمة الالمان . . . شيئا غير طبيعي وغير مريح كالسير على اربع» . وغـــدت ضرورة الدفاع عن النمط السوفييتي للحياة ، اولى مطالـــب الانســـان السوفييتي .

وكما ابدع المؤلف ، ارتبطت في المجتمع السوفييتي بخيوط من الدماء تقاليد الآباء والاخوة الكبار باعمال وافكار الشباب . ولقـــد اطلق اوليج كوشيفوي على نفسه اسم «كاشوك» – وهو لقب زوج امه الذي شارك في نضال الانصار ايام الحرب الاهلية . وقد تصدرت هذه الرواية كلمات اغنية رددتها الالسنة ابان سنوات الثورة : «الى الامام يا رفاق هبوا كي نلاقي الفجر !» . كانت الفتيات في السجن يرددن اغنيات الماضي الثورية ، وكان فتيان وفتيـــات «الحرس الفتي» يرددونها حين يقتادونهم لينفذوا فيهم حكم الاعدام .

لقد عكست الرواية احد المشاهد الخالدة للحرب الوطنية مثلها مثل الشمس التي انعكست في نقطة مياه ، عكست روح وطابع العصر الثوري بأسره الذي كان فاديف معبرا عنه . وعبثا ينسى البعض ما في «الحرس الفتي» من تعميم فني بلغة الكاتب . وكانت الطبعة الاولى للرواية تفرد مكان الصدارة عن حق لنماذج «الحرس الفتي» ، كما افردت مكانا هاما للجيل السابق للحديث عن نشاط الجيش الاحمر ، ولتأمل احداث الحرب . واحقاقا للحق نقول ان نماذج البلاشفة القدماء لم تجد المكان اللائق بها في الطبعة الاولى ، وتحت تأثير النقد ادخل الكاتب فيما بعد بعض التغييرات على خطوط الرواية . ويرجع سبب ذلك الى ان فاديف حين عكف على كتابة الرواية لم يكن يعلم شيئا عن قادة العمل السري الذين كانوا يعملون في الخفاء . ولم يكتـــب عنهم شيئا الا فيما بعد . بيد ان مهمة الكاتب كانت من البداية وضع تصور كامل لاحداث شاركت فيها كل قطاعات الشعب وكل الاجيال .

واذ راح فاديف يعمل على تعديل بعض خطوط الرواية عـــلى اساس الوثائق التي اذيعت في نهاية الاربعينات عن اللجنة الحزبية في كراسنودون والتي كانت تعمل في الخفاء ، ظهرت طبعة عام ١٩٥١ تضم نماذج مختلفة للشيوعيين ليوتيكوف ، وبروتسينكو وغيرهما . كما عكست الرواية الصورة الحقيقية لدور الحزب الشيوعي في الحرب الوطنية . ولم يعد ذلك بالنفع على الصورة العامة لحركة الفدائيين

فقط . فقد استبعد الكاتب السمات المصطنعة والدعائية التي اتسمت بها شخصيات شباب «الحرس الفتي» ، مما يجعل القارىء يرى كيف يكمّل اعضاء كومسومول كراسنودون وقادتهم المحنكون كل منهـم الآخر .

وتعمق فاديف في السمات المميزة لذلك الجيل الذي وهب نفسه وحياته للقضية العامة .

«ان تلك السمات التي لا يمكن على ما يبدو ، ان تتوافق مثلما لا يتوافق الحلم والواقع ، رحلة الخيال والحياة العملية ، حب الخير والقسوة ، سعة الصدر والحساب الرشيد ، الحب الجارف لمباهـج الحياة والزهد في ملذاتها ، كل هذه السمات المتناقضة ظاهريا قد خلقت وجها ليس له مثيل لهذا الجيل» .

بيد ان الكاتب لم يكن ينوي الاقتصار على رسم صورة عامـــة فحسب ، اذ جعل الرواية متحفا عامرا بشتى صور الوطنيين الشباب الذين ينتمي كل منهم الى الجيل الذي سبق الاشارة اليه ، الى جانب كونهم في نفس الآن شخصيات فريدة متباينة رائعة .

فقد كان اوليج كوشيفوي انيقا وسيما تشع من شخصـــــه «النضارة والقوة والطيبة والصفاء الروحي . . .» وقد توافقـــت الاخلاقيات العالية والصراحة في شخص اوليج مع الموهبة التنظيمية الرائعة والغريبة على مثل صبي في هذه السن ، ومع الفطنة العملية .

اما سيريوجكا تيولينين ، محبوب فاديف كما ذكر بنفسه ، فلم يكن شبيها على الاطلاق بأوليج كوشيفوي . فقد كان عاجزا عن السيطرة على نفسه ، تغمره جراة لا يحكمها منطق ، يندفع دائمـا نحو العمل .

كذلك كان الامر بالنسبة للوبا شيفتسوفا «سيريوجكا تيولينين ذاته في ملابس الفتيات» : طاقة لامحدودة ، وحماس فائق النظير ونشاط هائل . «كانت اعماق روحها جياشة بشيء متعدد الالوان ، يرقص ويغني تارة ، ليتأجج كما النيران على حين غرة تارة اخرى . ثمة شيء حي كان يجعلها لا تعرف الى الراحة سبيلا . كانت متعطشة لبلوغ المجد ، تراودها رغبة جارفة في التضحية بذاتها . كانـــت البسالة اللامحدودة والشعور بالسعادة الطفولية المشاكسة الثاقبـة تدعوها وتلح في الدعوة عليها للتقدم نحو الامام والارتقاء الى الاعلى

حتى تحفل حياتها دائما بالجديد ، وما يمكن ان تصبو اليه نفسها» . سارت الى ساحة الاعدام مرفوعة الهامة بشكل يدعو الى الفخر . وعندما ارادوها ان تركع حتى يطلقون الرصاص على ظهرها ، استدارت لوبا لتواجه رصاصة الفاشيست التى انهت حياتها .

وكانت اوليانا جروموفا البطلة الثانية للرواية على نفس القدر من البسالة . بيد انها لم تكن تشبه لوبا شيفتسوفا من حيث مكونات شخصيتها . فقد كانت اوليانا ذات طابع متزن هادىء تملك زمام السيطرة على نفسها . كانت تملك قدرا هائلا من الرغبات الحقيقية التى لم تكن تظهر الا فى لحظات المد الروحى . لقد كان الجوهر الداخلى لاوليا جروموفا يتفق مع مظهرها الخارجى . «. . . كانت الفتاة الهيفاء فارعة القامة ذات ضفيرتين سوداوين كثتين ، وعينين تشعان ضوء قويا ناصعا تارة ، وتبدوان مفعمتين بقوة غامضة تارة اخرى . . .» .

بيد ان فادييف بالرغم من اعجابه بابطاله الفتيان لم يشا وصفهم بأية سمات تجعلهم بعيدين عن ارض الواقع . وكانت **غرابة الشىء المالوف** هى جوهر رومانتيكية فادييف . فقد كان ابطاله البسطاء المتواضعون الذين لا يوجد ما يميزهم عن اقرانهم ، اناسا ذوى امكانيات اخلاقية عالية .

لقد كان فادييف ذلك الفنان الفريد ، قريبا فى ذات الوقت ، من جوركى فى سعيه للتركيز على هذه الامكانيات وعلى قوة وجمال السمات الجديدة للانسان المناضل المحب للعمل .

وذكر فادييف ذات مرة : «ان الحرس الفتى هم بالطبع شباب وفتيات سوفييت طليعيون وفى نفس الوقت متواضعون بسطاء . . . لكن الحياة ، كما تعلمون ، تكون «ملطخة» بالكثير من توافه الامور وعوارضها . . . وليس الفنان ملزما على الاطلاق بسردها ، ولا سيما اذا تطلب الامر تصوير المرء خلال فترة حرجة وحادة من فترات حياته حين تتجلى اقوى الجوانب فى شخصيته . اولا تعلمون ان المرء الحقيقى يبدو فى اجل جوانب شخصيته حين يقف وجها لوجه امام المحن الكبيرة ؟

وبذا يتضح ان القضية ليست فى المثالية ، بل فى طريقة تصوير الانسان . انكم حين تودون رسم شخصية انسان تحبونه ، وتصوير

واقعه وسماته الحقيقية لا يعنى ان يكون ذلك الزاما بغض الطرف عن سلبياته ، بل يعنى الا تصرف طريقة تصوير هذه السلبيات القارىء عن حب هذا المرء» .

لقد واصل فادييف فى رواية «الحرس الفتى» النضال الذى خاضه طوال حياته ضد اعداء الثورة والنظام السوفييتى . وقد وصف الكاتب بغضب ، وان تجنب التطرف فى سرد التفاصيل ، التعذيب والتنكيل الذى تعرض له الوطنيون السوفييت على يد المحتلين ، والاهوال داخل اسوار سجون الجستابو ، وعمليات الاعدام الرهيبة . لقد فضح التشابه العضوى لتلك الاساليب الفاشية مع الاساليب التى تعترف بشرعيتها الامبريالية العالمية . يقول فينبونج رجل «اس اس» الالمانى فى حديث له مع «جنتلمان» امريكى تصوره جدلا ، ان كل منهما يسرق ويثرى ، بيد ان «رجال الاعمال» يفعلون ذلك «قانونيا» ، بينما الالمان الفاشست ياتون ذلك بقوة السلاح .

لقد تجلت بشكل رائع شهامة المواطنين السوفييت فى مقاومتهم للفاشية المتوحشة . كما ان كون انتهاء الرواية باستشهاد ابطالها الفتيان يجعل الالم يعتصر قلب القارىء بشكل بالغ . لكن قائمة اسماء ابطال «الحرس الفتى» الشهداء التى تختتم بها الرواية صفحاتها لا تعنى فقدان الامل . ان «الحرس الفتى» مأساة كبيرة تجعل القارىء اكثر نقاء روحيا وتساميا لانها تمجد البسالة والصمود البشرى ، وتدعو الى المقاومة المتفانية للشر ، والى النضال فى سبيل المثل العليا السامية . وفى ذلك انسانية الرواية النضالية الواقعية .

ان رواية فادييف ظاهرة ادبية شاذة فريدة . ففيها تتجسد الحقيقة المرة للحياة وتعمر بالتفاصيل الغزيرة ، وتعكس التصاعد الرومانسى للرواية ، وصفاء نفسى رقيق وعاطفة وجدانية جياشة وتامل فلسفى عميق عن الحياة وعن الناس وعن النفس . انها عبارة عن مواقف نفسية من وحى خيال المؤلف ، عن تغير النفس البشرية كما تصور فادييف ذلك . . والى جانب ذلك انها تسجيل وثائقى صارم .

واذ تتبع الكاتب سير الاحداث الواقعية ، لم ير ممكنا عرقلة سيرها الطبيعى وتغيير طباع البشر . بيد ان فادييف اكد فى ذات

الوقت انه «لم يسجل التاريخ الحقيقى للحرس الفتى ، بل كتب رواية لا تفترض الخيال وحسب ، بل وتشترط وجوده» .

ولم يستطع فادييف حين سجل ملحمته الاقتصار على الشخصيات التاريخية فقط ، بل وضم اليها من وحى خياله عددا من النوعيات (شولجا وبروتسينكو وستاخوفيتش وغيرهم كثيرين) .

واذا تعرضنا لموضوع الشخصيات الحقيقية والخيالية ، نجد من الضرورى الاشارة الى نموذج منها كان محل غموض وتفسيرات متضاربة . هذا النموذج هو ستاخوفيتش ، ذلك الشخص الذى خان «الحرس الفتى» ، وتمثل فى فيكتور تريتياكيفيتش الذى اشار اليه السفاحون الهتلريون بوصفه احد الخونة حين مثلوا امام المحكمة السوفييتية . ولم يقتصر فادييف على مجرد تسمية هذه الشخصية باسم آخر ، بل صنع منه نموذج الخائن . ولا يمكن لنا سوى تسجيل اعجابنا باحساس الفنان الحقيقى الذى لم يتقبل الاقوال المجردة من الدليل والخاصة بتريتياكيفيتش . ومضى ستة عشر عاما ليتضح لنا ان الهتلريين قد افتروا كذبا على هذا الشاب . وفى حقيقة الامر كان فيكتور متماسكا صامدا حين استجوابه ولقى حتفه كما الابطال . ولم يخن «الحرس الفتى» سوى شخص يدعى جينادى بوتشيبتسوف الذى ابتاعه الفاشيست بوعودهم له بالمكافآت . واكتشاف الحقيقة التاريخية لا يعنى باى حال من الاحوال اعادة النظر فى تقديراتنا لاى من شخصيات الرواية التى نسجها المؤلف طبقا لقانون التعميم الفنى .

لقد اعطت قوة التعميم الفنى طول العمر لابطال فادييف . ان ابطال «الحرس الفتى» يواصلون حتى يومنا هذا خدمة قضية الحرية ، واعلى مثل التقدم الاجتماعى . ان كلمتى «الحرس الفتى» تتحدان دوما مع النضال من اجل حرية وسعادة الشعب . لقد اطلق الشباب الكوريون اسم «الحرس الفتى» على منظمتهم السرية المكافحة من اجل حرية واستقلال وطنهم . كما اطلق هذا الاسم على فصائل جيش التحرير الشعبى الفيتنامى . ان اصحاب الارادة الحرة الطيبة فى كل انحاء العالم يعلنون بكل فخر ان مآثر الابطال من امثال «الحرس الفتى» تلهمهم فى احلك لحظات نضالهم .

وليس عبثا ان نجد الحرس الفتى متمثلا اليوم فى حياة البلاد السوفييتية . ففى مدرسة كراسنودون لا يتمتع بحق الجلوس على المقاعد التى كان يجلس عليها اوليج كوشيفوى ورفاقه سوى اكثر التلاميذ نموذجية . ان شباب «الحرس الفتى» مسجلون فى سجلات فرق عمال المناجم وعمال البناء فى كراسنودون وتخصص رواتبهم التى تمنح لهم لدعم صندوق السلام .

وتمر السنون وعشرات السنين وتظل ذكرى الابطال باقية لا تخبو بل على العكس تعيش فى قلوب المعاصرين وفى ارواحهم ، ويرجع الفضل الكبير فى ذلك الى الكسندر فادييف ملهم الانسان المعاصر .

فيتالى اوزيروف

الحرس الفتى

الجزء الاول

الى الامام يا رفاق هبوا كى نلاقى الفجر
وبالحراب والرصاص شقوا دربكم فى الصخر
وليعل فى ذرى الاكوان سلطان العمل
وليصبح الجميع اسرة وحّدها العمل
الحرس الفتى للعمال والزراع هبّ للقتال !
نشيد الشباب

الفصل الاول

– هوه . . هوه . . فلتنظرى يا فاليا الى هذه الاعجوبة ! رائعة ! كما المنحوتة ! انها ليست من المرمر او الالاباستر ، انها شيء حي . . لكن يا لها من باردة ! وكم هي رفيعة رقيقة ! ما من يد بشرية تستطيع ان تصنع مثلها ! انظرى كيف تستقر على سطح الماء ، نظيفة ، دقيقة لا تبالى . . انظرى الى صورتها المنعكسة كم يصعب تحديد ايهما اروع . . الصورة ام الاصل ؟ والوانها ؟ فلتنظرى . . انها ليست بيضاء . . لا انها بيضاء على نحو يتدرج الى الاصفر والوردى والسماوى . كما انها تبدو من الداخل كاللؤلؤة ، يعشى الابصار لونها المشبع بالندى . لا . . ان البشر لم يجد بعد مثل هذه الالوان ، ولم يتوصل بعد الى تسميات لها !

هذا ما تفوهت به الفتاة ذات الضفيرتين المتموجتين السوداوين التى اطلت على النهر من بين شجيرات الصفصاف فى بلوزتها الناصعة البياض وقد اتسعت عيناها الرائعتان فجاة تحت وقع الضوء المتدفق ودمعتا لدرجة غدت معها اشبه بتلك الزنبقة الطافية على المياه الداكنة .

واجابتها فاليا التى اطلت على النهر فى اثرها :

– اهذا وقت الغزل ! يا لك من عجيبة يا اوليا !

وقد كانت فاليا عريضة الفكين بعض الشيء ، فطساء الانف قليلا ، لكن الصبا والوجه الذى ينم عن طيبة اضفيا عليها ملاحة ووسامة . وراحت الفتاة دون ان تنظر الى الزنبقة تجيل النظر قلقة بحثا على الشاطيء عن الفتيات اللواتى تخلفت عنهن وتناديهن :

– اوو . .

واجابتها اصوات قريبة :

– اوو . . اوو . . وو . .

وصاحت فاليا وهى تنظر الى صديقتها فى حب وتندر :

– اقبلن . . لقد وجدت اوليا زنبقة .

وفى تلك اللحظة تعالت اصوات قصف مدفعية ، كالرعد بعيدة ، من هناك . . من الشمال الغربى بالقرب من فوروشيلوفجراد .

– مرة اخرى !

– نعم مرة اخرى – اجابتها اوليا بصوت لا يكاد يسمع بينما خبت جذوة الضوء الذى كان يتدفق من عينيها .

وقالت فاليا :

– أيمكنهم اقتحامها هذه المرة ؟ ! يا الهى . هل تذكرين كيف عانينا فى العام الماضى ؟ بيد ان كل شىء انتهى رغما عن ذلك على ما يرام . صحيح انهم لم يكونوا قريبين هكذا فى العام الماضى . أتسمعين القصف ؟

وسكنت الفتاتان تصيخان السمع .

وانطلقت اوليا تقول بصوت متحشرج تنم نبراته عن القلق :

– عندما اسمع ذلك القصف وأرى السماء ناصعة ، واغصان الاشجار ، وادوس باقدامى الحشائش التى بعثت الشمس بالدفء اليها وترامت رائحتها طيبة ، اشعر بالم بالغ وكانما فارقنى كل ذلك الى الابد . . الى الابد . يبدو ان روحى تحجرت من جراء هذه الحرب . عوّدتها على الا تتقبل ما من شانه ان يجعلها رقيقة . وفجاة يتدفق الحب وتنساب الشفقة خيال كل شىء ! اوتعرفين يا فاليا انه ليس لدى غيرك افاتحه فى ذلك .

وتقارب وجهاهما بين الشجيرات قريبا قريبا حتى اختلطت انفاسهما معا ، وراحتا تحدقان النظر كل فى عينى الاخرى .

كانت فاليا ذات عينين صافيتين عريضتين تتسمان بالطيبة تستقبلان نظرات صديقتها فى طاعة وولع . بينما كانت عينا اوليا واسعتين عسليتين طويلتى الاهداب ناصعتى البياض ، ذاتا حدقتين سوداوين لا تعرف كنههما ، ينبعث من أعماقهما على ما يبدو ، ذلك الضوء القوى الرطب .

وعلى وجهى الفتاتين كانت تنعكس كما الظلال المتراقصة اوراق الاشجار التى تمايلت بعض الشىء تحت وقع قصف المدفعية المدوى بعيدا والمؤثر حتى فى ذلك المنخفض .

وراحت اوليا تتساءل بصوت خفت نبرته :

– الا تذكرين كيف كان مساء الامس طيبا فى البرارى . . هل تذكرين ؟

وهمست فاليا :

– اجل ، وهل تذكرين غروب الشمس ؟

– نعم ، نعم . ان الجميع يلعنون برارينا . يقولون انها مملة صهباء . . اكمات ثم اكمات لا تصلح للسكنى . ومع ذلك احبها . اذكر ايام كانت امى ما تزال فى كامل قواها ، تعمل احيانا فى حقول البطيخ ، بينما كنت أنا الصغيرة جدا أستلقى على ظهرى أحدق فى السماء وافكر الى اى حد منها يستطيع نظرى الوصول . . هل تدركين . . الى اعلى الأعالى ! وبالامس داخلنى الألم حين رحنا نتطلع الى الاصيل ثم الى الخيول المبتلة والى المدافع والعربات والجرحى . . . ان المقاتلين يسيرون وقد انهكت قواهم وعلاهم الغبار . لقد ادركت تماما ان ذلك ليس على الاطلاق اعادة حشد قوات بل انه انسحاب مريع . . نعم مريع . ولذا كانوا يتحرجون النظر الينا . هل لاحظت ذلك ؟

واومات فاليا برأسها فى صمت .

وقالت اوليا وثمة ضوء كئيب باهت يتساقط على عينيها :

– اننى ما ان القيت بنظرى على البرارى حيث صدحنا بالكثير من الاغانى ، والى الغروب ، حتى امسكت نفسى بالكاد عن ذرف الدموع . وهل رايتنى اذرف الدمع كثيرا ؟ وهل تذكرين كيف راحت الظلمة تلف المكان ؟ . . انهم يسيرون ، يسيرون تكتنفهم ظلمة الليل ، بينما يدوى هذا الهدير وتبدو هذه الومضات والهالات فى الافق ، ومن المؤكد ان يكون ذلك فى روفينكى حيث يبدو الاصيل ثقيلا ارجوانيا . انك تعلمين اننى لا ارهب شيئا فى هذه الدنيا ، اننى لا اخاف نضالا او مصاعبا او آلاما ، بيد اننى تواقة لمعرفة ما يجدر بنا عمله . . فثمة شىء رهيب يجثم فوق ارواحنا .

وعلقت فاليا على ذلك قائلة ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

– اوه . . كم كانت حياتنا طيبة . . اليس كذلك يا أوليتشكا ؟

واجابت اوليا :

– لقد كان كل البشر على سطح البسيطة قادرين على العيش فى هناء لو كانوا يريدون ذلك او يدركونه . – واستطردت تقول عندما سمعت اصوات الصديقات ، بترنم وفى صوت طفولى يتباين تماما عن صوتها الحقيقى ، بينما ارتسمت على عينيها امارات تعبر عن شقاوة :

– لكن ما العمل ، ما العمل ؟ !

وانتزعت حذاءها الذى كانت قد انتعلته فى قدمين عاريتين ، وامسكت طرف جونلتها الداكنة بيدين صغيرتين لفحتهما الشمس واندفعت الى المياه فى جسارة .

وصاحت فتاة نحيفة لدنة القوام تعكس عيناها امارات جسارة صبيانية ، فيما هى خارجة على التو من وراء الشجيرات :

– ايتها الفتيات ! . فلتنظرن . . زنبقة !

وزعقت تقول : «لا . . انها لى» وهى ترفع ذيل جونلتها بكلتا يديها فى حركة فجائية لتبدو قدماها الحافيتان اللتان لفحتهما الشمس ، وتقفز الى المياه لتطرطش على نفسها واوليا بمروحة من المياه ذات اللون الكهرمانى .

وقالت ضاحكة حين تعثرت وغاصت احدى قدميها فى الأعشاب المائية :

– أو . . هوه . . ان المكان هنا لعميق !

وهرولت الفتيات – وكان عددهن ستا – الى الشاطئ يصحن فى جلبة . وكن جميعا مثلهن مثل اوليا وفاليا وساشا النحيفة التى قفزت الى المياه منذ لحظات ، يرتدين جونلات قصيرة وبلوزات بسيطة . وكان لونهن الطبيعى قد تغير حيث تركت رياح دونيتسك الساخنة وشمسها الحارقة بصماتهما كما لو كان ذلك عن عمد لتغدو احداهن ذهبية ، والاخرى قمحية والثالثة محمصة اللون كالخارجة توا من جرن المعمودية .

وكما كل فتيات البسيطة ، حين يجتمع منهن اكثر من اثنتين ، رحن يتحدثن بصوت عال دون ما ضابط لا تستمع احداهن للاخرى ، وبعصبية بالغة كانما كن يرغبن فى ان يستمع العالم اجمع الى كل كلمة يتفوهن بها .

– . . . لقد قفز بالمظلة . . يا الهى ! انه جميل مجعّد الشعر . . اشقر . . اما عيناه فكانتا مستديرتين صغيرتين .

– اننى لا استطيع العمل كممرضة . . حقا اقول . . اننى لا اطيق منظر الدم !

– هل تظنين حقا انهم سوف يتخلون عنّا ! اى كلام تقولينه ! ان هذا شىء غير معقول !

– اوه يا لها من زنبقة .

– يا مايا تشكا . . يا ايتها الغجرية ، ماذا انت فاعلة ان تخلّوا عنّا ؟

– فلتنظرى . . يا لها ساشا !

– انا اقع فى حبه ؟ ماذا تقولين . . ماذا تقولين !

– اولكا ، يا ايتها الطائشة ، الى اين تزحفين ؟

– سوف تغرقن ، ايتها المجنونات !

كن يتحدثن بلكنة أهل الدونباس الجافة بعض الشىء والتى تشكلت من اختلاط لهجة المحافظات الروسية الوسطى واللهجة الشعبية الاوكرانية ولهجة قوزاق الدون ولكنة سكان موانئ بحر آزوف – ماريوبول وتاجانروج وروستوف على الدون . بيد انه مهما كان حديث الفتيات فى كل انحاء الارض ، فان كل ما يتفوهن به يبدو جميلا لطيفا .

– اوليتشكا ، هل انت فى حاجة اليها ايتها الدرّة ؟ – هذا ما ندا عن فاليا وهى ترمق فى قلق بعينيها الواسعتين ، اللتين تتسمان بالطيبة ، كيف غمرت المياه ليس فقط سمّانتى رجلى زميلتها بل ووصلت حتى ركبتيها البيضاوين .

واذ راحت تتحسس اوليا باحدى قدميها قاع النهر الحافل بالنباتات المائية وترفع ذيل جونلتها حتى بدت من تحته اطراف سروالها الاسود ، تقدمت ومالت بقدها الفارع لتتلمس الزنبقة بيدها الاخرى . وسقطت احدى ضفيرتيها السوداوين ذات النهاية الموبرة الى الماء ، بيد انها فى تلك اللحظة بذلت آخر ما فى وسعها لتمسك بأناملها الزنبقة وتقتلع ساقها الطويلة جدا .

وقالت ساشا وهى تحدق صاحبتها بعينيها الكستنائيتين الصبيانيتين وتقف فى المياه التى بلغت سمّانتى قدميها :

– برافو اولكا ، انك جديرة بعملك هذا للحصول على لقب بطل الاتحاد . . ليس الاتحاد السوفييتي بأسره بل لنقل اتحادنا نحن الفتيات ، من حي «بيرفومايكا» . هاتي الزهرة .

واذ امسكت ساشا جونلتها بين ركبتيها ، وثبتت بيديها الرقيقتين الماهرتين الزهرة في شعر اوليا الاسود المتموج قائلة :

– كم يناسبك هذا . انني احسدك . – وفجأة توقفت تقول وهي ترهف السمع :

– انصتي . . ثمة اصوات تتردد في مكان ما . . هل تسمعنني ايتها الفتيات ، يا للعنة !

وهرولت ساشا واوليا تخرجان من المياه نحو الشاطئ .

ورفعت كل الفتيات رؤوسهن يتسمعن هديرا متقطعا ، تارة رفيعا ، واخرى خافتا ، في محاولة منهن لاكتشاف مكان الطائرة في الجو القاتم .

– انها ليست طائرة واحدة . . بل ثلاث !

– اين هي . . اين ؟ انني لا ارى شيئا .

– انني ايضا لا ارى شيئا . . انني اسمع اصواتها فقط .

وكانت اصوات المحركات المتذبذبة تختلط في هدير واحد متصل رهيب ، وآخر متقطع خافت احيانا . وكانت الطائرات تهدر فوق رؤوس الفتيات دون ان تظهر للعيان ، الا ان ظلال اجنحتها مرقت لتغشى اوجه الفتيات .

– من المؤكد انها متجهة الى كامينسك لقصف المعبر . . .

– او الى ميلليروفو .

– اية ميلليروفو ! لقد سلّموها . . الم تستمعي الى نشرة الاخبار يوم امس ؟

– الامر سيان . ان المعارك تدور في الجنوب .

– وماذا علينا ان نفعل ايتها الفتيات ؟ . .

هكذا تساءلت كل منهن وهي تنصت رغما عنها الى قصف المدفعية الذي يترامى على البعد وبدا وكانه يقترب منهن .

وايا كانت الحرب رهيبة او عصيبة ، وايا كانت جسامة الخسائر وهول المعاناة التي تصيب البشر ، فان الصبا بما يتسم به من فتوة وحب للحياة ، ومن انانية ساذجة غير شريرة ، وعشق

للمستقبل والحلم به ، لا يريد ولا يستطيع ان يرى في خطر عام ومعاناة شاملة ، خطرا او معاناة يمكن ان يحيقان به هو شخصيا حتى تلسعه نيرانهما وتعكر صفو حياته المرحة .

لقد فرغت اوليا جروموفا وفاليا فيلاتوفا وساشا بونداريفا وكل الفتيات الاخريات هذا العام من دراستهن في المدرسة الثانوية في حي بيرفومايكا .

والانتهاء من الدراسة الثانوية حدث هام في حياة كل شاب ، اما الانتهاء من هذه الدراسة في سنوات الحرب فحدث غير عادي .

ومنذ بدء الحرب في الصيف الماضي راح تلاميذ الصفوف المتقدمة في المدارس ، وهم الصبية والفتيات كما كانوا يدعونهم آنذاك ، راحوا يعملون في المزارع التعاونية والحكومية المجاورة لمدينة كراسنودون وفي المناجم وفي مصنع بناء القاطرات في فوروشيلوفجراد ، بل وسافر البعض الى مصنع الجرارات في مدينة ستالنجراد الذي تحول الى صناعة الدبابات .

وفي الخريف اقتحم الالمان حوض الدونباس واحتلوا مدينتي تاجانروج وروستوف على الدون . ولم يبق من كل اوكرانيا سوى مقاطعة فوروشيلوفجراد وحدها التي لم تطأها قدم المانى ، وحيث تراجعت سلطة كييف مع وحدات الجيش . امّا مؤسسات مقاطعتي فوروشيلوفجراد وستالينو – يوزوفكا سابقا – فقد تمركزت اليوم في مدينة كراسنودون .

وقبل ان يتوغل الخريف بعيدا عن بدايته وحتى استقرت جبهة القتال في جنوب البلاد راح النازحون من مناطق الدونباس التي احتلها الالمان يعبرون شوارع كراسنودون يثيرون فيها القاذورات التي خلفتها الامطار والتي تضاعفت على ما يبدو بعد الكمية التي حملها هؤلاء النازحون في نعالهم . وكان تلاميذ المدارس قد فرغوا من استعدادهم للنزوح الى مقاطعة ساراتوف ، بيد ان عملية التهجير توقفت حيث جرى وقف زحف الالمان بعيدا عن فوروشيلوفجراد ، واستعادة روستوف على الدون من الالمان الذين لقوا هزيمتهم شتاء بالقرب من موسكو ، وبدا الجيش الاحمر هجومه مما جعل الناس يأملون في الخلاص .

وقد تعود التلاميذ على اقامة الغرباء – العاملون في المؤسسات

النازحة ومقاتلو وقادة وحدات الجيش الاحمر النازحون للاقامة او لفترة راحة اثناء طريقهم الى الجبهة – فى مساكنهم المريحة فى كراسنودون وفى منازلهم المتفرقة فى حى «بيرفومايكا» وبيوتهم المبنية بالطوب الاخضر فى حى «شانغهاى» ، فى هذه الشقق الصغيرة التى بدت مهجورة فى الاسابيع الاولى للحرب حيث هجرها الاب او الاخ الى الجبهة .

وقد تعلم هؤلاء التلاميذ التمييز بين مختلف انواع القوات والرتب العسكرية وانواع الاسلحة وماركات الموتوسيكلات وعربات النقل والركوب سواء كانت سوفييتية او اجنبية من تلك التى غنموها من العدو . وكانوا يعرفون الدبابات من النظرة الاولى، وليس فقط حين كانت هذه الدبابات تقف فى الشارع طلبا للراحة فى ظلال اشجار الحور فى خضم هواء حار انبعث من رقائقها الحارقة، بل وحين كانت تهدر فى طريق فوروشيلوفجراد ، او حين يجرونها عبر الطرق المفضية الى الغرب ، الموحلة خريفا والمغطاة بالثلوج شتاء .

وكانوا يميزون بين الطائرات السوفييتية والالمانية ليس من منظرها فقط بل وبمجرد سماع هدير محركاتها . كانوا يعرفونها فى الجو «الاحمر» المترب الذى ألهبته حرارة الشمس ، وبين النجوم ليلا فى سماء دونيتسك السوداء .

وكانوا يقولون فى هدوء :

– هذه طائراتنا «لاج» (او «ميج» او «ياك») .

– وها هى طائرات «الميسير» !

– ها هى «يو–٨٧» فى طريقها الى روستوف على الدون – وذلك بلهجة تنم عن غير مبالاة .

ولقد تعودوا على النوبات الليلية فى فصائل الدفاع الجوى والوقاية الكيميائية ، وعلى الحراسة وهم يحملون الاقنعة الواقية على اكتافهم فى المناجم وعلى اسطح المدارس والمستشفيات . ولم تكن الرهبة تساور احدا حين يتعالى هدير القصف البعيد يهز ارجاء الجو ، وتروح اشعة المصابيح العاكسة تتعامد كما الابر بعيدا فى سماء ليل فوروشيلوفجراد وهالات لهب الحرائق تظهر فى الافق تارة هنا واخرى هناك . كما لم يكن ثمة من يفزع حين تروح

قاذفات العدو تقصف فى وضح النهار أرتال عربات النقل فى البرارى ، وحين تقرقع المدافع والرشاشات فى المواقع الممتدة بمحاذاة الطريق الذى انتشرت على جانبيه الخيول هاربة والمقاتلون اتقاء للضربات ، بحيث بدا كنهر يشقه لنش سريع .

لقد احبوا الطريق الطويل الى حقول المزارع التعاونية ، والفوا ترديد الاغنيات باعلى اصواتهم تنقلها الرياح بعيدة عن عربات النقل التى تقلّهم فى البرارى . لقد احبوا موسم الحصاد الصيفى واعواد القمح التى تئن من وطأة ثقل السنابل ، واحاديث الروح الودية والضحكات التى تتردد فجأة فى اعماق الليل الهادئ فى مكان ما وسط غبار الشوفان . لقد عشقوا الليالى الساهدة على اسطح المنازل حين يستقر كف الفتاة الدافئ ساعة واثنتين وثلاث بين يدى الفتى الخشنتين ، وبينما يفرد الفجر اجنحته على التلال الشاحبة ويتالق الندى على الاسقف الرمادية الوردية وتتساقط من على اوراق اشجار الاقاصيا الى اراضى الحدائق وتتعالى رائحة جذور الزهور الذابلة العطنة ، ودخان الحرائق التى اشتعلت بعيدا ، كما تتعالى اصوات الديكة كما لو ان شيئا لم يحدث .

وها هم قد انتهوا من دراستهم فى هذا الربيع وتوادعوا مع اساتذتهم ومنظماتهم لتطل عليهم الحرب تحدق فى اعينهم كما لو كانت تنتظرهم خصيصا فى هذا الميعاد .

ففى ٢٣ يونيو تراجعت قواتنا عند محور خاركوف . وفى الثالث من يوليو تعالى كالرعد نبأ انسحاب قواتنا من مدينة سيفاستوبول بعد دفاع عنها دام ثمانية اشهر .

ستارى اوسكول وروسوش وكانتيميروفكا ومعارك غربى فورونيج واخرى عند مشارفها ؛ وفى الثانى عشر من شهر يوليو – ليسيتشانسك . وفجأة ودون مقدمات تتدفق عبر كراسنودون وحداتنا المنسحبة .

وكانت ليسيتشانسك على مقربة قريبة . وليسيتشانسك تعنى ان الغد سوف يكون فى فوروشيلوفجراد ، وبعد غد هنا فى كراسنودون . . فى «بيرفومايكا» ، فى الشوارع التى نعرف كل ركن فيها والعامرة باشجار الياسمين والليلاك التى كساها التراب وقد برزت من خلف الاسوار الخشبية ، فى حدائق الاجداد العامرة

باشجار التفاح ، فى البيوت المغلقة القارّة حيث سترة الاب معلّقة على مسمار فى الحائط ، سترته التى علّقها بنفسه عند عودته من العمل فى المنجم وقبل ان يغادر المنزل الى قسم التجنيد العسكرى ، فى نفس البيت الذى غسلت ارضيته يدا الام الحانيتان المعروقتان الى درجة اللمعان ، وسقتا تلك الوردة الصينية المستقرة على حافة النافذة وبسطتا على المائدة مفرشا تزين الزهور حواشيه ، وتفوح منه رائحة غاية فى العذوبة – فلربما يحل ذلك الالمانى الفاشى !

وفى فترة الراحة استقر فى المدينة كما لو كان الى ابد الدهر رجال الامداد والتموين الحصفاء العالمون ببواطن الامور . وكان هؤلاء يتبادلون النكات مع اهل المدينة ، يلاعبونهم الكوتشينة ، ويذهبون الى السوق يبتاعون البطيخ ، ويشرحون عن طيب خاطر الوضع على الجبهات العسكرية بل واحيانا كانوا يتنازلون عن ماكولاتهم المحفوظة لاعداد حساء الكرنب على الطريقة المحلية . وفى نادى جوركى التابع للمنجم رقم ١ وكذلك فى نادى لينين الموجود بحديقة المدينة كان يتجول كثير من الملازمين المرحين محبى الرقص ، الذين يصعب عليك معرفة ما اذا كان ذلك عن لباقة ام عن شقاوة . وكان هؤلاء يظهرون فى المدينة تارة ، ليختفون اخرى. بيد انهم كانوا دائما كثيرين ، وقد تعودت فتيات البلدة على وجوههم المتغيرة التى لوحتها الشمس والتى تبدو عليها سيماء البسالة ، لدرجة انهن كن يعتبرنهم من ذويهن .

وفجأة ودون مقدمات لم يبق لهم جميعا أثر .

وفى محطة فيرخنيدوفانايا ، تلك المحطة الصغيرة الآمنة ، حيث كان كل ساكن كراسنودون يعتبر نفسه فى منزله بمجرد وصوله اليها بعد عودته من مأمورية او رحلة او من اجازة الصيف بعد انتهاء العام الدراسى ؛ فى هذه المحطة وفى كل المحطات الصغيرة الممتدة على طول خط ليخايا – موروزوفسكايا – ستاليتجراد كان يتجمع الافراد وتكوم المعدات والذخيرة والعربات والحبوب .

وكان صياح الاطفال والنسوة ينبعث من تلك النوافذ التى تظللها نباتات الاقاصيا واشجار الحور ، حيث كانت الامهات

يعددن اطفالهن للرحيل برفقة بيت الاطفال او المدرسة ؛ وحيث كن يودعن الابنة او الابن ، وحيث الزوج او الاب الذى يودع اسرته قبيل رحيله عن المدينة مع منظمته او تنظيمه . اما فى البيوت الاخرى المغلقة تماما كان يسود هدوء اقسى من بكاء الام ، حيث ان ذلك يعنى اما ان البيت خلا تماما من سكّانه او لم يبق فيه سوى عجوز ودّعت كل افراد اسرتها ، وحيدة حزينة لا تقوى حتى على البكاء وقد تحجر الألم فى قلبها .

وكانت الفتيات يستيقظن فى الصباح على الاصوات البعيدة للمدافع ، يتشاجرن مع ذويهن فى محاولة منهن لاقناعهم بالرحيل فورا وتركهن وحدهن ؛ بينما يروح الآباء والامهات يرددون ان حياتهم قد انقضت وعلى الفتيات اعضاء الكومسومول ان يرحلن بعيدا عن الآلام والكوارث . وكانت الفتيات تتناول طعام الافطار بسرعة ، ليذهبن بعد ذلك للتزاور بحثا عن اخبار جديدة . واذ كانت الفتيات يتجمعن كسرب الطيور يعانين من وطأة حرارة الجو والفراغ القاتل ، ويجلسن فى غرفة معتمة فى ضيافة احداهن تارة ، وتحت شجرة تفاح فى الحديقة تارة اخرى ، وفى وهدة وافرة الظلال على شاطئ النهر تارة ثالثة يعانين من هواجس خفية لا تستطيع قلوبهن او عقولهن ادراك كنهها .

وها هو الامر يفرض نفسه متفجرا .

فقد اعلنت احداهن بصوت حاد ، وهى فتاة صغيرة ذات وجه عريض وانف مدبب وشعر ناعم برّاق وضفيرتين قصيرتين معقوصتين بارزتين الى الامام :

– لقد سلموا فوروشيلوفجراد ، سلّموها ويخفون الامر عنا !

وكان لقب تلك الفتاة فيريكوفا ، بينما تدعى هى زينا . بيد انه لم يكن هناك منذ سنوات طفولتها من يدعوها باسمها . . كانوا جميعا ينادونها : فيريكوفا ؛ فيريكوفا دائما .

وردت مايا بيجليفانوفا ، وهى فتاة سمراء كالغجرية منذ المولد جميلة ذات عينين سوداوين ، وقد ضغطت فى كبرياء على شفتها السفلى :

– كيف تفكرين يا فيريكوفا على هذا النحـــو ؟ ما داموا لم يذكروا لنا شيئا ، فان هذا يعنى انهم لم يسلمونها بعد !

وكانت مايا قبل تخرجها من المدرسة فى ربيع هذا العـــام سكرتيرة منظمة الكومسومول ، تعودت ان تصحح للجميع اقوالهم وان تقوّم من تربيتهم ، وبوجه عام كانت تود ان يكون كل شىء صحيحا طوال الوقت .

– اننا نعرف كل ما تستطيعيـــن قوله : «انكن لا تعرفن الديالكتيك ايتها الفتيات !» – هذا ما تفوهت بـــه فيريكوفا على نحو تقلد به مايا لدرجة ان الجميع انفجرن بالضحك ، واستطردت تقول وقد برقت عيناها المتلاصقتان وبرزت ضفيرتاها كقرنين :

– هل تظنون انهم سوف يواجهوننا بالحقيقة . . يا للسذاجة! لقد منحناهم ثقتنا . . والآن نفقد ثقتنـــا فيهم . من المحتمل ان يكونوا قد سلموا روستوف ثانية ، ولا مفر امامنا . بينما المفر امامهم هم !

وعلقت مايا على ذلك قائلة وهى تحاول الحديث بصوت عادى:

– غريب تفكيرك يا فيريكوفا ! كيف لك ان تقولى هذا ؟ انك عضو فى الكومسومول ! انك مرشدة طلائع !

وتدخلت شورا دوبروفينا تقول :

– لا تجادلينها الحديث !

وكانت شورا فتاة صموتة تكبر الاخريات سنا ، ذات تسريحة صبيانية وعينين فاتحتين تضفيان على شكلها شيئا من الغرابة ، تدرس بجامعة خاركوف . وعندما احتل الالمان خاركوف فى العـــام الماضى قبيل الدراسة ، عادت شورا دوبروفينا الى كراسنودون ، حيث يقطن ابوها صانع الاحذية . وكانت تكبر الاخريات بحوالى اربعة اعوام ، بيد انها لم تكن تفارقهن ابدا ؛ تحب خفيـــة مايا بيجليفانوفا ، وتصحبها دائما اينما كانت «كالخيط مع الابرة» ، على حد قول الفتيات .

وقالت شورا تخاطب مايا :

– لا شأن لك بها . ما دامت قد اتخذت لنفسها هذا الرداء ، فلن تغيّرينه لها انت باى حال من الاحوال .

وقالت فيريكوفا الصغيرة دون ان تعير مايا انتباها :

– لقد ساقونا طوال الصيف نحفر الخنادق . . وكم من الجهد ضيّعناه فى هذا العمل ؟ لقد اصابنى المرض شهرا بسبب ذلك . ومن يستخـــدم هذه الخنادق اليوم ؟ . . انهـــا اليوم منبت للحشائش . . أليس ذلك حقا ؟

ورفعت ساشا الفتاة النحيفـــة كتفيها النحيلتين متظاهرة بالدهشة وهى تلتهم بعينيهـــا المستديرتين فيريكوفا ، وراحت تطلق صفارة طويلة .

الاّ انه على ما يبدو لم تؤثر كلمات فيريكوفا على الفتيـــات اللواتى رحن يصغين اليها بقدر ما اثرت عليهن حالة الغموض التى سادت الموقف آنذاك .

وقالت تونيا ايفانيخينا وهى تنظر وجلة تارة الى فيريكوفـــا واخرى الى مايا :

– لا . . ان الوضع جد عصيب !

وكانت تونيا اصغرهن ، ذات ساقين طويلتين وانف ضخم وشعر غزير داكن اللون تختفى بعض خصلـــه وراء اذنيهـــا الكبيرتين . هذا بينما كانت الدموع تترقرق فى مآقيها .

وقد بدا كل شىء رهيبا لا سبيل الى تصحيحه من وجهة نظر تونيا ايفانيخينا منذ ان افتقدت شقيقتها الكبرى ليليا التى كانت تحبها ، والتى ذهبت الى الجبهة لتعمل ممرضة فى بداية الحرب . ومنذ ذلك الحين لم تكن الدموع تفارق مقلتيها .

هذا بينما كانت أوليا هى الوحيدة التى لم تشارك الفتيات حديثهن ، بل وبدت كما لو كانت لا تشاطرهن همومهن . كانت منصرفة الى حل نهاية ضفيرتها الطويلة التى غمرتها مياه النهر ، والى عصرها ثم تضفيرها . واذ راحت تعرض قدميها المبللتين الى الشمس الواحدة بعد الاخرى ، وقفت لبعض الوقت مطاطـــأة راسها الذى تزينه تلك الزنبقة البيضاء التى كانت تتناسب مع شعرها وعينيها ، كما لو كانت تستمع الى نفسها . وعندما جفت قدماها راحت تمسهما بكفها الطويلة ثم جففت اصابعها وكعبيهـــا وبحركة خفيفة مألوفة دسّت قدميها داخل حذائها .

وقالت ساشا وهى الفتاة النحيفة القوام :

– آه . . يالى من حمقاء . . ! اننى لست أدرى سر عـــدم

التحاقى بالمدرسة المهنية التخصصية . – واستطردت تقول فى سذاجة وهى ترمى الجميع بنظرة لامبالية : – لقد عرضوا على الالتحاق بالمدرسة التخصصية التابعة لمفوضية الشعب للشئون الداخلية ، وكان يمكننى البقاء هنا ، فى مؤخرة الالمان ، ولم تكنْ لتعرفن شيئا حول هذا الموضوع . لقد كان يمكن ان تمتن كمدا بينما استطيع الآ أعير الامر انتباها : «ما هذا الهدوء الذى يعترى ساشا» . لقد اتضح اننى باقيـــة هنا بتكليف من مفوضيـــة الداخلية . – وفجـــأة اطلقت زفرة وهى تنظر الى فيريكوفـــا واستطردت تقول :

– لقد كنت قادرة على خلب لب هؤلاء الحمقى من الجستابو حسبما اريد !

ورفعت أوليا راسها وراحت تحدق النظر فى ساشا ، بينما اصابت الرجفة وجهها ولست ادرك بالتحديد ، شفتيها ام انفها الرقيق .

وقالت فيريكوفا بلهجة غاضبة :

– اننى سوف ابقى دون حاجة لمفوضية الشئون الداخلية . وما دام امرى لا يهم احدا ، فسوف ابقى لاعيش كما كنت اعيش قبل ذلك . وماذا فى ذلك ؟ اننى تلميذة ، وطبقا للمفاهيم الالمانية تلميذة المدرسة الثانوية ، وعلى اى حال فهم قوم مثقفون ، فماذا هم فاعلون بى ؟

وفجأة صاحت مايا وقد علا الاحمرار وجهها :

– اية تلميذة ثانوى ؟

– تلميذة ثانوى . . يا سلام – قالتها ساشا وهى تقلـــد فيريكوفا مما دفع الفتيات الى ان ينفجرن بالضحك .

وفى تلك اللحظة دوى صوت رهيب هز الارض والسماء وصمّ آذانهن ، وجعل اوراق الاشجـــار تتساقط وكذلك التراب الذى تراكم على جذوعها ، حتى المياه اصابها تموج خفيف .

وعلا الشحوب أوجه الفتيات ، ورحن لعدة ثوان يحدقن النظر كل فى وجه الاخرى . وتساءلت مايا :

– أحقا يكون قد القى بحمولته فى مكان ما ؟ !

وقالت تونيا ايفانيخينا التى كانت دائما اول من تدرك قرب الكارثة ، وقد اتسعت عيناها :

– لقد مرّت الطائرات منذ فترة ، ولم نسمع هدير غيرها .

وفى تلك اللحظة زلزل الضاحية دوى انفجارين – الاول على مسافة قريبة ، بينما كان الآخر الذى اعقبه بثوان على مسافـــة ابعد قليلا .

ودون اتفاق اندفعت الفتيات يهرولن الى المستعمرة ، تمرق أقدامهن بين الشجيرات دون ان يند عن احداهن اى صوت .

الفصل الثانى

راحت الفتيات يقطعن برارى الدونيتس التى احرقتها اشعـــة الشمس وداستها قطعان الخرفان والأغنام لدرجة جعلت الغبـــار يتصاعد من تحت الاقدام . ولم يكن لامرئ ان يصدق ان اولئك الفتيات كن منذ لحظات فى احضان الطبيعة الخضراء . وكان الوادى حيث انساب النهر وعلى شاطئيه شريطان ضيقان من اشجـــار الغابات ، عميقا لدرجة ان نظر الفتيات اللواتى ما ان ابتعـــدن حوالى ثلاثمائة – اربعمائة خطوة ، لم يبلغ واد او نهر او غابة ، حيث وكأنما ابتلعتها البرارى .

ولم تكن هذه برارى مستوية كبرارى استراخان او سال ، بل كانت غارقة فى التلال والوهاد ، بينما ارتفعت بعيدا عنـــد الجنوب وعند الشمال قمما تناطح السحاب تحيط بغور عميق يرتع فى ارجائه هواء لا تطاق سخونته ، وكأنما فى طبق سماوى اللون .

وتارة هنا واخرى هناك تراءت على سطح هذه البـــرارى الزرقاء المحروقة ، وعلى التلال وفى المنخفضات مستعمرات المناجم والاكواخ بين الحقول الصفراء والخضراء الداكنة وغير الداكنـــة لنباتات القمح والذرة وعبّاد الشمس والبنجر ، وابنية المناجم المنعزلة ، وقد تكومت الى جوارها مخلفات المناجم داكنة الزرقة عالية تبدو على نحو مخروطى .

وعلى طول الطرق الممتدة بين القرى والمناجم ، كانت تتحرك

مجموعات النازحين عسى ان تصل الى الطرق المؤدية الى كامينسك او الى ليخايا .

وتعالت الى الاسماع هنا فى البرارى المكشوفة اصوات معركة ضارية تدور على البعد ، وبالادق معارك كثيرة ، صغيرة وكبيرة تحتدم فى الغرب ، وفى الشمال الغربى وفى مكان ما بعيـــدا فى الشمال . وتصاعد دخان الحرائق البعيدة بطيئا الى السمـــاء ، واحيانا سحبا تفرقت فى الافق تارة هنا واخرى هناك .

وما كادت الفتيات يبتعدن عن الغابة حتى وقع نظرهـن على ثلاث بؤر من الدخان – بؤرتان قريبتان والثالثة بعيدة – فى حدود المدينة التى لم تكن قد ظهرت بعد من خلف التلال . وكان هذا دخانا رماديا خفيفا لم يكن ليسترعـــى الانتباه ، لو لم تتعالى اصوات هذه الانفجارات ، ولو لم تشم الفتيات تلك الرائحة التى تشبه رائحة الثوم والتى كانت تتعالى اكثر كلما اقتربن مـــن المدينة .

واعتلت الفتيات التـــل الدائرى المواجـــه لمستعمـــرة بيرفومايسكايا لتتراءى امام أعينهن المستعمرة المنتشرة مساكنها بين الروابى والوهاد ، وطريق فوروشيلوفجراد الممتد بطـــول سلسلة التل الطويل الـــذى يفصل ما بين المستعمرة ومدينـــة كراسنودون . كما تراءت بطول هذا الطريق الوحدات العسكرية وقوافل المهاجرين ، وكذلك العربات التى راحت تمرق على الطريق مطلقة آلات التنبيه بشكل مزعج . وكانت تلك العربات ما بيـــن مدنية وعسكرية خضراء اللون للتمويه ، مصابة برضوض يعلوها التراب ، عربات نقل وركوب واسعاف . .كما وكانت تتصاعـــد بطول الطريق اعمدة الغبار الاصفر التى أثارتها الاقدام والعجلات .

وهنا حدث المستحيل ، وما لا يدرك كنهه انسان فقد تمايل بناء المنجم رقم ١ المشيد بالاسمنت المسلح ، والذى كان أعلى أبنية المدينة ، حيث كان يتراءى للاعين من الجانب الآخر مـــن الطريق .. وقد غطت المروحة الكبيرة من التربة التى كانت ترفرف عاليا فوق الصخرة ، هذا المبنى للحظة ، كما تعالى دوى يمـــلأ الفضاء ويهز الارض تحت اقدام الفتيات مما اثار الرعب فى قلوبهن. وعندما انقشع الغبار وصفا الجو لم يكن هناك اثر لذلك المبنى .

لقد كان المخروط الترابى العالى لا يزال ثابتا مكانه ، داكنا يلمع تحت وهج اشعة الشمس ، بينما كانت ثمة اعمدة من الدخـــان الاصفر المشوب بالقاذورات تخيم فوق مكان ذلك المبنى . وفوق الطريق ومستعمرة بيرفومايسكايا التى تعكر صفوها ، والمدينـة التى لا تراها الاعين من ذلك المكان وفوق كل العالم المحيط خيّم صوت متصل اشبه بالأنين الذى تشوبه اصوات بشرية بعيدة ما بين باكية ولاعنة ومتاوهة من شدة الألم .

وانهار كل هذا ، العربات المارقة ، والبشر السائر قافلة لا نهاية لها ، وهذا الانفجار الذى هز الارض والسماء وبناء المنجم الذى لم يعد له اثر ، فوق كاهل الفتيات شعورا مروعا رهيبا فى لحظة واحدة . وفجأة تفجرت كل المشاعر المختزنة فى داخلهن فى شعور واحد يصعب التعبير عنه اعمق واقوى من الخـــوف على النفس – شعور بالفناء . . شعور بالنهاية !

– انهم يفجرون المناجم ايتها الفتيات !

صاحت احداهن ، وكانت على ما يبدو تونيا ايفانيخينا ، لكنها كانت صيحة أشبه بنباح تفجرت عنه روح كل منهن .

– انهم يفجرون المناجم يا فتيات !

ولم تند عنهن اية كلمة خلاف ذلك ، لم تستطع اى منهـن التفوه بشىء . وتفرقت المجموعة ، لتهرول غالبيتها الى منازلهـن بالمستعمرة ، بينما تعجلت مايا واوليا وساشا الخطى عبر الممر القريب الذى يقطع الطريق الى المدينة ، يقصدن لجنة المنطقـــة للكومسومول .

بيد انه فى تلك اللحظة التى راحت فيها الفتيات يتفرقـــن مجموعتين دون اتفاق مسبق ، امسكت فاليا فيلاتوفا على حين غرة بيد صديقتها الحبيبة لتقول متوسلة بصوت وجل :

– اوليتشكا . . اوليتشكا ! الى اين انت ذاهبة ؟ هيا بنـا الى المنزل . . . – وتوقفت قليلا ثم استطردت تقول – من الجائز ان تحدث امور اخرى . . .

والتفتت اوليا بجذعها اليها ونظرت صامتـــة اليها ، لا . . ليس اليها بل يعبرها الى الافق البعيد . . البعيد ، ترتســـم فى

عينيها السوداوين نظرة جامحة ، كما لو كانت تطير . ومن المؤكد ان الطيور تتسم حين تحلق بمثل هذه النظرة .

– فلتنتظرى يا اوليتشكا ! – هذا ما قالته فاليا متوسلة وهى تمسك بها بيد ، بينما راحت الاخرى تنتزع الزنبقة بحركة سريعة من شعرها الاسود الداكن الاجعد والقت بها الى الارض .

وقد حدث هذا بسرعة لدرجة لم تستطع معها اوليا التفكير فقط فى السبب الذى دعا فاليا لاتيان مثل هذا التصرف ، بل ولم تلحظ حتى ذلك . وها هما وبلا وعى تنصرفان كل منهما فى اتجاه يخالف الاخرى لاول مرة طوال سنى صداقتهما .

نعم ، لم يكن هذا امر يصدقه عقل ، الا انه كان الواقع ، فعندما عبرت الفتيات الثلاث وعلى رأسهن مايا بيجليفانوفا الطريق تاكدن من عدم وجود بناء المنجم رقم ١ الجميل الانيق بكل اجهزة الرفع الخاصة به ؛ ولم تكن هناك سوى اعمدة الدخان الرمادى الاصفر ترتفع عاليا الى السماء تفوح منها رائحة نفاذة اشبه برائحة الثوم .

وتعالى دوى انفجارات جديدة تهز الارض والسماء هنا وهناك .

وكانت احياء المدينة الملاصقة للمنجم الاول ، تفصلها عن وسط المدينة وهدة عميقة يجرى فى عمقها جدول عكر المياه ، عامر بنبات السعد . وقد كانت هذه المنطقة شأن وسط المدينة عامرة بالمبانى ذات الطابق الواحد المشيدة من الاحجار والمجهزة لاستقبال من اسرتين الى ثلاث ، وذلك ان اغفلنا الوهدة باكواخها الطينية المقامة على سفوحها بطول الجدول . وكانت هذه البيوت مغطاة بالقرميد او بالاسبستوس ، تتصدر كل منها حديقة مقسمة الى جزئين يزرع احدهما بالخضروات بينما يزرع الآخر بالزهور . هذا علاوة على ان البعض راح يزرع الكرز او زهور الليلاك او الياسمين ، وراح البعض الآخر يزرع الاقاصيا الصغيرة والقيقب فى الداخل امام السور المدهون بعناية . وبين هذه البيوت والحدائق امتدت قوافل العمال والموظفين ، الرجال والنسوة وسط عربات النقل المحملة بمتاع مؤسسات وهيئات كراسنودون .

كما خرج من بيته كل «ساكن غير منضبط» ، كما يقال ، ينظر بعضهم بشعور ملؤه الألم واحيانا بدافع حب الاستطلاع من

داخل حدائقهم الى النازحين ، بينما راح البعض الآخر يجر اقدامه بالشارع بمحاذاة القوافل يحمل صرر الملابس ، او يجر عربات يد محملة بمتاعه الذى يعتليه الصغار . كما كانت بعض النسوة يحملن صغارهن على اياديهن اما المراهقون الذين جذب الانفجار انتباههم فقد هرولوا تجاه المنجم رقم ١ ، بيد ان حلقة من رجال الميليشيا كانت تحاصر المكان ولم تسمح لهم بالاقتراب منه . وفى الطريق قابلهم سيل من البشر الهارب من المنجم والذى انضمت اليه النسوة الفلاحات قادمات من الشوارع الملاصقة للسوق يحملن سلال الخضر والاطعمة ، وكذلك العربات التى تجرها الخيول والثيران .

وكان الناس يجرون اقدامهم فى صمت ، تكسو الكآبة وجوههم ، يفكرون فى امر واحد شغل كل حواسهم لدرجة بدوا معها وهم يسيرون فى القافلة كما لو كانوا لا يلحظون ما يجرى حولهم . ولم يكن هناك سوى قادة القافلة الذين كانوا يسيرون على جانبيها ، راحوا يقفون تارة ويهرولون اخرى لمساعدة رجال الميليشيا الراكبين والمترجلين فى ارساء النظام وسط النازحين الذين سدّوا الطريق وعاقوا حركة القافلة .

واعترضت احدى النسوة السائرات فى خضم ذلك الحشد طريق مايا وامسكت بيدها ، مما جعل ساشا بونداريفا تتوقف الى جوارهما ، بينما هرولت اوليا الى لجنة الكومسومول تشق طريقها المحاذى للاسوار كما الطائر ، تواجه بصدرها الحشد السائر عكس طريقها .

وتعالى هدير محرك سيارة النقل الخضراء الزاحفة وراء المنحنى الممتد من الوهدة ، تلك السيارة التى دفعت اوليا واناس آخرين الى سور حديقة احد المنازل . ولو لم يكن سور هذه الحديقة لطرحت اوليا ارضا فتاة شقراء قدّة القوام متوسطة ، ذات انف افطس وعينين زرقاوين ضيقتين كانت تقف عند باب السور بين شجيرتى ليلاك تتدليان يعلوهما الغبار .

وكم كان غريبا ان تتخيل اوليا فى تلك اللحظة تلك الفتاة التى كادت ان تطرحها ارضا ، تدور راقصة على انغام الفالس . بل وقد تعالت الى اسماع اوليا موسيقى الفالس تعزفها اوركسترا

آلات النفخ ، وفجأة تسلل هذا المنظر بالم وعذوبة الى قلب أوليا ، مثل رؤيا السعادة .

كانت الفتاة تدور على المسرح تغنى ، تدور فى القاعة تغنى . كانت تدور حتى الصباح دون اية ضوابط ، انها لم تكن تكل ابدا ولم تكن ترفض مراقصة احد . ولقد كانت عيناها الزرقاوان واسنانها البيضاء الصغيرة الجميلة تشع سعادة . متى كان كل ذلك ؟ من المؤكد ان ذلك كان قبيل الحرب ، كان ذلك فى الايام الخوالى ، كان ذلك فى الاحلام !

لم تكن أوليا تعرف لقب تلك الفتاة . كان الجميع يدعونها لوبا ، وكثيرا ما كانوا يدعونها لوبكا . نعم لقد كانت هى لوبكا ، «لوبكا الممثلة» كما كان الصبية يدعونها احيانا .

ومن المدهش ان لوبكا كانت تقف خلف باب السور وسط شجيرتى الليلاك هادئة الجنان تماما ترتدى زيا كما لو كانت تعتزم الذهاب الى النادى . وكان وجهها الوردى الذى كانت دائما تخاف عليه من اشعة الشمس ، وشعرها الذهبى الملفوف بعناية فوق راسها ، ويداها الصغيرتان البضتان الرقيقتان كما العاج ، واظافرها اللامعة كما لو كانت قد فرغت على التو من تقليمها وطلائها ، وقدماها الصغيرتان المستقيمتان البضتان ، بحذائها الخفيف البيج ذى الكعب العالى ، كان كل هذا يجعل لوبكا كما لو كانت فى طريقها الى المسرح لترقص وتغنى .

لكن اكثر ما ادهش اوليا ذلك التعبير المشاكس وفى نفس الوقت الذكى الطيب الذى ارتسم على وجهها الوردى ذى الانف الافطس ، وعلى شفتيها الممتلئتين الاكبر قليلا من ان يتناسبا مع وجهها وفمها الوردى ، والاهم هو ما فى عينيها الضيقتين الزرقاوين الممتلئتين حياة على غير العادة .

ولم تبد عليها اية آثار لدهشة او غرابة من ان اوليا كادت تحطم باب السور ، بل ودون ان تنظر اليها ومضت تتطلع فى هدوء وجسارة الى كل ما يحدث بالشارع حولها وتتفوه بكل ما يرد الى خاطرها . واذ شمخت بانفها وابرقت عيناها الراقدتين فى احضان اهدابها الطويلة صاحت تنهر سائق عربة النقل :

– يا لك من احمق ! الا ترى انك كدت تسحق الآخرين ؟

يبدو ان لوثة اصابت عقلك ، ما دمت لا تستطيع الانتظار ! الى اين ؟ الى اين ؟ آه . . انك لاحمق !

هذا وقد توقف السائق بالعربة امام السور الى ان يتفرق الحشد . وكانت العربة محملة بمتاع الميليشيا ويحرسها بعض رجالها .

واذ وقع نظر لوبكا على هذا المنظر صاحت تقول :

– آه . . ان عددكم لكبير ايها «الحراس» ! وعوضا من ان تدخلوا الهدوء فى قلوب الناس تثيرون الرعب !

ولوحت بيدها الصغيرة بشكل فريد وراحت كما الصبية تصفر .

واجاب الرقيب ، احد قادة الميليشيا بلهجة غاضبة حيث شعر بظلم نزل به :

– ما لهذه الحمقاء تهذى !

وحيته لوبكا قائلة :

– آه . . الرفيق «هربنجى» ! من اين اتيت ايها الفارس الجميل ؟

– اتسكتين . . ام لا ؟ – قالها فجأة «الفارس الجميل» وهو ياتى بحركة كما لو كان يعتزم القفز الى الارض .

وقالت لوبكا بصوت هادىء دون أدنى غضب :

– انك لن تقفز ، سوف تخاف التخلف !

ولوحت بيدها الصغيرة تودع قائد الميليشيا الذى اشتعل غضبا ولم يبرح العربة فعلا قائلة :

– صاحبتك السلامة ايها الرفيق «هربنجى» !

وكان المراقب لتلك الفتاة التى تتفوه بمثل هذه التعبيرات وتبدو على مثل هذا النحو هادئة الجنان حين يغلى كل شىء حولها ، يظنها «معادية» شريرة تنتظر الالمان تسخر من كوارث المواطنين السوفييت ، لولا امارات الطيبة الطفولية التى ارتسمت على عينيها الزرقاوين ، ولو لم تكن توجه ملاحظاتها الى هؤلاء الذين يستحقونها فعلا .

وصاحت تقول :

– آه . . يا من ترتدى القبعة ! فلتنظروا كم القى على كاهل زوجته بينما يسير هو دون ان يحمل شيئا ! فلتنظر الى زوجتك

كم هى قصيرة ! ومع ذلك تحمل على راسك قبعة ! يا للفضيحة !

وصاحت تخاطب عجوزا تعتلى متن عربة :

– ماذا تفعلين ايتها الجدّة ! حتى خيار المزرعة التعاونية تحملينه فى الخفاء ؟ هل تظنين ان السلطة السوفييتية زائلة ، وليس هناك من يحاسبك ؟ وربك فى السماء ؟ هل تظنين انه لا يراك ؟ انه يرى كل شىء ! . .

ولم يكن هناك من يعير ملاحظاتها انتباها ، ولم تكن هى الاخرى قادرة على تجاهل ذلك – يبدو انها كانت تحاول اقرار العدالة ارضاء لرغباتها الشخصية . ولقد اعجبت اوليا برباطة جاشها وهدوئها ، لدرجة انها شعرت تجاهها بثقة فورا وتوجهت اليها تخاطبها :

– لوبا . . اننى كومسومولية من حى «بيرفومايكا» واسمى اوليانا جروموفا . ارجو ان تشرحى لى كيف بدا كل ما حدث ؟

واجابتها لوبكا عن طيب خاطر وهى توجه عينيها الجسورتين الزرقاوين اليها بشكل ينم عن حب واعجاب :

– بشكل عادى . . لقد رحلت قواتنا عن فوروشيلوفجراد ، تركتها جميعها عند الفجر . فقد صدر امر باجلاء كل الهيئات والمؤسسات على الفور .

وتساءلت اوليا بصوت واهن :

– وماذا عن لجنة الكومسومول ؟

وصاحت لوبكا بصوت رقيق تخاطب احد الصبية فى الزحام :

– ايه . . ايها الاقرع . . لماذا تضرب الصبيّة ؟ ماذا ايها البائس العاطل . . اننى لو خرجت فسوف تنال عقابك ! – وتوقفت لتتساءل : لجنة الكومسومول ؟ آه . . انها كما هو مفروض ، فى الطليعة . . لقد رحلت عند الفجر . . .

واستطردت تقول بغضب :

– ماذا بك ايتها الفتاة ؟ لماذا تبحلقين هكذا ؟

بيد انها وعلى حين غرة ابتسمت بعد ان وقع نظرها على اوليا وادركت ماذا يدور فى نفسها :

– اننى امزح . . امزح . من الواضح انها تلقت امرا بذلك . . ولذا رحلت . . انها لم تلذ بالفرار . . هل فهمت ذلك ؟

وتساءلت اوليا فى غضب ومشاعر الانتقام تجتاحها فجاة :

– وماذا لنا نحن ان نفعل ؟

– عليك انت ايضا الرحيل . لقد صدر الامر منذ الصباح ، فاين كنت ؟

وتساءلت اوليا بلهجة تنم عن عناد :

– وانت ؟

– انا ؟ – تفوهت لوبا ثم صمتت ليكتسى وجهها بامارات تنم عن غرابة ولامبالاة . ثم قالت وهى تتهرب من الاجابة :

– اننى سوف اواصل متابعة ما يجرى !

– الست انت الاخرى عضوة بالكومسومول ؟ – تساءلت اوليا فى تصميم . والتقت عيناها الكبيرتان السوداوان وقد اتسمتا بامارات غضب قوية بعينى لوبكا الضيقتين اللتين تتسمان بالحذر .

واجابت لوبكا وهى تضغط على شفتيها قليلا :

– كلا . .

ثم صاحت تنادى «بابا» ، واذ فتحت الباب على مصراعيه اندفعت تجرى فى حذائها ذى الكعب العالى تستقبل مجموعة من الناس ، لتبدو فريدة وسط هذا الحشد ، الذى راح يفسح امامها الطريق فى احترام مشوب بالخوف .

تصدر المجموعة فالكو مدير المنجم رقم ١ ، وهو رجل ربعة حليق الذقن يناهز عمره الخمسين يرتدى سترة وحذاء طويلا ذو وجه مكتئب اسمر كما الفجر ، وجريجورى ايليتش شيفتسوف عامل الحفر الطليعى فى نفس المنجم والذى تعرفه كل المدينة . وسار خلفهما بعض عمال المنجم واثنان من العسكريين . اما على مسافة من هؤلاء سار حشد من مختلف النوعيات . . حشد من محبى الاستطلاع . . – حتى فى احلك اللحظات تجد بين الناس عددا هوايته استطلاع الامور ليس الا" .

كان جريجورى ايليتش وعمال المنجم الآخرون يرتدون زى العمل . وكانت ملابسهم ووجوههم واياديهم ملطخة بآثار الفحم . وكان احدهم يعلق لفّة من الاسلاك الكهربائية على كتفه ، بينما كان الآخر يحمل صندوقا ممتلئا بالادوات ، اما شيفتسوف فقد

كان يمسك فى يده بجهاز معدنى غريب تبدو منه نهايات سلك عار .

كانوا يسيرون فى صمت ، وكأنما يهابون ان تلتقى اعينهم مع بعضهم البعض او مع الآخرين . وراح العرق يسيل على وجوههم الملطخة بالفحم . وكانت امارات الانهاك والتعب مرتسمة على وجوه هؤلاء الناس ، وكأنهم يحملون على كاهلهم عبئا ثقيلا لا حدّ له .

وادركت أوليا السر الذى جعل الناس يفسحون لهم الطريق سلفا – كان الطريق خاليا تماما امامهم . لقد كان هؤلاء هم الذين فجروا بايديهم المنجم الاول – مفخرة الدونباس .

وهرولت لوبكا الى جريجورى ايليتش وامسكت بيدها الصغيرة البيضاء يده الكبيرة الداكنة اللون ، ليضغط عليها ، ويسيران سويا .

وفى ذلك الوقت اقترب عمال المنجم وعلى راسهم فالكو وشيفتسوف من السور وبارتياح بالغ واضح القوا فى الحديقة عبر السور بالادوات التى كانوا يحملونها – لفّة السلك وصندوق المعدات وذلك الجهاز المعدنى الغريب ، لتسقط جميعها فوق الزهور مباشرة . وغدا واضحا ان هذه الزهور التى زرعت بحب وعناية مثلها مثل الحياة الزاهية الجميلة ، قد انتهى اجلها .

وقد القى هؤلاء بكل ما كانوا يحملونه دون ان ينظر احدهم الى الآخر تنتابهم مشاعر عدم ارتياح .

وخاطب فالكو شيفتسوف دون ان يرفع نظره اليه قائلا :

– هيه يا جريجورى ايليتش ! هيّا بنا بسرعة . . العربة جاهزة . سوف يركب كل الناس ، ونحن جميعا وراءك .

وراح يسير بخطوات متثاقلة يرافقه العمال والعسكريون . ولم يغادر مكانه عند السور جريجورى ايليتش ولوبكا التى ظل ممسكا بيدها وعامل المنجم العجوز ذو الشارب الخفيف الذى كسته صفرة من اثر التدخين ، واللحية والقدمين الطويلتين الرفيعتين . كما وقفت أوليا الى جوارهم لا يعيرها احد اهتمامه ، كما لو كانت سوف تجد فى هذا المكان بالذات اجابة على السؤال الذى يحيرها .

وقال جريجورى ايليتش بلهجة تنم عن غضب ودون ان يترك يد الفتاة :

– ليوبوف جريجوريفنا . . لمن صدر الامر ؟

وردت لوبكا بلهجة غاضبة :

– لقد قلت اننى لن اذهب !

وقال جريجورى ايليتش بصوت هادئ اتسمت نبراته بقلق واضح :

– لا داعى للحماقة . . لا تكونى حمقاء ! كيف لك ان لا تذهبى ؟ . . يا عضو الكومسومول !

ورمت لوبكا بنظرة غاضبة اوليا ، الاّ ان وجهها سرعان ما اكتسى بامارات تنم عن عناد بل وعن وقاحة . واضافت وهى تعض شفتيها :

– اننى حديثة العهد بالكومسومول . كما واننى لم اسأ الى احد ، ومن ثم فلن يسيء احد الىّ . اننى مشفقة على أمى .

«لقد تبرأت من الكومسومول» – هذا ما ورد فجأة بخاطر اوليا ، بيد انه فى نفس اللحظة ومضت صورة امها المريضة امام ناظريها لتجتاحها مشاعر الألم .

وقال العجوز بصوت خافت رهيب ، غريب ان يصدر عن مثل هذا الجسد الذى اصابه الضمور :

– هيه . . يا جريجورى ايليتش ! لقد حان لنا ان نفترق . وداعا ! – وحدق فى وجه جريجورى ايليتش الذى كان يقف امامه منكس الراس .

ورفع جريجورى ايليتش غطاء راسه فى صمت ، ليبدو شعره الاشقر . وكان ذا عينين زرقاوين ووجه تغطيه التجاعيد العميقة – وجه صانع روسى تقدم به السن . وبالرغم من انه تجاوز سن الشباب ، يرتدى زى العمل يكسو الفحم وجهه ويديه ، فقد كان يبدو قويا متين البنيان ، جميلا على النمط الروسى القديم .

وتساءل دون ان ينظر الى العجوز وهو يشعر بحرج ظاهر :

– هل لك ان تخاطر معنا ؟ هيه . . ؟ كوندراتوفيتش ؟

– كيف لنا ان نسافر والعجوزة ؟ فليخلصنا اولادنا والجيش الاحمر !

وساله جريجورى ايليتش :

– وماذا عن ابنك الاكبر ؟

– ابنى الاكبر ؟ ماذا لى ان اقول عنه ؟ – واشاح بيده كما لو كان يود ان يقول : «انك تعلم العار الذى لحق بى . عـــلام السؤال ؟» – وداعا يا جريجورى ايليتش . .

قالها باسى ومد يده المعروقة يصافح شيفتسوف .

ومدّ جريجورى ايليتش يده . لكنه كان ثمة ما يود كل منهما ان يقوله للآخر ، فتوقفا برهة من الوقت يمسكان بيد البعض .

وقال جريجورى ايليتش بلهجة بطيئة :

– نعم . . ما عسانا ان نقول . . ان زوجتى وابنتى ايضـــا سوف يبقيان . – وفجاة تقطع صوته – كيف لنا ان نفعل به هكذا يا كوندراتوفييتش ؟ لقد كان مرضعة كل بلادنا ، ان جاز مثـل هذا القول . . . آه – تنهد فجاة من اعماق قلبه ، وتساقطت دموعه التى ترقرقت فى مآقى عينيه على وجهه الذى كساه الفحم .

ونشج العجوز ونكس راسه ، وانهمرت لوبكا فى البكاء .

ولم تستطع اوليا وهى تعض شفتيها ، مغالبة البكاء ، فهرولت تجرى الى منزلها فى «بيرفومايكا» .

الفصل الثالث

كان الهدوء يخيم بعض الشىء على المناطق القريبة من وسط المدينة ، وراح كل شىء يبدو اكثر الفة ، فى حين كانت الضواحى تشهد هذه الموجة من الانسحاب والتهجير على عجل . واختفت قافلة الموظفين واللاجئين وعائلاتهم من الشوارع . ووقفت عربات الكارو وعربات النقل طابورا امام مداخل المؤسسات وفى الساحات المجاورة لها . وقام هؤلاء الذين لم يكن عددهم يزيد عن العدد المطلوب ، بتحميل العربات بالصناديق الملينة بالادوات والاكياس المملوءة بالوثائق . وكانت تتعالى الى الاسماع اصوات هادئة تتركز حول ما يمارسه هؤلاء العاملون . كما كانت تتعالى عبر الابواب والنوافذ المفتوحة اصوات شواكيش – واحيانا آلات كاتبة : فقد راح اكثر الاداريين دقة يسجل قوائم المتاع المنقول ، وغير المطلوب . ولو لم يكن هدير المدفعية المدوى بعيدا ، والانفجارات التى تهز الارض

لكان من الممكن ان يبدو ان المؤسسات تنتقل من مبناها القديم الى آخر جديد .

وفى وسط المدينة وعلى تل عال كان مبنى من طابق واحد تصطف على جانبى مدخله الاشجار الصغيرة ، واضحا لكل الراحلين عن المدينة ومن اية نقطة بعيدة . وكان هذا المبنى مقرا للجنـــة الحزبية للمنطقة ، وللجنة التنفيذية للمنطقة ، وقد تمركزت فيه منذ الخريف الماضى لجنة حزب البلاشفة لمقاطعة فوروشيلوفجراد .

وكان ممثلو المؤسسات والهيئات يدلفون فى غير ما انقطاع الى المبنى عبر المدخل الرئيسى ، كما كانـوا يخرجون عبره بخطوات سريعة . وكانت تتعالى عبر النوافذ المفتوحـــة اصوات اجراس التليفونات التى لا تنقطع ، والتعليمات التى تصدر عبر ابواقها تارة تكون متحفظة عن عمد ، واخرى عالية دون حاجة الى ذلك . كمـــا توقفت الى جوار المدخل الرئيسى بعض عربات الركوب المدنيـــة والعسكرية تشكل نصف دائرة ، تحدها عربة برمائية عسكرية وقد علتها كمية هائلة من الغبار . وكان يحتل المقعد الخلفى لهذه العربة اثنان العسكريين يرتديان سترتين بهت لونهما – احدهما رائد غير حليق الوجـــه ، والآخر رقيب شاب فارع القامـــة . وكانت وجوه سائقى تلك العربات وهذين الشخصين تتسم بتعبير عام يتمثل فى ان الجميع «ينتظرون» .

وفى ذلك الحين شهدت تلك الحجرة الواقعة فى الجناح الايمن للمبنى مشهدا كان يمكن ان يغطى جوهره على احداث عظام شهدها الماضى ، لو لم يكن على هذا القدر من البساطة .

فقد كان قادة المنطقة والمقاطعة الراحلون يتوادعون مع زملائهم القادة الباقين للاشراف على التهجير ، على ان يختفـــى هؤلاء بمجرد وصـــول الالمان دون اثر وسط الجماهير ويتحولون الى العمـــل السرى .

وليس هناك ما يجعل الناس اكثر تقاربـــا من الشدائد التى يتعرضون لها .

لقد عاش هؤلاء الحرب كلها منذ اولى ايامها وحتى يومنا هذا وكانما كانوا مشغولين فى عمل متواصل مرهق لا يقدر عليه سوى صلبى العزيمة .

لقد أعطوا الجبهة اثمن وافضل واحسن ما يملكه المواطنون .

لقد نقلوا الى الشرق اضخم المؤسسات التى كانت مهددة بالوقوع فى براثن العدو او بالتخريب والتدمير ، نقلوا آلاف الماكينات وعشرات الآلاف من العمال ومئات الآلاف من الاسر . الا انهم كالسحرة ، سرعان ما وجدوا ماكينات غيرها وعمالا جددا ، ليبعثوا الحياة الى المناجم والمبانى المقفرة .

لقد حافظوا على الانتاج وعلى البشر فى أعلى درجات الاستعداد للتحرك الى الشرق بمجرد ان تحتم الضرورة ذلك . وفى نفس الوقت كانوا يقومون بواجباتهم تجاه متطلبات الحياة التى لا يمكن تصور معيشة البشر فى الدولة السوفييتية بدونها . كانوا يقدمون لهم الطعام والملبس ويتكفلون بتعليمهم ، وعلاج المرضى منهم ويعدون المهندسين والمدرسين والزراعيين ويشرفون على المطاعم والمحلات التجارية والمسارح والنوادى والملاعب والحمّامات وصالونات الحلاقة ومحلات غسيل الملابس ، والميليشيا وقوات المطافئ .

كانوا يكدون طوال مدة الحرب ، كما لو كان ذلك يوما واحدا .

لقد نسوا ان لهم حياتهم الشخصية ، ذلك لان عائلاتهم كانت قد هجّرت الى الشرق .

لقد كانوا يعيشون وينامون لا فى المساكن بل فى الهيئات والمؤسسات ، وكان يمكنك ان تجدهم فى اية ساعة من ساعات الليل والنهار فى اماكنهم هذه .

لقد سقطت احدى مناطق الدونباس ، ثم سقطت اخرى وثالثة ، الا انهم كانوا يكدون ويعملون جاهدين فى المناطق الباقية . كانوا يعملون بكد بالغ فى آخر مناطق الدونباس ، لانها كانت المنطقة الاخيرة . الا انهم كانوا حريصين حتى النهاية على غرس قوة عملاقة فى نفوس البشر كى يتحملوا كل ما القته الحرب على كواهلهم . وقد كانوا يعملون حين تنفد طاقة البعض على بعثها بطاقتهم الذاتية الروحية والجسمانية . ولم يكن هناك من يدرى حدودا لتلك الطاقة . . فقد كانت لا محدودة .

واخيرا جاءت اللحظة التى تحتمت فيها مغادرة حتى هذه المنطقة من الدونباس . وراحوا فى خلال عدة ايام يرفعون آلاف الماكينات

وعشرات الآلاف من الناس ومئات آلاف الاطنان من مختلف المقدرات . وها هى تحين آخر اللحظات حين لم يكن من المستطاع لهم ايضا البقاء .

لقد وقفوا جميعا مجموعة متراصة فى غرفة كبيرة لسكرتير لجنة الحزب لمنطقة كراسنودون ، حول مائدة الاجتماعات الطويلة التى نزع من عليها قماش الجوخ الاحمر . كان كل منهم يواجه الآخر يتبادلون النكات يربت كل منهم الآخر ، بينما لا يجرؤ اى منهم بعد على التفوه بكلمة الوداع . وكان صعبا ومؤلما وثقيلا على نفس كل من رحل عن المنطقة كما لو كان هناك غراب قد نشب مخاليه فى قلوبهم .

وكان ثقل المجموعة الطبيعى يتركز فى ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو رجل اللجنة الاقليمية الذى حوّل للعمل الفدائى السرى منذ خريف العام الماضى ، حين تعرضت المقاطعة لخطر الاحتلال . بيد ان الامر حينذاك كان قد تأجل تنفيذه طبيعيا .

وكان ايفان فيدوروفيتش قصير القامة ربعة فى الخامسة والثلاثين من عمره ذا شعر خفيف احمر ممشط الى الخلف ، أصلع الفودين ، متورد الوجه ، كان قبل ذلك نظيفا حليقا دائما ، بينما يغطيه اليوم شعر داكن اللون نبت هنا وهناك الا انه لم يكوّن بعد ما يسمى باللحية الحقيقية . اذ انه كف عن حلاقته منذ حوالى اسبوعين حين أدرك من سير الامور على الجبهة انه سوف ينخرط حتما فى العمل الفدائى السرى .

ولقد راح يشد فى قوة واحترام على يد الواقف امامه وهو انسان تقدم به السن يرتدى حلة عسكرية لا تميزها رتب . وكان ذلك الانسان يتمتع بوجه نحيف يتسم بالجسارة وتجعيدات بسيطة اسفر عنها الانهاك الدائم ، تبدو عليه أمارات الهدوء والبساطة المختلطة بالاهمية التى يتميز بها القائد الكبير وتبدو من جراء ادراكه والمامه بكل ما يجرى حوله .

وقد وصل ذلك الشخص — احد قادة اركان الفدائيين التى شكلت منذ مدة وجيزة فى اوكرانيا — الى كراسنودون بالامس للتنسيق بين فصائل فدائيى المقاطعة ووحدات الجيش العامل .

ولم يكن هناك من يفكر آنذاك فى ان الانسحاب سوف يصل الى هذا الحد ، فقد كان الجميع يأملون فى وقف زحف العدو ولو حتى

اسفل دونيتس واسفل الدون . وكان من الواجب على ايفان فيدوروفيتش طبقا لتعليمات الاركان توفير الاتصال بين فصيلة الفدائيين ، حيث استقر والفرقة المنقولة الى منطقة كامينسك لتدعيم قواتنا فى شمال الدونيتس . وكانت هذه الفرقة التى عانت كثيرا من المعارك فى منطقة فوروشيلوفجراد ، قد اقتربت على التو من كراسنودون ، بينما كان قائدها قد وصل فى اليوم السابق مع ممثلى اركان الفدائيين والدائرة السياسية للجبهة الجنوبية . ووقف قائد الفرقة الجنرال الذى يناهز عمره الاربعين عاما فى انتظار دوره ليتوادع هو الآخر مع ايفان فيدوروفيتش .

وهز ايفان فيدوروفيتش يد قائد الفدائيين الذى كان رئيسا له فى زمن السلم ، يزوره فى منزله دون اى تكلف ، ويعرف زوجته جيدا ؛ وراح يقول له :

– شكرا ، ثم شكرا يا اندريه يفيموفيتش على العون ، وعلى العلم . واذا ما ساقتك الصدفة الى الاركان الرئيسية فلتتحدث عن حركة الفدائيين التى عمت مقاطعة فوروشيلوفجراد . واذا ما سعدتم يا اندريه يفيموفيتش بلقاء الرفيق ستالين القائد الاعلى فلتقل له اننا سوف نقوم بواجبنا خير قيام .

كان ايفان فيدوروفيتش يتحدث بالروسية ليتحول دون ان يشعر الى لغته الاصلية ، الى اللغة الاوكرانية .

وتحدث اندريه يفيموفيتش يقول وقد اضاءت الابتسامة غضون وجهه :

– سوف تقومون بواجبكم . وسوف يكون عملكم موضع اعجاب الجميع . وليس هناك ادنى شك فى ذلك .

والتفت فجاة الى الذين احاطوا بايفان فيدوروفيتش وقال :

– ياله من ماكر هذا البروتسينكو . انه لم يبدا الحرب بعد ، ومع ذلك يجس النبض حول امكانية الحصول على الامدادات من الاركان الرئيسية !

وضحك الجميع عدا الجنرال الذى كان يقف طوال الوقت جامد الوجه ترتسم عليه امارات كدر بالغ .

ووميضت امارات المكر فى عينى ايفان فيدوروفيتش الزرقاوين

الناصعتين ، ومضت عيناه ، العين تلو الاخرى كما لو كانت شرارة لعوب تنتقل من كل منهما الى الاخرى ، وراح يقول :

– لقد اخفيتها . ولئن نفذت فسوف نعيش كما كوفباك الفدائى القديم دون حاجة الى امدادات . . ما نصادره من العدو يغدو ملكا لنا !

وقال ايفان فيدوروفيتش وهو يهز يد قوميسار الفوج العجوز :

– فلتبلغوا شكرنا العظيم للعاملين فى الادارة السياسية بالجبهة ، لقد قدموا لنا عونا عظيما . امّا انتم ايها الشباب . . فلست ادرى ماذا اقول لكم . . يمكننى فقط ان اغمركم بقبلاتى .

وراح ايفان فيدوروفيتش وقد هزته مشاعره يعانق ويقبل كل الشباب العاملين فى مفوضية الشعب للشئون الداخلية .

لقد كان رجلا حساسا يدرك انه من المستحيل فى اى من الامور نسيان احد سواء كان كبيرا او صغيرا ، ما دام قد ساهم بحكم موقعه فى العمل . وهكذا قدم شكره لكل المؤسسات وكل الافراد الذين قدموا له العون فى تشكيل الفصائل وشبكة العمل السرى . وكان وداعه مع رفاقه العاملين فى اللجنة الحزبية للمنطقة طويلا يتسم بالمرارة . فقد جمعتهم بصلة وثيقة الصداقة والمصير طوال هذه الاشهر الطويلة للحرب والتى مرّت سريعا كما لو كانت يوما واحدا .

وغادر اصدقاءه وقد اغرورقت عيناه بالدموع وراح ينظر حوله يبحث عمن لم يودعه بعد . وانحنى الجنرال – وهو ربعة الجسد قصير القامة – لايفان فيدوروفيتش فى صمت ومد يده اليه ، لتبدو على وجهه الروسى البسيط امارة تنم عن طفولة .

وقال ايفان فيدوروفيتش وقد أخذته المشاعر :

– شكرا ، شكرا لكم ، وما كان واجبا ان تثقلوا على انفسكم بالمجىء .

واستطرد يقول وهو يهز يد الجنرال القوية : – اننا الآن مرتبطان «بحبل» واحد ، كما يقال .

واختفت الامارة الطفولية بسرعة بالغة من على وجه الجنرال . واوما براسه الكبير الذى تغطيه قبعته العسكرية ايماءة تنم عن غضب وعدم رضى ، وتوقفت عيناه الصغيرتان اللتان تنمان عن

ذكاء ، على ايفان فيدوروفيتش وقد اكتسيتا بامارات تعكس بعض القسوة . ربما كان يود الادلاء اليه بشيء هام ، الاّ انه لم يفعل ذلك .

وحانت اللحظة الحاسمة .

وقال اندريه يفيموفيتش وهو يعانق بروتسينكو :

– حافظ على نفسك .

وراح الجميع ثانية يتوادعون مع ايفان فيدوروفيتش ومعاونه ، وباقي العاملين الذين سوف يظلون في اماكنهم . ثم اخذوا يخرجون الواحد تلو الآخر ترتسم على وجوههم امارات الشعور بالذنب . ولم يكن هناك سوى الجنرال الذي خرج مرفوع الهامة في خطوات سريعة كعادته ، تتسم خطواته بخفة غريبة لا تتفق وبدانته . ولم يخرج ايفان فيدوروفيتش ، ليظل بالحجرة يتعالى الى سمعه هدير محركات العربات بالشارع .

وكانت اجهزة التليفون في الحجرة طوال ذلك الوقت تعلن عن نفسها ، يرفع سماعاتها معاون ايفان فيدوروفيتش ، الواحدة تلو الاخرى يطلب اعادة الاتصال بعد بضع دقائق . وما ان توادع ايفان فيدوروفيتش مع آخر الراحلين ، حتى ناوله معاونه احدى هذه السماعات .

– من المخبز . . لقد اتصلنا عشر مرات تقريبا . .

وامسك ايفان فيدوروفيتش السماعة بيده الصغيرة وجلس على حافة المكتب لتتغير على التو ملامحه يبدو تارة سليم الطوية ساذجا عاطفيا ، واخرى ماكرا مرحا كما كان عند وداع رفاقه . وقد تبدت عليه ملامح السيطرة الهادئة في حركة يده حين تناول السماعة وفي نبرات صوته حين شرع في الحديث .

وقال مجبرا محدّثه على الطرف الآخر من التليفون على ان يسمعه :

– لا داعي للثرثرة . . وعليك ان تسمعني . لقد قلت لك ان العربات سوف تصل اليك ، وسوف تصل . سوف تأخذ منك مؤسسة التجارة في المدينة الخبز ، وتتولى توزيعه على المواطنين في الطريق ؛ اما اتلاف هذه الكمية الهائلة من الخبز فيعتبر جريمة . لماذا اذن أنفقت الليل بطوله في صناعته ؟ انني أرى انك على عجلة،

وعليك التمهل ما دمت لم آمرك بالعجلة . هل هذا مفهوم ؟ – ووضع ايفان فيدوروفيتش السماعة ، ليرفع سماعة اخرى دوّت بصوت رفيع حاد .

وعبر النافذة المفتوحة المطلة على المنجم رقم ١ تراءت حركة الوحدات العسكرية ، وعربات النقل الراحلة عن المدينة ، وكذلك قوافل السكان المهجّرين . وفي هذا المكان ، من على التل كان واضحا للعيان بشكل جيد تفرق الحركة الى ثلاثة اتجاهات . كان التيار الاساسي يتجه نحو الجنوب ، الى نوفوتشيركاسك وروستوف ، وكان التيار الثاني وهو اقل قليلا يتجه نحو الجنوب الشرقي الى ليخايا ، اما التيار الثالث وهو اقلهما فكان يتجه نحو الشرق الى كامينسك . وكانت العربات التي غادرت على التو مبنى اللجنة الحزبية للمنطقة تمتد صفا تتجه نحو نوفوتشيركاسك . اما العربة البرمائية للجنرال فقد شقت طريقها عبر الشوارع قاصدة طريق فوروشيلوفجراد .

وفي تلك الآونة كانت افكار الجنرال العائد الى فرقته بعيدة عن ايفان فيدوروفيتش .

وكانت اشعة الشمس الحارقة تلسع وجهه . وكان الغبار يتصاعد ليلف العربة والجنرال والسائق ، وكذلك الرائد غير حليق البشرة والرقيب الفارع القامة اللذين كانا يجلسان في صمت على المقعد الخلفي . وكانت اصوات المدفعية التي تترامى من بعيد ، وهدير العربات التي تنهب الطريق وهينة الراحلين عن المدينة تصفد افكار هؤلاء المختلفين سنا ورتبة حيال الواقع الرهيب .

ولم يكن هناك بين مودعي ايفان فيدوروفيتش سوى ممثل اركان فدائيي اوكرانيا والجنرال بوصفهما عسكريين يدركان معنى استيلاء وحدات الدبابات الالمانية على ميلليروفو ووثبتها تجاه مدينة موروزوفسكي الواقعة على سكة الحديد التي تربط الدونباس بستالينجراد . وقد كان هذا يعني ان الجبهة الجنوبية معزولة عن الجبهة الجنوبية الغربية وان مقاطعة فوروشيلوفجراد والجزء الاعظم من مقاطعة روستوف معزولتان عن مركز البلاد ؛ امّا ستالينجراد فمعزولة عن الدونباس .

وقد انحصرت مهمة الفرقة في ايقاف اطول وقت ممكن ، الالمان

الذين هاجموا ميلليروفو فى الجنوب حتى تتمكن جيوش الجبهة الجنوبية من الابتعاد تجاه نوفوتشيركاسك وروستوف . وقد كان هذا يعنى ان الفرقة التى يراسها الجنرال كانت معرضة اما للقضاء نهائيا عليها بعد بضعة ايام واما للوقوع فى براثن حصار الاعداء . وكان الجنرال يمقت للنهاية فكرة الوقوع فى الحصار . بيد انه لم يكن يريد ايضا ان يقضى على فرقته نهائيا . وكان يدرك من جهة اخرى انه سوف يؤدى واجبه حتى النهاية . وراح يكرس كل قواه المعنوية لتقرير هذه المشكلة العويصة .

وكان الجنرال ينتمى بحكم السن الى ذلك الرعيل من القادة العسكريين السوفييت متوسطى العمر وليس الى كبار السن منهم ، اولئك الذين بداوا طريقهم الكفاحى ايام الحرب الاهلية او بعدها مباشرة حين كانوا ما يزالوا فى مقتبل العمر لا يعرفهم احد .

لقد قطع برارى الدونيتس سيرا على قدميه جنديا ، وها هو اليوم يجتازها على متن آلية . لقد بدا الراعى ذو التسعة عشر ربيعا ، ابن فلاح كورسك ، حياته العسكرية ايام بلغت شهرة بيريكوب الآفاق . وغدا جنديا فى فترة القضاء على عصابات ماخنو فى اوكرانيا ، فى ذلك الحين الذى كان يعتبر صدى ضعيفا اخيرا لمعارك عظيمة ضد اعداء الثورة الاشتراكية . كما قاتل تحت قيادة القائد التاريخى فرونزه . وتميز فى ذلك الحين كمقاتل صلد على قدر كبير من الذكاء . بيد ان ذلك لم يكن السبب الوحيد لشهرته حيث ان المقاتلين الجسورين الاذكياء ليسوا قلة . ورويدا رويدا وعلى نحو غير ملحوظ ، بل وعلى نحو يتسم بالبطء احيانا راح يستوعب كل ما تلقنه لدى مقاتلى الجيش الاحمر الموجهون السياسيون ، وقوميسارات الكتائب والافواج ، ذلك الجيش المجهول الذى لا حصر له من العاملين فى الاقسام السياسية والخلايا الحزبية العسكرية ، اولئك الذين نتمنى لهم الخلود ابد الآبدين . انه لم يستوعب فقط ما علموه اياه ، بل راح يطوّره ويرسّخه فى اعماقه . وفجاة يتميز من بين اقرانه كشخصية بارزة ذات موهبة سياسية فائقة .

كان طريقه فيما بعد بسيطا باهرا ، كطريق اى قائد عسكرى من رعيله .

بدا الحرب الوطنية العظمى قائدا لفوج وكان قد استكمل قبيل

ذلك دراسته فى اكاديمية فرونزه العسكرية وقاتل المتدخلين اليابانيين فى عام ١٩٣٩ عند نهر خالخين جول ، وشارك فى الحرب الفنلندية فى شتاء ١٩٣٩ – ١٩٤٠ عند خط مانيرجيم . وكان هذا كثيرا جدا لانسان فى مثل سنه واصله . لكن كم كان ذلك قليلا ! لقد جعلت الحرب الوطنية منه قائدا عسكريا . لقد نما ، لكن الاكثر من ذلك يمكن ان يقال انه نمّى . لقد نمّى بفضل خبرة حرب عظمى ، كما نمّى آنذاك فى الكلية العسكرية ثم فى الاكاديمية ، ثم بفضل خبرة حربين صغيرتين .

لقد كان رائعا ذلك الادراك الجديد ، الاحساس بالنفس التى تعززت اثناء الحرب بالرغم من مرارة الانسحاب . ان الجندى السوفييتى افضل من الجندى المعادى ليس فقط من ناحية التفوق المعنوى ، حيث لا مجال للمقارنة ، بل ومن الناحية العسكرية . كما ان قادتنا اسمى بكثير ليس من حيث الوعى السياسى فقط ، بل وعسكريا حيث انهم قادرون على الاستفادة من الخبرة العملية ، يطبقونها بسرعة وتنوع . امّا التكنيك العسكرى فليس فى مرتبة ادنى من تكنيك العدو بل هو افضل فى بعض اشكاله . وينبع الفكر العسكرى ، مصدر كل ذلك ، من الخبرة التاريخية العظيمة ، الاّ انه فى ذات الوقت ذو نمط جديد جرىّ كالثورة التى خلقته ، كالدولة السوفييتية التى لم يشهد التاريخ مثلها ، كالعبقرى الذى صاغ هذا الفكر وطبقه ليحلق على اجنحة النسور . ورغما عن ذلك كله يحتم الموقف علينا الانسحاب . اذ ان العدو ما زال يتفوق علينا عددا . يساعده عنصر المباغتة والقسوة التى تخرج عن اطار كافة الاوصاف التى يعرفها الضمير البشرى ، ويهاجم بكل ما لديه من قوى دون اى تفكير فى ابقاء اية احتياطيات .

ومثل الكثير من القادة العسكريين السوفييت ادرك الجنرال قبل الاوان بوقت كاف ان هذه الحرب ، اكثر من اى حرب فى الماضى ، هى حرب سوف يكسبها من يملك اكبر قدر من الاحتياطيات البشرية والمادية . وكان من الضرورى ايجاد مثل هذه الاحتياطيات اثناء الحرب . كما كان الامر الاكثر تعقيدا يتلخص فى التصرف فيها . . فى توزيعها زمنا ومكانا . ولم يكن سحق العدو عند موسكو وهزيمته فى الجنوب نتيجة لتفوق فكرنا العسكرى ومعداتنا وجنودنا وحسب ،

بل وكان يعكس ايضا ان الاحتياطيات العظيمة لشعبنا ودولتنا فى حوزة اناس عباقرة حريصين قادرين .

ومؤسف . . مؤسف للغاية ان ننسحب امام شعبنا فى الوقت الذى يبدو فيه اننا ادركنا جيدا ماهية العدو وماهية انفسنا .

وكان الجنرال يلتزم الصمت يبدو غارقا فى افكاره . وما كادت العربة التى اجتازت بصعوبة شوارع المدينة تئن تحت وطأة حشود المهاجرين ، تصل الى طريق فوروشيلوفجراد حتى حلقت على ارتفاع منخفض جدا ثلاث قاذفات المانية الواحدة تلو الاخرى . وظهرت الطائرات فجأة لدرجة لم يستطع معها الجنرال ومرافقاه الضابط والرقيب القفز بعيدا عن العربة ليلزموا اماكنهم فيها . وانشق سيل المقاتلين والمهاجرين لينهال الى جانبى الطريق ينبطح البعض فى الخنادق ، بينما البعض الآخر يسند على طنف منزل او يلتصق بجدار .

وفى هذه اللحظة وقع نظر الجنرال على فتاة فارعة القوام ذات ضفيرتين سوداوين طويلتين ترتدى بلوزة بيضاء ، تقف وحيدة على حافة الطريق الذى اقفر تماما . وكانت الفتاة فى رباطة جاش تتسم بالكآبة تتابع بنظرها الطيور المزركشة ذات الصلبان السود المرسومة على اجنحتها والتى حلقت على ارتفاع منخفض فوق هامتها تغمرها برياحها .

وغص حلق الجنرال فجأة مما جعل مرافقيه ينظران اليه فى خوف ؛ وادار راسه فى غضب كما لو كانت ياقة سترته تضغط على رقبته ، فلم يكن يحتمل رؤية هذه الفتاة تقف وحيدة على الطريق . وانعطفت العربة البرمائية بحدة لتندفع عبر الارض غير المنبسطة الموازية للطريق فى اتجاه فوروشيلوفجراد ، وليس فى اتجاه كامينسك ، من حيث قدمت على التو فرقة الجنرال تشق طريقها نحو كراسنودون .

الفصل الرابع

اطلقت الطائرات التى حلقت فوق راس اوليا جروموفا نيران رشاشاتها فى مكان ما فيما وراء المدينة واختفت تغمرها اشعة الشمس الحارقة . ولم يمض سوى بضع دقائق حتى تعالت لتصل

الى الاسماع اصوات انفجارات ، تؤكد قصف الطائرات للمعبر الكائن على نهر الدونيتس .

وساد الهرج والمرج مستعمرة بيرفومايسكى . فانطلقت عربات الكارو وهرولت عائلات باكملها تصادف اوليا فى طريقها ، لا احد ينظر اليها او يتبادل معها كلمة رغم انها كانت تعرفهم ويعرفونها جميعا .

ولم يترك انطباعا مفاجئا سوى منظر «تلميذة المدرسة الثانوية» زينائيدا فيريكوفا التى كانت تجلس على العربة ، ترتسم على وجهها امارات الرعب القاتل ، بين امراتين وسط الصناديق والاكياس واجولة الدقيق . وبالرغم من حرارة الجو الخانقة كانت فيريكوفا ترتدى معطفا بنى اللون من قماش الجوخ ، عارية الراس تتدلى ضفيرتاها على صدرها .

وكانت مستعمرة بيرفومايسكى اقدم مستعمرات المنطقة ، وعلى اساسها قامت مدينة كراسنودون . وقد سميت هذه المستعمرة «بيرفومايسكى» او بالدارجة «بيرفومايكا» منذ فترة غير بعيدة . وفى ذلك المكان الذى ظهرت فيه المستعمرة كانت توجد قبل اكتشاف الفحم فى هذه المنطقة عزب القوزاق والتى كانت اكبرها عزبة سوروكين .

وقد اكتشف الفحم فى هذه المنطقة فى مطلع هذا القرن . وشيدت المناجم فى منطقة وجود الفحم مباشرة مائلة صغيرة لدرجة انهم كانوا يرفعونه عن طريق رافعات يدوية او اخرى تديرها الخيول . وكانت هذه المناجم فى حوزة ملاك مختلفين ، الا ان المنطقة كانت تسمى بحكم العادة ، منطقة مناجم سوروكين .

وقد استقر عمال المناجم النازحون من المحافظات الروسية الوسطى ومن اوكرانيا فى عزب القوزاق وتزاوجوا منهم ، بل وراح القوزاق ايضا يعملون فى نفس هذا الحقل . وبدأت العائلات تتكاثر ، وتستقل كل اسرة بنفسها لتبنى مسكنها الخاص بها .

وشيّدت المناجم الجديدة ، وراء التل الطويل ، حيث يمتد اليوم طريق فوروشيلوفجراد ، وخلف الوهدة التى تفصل اليوم مدينة كراسنودون الى شطرين غير متساويين . وكانت هذه المناجم الجديدة ملكا لاحد كبار الملاك يدعى يارمانكين او «النبيل المسعور»

(«بيشينى بارين») ، مما جعلهم يطلقون على المستعمرة الجديدة التى نشأت حول المناجم «يارمانكين» او «بيشينى» . وكان منزل «النبيل المسعور» الرمادى اللون مبنيا بالآجر من طابق واحد تحيط به حديقة شتوية حافلة بالنباتات المدهشة والطيور الغريبة ، وحيدا على التل العالى خلف الوهـــدة تعصف به الرياح من شتى الجهات ويسمونه ايضا «بيشينى» .

وفى سنوات السلطـــة السوفييتية ، اثنـــاء فترتى الخطتين الخمسيتين الاولى والثانية شيدت المناجم الجديدة فى هذه المنطقة وتحول مركز مناجم سوروكين الى هذه الناحية ، حيث ظهرت المنازل المتشابهة ومبانى المؤسسات الضخمة ، والمستشفيات والمدارس والاندية . وعلى التل وبجانب منزل «النبيل المسعور» ارتفع مبنى جميل غدا مقرا للجنة التنفيذية للمنطقة . اما نفس المنزل فقد تحول الى مقر للجنة تخطيط مؤسسة «فحم كراسنودون» ، التى لم يكن موظفوها يعرفون تاريخ هذا المنزل الذى يقضون فيه جزءا كبيرا من عمرهم .

وهكذا تحولت منطقة مناجم سوروكين الى مدينة كراسنودون .

وشبت اوليا وصديقاتها ورفاقها فى المدرسة فى آن واحد مع نمو وازدهار المدينة . فى عيد الشجرة شاركوا جميعا منذ ان كانوا تلاميذ صغارا فى غرس الاشجار والاعشاب فى تلك الاماكن القفرة والمليئة بتلال القمامة ، والتى تحولت بعد ذلك الى حديقة بقرار من مجلس المدينة . وقد ظهرت فكرة ضرورة زراعة الحديقة فى اوساط قدامى الكومسومولبين الذين يذكرون «النبيل المسعور» ومستعمرة يارمانكين ، والاحتلال الالمانى الاول ، والحرب الاهلية . وثمة من يعمل منهم اليوم فى كراسنودون وقد اشتعل الشيب فى راسه ووخط شاربه القوزاقى ، الا ان غالبيتهم انتشرت فى كل ارجاء البلاد . وقد اشرف على زراعة تلك الحديقة البستانى دانيليتش الذى كان آنذاك متقدما فى السن ، وما يزال يعمل حتى اليوم فى هذه الحديقة ككبير للبستانيين بالرغم من وهن قواه .

وهكذا اخضوضرت هذه الحديقة وصارت مكان الراحة المفضل للكبار ، اما بالنسبة للشباب فلم تكن مجرد مكان ، بل كانت حياة بضة مزدهرة ، ترعرعت معهم فى آن واحد ، فتية مثلهم يتعالى حفيف

اشجارها مع الرياح . اما فى الايام المشمسة فقد كانت ملجا وارف الظلال ، ومكانا جميلا جميلا حين يعتلى القمر كبد السماء . وفى ليالى الخريف كانت الامطار تتساقط لتحمل معها الى الارض اوراق اشجارها الصفراء الذابلة وتعلن عن ذلك بصوت يحمـــل الى نفس المرء فى ظلمة الليل بعض الرعب .

هكذا ترعرع الشباب مع حديقته ومدينته وكان يسمى شوارعها واحياءها بطريقته الخاصـــة . وقد فرغـــوا من تشييد البنايات الخشبية ، واطلقوا عليها تسمية «الحى الخشبى الجديد» ، تلك البنايات التى لا اثر لها اليوم بعد ان حلت محلها مبان مشيّدة من الاحجار . الا ان الاسم ظل باقيا بعد رحيل المسمى . كما توجد حتى اليوم ضاحية تسمى «جولوبياتنيكى» («عشش الحمام») ، حيث كان يوجد ثلاث عشش يربى الشباب فيها الحمام بينما هى اليوم عامرة بالمنازل . اما ضاحية «تشوريلينو» فلم تكن ســـوى بيت واحد ، كان يقطنه عامـــل المناجم تشوريلين . وكانت «سينياكى» عبارة عن حوش الدريس . اما ضاحيـــة «ديريفيانايا» («الخشبية») فكانت عبارة عن شارع منعزل يقع خلف مزلقان السكك الحديدية فيما وراء الحديقة ، وظلت منعزلة عن المدينة ، كما ظلت المنازل هناك خشبية كما كانت . وفى هذه الضاحية كانت تعيش فتاة تدعى فاليا بورتس ذات عينين رماديتين داكنتين وضفيرتين ذهبيتين ، شديدة الاعتزاز بنفسها ، لا تتعدى السابعة عشرة من العمر . وكان «كامينايا» (الحجرية) هو الشارع الذى شيدت على جانبيـــه اولى المنازل من الآجر ، ورغما عن انها غدت اليوم كثيرة فقد ظل يحمل نفس الاسم . اما «فوسميدوميكى» («ثمانية منازل») فعبارة عن حى باكمله وشوارع شيدت حيث لم يكن يوجد سوى ثمانية منازل من هذا النوع .

كان الناس يتوافدون من شتى ارجاء البلاد الى الدونباس ، وكان اول سؤال يطرحونه : «اين سوف نعيش ؟» . وقد قام الصينى لى فان تشا بتشييد مسكن له من الطين والقش ، ثم راح «يلصق» به الحجرات الصغيرة الواحدة تلو الاخرى كخلايا النحـــل ويؤجرها الى النازحين حتى فطنوا الامر وصاروا «يشيدون» بانفسهم مساكنهم . وهكذا تكوّن الحى الكبير من حجرات طينية اطلق عليها فيما بعد

«شانغهاى» . وبدأت هذه الحجرات الشبيهة بخلايا النحـــل تظهر بمحاذاة الوهدة التى تشطر المدينة ، وفى المناطق الفضـــاء حول المدينة . كما راح الناس يسمون هذه «الخلايا» «مساكن شانغهاى» .

ومنذ ذلك الحين ، حين تم تشغيل المنجم رقم ١ ، اضخم مناجم المنطقة ، والواقع بين عزبـــة سوروكين ومستعمرة يارمانكين ، امتدت مدينة كراسنودون لتلتحم بعزبة سوروكين . وهكذا تحولت هذه العزبة التى كانت تضم الى جانبهـــا عزبا اخرى صغيرة ، الى مستعمرة «بيرفومايسكى» – احد احياء المدينة .

ولم يكن هناك ما يميز هذا الحى عن احياء المدينة الاخرى سوى وجود المنازل الباقية من عزب القوزاق . وكانت هذه منازل شيدها القوزاق كل على هواه . كما كان هناك كثير من القوزاق يعملون فى البرارى وليس فى المناجم ، يمارسون الزراعة تضمهم عدة مزارع تعاونية .

وكان منزل والدى اوليا جروموفا القديم والذى كان من املاك القوزاق يقـــع فى واد باطراف المستعمرة ، حيث كانت عزبـــة جافريلوف .

وكان ماتفى ماكسيموفيتش جروموف أوكرانى الاصل ، مـــن محافظة بولتافا ، يسعى منذ صغره برفقة ابيه وراء الكسب . وكان شابا فارع القامة قويا جميلا جسورا ، ينسدل شعره الاصفر فى حلقات على جبهته ، يعرفه الجميع عامل منجم قوى البنية ؛ كما كان موضع اعجاب الفتيات . وليس هناك ما يدعو للدهشة فى انه حين قدم الى هذه الناحية سعيا وراء الكسب فى تلك الفترة التى شهدت افتتاح اولى المناجم ، اسر فى شباك حبه ماترينا سافيليفنـــا التى كانت آنذاك صغيرة سوداء العينين قوزاقية من عزبة جافريلوف .

وقد خدم جروموف فى فوج موسكـــو الثامن الذى اشترك فى الحرب الروسية اليابانية ، وجرح ست مرات ، وحصل على العديد من الاوسمة والميداليات آخرها لقاء انقاذه لراية فوجه – راية جورج المقدس .

وقد تدهورت صحته منذ ذلك الحين . وعمل لبعض الوقت فى بعض المناجم الصغيرة ، ثم راح يعمل فيما بعد حوذيـــا فى احد

المناجم الى ان استقر نهائيا بعد حياة ترحال فى عزبة جافريلوف بمنزل آل الى ماترينا كصداق .

وما كادت اوليا تصل الى السياج المحيط بدارها الحبيبة حتى خانتها قواها . وكانت اوليا تحب امها واباها . وككل قريناتها فى عمر الشباب ولم تكن تتصور ان تحين اللحظة التى سوف يتحتم عليها فيها تقرير مصيرها وحدها بعيدا عن الاسرة . وها هى هذه اللحظة تحين !

وكانت اوليا تعلم ان امها واباها مرتبطان بالبيت وقد تقدم بهما العمر وامسك بهما المرض لدرجة يعجزان معها عن مبارحته . اما الابن فقد كان يخدم بالجيش بينما كانت هى فتاة لم يتحدد طريقها بعد فى الحياة ، وانسانا بلا منصب او وظيفة تكفل لهـــا اعالتهما . وكانت الابنة الثانية زوجة احد موظفى ادارة المنجم الذى تقدم به العمر تكبر اوليا كثيرا وتشاطر الاسرة معيشتها مع عائلته وتعول اطفالها مما يجعلها بدورها عاجزة عن اتخاذ قرار مغادرة الدار . هذا وكانوا جميعا قد قرروا عدم مبارحة هذا المكان الحبيب مهما كان الامر .

وكانت اوليا هى الوحيدة التى لم تحدد حتى تلك اللحظة الحرجة خطة واضحة او هدفا ثابتا . فقد كان يبدو لها انه من المفروض ان يحدد الآخرون قدرها . كانت تود تارة الالتحاق بالجيش وبالطيران بالذات وكتبت الى شقيقها الذى يعمل فنيا فى احد الافواج تسأله عن امكانية عونه لها فى الالتحاق بمدرسة الطيران . وتارة اخرى كانت تتصور ان اسهـــل شىء هو الانتظـــام فى دراسات اعداد الممرضات كما فعلت الكثيرات من فتيات كراسنودون ، وبالتالى يصبح من الممكن لها الانتظام بسرعة فى الجيش العامل . وتارة ثالثة كان يراودهـــا حلم غامض حول الانخراط فى العمل الفدائى السرى فى المناطق التى يحتلها العدو . وفجأة يتملكها تعطشهـــا لمواصلة الدراســـة ، حيث ان الحرب ليست ابدية وسوف تضع اوزارها ليتحتم على المرء بعد ذلك العيش والكدح . وهنا يغدو من المطلوب اناس محنكون . وهى قادرة على ان تصبح فى القريب مهندسة او مدرسة . بيد انه لم يوجد من يقرر مصيرها ولتاتى اللحظة التى يتحتم عليها فيها فتح الباب و . . .

وهنا فقط احست بفداحة ما يمكن ان تنقلب عنه الحياة . فهى مضطرة لترك والديها عرضة لدنس العدو ، والغوص فى اعماق عالم الترحال والنضال والفاقة ، والمجهول الرهيب . شعرت باقدامها تعجز عن حملها حتى كادت ان تهوى الى الارض . آه لو كانت قادرة فى هذه اللحظة على التسلل الى هذا الكوخ الصغير العامر بالحياة لتغلق نوافذه وتغوص فى فراشها الحبيب لترقد هادئة مستكينة لا تفكر فى اتخاذ اى قرار ! ومن ذا الذى يهمه امر اوليا ، تلك الفتاة السمراء الصغيرة ! نعم . . . فلتتسلل الى فراشها وتقرفص قدميها وتعيش بين ذويها ومحبيها وليكن ما يكون . . . وماذا عسى ان يكون ، ومتى يكون . . . وحتى متى ؟ واليس من المحتمل الا يكون الامر رهيبا كما نظن ؟

غير ان الرجفة اعترتها فى تلك اللحظة ازاء مشاعر المهانة التى انتابتها حين ذهب بها تفكيرها الى هذا الحد . ومع ذلك فلم يكن هناك متسع من الوقت للاختيار ، حيث هرعت امها لملاقاتها . كم من جهد بذلته كى تستطيع النهوض من فراشها ! وتقدم فى اثرها ابوها وشقيقتها وزوج شقيقتها وكذلك صغارهما . وكان التأثر الشديد قد ترك بصماته واضحة على وجوههم جميعا ، بينما انفجر اصغر ابناء شقيقتها فى البكاء . وقالت الام والدموع تنساب دون ان تحاول تجفيفها ، على خديها الشاحبين المعروقين واللذين لفحتهما الشمس :

– اين كنت غائبة يا بنيتى ؟ لقد كنت ابحث عنك منذ طلوع النهار . فلتسرعى بالذهاب الى اناتولى ان لم يكن قد بارح المكان بعد . اسرعى يا حبيبتى !

لقد كانت الام ما تزال على مسحة من جمال بالرغم من كبرها واحدوداب ظهرها . كانت جميلة ، مثلما كانت عيناها السوداوان جميلتين مثل عينى طائر برى كبير ، بالرغم من انها كانت قصيرة القامة . كما وكانت ذات طباع تتسم بالاتزان ، ذكية ، يقدر آراءها ماتفى ماكسيموفيتش وبناتهما . لكن ها هى تحين الساعة التى ينبغى فيها على الابنة تقرير مصيرها بنفسها ، مما جعل قوى الام تخور .

وتساءلت اوليا على عجل :

– من الذى بحث عنى ؟ أهو اناتولى ؟

واجاب الاب وهو يقف خلف الام سادلا يديه الكبيرتين :

– لقد جاءوا من لجنة المنطقة يسألون عنك !

لقد بدا الاب عجوزا هرما . تساقط شعر راسه عند المقدم ليبدو اصلع ولم يبق سوى شعيرات جعداء بيضاء على قفاه وفوديه . كما وخط الشيب الغزير شاربه الاحمر ولحيته الكثة ، وغطت التجاعيد وجهه ، وجه جندى حقيقى .

وعادت الام تقول :

– اسرعى يا بنيتى . . اسرعى . لكن . . انتظرى فسوف انادى بنفسى عليه . .

وهرولت هى الصغيرة العجوز بين احواض البطاطس تقصد جيرانها آل بوبوف والذين تخرج ابنهم اناتولى مع ابنتها اوليا من مدرسة بيرفومايسكى الثانوية هذا العام .

– فلترقدى يا اماه . . . سوف اذهب انا بنفسى .

واسرعت اوليا خطاها فى اثر الام ، تركض بين شجيرات الكرز وانطلقتا سويا . . الكبر الى جوار الشباب .

كان مسكنا آل جروموف وبوبوف متجاورين تفصلهما حدائق تنحدر تجاه وهدة جافة محدودة عند الاعماق بسياج من الاغصان المجدولة . وبالرغم من ان اوليا كانت تسكن طوال حياتها متجاورة مع اناتولى الا انها لم تلقه ابدا بعيدا عن المدرسة وعن اجتماعات الكومسومول التى كان يلقى فيها بتقاريره . فقد كانت له ميوله الطفولية الخاصة حين كان صغيرا ، ولما كبر راحوا يمازحونه بانه يهاب الفتيات . وحقا فقد كان حين يلقى اوليا وغير اوليا فى اى مكان سواء فى المسكن او فى الشارع يفقد السيطرة على نفسه لدرجة لا يستطيع معها المبادرة بالتحية ، وحين كان يفعل ذلك كانت الحمرة تكسو وجنتيه مما ينعكس بالتالى على اية فتاة تصادفه . وكانت الفتيات يتحدثن عن ذلك فيما بينهن ويسخرن بالتالى منه . الا ان اوليا كانت رغما عن ذلك تحترمه نظرا لسعة اطلاعه وذكائه وميله الى العزلة . كما وكان يهوى نفس الاشعار التى تحبها ، ويجمع الجعلان والفراشات والاجسام المعدنية والنباتات .

وصاحت الام التى انحنت عبر سياج الاغصان المجدولة :

– تاييسيا بروكوفيفنا . . . تاييسيا بروكوفيفنا ! توليتشكا ! لقد حضرت اوليا . . .

وهناك فى مكان ما تعالى رفيعا صوت شقيقة اناتولى . وها هو نفسه يحث الخطى بين اشجار الكرز ذات الثمار الصغيرة ، يرتدى قميصا اوكرانيا مطرزا ذيله ونهاية كميه مفتوح الصدر ، يغطى راسه بطاقية اوزبكية تشد شعره الاصفر الممشوط الى الوراء كعادته دائما .

كانت امارات الاضطراب تعلو وجهه النحيف الوقور الذى لفحته الشمس . ويبدو انه نسى تماما عادته التى تجعله خجولا فى حضرة الفتيات ، وانه يواجه اوليا . فقد راح يقول على عجل :

– اوليانا . . اننى ابحث عنك منذ الصباح الباكر . لقد طفت على جميع الصبية والفتيات . واحتجزت فيتكا بيتروف خصيصا حتى لا يرحل بدونك . وهم لدينا الآن . ان اباه يواصل صبه اللعنات والشتائم . استعدى فورا للرحيل .

– اننا لم نكن نعلم شيئا . من الذى اصدر هذه التعليمات ؟

– انها تعليمات لجنة المنطقة الحزبية وتقضى برحيل الجميع ، نظرا لان الالمان سوف يصلون هذا المكان فى القريب العاجل . لقد حذرت الجميع ، الا اننى لم اصادف مجموعتكم كلها . وكم عانيت من قلق . وها هو فيتكا بيتروف ووالده يصلان الى هنا من عزبة بوجوريلى . لقد كان ابوه فدائيا هنا فى هذه المنطقة قاتل الالمان ايام الحرب الاهلية . ومن الطبيعى انه لا يجب عليه التاخر دقيقة واحدة . ولك ان تتصورى ان فيتكا عرج خصيصا الى هنا من اجلى . انه صديق صدوق ! ان اباه يواصل اطلاق الشتائم ، بينما اقول له : «انك فدائى قديم وتدرك انه من المستحيل ترك الرفيق وحده ، كما انه من المؤكد انك انسان لا يهاب شيئا» . وها نحن ننتظرك .

راح اناتولى يواصل حديثه فى عجلة ، على نحو يبدو معه راغبا فى مشاطرة اوليا كل معاناته ينظر اليها بعينين رماديتين فاتحتين تارة ، وزرقاوين تارة اخرى اضفيتا الى وجهه الضارب الى البياض سحرا خاصا . كيف لها ان تغفل عن ملاحظة ذلك من قبل ؟ لقد كان وجه اناتولى معبرا عن قوة روحية ، وبالذات قوة تكمن فى طيات شفتيه الممتلئتين وفى تقويرة انفه العريضة .

وقالت اوليا :

– توليا . . توليا . .

وارتجفت نبرات صوتها ، ومدت يدها الرفيعة التى لفحتها الشمس اليه عبر سياج الاغصان المجدولة .

عندئذ اصابته الحيرة والارتباك .

– سريعا . . سريعا .

قالها وهو يخاف ان تلتقى عيناه بعينيها السوداوين ، اللتين تحرق اعماقه .

صارت والدة اوليا تنادى الجمع ، بينما انزلقت الدموع من مآقيها لتنساب على خديها :

– لقد جمعت كل شىء . احضروا العربة الى البوابة . . . احضروها . .

ولم تكن الام تصدق حتى تلك اللحظة ان الابنة سوف تدلف وحدها الى اعتاب هذا العالم الرحب الذى فتح ابوابه على مصاريعها . بيد انها كانت تدرك خطورة بقائها . وها هم اناس طيبون وانسان كبير يعتمد عليه والامور قد سارت على النحو الذى يمكن ان ترتضيه النفس .

وتساءلت اوليا بلهجة تنم عن بعض الحزم :

– هل حذرت يا توليا فاليا فيلاتوفا . انك تدرك انها اعز صديقاتى ولا يمكننى الرحيل بدونها .

وعلت وجه اناتولى امارات حزن عميق لم يستطع اخفاءه ولم يحاول ذلك .

وفقد اناتولى السيطرة على نفسه وقال :

– ان الخيول ليست ملكا لى ونحن اربعة افراد . . . اننى حقا لا اعلم ماذا العمل ؟

– انك تدرك اننى لن اتركها وحدها واذهب .

– ان الخيول قوية بطبيعة الحال ، لكن خمسة افراد على اى حال . . .

– اسمع يا توليا . . اقول لك شكرا . . شكرا على كل شىء . يمكنكم الرحيل ، بينما سوف ناتى وفاليا . . سيرا على الاقدام . واضافت فى حزم – وداعا !

وهنا شهقت الام بالبكاء وهى تمسح وجهها بقبضتيها كالاطفال تقول :

– يا الهى . . . كيف سيرا على الاقدام يا بنيتى ! لقد وضعت لك كافة فساتينك وبياضات الفراش فى الحقيبة . فكيف ستنامين ؟

لم ينظر توليا الى شهامة اوليا حيال صديقتها كامر غريب ، بل كقضية طبيعية ، وعلى النقيض فقد كان غريبا ان يكون سلوكها على نحو آخر . ولذا لم يعلن عن ضجره او تاففه ، بل راح يبحث عن حل لهذا المازق .وصاح يقول :

– فلتسالیها اولا قبل اتخاذ اى قرار . ولربما تكون قد رحلت بالفعل ، وربما تكون قد قررت عدم الرحيل قط . كما انها على اية حال ليست عضوا بالكومسومول .

ودبت الحياة فى ماترينا سافيليفنا ، بعد ان فقدت الشعور بحجم قواها وهبت تقول :

– سوف اجرى لانادیها .

وردت اوليا وقد استشاط غضبها :

– آه . . فلترقدى انت يا اماه ! سوف افعل ذلك بنفسى .

وتعالى صوت فيكتور بيتروف قويا ينادى من عل عند كوخ آل بوبوف :

– تولكا ! الا تحضرون بسرعة ؟

وغدا توليا يفكر بصوت مسموع :

– ان خيولهم قوية بطبيعة الحال . كما يمكننا على اى حال تناوب الجرى وراء المركبة .

ولم يتطلب الامر من اوليا ان تذهب الى فاليا ، فما كادت ترتقى هى وامها الى طرف المنزل حتى وقع نظرهما على فاليا فيلاتوفا ذات الوجه المدبب تقف بين المنزل وملحقاته المتمثلة فى المطبخ وسقيفة البقرة . كان الشحوب يكسو وجهها لا تفلح فى اخفائه لفحة الشمس الشديدة التى تركت آثارها عليه .

وقالت اوليا على عجل :

– فاليوشا . هيّا بنا ، فالخيول موجودة ، وسوف نقنعه بان يحملنا معه .

– فلتنتظرى بعض الشىء . . هناك كلمتان اود ان اسرى بهما اليك .

واخذتها فاليا من يدها وانتحت بها جانبا الى السياج وقالت لها بينما تحدق النظر اليها بعينين صافيتين واسعتين يعبران عن الم دفين :

– اوليا . . اوليا ! اننى لن اذهب الى اى مكان – واضافت بقوة – اننى . . . اوليا . . انت شخص غير عادى . نعم شخص غير عادى . ثمة شىء فيك قوى . . . كبير . انك قادرة على كل شىء . وحقا تقول امى ان الله منحك جناحين . واضافت تقول وحمى الحب تجتاحها – انك يا اوليتشكا سعادتى فى هذا العالم . . . اسعد ما املك فى هذا الوجود . الا اننى لن اذهب معك . اننى انسانة عادية . . واعلم ذلك وكنت احلم دائما بحياة عادية جدا . كنت افكر فى الدراسة ثم العمل ، الى ان اصادف بعد ذلك شخصا طيبا على خلق اتزوجه وانجب اطفالا . . . صبيا وفتاة . . . ونعيش حياة بسيطة صافية ، ولم اكن افكر فى ابعد من ذلك . اننى يا اوليا لا استطيع النضال ، اننى اخاف البقاء وحدى . نعم اننى ارى كل آمالى قد تهاوت ، الا ان امى عجوز ، ولم اسىء الى احد طوال حياتى . اننى انسانة بسيطة وسوف ابقى ... وارجو ان تسامحينى .

وراحت فاليا تبكى وهى تدفن راسها فى منديل كانت تمسك به فى يدها . واحتضنتها اوليا وضمتها اليها ثم شرعت فجاة تذرف الدمع ليتساقط على راس صديقتها اللطيف الذى الفته .

لقد تصادقتا منذ الطفولة والتحقتا بالمدرسة سويا وانتقلتا من صف لآخر سويا ، وتقاسمتا سويا ايضا اولى ايام الفرح والكآبة واولى اسرار سنى الصبا . وكانت اوليا منطوية النفس بطبيعتها لا تفصح عن نفسها الا فى لحظات الصفاء الروحى ، بينما كانت فاليا تحدثها عن كل شىء ، وتشاطرها كل شىء لدرجة انها لا تستطيع بانفعالاتها مواكبة ما تعلن عنه اوليا . ومن ذا الذى يستطيع فى سنى الصبا الاهتمام بالتفاهم المتبادل . ان السعادة تكمن فى مشاعر الثقة وامكانية مشاطرة الآخرين همومهم . وقد بدتا كما لو كانتا على طرفى نقيض ... لكن كم من الايام الخوالى

يشكل عمر صداقتهما الرقيقة المقدسة ، بينما يهوى صخر الفراق يحطم قلبيهما !

وقد ادركت فاليا انها تتخلى عن اعز واقصى ما فى حياتها ، ليبقى لديها شىء ما باهت اللون ، مجهول للغاية يبعث الرعب فى النفس .

اما اوليا فقد كانت تدرك انها تفقد ذلك الشخص الوحيد الذى كان يمكنها ان تبدو معه على حقيقتها فى احلك ساعات ضجرها او فى لحظات سعادتها . اذ انها لم تكن تهتم بما اذا كانت صديقتها سوف تتفهم موقفها ، حيث كانت دائما ما تجد صدى مشاعرها ينعكس فى اعماق نفسها طيبة وطاعة ، وحبا بها وعناية . وقد راحت تبكى حيث حانت نهاية طفولتها ، وبداية صباها ، حيث جاءت لحظة انتقالها الى عالم الكبار . . . وها هى تخرج اليه وحدها .

ولم تتذكر سوى فى تلك اللحظة ان فاليا انتزعت الزنبقة من شعرها والقت بها الى الارض . لقد ادركت اوليا السبب الذى دعا فاليا لان تفعل ذلك ، حيث انها حدست آنذاك ، لحظة تلك الصدمة ، مدى غرابة منظر صديقتها التى تزين شعرها بالزهور بينما ثمة من يفجر المناجم ولذا فقد خلصتها منها . وذلك يعنى انها لم تكن على الاطلاق ذلك الانسان العادى ، كما كانت تذكر ، بل كانت شخصا قادرا على تفهم الكثير .

وثمة شعور خفى جعلهما تدركان ان ما تشهده علاقتهما ، تشهده للمرة الاخيرة . ولم يكن ذلك مجرد شعور ، حيث انهما كانتا تدركان كونهما تتوادعان الى الابد على نحو روحى خاص . ولذا فقد شرعتا تبكيان من كل قلبيهما دون حرج من دموعهما ودون ان تحاولا الامساك عن ذرف الدموع .

وكم من الدموع التى ذرفت فى تلك السنين ، ليس فقط فى اراضى دونيتسك بل وفى كل انحاء الاراضى السوفييتية التى عانت الدمار والحرائق وارتوت بالدماء ! فثمة دموع كانت تعبيرا عن مشاعر العجز والرعب والالم الجسمانى الذى لا يطاق . لكن كم من الدموع المقدسة السامية النبيلة . . . اقدس واسمى ما ذرفته البشرية من دمع !

وما كادت المركبة تقترب من البوابة تقرقع عجلاتها واخشاب

جانبيها المائلين تئن تحت وطأة الحقائب وصرر الملابس ، يجرهـا حصانان كماتيا اللون اصيلان يمسك بزمامهما رجل ربعة متقدم فى السن مكتنز الوجه يرتدى سترة اشبه بسترة العسكريين يغطى رأسه كاب من الجلد ، حتى انفصلت اوليا عن صديقتها وهى تمسح دموعها براحة يدها ، لتعود قسمات وجهها الى سماتها الطبيعية .

– وداعا يا فاليا . . .

وبصوت حشرجه البكاء اجابتها فاليا :

– وداعا يا اوليتشكا . . .

وتبادلتا القبلات .

وتوقفت المركبة عند البوابة ، لتظهر من خلفها والدة اناتولى تاييسيا بروكوفيفنا فى صحة جيدة ، فارعة القامة قوزاقية بيضـاء فاتحة العينين والشعر ، برفقة شقيقته الصغرى ناتاشا ، وقـد كست الحمرة وجهيهما وتصببا عرقا بعد شوط طويل قطعاه جريـا وهما يبكيان . اما والده فقد التحق بالجبهة منذ اولى ايام الحرب.

وكان اناتولى يجلس على المركبة ، والى جواره فيكتور بيتروف وسيم الملامح داكن الشعر تعكس عيناه الطفوليتان اللتان تتسمان بالجرأة مشاعر حزن ، وقد انفرج قميصه على صدره يمسك فى يده جيتارا لف بشىء ما ناعم وربط بدوبارة .

والتفتت اوليا ، ثم اخذت طريقها نحو اسرتها على نحو اشبـه بجمود . بينما حمل اهل الاسرة لها الحقيبـة والمنديـل وصرر الملابس . كما اندفعت اليها امها العجوز قصيرة القامة بعينيها السوداوين الشبيهتين بعينى طائر برى كبير .

ونادتها اوليا :

– ماما . . .

وضربت الام كفا بكف وسقطت مغشيا عليها .

الفصل الخامس

لم تشهد برارى دونيتسك منذ فترة هجرة الشعوب الكبرى مثل تنقلات الجماهير هذه والتى شهدتها فى تلك الايام من يوليـو ١٩٤٢ .

فقد سارت تقطع الطرق المعبدة وغير المعبدة ، تشق البرارى تحت اشعة الشمس الحارقة وحدات الجيش الاحمر المنسحبة بعرباتها ومدفعيتها ودباباتها ، وملاجئ ورياض الاطفال وقطعان المواشى وعربات النقل والنازحون ، تارة فى قولات منتظمة واخرى شتاتا ، يدفعون امامهم عربات اليد تحمل متاعهم وصرر ملابسهم التى استقر فوقها الاطفال .

وراح كل اولئك يسيرون ، يدوسون سنابل الحبوب المزدهرة والتى حان حصادها ، دون ان يأسف اى منهم ، الذى بذرها او الذى يدوسها ، حيث غدت غريبة لايملكونها ، وسوف تئول للالمان ، وكانت حقول البطاطس فى المزارع التعاونية والحكومية فى متناول الجميع . وراح النازحون يفتشون عنها ، ويشمونها فى النيران التى اضرموها فى القش او فى سياجات القرى . كما كان من الممكن للمرء ان يصادف فى ايادى البعض ثمار الخيار والطماطم ، او شطيرة غضة من البطيخ او الشمام . كما انتشر الغبار يلف البرارى لدرجة انه كان يمكن للمرء معها النظر الى الشمس دون ان يرف له جفن .

ولقد كان ما يمكن ان يبدو للانسان الحائر ذى الادراك السطحى المنجذب كذرة رمل فى خضم تيار الانسحاب والمنعكس فى الغالب ما يدور بخلده وليس حوله ، عفويا لا معنى له ، كان فى حقيقة الامر حركة لا مثيل لهاللجماهير الشعبية الضخمة والمقدرات المادية تشرف على تنظيمها ماكينة الدولة للحرب ، المعقدة للغاية والدقيقة ، تحركها المئات والالوف من البشر كبارا وصغارا .

بيد انه وكما يحدث فى الانسحاب الاضطرارى السريع ، وعدا مسيرات العسكريين والمدنيين الرئيسية والكبيرة التى وان كانت عسيرة فقد اتسمت بالمعقولية ، كان يسير النازحون يقطعون الطرق وعبر البرارى نحو الشرق والجنوب الشرقى ، وكذلك المؤسسات الصغيرة والجماعات والفرق غير الكاملة وعربات القوات التى حطمتها المعارك وفقدت الاتصال وضلت الطريق ، ومجموعات العسكريين الذين تخلفوا بسبب المرض او اصابتهم بجراح او لعدم كفاية وسائل المواصلات . وقد سارت هذه المجموعات ، تارة كبيرة واخرى صغيرة والتى لم تكن لديها اية تصورات عما يجرى فى الجبهة فى واقع الامر ، سارت فى الاتجاه الذى بدا لها اكثر صحة وجدوى .

وسدت كافة المنافذ للحركة الاساسية وبادئ ذى بدء المعابر على نهر دونيتس ، حيث راحت تتزاحم مدة يوم باكمله حشود البشر والسيارات والعربات عند العبارات والكبارى العائمة ، بينما قاذفات العدو تقصفها من الجو .

وعلى الرغم من عدم جدوى رحيل المدنيين الى كامينسك فى مثل تلك الظروف التى تعدت فيها الوحدات العسكرية الالمانية نهر الدونيتس الى شاطئه الآخر نحو موروزوفسكى ، اندفع الجزء الاعظم من نازحى كراسنودون الى هذا الاتجاه بالذات ، حيث تحركت مخلفة كراسنودون وراءها طلائع وحدات الفرقة التى ارسلت لدعم دفاعاتنا عند دونيتس جنوبى ميلليريفو . وفى خضم هذا التيار بالذات سارت المركبة التى يجرها حصانان كماتيا اللون جيدان ، والتى كان يستقلها اوليا جروموفا واناتولى بوبوف وفيكتور بيتروف ووالده .

وما كادت تتوارى عن الاعين آخر مبانى المستعمرات وحين تجاوزت المركبة فى خضم العربات والسيارات الاخرى طريق التل المنحدر دوى فى اعماق السماء على حين غرة هدير محرك رهيب ، لتنقشع السماء عن المقاتلات الالمانية تحلق على مسافة قريبة من الرؤوس ، تحجب الشمس وتطلق نيران رشاشاتها على الطريق .

وفجأة علا الشحوب وجه ابى فيكتور ، ذلك الرجل الربعة المفعم حيوية ، مكتنز الوجه ، اجش الصوت والذى كان يغطى راسه كاب من الجلد ، وصاح بصوت تتسم نبراته بالرعب .

– الى البرارى . . . ارقد !

بيد ان الصبيين قفزا بعيدا عن العربة واندفعا الى حقول القمح . كما قفز ابو فيكتور بعيدا ملقيا عنانى الحصانين ليختفى على الفور ويصبح اثرا بعد عين ، كما لو كان روحا هيفاء وليس رجلا متين البنيان يعمل فى قطع الاخشاب ويرتدى حذاء طويلا من الجلد . ولم يبق فى مكانه على العربة سوى اوليا وحدها دون ان تعرف نفسها ما الذى حال دون ذلك . بيد انه فى تلك اللحظة اندفع الحصانان الجامحان على نحو كادا يرديان معه اوليا ارضا .

وحاولت اوليا الامساك باعنة الخيل ، الا انها لم تفلح فى الوصول اليها ، اذ ان الحصانين كادا يصطدمان بالمركبة التى كانت تتقدمهما مما جعلهما يجمحان ويندفعان جانبا على نحو كادا

معه يحطمان عريشها . ومالت بشدة المركبة الطويلة الفسيحة الثقيلة ، الا انها عادت ثانية الى وضعها ، وحفزت اوليا التى امسكت حافة العربة بيد ، بينما تشبثت بالاخرى بحمل ثقيل ، قواها للبقاء مكانها والا كانت قد داستها خيول العربات الاخرى المذعورة فيما حولها .

واذ جمح الحصانان الكبيران كماتيا اللون اندفعا يقطعان الحقول التى اتلفت ، يرغيان ويزبدان وسط الناس والعربات . وفجأة ترك مكانه على العربة الامامية شاب فارع القامة عريض المنكبين اشقر الشعر لا يغطيه شىء ليندفع نحو الحصانين على نحو بدا كما لو كان يلقى بنفسه تحت اقدامهما .

ولم تدرك اوليا على التو كنه ما حدث ، الا انها وبعد لحظة شاهدته بين رأسى الحصانين بانيابهما التى كشرا عنها وعرفيهما المنتصبين يقف شامخا تعكس عيناه اللامعتان امارات توتر خارق وجهد وتعلو الحمرة وجنتيه البارزتين ليبدو وجهه فتيا نضرا . واذ امسك بيد قوية بزمام احد الحصانين الجامحين قريبا من لجامه ، استقر فيما بينه وبين العريش الذى خاف ان يضغط عليه ، مما جعله يستند الى الحصان . ووقف الشاب شامخا حسن الهندام يرتدى حلة رمادية حديثة العهد بالمكواة ورباط عنق داكن الحمرة ، يبدو من جيب جاكتته غطاء قلم ابيض اللون . وقد كان يحاول بيده الاخرى الامساك من اعلى العريش بزمام الحصان الآخر . ولم يكن ثمة ما يشير الى كم من الجهد كلفه ذلك سوى تقلص عضلاته تحت الجاكت الرمادى ، وبروز اوردة معصميه اللذين لفحتهما الشمس .

وبنبرة هادئة وان كانت تنم عن لهجة آمرة قال :

– هس . . . هس !

وما كاد يتمكن من الامساك بزمام الحصان الآخر ، حتى سكن الحصانان على الفور وانصاعا له ، بينما واصلا هز عرفيهما يرميانه بنظرات تنم عن وحشية الا انه لم يتركهما الا بعد ان هدآ تماما .

والقى الشاب بزمامى الحصانين من يديه ، وكان اول ما فعله مما اثار غير قليل من دهشة اوليا ، ان راح يسوى بتانق براحتى يديه الكبيرتين شعره الاشقر المفروق على جانب رأسه والذى لم

ينكش تقريبا . ثم رفع هامته نحو اوليا وقد تصبب عرقا وجهه والوجنتين البارزتين وبدا اشبه بصبى طفق ينظر اليها بعينين كبيرتين واهدابهما الطويلة الذهبية الداكنة وقد انفرجت اساريره عن ابتسامة تعكس طيبة ومرحا .

– لقد كاد الـ . . . حصانان الـ . . . طيبان يحطمان كل شىء !

قالها الشاب بتأتأة خفيفة وقد ندت عنه ابتسامة عريضة بينما ينظر الى اوليا التى كانت ما تزال متشبثة بحافة العربة وبالحمل الثقيل وقد اضطرب منخراها وراحت تنظر اليه بعينيها السوداوين فى اجلال .

راح الناس يعودون الى الطريق بحثا عن عرباتهم وسياراتهم . وفى اماكن اخرى احتشدت النسوة ، من المؤكد الى جوار القتلى والجرحى ، حيث تعالت من هناك التأوهات والنواح .

وقالت اوليا وهى تنشج بمنخريها من تأثير الاضطراب :

– لقد خفت ان يصرعاك بالعريش .

– لقد كنت نفسى خائفا من ذلك . لكن الجوادين طيبان . . .

قالها فى سذاجة ، بينما راح يربت بيده الكبيرة ذات الاصابع الطويلة والتى لفحتها الشمس رقبة الحصان الملساء المعروقة ، الذى كان يقف على مقربة منه .

وهناك بعيدا ، فى مكان ما على دونيتس تعالت الى الاسماع اصوات انفجارات صماء وحادة فى ذات الوقت .

وعلقت اوليا قائلة وهى تتلفت حولها :

– كم انا مشفقة على هؤلاء البشر .

وانسابت العربات ، والناس يسيرون على كلا الجانبين الى ابعد من مرمى البصر كنهر جارف كبير .

– نعم . . . يا للاسف . ولا سيما فيما يخص امهاتنا اللواتى يعانين ! وكم سوف يعانين فى المستقبل ايضا ! – قالها الشاب الذى سرعان ما علت وجهه امارات الجد وتبدت على جبهته غضون حادة لا تتناسب وسنه .

واجابت اوليا بصوت مكتوم :

– نعم . . نعم . .

وسرعان ما تخيلت امها كيف تمددت ناحلة الجسد ضئيلة على الارض التى احرقتها الشمس .

ظهر والد فيكتور بيتروف فجاة ، كما اختفى فجاة ، الى جوار الحصانين وراح باهتمام بالغ يتحسس العنانين والسرجين وكذلك عريش العربة . وبدا من بعده اناتولى بوبوف ، وهو يضحك سخرية ويهز راسه على نحو يوحى بالذنب فى طاقيته الاوزبكية ، دون ان يفقد مع ذلك امارات الجد التى عادة ما تميز قسماته ، ثم ظهر خلفه فيكتور تعتريه ايضا امارات خجل بعض الشىء .

وسرعان ما سال فيكتور ، فيما يجول بنظراتـــه فى قلق الى العربات :

– اما يزال سليما جيتارى ؟

واذ وقع نظره على الجيتار الملفوف فى البطانية والموضـــوع وسط صرر الملابس ، نظر الى اوليا بعينين جرينتين ملؤهمـــا الحزن ، وانفجر ضاحكا .

وغطس الشاب الذى كان ما يزال واقفا بين الحصانين ، الى ما تحت العريش ورقبة الحصان ، ليظهر الى جوار العربة مشـــدود القامة عريض المنكبين اشقر الشعر لا يغطيه شىء تتسم حركته بالمرونة ، وصاح بلهجة تنم عن فرحة :

– اناتولى !

– اوليج !

وشد كل منهما على ذراع الآخر فيما فوق المرفق ، بينما حاد اوليج بنظره فى نفس الوقت نحو اوليا ، ومد اليها يده يصافحها معلنا عن لقبه :

– كوشيفوى .

وكانت كتفه اليسرى تعلو اليمنى قليلا . وبالرغم من انه كان صغير السن للغاية ، حيث ما يزال صبيا بعد ، فقد شعرت اوليا سريعا بالثقة نحوه ازاء وجهه الذى لفحته الشمس وقوامه الفارع وحركته الرشيقة ، وحتى ازاء ملبسه جيد الكى ورباط عنقه داكن الحمرة وغطاء قلمه الابيض ، وعموما ازاء نمط حركته ، كما اضفت تاتاته البسيطة عليه سمات النضارة والقوة والطيبة والصفـــاء الروحى .

اما اوليج فقد رمى بعينى شاب لفت انظاره رغما عنه ، وفى لمح البصر القد الممشوق والخصر اللدن اللذين تشدهما بلوزة بيضاء وجونلة داكنة اللون ، للفتاة الريفية التى تعودت على اعمال الحقول ، ذات العينين السوداوين المصوبتين نحوه ، وضفيرتيها المتموجتين ومنخريها غريبى التقويرة ، وساقيهـــا الطويلتين الرشيقتين ، اللتين تغطيهما جونلتها الداكنة الى ما اسفل الركبتين قليلا ، لتخفق جوانحه ، ويلتفت فى حدة نحو فيكتور يمد اليه يده وقد اعتلاه الارتباك .

وقد تلقى اوليج كوشيفوى تعليمه فى مدرسة جوركى ، اكبر مدارس كراسنودون الكائنة وسط حديقة المدينة . وكان يرى اوليا وفيكتور لاول مرة ، اما اناتولى ، فقد كانت تربطه به تلك الصداقة العفويـــة التى تظهر عادة بين نشطـــاء الكومسومول ، الصداقة من اجتماع لآخر .

وقال اناتولى :

– فلتنظر اين تحتم علينا اللقاء . وهل تذكر يوم هجمنـــا عليك دفعة واحدة لتروى عطشنا ، وقمت آنذاك بتعريفنا بجدتك !

– وضحك ثم استطرد سائلا – هل هى مسافرة معك ؟

واجاب اوليج وقد كست جبهته ثانية الغضون :

– كلا . . . لقد بقيت ج . . جدتى وكذلك امى . نحن هنا خمسة ، اخو امى ، لا يطاوعنى لسانى باى حال من الاحوال على تسميته بخالى ، وزوجته وابنهما ، علاوة على ج . . الجد الذى يقود مركبتنا – وهنا اوما براسه مشيرا الى المركبة التى تسير فى الامام وحيث تعالت الاصوات تناديه من هناك .

وكانت المركبة التى يجرها حصان اصهب خفيف الحركة قصير القامة تندفع نحو الامام ، بينمـــا راح الحصانان كماتيا اللون يطاردانه من الخلف ، لدرجة ان خياشيمها الرطبة بعثت الحرارة الى رقاب وآذان الجالسين فى المركبة .

وكان خال اوليج كوشيفوى ، نيكولاى كوروستيليف او الخال كوليا مهندسا جيولوجيا بمؤسسة «فحم كراسنودون» يرتدى حلة زرقاء اللون وسيم المحيـــا كثيف الحاجبين ، ذا عينين بندقيتى اللون ، شابا بارد المزاج يكبر ابن شقيقتـــه بسبع سنوات لا

اكثر ، يصادقه كما قرناه ، راح يشاكسه مثيرا موضوع اوليا . فقد اخذ الخال كوليا يثرثر بصوت يبعث على الملل دون ان ينظر الى ابن شقيقته :

– ان ذلك ، يا صاح ، امر لا يمكن اغفاله . فحقا تقول انك انقذت البنت من الموت ! ولن نستطيـــع هنا يا اخ التغاضى عن ضرورة ايجاد خطباء . اليس ذلك حقا يا مارينا ؟

– يالك من انسان ! لقد اصابنى الرعب حقا !

وسأل اوليج زوجة خاله الشابة :

– أليست حقا جميلة ؟ انها اعجوبة . . . يا لجمالها الرائع !

وسألته زوجة خاله وهى ترميه بعينيها السوداوين :

– ولينوتشكا ؟ آه منك انت يا اوليج .

وكانت الخالة مارينا من اولئك الخالات الحسناوات اللواتى تشابهن نسوة الصور الشعبية ترتدى بلوزة اوكرانيـــة مطرزة وعقدا ، قمحية البشرة بيضاء الاسنان ، غزيرة الشعر منفوشته ، ثم يعقها الاستعداد المفاجئ للرحيل عن التجمل .

وكانت تحمل بين يديها طفلا بدينا يناهز عمره ثلاثة اعوام ، مرحا محبا للحياة بشكل غير عادى يثيره كل ما حوله ، وكل ما تقع عليه عيناه دون ان يراوده الشك ازاء ذلك العالم الرهيب الذى يحيط به اليوم .

– كلا . . . فلتسمعونى . . . ان لينوتشكا خليقة حقا بأن تكون زوجة لاوليج . اما هذه وان كانت جميلة ، فانها لن تحبه باى حال من الاحوال حيث انه ما يزال بعد صبيا بينما هى فتاة اية فتاة !

هذا ما قالته الخالة مارينا بلهجة سريعة فى حين راحت تجول بنظر بعينيها السوداوين فى قلق الى ما حولها ، والى السماء من حين لآخر ، ثم استطردت تقول بنفس اللهجة التى تنم عن خوف :

– ان النسوة الحسنات يحببن الصبية صغار السن ، بيد ان الفتاة الصغيرة لا تحب الفتى الذى يصغرها ، واقول ذلك استنادا الى تجربتى الخاصة .

وكانت لينا بوزدنيشيفا فتاة تدرس مع اوليج فى صف واحد ، صادقها واحبها وكرس لها صفحات باكملها من مذكراته اليومية ،

لكنها لم تبارح كراسنودون . اوربما يكون اوليج قد اخطأ فى حقها بالفعل حين اعلن اعجابه بأوليا ؟ وماذا فى ذلك ؟ ان لينوتشكا سوف تظل الى الابد فى اعماق روحه ولن تكون قادرة على مبارحتها ، اما اوليا . . . ورآها ماثلة ثانية امامه ، وكذلك الحصانين ، كما واحس بانفاس الحصان الايسر التى تناهت اليه . وهل من الممكن ان تكون مارينا محقة بعد كل ذلك ، اى انه يكون من المحتمل الا تحبه هذه الفتاة لانه ما يزال بعد صبيا . . . لقد كان سريـــع الوقوع فى الحب ، وكان يعرف بالفعل ذلك .

واستمرت المركبتان تناوران فترة طويلـــة عبر البرارى فى محاولة لتجاوز القول ، بيد انه كانت هناك ايضا المئات والالوف من البشر الذين كانوا يسعون نحو الامام ، حيث انساب تيـــار الناس والسيارات والعربات فى كل مكان اينما يقع البصر .

وتدريجيا راح طيفا اوليا ولينوتشكا يفارقان مخيلة اوليج ، يحجب كل شىء ذلك التيار الجارف من البشر حيث راحت كقاربين صغيرين فى عرض المحيط ، تتمايل المركبة التى يجرها الحصان الاصهب والاخرى التى يجرها الحصانان كماتيا اللون .

وانبسطت البرارى لا حد ولا نهاية لها حتى كافة ارجاء الارض قاطبة ، وارتفع دخان الحرائق كثيفا يحجب الافق ، ولم يكن هناك بعيدا بعيدا ، فى الشرق ، سوى سحب بيضاء صافية للغاية تهيم عالية فى السماء الزرقاء . كما انه لم يكن ثمة ما يثير الدهشة اذا ما انطلقت من هذه السحب ملائكة بيضاء بمزاميرها الفضية .

وهنا تذكر اوليج امه بيديها الحنونتين الرقيقتين . .

«. . . اماه . . . يا اماه ! اننى اذكر يديك منذ تلك اللحظة التى وعيت فيها الى نفسى فى هذا العالم . اذكرهما برونزيتى اللون دائما حيث كانت الشمس تلفحهما صيفا ، لتظل آثارها ثابتة حتى شتاء ، رقيقة متسقة الا عروقهما التى كانت تبدو داكنة اللون قليلا . اوربما كانت يداك خشنتين قليلا . . . فكم من الجهـــد بذلتا فى هذه الحياة ! ومع ذلك فقد كنت اراهمـــا دائما رقيقتين احب تقبيلهما ولا سيما اوردتهما الداكنة اللون .

نعم . . . اننى منذ اللحظة التى وعيت فيها الى نفسى وحتى اللحظة الاخيرة ، حين كنت منهكة القوى ، ورحت فى هدوء تضعين

راسك على صدرى تودعيننى الى طريق الحياة العصيب . . . اذكر دائما يديك لا تكفان عن العمل . اننى اذكرهما غارقتين فى رغاوى الصابون تغسلان ملاءات سريرى يوم كانت اشبه بالاقمطة . . . اذكرك فى معطفك الفرائى تحملين شتاء العصا على كتفك وقد تدلى منها دلوان ، وبدت يدك الصغيرة فى قفازها على مقدمة العصا ، بينما رحت انت نفسك تبدوين صغيرة موبرة مثل القفاز . اننى ارى اصابعك ذات العقل الكبيرة بعض الشىء تستند الى كتاب تعليم الهجاء بينما اردد وراءك «ب . . . باء ، باء ، باء» . اننى ارى يدك القوية تغمد المنجل فى اسفل سيقان الحبوب بينما الاخرى تضغطها عليه مباشرة . . . ارى ومضة المنجل السريعة التى تحولت فيما بعد الى حركة متسقة . . . ارى حركة اليدين والمنجل التى تنضح انوثة تثنى السنابل على نحو لا تتكسر معه السيقان .

انى اذكر يديك اللتين لا تلينان ، الحمراوين المتجعدتين من برودة المياه وسمط الجليد حين كنت تغسلين الثياب ايام كنا نعيش وحدنا — وحدنا على ما يبدو فى كل هذا العالم . . . اذكر يديك حين كانتا تنتزعان بقية شوكة انغرزت فى اصبع الابن ، وحين كانتا تلضمان الابرة فى لمح البصر ، ساعة كنت تحيكين الملابس وتترنمين بالغناء — لنفسك ولى فقط . فلم يكن ثمة شىء فى هذا العالم لا تستطيعانه يداك ، او تعجزان عن اتيانه . لقد شاهدت كيف كانتا تخلطان الطين بروث البهائم لطلاء المنزل ، كما شاهدت يدك تبدو من تحت المخمل والخاتم فى اصبعك حين كنت ترفعين كوب الخمر المولدافى الاحمر . وكم كانت رقة ذراعك البض الابيض فيما اعلى المرفق حين كنت تحيطين به جيد زوجك الذى رفعك بين يديه مزاحا — زوجك الثانى الذى علمتِه ان يحبنى والذى اوقرته كابى لقاء شىء واحد — هو انك كنت تحبينه !

بيد اننى اذكر اكثر من اى شىء والى ابد الآبدين كيف كانت يداك الحرشتان بعض الشىء ، والدافئتان الحنونتان تمسحان شعرى وعنقى وصدرى ، حين كنت ارقد فى فراشى شبه واع . لقد كنت تقفين دائما اراك متى فتحت عينى تنظرين الىّ وقد غارت عيناك فى الظلمة الحالكة هادئة ناصعة كمن يلبس رداء القداس ،

بينما القنديل يبعث باشعته الوجلة بالغرفة . اننى اقبل يديك الطاهرتين المقدستين !

لقد شيعت اولادك الى الحرب ، ولو لم تفعلى انت ذلك ، لفعلته اخرى مثلك ، حيث يمكن ان لا يعود بعضهم ، واذا كان مثل هذا القدر قد تجاوزك فانه لم يتجاوز الاخرى التى لا تتميز عنك بشىء . لكن اذا ما كان الناس يملكون فى ايام الحرب كسرة خبز ، او ما يكسو اجسادهم ، واذا ما كانت اكوام المحاصيل تنتصب فى الحقول واذا ما كانت القطارات تنزلق على القضبان وتزدهر اشجار الكرز فى الحدائق وتشتعل النيران فى الافران ، وثمة قوة خفية ترفع المقاتل من الارض او الفراش حين يكون جريحا او مريضا ، يكون كل ذلك نتيجة ما بذلته يدا امى ، وامك والامهات قاطبة .

فلتنظر انت كذلك ايها الشاب ، فلتنظر يا صديقى مثلما انظر ، ولتعترف من ذا الذى اسات اليه فى حياتك اكثر مما اسات الى امك . الست انا وانت وهو ، اليست اخفاقاتنا واخطاؤنا وكوارثنا هى التى اشعلت الشيب فى رؤوس امهاتنا ؟ انه لسوف تحين اللحظة التى يتجلى فيها كل ذلك آلاما نفسية مبرحة تلم بالمرء الى جوار قبر الام .

اماه . . . يا اماه ! فلتصفحى عنى ، لانك انت الوحيدة فى هذا العالم قادرة على الصفح . فلتضعى يدك على راسى ، كما فى سنى طفولتى ، ولتصفحى عنى . . .»

لقد تزاحمت هذه الافكار والمشاعر فى نفس اوليج . فلم يكن قادرا على نسيان ان امه بقيت «هناك» ، وان جدته فيرا «رفيقة ايام المحن العصيبة» والتى كانت ايضا اما ، اما لامه وللخال كوليا ، بقيت هى كذلك «هناك» .

وعلت وجه اوليج امارات الجد ، وبدا جامدا تغطى اهدابه الذهبية الداكنة غشاوة رطبة . لقد كان يجلس محدودب الظهر يدلى ساقيه يمسك المركبة باصابعه القوية الطويلة بينما استقرت التجاعيد على جبهته .

وقد خيم الهدوء على الخال كوليا ومارينا وحتى على ابنهما الصغير ، كما خيم على المركبة التى كانت تتبعهم . وادرك التعب

الحصان الاصهب والحصانين كماتيى اللون فى هذا الحشد وتحت اشعة الشمس الحارة وشقت المركبتان طريقهما حتى وصلتا الطريق حيث خضم البشر والعربات والمركبات .

ومهما راح الناس فى خضم تيار الكارثة البشرية الهائل يمارسون من عمل او يتبادلون حديثا ، او يفكرون فى شىء ، ومهما تبادلوا النكات ، او غلبهم نعاس ، سواء كانوا يطعمون الاطفال ، او يتعارفون ، او يسقون خيولهم من الآبار التى ندرت مصادفتها ، فقد كان كل ذلك يجرى فى اطار ظل معتم يداهمهم من الخلف بعد ان بسط اجنحته فى اماكن ما من الشمال والجنوب ، وينتشر على البرارى على نحو اسرع كثيرا من هذا التيار .

وقد راح قلب كل امرئ من النازحين يئن تحت وطأة المشاعر التى اجتاحته ازاء رحيله الاضطرارى عن ارضه الحبيبة وعن ذويه ، ازاء رحيله نحو المجهول ، وازاء احتمال ان تلحق به وتدهمه تلك القوة التى دفعت هذا الظل الاسود .

الفصل السادس

بين رتل العربات والنازحين التى كانت تتحرك على جانب الطريق وحيث ظهرت المركبتان ، راحت تتهاوى عربة النقل التابعة للمنجم رقم ١ التى استقلها الى جانب جماعة العاملين ومنقولات ادارة المنجم فالكو مدير المنجم وجريجورى ايليتش شيفتسوف الذى ودعته اوليا منذ عدة ساعات فقط عند سور منزله .

وفى نفس الآن كان ياخذ طريقه «ملجأ الاطفال» الخاص بايتام الذين شاركوا فى الحرب الوطنية والذين كانوا يعيشون قبل ذلك فى حى «فوسميدومىكى» – بالاولاد والبنات الذين تناهز اعمارهم من خمسة الى ثمانية اعوام ترافقهم فتاتان – حاضنتان ، والمشرفة على الملجأ – المربية التى تقدم عمرها ، ذات عينين ثاقبتين غائبتين ، تغطى رأسها بمنديل احمر عقدته مثل الحاصدات ، وتحتذى فوق جوربها النسائى الخفيف مباشرة حذاء مطاطيا علاه الغبار .

وكانت ترافق «ملجأ الاطفال» بعض المركبات تحمل متاعه الذى كان يعتليه على التوالى اولئك الاطفال الذين كان يعتريهم الانهاك .

ومنذ تلك اللحظة التى ادركت فيه عربة المنجم رقم ١ ملجأ الاطفال ، راح ركابها يبارحونها ليحتل الاطفال اماكنهم فيها . وقد اعجبت جريجورى ايليتش صبية شقراء زرقاء العينين تعلو وجهها امارات رصانة ، ويعلق خداها عن بدانة جعلته يسميها «البالونة» لدرجة انه راح طوال الطريق تقريبا يحملها بين ذراعيه يقبل يديها وخديها المنتفخين ، يبادلها الحديث . وقد كان جريجورى ايليتش شانه شان تلك الصبية ازرق العينين ، اشقر .

وعلى الطريق خلف مركب عربات ملجأ الاطفال الذى انضمت اليه المركبتان كانت تتحرك رتلا طويلا احدى الوحدات العسكرية بمطابخها الميدانية ورشاشاتها ومدفعيتها . وقد كان يمكن لاى عسكرى محنك ان يدرك على الفور ان الوحدة مزودة على نحو جيد بالمدافع والاسلحة المضادة للدبابات . كما وكانت مدافع الهاون للحرس تتهاوى غريبة الشكل تحت سماء الدونيتس . فلم تكن تبدو على البعد العربات التى استقرت فوقها هذه المدافع ، حيث خيل ان هذه المنشآت غريبة الشكل تنساب من تلقاء نفسها فوق هذا الحشد الجماهيرى من العسكريين والمدنيين الذى امتد كثيرا من الكيلومترات .

وقد اعلن الغبار الكثيف الذى علا احذية المقاتلين والقادة لتغدو بلون الصدأ عن ان الوحدة تقطع طريقا اتصل لعدة ايام . وقد تصدر افراد سرية الرشاشات الرتل خلف المركبتين مباشرة ، يتجاوزونهما حين تمهل السير . كانوا يسيرون وقد كست الحمرة وجوههم لتغدو بلون القرميد الساخن ، يحملون على صدورهم كما الصغار ، رشاشاتهم يسندونها بيد واحدة ادركها التعب ، واحيانا تشدها الضمادات .

وسرعان ما حتمت الظروف العفوية ان تغدو المركبة التى استقلتها اوليا كما لو كانت من متاع سرية الرشاشات ، جزءا من السرية نفسها . فقد كانت دائما فى الحل والترحال فى وسط السرية ، فاينما جالت اوليا بناظريها ، كانتا يلتقيان بنظرات يوجهها اليها فى حياء واحيانا فى جسارة المقاتلون الشبان فى تلك

الاحذية واغطية الرؤوس التى علاها الغبار ، وستراتهم العسكرية التى بللها العرق مرارا لتجف ثم تبتل من جديد ، تحمل آثار الاوحال والرمال والمستنقعات والملاحات واشجار الصنوبر وتشهد على تعرضهم لسيول الامطار ولحرارة الشمس الحارقة .

وعلى الرغم من ان المقاتلين كانوا يعانون محنة الانسحاب ، فقد كانوا ، كعادتهم فى حضرة الفتيات ، فى مزاج مرح لعوب . وشأن اية سرية فى حلها وترحالها كان يوجد بها معبودها الذى يجيد المزاح . وقد راح يصيح مناديا والد فيكتور حين كان يحاول الاستفادة من ادنى فرصة للتقدم نحو الامام وهو يحث جواديه السير :

– الى اين . . كيف لك ذلك دون امر ؟ لا . . لا يا عزيزى ، فلن نسمح لكم بعد الآن ان تتقدمون دوننا . لقد سجلناكم الى الابد معنا . لقد سجلناكم على قوتنا ، ولكم كل مستلزماتكم من صابون وملابس وغذاء . اما الفتاة . . فليحفظ الرب جمالها . اننا سوف نقدم لها كل صباح القهوة . . سكر زيادة !

وراح رماة الرشاشات يضحكون وهم ينظرون من آن لآخر نحو اوليا فى مرح :

– بلا ادنى شك يا كايوتكين !

– وماذا فى ذلك ؟ اننا سوف نتحقق من ذلك فور الساعة . ايها الرفيق الرقيب ! فيديا ! هل تتصورون انه نائم ؟ فلتنظروا اليه ايها الاخوة . . انه ينام فى سيره . . . يا رقيب ! لقد فقد اتزانه .

– وانت الم تفقد عقلك ؟

– لقد فقدت العقل الغبى ، وقد ظهر بالصدفة فى راسك ، بينما احتفظت لنفسى بالذكى .

واذ امسك كايوتكين فى حرص براسه الصغير – احدى يديه على ذقنه بينما الاخرى على قذاله اسفل طاقيته التى مالت نحو احد حاجبيه فى غير اكتراث – وجحظ بعينيه ، راح يدور براسه كما لو كان يفك رقبته . وقد كان تمثيل منظر انفصال الراس عن الجسد جيدا لدرجة ان كل السرية ومن جاورها انفجروا ضاحكين . ولم تتمالك اوليا كذلك نفسها فانفجرت ضاحكة لتبدو ضحكتها

طفولية ذات رنين لتساورهـا امارات الاضطراب . وطفق رماة الرشاشات يرنون نحوها بسرور حيث كانوا يعلمون ان كايوتكين يفعل ذلك من اجلها .

لقد كان هذا الكايوتكين المرح انسانا نحيف الجسد ، الا انه كان يتسم بالمهارة الشديدة فى كل حركة ياتيها . وكانت الغضون الدقيقة تكسو وجهه الذى كان يعبر عن حركة دائمة مما كان يصعب معه تحديد سنه ، اذ كان يمكن ان يتعدى الثلاثين ، ويمكن الا يتجاوز العشرين الا قليلا . كما كان قوامه وحركاته تعكسان كونه ما يزال صبيا بعد . كانت عيناه كبيرتين زرقاوين تحيط بهما شبكة من التجاعيد الدقيقة ، تعكسان فور يلتزم الصمت انهاكا مزمنا ينبع من اعماقه . بيد انه كان يود على ما يبدو الا يلمح من حوله ذلك ، ولذا فقد كان لا يكف عن الكلام . وتوجه نحو رفاق اوليا يسالهم :

– من اين انتم قادمون ايها الشباب ؟

واجاب على سؤاله :

– انكم من كراسنودون . ولنقل ان الفتاة شقيقة احدكما . اليس كذلك ؟ او . . . ومعذرة يا والدى . . . فلربما تكون ابنتك ؟ . . ماذا يحدث ؟ ان الفتاة حرة طليقة ، ليست ابنة او شقيقة او زوجة احد . وسوف يقومون فى كامينسك بتجنيدها بالتاكيد . سوف يجندونها فى تنظيم الحركة عندما تزدحم وتغص الطرق – وهنا اشار كايوتكين بايماءة نحو كل ما يجرى بالطريق وفى البرارى . – او ليس من الافضل ان تنضم الينا بسرية الرشاشات ! اقسم لكما ايها الاخوان انكما سرعان ما تصلان الى روسيا ، وسوف تجدانها عامرة بالصبايا ، بينما ليست هناك واحدة قط فى سريتنا ونحن فى امس الحاجة الى مثل هذه الفتاة كى تغرس فينا ملكة الحديث والسلوك القويم .

– ان ذلك امر يتوقف عليها وحدها .

هذا ما اجابه اناتولى وقد ندت عنه ابتسامة بينما طفق يرنو فى ارتباك نحو اوليا التى كانت تضحك رغم محاولاتها الامساك عن ذلك ، وتنظر جانبا كى لا يلتقى ناظراها بناظرى كايوتكين الذى صاح قائلا :

– ان كان الامر كذلك فنحن قادرون على اقناعها ! اننا سوف نوكل ذلك الى شباب من سريتنا قادرين على اقناع اية فتاة !

وفجأة راودت خاطر اوليا فكرة انقبض معها قلبها . . «واى شىء يمكن ان يحدث ان ذهبت معهـــم . . . ان قفـــزت من المركبة . . . وذهبت ؟!»

ولم يغض اوليج كوشيفوى الطرف عن كايوتكين كمن اسره سحره ، بينما راح يواصل مسيرته الى جوار المركبة . لقد اغرم به وود لو ان الجميع كانوا كذلك . فلم يكن كايوتكين يكاد يفتح فاه حتى ينفجر اوليج ضاحكا ملقيا برأسه الى الوراء بحيث تبدو اسنانه كلها . لقد راح يفرك يديه من فرط اعجابه بكايوتكين بيد ان الاخير لم يكن يشعر بذلك ، بل ولم ينظر اليه مرة واحدة ، كما لم ينظر كذلك نحو اوليا او نحو كل هؤلاء الذين راح يرفه عنهم .

وفى احدى تلك اللحظات ، حين تفوه كايوتكين باحدى الكلمات التى تنم عن تهور مما اثار ضحك المقاتلين ، لحقت بالسرية عربة برمائية كانت تقطع البرارى تغطيها الاتربة الكثيفة .

– انتباه ! . .

صدر هذا الامر عن النقيب طويل الرقبة معروفها الذى ظهر من اعماق السرية وهو يضع يده على جراب مسدسه المتأرجح ، يسرع الخطى بساقيه النحيفتين نحو العربة البرمائية التى توقفت الى جوارهم ، ومن حيث اطل جنرال بدين يضع كابا جديدا على راسه المستدير الضخم ، معلقا على ذلك بقوله :

– لا داع . . . لا داع . . . استرح !

وغادر العربة ، ليشد على يد النقيب التى ادى بها التحية ، بينما راح يجول بسرعة فى رماة الرشاشات الذين كانوا يسيرون فى الغبار بعينيه الصغيرتين اللتين تلالاتا بوجهه البسيط الذى ينم عن صرامة . وقال فى دهشة واضحة :

– يا للمصادفة . . رجالنا من كورسك ! . . وكايوتكين !

واذ اشار الجنرال بيده الى عربته البرمائية حتى تتبعـــه بالبرارى ، راح يسير الى جوار رماة الرشاشة فى خطوات رشيقة لا تتناسب مع بدانته ، واستطرد يقول فى مرح بينما يوجه نظراته

نحو كايوتكين ، وان كان حديثه موجها نحو المقاتلين الذين تدافعوا نحوه اثناء السير :

– كايوتكين . . . هذا عظيم . . . فلئن ما يزال كايوتكين على قيد الحياة فان ذلك يعنى ان روح القوات لا تقهر .

– مستعد دوما لخدمة الوطن !

قالها كايوتكين بلهجة تنم عن جدية شديدة ، وليس بتلك التى كان يتحدث بها قبل ذلك وتنم عن مزاح ومزاج رائـــع مصطنع .

وسأل الجنرال قائد السرية الذى يسير الى جواره ، متأخرا عنه بعض الشىء :

– ايها الرفيق النقيب . هل يعلـــم المقاتلون الى اين نحن متجهون ولماذا ؟

– يعلمون ايها الرفيق الجنرال !

– لقد اظهروا براعتهم آنذاك عند محطـــة المياه . . هل تذكرون ؟

ورمى المقاتلين المتزاحمين من حوله بنظرة ليستطرد قائلا :

– والاهم من كل ذلك انكم حافظتم على حياتكم . . . وتلك هى القضية !

وقد قال ذلك كما لو كان ثمة من يعارضه – فليس صعبا على المرء ان يفقد حياته .

وكان الجميع يعرفون ان الجنرال لا يغدق المديح بشأن الماضى بقدر ما يفعل ذلك فى سبيل تهيئتهم للمستقبل . وفارقت البسمة افواه الجميع ، لتحل محلها سمة مشتركة ذات معنى .

وقال الجنرال :

– انكم مقاتلون فى مقتبل العمر . . فهل تعلمون اية خبرات تملكون ؟ وهل يمكن على سبيل المثال المقارنة بما كان عليـــه الامر يوم كنت فتيـــا ؟ لقد مضى ذلك العهـــد حين قطعت ذلك الطريق . . غير ان العدو كان غير عدو اليوم ، والاسلحة كذلك ! ولئن قورنتم بتلك المدرسة التى تخرجت منها ، لوجدتم انفسكم من خريجى الجامعات . .

واومأ الجنرال برأسه الكبير على نحو يوحى بانه متردد بين

فكرة يود تارة تاكيدها ، وتارة طردها بعيدا . وقد تجلى ذلك فى امارات سخط فى بعض الحالات ، وامارات رضا فى حالات اخرى . ومن المؤكد انه كان يشعر بالارتياح ازاء تذكره ايام صبـــاه ، واسعده منظر رماة الرشاشات فى هيئتهم القتاليـــة التى تعودوا عليها .

وتوجه كايوتكين يسال الجنرال :

– فلتسمحوا لى . . هل ذهب العدو بعيدا ؟

واجابه الجنرال :

– اجل . .

– وهل سوف يستمر الى ما هو ابعد من ذلك ؟

والتزم الجنرال الصمت قليلا ، بينما هو ما يزال يواصـــل السير .

– ان ذلك يتوقف علينا سويا . لقد راح يشحذ قواه منذ انزلنا به الضربة شتاء . كما جمع العتاد من كل انحاء اوروبا ووجه ضربته نحونا فى مكان واحد . وكان يظننا لن نصمد . كما وانه لا يملك احتياطيات . . وتلك هى القضية !

ووقع نظر الجنرال على المركبـــة التى كانت تسير بالامام ، ليتعرف فجاة فيما بين راكبيها على تلك الفتاة الوحيدة بالطريق ، والتى حلقت فوقها القاذفات الالمانية . وقد تخيل فيما بين نفسه كل ما كان يمكن ان يطرأ على مصير وروح تلك الفتاة خلال تلك الفترة التى استطاع فيها مستقلا عربته البرمائية تفقد النســـق الثانى للفرقة واللحاق بوحدات المقدمة التى تجاوزت كراسنودون. وعلت وجهه امارات لا تنم عن اشفـــاق صريح بل قلق غامض ، ليعلن عن رحيله سريعا :

– اتمنى لكم التوفيق !

واذ اشار بيده الى العربة البرمائية كى تتوقف ، تقدم سريعا نحوها بتلك الخطوة الخفيفة التى تغرب على بدانته .

وقد كانت تتسم بالجدية كل ايماءات كايوتكين وكل الاسئلة التى وجهها رماة الرشاشات الى الجنرال طوال فترة تواجده بينهم . اذ انه كما يبدو لم يكن يعتقد ضروريا اظهار امام الجنرال تلك السمات التى ميزته بين المقاتلين وجعلته محبوبهم . لكن ما ان

توارت العربة البرمائية عن الانظار حتى عادت الى كايوتكين من جديد حيويته ومرحه المزاحى .

وظهر من بين صفوف القافلة الخلفية جندى مشاة ضخم القامة ذو يدين كبيرتين سوداوين كالمقلاتين ، يلهث ممسكا فى يده بادوات ثقيلة ملفوفة فى خرقة مشبعة بالزيوت ، يسال :

– ايها الرفاق ! لقد قيل لى ان سيارة المنجم تسير هنا . . . فاين هى ؟ واجابه كايوتكين مازحا وهو يشير الى عربـــة النقل الغاصة بالاطفال :

– ها هى . . . لكنها واقفة لا تسير !

وكانت القافلة متوقفة حقا لتعطل الحركة فى الامام .

وذكر المقاتل وهو يتقدم نحو فالكو وجريجورى ايليتش الذى انزل عن ركبتيه الفتاة الشقراء الى الارض فى حرص :

– معذرة ايها الرفاق . . . اننى اود اعطائكم ادوات ، فانتم رجال عمل وسوف تفيدكم بينما هى بالنسبة لى عبء ثقيل لا حاجة لى به بالطريق .

وراح يفك امامهم الخرقة المشبعة بالزيت .

ومال فالكو وجريجورى ايليتش يرقبان عمله ، الذى ما ان فرغ منه حتى صاح مزهوا :

– هل تريان ؟

وعرض عليهما طقم من ادوات البرادة الجديدة فى تلك الخرقة التى بسطها على يديه الكبيرتين .

وساله فالكو ، محدقا فيه بعينيه السوداوين ، كعينى غجرى ، من تحت حاجبيه الكثين فى غير مودة :

– لست افهمك . . . هل تود بيعها ؟

وعلت الحمرة وجه المقاتل الذى كان دون ذلك احمر كمـــا القرميد ، لدرجة جعلته يتصبب عرقا . واجابه قائلا :

– كيف استطاع تفكيرك ان يبلغ بك الى هذا الحد ؟ لقد وجدتها بالبرارى ، ملفوفة فى هذه الخرقة . لا بد ان تكون قد ضاعت من احد .

وابتسم فالكو ساخرا :

– اوربما يكون قد القى بها حتى يتيسر له الفرار !

وذكر المقاتل فى برود ، متحولا بحديثه نحو جريجورى ايليتش:

– ان رجل العمل لا يلقى بادوات عمله . لقد فقدها .

– شكرا . . . شكرا ، يا صديق . .

قالها جريجورى ايليتش وراح يساعد المقاتل فى عجل فى اعادة الادوات الى الصرة . وبادله المقاتل القول وقد داخله بعض المرح :

– لقد كان حسنا ان وجدت صاحبها فهى جيدة ، ومن الخسارة ضياعها . انكم تستقلون عربة ، بينما اقطع طريقى مترجلا وحملى ثقيل . تمنياتى بالتوفيق !

واذ صافح المقاتل جريجورى ايليتش وحده عاد مهرولا نحو قافلته التى سرعان ما اختفى فى خضمها .

وراح فالكو يقتفى بنظره اثره بعض الوقت فى صمت ، بينما ارتسمت قسمات وجهه بامارات استحسان بالغ . ثم نطق بصوت اجش :

– يا له من انسان حقيقى !

وقد كان جريجورى ايليتش الذى امسك بالادوات فى احدى يديه بينما راح يرتب بالاخرى شعر الفتاة الشقراء ، كان يدرك ان تحفظ المدير ازاء المقاتل لم يكن نتيجة طباع جافة . اذ انه من المؤكد ان يكون قد اعتاد خداع البعض له ، كمدير لمنجم يعمل به الآلاف ، وينتج يوميا الوف الاطنان من الفحم . اما الآن فقد نسف المدير بنفسه ذلك المنجم ، ليرحل بعض عماله ، بينما بقى البعض الآخر يواجه الموت . ولقد راح جريجورى ايليتش يتأمل لاول مرة مدى الحزن الذى خيم على نفس المدير .

وعند المساء راح يتعالى الى الاسماع دوى قصف المدفعية . ولقد غدا هذا القصف مسموعا على نحو اشد ليلا ، لدرجة غدا ممكنا معها تمييز اصوات طلقات الرشاشات . وفى منطقة كامينسك ، كانت تظهر طوال الليل ومضات قصف النيران ، التى كانت تبلغ قوتها فى بعض الاحيان درجة اضاءة القافلة باكملها . وراح لهيب الحرائق يصبغ السماء هنا وهناك باللون الخمرى القانى ، كما بدت قمم التلال وسط البرارى المعتمة تغمرها اطياف ضوء احمر قاتم .

وتحدث والد فيكتور الذى ظل جالسا فى صمت بالمركبة يدخن لفائفه التى انبعثت اشعتها تضىء فى الظلمة وجهه المكتنز ، يقول :

– هذه ... هى المقابر المشتركة ... انها ليست بالمقابر القديمة جدا ، انها مقابر ابناء جيلنا . – واستطرد يقول بصوت خافت – لقد وصلنا الى هنا تحت امرة بارخومينكو بل وتحت امرة فوروشيلوف نفسه . . ووارينا اشقاءنا التراب .

وراح اناتولى وفيكتور واوليج واوليا ينظرون الى التلال الغارقة فى خضم هالة النيران .

– حقا . . . كم من الموضوعات الانشائية كتبنا فى المدرسة عن تلك الحرب ، وكم كنا نحلم بالنضال ، ونحسد آباءنا عليه . وها هى تحل بنا كما لو كان عن عمد ، حتى نعلم حقيقة انفسنا . . هذا بينما نحن راحلون !

هذا ما علق به اوليج ، وتنهد .

واثناء الليل طرات بعض التغيرات على ترتيب القافلة . اذ توقفت سيارات ومركبات المؤسسات والمدنيين ورتل النازحين ، لاخلاء الطريق امام الوحدات العسكرية كما قيل . وجاء دور سرية رماة الرشاشات التى راحت تعيد تنظيم صفوفها تحت جنح الظلام تتعالى خافتة اصوات اسلحتها ، ولتتحرك فى اثرها كل الوحدة . وتزاحمت العربات جانبا تزار محركاتها ، كى تفسح الطريق امامها. وراحت اضواء السجائر تغالب الظلمة لتبدو كما النجوم فى اعالى السماء .

ولمس احد السائرين مرفق اوليا ، لتلتفت نحوه ، فاذا به كايوتكين يقف الى جوار المركبة المواجهة لتلك التى يستقلها والد فيكتور ، وحيث وقف الصبيان وهمس اليها بصوت يسمع بالكاد :

– هل استأذنك دقيقة واحدة ؟

وكان صوته ينم عن شىء ما جعلها تهبط اليه ، وليبتعدا سويا بعض الشىء وذكر كايوتكين فى هدوء :

– معذرة للازعاج . لا يجب عليك الرحيل الى كامينسك ، اذ انها وشيكة الوقوع فى حوزة الالمان ، بينما اجتازوا الدونيتس حيث توغلوا بعيدا على الشاطئ الآخر . وارجو الا تخبرى احدا بما ذكرته لك . فلست املك الحق فى ذلك . انكم من ذوينا ،

ويؤسفنى ان تهلكوا دونما داع . يجب عليكم التوجه نحو الجنوب ونأمل من الله ان يسعفكم الوقت لذلك .

وقد كان كايوتكين يتحدث مع اوليا فى حذر شديد كمن يمسك بالنار بين يديه ، بينما كانت الظلمة تحجب وجهه بعض الشىء ليبدو صارما يوحى بالطيبة فى آن واحد ، تتألق عيناه دون ان تعلن عن اية امارات ارهاق .

ولم تترك كلمات كايوتكين اثرا على اوليا بمقدار ما اثرت فيها الطريقة التى تحدث بها اليها ، وراحت تنظر اليه فى صمت .

وتوجه كايوتكين يسألها بصوت خافت :

– ما اسمك ؟

– اوليانا جروموفا .

– اليست معك صورة تهدينني اياها ؟

– كلا .

واعاد كايوتكين ما ذكرته فى حزن : – كلا . . .

وتملك اوليا على حين غرة شعور بالشفقة تجاهه ، وفى ذات الوقت رغبة فى المشاكسة ، جعلتها تميل نحوه قريبا ، تهمس اليه :

– ليست لدى صورة ، لكنك اذا ما امعنت النظر جيدا . . . جيدا الىّ – والتزمت الصمت وراحت تحدق فى عينيه بعض الوقت ، ممعنة بناظريها السوداوين ثم استطردت تقول – فلن تنسانى . . .

ووقف لا يحرك ساكنا ، سوى ان راحت عيناه الكبيرتان تلمعان فى الظلام على نحو حزين . وهمس بصوت يسمع بالكاد :

– نعم . . . اننى لن انساك ، لانه لا يمكن نسيانك ! وداعا !

وانطلق يقرقع حذائه العسكرى الطويل ، ليلحق بوحدته التى راحت الظلمة شيئا فشيئا تلفها واضواء سجائرها .

وراحت اوليا تمعن الفكر فى امكانية البوح بما اسر اليها به ، وان كان على ما يبدو خبرا ليس مقصورا عليه وحده ، بل وتنامى الى علم القافلة كلها .

اذ انها وحين اقتربت من المركبة ، شاهدت كثيرا من

السيارات والمركبات تحيد عن الطريق نحو البرارى الى الجنوب الشرقى . وفى ذات الاتجاه انطلقت تسير جموع النازحين .

وتعالى صوت فالكو الاجش يقول :

– يتحتم علينا التوجه نحو ليخايا .

وسأله ابو فيكتور عن شىء ما ، ليرد عليه بقوله :

– ولم نفترق ، فلنتحرك سوية ما دامت الاقدار قد جمعتنا .

وادركهم الفجر فى البرارى . وكم كان رائع المنظر فى البرارى ! فقد خيمت السماء الصافية فوق الحقول البكر الشاسعة وغطت اعماق الوديان الاعشاب الخضراء الناصعة ، تتلألأ فوقها قطرات الندى الفضية تعكس اشعة الشمس الرقيقة التى انزلقت تواجه البشر بطول الوديان . بيد ان اوجه الاطفال المرهقين الذين اضناهم النوم ، والكبار التى تنم عن كآبة وحزن وقلق دفين بدت اكثر عبوسا وتجهما تحت وقع اشعة هذا الصباح الباكر .

وشاهدت اوليا مديرة ملجأ الاطفال . فى حذائها المطاطى الطويل الذى علاه الغبار واحتذته على جوربها النسائى الخفيف مباشرة . كانت امارات الارهاق والجهامة تكسو وجهها ، اذ قطعت الطريق كله سيرا على الاقدام ، ولم تستقر على احدى المركبات الا فى الليلة الماضية . ويبدو ان شمس الدونيتس قد جففت وجهها واحرقته تماما . كما يبدو انه لم يغمض لها جفن حتى فى الليلة الماضية ، وراحت دون ان تنبس ببنت شفة تمارس عملها بصورة تلقائية ، تعكس عيناها الثاقبتان الساهمتان امارات غريبة لا وجود لها فى هذا العالم .

وراح هدير المحركات يعم الاجواء دونما توقف منذ الصباح الباكر . الا ان الطائرات لم تكن بادية للعيان ، ولم تكن هناك سوى اصوات انفجارات تدوى فى مكان ما على اليسار تهز ارجاء الجو ، واصوات الرشاشات تطلق نيرانها عالية نحو السماء فى بعض الاحيان .

وهناك ، بعيدا فوق الدونيتس وكامينسك دارت المعارك الجوية التى لم تكن فى مرمى النظر ، وان كانت اصداؤها قد بلغت الاسماع . مرة واحدة فقط هى التى تيسر فيها للنازحين رؤية قاذفة المانية تحلق على ارتفاع منخفض بعد ان افرغت حمولتها .

وفجأة قفز اوليج من على مركبته وانتظر حتى لحقت به المركبة الاخرى ، ليسير الى جوارها ممسكا بحافتها وهو ينظر الى الرفاق وقد اغرورقت عيناه بالدموع قائلا والقلق يتخلل نبراته :

– او يمكننا تصور ذلك . . لا ، فلنتصور انه اذا عبر الالمان الدونيتس ، ولئن كان على هذه الوحدة التى قطعت الطريق الى جوارنا التصدى لهم عند كامينسك فان هذا يعنى هلاكها ، هلاك رماة الرشاشات اولئك ، وهذا الفتى الرائع الذى ادخل المرح الى نفوسنا جميعا وذلك الجنرال . . . الهلاك للجميع ! ولقد كانوا جميعا يدركون ذلك ،. كانوا يدركون بينما يسيرون الى جوارنا .

وبلغت فكرة كون كايوتكين قد ودع اوليا قبيل استشهاده اعماق قلبها ، ليهصر الخجل كيانها حين تذكرت ما قالته له . الا ان صوتا صافيا ناداها من الاعماق مؤكدا لها انها لم تذكر لكايوتكين ما يمكن ان يعكر صفوه حين تدنو ساعته .

الفصل السابع

كان النازحون يواصلون اجتياز مدينة كراسنودون ، التى كانت ما تزال اسيرة سحب الغبار الذى غطى ثيابهم وكذلك الازهار واوراق نبات راعى الحمام ، والقرع بطبقة مال لونها الى الاحمرار المشوب بالقذارة .

وبعيدا فيما وراء حديقة المدينة كانت تسمع اصوات عجلات القطار يسير اماما وخلفا ، يحمل من منجم لآخر ما تيسر حمله من المعدات ، يتعالى الى الاسماع ضجيج قاطرته وصفيرها ، وبوق المحولجى . ومن هناك ، من منطقة المزلقان ترامت اصوات بشرية غاضبة ، ودبيب اقدام تثير الاتربة ، وهدير محركات ، وقرقعة عجلات المدافع تجتاز قضبان السكة الحديدية مما يعنى ان ثمة وحدات عسكرية فى طريق الانسحاب . وخلف الاكمات تعالت هنا وهناك اصوات قصف مدفعية تترامى على البعد ، كما لو كان برميل ضخم فارغ يتدحرج خلف تلك التلال فى فضاء البرارى المترامية الاطراف .

وفى الشارع العريض الذى يفضى حتى بوابة الحديقة والى جوار مبنى حجرى من طابقين حيث كانت مؤسسة «فحم كراسنودون» وقفت عربة نقل يحمل اليها الناس رجالا ونساءا بقايا متاع المؤسسة التى فتحت ابوابها على مصاريعها .

كان الجميع يعمل فى هدوء وصمت ومهارة . وعلا الغبار وقطرات العرق اوجههم التى علتها قسمات قلق يشوبه غضب ، وايادیهم التى اضناها حمل الصرر والحقائب . وانتحى جانبا ، اسفل احدى نوافذ مبنى المؤسسة شاب وفتاة استغرقا فى حديث ملك كل اهتمامهما ، على نحو فاق بكل تاكيد اهمية عربة النقل تلك ، والناس الذين علت وجوهم الاتربة والعرق ، وكذلك كل ما كان يدور حولهما .

كانت الفتاة ضخمة الجسد بدينة ذات شعر كستنائى وعينين حولاوين بعض الشىء ، داكنتين يتالقان خفيفا ترتدى بلوزة وردية ، وتحتذى حذاء اصفر اللون على قدميها العاريتين . وقد جعلها هذا الحول الخفيف تنظر الى الشاب وهى تدور براسها الصغير المستند الى رقبة بدينة بيضاء .

وكان الشاب فارع القامة محدودب الظهر قليلا يرتدى قميصا ازراره من الجانب على النمط الروسى ، ازرق اللون قصير الكمين لا تتناسبان مع ذراعيه الطويلتين ، يحيط بخصره حزام غير عريض ، وسروالا قصيرا رمادى اللون ذا خطوط بنية ويحتذى شبشبا على قدميه العاريتين . كما كان شعره الطويل الداكن اللون يتمرد عليه ، حين يتحدث فيسقط على جبهته واذنيه مما كان يجعله من آن لآخر يلقى براسه بحدة الى الوراء ليعيده الى مكانه . وكان وجهه ينتمى الى فصيلة الوجوه الشاحبة التى لا تتاثر باشعة الشمس . علاوة على ان الشاب كان خجولا وعلى نحو واضح . بيد ان قسمات وجهه كانت تعكس طابعا مرحا اصيلا وملكة ايحاء كامنة يمكن ان تفصح عن نفسها مما دفع الاضطراب الى نفس الفتاة التى لم تكف عن النظر اليه .

ولم يكونا يعيران اى اهتمام ما اذا كان من حولهما يسمعانهما او ينظران اليهما . بيد ان ثمة من كان يرقبهما .

وبعرض الشارع والى جوار بوابة مبنى نموذجى توقفت عربة

ركوب سوداء من الطراز القديم يعلو عن الارض كثيرا هيكلها المصاب برضوض شديدة وقد خدشت بعض اجزائه الى درجة لمعان معدنه وبدا «كجمل الانجيل الذى اضطر الى العبور من ثقب الابرة» ليتسلغ جانباه . وقد كانت السيارة من باكورة صناعة السيارات السوفييتية والتى لم تعد متداولة فى كل مكان وسميت «جازيك» .

نعم ، لقد كانت عربة «جازيك» من تلك التى قطعت آلاف ، وعشرات آلاف الكيلومترات فى برارى الدون وكازخستان ، وفى سهوب تندرا الشمال ، وتسلقت جبال القوقاز وباميز عبر دروب اشبه بدروب الماعز ، وتوغلت فى غابات التايجا فى الطاى وسيخوتيه-الين ، وخدمت العاملين على بناء سد الدنيبر ومصنع الجرارات فى ستالينجراد ومصنع الحديد والصلب فى ماجنيتوجورسك ، ونقلت تشوخنوفسكى ورفاقه الى مطار الشمال لانقاذ بعثة نوبيلى ، وزحفت تجابه العواصف والجليد عبر آمور تعاون اوائل بناة كومسومولسك . وقصارى القول لقد كانت عربة «جازيك» من تلك العربات التى حملت عبء الخطة الخمسية الاولى ، والتى تقدم بها العمر لتخلى اماكنها لمثيلاتها الاكثر عصرية من انتاج تلك المصانع التى ساهمت هى فى انشائها .

وكانت العربة التى توقفت الى جوار المبنى النموذجى من الطراز المغلق «ليموزين» . وقد استقر داخلها فى «الدواسة» امام المقعد الخلفى صندوق طويل ثقيل ، وحقيبتان علت احداهما الاخرى ، وضعتا بعرض المقعد والصندوق ، وفوق الحقيبتين كان كيسان محشوان بلغا سقف العربة ، وقد ركن الى جوارهما رشاشان بعلبتى ذخيرتهما علاوة على علب ذخيرة اخرى استقرت بجوارهما . واخذت مكانها على الجزء الباقى من المقعد امراة شقراء لفحتها الشمس ، جامدة الملامح ، ترتدى رداء ضاع لونه من تاثير الحل والترحال وقد تركت آثارها عليه الشمس والامطار . ولم يكن ثمة مكان تستقر فيه قدماها ، فوضعت احداهما فوق الاخرى واسندتهما بين الصندوق والباب .

وراحت المراة تنظر فى قلق عبر الثغرات الكامنة فى ابواب العربة – فقد تحطم زجاج تلك الابواب منذ زمن بعيد – تارة نحو درج المبنى ، واخرى نحو العربة يجرى تحميلها عند المؤسسة .

وكان من الواضح ان ثمة من تنتظره ، تنتظره منذ مدة طويلة ، كما كان يسيئها ان انظار اولئك الذين يعملون على تحميل عربة النقل يمكن ان تقع على العربة الليموزين وعليها هى المراة داخلها . وعلت امارات القلق وجهها جامد الملامح ، لتسند ظهرها ثانية الى المسند وتروح تتفرس عبر ثقب فى الباب فى الشاب والفتاة اللذين كانا ما يزالان يواصلان حديثهما قرب المبنى . وشيئا فشيئا اخذت امارات التجهم تفارق وجهها ، لينعكس فى عينيها الرماديتين طيف واهن لابتسامة طيبة تنم عن حزن ، ندت عن شفتيها الجامدتين الواضحتى الرسم .

وكانت المراة تبلغ الثلاثين من العمر ، ولم تكن تعرف ان هذا الطيف الذى تراءى على وجهها حين كانت تنظر الى الشاب والفتاة لم يكن يعنى سوى تعبير عن انها بلغت الثلاثين ، وانها لن تغدو مرة اخرى مثلهما .

وكان الشاب والفتاة يتطارحان الغرام على الرغم من كل ما يحدث حولهما ، وكل ما يشهده العالم اجمع . ولم يكونا قادرين على الامساك عن ذلك ، حيث كان محتما عليهما الفراق . غير انهما كانا يفعلان ذلك كما يفعل قرناؤهما فى سنى الصبا ، اى يتحادثان حول كل شىء عدا الحب .

وصارت تقول بينما ترنو نحوه بعينين نيرتين ، تدور براسها على ذلك النحو الذى لم يكن هناك احب منه الى قلبه فى ذلك العالم :

– كم انا سعيدة يا فانيتشكا بحضورك ، وكانما تخلص قلبى من ذلك العبء الذى كان يرزح تحته . لقد تصورت اننا سوف نرحل دون ان نلتقى .

وتساءلت بصوت اجش وهو ينظر اليها من عل بعينين عكسا ذلك الوحى الذى بدا كامنا فيهما كالجمر :

– اتعلمين ذلك السبب الذى منعنى من التردد عليك طيلة تلك الايام ؟ اننى اعلم رغما عن ذلك انك تدركين كل شىء . لقد كان يجب على الرحيل منذ ثلاثة ايام . لقد اعددت نفسى للرحيل بل وتهيات فى اجمل زينة كى احضر اليك لوداعك ، وفجاة . . استدعيت الى لجنة المنطقة للكومسومول . لقد صدر الامر بالتهجير ، لتنقلب كل الامور راسا على عقب . وكم حزنت على فراق زملائى فى المدرسة

الذين رحلوا ، بينما بقيت . لقد جاؤوا يطلبون العون ، وحقا ارى ضرورة تقديم هذا العون ... ولقد افرد لى اوليج مكانا بمركبتهم وعرض على الرحيل الى كامينسك . وانت تعلمين مدى صداقتنا ! غير اننى على الرغم من ذلك شعرت بالحرج ولم ارحل .

وقاطعته قائلة دون ان تغض الطرف عنه بعينيهـــا اللامعتين بعض الشيء :

– هل تعلم اننى اشعر نفسى وكانما انزاح ذلك العبء الذى كان يرزح فوق قلبى .

واجابها بصوته الاجش دون يحول نظره عنها ، وقد اسره ذلك الدفء الرقيق الجارف الذى انبعث من وجهها الذى علتـــه الحمرة قليلا ، ومن عنقها البدين ومن جسدها المشدود داخل بلوزتهـــا الوردية :

– لقد كنت حقا اشعر بالسعادة تجتاح اعماقى ، حين رحت افكر فى اننى سوف اراك كثيرا ، كثيرا . بيد ان الامر لم يكن كذلك هل لك ان تتخيلى . . مدرسة فوروشيلوف ، مدرسة جوركـــى ، ونادى لينين ومستشفى الاطفال ، كل ذلك يدخل فى اطار واجبى . ويا لحسن حظى ان وجدت مساعدا جيدا – جورا اروتيونيانتس . هل تذكرينه ؟ انه من مدرستنا . ويا له من شاب ! لقد استجاب من تلقاء نفسه . اننا لا نذكر ليلة استمتعنا فيها بالنوم ، حيث رحنا ليل نهار نمارس العمل فى تحميـــل العربات والمركبات ، تارة نصلح من شأن عجلة سيارة ، واخرى نرسل فيها مركبة الى الحداد لاصلاحها . ويا له من كابوس مزعج ! غير اننى كنت اعلم انك لم ترحلى . وقد اخبرنى ابى بذلك – وهنا ندت عنه ابتسامة استطرد بعدها يقول :

– لقد مررت بالامس الى جوار بيتك حيث علا وجيب قلبى حين راودتنى فكرة طرق بابك . – وضحـــك ثم مضى يقول : – لكننى تذكرت اباك مما جعلنى اخاطب نفسى قائلا . . صبرا يا فانيا !

وشرعت تقول :

– هل تعلم ان ثمة عبئا . .

غير انه قاطعها قائلا :

– واليوم . . قررت المخاطرة . . فلربما ترحلين ! ترحلين دون ان اراك !

وما عساك ان تقولى ؟ لقد اتضح انه لم يهجر بعد ملجأ الاطفال الكائن فى «فوسميدوميكى» الذى افتتحوه شتاء للايتام . اذ لجأت الى مديرته التى تقطن بجوارى ، تقول والدموع تكاد تنزلق من عينيها : «فلتساعدنا ايها الرفيق زيمنوخوف . فلتحاول ولو عن طريق لجنة الكومسومول الحصول على وسيلة للنقل» . وذكرت لها ان اللجنة قد رحلت واشرت عليها بالتوجه الى قسم التعليم الشعبى ، الا انها اجابت : «لقد كنت مرتبطـــة به طوال هذه الايام ، وقد وعدنى المسئولون بتهجيرنا من ساعة لاخرى ، بيد اننى هرعت اليهم صباح اليوم لاجد انهم انفسهم فى حاجة الى وسيلة تنقلهم . وحالما رحت اجرى هنا وهناك ، اختفى قسم التعليم الشعبى ... اين وكيف . . لست ادرى ، ولا سيما اذا كان آنذاك بدون وسيلة نقل . لست ادرى كيف اختفى ؟» اختفى قسم التعليم الشعبى . . قالها فانيا زيمنوخوف واستغرق فى الضحك على حين غرة ، تتساقط خصلات شعره الطويل الناعم رغما عنه على جبهته واذنيه ، غير انه القى برأسه الى الوراء فى الحال وفى حدة لتعود الى وضعها الطبيعـــى واستطرد يقول ضاحكا :

– يا للغرابة ! لقد ضعت يا فانيا ، ولن ترى كلافا ، كما لا يستطيـــع المرء رؤية اذنيه ! ولك ان تتصورى اننـــا وجورا اروتيونيانتس رحنا نضطلع بهذا العمل ، وتيسر لنا الحصول على خمس مركبات . وهل تعلمين ممن ؟ من العسكريين . وقد تأثرت مديرة الملجأ لدرجة انها غمرتنا بدموعها حين ودعتنا . وهل تظنين ان الامر انتهى عند ذلك ؟ لقد طلبت من جورا ان يسرع ليعد جوال حاجياته ، حالما اعد جوالى . ولمحت له بانه يتحتم علىّ العروج على مكان لبعض الوقت ، ورجوته انتظارى ان تطلب الامر ذلك . وبوجه عام فقد اوحيت اليه بما تيسر . . وما كدت افرغ من اعداد جوالى حتى دخل . . هل تعلمين من ؟ توليا اورلوف ، ذلك الذى كنا نلقبه بالرعد .

واستطاعت كلافا فى النهاية ان تعلن بصوت خافت للغايـــة وامارات الشوق تكسو عينيها ، حين توقف سيل حديثه :

– وكأنما انزاح ذلك العبء الذى رزحت تحته روحى . كم كان القلق يراودنى خوفا من الا تأتى ، وحيث لم اكن قادرة بنفسى على الذهاب اليك !

وسألها فجاة وقد باغتته هذا الفكرة :

– لماذا ؟

واجابت وقد اعتراها الارتباك والخجل :

– كيف لك الا تفهم ؟ وماذا كان على ان اذكره لابى ؟

ولربما كان ذلك ابعد حد يمكن ان تصل اليه فى حديثها ، اذ سمحت له فى النهاية ان علاقتهما ليست بالعلاقة العادية ، بل ثمة سر يميزها . وكان عليها فى نهاية الامر ان تذكره بذلك ما دام لا يود نفسه الحديث عن ذلك .

والتزم الصمت ونظراليها على نحو جعل وجهها الكبير وعنقها الابيض البدين وحتى فتحة بلوزتها الوردية عند صدرها يتلونان بلون تلك البلوزة . وذكرت على عجل وهى ترمش بعينيها الحولاوين الكستنائيتين :

– لا . . ارجو الا يراودك شك فى انه يكن حيالك اطيب المشاعر . فكم من مرة قال فيها «كم هو ذكى زيمنوخوف هذا» ولك ان تعلم – وهنا اتسم صوتها بتلك النبرة الخافتة الرقيقة التى تنفذ الى الاعماق – انك اذا ما اردت السفر معنا . . فلك ذلك .

ولم تكن قد راودته من قبل تلك الفكرة التى ظهرت فجاة حول امكانية الرحيل مع محبوبته ، وكانت هذه الفكرة مغرية لدرجة انه فقد السيطرة على نفسه ورنا بنظره نحو الفتاة وندت عنه ابتسامة لا معنى لها ، ثم فجاة علت وجهه امارات الرصانة وراح ينظر فى ذهول الى الشارع . فقد كان يقف مديرا ظهره نحو الحديقة يواجهه الشارع الذى امتد نحو الجنوب تغمره اشعة الشمس الحارقة التى راحت تلسع وجهه . وقد ظهر ذلك الشارع وكانما انتهى فجاة ، حيث كان ثمة منحدر يفضى الى المزلقان الثانى . كما وكانت تتراءى على البعد فى البرارى تلال زرقاء ينبعث من خلفها دخان حرائق شبت بعيدة . بيد انه لم يكن قادرا على رؤية كل ذلك ، حيث كان يعانى من قصر النظر الى حد بعيد ، ولم يكن باستطاعته سوى سماع هدير محركات المدافع وصفارات القطارات فيما وراء الحديقة ، وذلك الصوت

الصادر عن بوق المحولجى الوديع الذى يعرفه منذ سنى الطفولة يدوى قويا واضحا فى ارجاء البرارى .

– اننى بدون متاع يا كلافا .

قالها بنبرة تنم عن حزن وحيرة ، مشوحا بيديه وكأنما يشير الى راسه العارى وشعره الكستنائى الطويل الذى يتساقط على جبهته ، وقميصه الباهت ذى الكمين القصيرين وسرواله القديم القصير ذى الخطوط البنية ، وشبشبه الذى يحتذيه على قدميه العاريتين . ثم استطرد يمزح فى تجهم :

– اننى لم احمل حتى نظارتى ، مما يجعلنى غير قادر على التمتع بمشاهدتك كما ينبغى .

– اننا سوف نخاطب ابى فى هذا الشان ، ونذهب لاحضار متاعك .

هذا ما علقت به كلافا وهى تنظر اليه بطرف عينيها . بل وهمت بان تتابط ذراعه ، الا انها لم تتجاسر على ذلك .

وكما لو كان عن عمد ، ظهر من وراء العربة والد كلافا يغطى راسه بكاب ، ويرتدى سترة رمادية قديمة ويحتذى حذاء طويلا ، يحمل حقيبتين ، والعرق يتصبب منه ، يبحث عن مكان يضعهما فيه . الا ان العربة كانت تغص بحمولتها . ومع ذلك فقد ظهر موظف كان يقف وسط الصرر والصناديق يقول له :

– ناولنى اياهما ايها الرفيق كوفاليوف وسوف اجد لهما مكانا .

وجثا على احدى ركبتيه وامسك بيده بحافة العربة وراح يتناول الحقيبتين الواحدة تلو الاخرى .

وفى نفس الوقت ظهر والد فانيا ايضا يحمل على يديه النحيفتين المعروقتين اللتين لفحتهما الشمس صرة اشبه بصرة الغسيل . وقد بدا من وراء العربة عاجزا عن حمل تلك الصرة التى استقرت على يديه الممدودتين الواهنتين ، بينما راح يجر ساقيه الطويلتين اللتين تمايلتا تحت جسده . وكان الشحوب يعلو وجهه الطويل الذى لفحته الشمس وكسته التجاعيد وتصبب منه العرق . كما وبرزت بصورة مخيفة وعلى هذا الوجه النحيف المرهق عيناه الضارب لونهما الى البياض الشديد واللتان عكستا امارات توعك والم .

وكان والد فانيا الكسندر فيدوروفيتش زيمنوخوف يعمل حارسا

بالمؤسسة . اما كوفاليوف ، والد كلافا فقد كان يشغل وظيفة رئيس قسم الامداد والتموين بالادارة ، ويعتبر رئيسه المباشر .

وكان كوفاليوف احد اولئك الرؤساء الكثيرين الذين يحملون على اكتافهم عبء السخط الشعبى وسخرية واستهزاء الجميع ازاء كافة رؤساء ادارات الامداد والتموين نتيجة تلك المصائب التى يلحقها بالبشرية بعض عديمى الشرف من اشقائهم فى المهنة . لقد كان احد اولئك الرؤساء الذين يجدونهم فى احلك اللحظات خير قدوة لرئيس قسم الامداد والتموين .

وطوال الايام الاخيرة ومنذ تلك اللحظة التى تلقى فيها تعليمات مدير المؤسسة بحزم متاع المؤسسة ، راح يعد وينقل ويشحن كل شىء ذى قيمة وان كانت ضئيلة فى هدوء وثقة دون ان يعير انتباها الى توسلات زملائه الموظفين ونفاق بعض الرؤساء الذين كانوا فيما سبق وفى الايام العادية لا يعيرونه اهتماما شان مكنسة مركونة فى الردهة الى جوار المدفأة . وفى وقت مبكر من ذلك الصباح تلقى امر المفوض عن المؤسسة حول عدم التوانى وضرورة الاسراع وتدمير كل الوثائق التى يتعذر حملها والرحيل توا نحو الشرق .

بيد ان كوفاليوف راح بعد صدور هذا الامر يواصل عمله فى هدوء وسرعة بعد ان اشرف فى بادىء الامر على ترحيل المفوض برفقة متاعه ، ودون ان يدرى احد كيف ومن اين يحصل على كافة وسائل النقل ، حيث لم يكن ضميره يسمح له بغير ذلك . وكان اكثر ما اقلقه ان ثمة من سوف يتهمه حتى فى ذلك اليوم المأساوى ، بانه يهتم بامور نفسه ، ولذا فقد قرر فى حسم الرحيل برفقة اسرته فى آخر عربة ، والتى احتفظ بها لمثل هذا الظرف .

اما العجوز الكسندر فيدوروفيتش زيمنوخوف حارس المؤسسة ، فلم يكن يفكر فى الرحيل ، او يقدر عليه عموما نظرا لسنه المتقدم وصحته العليلة . وقد قام منذ عدة ايام ، شان كل الموظفين ، غير القادرين على الرحيل بتسوية حساباته مع المؤسسة وحصل على مكافأة مالية قدرها اجر اسبوعين . بيد انه طوال تلك الايام والليالى راح يجر ساقيه اللتين انهكهما الروماتيزم يقدم العون الى كوفاليوف فى حزم ونقل متاع المؤسسة لانه تعود الاهتمام به كاهتمامه بمتاعه الخاص .

وقد كان الكسندر فيدوروفيتش عامل منجم قديم فى الدونباس ، ونجارا ماهرا . وكان قد بدا ايام كان شابا قدم من محافظة تامبوف التردد على المناجم بحثا عن الكسب . وقد حقق الكثير من المكاسب فى اعماق مناجم الدونباس وفى اعماق الابار الخطيرة مستعينا فى ذلك ببلطته الرائعة التى راحت فى يديه تغنى وتعزف مثلما الديك الذهبى . واذ راح الكسندر فيدوروفيتش يعمل منذ صباه فى اراض تلفها الرطوبة دائما فقد تسلل الروماتيزم الى مفاصله يؤلمها على نحو دائم ، مما دعاه الى التقاعد والعمل حارسا بالمؤسسة . وكان فى عمله الجديد رائعا ، كما كان فى عمله السابق .

وزار كوفاليوف ينادى ابنته بينما يمسح بظهر يده المتينة القذرة العرق الذى تصبب على جبهته اسفل مقدمة غطاء راسه :

– هيا ، يا كلافا . . فلتساعدى امك !

واذا وقع نظره على فانيا قال على نحو ينم عن لامبالاة :

– آه . . فانيا ! هل ترى ما يجرى ؟

وهز راسه فى غضب ، لكنه توقف فجاة ليمسك بيديه الصرة التى حملها الكسندر فيدوروفيتش معاونا اياه فى نقلها الى العربة ، واستطرد يقول بينما يلتقط انفاسه :

– لقد ساءت احوالنا . . هذا ما يمكن قوله حقا . يا لهم من سفلة ! – وقد ندت عنه هذه الجملة الاخيرة حين ترامت الى سمعه اصوات قصف المدفعية ، ثم استطرد يتساءل :

وانت . . الا تعتزم الرحيل ؟ ماذا سوف يفعل ابنك يا الكسندر فيدوروفيتش ؟

وانصرف الكسندر فيدوروفيتش يواصل نقل الصرر دون ان يجيب ، او ينظر الى ابنه . لقد كانت تجتاحه مشاعر الخوف عليه ، والسخط حياله لانه لم يرحل الى ساراتوف للانضمام الى مدرسة فوروشيلوف للحقوق حيث كان يدرس هذا الصيف .

واذ استمعت كلافا الى كلمات الاب ، اشارت الى فانيا بحركة خفية بعينها ، بل وجذبته من كمه وهمت بمخاطبة الاب حول امر ما . الا ان فانيا سبقها قائلا :

– كلا . اننى لا استطيع الرحيل الآن . اننى ملزم بايجاد مركبة

لنقل فولوديا اوسموخين الذى يرقد طريح الفراش بعد عملية الزائدة الدودية .

وصفر والد كلافا ، ثم قال على نحو يوحى بالسخرية والاسى فى آن واحد :

– تجد مركبة !

واجاب فانيا وقد كسا البياض شفتيه فجاة ، متحاشيا نظرات كلافا :

– علاوة على اننى لست وحدى ، فهناك الرفيق جورا اروتيونيانتس ، حيث كنا نعمل سوية وقطعنا على نفسينا وعدا باننا سوف نرحل مترجلين حين نفرغ من كل شىء .

واليوم كان طريق الانسحاب قد سد ، والقى فانيا بناظريه نحو كلافا التى كسا الضباب عينيها الداكنتين .

وذكر كوفاليوف على نحو يتسم باللامبالاة ازاء فانيا ، وازاء جورا اروتيونيانتس ، وازاء الوعد الذى قطعاه على نفسيهما :

– آه . . هكذا الامر ! هذا يعنى . . وداعا الى حين !

وتقدم نحو فانيا ، وقد اقشعر بدنه حين تعالى صوت قصفة مدفعية ، يمد اليه يده العريضة المتينة .

وتساءل فانيا بصوت اجش :

– هل سوف تتجهون نحو كامينسك او نحو ليخايا ؟

وزار كوفاليوف يقول :

– نحو كامينسك ! ؟ ان الالمان سوف يستولون عليها ما بين يوم وآخر . نحو ليخايا نحن ذاهبون . . نحو ليخايا ! اننا سوف نتوجه عبر الدونيتس الى بيلوكاليتفينسكايا . . لنكون اثرا بعد عين .

وثمة شىء تصدع وعلا ضجيجه فوق رؤوسهم ، ثم انهال من عل سيل من النفايات .

ورفعوا هاماتهم ليشاهدوا احدى نوافذ الطابق الثانى فى حجرة قسم التخطيط بالمؤسسة وقد انفرجت على مصراعيها ليطل منها راس ضخم اصلع ، شديد الحمرة يتصبب العرق منه ليبدو وكانما يكاد يغرق الواقفين اسفل النافذة .

واذ عرف كوفاليوف فى ذلك الراس وجه رئيس القسم سأله وقد اعترته الدهشة :

– كيف انك ايها الرفيق ستاتسينكو لم ترحل ؟

واجابه ستاتسينكو بصوت خافت وتادب بالغ كعادته دائما :

– كلا . . اننى افتش هنا فى الاوراق حتى لا اترك شيئا ذا قيمة يستفيد منه الالمان .

وصاح كوفاليوف :

– يالك من محظوظ . اننا نعتزم الرحيل بعد حوالى عشر دقائق .

واجاب ستاتسينكو فى تواضع :

– فلترحلوا انتم ، وسوف اجد وسيلة تنقلنى . ولكن قل لى يا كوفاليوف هل تعلم لمن هذه السيارة الواقفة هناك ؟

واستدار كوفاليوف وابنته وفانيا زيمنوخوف والعامل الذى يقف فوق عربة النقل ، ينظرون جميعا الى العربة «جازيك» .

وعدلت المراة الجالسة بالعربة من وضعها على الفور منحنية نحو الامام كيلا يرونها من ثقب باب السيارة .

واجاب كوفاليوف :

– انه لن ياخذك معه ايها الرفيق ستاتسينكو ، فلديه الكثير من المتاع .

وقد كان يعرف شان ستاتسينكو انه كان يعيش منذ الخريف الماضى ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو العامل باللجنة الحزبية للمنطقة وحيدا ، يوجر من ذلك البيت احدى غرفه ، بينما كانت زوجته تعمل فى فوروشيلوفجراد .

وذكر ستاتسينكو :

– اننى لست بحاجة الى هباته !

ورمى كوفاليوف بنظرة من عينيه الصغيرتين الحمراوين اللتين تعكسا امارات تميز من يهوى الشراب .

وسرعان ما اعترت كوفاليوف امارات الارتباك وتحول بنظره الى العامل فوق عربة النقل ، وكانما يسأله اذا كان قد فهم شيئا من كلمات ستاتسينكو يعنى مغزى سيئا .

وانفجرت اسارير ستاتسينكو عن ابتسامة تنم عن طيبة ، ليقول :

– لقد كنت اعتقد من وحى بساطتى انهم قد هربوا منذ زمن بعيد ، الا اننى شاهدت هذه العربة فجاة ، مما دفعنى الى السؤال عنها .

ونظر الحاضرون الى العربة بعض الوقت . ثم ذكر كوفاليوف وقد كست امارات التجهم وجهه :

– هذا يعنى انهم لم يرحلوا جميعا .

وذكر ستاتسينكو بنبرة حزينة :

– آه . . كوفاليوف ، كوفاليوف ! انه يتحتم عليك الا تكون ملكيا اكثر من الملكيين !

ولم يكن كوفاليوف يفهم مغزى هذا القول المأثور ، مما دعاه لان يقول وقد فرد قوامه ورفع ناظريه نحو النافذة تارة ، ونحو العامل الواقف فوق عربة النقل تارة اخرى :

– اننى ايها الرفيق ستاتسينكو انسان بسيط . اننى انسان بسيط ولا افهم مغزى تلميحاتك .

– لماذا تغضب منى ؟ اننى لم اسأ اليك . . ولك تمنياتى بالتوفيق يا كوفاليوف ! وليس من المعتقد ان تجمعنا الظروف ثانية قبل ساراتوف .

هذا ما قاله ستاتسينكو ، قبل ان يغلق النافذة .

وراح كوفاليوف بعينيه الزائغتين وفانيا الذى اعتراه بعض الارتباك ينظران الى بعضهما البعض . وفجأة علا الاحمرار وجه كوفاليوف ليبدو وكأنما ثمة من اغضبه ، ليصيح فى شدة :

– هيا . . يا كلافا !

وتجاوز العربة ليدخل الى مبنى المؤسسة . وقد كان حقا يشعر بالضيم والاساءة اللتين لم توجها اليه شخصيا . فلم يكن يقبل من رجل ، ليس بالبسيط مثله هو كوفاليوف ، والذى كان بحكم جهله لمجرى الامور يمكن ان يشكو ويتذمر ، بل رجل على شاكلة ستاتسينكو ، اى قريب من السلطة ، وقاسم ممثليها العيش والملح من الاحيان ، مثنيا عليهم فى السراء اطيب الثناء ، بينما يقوم اليوم بادانتهم فى اللحظة التى لا يملكون فيها الدفاع عن انفسهم .

اما المرأة التى كانت تجلس بالعربة والتى اثار اهتمام الآخرين بها امتعاضها فقد راحت تنظر فى غضب الى مدخل المبنى النموذجى .

الفصل الثامن

جلس ايفان فيدوروفيتش برفقة اثنين آخرين فى احدى الغرف المطلة على الفناء وقد فتحوا نوافذها على مصاريعها بغية ان يحمل الهواء الى الخارج الدخان المنبعث من الوثائق التى جرى احراقها . وكانت الغرفة مثلها فى ذلك مثل كافة ارجاء المبنى قفرة كئيبة لا تدعو الى الارتياح . فقد غادرتها النفوس ولم يبق سوى القشور . وكانت الاشياء قد حركت من مواضعها . بينما كان ايفان فيدوروفيتش وسميراه يجلسون لا حول المائدة ، بل على الكراسى فى وسط الغرفة يتبادلون الآراء حول العمل فى المستقبل وعناوين شقق اللقاء .

وقد كان من المحتم على ايفان فيدوروفيتش الرحيل الآن الى قاعدة الفدائيين الى حيث رحل مساعده منذ عدة ساعات مضت ، وحيث ينبغى عليه التواجد بوصفه احد قادة العمل السرى فى المنطقة برفقة فصيلته المتمركزة فى الغابة غير بعيد عن قرية ميتياكينساكيا الكائنة على حدود مقاطعتى فوروشيلوفجراد وروستوف . اما رفيقاه فقد بقيا مكنهما فى كراسنودون ، حيث هما عاملا مناجم اصيلان ، وشارك كلاهما فى الحرب الاهلية ايام ذلك الاحتلال الالمانى وضد فصائل دينيكين المعادية للثورة .

وقد كان فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف الذى ابقى سكرتيرا للجنة الحزب بمنطقة العمل السرى يكبر رفيقه قليلا ، اذ كان عمره يتعدى الخمسين ، تسلل الى شعره بعض الشعيرات البيضاء على نحو غير متناسق ، وتبدى الشيب كثيرا عند فوديه وعلى ناصيته ؛ كما وظهر على شاربيه القصيرين الشائكين . وكان قوامه يوحى بانه كان قوى البنية ذات يوم ، الا ان الزمن ترك آثاره عليه فى بدانة عليلة ظهرت على جسده ووجهه ، وتهدلت قسمات وجهه مما بدت معه ذقنه ثقيلة بالرغم من ثقلها الطبيعى ، تنجذب نحو الاسفل وقد كان ليوتيكوف متعودا الاهتمام بنفسه ، لدرجة انه حتى فى مثل تلك الظروف يبدو حسن الهندام يرتدى حلة سوداء اللون انيقة مشدودة حول جسده الكبير ، وقميصا ابيض اللون ورباط عنق مشدود الى ياقة القميص المحكم اغلاقها .

وقد شغل ذلك العامل القديم ، الحائز على لقب «بطل العمل»

فى اولى سنوات فترة بعث الاقتصاد منصب مدير عدد من المؤسسات الصغيرة فى البداية ، ثم الكبيرة فيما بعد . ولقد ظل يعمل فى كراسنودون ما يقرب من خمس عشرة سنة ، وكان فى السنوات الاخيرة رئيسا لورشة الميكانيكا بمؤسسة «فحم كراسنودون» .

اما رفيقه فى العمل السرى ماتفى كوستيفيتش شولجا ، والذى كانوا يدعونه غالبا بكوستيفيتش وهو ما يماثل قسطنطينوفيتش بالاوكرانية ، فقد كان من ذلك الرعيل الاول من العمال الصناعيين الذين ارسلوا لتقديم العون الى القرية ، وكان من ابناء كراسنودون ، حيث عاش مطلع حياته ، ثم بدأ يعمل فيما بعد فى مختلف مناطق الدونباس ، فى وظائف مرتبطة بالقرية . وقد كان يعمل منذ بداية الحرب نائبا لرئيس اللجنة التنفيذية باحدى المناطق الريفية فى شمال مقاطعة فوروشيلوفجراد .

وقد كان شولجا على النقيض من ليوتيكوف الذى كان يعلم منذ بوادر خطر الاحتلال بانه سوف يظل لممارسة العمل السرى ، قد تسلم التعليمات بشانه منذ يومين فقط ، وبناء على طلبه الشخصى بعد احتلال الالمان للمنطقة التى كان يعمل بها . وقد وجدوا من الافضل الابقاء عليه للعمل فى كراسنودون بالذات لسببين اولهما انه اصلا من هناك ، وثانيهما انه قل من يعرفه فى المدينة آنذاك .

وكان ماتفى شولجا او كوستيفيتش ، رجلا يناهز من العمر الخامسة والاربعين عريض المنكبين قوى البنية ، لفحت الشمس وجهه الواضح القسمات ، والذى غطاه بعض النمش الداكن اللون ، وهو ما يدل على مهنته . اذ ان مثل ذلك النمش يظل الى الابد على اوجه اولئك الذين يعملون لفترة طويلة فى المناجم او فى سباكة المعادن . وقد جلس كوستيفيتش يغطى راسه بكاب مال الى مؤخرته ، بينما كان شعره قصيرا . وقد ظهر راسه الكبير على نحو يندر ان تجده لدى انسان ، وعيناه كعينى ثور .

ولم يكن هناك فى كراسنودون ، مثل اولئك الثلاثة الذين اتسموا بالهدوء والتفاؤل فى آن واحد .

وذكر ايفان فيدوروفيتش :

– يا له من شعب جيد ! حقا انه شعب حقيقى سوف تتولى

شئونه ، وتستطيع تقوده نحو المآثر . هل لى ان اسالك اين سوف تعيش ؟

واجابه ليوتيكوف :

– هناك حيث كنت اعيش . . لدى بيلاجيا ايلينيتشنا .

وعلت وجه ايفان فيدوروفيتش امارات لا تعنى الدهشة بقدر ما تعنى بعض الشك ، وتساءل :

– اننى لا استطيع ادراك كنه ما تقول .

وذكر ليوتيكوف :

– وماذا يدعونى الى التخفى . ان الجميع هنا بالمدينة يعرفوننى ، لدرجة يستحيل معها التخفى . وباراكوف كذلك . – وذكر اسم المشرف الثالث على لجنة المنطقة للعمل السرى . – كما ان الالمان سوف يجدوننا على الفور ، وسوف يظنون السوء فيما يخصنا ان شرعنا فى التخفى . وليس ثمة ما يدعونا الى ذلك . ان الالمان فى امس الحاجة الى عمالنا الماهرين ، بينما نحن هنا . . هنا وليس هناك ! ولنقل ما يلى . . لقد هرب مدير المؤسسة ، واجبر البلاشفة الطاقم الهندسى الفنى على الرحيل معهم . اما نحن فقد بقينا للعمل معكم ، مع الالمان . لقد تفرق العمال ، وسوف نتولى جمعهم . اوليس هناك مهندسون ؟ هاكم نيكولاى بيتروفيتش باراكوف – مهندس ميكانيكى ! علاوة على انه يعرف الالمانية .

ثم استطرد فيليب بيتروفيتش يقول دون ان تند عنه ابتسامة :

– اننا سوف نعمل لصالحهم !

وقد اتسمت نظرته التى وجهها نحو ايفان فيدوروفيتش بالصرامة والانتباه ، وعكست امارات استغراق فى التفكير تميز عادة اولئك الذين تعودوا على عدم تقبل الامور على عواهنها ، بل تقليبها وامعان التفكير فيها .

وتساءل ايفان فيدوروفيتش :

– وماذا عن باراكوف ؟

– انها خطة وضعناها سوية !

وتساءل ايفان فيدوروفيتش بكل ما يتمتع به من قدرة على رؤية الامور من جانبها ومهما كان مآلها فيما بعد :

– هل تعلم الخطورة التى تهدد كليكما بالدرجة الاولى ؟

واجابه ليوتيكوف :

– نعم ، اعلم . . اننا شيوعيان !

– لا . ليس الامر كذلك تماما . شيوعيان يعرضان العمل لخدمة الالمان . . اوليس ذلك افضل لهم ! ان الوقت لن يسعفهم لادراك جدوى ذلك ، حيث سوف يقومون قبل ان تفرغ من حديثكما ، رتحت تاثير الغضب . . . – وهنا اشار ايفان فيدوروفيتش الى العنق والسقف .

– سوف نقوم بالتخفى فى الايام الاولى ، على ان نظهر حين نحتاجون الينا .

– آه . . هذا هو جوهر الامر . اننى اتساءل . . اين سوف تختفى .

وابتسم ليوتيكوف للمرة الاولى منذ بدا ذلك الحديث ، لتضىء تلك الابتسامة وجهه البدين الذى تهدل الى اسفل ، وقال :

– سوف تجد بيلاجيا ايلينيتشنا مكانا تخبئنا فيه . . .

وفارقت امارات الريبة وجه ايفان فيدوروفيتش ، اذ كان راضيا عن ليوتيكوف . وتساءل ناظرا نحو كوستيفيتش :

– وماذا عن شولجا ؟

واجاب ليوتيكوف :

– انه ليس شولجا . انه اوستابتشوك يفدوكيم ، كما هو مدون فى بطاقة عمله بقسم بناء القطارات . وقد التحق بالعمل برادا قسم الميكانيكا منذ ايام . وقصته لا غموض فيها ، حيث كان يعمل فوروشيلوفجراد وتركها للانتقال الى كراسنودون حين اشتعلت معارك . فقد كان وحيدا . بعدئذ سوف يبدأ العمال فى العمل ، ستدعى البراد اوستابتشوك يفدوكيم للعمل فى خدمة الالمان .

واضاف فيليب بيتروفيتش :

– اننا سوف نعمل فى خدمتهم !

والتفت بروتسينكو نحو شولجا ، وشرع يتحدث دون ان يحظ لا بالروسية ، التى كان يتحدث بها على التو مع ليوتيكوف ، بخليط من الروسية والاوكرانية كما كان يتحدث شولجا .

– حدثنى يا كوستيفيتش عما اذا كنت تعرف ولو شخصا واحدا

فى تلك الاماكن التى سوف تختبأ فيها ؟ قصارى القول . . هل تعرف بنفسك هؤلاء الناس . . وعائلاتهم . . ومن يحيط بهم ؟

واجاب شولجا فى تثاقل ، بينما ينظر من آن لآخر وبعينيه الكبيرتين اللتين تتسمان بالهدوء نحو ايفان فيدوروفيتش :

– اننى لا استطيع القول اننى اعرفهم جيد المعرفة . ثمة عنوان . . فى حى جولوبياتنيكى – كما كانوا يسمونه فى الماضى – حيث يعيش كوندراتوفيتش او ايفان جناتينكو . ولقد كان فدائيا جيدا فى عام ١٩١٨ . اما العنوان الآخر ففى حى شانغهاى – حيث فومين اجنات . ولكننى لا اعرفه شخصيا . فقد كان جديدا على كراسنودون . واربما تكونون تعرفونه ، فقد كان من رعيل حركة ستاخانوف * فى المنجم رقم ٤ ، ويقال انه اهل للثقة علاوة على انه قد وافق على الانضمام الينا . والجيد فى الامر انه ليس عضوا فى الحزب ، وعلى الرغم من حسن درايته بالامور فلم يمارس كما يقال ، اى نشاط اجتماعى ، ولم يتحدث فى اجتماعات . وباختصار هو انسان منعزل بطبيعته .

وراح بروتسينكو يواصل استجوابه :

– وهل زرتهما فى مسكنيهما ؟

– لقد كانت آخر مرة زرت فيها كوندراتوفيتش ، اعنى جناتينكو ايفان منذ اثنتى عشرة سنة ، اما فومين ، فلم ازره ابدا . ومتى كانت باستطاعتى زيارته يا ايفان فيدوروفيتش ، حين تعلم انت بنفسك اننى قد وصلت بالامس فقط ، وبالامس ايضا سمحوا لى بالبقاء وسلمونى هذين العنوانين . واعتقد ان اولئك الذين اختاروا هؤلاء الناس يعلمون حتما كنههما . – وبدت الجملة الاخيرة على نحو يحمل كلا المعنيين . . السؤال والجواب .

ورفع ايفان فيدوروفيتش اصبعه ونظر نحو ليوتيكوف ثم عاد بنظره الى شولجا وقال :

– هذا هو الامر . لا تصدقا الاوراق . ولا تصدقا ما يقال . . ولا تصدقا تعليمات الغير ! فلتتاكدا من الجميع . . ومن كل شىء من جديد ، واستنادا الى خبراتكما . ان من قاموا بتنظيم عملكما

* نسبة الى الكسى ستاخانوف عامل المنجم الشهير بارقامه القياسية فى مجال رفع انتاجية العمل . **المترجم** .

السرى ، وكما تعلمان ، غير موجودين هنا . فلقد رحلوا مراعاة لقواعد السرية ، تلك القاعدة الذهبية . انهم اليوم بعيدون . ولربما يكونون اليوم على مقربة من نوفوتشيركاسك . — وهنا ندت على شفتى ايفان فيدوروفيتش ابتسامة رقيقة وانتقلت شرارة سريعة تنم عن جذل من احدى عينيه الزرقاوين الى الاخرى ، ثم استطرد متسائلا :

— هل تعلمان ما الذى دفعنى الى القاء مثل هذا السؤال ؟ واجاب بنفسه :

— لقد تحدثت عن ذلك لانه قد جرى تنظيم العمل السرى ايام كانت تسود هنا سلطتنا . وسوف ياتى الالمان ، لتجرى مرة اخرى عملية التحقق . . وهى عملية سوف تسفر اما عن حياة واما عن موت . .

ولم يسعفه الوقت لمواصلة حديثه فى ذلك الاتجاه . فقد صفق الباب الخارجى ، وتعالى بالحجرات دبيب خطوات ، لتدلف تلك المراة التى كانت تجلس بالعربة «جازيك» حين وقفت امام المبنى . وقد كان وجهها يعكس كل ما عانته بينما كانت فى انتظار ايفان فيدوروفيتش .

وتحدث ايفان فيدوروفيتش وقد ندت عنه ابتسامة تنم عن اعتراف بالذنب :

— لقد طال بك الانتظار يا كاتيا . هيا بنا ، — ونهض لينهض الجميع ، ثم استطرد يقول فى سعادة المت به فجاة :

— فلتتعارفا . . هذه زوجتى . وتعمل مدرسة .

وشد ليوتيكوف على يدها التى توحى بالنشاط وعلى نحو يعنى الاحترام . وقد كانت تعرف شولجا من قبل مما دعاها الى ان تبتسم له .

— واين زوجتك ؟

وشرع شولجا يقول :

— ان جميع اقاربى . .

غير ان السيدة قاطعته فجاة لتقول :

— انى آسفة . . ارجو المعذرة .

ثم دفنت وجهها بين راحتيها بسرعة . الا ان الحمرة قد ظهرت فيما بين اصابعها ، وتحت راحتيها تكسو كل وجهها .

فلقد ظلت عائلة شولجا باقية بالمنطقة التى احتلها الالمان لا تبارحها ، مما كان احد الاسباب التى دفعت شولجا للبقاء للعمل السرى بالمقاطعة . وكانت الاسرة قد عجزت عن الرحيل لاقتحام الالمان للمقاطعة فجاة ، بينما كان كوستيفيتش يجمع قوافل الماشية بالقرى البعيدة لارسالها نحو الشرق .

وكانت عائلة شولجا تتسم بالبساطة الشديدة شانها فى ذلك شان ربها وقد عزفت عائلة ماتفى كوستيفيتش والمكونة من الزوجة وفتاة تلميذة وابن فى السابعة من العمر ، عزفت عن الرحيل حين جرى تهجير عائلات العاملين الى الشرق . ولم يصر ماتفى كوستيفيتش على رحيل اسرته . اذ كان برفقة اسرته حين عمل مع الفدائيين فى تلك النواحى ايام كان فى سنى الشباب ، تلازمه زوجته وكذلك ابنه الاول الذى ولد آنذاك ، بينما هو اليوم من قادة وحدات الجيش الاحمر . وقد بدا لهما ، استنادا الى الماضى ، ان العائلات يجب ان تظل فى احلك اللحظات متماسكة يشد بعضها ازر البعض . وعلى هذا النحو كانت تربيتهما لاولادهما . وها هو ماتفى كوستيفيتش يشعر بالذنب ازاء كون زوجته وطفليه قد بقوا تحت سطوة الالمان ، وامل فى تقديم العون لهم ان كانوا على قيد الحياة .

— ارجو المعذرة . .

هذا ما قالته زوجة بروتسينكو وهى ترفع وجهها من بين راحتيها توجه الى كوستيفيتش نظرات ملؤها المواساة والشعور بالذنب .

وشرع ايفان فيدوروفيتش يقول :

— هيه . . ايها الرفاق الاعزاء !

الا انه لم يقل اكثر من هذا . فقد حان وقت الرحيل بينما كانت رغبة جارفة فى عدم الفراق تجتاح الجميع .

ولم تمض سوى بضع ساعات ، منذ رحل رفاقهم ، رحلوا الى ذويهم فى بلادهم ، بينما بقى اربعتهم هنا يعيشون حياة العمل السرى الجديدة المجهولة والغريبة عليهم بعد تلك الاعوام الاربعة والعشرين التى قضوها احرارا فى حلهم وترحالهم . لقد كانوا على التو فى صحبة

رفاقهم ، الذين رحلوا منذ مدة قريبة ، وكان فى استطاعتهم عمليا التحاق بهم . . الا انهم كانوا عاجزين عن ذلك . لقد صاروا ، هم الاربعة ، قريبين من بعضهم البعض ، تشدهم اواصر قرابة حقيقية ، مما جعل الفراق بالنسبة لهم امرا غاية فى الصعوبة .

وراحوا وقوفا يشدون على ايادى بعضهم البعض لفترة طويلة .

وتحدث بروتسينكو يقول :

– فلنر اى المان هؤلاء . . واى اصحاب دار وحكام هم !

وذكر ليوتيكوف على نحو يتسم بالجدية التامة :

– فلتحافظ على نفسك يا ايفان فيدوروفيتش .

– اننى استطيع العيش حيثما اتفق مثل الاعشاب البرية . ولذا فلتحافظ انت على نفسك يا فيليب بيتروفيتش ، وانت يا كوستيفيتش .

وابتسم شولجا بما يوحى بالاسى :

– اننى فى عداء مع الموت .

ورماه ليوتيكوف بنظرة صارمة دون ان يتفوه بشىء .

ثم راح كل منهم يعانق الآخر ، ويبادله القبلات يبذل جهده كيلا تلتقى النظرات .

– وداعا . .

ذلك ما تفوهت به زوجة بروتسينكو ، دون ان تبتسم ، وعلى نحو ما اشبه بالاحتفالى ، بينما ترقرقت الدموع فى مآقيها .

وكان ليوتيكوف اول من خرج ، ثم تبعه شولجا ، وعلى نفس النحو الذى قدما به – من الباب الخلفى ، عبر الفناء ، حيث كانت مختلف البنايات الصغيرة التى تجاوزاها ، دون ان يلحظهما احد ، الواحد تلو الآخر الى الشارع الرئيسى المجاور .

اما ايفان فيدوروفيتش فقد خرج برفقة زوجته الى شارع سادوفايا الممتد حتى بوابة حديقة المدينة ، لتلسع وجهيهما اشعة الشمس الظهيرة الحارقة .

وشاهد ايفان فيدوروفيتش عربة النقل المحملة تقف فى الجانب الآخر من الطريق يعتليها احد العمال ، بينما يقف الى جوارها شاب وفتاة يتوادعان . وهنا ادرك سر انزعاج زوجته .

وشرع بروتسينكو طويلا يحاول ادارة محرك السيارة «جازيك»

بواسطة «المنفلة» الا ان السيارة كانت تهتز دون ان يدور المحرك ، مما جعله يتوجه نحو السيارة قائلا فى ارتباك :

– فتحاولى انت يا كاتيا ، وسوف اضغط بنفسى على البنزين .

وامسكت الزوجه «بالمنفلة» فى يدها الرقيقة التى لفحتها الشمس ، وادارتها بقوة غير متوقعة عدة مرات ، دار بعدها المحرك . ثم راحت تمسح بظهر يدها العرق الذى تصبب على جبينها ، والقت «بالمنفلة» تحت مقعد السائق ، ثم استقلت السيارة الى جوار زوجها . وتحركت السيارة فى قفزات كالحصان المخبول تطلق غازاتها العادمة فى شكل دخان ازرق مشوب بالقاذورات ، ليعتدل امرها فيما بعد وهى تنطلق تنهب الطريق . وسرعان ما احتواها المنحدر المفضى الى المزلقان .

واستطرد فانيا زيمنوخوف يقول بصوت رخيم :

– وهنا يدخل توليا اورلوف هذا . هل تعرفينه ؟

واجابته كلافا بصوت خافت :

– كلا . . لا اعرفه . فلربما يكون من مدرسة فوروشيلوف .

– قصارى القول ، لقد جاء يقول : «ايها الرفيق زيمنوخوف . . يسكن على مقربة منك فولوديا اسموخين ، وهو كومسومولى نشيط اجريت له منذ مدة قريبة عملية الزائدة الدودية . وقد بارح المستشفى قبل التئام الجرح تماما ، مما كان سببا فى تفاقم حالته . اولا تستطيع تدبير مركبة لنقله ؟» وهل تدركين موقفى فى مثل هذه الحالة ؟ لقد كنت اعرف فولوديا اسموخين جيد المعرفة . . انه كنز وليس مجرد فتى ! هل تدركين موقفى ؟ لقد اجبته : «حسنا . فلتتوجه الى فولوديا حالما اعرج الى مكان ما بغية مساعدته . وهاانذا اجىء اليه» . فهل عرفت الآن السبب الذى يمنعنى من الرحيل معكم ؟ – وهنا اتسمت نبراته بالاحساس بالذنب ، وراح يحاول التمعن فى عينيها المترقرقتين بالدموع . ثم استطرد يقول : الا اننى وجورا اروتيونيانتس . . .

وقاطعته تناديه ، بينما اقتربت من وجهه تلفه بانفاسها الدافئة :

– فانيا . . اننى فخورة بك . . كم انا فخورة بك . اننى . .

وهنا تنهدت على نحو ابعد ما يكون عن تنهيدة فتاة فى مقتبل العمر ، وراحت ، متغافلة عن كل ما يدور حولها ، تحيط جيده كانثى حقيقية بيدين بضتين كبيرتين دافئتين وتحتوى شفتيه على نحو ينم عن رغبة جارفة .

وتركت الفتاة فانيا لتعدو نحو المنزل . وقد ظل فانيا ملتزما مكانه بعض الوقت ، ليستدير ثم ينطلق سريعا فى طريقه مبتعدا عن الحديقة بينما اشاح بيديه الطويلتين مصعدا الى الشمس وجهه وشعره الذى تهدل دون ان يحاول تصفيفه ثانية .

وقد تأجج ذلك الالهام الذى كان كالجمر تحت الرماد ، فى اعماقه ، نيران تلقى باشعتها الوهاجة على وجهه ليبدو رائعا ، فى حين لا تستطيع كلافا او اى امرىء آخر رؤيته ناصعا هكذا . وطفق فانيا يسير وحيدا وهو يشيح بيديه . وكان ثمة من يواصل تفجير المناجم فى بعض المناطق ، ومن يركض هنا وهناك وينتحب ويتبادل الشتائم ، ووحدات منسحبة تسير ، وهدير مدفعية يتعالى ، وضجيج محركات يلف السماء ، ودخان وغبار فى الافق ، وشمس ترسل اشعتها الحارقة دونما رحمة . الا ان فانيا زيمنوخوف لم يكن يحس كل ذلك ، حيث كان يرى كل الوجود فى تلك اليدين البضتين الحانيتين الدافئتين تحيطان بجيده وفى تلك القبلة الحارة المبللة بالدموع والتى ظلت آثارها عالقة بشفتيه .

لم يكن كل ما يدور حوله يدفع الى نفسه ذرة خوف ، حيث كان واثقا من نفسه ومن قدراته على اتيان المستحيل . لقد كان واثقا من قدرته على تهجير ليس فقط فولوديا اوسموخين ، بل وكل المدينة بنسائها واطفالها وعجائزها ، وبكل متاعها .

«اننى فخورة بك . . كم انا فخورة بك !»

لقد ظلت عالقة بذاكرته لا تفارقها هذه الجملة التى ندت عنها بصوت خافت رقيق . ولم يكن ثمة ما يفكر فيه غير ذلك . فلقد كان عمره تسعة عشر عاما .

الفصل التاسع

لم يكن ثمة من يعلم مجرى الامور فى ظل الالمان . ولذا فقد تواعد ليوتيكوف وشولجا مسبقا على اللقاء عن طريق ثالث — صاحب

شقة مركز اللقاء الرئيسية فى كراسنودون ، وعلى اساس اشارة متفق عليها .

فخرجا ليسلك كل منهما طريقا يختلف عن طريق الآخر . هل كانا يتصوران آنذاك انهما لن يلتقيا ابدا ؟

اختفى فيليب بيتروفيتش كما ذكر لايفان فيدوروفيتش . وكان على شولجا ايضا الاختفاء على نحو لا يلحظه احد فى احدى الشقتين اللتين اشاروا عليه بهما — ولربما كان من الافضل فى شقة رفيقه الفدائى القديم ايفان جناتينكو ، او كوندراتوفيتش كما تعود الرفاق مخاطبته . بيد ان شولجا لم يكن قد رآه على مدى اثنى عشر عاما ، وراوده شعور يعكس رغبة قوية ، وقوية جدا فى عدم الذهاب اليه وخاصة فى مثل ذلك الحين .

ومهما تماسك كى يبدو هادىء الجنان ، فقد كان يشعر فى قرارة نفسه بعدم الراحة ، حيث كان فى حاجة الى انسان قريب . وراح ماتفى كوستيفيتش يقلب ذاكرته بحثا عن ذلك الذى بقى فى كراسنودون من اولئك الذين كانوا قريبين منه ايام العمل الفدائى السرى فى الفترة ١٩١٨–١٩١٩ .

وهنا تذكر ماتفى كوستيفيتش ليزا — شقيقة رفيقه ليونيد ريبالوف ، لترتسم ابتسامة رقيقة كابتسامة الاطفال على وجهه العريض الذى تكسوه ندوب الفحم . فلقد تذكر ليزا ريبالوفا التى كانت آنذاك رشيقة شقراء رابطة الجاش ، حادة التصرفات والصوت . لا تعرف عيناها الاستقرار ، تذكرها تحمل الطعام اليه والى ليونيد فى «سيناكى» ، تضحك فاغرة فاها عن اسنان بيضاء حين كان شولجا يمزح معلنا عن اسفه لانه ، على قوله ، تزوج والا لكان قد تودد لها بغية الزواج منها . بينما كانت تعرف هى زوجته جيد المعرفة !

منذ عشرة اثنى عشر عاما قابلها صدفة بالطريق ، كما شاهدها مرة اخرى فى احد الاجتماعات النسائية . ويذكر انها كانت قد تزوجت . . نعم فما كادت الحرب الاهلية تضع اوزارها حتى اقترنت بشخص يدعى اوسموخين ، التحق بالعمل فيما بعد فى المؤسسة . وكان يعمل هو ، ماتفى شولجا ، فى لجنة الاسكان حين تقرر تسليمهما شقة فى منزل كائن بالشارع الذى يفضى الى المنجم رقم ٥ .

وغرق فى ذكرياته يسترجع صور ليزا التى عرفها فى شبابه ،

لتجتاحه هذه الذكريات لدرجة شعر معها بنفسه ما يزال شابا . وبدا له كل ما كان ينبغى عليه القيام به اليوم غارقا فى نور شبابه . . وراح يفكر : «لا يمكن ان تكون قد تغيرت . كما ان زوجها اوسموخين يعتبر صديقا على اى حال . ومهما يكن الامر ، وايا كانت النتائج فسوف اعرج لزيارة ليزا ريبالوفا . فلربما لم يرحلا بعد . . ولربما تكون الاقدار قد ساقتنى للقائهما» ؛ وبشىء من القلق راودته فكرة احتمال كونها وحيدة اليوم ، حين كان يخطو تجاه المزلقان .

حفل الحى ، على مدى السنوات العشر التى تغيبت فيها عنه ، بالمنازل المشيدة بالآجر ، وغدا من الصعب تمييز ذلك المنزل الذى يقطنه آل اوسموخين . وطال تجواله فى الشوارع المقفرة ، بين المنازل المغلقة النوافذ دون ان يجرؤ على طرق احد الابواب سائلا ، حتى فطن الى الاسترشاد بالمنجم رقم ٥ الذى كان يبدو بعيدا وسط البرارى . وما ان كاد يخطو فى الطريق الذى يفضى الى المنجم حتى وجد منزل آل اوسموخين .

كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها تزينها اصص الزهور ، تترامى منها اصوات فتية . وشرع يدق الباب ليعلو وجيب قلبه كما فى سنى الصبا . ويبدو ان احدا لم يستمع الى طرقه ، مما دعاه الى تكرار طرق الباب ، ليترامى الى سمعه دبيب خفيف لاقدام تخطو نحو الباب .

لقد وجد نفسه قبالة ليزا ريبالوفا – يليزافيتا الكسييفنا تتنقل شبشبا ، تبدو على وجهها امارات غضب ومرارة وقد احمرت عيناها وانتفختا نتيجة تلك الدموع التى ذرفتها . وفكر فى اسى : «كم انهكها هذه الحياة !» .

بيد انه عرفها على التو ، عرف فيها تلك اللفتة الحادة التى كانت تبدر عنها فى سنى الصبا تعبيرا عن التأفف تارة ، وعن الغضب تارة اخرى . ورغما عن ذلك فقد كان ماتفى كوستيفيتش يدرك مبلغ طيبتها . كما وكانت كعهدها فى السابق ممشوقة القوام ، لم يعرف الشيب سبيله بعد الى شعرها الاشقر ، الا ان الغضون العميقة ، نتاج العمل والمعاناة ارتسمت على وجهها . هذا وكانت غير منسقة الهندام ، وتلك سمة لم تكن تميزها ابدا فيما سبق .

ودنت بنظرها فى تساؤل وغير مودة نحو الطارق الذى كان واقفا على الدرج . وفجاة ارتسمت على وجهها امارات الدهشة ، وشىء اشبه بسعادة تنبعث من اعماق مآقيها التى ترقرقت بالدموع ، لتهتف منادية :

– ماتفى قسطنطينوفيتش . . الرفيق شولجا !

وسقطت يدها التى كانت تمسك بمقبض الباب ، ثم استطردت تتساءل : – اية رياح جاءت بك الينا ؟ وفى مثل هذا الوقت !

– معذرة يا ليزا ، ولربما كان من الافضل ان اناديك ليزافيتا الكسييفنا . . لست ادرى . اننى راحل نحو الشرق ، فى اطار عملية التهجير ، وقررت العروج عليكم للسؤال عن احوالكم .

– الى الشرق . . الى الشرق . الجميع الى الشرق ! ونحن ؟ واطفالنا ؟

تساءلت بحدة ، وسارعت بترتيب شعرها فى حركة تتسم بالعصبية ، بينما راحت ترميه بنظراتها التى تنم اما عن غضب او انهاك ، ثم استطردت تقول :

– انتم مسافرون نحو الشرق ايها الرفيق شولجا ، بينما يرقد ابنى طريح الفراش بعد خروجه من المستشفى .

ثم كررت عبارة «انكم مسافرون نحو الشرق» وكانها قد حذرت ماتفى كوستيفيتش بالذات مرارا من امكانية وقوع ما حدث ، وها هى تتحقق نبؤتها ، لتلقى بتبعة ذلك عليه .

واجابها ماتفى كوستيفيتش بنبرة غاية فى الهدوء ، تتسم بالرضا بالرغم من اهتزاز وتر حزن مفاجىء فى اعماقه :

– معذرة . . لا تغضبى . «اهكذا انت يا ليزا ريبالوفا ! اهكذا تستقبلينني يا عزيزتى ليزا !» .

الا انه كان قد خبر كثيرا فى هذه الحياة ، وعرف كيف يمسك زمام نفسه .

– فلتوضحوا الامر كما يجب . . ماذا الم بكم ؟

وتحدثت تقول بنفس الحدة ، وان عكس وجهها طيف مودة قديمة :

– ارجو المعذرة ! تفضل بالدخول . . غير ان ثمة مصيبة يشهدها بيتنا !

وكان قرناء فانيا زيمنوخوف يلقبونه فى المدرسة بالبروفيسور . ولم يكن يملك سوى حلة واحدة رمادية ذات خطوط بنية اللون ، يرتديها فى المناسبات ، والتى كانت شان كل ما يرتديه فانيا ، قصيرة لا تناسب طوله . لكنه حين كان يرتدى تحت السترة قميصا ابيض ذا ياقة محكمة الاغلاق ، ورباط عنق بنى ، وقد علت عينيه نظارته ذات الاطار الاسود ، وامتلأت جيوبه بالجرائد ، ليروح يذرع الردهة ممسكا فى يده بكتاب يضرب به كتفه بينما هو شارد البال ، يواصل سيره فى هدوء وصمت ، يلقى بظلاله على وجهه الشاحب ذلك الضوء الناصع الصافى المنبعث من اعماقه ، يفسح له الطريق كل الرفاق ولاسيما تلاميذ الصفوف الاولى ، من يشرف عليهم بحكم كونهم من الطلائع ، فى احترام عفوى وكانما هو فى حقيقة الامر بروفيسور .

اما جورا اروتيونيانتس فقد كان يقتنى كراسة خاصة جدولها ليحسب فيها اسماء الكتب التى يقراها ومؤلفيها وتقديراته لها . وعلى سبيل المثال :

«نيكولاى اوستروفسكى . والفولاذ سقيناه . رائع !»

«الكسندر بلوك . اشعار عن السيدة الرائعة . كلمات مبهمة كثيرة» .

«بايرون . تشايلد هارولد . لست ادرى السر الذى جعل هذه الرواية موضع اهتمام العصر ، فى حين انها مملة الى هذا الحد !»

«فلاديمير مياكوفسكى . جيد ! (لا ملاحظات)» .

«الكسى تولستوى . بطرس الاول . رائع ! تؤكد الرواية ان بطرس كان رجلا تقدميا» .

هذا الى جانب اشياء كثيرة اخرى وردت فى تلك الكراسة المجدولة . وبوجه عام فلقد كان جورا اروتيونيانتس منظما نظيفا صلب الارادة والعقيدة ، تتسم كافة تصرفاته بالانضباط .

وقد راح جورا وفانيا طوال تلك الايام والليالى اثناء عملهما فى تهجير المدارس والمراكز الثقافية وملاجىء الاطفال ، ينهمكان فى الحديث بحرارة عن الجبهة الثانية وعن قصيدة «انتظرينى !» وعن الطريق البحرى الشمالى وعن فيلم «الحياة العظيمة» وعن اعمال عضو الاكاديمية ليسينكو وعن سلبيات حركة الطلائع ، وعن التصرفات

الغريبة لحكومة سيكورسكى فى لندن ، وعن الشاعر شيباتشيف ، وعن المذيع ليفيتان وعن روزفلت وتشيرشل ولم يختلفا فى الراى سوى حول موضوع واحد : اذ كان جورا اروتيونيانتس يعتقد ان مطالعة الجرائد والكتب اكثر فائدة من ملاحقة الفتيات فى حديقة المدينة ، بينما كان فانيا زيمنوخوف يقول انه شخصيا لو لم يكن ضعيف النظر الى هذا الحد لكان قد لاحقهن .

وبينما كان فانيا يودع امه التى كانت تذرف الدمع وشقيقته الكبرى واباه الذى راح يسعل ويشهق فى قلق متحاشيا النظر اليه ، وان كان فى اللحظة الاخيرة رسم على صدره علامة الصليب ولثم جبهته بشفتيه الجافتين ، راح جورا يحاول اقناعه بانه لا داعى للتوجه الى منزل اوسموخين ما دام لم يستطع تدبير مركبة . غير ان فانيا ذكر انه قطع على نفسه وعدا ازاء توليا اورلوف ومن ثم توجب الذهاب وشرح الامر .

والقى الشابان بكيسيهما على كتفيهما ، فى حين القى فانيا بنظرة اخيرة نحو زاويته الاثيرة عند اعلى سريره ، حيث احتلت مكانها على الجدار صورة بوشكين من اعمال الفنان كاريوف التى نشرتها دار النشر الاوكرانية فى خاركوف ، ورف كتب احتلت مكان الصدارة فيه مجموعة مؤلفات بوشكين واعمال شعراء آخرين من معاصريه من اصدار دار «الكاتب السوفييتى» فى لينينجراد . واذ نظر فانيا نحو كل ذلك شد فى حركة سريعة مبالغ فيها غطاء راسه ليغطى عينيه ، وانطلق مع رفيقه الى اوسموخين .

اما فولوديا فلقد كان نصف متمدد فى فراشه يرتدى قميصا ابيض يغطى نصفه الاسفل بملاءة سرير ، بينما استقر الى جواره كتاب «الوقاية الآلية» المفتوح مما يؤكد انه كان يطالعه فى الصباح .

وفى زاوية الغرفة تكدست على نحو ما مفاتيح ولفة اسلاك وآلة تصوير صنعت يدويا وبعض اجزاء جهاز راديو القيت فى اهمال الى جوار النافذة . فقد كان فولوديا اوسموخين يهوى الاختراعات ويحلم بان يصبح مهندس تصميمات الطائرات .

وقد احتل مقعدا خشبيا الى جوار فراش المريض ، توليا اورلوف اقرب اصدقاء فولوديا الذى كان يتيم الابوين ، لقب «بالرعد» لكونه

يعانى من زكام مزمن يلازمه صيفا وشتاء يجعله يسعل بصوت عال وكانما يصدر عن اعماق برميل فارغ . كما وكان يجلس محدودب الظهر ، مباعدا بين ركبتيه الضخمتين . ونشير هنا الى ان كل مفاصل كوعه ورسغيه وركبتيه وقدميه كانت ضخمة على نحو غير عادى . وتطاير شعره الرمادى الكث فوق راسه الكبير ، وتبـــدت امارات الحزن فى عينيه .

وسأل زيمنوخوف فولوديا :

– او يعنى هذا انك لا تستطيع السير على الاطلاق ؟

واجاب فولوديا فى وجوم :

– كيف لى السير . . لقد ذكر الطبيب ان الجـــرح يمكن ان يفتح ، لتتساقط كل احشائى .

ولم تكن امارات الكآبة تعلو وجهه لانه مضطر الى البقـــاء وحسب ، بل ولان امه وشقيقته ستبقيان ايضا بسببه .

وتدخل جورا اروتيونيانتس يقول فى لهجة آمرة :

– فلترنى الجرح !

– ماذا تقول ! ان الضمادات تلفه !

قالتها لوسيا شقيقة فولوديا بنبرة تنم عن خوف ، بينما كانت تتكأ بمرفقيها على مسند السرير عند قدميه .

وندت عن جورا ابتسامة مهذبة ليقول بلكنته الارمنية الطريفة التى تضفى على حديثه اهمية خاصة :

– لا داعى للقلق ، فلسوف يكون كل شىء على ما يرام . لقد اجتزت برنامج الاسعافات الاولية وفى امكانى فك الضمادات وربطها على نحو رائع .

واعترضت لوسيا قائلة :

– انه امر لا يتفق والاصول الصحية .

واجاب جورا بلهجة لا تقبل الاعتراض :

– لقد اثبت الطب العسكرى الحديث الذى يطبق فى ظروف ميدانية قاسية ان ذلك محض خرافات .

وردت لوسيا فى استعلاء :

– لا بد وانك قرأت ذلك فى معرض امر آخر .

بيد انها راحت بعد لحظة وجيزة تنظر ببعض الاهتمام نحو هذا

الصبى الاسمر ، فى حين راح يخاطبها فولوديا بلهجة تنم عـــن غضب :

– دعك من هذا الهراء يا لوسيا . ان ذلك امر يمكن ان يبدر عن ماما بحكمها متوترة الاعصاب ، فما بالك انت تهتمين بامور لا تعنيك ! فلتخرجى من هنا !

واذ رمى بالغطاء جانبا ، كشف عن ساقيه النحيلتين مفتولتى العضلات ، اللتين لفحتهما اشعة الشمس وبدتا على نحو اكـد ان المرض وملازمة المستشفى لم يؤثرا فى سمارهما وقوة عضلاتهما .

واستدارت لوسيا بوجهها ، بينما راح فانيا وتوليا اورلـــوف يعينان فولوديا على النهوض قليلا . اما جورا فقد نحى سرواله قليلا وشرع فى فك الضمادات التى تحيط بالجرح ، الذى بدا متقيحـا فى حالة غاية فى السوء . وعلا الشحوب وجه فولوديا الذى راح يبذل قصارى جهده حتى لا يعكس وجهه امارات احساسه بالآلام .

وعلق جورا قائلا بينما ارتسمت الغضون على جبهته :

– ان الامر لسىء بالفعل . اليس حقا ؟

ووافقه فانيا بقوله :

– انه بالاحرى جد سىء !

وشرعوا يضمدون الجرح ثانية فى صمت ، يتحاشون النظر نحو فولوديا الذى كانت عيناه تعكسان امارات حزن ، تستجديان نظرات رفيقه اليه ، فى حين انهما كانتا دائما فيما سبق تشعان جسـارة ودهاء . وها هم الآن مواجهون باصعب الامور . . لقد كان عليهم ترك رفيقهم ، فى الوقت الذى يعلمون فيه ما سوف يحيق به .

وعندئذ تسائل ماتفى كوستيفيتش فى محاولة لتحويل مجرى الحديث :

– واين زوجك يا ليزا ؟

واجابت يليزافيتا الكسييفنا فى لهجة قاطعة :

– لقد مات . توفى فى العام الماضى ، اى قبل اندلاع الحرب ، بعد مرض انتابه طويلا . – ورددت هذه الجملة عدة مـــرات بنبرة اوحت الى شولجا بأن ثمة مسئولا عن هذا . ثم استطردت تقول فى حزن :

– آه يا ماتفى كوستيفيتش ! لقد اصبحتم كذلك من عداد

المسئولين ، ولربما تكونون غير مدركين لكل ما يجرى ، لكل ما نرزح اليوم تحت وطاته . انك اليوم تمثل السلطة التى تمسك بمقاليد امورنا نحن البسطاء . اننى اذكرك من البسطاء مثلنا ، اذكرك يوم رحت واخى تناضلان فى سبيل حياة افضل نعيشها . وليس ثمة ما يمكن اتهامك به ، وادرك انه يستحيل عليك البقاء لتلقى حتفك . لكن الست ترى ان هناك من يرحل حاملا متاعه وشاغلا عربات نقل باكملها بتفاهات فضلها علينا نحن البسطاء ، غير عابىء بنا نحن الصغار الذين صنعنا كل ذلك .

واستطردت تقول وقد اختلجت شفتاها :

– آه يا ماتفى قسطنطينوفيتش ! الا ترى ان هذه الاشياء اثمن لدى هؤلاء الاوغاد ، ومعذرة للتعبير ، منّا نحن ؟ ثم وتتعجبون بعد كل ذلك من كون الآخرين يغضبون منكم ! انه ليكفى المرء ان يعانى ذلك مرة واحدة فى حياته ليفقد الثقة فى كل شىء !

وقد توادرت هذه الفقرة الاخيرة مرارا الى خاطر شولجا لتداخله مشاعر الالم والحزن . اذا كان اسوأ ما فى الامر ادراكه فى قرارة نفسه بكنه تلك المشاعر التى راودت هذه المرأة ، واحساس قلبه المفعم بالطيبة والحيوية بما يمكن ان يهدأ من روعها . بيد انها حين راحت تطلق العنان لنفسها معبرة بذلك عن احزانها وغضبها ، كما بدا له ، ظهرت على نحو مغاير تماما لذلك النحو الذى عرفها عليه ابان صباها . وكم كان مهينا بالنسبة له هو الذى ظل مكانه لا يبارحه ، بينما كانت كل عائلته تحت سطوة الالمان ، وربما تكون قد لقيت حتفها ، ان تتحدث هذه المرأة عن نفسها فقط ودون ان تسأله عن اخبار عائلته وزوجته التى كانت صديقة لها . وفجأة ندت عن شفتى شولجا بدوره كلمات اورثته الندم فيما بعد . اذ قال فى برود :

– لقد تماديت فى افكارك يا يليزافيتا الكسييفنا . . تماديت كثيرا ! انه لامر عادى بالطبع ان يفقد المرء ثقته فى سلطته ، حين تكون السلطة الالمانية على الابواب . – واستطرد يتساءل بينما رفع سبابته التى كساها الشعر ، مهددا ، وتعالى الى الاسماع هدير قصف المدفعية الذى اقتحم الغرفة :

– هل تسمعيننى ؟ الم تفكرى لحظة فى ان افضل ابناء شعبنا

البسطاء الذين تقلدوا زمام السلطة ، كما تذكرين ، يلقون حتفهم هناك . ولتدعينى اؤكد لك انهم زهرة رجالنا ، انهم الشيوعيون ! وما دمت قد فقدت ثقتك بهؤلاء ، وفى مثل تلك الساعة التى يدوسنا فيها الالمان باقدامهم فاننى اعرب لك عن اسفى الشديد .

واختلجت شفتاه كطفل صغير ، حين راح يكرر على نحو ينم عن تهديد :

– دعنى اعرب لك عن اسفى ، وحزنى من اجلك !

– ماذا تقول ؟ ماذا الذى تقوله ؟ هل تود اتهامى باننى اجلس فى انتظار الالمان ؟

صرخت يليزافيتا الكسييفنا فى حدة وقد انتابتها مشاعر الحنق لكونه قد فهمها على هذا النحو واستطردت تقول :

– يا لكم من انسان ! . . وابنى ؟ اننى ام ! . . اما انت . . .

– هل نسيت يا يليزافيتا الكسييفنا يوم كنا سويا عمالا بسطاء ، كما تقولين نواجه اخطار الالمان والبيض . هل فكرنا آنذاك فى انفسنا قبل كل شىء ؟ – واستطرد ماتفى كوستيفيتش يقول فى مرارة دون ان يعيرها سمعا :

– اننا لم نكن نفكر فى انفسنا ، بل رحنا نفكر بادىء ذى بدء فى افضل رجالاتنا ، فى زعمائنا . فلتتذكرى اخاك ! لقد كنا نحن العمال نفكر هكذا . . نفكر فى اخفاء زعمائنا ، فى الحفاظ على افضل رجالنا وزهرة شبابنا ، على ان نضطلع نحن بعبء الدفاع . هكذا كان يفكر ، بل وما يزال يفكر على هذا النحو كل عامل ، حيث يعتبر ان النقيض امر معيب مزرى . هل بلغ بك الامر هذا الحد يا يليزافيتا الكسييفنا ؟

– مهلا !

ندت فجأة عن يليزافيتا الكسييفنا ، التى هبت واقفة تصيخ السمع الى ما يجرى فى الغرفة الاخرى . وراح شولجا كذلك يتنصت السمع .

لقد ساد الصمت الغرفة الاخرى ، مما جعل الروع يداخل نفس الام ، التى اندفعت نحو الباب فى طريقها الى ابنها وقد تناست وجود ماتفى كوستيفيتش فى ضيافتها . اما ماتفى كوستيفيتش الذى بدا

ساخطا ، غير راض عن نفسه فقد خرج بدوره الى الردهة يعرك غطاء راسه بيديه اللتين كساهما الشعر الداكن .

استقر ابن يلزافيتا الكسييفنا فى فراشه ، وقد نهض بعض الشيء يصافح رفاقه ، يشد على اياديهم طويلا فى صمت ، تند عنه حركات تنم عن قلق وعصبية وتتمثل فى ايماءاته براسه الحليق والذى بدا يكسوه الشعر . وكم كان غريبا فى مثل حالته هذه ان تتبدى على وجهه امارات المرح والغبطة وتشع عيناه الضيقتان الداكنتا اللون . وقد كان يقف الى جواره احد رفاقه وقد انتفش شعره وتبدت عظام جسده الضخم ، ينظر اليه بحيث لم يكن يظهر سوى مسقط جانبى لوجهه الذى علته امارات بهجة وقد راح يجول بناظريه الواسعين فى النافذة التى فتحت على مصراعيها تستقبل اشعة الشمس .

اما الفتاة فقد كانت ما تزال واقفة عند قدمى المريض والابتسامة تعلو ثغرها . وقد شعر ماتفى كوستيفيتش بالالم يعتصر قلبه فجاة حين عرف فيها ليزا ريبالوفا ايام صباها . نعم لقد كانت هكذا ليزا التى عرفها منذ ما يزيد عن عشرين عاما ، وان كانت هذه اكثر رقة من ليزا العاملة بيديها الكبيرتين بعض الشيء وحركاتها الحادة التى كان يعرفها ويحبها .

«لقد حان وقت الانصراف . .» هذا ما ورد الى خاطره وهو يعرك غطاء راسه بيديه ويتقدم نحو الباب فى ارتباك ، بينما كان صرير اخشاب الارضية يتعالى تحت وقع خطواته .

واندفعت يليزافيتا الكسييفنا نحوه تتساءل بصوت عال :

– هل تعتزم الانصراف ؟

– ليست ثمة حيلة باليد ، كما يقال . لقد آن وقت الانصراف ، فلا تغضبى .

قالها ثم وضع طاقيته على راسه .

– الآن ؟

تساءلت ليزا بصوت ينم عن مرارة واسف ، وربما لم يكن الامر يخرج عن انه تصور ذلك .

واستطردت تقول فيما كانت تسدل يديها :

– لا تغضب ، ولتصحبك السلامة . وارجو الا تنسنا .

وقد كانت نبرات صوتها تعكس ما ينم عن طيبة واومة مما جعله يشعر بغصة فى حلقه ، وانطلق يخطو خارجا الى الشارع وهو يقول فى كآبة :

– وداعا !

آه . . عبثا رحلت ايها الرفيق شولجا ! عبثا تركت يليزافيتا الكسييفنا وهذه الفتاة التى كانت شبيهة بليزا ريبالوفا فى سنى صباها ! عبثا انك لم تمعن الفكر ، ولم تدن بمشاعرك قريبا مما كان يحدث على مراى منك بين اولئك الشباب ، بل ولم تكلف نفسك حتى عناء معرفة نوعياتهم !

ولقد كان من الممكن ان تسير حياة ماتفى كوستيفيتش على نمط آخر لو لم يسلك ذلك المسلك ! غير انه لم يكن قادرا على ادراك ذلك وحسب ، بل وكان يئن تحت وطاة مشاعر الغضب والمهانة . ولم يكن امامه مفر سوى التوجه نحو الحى الذى كان يسمى فى الماضى «جولوبياتنيكى» بحثا عن مسكن رفيقه فى العمل الفدائى فيما مضى – ايفان جناتينكو او ببساطة كوندراتوفيتش الذى لم يزره طيلة اثنتى عشرة سنة . او كان يدرى آنذاك انه قد خطا اولى خطواته على الطريق الذى افضى به الى الهلاك ؟

وهاكم ما حدث فى اللحظة الاخيرة التى سبقت خروجه فى اثر يليزافيتا الكسييفنا الى الردهة . . ما شهدته تلك الغرفة التى تمدد فى فراشه بها ابن يليزافيتا الكسييفنا . . .

لقد كان ثمة صمت كئيب يسودها ، الى ان هب واقفا توليا اورلوف ، ذلك الذى كانوا يلقبونه «بالرعد» ، هب من مقعده ليعلن انه ما دام افضل اصدقائه – فولوديا غير قادر على الرحيل ، فانه اى توليا اورلوف سوف يظل الى جواره .

اصاب الذهول الجميع لحظة من الزمن راح بعدها فولوديا الذى ترقرقت الدموع فى ماقيه يقبل توليا اورلوف ، مما كان مدعاة لدفقة من مشاعر الغبطة تغمرهم جميعا . فقد اندفعت لوسيا نحو «الرعد» تحيط جيده وتغمره بقبلاتها فى وجنتيه وعينيه وانفه . ولم يكن يجد لحظة اسعد من تلك ! ثم القت بنظرة تنم عن غضب نحو جورا اروتيونيانتس . فقد كانت تراودها مشاعر رغبة قوية فى ان يبقى كذلك هذا الفتى الاسمر حسن الهندام !

وعلق فانيا زيمنوخوف على ذلك قائلا بصوت اجش :

– هذا رائع ! يا لك من رفيق . . يا لك من رفيق حقيقى يا توليا ! اننى فخور بك ! – لكنه استطرد معقبا :

– اننى وجورا فخوران بك !

ثم شد على يد توليا مصافحا .

وشرع فولوديا يقول وقد انبعث البريق من عينيه :

– وهل ثمة من يعتقد اننا سوف نعيش فى دعة وخمول ؟ اننا سوف نناضل . . اليس الامر كذلك يا توليا ؟ كما وانه يستحيل الا يكونوا قد تركوا بعض رجال اللجنة الحزبية للمنطقة لتنظيم العمل الفدائى السرى . اننا سوف نجدهم ! اولسنا قادرين على ان نكون ذوى منفعة !

الفصل العاشر

انخرط فانيا زيمنوخوف وجورا اروتيونيانتس بعد ان ودعا فولوديا اوسموخين فى خضم تيار النازحين الذين راحوا يسيرون بمحاذاة السكة الحديدية فى اتجاه ليخايا .

وكانت خطتهما فى البداية تقضى بالتوجه نحو نوفوتشيركاسك حيث يوجد لجورا اروتيونيانتس وكما ذكر بنفسه ، قريب ذو نفوذ يستطيع ان يعينهما على مواصلة الرحلة فيما بعد . وقد كان هذا القريب يعمل اسكافيا بالمحطة . بيد ان فانيا الذى كان جورا يطيعه طاعة الصغير للرفيق الاكبر سنا ، ما ان عرف بأن آل كوفاليوف يعتزمون السفر الى ليخايا ، حتى عرض على جورا فى اللحظة الاخيرة اتباع هذا الطريق قارنا اقتراحه بعدد من الحجج الغامضة . وقد وافق جورا على استبدال خط السير الواضح المعالم الذى اقترحه ، بخط سير زيمنوخوف مبهم التفاصيل حيث كان الامر بالنسبة له سيانا تماما .

وفى احدى مراحل الطريق انضم اليهما رائد قصير القامة ، غير مستقيم الساقين ، كث الشارب يرتدى سترة عسكرية مكرمشة للغاية تعلو شارة «الحرس» جانبها الايمن ، بينما كان حذاؤه فى حال يرثى لها . وكان لباسه العسكرى ولاسيما حذاؤه على هذا النحو

لتكديسه كما ذكر بنفسه ، على مدى خمسة اشهر فى مخزن المستشفى التى ظل طريح الفراش بها طوال تلك المدة .

وقد كان المستشفى العسكرى يشغل فى الآونة الاخيرة احد اجنحة مستشفى كراسنودون المركزى ، وتم اجلاؤه . غير انه ونظرا للنقص فى وسائل النقل عرض على كل من يستطيع مواصلة السير مغادرة المدينة التى بقى بها ما يزيد عن مائة جريح فقدوا كل الامل فى الخروج من مازقهم .

وفيما عدا ذلك الشرح المسهب حول مصيره ومصير المستشفى لم يذكر الرائد شيئا على الاطلاق ، وظل ملتزما الصمت بقية الطريق ، دون ان يوحى حتى بأنه سوف يقول شيئا . هذا علاوة على انه كان مصابا بعرج ؛ الا ان ذلك لم يحل دون متابعته للسير فى حذائه الرث وعلى نحو يوحى بالحماس . وسرعان ما كسب احترام الشابين اللذين راحا يتوجهان اليه دائما فى حديثهما بوصفه شخصية مهيبة صموتة ذات نفوذ .

وقد راح فانيا وجورا يقطعان البرارى سيرا على الاقدام وقد شمرا عن سواعدهما وامسكا فى يديهما بغطائى رأسهما ، وقد استقر على ظهريهما كيسا حاجياتهما تغمهما الهمة والامال ، بينما كانت الغالبية من المسنين والشباب ، من الرجال ، وليس النساء فقط ، تحمل السلاح تعانى وتئن فى خضم تيار الانسحاب الذى لا يتوقف . وقد كانا يتميزان عن الآخرين بكونهما ما يزالان فى مقتبل العمر وحيدين يجهلان مواقع العدو ومواقع ذويهم . لا يعيران سمعا للاشاعات ، وكانما كل هذا العالم بما فيه من مثل هذه البرارى مترامية الاطراف والغارقة فى بحار من اشعة الشمس الحارقة ودخان الحرائق والغبار والسحب المخيمة على الطرق التى يقصفها الالمان تارة هنا ، واخرى هناك . . . وكانما كل هذا العالم فى متناولهما . وراحا يتبادلان الحديث حول امور لا تمت على الاطلاق بصلة تربطها بما يجرى فيما حولهما .

فقد تساءل فانيا بصوته الاجش :

– ما الذى يجعلك تصور مهنة القانونى غير ذات شأن فى ايامنا هذه ؟

واجاب جورا على نحو يتسم بالدقة والوضوح كعادته على الرغم من انه كان فى السابعة عشرة من عمره :

– لانه يجب على المرء ان يكون عسكريا ما دامت الحرب دائرة ، وحين تضع اوزارها يجب عليه ان يعمل مهندسا لاعادة بناء البلاد ، اما مهنة الحقوقى فليست بالمهنة الهامة .

– هذا امر طبيعى . اننى اود الانخراط فى سلك العسكرية ما دامت الحرب دائرة ، الا انهم يرفضوننى لضعف نظرى . اننى اراك حين تبتعد قليلا شيئا غير واضح المعالم طويلا . . . اسمر .

واستطرد يقول والابتسامة تعلو شفتيه :

انه من الطبيعى ان يكون المهندس صاحب مهنة ذات شان ، غير ان ميول المرء هى التى تحدد اتجاهه وانت تعرف ميلى الى قرض الشعر .

– عندئذ يجب عليك الالتحاق باحد المعاهد الادبية .

هكذا اجابه جورا بمنتهى الوضوح والدقة ، ونظر نحو الرائد بوصفه الانسان الوحيد القادر على ادراك مدى صحة احكامه . بيد ان الرائد لم يعر كلماته اى اهتمام .

وتحدث فانيا يقول :

– ان هذا هو ما لا اوده . فلم يدرس بوشكين ، ولم يدرس تيوتشيف فى اى من المعاهد الادبية ، بل ولم تكن هناك اية معاهد من هذا النوع آنذاك . علاوة على انه من المستحيل على المرء ان يتعلم كيف يصبح شاعرا فى احد المعاهد التعليمية .

واجابه جورا :

– يمكن ان يتعلم المرء كل شىء .

– كلا . انه من الغباء تصور امكانية تعلم قرض الشعر فى معهد تعليمى . يجب على كل انسان اتمام دراسته وبدء حياته بممارسة مهنة عادية . اما اذا كان موهوبا بطبيعته فى قرض الشعر فسوف تتطور هذه الملكة بالممارسة الذاتية . وهنا فقط اعتقد فى امكانية ان يصبح المرء اديبا . فلقد كان تيوتشيف على سبيل المثال يعمل فى السلك الدبلوماسى ، وجارين يعمل مهندسا ، وتشيخوف طبيبا ، وتولستوى من كبار ملاك الاراضى .

– مهنة مريحة . .

ندت عن جورا بينما توجهت عيناه الارمنيتان السوداوان نحو فانيا بما يعنى المداعبة .

وابتسم كلاهما ، كما وندت ابتسامة على شفتى الرائد الصموت .

وتساءل جورا بلهجة جادة :

– وهل كان هناك اديب احترف مهنة الحقوقى ؟

ولقد كان يناسبه تماما ما اذا كان احد الادباء قد احترف القانون .

واجاب فانيا :

– هذا هو ما لا اعرفه . غير ان معرفة العلوم الحقوقية تيسر للاديب معرفة العلوم الاخرى اللازمة – فى مجال التاريخ والحقوق والعلوم الاجتماعية والاداب .

وقال جورا بنبرة تنم عن شىء من الزهو :

– فلنفترض انه من الافضل دراسة هذه العلوم فى معهد تربوى .

– اننى غير راغب فى ان اصبح معلما ، بالرغم من انكم لقبتمونى بالبروفيسور .

وذكر جورا :

– على الرغم من كل هذا فاننى اعتقد انه من البلاهة ان يلعب المرء دور المحامى فى محاكمنا ، وعلى سبيل المثال فى قضية اولئك الاوغاد المخربين . . هل تذكرها ؟ اننى افكر طوال الوقت فى دور المحامين . . يا له من دور يتسم بالحماقة . . اليس كذلك ؟

وهنا انفجر جورا ضاحكا لتظهر اسنانه البيضاء الناصعة .

– لا شك فى ان وظيفة المحاماة فى بلادنا ليست ذات شان ، حيث ان محاكمنا شعبية . غير اننى اعتقد ان وظيفة المحقق مهنة غاية فى الطرافة تعين المرء على معرفة نوعيات لا حصر لها من البشر .

وذكر جورا :

– انه من الافضل ان يشغل المرء وظيفة المدعى . هل تذكر فيشينسكى ؟ يا له من رائع . ومع ذلك فاننى شخصيا لا اهوى مهنة الحقوقى .

وهنا قال فانيا :

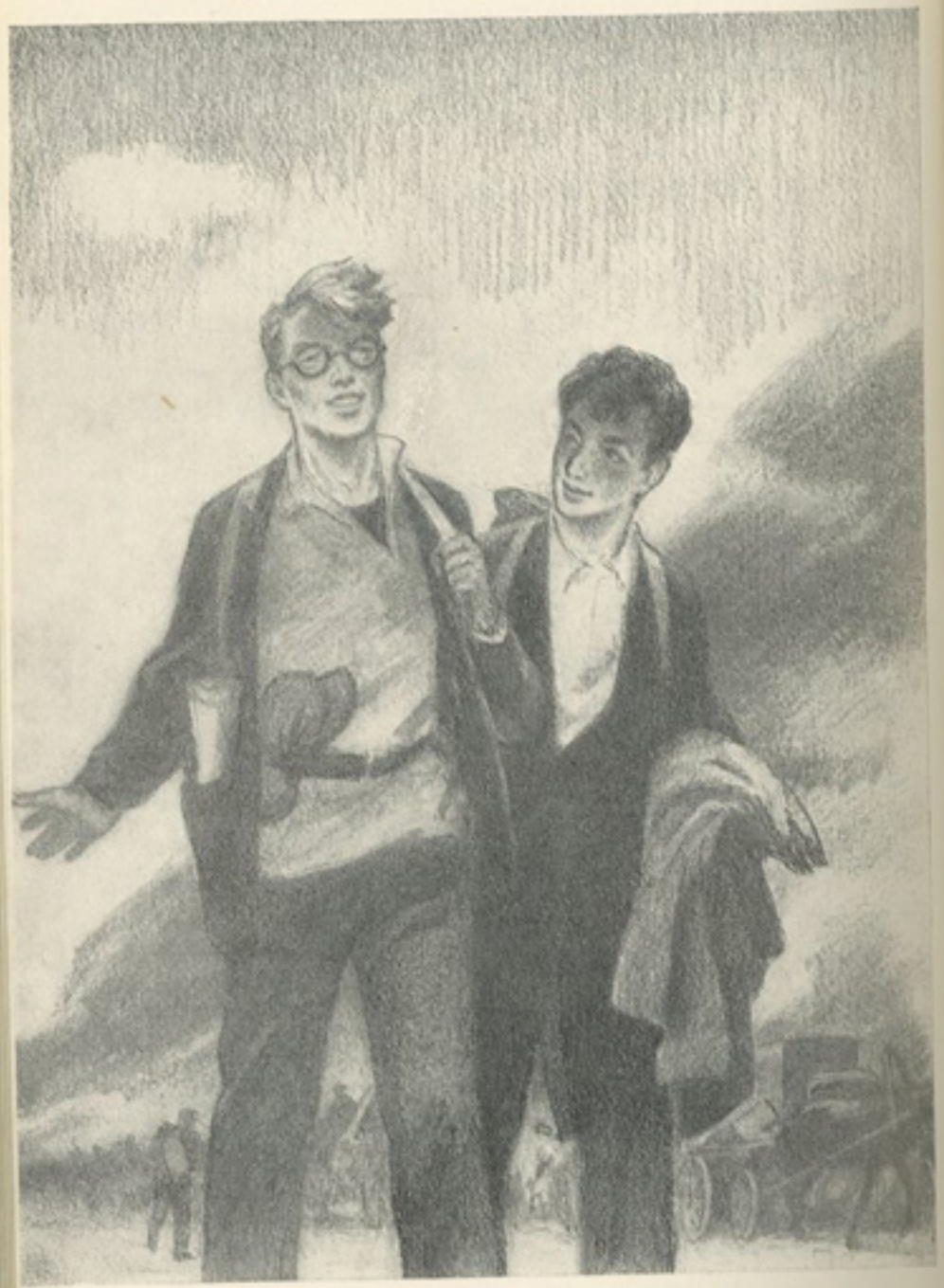

– لقد كان لينين حقوقيا !

– كان العصر غير العصر .

وهنا ذكر فانيا والابتسامة تعلو شفتيه :

– لقد كان من الممكن الاستطراد فى الجدل ، لو لم اكن على يقين تام من ان النقاش حول اختيار مهنة المستقبل امر غير ذى نفع ويتسم بالحماقة . اذ انه من الواجب على المرء ان يكون متعلما خبيرا فى شئون مهنته ، محبا لعمله . اما اذا كانت لديه موهبة نظم الشعر ، فسوف تظهر من تلقاء نفسها .

– فانيا ! انك تعلم اننى كنت اطالع اشعارك بكل سرور سواء فى جريدة الحائط او فى مجلة «الشراع» التى كنت تصدرها بالتعاون مع كوشيفوى .

وتساءل فانيا فى حيوية :

– اوكنت تقرأ هذه المجلة ؟

واجابه جورا فى لهجة احتفالية :

– نعم لقد كنت اطالع هذه المجلة . كما وكنت اطالع مجلتنا المدرسية «التمساح» .

واستطرد يقول فى نبرة عن اعتزاز بالنفس :

– لقد كنت اتابع كل ما ينشر فى مدرستنا . ويمكننى ان اقول لك بكل تحديد . . انك تملك موهبة نظم الشعر .

وذكر فانيا بينما تحول بنظره نحو الرائد فى ارتباك ، والقى برأسه الى الخلف ليعيد شعره الطويل المتهدل الى مكانه :

– اية موهبة . . اننـــى ما زلت اسطر الابيات بعد . . بوشكين . . انه حقا شاعرى المفضل . . الهى !

وهنا صاح جورا وقد فرضت نفسها ثانية لهجته الارمنية عـــلى حديثه .

– كلا . . انك تنظمه بشكل رائع . اذكر كيف سخرت مـــن لينكا بوزدنيشيفا لتثنيها كثيرا امام المرآة . . ها . . ها . . انه لرائع حقا . ماذا كتبت هل تذكر ؟ . . «وفغرت ثغرها الجميل . . .» ها . . ها .

وذكر فانيا بصوته الاجش فى ارتباك :

– يا له من هراء !

وتساءل جورا فى لهجة مبهمة :

– الم تكتب اشعار الغزل ؟ ثم استطرد يتساءل وهو يغمز للرائد بطرف عينه :

– فلتقرأ لنا شيئا منها !

واعترى الارتباك فانيا تماما ليقول :

– اى غزل تتحدث عنه ؟ ماذا اصابك فى حقيقة الامر !

وقد كان قد كتب بالفعل اشعار غزل كرسها لحبيبته كلافا وعنونها ، مثل بوشكين – «الى ك . . .» . وقد راودته آنذاك ذكرياته معها ، واحلامه بشأنها . لقد كان سعيدا ، نعم سعيدا فى بحر الشقاء والتعاسة . ولكنه لم يكن قادرا بطبيعة الحال الافصاح لجورا عن ذلك .

وراح جورا يواصل الحاحه بينما تتألق عيناه الارمنيتان فى صبيانية :

– كلا . . ان لديك اشعارا منها . فلتقرأ علينا بعضها . هيا . . نستحلفك بالله !

– دعك من هذه الترهات !

وهنا كست امارات الجد وجه جورا ليتساءل فجأة بنبرة المعلم :

– الست حقا تكتبها ؟ وحقا تفعل . فهل هذا هو اوان نظم اشعار الغزل ، كما يفعل سيمونوف هذا ؟ فى حين يجب تربية الشعب فى روح من الحقد وكراهية الاعداء ! انه من الواجب نظم الاشعار السياسية مثلما فعل مایاكوفسكى ، ويفعل سوركوف ! اليس ذلك رائعا ؟ !

واجاب فانيا بنبرة تنم عن استغراق فى التفكير :

– ليس الامر هكذا تماما . اذ يستطيع المرء الكتابة فى كافة الموضوعات فما دمنا قد جئنا هذا العالم ، لنعيش تلك الحياة التى ربما كانت اجيال كاملة تحلم بها وتناضل من اجلها ، فاننا نملك حق التغنى بكل ما نعيشه . . فذلك امر هام من الصعب ان يتكرر ثانية !

وعاد جورا يرجوه :

– استحلفك بالله ان تنشدنا شيئا !

كان الجو حارا خانقا لا يطاق . . الا انهما كانا يسيران تتعالى

ضحكاتهما وصياحهما تارة ، بينما يلتزمان الهدوء ويتبادلان الحديث فى همس تارة اخرى . كانا يسيران ، يلوحان بايديهما يتصبب ظهراهما عرقا ، تحت وطأة احمالهما . كما علا وجهيهما الغبار الذى اختلط بالعرق وجعلهما يبدوان ، جورا الاسمر كما الزنجى وفانيا ذو الوجه المستطيل الشاحب ، بل وكذلك الرائد كث الشارب مثل منظفى المداخن بيد ان كل ذلك لم يكن يعنيهما آنذاك فى شىء ، ولم يكونا يشكان لحظة واحدة فى ان العالم بالنسبة لهما وللرائد ايضا لا يخرج عن اطار ما كانا يتبادلان الحديث حوله .

. حسنا . . سوف اتلو . .

وراح فانيا بصوته الاجش الهادىء يتلو دون ان تبدو عليه اية امارات اضطراب :

نحن لا نعرف الياس والملل
نحن لا نخاف الحياة
اننا نعرف الثبات
اننا لا نخاف الخطوب

سنواتنا تمضى جريئة صاخبة
ايامنا تمضى جريئة صاخبة
والاحلام بهيجة رائعة
تجيش فى صدورنا الهادرة ...

نحن لا نمقت المعيشة
نحن لا نعرف الملل
والصبا لا يعرف الشكوك
الصبا يجهل الحياة المقفرة ...

كومونة العالم تنادينا
وفى جسارة نلبى النداء
انظارنا متعلقة بالاعالى
قلوبنا تواقة للفداء ...

يا لك من رائع ! انك صاحب موهبة حقيقية !

صاح جورا وهو ينظر فى اعجاب خالص الى رفيقه .

وهنا ندا عن الرائد صوت غريب مما جعل جورا وفانيا يلتفتان

نحوه ، ليخاطبهما بصوت مبحوح بينما راح ينظر اليهما بعينيه المترقرقتين بالدموع الغائرتين تحت حاجبيه الكثين ، تبدو عليه امارات الاضطراب :

– انكما ايها الصبيان . . . انكما لا تعرفان مدى شطارتكما !

واستطرد يقول مهددا بسبابته التى علاها الغبار :

– كلا . . لقد صمدت هذه الدولة فى الماضى ، وسوف تصمد فى الحاضر !

ثم مضى يقول وقد اتسمت بنبرته بالسخرية :

– انه يظن انه قضى على حياتنا . كلا يا صاح . . انك تتشاقى ! ان الحياة تسير . . بينما يظنك اولادنا طاعونا او وباء . كلا . . لقد جئت . . وسوف ترحل ، لتستمر الحياة فى مجراها الطبيعى . . ومن كان يدرس فسوف يواصل دراسته ، ومن كان يعمل فسوف يواصل عمله . اى تفكير كان يراوده ! ان حياتنا سوف تستمر ابد الدهر . . فاين هو من ذلك ؟ انه دمل بسيط ما ان تضغط عليه حتى ينتهى تماما . ان الامر لبسيط ! لقد كدت نفسى ان افقد معنوياتى فى ذلك المستشفى اللعين . كنت اظننا غير قادرين على التصدى له ، حتى انضمت اليكما . . لقد استعدت معنوياتى . اننى اظن ان ثمة كثيرين يلعوننا نحن العسكريين . . فهل يصح هذا ؟ هل بسبب الانسحاب ؟ الم يحشد جل قواه ضدنا ؟ ومع ذلك فما اعظم قوانا المعنوية ! يا الهى ! ان المرء لتنتابه سعادة هائلة حين يصمد مكانه مفضلا التضحية بحياته على التراجع .

واستطرد الرائد يقول وقد اعتراه قلق اصاب جسده النحيل الجاف :

– فلتصدقانى . . لقد كانت سعادة لا حد لها التضحية بالذات من اجل الصبية من امثالكما !

واذ لزم فانيا وجورا الصمت راحا ينظران اليه وقد ارتسمت على وجهيهما امارات الطيبة والارتباك .

واذ فرغ الرائد من حديثه ، رمش بعينيه ومسح شاربه بمنديل قذر ولزم الصمت ، دون ان ينبس ببنت شفة حتى ارخى الليل سدوله . اما ليلا فقد اندفع الرائد مفعما بطاقة وحيوية المت به فجاة

«يزيل» ، على حد قوله ذلك الازدحام الهائل من السيارات والمركبات وعربات المدفعية ، ليغيب عن انظار فانيا وجورا اللذين نسياه على التو .

واستغرق طريقهما حتى ليخايا طيلة يومين كاملين ، اتضح خلالهما ان المعارك تدور فى الجنوب قريبا من نوفوتشيركاسك ، اما على الشاطىء الآخر من نهر الدونيتس فقد كانت تعبث الدبابات والوحدات الالمانية الميكانيكية فى البرارى الرحبة فيما بين نهرى الدونيتس والدون .

بيد ان الشائعات كانت تؤكد ان ثمة وحدة عسكرية خاضت نضالا ضاريا بالقرب من كامينسك تقطع الطريق على الالمان نحو ليخايا . وقد تناقلت الافواه اسم الجنرال قائد الوحدة التى كان لها فضل تامين المعابر على الدونيتس الاسفل ، وحرية الحركة فى البرارى حتى الدون ، وكذلك حرية عبوره .

وفى الليلة الاخيرة سقط فانيا وجورا منهكى القوى وبعد مسيرة دامت عدة ايام تحت اشعة الشمس الحارقة ، ليستغرقا فى سبات عميق على كومة من القش فى احد الاكواخ . وقد استيقظا تحت وقع دوى انفجارات القنابل هزت اركان الكوخ .

لم تكن الشمس قد استقرت عالية بعد فوق البرارى ، بيد ان اشعتها الذهبية المشوبة بالزرقة كانت تنعكس فوق حقول القمح مترامية الاطراف لتزيد من حرارة الجو حين ادرك فانيا وجورا مخيما هائلا من السيارات والمركبات والبشر الذين احتشدوا على شاطىء الدونيتس فى مواجهة البلدة الكائنة على الشاطىء الاخر بحدائقها اليانعة ومبانيها الحجرية التى استقرت بها المؤسسات الحكومية والتجارية والمدارس التى اسفر القصف الجوى عن تدمير الجزء الاعظم منها والذى غدا اطلالا يبعث منها الدخان .

وقد راح قوام هذا المخيم الهائل يتجدد على نحو مستمر يؤمه النازحون وتقصده العربات ، يشكل بعض القدامى اساسه يعيش نمطا فريدا من الحياة لا يتكرر منذ ان تكون من اسبوعين تقريبا .

لقد كان ذلك خليطا عجيبا من بقايا الوحدات العسكرية والعاملين فى المؤسسات والهيئات ومن كل انواع وسائل النقل ومن النازحين الذين ينتمون الى مختلف الفئات الاجتماعية والاعمار والاحوال

العائلية . ولم يكن لكل هؤلاء هم او اهتمام سوى محاولة الاقتراب من النهر . . من ذلك المعبر الضيق العائم على نهر الدونيتس .

بيد انه اذا كانت جهود كل هؤلاء الذين احتشدوا فى المخيم قد استهدفت الوصول الى الكوبرى ، فقد كانت جهود العسكريين المسئولين عن المعبر ، تستهدف الحيلولة دون وصول هؤلاء الناس الى الكوبرى العائم بغية السماح بادىء ذى بدء بعبور وحدات الجيش الاحمر التى كانت تنسحب نحو خطوط دفاعات جديدة فيما بين نهرى الدونيتس والدون .

وفى خضم هذا الصراع المحتدم بين الرغبات والجهود الفردية ، وبين ما املته الضرورة العسكرية وامن الدولة ، وفى ظل الخوف من ظهور العدو فى الآونة القريبة على هذا الشاطىء ايضا ، وحين انتشرت الشائعات التى كانت كل منها اسوأ من الاخرى تثير الرغبات والجهود المتناقضة فيما بينها . . . فى اتون ذلك الصراع كانت تسير حياة المخيم اليومية .

وقد كانت ثمة منظمات طال انتظارها فى ذلك المكان ، واسعفها الوقت لحفر الخنادق ؛ بينما نصب آخرون خيامهم واعدوا الافران المؤقتة لاعداد طعامهم . وقد كان المخيم عامرا بالاطفال . هذا بينما كان الدونيتس يشهد رتلا طويلا من السيارات والمركبات والبشر يعتلى المعبر طوال الليل والنهار فى طريقه الى الشاطىء الآخر ، يحده من الجانبين آخرون على متن قوارب واطواف . هذا الى جانب آلاف الماشية التى راحت تموء متزاحمة على الشاطىء لتنطلق تعبر النهر سباحة .

كان الالمان يقصفون المعبر عدة مرات كل يوم ، فى حين كانت المدفعية المضادة للطائرات التى تتولى حراسة المعبر تصلى بنيرانها تلك الطائرات المغيرة ، فيما يتفرق كل المخيم على التو مختفيا فى البرارى . الا ان الجميع كانوا يعودون الى مكانهم فور اختفاء الطائرات .

ولم يكن ثمة شاغل لدى فانيا منذ تلك اللحظة التى وصل فيها الى المخيم سوى البحث عن العربة التى استقلها آل كوفاليوف . فقد كانت تتنازعه مشاعر متباينة . . اذ غدا يدرك مدى هول الخطر ، وصار تواقا كى تكون كلافا برفقة ذويها ليس فقط على الشاطىء

الآخر من الدونيتس ، بل والدون ايضا . هذا من جهة . اما من جهة اخرى فقد كان يسعده ان يصادفها هنا على هذا الشاطىء .

وقد راح فانيا وجورا يذرعان المخيم بحثا عن ذويهم من ابناء كراسنودون ، حتى دوى فجاة صوت يناديهما باسميهما . وقد كان ذلك هو اوليج كوشيفوى رفيق الدراسة الذى لفحته الشمس وبدا كعادته نضرا حسن الهندام ، عريض المنكبين رشيق القوام ، لامع العينين ، ذهبى الاهداب . وقد راح يعانق رفيقيه يشد عليهما بيدين قويتين كبيرتين ويقبلهما فى حرارة .

وقد التقيا كذلك بعربة المنجم رقم ١ التى كان يستقلها فالكو وشيفتسوف ، وكذلك بالمركبتين اللتين كانتا تستقلهما اوليا واقارب كوشيفوى ، وبملجأ الاطفال الذى رحل عن كراسنودون بفضل فانيا وجورا ، ومع ذلك فلم تتعرف عليهما مديرته .

الفصل الحادى عشر

كان النظام سائدا تماما فى ذلك الجزء من المخيم الذى وصل اليه فانيا وجورا وحيث كان يفرض نفسه فالكو مدير المنجم رقم ١ المعروف بصرامته . . فقد كانت العربات والمركبات تقف جانبا فى طابور واحد ، بينما كانت الخنادق قد حفرت فى كل مكان . كما وتكدست بالقرب من عربة النقل التابعة للمنجم احتياطيات الاخشاب – بقايا الاسوار ، بينما راحت مارينا واوليا تطهيان حساء الكرنب الطازج .

لقد كان هذا الغجرى العجوز فالكو اداريا ممتازا . واذ صحب عماله وخمس من شباب الكومسومول توجه فى خطى رزينة يرمى الآخرين بنظراته الصارمة من تحت حاجبيه الاسودين الكثين ليضطروا تحت وقعها الى الافساح له ، ليصل الى المعبر يحدوه امل فرض النظام على كل هذه العملية .

وقد اعجب اوليج بفالكو منذ تلك اللحظة التى بدا فيها ينظم امور المعبر مثل اعجابه منذ بعض الوقت بكايوتكين ، وكذلك باوليا من قبله .

وتملكت اوليج مشاعر التعطش البالغ لبذل النشاط والرغبة فى التعبير عن كل طاقاته والتدخل فى حياة ونشاط البشر بغية ان يضيف اليها شيئا اكثر كمالا وافضل جوهرا ، وتلك امور كانت كامنة فى اعماق كيانه الروحى تشكل جوهره وتفرض نفسها على سلوكه .

وراح اوليج يقول فى مرح بلهجته الاوكرانية التى تشوبها بعض التاتاة وهو يسير الى جوار زيمنوخوف فى اثر فالكو :

– يا لها من صدفة حسنة ان نتقابل سوية يا فانيا ، فلقد اوحشتنى كثيرا . اورايت ذلك ؟ – وهنا اشار اوليج باصبعه وبعينيه الى فالكو على نحو ينم عن احترام ومضى يقول وهو يرمش باهدابه الذهبية : – ان اهم قوة فى هذا العالم هى قوة التنظيم . اذ يستحيل دونها ان يتقدم اى عمل مهما كانت جدواه ، حيث يغدو كنسيج كامل متكامل راح يتفكك لعدم احكام رباطه النهائى . لكن ما ان توجد اليد القوية والارادة حتى . . .

– تجد من يوجه لكمة قوية الى سحنتك !

هذا ما علق به فالكو دون ان يلتفت حتى الى الصبيين .

وادرك الصبيان مرمى هذا المزاح الكئيب .

وكما الوضع حين يصعب على الموجودين فى الانساق الثانية للجيش تقدير حجم وضراوة المعارك التى تشهدها الجبهة ، يستحيل على القابعين فى مؤخرة المخيم الحكم على مدى المأساة التى تشهدها منطقة المعبر .

اذ انهم كلما كانوا يقتربون من المعبر ، كلما كان الموقف يزداد تشابكا وتعقيدا ، ويغدو التوتر اكثر حدة مما يستحيل معه لاية قوة ان تخفف منه او تزيله . فقد تزاحمت وتشابكت السيارات بينما الجماهير البشرية تحاول ان تجد لنفسها طريقا فيما بينها ليصل الامر بالجميع الى وضع يستحيل تحديد اتجاهه او تنظيمه ويغدو حتميا الحل الوحيد ، الذى يكمن فى التقدم على هذا النحو بطيئا بطيئا الى الامام .

وفى مثل هذا الجو الخانق شديد الحرارة ، راحت الجماهير تسير تئن تحت وطأة الغضب ، تتصبب عرقا وتتزايد درجة غليانها الداخلى بحيث بدا ان اى تلامس فيما بينها يمكن ان يفضى الى انفجار .

وقد كان العسكريون الذين يشرفون على ادارة المعبر يواصلون

عملهم الشاق واللاانسانى دون ان يغمض لهم جفن على مدى ايـــام طويلة ، وقد علتهم السمرة من تاثير الارق والشمس التى تلظوا بنيران اشعتها منذ مطلعها وحتى غروبها ، والغبار الذى اثارته آلاف الاقدام والعجلات ، وبحت اصواتهم من اطلاق الشتائم ، والتهبت جفونهم وبلغ بهم الانهاك والتوتر العصبى درجة ان اياديهم السمراء التى علاها الغبار لم تعد قادرة على الامساك بشىء .

ولقد كان من الواضح تماما انه لا يمكن ان يضيف احد شيئا الى ما كان يبذله هؤلاء الرجال ، الا ان فالكو تقدم نحو بداية المعبر ليضيع صوته الاجش فى خضم الاصوات الاخرى وهدير السيارات .

وراح اوليج الذى وصل الى الشاطىء بصحبة رفاقه يحدق باهتمام صبيانى تعلو وجهه امارات خيبة الامل والدهشة ، الى عربات النقل والمركبات المحملة تزحف الواحدة تلو الاخرى وسط هذه الاتربة والجو الملتهب تترك الشاطىء الذى تحول الى مستنقع هائل قاصدة الشاطىء الآخر ، والى اولئك الناس الذين راحو يسيرون ويسيرون يتصبب العرق منهم وتعلوهم الاتربة وتجتاحهم مشاعر الغضـــب والمهانة . . ومع ذلك يسيرون !

ولم يكن هناك سوى الدونيتس ، ذلك النهر الحبيب منذ الطفولة الذى شهد رحلات الصبية من تلاميذ المدارس للسباحة وصيـــد الاسماك ، لم يكن هناك سواه ينساب كما كان عريضا هادئا بمياهه الدافئة ، العكرة بعض الشىء .

— كلا . . اننى اود رغما عن ذلك توجيه لكماتى الى سحنـــة احد ما !

تعالى صوت فيكتور بيتروف فجاة وقد ارتسمت على عينيـــه الجسورتين امارات حزن بينما راح ينظر نحو النهر وليس نحـــو المعبر . . لقد كان من عزبة بوجوريلى قضى سنوات طفولته قريبا من هذا النهر .

ومزح فانيا قائلا :

— لربما كان هذا «الاحد» قد عبر النهر منذ زمن !

وضحك الصبية . وذكر اناتولى وهو يومىء برأسه التى علتها طاقية اوزبكية نحو الغرب :

— فلتوجه لكماتك الى هناك وليس هنا !

وايده جورا :

— حقا تقول !

وفى تلك اللحظة التى فرغ فيها من جملته هذه دوت صيحة تحذير :

— السماء !

وفجاة اطلقت المدافع المضادة للطائرات والرشاشات نيرانها وتعالى هدير محركات الطائرات فى السماء ، وحفيف القنابـــل المتساقطة .

وانبطح الصبية ارضا . وهزت الانفجارات القريبة والبعيدة الارجاء وتناثرت الكتل الطينية وشظايا الاخشاب ، وتتالت موجات الطائرات الثانية ثم الثالثة لتتكرر نفس المشاهد . . الهدير واصوات الانفجارات ونيران المدافع المضادة للطائرات والتى ملأت كل الفراغ الكائن فيما بين البرارى والسماء .

لكن ها هى الطائرات تولى ، وشرع الناس فى النهوض من اماكنهم لتتعالى فى تلك اللحظات اصوات مدافع انبعثت من بعيد ، مـن جهة القرية حيث قضى جورا وفانيا ليلتهما . ومرت لحظة بدات بعدهـا القذائف تنهال فوق المخيم ذاته تبعث الى الجو بأعماق الارض وشظايا الاخشاب .

وشرع الناس الذين نهضوا من اماكنهم ينبطحون ثانيـــة الى الارض ، بينما تحول بعضهم بانظاره نحو الانفجارات متابعين فى نفس الآن الحركة عند المعبر . وقد ادرك هؤلاء بالنظر الى اوجه وسلوك العسكريين الذين كانوا يشرفون على المعبر ان ما حدث امر لا يمكن تقويمه .

وجال العسكريان اللذان كانا ينظمان حركة المعبر بانظارهما ، ثم لبثا لحظة وكانما يصيخان السمع . انطلق بعدها فجاة احدهما نحو الملجا القريب من المعبر العائم ، بينما اندفع الآخر يطلق اوامره بغية تجميع الوحدة .

وبعد لحظة خرج الاول من الملجا يحمل معطفين عسكريين فى احدى يديه بينما شرع بالاخرى يجر كيسين مملوءين بشتى الاشياء من حزامهما . واندفع العسكريان ومقاتلو الوحدة دون نظام يهرولون

نحو المعبر العائم ، متجاوزين السيارات التى كانت قد بدات تحركها فوق المعبر ونحوه .

اما الامور التى حدثت فيما بعد ذلك فقد تطورت على نحـــو مفاجىء لم يكن هناك من يستطيع ادراك كنهها . اذ اندفع بعض الناس فى اثر العسكريين يتصايحون ، بينما تزاحمت العربات عند المعبر فى محاولة للعبور الا انها اصطدمت فيما بينها وتعالى صوت ارتطامها . وبالرغم من انه كان من الواضح تماما ان تلك السيارات قد اغلقت الطريق فقد تدافعت السيارات الاخرى نحو المعبر يتعالى هدير محركاتها ، لتسقط احداها فى النهر ، وتتبعها اخرى وتوقفت الثالثة التى اوشكت بدورها على السقوط ، اذ جذب السائق بقوة وسرعة فرامل اليد .

وبينما كان فانيا زيمنوخوف يتابع رغم قصر نظره ما يجرى للسيارات انطلق مناديا على حين غرة :

– كلافا !

واندفع نحو المعبر ؛ فقد كانت السيارة الثالثة التى اوشكت على السقوط هى التى تحمل آل كوفاليوف ، حيث كان يعتلى الاب وزوجته وابنته وآخرون المتاع الذى غصت به العربة .

ومرة اخرى صاح فانيا الذى وجد نفسه قريبا من السيارة :

– كلافا !

راح الجميع يقفزون من السيارة ، ومد فانيا يده لتقفز كلافا معتمدة عليها .

وذكر كوفاليوف على نحو جعل البرودة تتسلل الى قلـــب فانيا :

– لقد انتهى الامر ! فلتحل اللعنة !

اما كلافا التى لم يتجاسر فانيا على الامساك بيدها طويلا فقد نظرت اليه بطرف عينها ليخفق قلبها .

وتساءل كوفاليوف بصوت تخنقه العبرات لدى زوجته التى وضعت يدها على قلبها فاغرة فاها كسمكة ، بحثا عن الهواء :

– اولا تستطيعى السير ؟ فلتتحدثى . . او قادرة على السير ؟

واجابت بصوت مخنوق :

– دعنا . . اتركنا . . انهم سوف يقتلونك !

وتساءل فانيا :

– فيم الامر . . ماذا حدث ؟

واجابه كوفاليوف :

– الالمان .

وراحت والدة كلافا تعيد رجاءها :

– فلتنج بنفسك . . اتركنا !

واجاب كوفاليوف باكيا :

– فانيا ! فلتنقذهما . . لا تتركهما ، واذ ما بقيتم على قيد الحياة ، فعليكم التوجه الى نيجنايا الكسندروفكا ، حيث يعيش اقاربنا . . فانيا ! اننى اؤمل عليك كثيرا .

وسقطت احدى القذائف مدوية عند بداية المعبر منفجرة وسط تلك السيارات المتزاحمة .

واندفع الناس المدنيون والعسكريون بعيدا عن الشاطىء نحو المعبر فى صمت . واذ ترك كوفاليوف يد فانيا حاول فى حركة حادة الوصول الى زوجته وابنته ، فى محاولة لوداعهما على ما يبدو ، الا انه اشاح بكلتا يديه فى يأس وهرول مع الآخرين نحو الكوبرى العائم .

وراح اوليج ينادى فانيا زيمنوخوف الذى لم تصلـــه تلك النداءات .

وخاطب فانيا والدة كلافا قائلا فى هدوء وصرامة :

– هيا بنا قبل ان يسحقوننا . . هيا بنا الى الملجا !

وامسك بها من تحت ابطها وهو يقول فى صرامة تمتزج بالرقة:

– هل تسمعيننى يا كلافا ؟ هيا بنا !

وقد تسنى له قبل ان ينزل الى الملجا ملاحظة المقاتلين الى جوار المدافع المضادة للطائرات ينزعون فى عصبية بعض اجزائها الثقيلة يحملونها مهرولين نحو الكوبرى حيث القوها بالنهر . وقد راح الناس والماشية يعبرون النهر سباحة بطول كل النهر ، بيد ان فانيا لم يكن يلحظ ذلك .

اما رفاقه فبعد ان فقدوا اثره وفالكو فقد راحوا يهرولون نحو المكان الذى تركوا فيه مركباتهم ، يقاومون ذلك التيار البشرى الذى كان يعترض طريقهم .

وراح اوليج يصيح وهو يشق طريقه بين الجموع مستعينا بمنكبيه القويين يجول بناظريه اللذين اشتعلا غضبا فكستهما الصفرة :

– فلتتماسكوا سويا ! ينبغى علينا البقاء سوية !

ودبت الحركة فى المخيم وبدأ الجميع كل يبحث عن طريقه ، اما العربات فقد تحركت الواحدة الى جوار الاخرى تهدد محركاتها ، وزحف من استطاع منها الخروج من مازقه بمحاذاة الشاطىء نحو النهر .

وفى الوقت الذى اغارت فيه الطائرات كانت زوجة الخال مارينا تجلس القرفصاء ترمى الى النيران قطع اخشاب السور التى قام الخال كوليا بتقطيعها بخنجره العسكرى . اما اوليا فقد كانت تفترش الاعشاب الى جوارها وقد استغرقت فى التفكير على نحو ارتسمت فيه امارات قوة كئيبة كمنت فى زاويتى ثغرها وفتحتى انفها الدقيق ، بينما راحت تنظر الى جريجورى ايليتش الذى كان يجلس على ظهر العربة يحتضن صبية زرقاء العينين بعد ان قدم لها اللبن ، يسر اليها بشىء ما يدفعها الى الضحك . وعلى مسافة حوالى ثلاثين مترا من النيران الموقدة كانت تقف العربة التى راح الاطفال يلعبون فيما حولها تحت اشراف حاضناتهم ، بينما جلست مديرة الملجأ لا تعير كل ذلك اهتماما . وقد كانت مركبات ملجأ الاطفال وكذلك مركبتا بيتروف وكوشيفوى تقف فى صف واحد الى جوار المركبات الاخرى .

وشنت الطائرات غارتها على نحو مفاجىء لم يتيسر معه اللجوء الى الخنادق ، وليكتفى الجميع بالانبطاح ارضا . واغارت اوليا التى استلقت ارضا ، سمعها الى حفيف القنبلة الهاوية كما الاعصار . وفى تلك اللحظة دوى انفجار ذو قوة هائلة وكانما صاعقة اصابت اعماقها . واعقب ذلك موجة من الهواء قوية ذات صفير تعالى فوقها واتربة تدفقت عليها من عل . وتكرر نفس المشهد . . تعالى هدير المحركات وكذلك الحفيف وان كان فى هذه المرة على مسافة بعيدة، الا انها استمرت فى رقادها منبطحة ارضا . ولم تكن تذكر تماما متى نهضت من مكانها وماذا دعاها الى ضرورة ذلك . غير انها

ووجهت فجأة بذلك العالم المحيط بها لتند عن اعماقها صرخات وحشية رهيبة .

فقد غابت عن انظارها عربة المنجم رقم ١ ، وجريجورى ايليتش وتلك الصبية زرقاء العينين . . لم يكن كل ذلك موجودا عن كثب ، حيث تحول ذلك المكان الذى كانت تقف فيه العربة الى حفرة مستديرة سوداء احترقت حواشيها ، تناثرت حولها اجزاء من العربة المحترقة وجثث الاطفال المشوهة ، وعلى مسافة عدة امتار منها كان ما يزال عامرا بالحياة جزء بشرى غريب يحيط به منديل احمر ، عرفت اوليا فيه الجزء الاعلى من جذع مديرة ملجأ الاطفال . اما نصفها الاسفل بحذائها المطاطى الذى ارتدته على جوربها النسائى الخفيف مباشرة فلم يكن له وجود تماما .

وقد كان هناك صبى يناهز عمره الثامنة قد حنى راسه نحو الارض والقى بيديه الى الخلف كما لو كان يعتزم القفز ، راح يدور فى مكانه ويضرب الارض بقدميه صارخا .

واندفعت اوليا دون ان تدرى بنفسها نحو الطفل تحاول احتضانه الا انه راح يرتعش ويصرخ . ورفعت راسه لتشاهد وجهه المحترق وعينيه الجاحظتين اللتين خرجتا من محجريهما .

وسقطت اوليا على الارض مجهشة بالبكاء .

كان كل شىء يحوم حولها فى رتابة سريعة ، الا انها لم تكن لترى او تسمع شيئا . ولم تستطع سوى ان تشعر بوجود اوليج كوشيفوى الى جوارها وقد راح يحادثها ويربت بيده الكبيرة على شعرها ، محاولا على ما يبدو مساعدتها على النهوض ، بينما كانت تواصل البكاء وقد دفعت راسها فيما بين يديها . وقد كانت اصوات رماية المدفعية وانفجارات الدانات وقصف الرشاشات تتناهى الى سمعها ، الا ان كل ذلك لم يكن يعنى بالنسبة لها شيئا .

سمعت صوت اوليج الفتى الرنان وقد شابته بعض الرجفة يصرخ :

– الالمان . . .

ووصل ذلك الى اعماقها فكفت عن البكاء وانتصبت واقفة فجأة . وقد عرفت على التو اولئك الواقفين الى جوارها – اوليج

وجميع رفاقه ووالد فيكتور والخال كوليا ومارينا التى كانت تحمل طفلها على يديها بل وحتى ذلك الجد سائق مركبة اوليج واقاربه . ولم يكن غير موجود سوى فانيا زيمنوخوف وفالكو .

وقد راح كل اولئك ينظرون فى اتجاه واحد تعلو وجوههم امارات توتر غريب . ووجهت اوليا كذلك انظارها الى هناك ، حيث لم تكن ثمة آثار للمخيم الذى كان موجودا منذ لحظات مضت. لقد انبسطت امامهم البرارى التى غمرتها اشعة الشمس تلمع كهالة بيضاء غبشاء ، بينما راحت تتحرك قاصدة اياهم تلك الدبابات الالمانية ذات الطلاء الاخضر خضرة الضفادع .

الفصل الثانى عشر

احتل الالمان فوروشيلوفجراد فى الساعة الثانية من بعد ظهر ١٧ يوليو بعد معركة حامية الوطيس دارت على ارض المزرعة التجريبية حيث هزم احد جيوش الجبهة الجنوبية الذى تولى مهمة الدفاع فى هذه المنطقة امام قوات العدو فائقة العدد . وقد انسحب من بقى من الاحياء مقاتلا بمحاذاة خط السكة الحديدية حتى محطة فيرخنيدوفانيا تقريبا ، والى ان احتوى ثرى الدونيتس آخر شهدائهم .

وحتى ذلك الحين رحل الى الشرق كل من اراد وكان فى مقدوره ذلك ، من كراسنودون ومن المناطق المجاورة لها . بيد انه وفى منطقة بيلوفودسك البعيدة بقى بعض تلاميذ الصفين الثامن والتاسع بمدرسة جوركى فى كراسنودون والذين كانوا يعملون فى الحقول ، وذلك نظرا لجهلهم بتطور الامور ولنقص وسائل النقل .

وقد اوكل قسم التعليم الشعبى عملية تهجير هذه المجموعة من التلاميذ الى ماريا اندرييفنا بورتس مدرسة الادب الروسى بالمدرسة والمنحدرة اصلا من منطقة الدونباس وتعرف جيدا ظروفها . كما وانها امراة تتسم بالنشاط ويهمها نجاح هذه العملية ، حيث كانت توجد ابنتها فاليا ضمن افراد تلك المجموعة.

ولم يكن ذلك الامر يتطلب اكثر من توفير عربة نقل واحدة ، الا ان ماريا اندرييفنا علمت بهذه المهمة حين اصبح من المستحيل

تدبير مثل تلك العربة . وقد راحت تشق طريقها حتى المزرعة الحكومية بكافة السبل ، واستغرق ذلك ما يزيد عن يوم وليلة . واذ انهكها ذلك الطريق الطويل والقلق البالغ بصدد ابنتها عضو الكومسومول وبقية التلاميذ ، انفجرت باكية تخنقها مشاعر الاضطراب والعرفان بالجميل ازاء ما فعله مدير المزرعة الذى استطاع تسليمها آخر عربة نقل لديه ودون تردد ، رغم الضغط الهائل وقلة وسائل النقل اللازمة لنقل متاع المزرعة ، والذى بح صوته من الشتائم وانهكه السهر وصرفه العمل عن حلاقة ذقنه بضعة ايام .

وعلى الرغم من ان منطقة بيلوفودسك كانت تدرك جيدا مدى تفاقم الاوضاع فى الجبهة ، فقد كان التلاميذ وحتى مقدم ماريا اندرييفنا ، بكل ما يتميز به الشباب فى ريعانه من تواكل وايمان بان الكبار سوف يتصرفون على نحو ملائم فى حينه ، يعيشون ذلك المرح الذى يجتاح من فى سنهم فى ظل الحرية والطبيعة الخلابة والعلاقات الرومانسية الودية ألتى تسود الشباب .

ولم تشأ ماريا اندرييفنا افساد امزجتهم قبل ان يحين الميعاد وعزفت عن مكاشفتهم بحقيقة الاوضاع . بيد انهم ادركوا ان ثمة شيئا يتسم بالخطورة قد وقع حين راحت تجمعهم بسرعة استعدادا للرحيل تكسو وجهها امارات القلق والاضطراب . وعلى الفور هبطت معنوياتهم وراحوا يفكرون فى ذويهم وفى عما سوف تسفر عنه الاقدار .

كانت فاليا بورتس فتاة ناضجة على نحو لا يلائم سنها ، يغطى الشعر الذهبى الخفيف ذراعيها وساقيها لفحتها الشمس ، تعكس قسمات وجهها امارات تتسم بالطفولة ، ذات عينين رماديتن قاتمتين واهداب داكنة تكسبها امارات الاستقلالية والبرود ، شقراء الشعر الذى جدلته ضفيرتين ذهبيتين ، كما وكانت تعلو امارات حب الذات شفتيها المكتنزتين الورديتين . وقد صادقت فاليا اثناء عملها بالمزرعة الحكومية ستيوبا سافونوف الذى يدرس معها فى نفس المدرسة ، والذى كان قصير القامة ، اشقر الشعر ، افطس الانف يغطى النمش وجهه ، وتعبر عيناه عن حيوية وذكاء .

وقد كانت فاليا تدرس بالصف التاسع ، بينما كان ستيوبا فى الثامن وذلك امر كان يمكن ان يحول دون صداقتهما اذا ما كانت تصادق فتيات اخريات ، الا انها لم تكن تصادق منهن احدا ، هذا بالاضافة الى ان احدا من الصبية الآخرين لم يكن يستهويها . لقد كانت فتاة واسعة الاطلاع تجيد العزف على البيانو ، تتميز عن قريناتها وتدرك ذلك ، كما وتعودت على اعلان قرنائها الصبية عن اعجابهم بها . ولم يكن ستيوبا سافونوف يناسبها لانها حازت اعجابه ، بل لانه كان مصدر تسليتها : فقد كان فى حقيقة الامر صبيا يتسم بالذكاء والاخلاص ، تخفيهما شقاوة صبيانية ، علاوة على كونه رفيقا وفيا وثرثارا كبيرا . ولما كانت فاليا لا تهوى الثرثرة ، ولا تبوح باسرارها الا على صفحات مذكراتها ، تحلم بالبطولات حيث كان شأن الجميع ، تود ان تصبح طيارة ، وتتصور فتاها كذلك من الابطال ، فقد كان ستيوبا سافونوف يرفّه عنها بثرثرته ونكاته التى لا ينضب لها معين .

وتجاسرت فاليا لاول مرة فى تاريخ صداقتهما وفتحت معه حديثا يتسم بالجدية حيث سألته مباشرة عما سوف يفعل اذا ما احتل الالمان كراسنودون .

وحدقته فى برود بعينيها الرماديتين الداكنتين وكأنما تسبر اغواره ، فى حين راح ستيوبا ذلك الصبى الذى لا يبالى بشىء ، يملك لبه علم الحيوان والنبات يحلم بان يكون عالما شهيرا ، ولم يفكر على الاطلاق فيما سبق حول ما عليه ان يفعله اذا ما حل الالمان ، راح يجيب فى عفوية بانه سوف يمارس ضدهم العمل الفدائى السرى بشكل لا هوادة فيه .

وتساءلت فاليا فى برود :

– اليس ذلك من قبيل الثرثرة ؟ احقا تقول ؟

واجاب ستيوبا دونما تفكير :

– عن اية ثرثرة تتحدثين ؟ بالطبع . . حقا اقول !

– فلتقسم بذلك . . .

– اقسم بذلك . . بالطبع اقسم بذلك . . وماذا علينا ان نقوم به سوى ذلك . اولسنا اعضاء فى الكومسومول ؟

ثم رفع ستيوبا ذو الشعر الاشقر حاجبيه فى دهشة وتساءل بعد ان بدا اخيرا يمعن التفكير فيما سألته وبلهجة تنم عن حب استطلاع :

– وماذا انت فاعلة ؟

واقتربت بشفتيها من اذنه وهمست اليه على نحو رهيب :

– اقسم !

ثم وضعت شفتيها على اذنه وصهلت فجأة كما الحصان قائلة على نحو كادت تخرق معه طبلة اذنه :

– انك احمق رغما عن كل شىء يا ستيوبا ! وثرثار كذلك ! وتركته مطلقة ساقيها للريح .

وتحركت السيارة عند المساء ، تبعث مصابيحها الامامية التى غطيت باللون الازرق بعض الضوء الذى غمر البرارى . . وانبسطت السماء هائلة حالكة الظلمة الا من بعض النجوم التى تناثرت بها ، تلفهم بينما تعالت رائحة نضرة للحشائش الجافة وحقول القمح التى قرب موعد حصادها والعسل ونبات الشيح ، كما راح الهواء الدافئ يلفح الوجوه مما يصعب معه على المرء تصور ان يكون الالمان فى انتظارهم بكراسنودون .

وكانت العربة تغص بالصبية ، ولو كان ذلك فى غير هذه الظروف ، لتعالت الاغانى طوال الليل ، ولدوت ضحكاتهم ، ولتبادلوا القبلات سرا . اما الآن فقد لزم الجميع الصمت لا يقطعه الا بعض الهمسات المتبادلة من آن لآخر . وسرعان ما غلب النعاس غالبيتهم وقد استقروا فوق امتعتهم ، متلاصقين تتارجح رؤوسهم مع اهتزاز العربة .

وقد احتل ستيوبا وفاليا مكانيهما فى مؤخرة السيارة بوصفهما مكلفين بالحراسة . وراح النعاس يغالب ستيوبا ، بينما صارت فاليا وقد اتخذت مكانها فوق جوال حاجياتها تجول بناظريها فى البرارى التى لفتها العتمة . وبدت شفتاها المكتنزتان اللتان تعكسان عادة امارات حب الذات ، على نحو طفولى يتسم بالحزن والغضب بينما لم يكن ثمة من يراها هكذا . فقد كانت تعانى من كونها لم تقبل بمدرسة الطيران . وكم من محاولة بذلتها ومع ذلك فقد رفضها اولئك الحمقى . هكذا لم يحالفها التوفيق فى

حياتها . . فما العمل اذن ؟ ان ستيوبا ثرثار . انها قادرة بطبيعة الحال على ممارسة العمل الفدائي السرى ، لكن كيف ، ومن المسئول عن ذلك ؟ وماذا سوف يكون شان والدها اليهودى ، وشان مدرستها ؟ وكم من العواطف الجياشة فى اعماق كيانها ، ومع ذلك فلم تسعفها ان تغرم بأحد ، وانتهى بها الحال على هذا النحو . هكذا لم تجد فى الحياة سعادتها . فلن تستطيع اثبات جدارتها والتميز وسط قريناتها وتحقيق الامجاد وانتزاع اعجاب الناس بها . وملأت مآقيها دموع حب الذات ، التى كانت رغما عن ذلك ظاهرة طيبة . فقد كانت فى السابعة عشرة من العمر ، ولم تكن تلك الدموع تعبر عن انانية او جشع ، بل عن احلام غير مغرضة لفتاة ذات طابع يتسم بالقوة .

وتراءى لها فيما خلف ظهرها صوت غريب . وكانما قطة تشبثت بالحاجز الخلفى للعربة . والتفتت الى الخلف لتصيبها القشعريرة بعض الشىء .

فقد كان شخصا لم تحدد كنهه صبيا ، او شابا قصير القامة ، نحيلا ، قويا يغطى راسه بكاب ، امسك بكلتا يديه حافة العربة التى انبطح ببطنه عليها بينما رفع ساقه فى محاولة للاستقرار داخل العربة وهو يجيل النظر نحو كل ما حوله .

هل يعتزم سرقة شىء ما ؟ ماذا يريد بالتحديد ؟ وبحركة عفوية حاولت فاليا الاطاحة به بعيدا عن العربة ، ثم فكرت بعض الشىء لتقرر ايقاظ ستيوبا تفاديا لاثارة الهرج والمرج .

بيد ان الصبى او الشاب سريع الحركة كان قد استقر داخل العربة الى جوار فاليا . واذ دنا بوجهه ذى العينين الضاحكتين قريبا من وجهها وضع سبابته على شفتيه . ويبدو ان الشاب لم يكن يعرف بعد ذلك الشخص الجالس الى جواره ، فقد كان من الممكن ان يصيبه بالغ الاذى بعد لحظة واحدة . بيد ان فاليا وخلال تلك اللحظة استطاعت ان تجيل النظر نحوه . كان شابا فى مثل عمرها يغطى راسه بكاب انزلق الى مؤخرة راسه ، ذا وجه لم تمسه المياه منذ مدة طويلة وان كان يعبر عن جسارة صبيانية طيبة ، وعينين بارقتين ضاحكتين . ولقد قررت تلك اللحظة التى حدقت فاليا فيها النظر فى الشاب ، الامر بما يتناسب ومصلحته .

لم تند عن فاليا حركة او صوت ، وصارت تنظر الى ذلك الشاب على نحو ينم عن استقلالية وبرود كعادتها دائما حين تكون فى حضرة آخرين .

وهمس الشاب متسائلا وقد دنا بوجهه منها :

– اية سيارة هذه ؟

وقد استطاعت فاليا ان تحسن النظر نحو الشاب ، لتراه خشن الشعر ، اجعده بعض الشىء ذا شفتين تتسمان بالقوة رقيقتين بارزتين قليلا ، وقد تورم ما تحت شفته السفلى .

وهمست فاليا تجيب فى برود :

– وماذا يهمك ؟ هل عرضنا عليك عربة غير التى كنت تنتظرها ؟

وعلت الابتسامة وجهه ليقول :

– ان عربتى تحت الاصلاح الشامل ، بينما نال منى التعب درجة . . – واشاح بيده وكأنما يود ان يقول : «ان الامر سيان !»

وذكرت فاليا :

– معذرة ، فليس هناك اماكن للنوم !

وتحدث الشاب يقول بصراحة ودية لا تحمل معنى الغضب منها :

– اننى لم اعرف طعم النوم ستة ايام بأكملها ، واستطيع ان اصبر ساعة اخرى !

وعلى نحو سريع جال بناظريه فى كل ما وقع داخل مجال رؤيتهما فى محاولة منه لمعرفة تلك الوجوه المحيطة به .

كانت السيارة تتارجح فى سيرها ، مما كان يدفع فاليا وكذلك الفتى الى التشبث بحافة العربة . وقد سقطت يد فاليا ذات مرة فوق يد الفتى لتسحبها على التو ، مما دعاه الى ان يرفع راسه ويمعن النظر اليها .

وتساءل الفتى بينما دنا براسه من راس ستيوبا الاشقر الذى راح يتمايل مع اهتزاز السيارة :

– من ذلك النائم ؟

واجاب على سؤاله بصوت عال :

– ستيوبا سافونوف ! لقد عرفت الآن اية سيارة هذه .

اليست سيارة مدرسة جوركى ؟ اولستم عائدين من منطقة بيلوفودسك ؟

– من اين تعرف ستيوبا سافونوف ؟

– لقد تعرفنا قريبا من النهر .

وانتظرت فاليا ان يكمل الفتى حديثه ، الا انه لم يضف شيئا ، مما دعاها الى ان تسأله :

– وماذا كنتما تفعلان عند النهر ؟

– كنا نصطاد الضفادع .

– اوتقول الضفادع ؟

– نعم .

– ولماذا ؟

– لقد كنت اظنه فى البداية يصطادها كطعم لصيد الاسماك ، الا انه اتضح لى انه يفعل ذلك من اجل تشريحها !

وضحك الشاب على نحو يعنى السخرية من تلك الهواية الغريبة التى يمارسها ستيوبا سافونوف .

وتساءلت فاليا :

– ثم ماذا ؟

– لقد اقنعته بمرافقتى لصيد الاسماك ، وذهبنا ليلا من اجل ذلك . وقد اصطدت سمكتين ، احداهما تزن رطلا ، بينما لم تكن الاخرى ذات شأن . اما هو فلم يصطد شيئا !

– وماذا بعد ذلك ؟

– لقد اقنعته بعد ذلك بالنزول الى النهر للاستحمام عند الفجر . ووافق ليخرج من الماء ، تعلو الزرقة جسده مؤكدا انه قد تجمد من البرد وامتلأت اذناه بالمياه . وعلمته كيف له ان يبعث الدفء الى جسده ويفرغ اذنيه من المياه .

– وكيف يمكن ذلك ؟

– يضغط المرء على احدى اذنيه ويقفز على ساق واحدة صائحا : «كاتيا يا منای . . افرغى المياه من اذنى» . ثم يفعل نفس الشيء ضاغطا على الاذن الاخرى .

وذكرت فاليا رافعة حاجبها بعض الشيء :

– لقد ادركت الآن كيف تصادقتما !

بيد انه لم يدرك تلك السخرية التى تضمنتها تلك الكلمات وراح يمعن النظر فى الظلام وقد علت امارات الرصانة وجهه قائلا :

– لقد تأخرتم كثيرا !

– وماذا فى ذلك ؟

– اننى اعتقد ان الالمان سوف يصلون كراسنودون الليلة او صباح الغد .

وتساءلت فاليا :

– وماذا فى ذلك وماذا يعنى الالمان ؟

ولم تكن تدرى السر الذى دفعها الى الحديث هكذا . . هل كانت تود سبر اغوار ذلك الفتى ، ام اثبات كونها لا ترهب الالمان !

اما هو فقد رماها بنظرة تتسم بالجسارة والصراحة ، ليغض الطرف بعدها دون ان يقول شيئا .

وداخل فاليا احساس عدائى نحوه ، وكم كان غريبا ان يشعر بذلك ليقول لها بلهجة تحمل معنى الرغبة فى المصالحة :

– لا مفر امامنا !

واجابته محاولة اثارته :

– ولماذا الفرار ؟

وقد كان عازفا تماما عن معاداتها ، ليقول فى محاولة لترضيتها:

– حقا تقولين !

لقد كان من الواجب عليه الافصاح عن شخصيته ارضاء لحبها للاستطلاع ، مما كان يمكن معه ان يسود الوفاق علاقتهما بيد انه اما كان لا يود ذلك ، واما لم يكن قد خطر بباله . والتزمت فاليا الصمت فى تكبر ، بينما راح النعاس يغالبه ، ليرفع راسه لحظة اهتزاز العربة ، وحين كانت تند عن فاليا اية حركة عفوية او غير عفوية .

وصارت تتبدى فى حلكة الظلام مبانى ضواحى كراسنودون . وتوقفت السيارة عند اول مزلقان خارج المدينة وقبل ان تصل الى الحديقة . لم يكن هناك من يتولى حراسة المزلقان الذى كان مفتوحا ، بينما كان المصباح مطفئا . واهتزت السيارة وتعالى صرير عجلاتها عند عبورها قضبان السكة الحديدية . واستيقظ

الفتى ليتحسس شيئا ما عند حزامه تحت سترته التى ارتداها على عجل فوق قميص علته الاوساخ وتقطعت ازراره ، ثم قال :

– يسهل الوصول من هنا . . اشكر لك طيبتك !

ونهض من مكانه لتلحظ فاليا ان اشياء ثقيلة كانت تحشو جيوب سترته وسرواله .

وذكر وهو يدنو قريبا من فاليا بعينيه الضاحكتين الجسورتين :

– لم اشأ ايقاظ ستيوبا . ولتقولى له حين يستيقظ ان سيرجى تيولينين يطلب منه المرور عليه .

واجابت فاليا :

– لست مكتب بريد او مركزا تليفونيا !

وتبدت امارات حزن حقيقى على وجه سيرجى تيولينين ؛ وقد بلغ به الحزن مدى لم يستطع معه ان يجيبها به ، وبدت شفتاه وكأنما غدتا اكثر تورما . وقفز من العربة لتبتلعه الظلمة دون ان ينطق حرفا .

وفجأة اعترت فاليا مشاعر الاسى ازاء كونها قد اساءت اليه . وقد كان اكثر ما اثر فيها ، انها لن تستطيع ابلاغ ستيوبا بكل ما جرى . ورفع الظلم الذى انزلته بذلك الفتى الجسور الذى ظهر فجأة واختفى ايضا فجأة . وقد ظلت ذاكرتها تذكره بعينيه الضاحكتين الجسورتين اللتين اتسمتا بالحزن تحت وقع كلماتها ، وبشفتيه الرقيقتين اللتين تورمتا بعض الشىء .

كانت المدينة باكملها غارقة فى ظلام حالك ، لا تنبعث اية بارقة ضوء من اى من نوافذ مبانيها ، او من اكشاك حراسة المناجم او على مزلقانات السكة الحديدية . وكان الهواء البارد يحمل رائحة الفحم المحترق المنبعثة من المناجم التى ما زال الدخان يتصاعد منها . كما لم يكن ثمة انسان واحد يسير فى الطريق ؛ وكم كان غريبا ذلك الصمت الذى خيم على مناطق العمل فى المناجم وعلى السكة الحديدية ! ولم يكن هناك سوى الكلاب التى راح نباحها يتعالى من آن لآخر .

واسرع سيريوجا تيولينين الخطى فى هدوء كما القطة بمحاذاة خط السكة الحديدية ، حتى بلغ مكانا مهجورا حيث كانت السوق

تقام عادة ، ليتجاوزه منزلقا نحو المبانى قاتمة اللون التى شيدها لى فان تشى من الطوب الاخضر كخلايا النحل والتى كانت اشجار الكرز تحيط بها ، ومقتربا من منزل ابيه الذى لم يكن يتميز الا بطلائه الابيض عن المساكن المجاورة التى كانت مغطاة بالقش .

ودلف الى الداخل بعد اغلاقه باب السور ، ثم جال بنظره فيما حوله وتسلل الى الكرار ليخرج حاملا جاروفا ، متوجها فى الظلمة الحالكة دونما صعوبة ، مما يعنى معرفته الجيدة بكل ما يحتويه المنزل من ممتلكات والده ، الى الحديقة التى بلغها بعد لحظات ، وحيث كانت شجيرات الاقاصيا التى بدت داكنة اللون بجوار السور .

وقام بحفر حفرة عميقة فيما بين شجيرتين ، وساعدته فى ذلك رخاوة التربة ، حيث اودعها ما كان يحمله فى جيوب سترته وسرواله – بضع قنابل يدوية ومسدسين من طراز «براونينج» وذخيرتهما . وقد كانت تلك الاشياء ملفوفة كل على حدة فى خرقة لم ينزعها حين اودعها الحفرة . كما وقام بعد ذلك بردم الحفرة ومهدها بيديه حتى تجففها شمس الصباح مزيلة آثار عمله ؛ ثم مسح الجاروف ببطانة سترته فى عناية وعاد الى الفناء ليضعه مكانه ، ويطرق باب المنزل طرقا خفيفا .

وتعالى صوت صرير مزلاج الدهليز ، وكذلك دبيب خطوات امه – عرفها من وقع قدميها الثقيل ، وقد راحت تسير حافية القدمين فى اتجاه الباب الخارجى تتساءل بصوت تنم نبراته عن قلق :

– من الطارق ؟

واجابها همسا :

– افتحى !

– يا الهى . . . !

همست الام بنبرات افصحت عن ذلك الاضطراب الذى راودها . وقد بدا واضحا عدم قدرتها وهى على هذا الحال ، على احكام قبضتها التى اصابتها الرجفة على مزلاج الباب . لكن ها هو الباب ينفرج .

واجتاز سيريوجا عتبة الباب ليعانق ذلك الجسد الحبيب الكبير

ويضع راسه على كتفه حين شعر فى ظلمة الليل برائحة امه الدافئة التى تعود عليها . وظل الاثنان على هذا الحال بعض الوقت حتى شرعت الام تهمس معبرة عن غضبها :

– اين كنت طوال تلك المدة ؟ لقد ظننـــاك رحلت مـــع النازحين ، او قتلت . لقد عاد الجميع دونك . او لم تكن قادرا على ابلاغنا عن طريق اى شخص بم حل بك ؟!

وقد كان سيريوجا كغيره من المراهقين الاخرين والنسوة قد ارسل منذ بضعة اسابيع من كراسنودون ، كما ارسل آخرون من مختلف مناطق المقاطعة لحفر الخنادق وبناء المنشآت الدفاعية عند مشارف فوروشيلوفجراد .

واجابها بصوته الطبيعى :

– لقد تاخرت ف فوروشيلوفجراد .

وذكرت الام فى غضب :

– اخفض من صوتك لئلا توقظ الجد .

وقد كانت تقصد «بالجد» زوجها والد سيريوجا . كما وكان لديهما احد عشر طفلا ، علاوة على احفاد فى عمر سيريوجا . ومضت تقول :

– انه سوف يعاقبك .

لم يعر سيريوجا هذه الملاحظة اهتماما ، حيث كان يعلم جيدا ان اباه لن يعاقبه ابدا . وقد كان ابوه حفارا قديما حطمته تماما حتى كاد يفقد حياته ، عربة فحم انفصلت عن القاطرة فى منجم انين بمحطة «المازنايا» . وقد كتبت الحياة لذلك العجوز جيد الصحة ، ليمارس مختلف الاعمال فوق سطح الارض ، بيد ان احواله ساءت تماما فى الاعوام الاخيرة . واصبح يتحرك بالكاد ، وغدا عاجزا عن الجلوس بدون ان يتوسد كتفه عكاز خاص حيك خصيصا من الجلد الخفيف ، نظرا لان قطنه لم يعد يتحمل ثقل جسده .

وتساءلت الام :

– هل تريد طعاما ؟

– اريد ، الا اننى منهك القوى وفى امس الحاجة الى النوم !

وراح سيريوجا يخطو على اطرافه متجاوزا تلك الغرفة حيث كان يرقد الاب الذى علا شخيره ، ليصل الى الغرفة الكبيرة التى

كانت ترقد بها شقيقتاه الكبيرتان : داشا وطفلها البالغ من العمر سنة ونصف – وقد كان زوجها يقاتل بالجبهة ونادية محبوبتـــه وصغرى شقيقاته .

وبالاضافة الى هاتين الشقيقتين كانت تعيش شقيقته فينيا فى كراسنودون وحدها مع اطفالها ، والتى كان زوجها يقاتل ايضـــا بالجبهة . اما بقية اولاد جافريل بيتروفيتش والكسندرا فاسيليفنا فقد شتتهم الحياة فى مختلف الارجاء .

دلف سيريوجكا الى الغرفة حيث الجو الخانق وشقيقتاه اللتان استغرقتا فى سباتهما ، حتى بلغ فراشه والقى بملابسه حيثما اتفق ليرتمى فى سرواله فوق اللحاف دون ان يفكر فى كونه لم يغتسل طيلة اسبوع باكمله .

ودخلت الام التى تعالى دبيب قدميها العاريتين ، حيث ربتت باحدى يديها على راسه ذات الشعر الاجعد ، بينما دست بيدها الاخرى قريبا من فمه كسرة كبيرة من الخبز الذى توحى رائحته الطازجة بصناعته المنزلية . وسارع يتناول كسرة الخبز بينمـــا قبل يدها على عجل ، وراح رغما عن التعب الذى حل يقضم فى نهم تلك الكسرة اللذيذة المصنوعة من القمح يحدق فى الظلام على نحو ينم عن اضطراب . يالها من فتاة رائعة تلك التى كانت بالسيارة! واية طباع تميزها !.. يالهما من عينين ! انه لم يحز اعجابها ! ليتها كانت تعرف ماذا تحتم عليه معاناته خلال الايام الماضية ! آه . . لو كان ثمة من يمكن مشاطرته ما عاناه ! لكن كم طيب ان يعيش المرء فى بيتـــه الحبيب ، وكم هو رائع ان يتمدد فى فراشه ، فى تلك الغرفة وسط ذويه ، وقضم تلك الكسرة من الخبز الذى صنعته الام ! لقد كان يبدو انه ســـوف يستغرق فى سبات عميق بمجرد ان يلامس جسده الفراش ، ولمدة يومين على اقل تقدير . غير انه لم يستطع النوم دون ان يسر لاحد ما بما عاناه . ليتها كانت تلك الفتاة ذات الضفيرتين قد عرفت بأمره ! كلا . . . لقد احسن حين لم يقص عليها شيئـــا ! فمن ذا الذى يعرف اية فتاة تلك ! ولربما يقص ذلك على ستيوبكا سافونوف ، ومنه يعرف ايضا كنه هذه الفتـــاة ! بيد ان ستيوبكا ثرثار ! كلا . . . لقـــد كان فى استطاعتـــه ان يقص ذلك على فيتكا

لوكيانتشينكو ، لو لم يكن قد رحل . ولم الانتظار حتى الغد ، حين يمكن فى نفس اللحظة الحديث حول كل الامور مع شقيقتـه نادية .

وقفز سيريوجكا من فراشه فى هدوء ودنا من سرير اختـه ممسكا بكسرة الخبز فى يده . وجلس الى جوارها يدفع كتفهـا باصابعه ويناديها فى همس :

— نادية . . . نادية . . .

وهبت اخته تتساءل فى خوف تغالب نومها :

— هيه . . من ؟

— هس . . .

ووضع اصابعه التى لم تعرف المياه اياما ، على شفتيها .

بيد انها عرفته لتستيقظ فى سرعة وتعانقه بيديها العاريتين الدافئتين وتقبله فى اذنه . وهمست تقول بصـوت يعبر عن سعادتها :

— سيريوجكا . . حى . . انك ما زلت حيا يا اخى العزيز !

ولم يكن قادرا على رؤية وجهها الذى تخيله ضاحكا وقد علت الحمرة وجنتيها الصغيرتين الورديتين من تاثير النوم .

وراح يقول فى اضطراب بينما يقضم كسرة الخبز فى الظلام :

— ناديـة ! لم يغمض لى جفن منـذ الثالث عشر من هذا الشهر . . . منذ صباح الثالث عشر وحتى يومنا هذا . . . كنت فى خضم المعركة .

— او هوه !

همست نادية متعجبة ، ثم لمست يده واستوت فى فراشهـا مرتدية قميص نوم وقد توسدت ساقيها .

— لقد لقى كل رجالنا حتفهم ، اما انا فقد انسحبت . لا لم يكونوا جميعا قد لقوا حتفهم حين ركت المكان . كان عددهـم يناهز خمسة عشر . . وقد ذكر العقيد : «فلتهرب . . . . ما عساك ان تفقد حياتك» . اما هو فقد كان مثخنا بالجراح . . . فى وجهه ويديه وقدميه وظهره . لقد كان غارقا فى الدماء والضمـادات ، «اننا سوف نستشهد فى كل الاحوال ، فما الداعى لاستشهادك؟»

وقد تراجعت . . . واعتقد انه لا يوجد الآن من بقى منهم على قيد الحياة .

وهمست نادية بنبرة تتسم بالرعب :

— أوهووه !

— لقد قمت قبل انسحابى بتناول جاروف حيث حفرت حفرة فيما خلف فيرخنيدوفانايا الى جوار تلين يقع حرج الى يسارهما والقيت باسلحة القتلى من بنادق وقنابل يدوية ومسدسـات وذخيرة ثم ردمتها وانصرفت . وذلك مكان يمكن الاهتداء اليه . وقد قبلنى العقيد قائلا : «فلتذكر اسمى . . . سوموف . . . سومـوف نيكولاى بافلوفيتش . وعليك حين يرحل الالمان ، او حين تصل الى قواتنا الكتابة الى اللجنة العسكرية فى جوركى حتى يتيسر لهم الكتابه الى اسرتى ، والى من يهمه الامر حول اننى قد مت ، كما يقال ، ميتة الابطال» . وقلت . . .

وهنا توقف سيريوجكا لبرهة من الزمن حابسا انفاسـه ، يتناول كسرة الخبز المملحة التى بللتها دموعه .

وشهقت نادية تردد :

— أوهووه . . .

حقا . . . من المؤكد ان شقيقها قد عانى الكثير . فلم تكن تذكره ابدا يذرف الدمع منذ ان بلغ السابعة من العمر . . . اذ كان صلب الارادة منذ صغره . وسألته :

— وكيف التقيت بهم ؟

— لقد لقيتهم على النحو التالى — وهنا عادت اليه حيويته ورفع ساقيه ليستقر فوق سرير شقيقته ومضى يقول :

— كنا قد فرغنا من تشييد التحصينات الدفاعية حين تراجع رجالنا ليلتزموا مواقعهم الدفاعية هناك . وقد انصرف كل ابنـاء كراسنودون عائدين الى منازلهم بينما توجهت الى ملازم اول قائد السرية اطلب منه تسجيلى على قوتها . الا انه اجابنى بان ذلك مستحيل دون امر من قائد الفوج . ورجوته تعضيد طلبى ، والححت بالرجاء حتى تقدم احد الرقباء يؤيد طلبى . وغرق المقاتلون فى الضحك ، بينما اصر هو على موقفه . وحالما كنا نتجادل حول هذا الامر بدات المدفعية الالمانية فى توجيه نيرانها . واندفعت الى

المقاتلين فى ملاجئهم ، والذين لم يسمحوا لى بالانصراف شفقة على ، الا بعد حلول الليل ، وخرجت من الملجا ، لالتزم مكانى فيما وراء خندق مجاور . وحين بدا الالمان هجومهم فى الصباح عدت الى الخندق حيث انتزعت بندقية احد الشهداء ورحت اقتتل كما يفعل الجميع . وهكذا كان الحال لعدة ايام ، وعزف الجميع عن طردى . وقد عرفنى العقيد فيما بعد ليقول : «لو لم نكن فرقة انتحارية ، لكنت قد قيدتك بها . اننا مشفقون عليك ، حيث انك فى مقتبل العمر» . ثم ضحك ليمضى قائلا : «فلتعتبر نفسك احد الفدائيين». وهكذا رحنا نتراجع سوية حتى مشارف فيرخنيدوفانايا . — وهمس بصوت خافت للغاية بدا كما الصفير — لقد شاهدت الالمان وجها لوجه ، كحالنا وانت الآن . كما واريديت اثنين منهم قتيلين . . . وربما اكثر من ذلك . بيد اننى على يقين من اننى صرعت اثنين . — وهنا مط شفتيه الرقيقتين ليمضى مؤكدا — اننى من الآن وصاعدا سوف اقتلهم اينما وجدتهم اولئك الافاعى . ولتتذكرى كلمتى هذه . . .

وقد كانت نادية تدرك ان سيريوجكا يقول الحقيقة . . . حقيقة كونه قد صرع اثنين من الالمان المعتدين ، وكونه سوف يواصل قتلهم . وتوجهت اليه تقول :

— انك سوف تضيع .

— ان الضياع افضل من ان يلعق المرء احذيتهم ، او ان يعيش حياة لا جدوى منها .

— آه . . . ها . . . ماذا سوف يحل بنا ؟!

ندت عن نادية فى اسى حين تخيلت ما سوف يحل بهم صباح الغد وربما فى ذات الليلة . ومضت تقول فى حزن :

— ان لدينا بالمستشفى ما يزيد عن مائة جريح غير قادرين على السير . وقد ظل الطبيب فيدور فيدوروفيتش الى جوارهم . اننا نحيط بهم يراودنا خوف ان يقتلهم الالمان .

وذكر سيريوجكا فى قلق :

— يجب ان يتولى المدنيون رعايتهم . كيف تصرفتم على هذا النحو ؟

— المدنيون ! من ذا الذى يعلم اليوم كنه الآخر ؟ يقال ان

لدينا فى شانغهاى مجهولا يأويه اجنات فومين . ومن يدرى اى شخص ذلك ؟ فلربما يكون الالمان قد بعثوا به لاستطلاع الحال . ذلك لان فومين ليس من اولئك الذين يأوون رجالا حسنى السمعة.

وقد كان اجنات فومين من عمال المناجم الذين كوفئوا مرارا ماديا ، ومعنويا على صفحات الجرائد . وقد جاء الى هذه القرية فى مطلع الثلاثينات حين ظهر كثيرون مجهولون فى كراسنودون وفى الدونباس عموما ، ليستقروا فى شانغهاى . كما وكان فومين مادة لكثير من الشائعات ، والتى ترددها نادية اليوم .

وتناب سيريوجكا . والآن ، وبعد ان افرغ ما فى جعبته وانتهى من تناول كسرة الخبز وتدعم شعوره بانه بين ذويه راوده النوم .

— فلتنامى يا نادية . . . !

— لن يغمض لي جفن بعد حديثك هذا !

— اما انا فسوف انام .

قالها سيريوجكا وانتقل الى فراشه . وما ان لامس راسه الوسادة ، حتى تراءت امام ناظريه تلك الفتاة التى كانت بالعربة . «اننى سوف اعثر عليك فى كل الاحوال» — كان ذلك ما راود سيريوجكا الذى ابتسم ليحتوى الظلام كل ما حوله وما فى اعماقه .

الفصل الثالث عشر

كيف كان لك ان تتصرف ايها القارئ فى معرض الحياة اذا ما كان لديك قلب نسر زاخر بالشجاعة والجسارة والتعطش نحو بذل الفداء فى حين انك ما تزال صغيرا تهرول حافى القدمين تغطى البثور قدميك ، لا تدرك البشرية كل ما تنشده روحك ؟

لقد كان سيريوجكا تيولينين اصغر ابناء الاسرة ، نما كما تنمو الاعشاب فى البرارى . وكان ابوه من تولا ، قدم فى سنى صباه الى الدونباس بحثا عن الكسب ، حيث عمل قرابة اربعين عاما فى المناجم مما اضفى عليه سمات كبرياء ساذجة مشوبة بالاستبداد ، تلك الكبرياء التى لا يصادفها المرء لدى اصحاب اية مهنة اخرى فى مثل هذه البرارى ، والتى لا يتسم بها سوى عمال المناجم والبحارة .

وقد ظل جافريل بيتروفيتش على اعتقاده بانه اهم من بالمنزل حتى بعد ان اصبح عاجزا عن العمل . لقد راح يوقظ كل من فى البيت صباح كل يوم ، بحكم تعوده كعامل منجم على الاستيقاظ فى الفجر وشعوره بالملل ازاء كونه وحيدا . وحتى لو لم يكن يشعر بهذا الملل لكان قد ايقظهم بسعاله الحاد الذى كان ينتابه منذ لحظة استيقاظه ولمدة لا تقل عن ساعة . لقد كانت تخنقه نوبات السعال ليروح ينشق ويبصق ، يتعالى من صدره شخير وصفير ، وكأنما هى اصوات صادرة عن آلة موسيقية غير صالحة للاستعمال .

اما بعد ذلك فقد كان يظل جالسا طوال النهار مستندا بكتفه الى العكاز ذى القرنين المغلف بالجلد ، يبدو نحيفا بارز العظام ، ذا انف طويل مقوس ، كان فيما سبق كبيرا مكتنزا واصبح اليوم مدببا حادا ، بحيث يصلح لتقطيع صفحات كتاب ، ووجنتين غائرتين يكسوهما الشعر الكث الذى خطه الشيب ، وشارب كث مستقيم يوحى بالفخامة تحت منخاريه والذى بدا كشعرة واحدة مستقيمة فى كلا الجانبين مثل الحربة ، وعينين ثاقبتين لا لون لهما يعلوهما حاجباه الموبران . وهكذا كان يلتزم مكانه فى فراشه تارة ، وعلى عتبة المنزل تارة اخرى ، او على مقعد الى جوار البناية الصغيرة الملصقة بالمنزل مستندا الى عكازه تارة ثالثة يصدر اوامره لكل الناس حادة ، مقتضبة ، تحمل معنى الوعيد ، لتتملكه نوبات السعال حتى يتعالى شخيره وصفيره فى كل ارجاء حى «شانغهاى» .

وحين يصبح المرء الذى لم يتقدم به العمر بعد عاجزا عن العمل تقريبا ثم يصل به الامر الى مثل هذا الحال ، يغدو من الصعب عليه تربية ثلاثة شبان وثمانى فتيات ، اى احد عشر نفسا ، وتلقينهم اصول مهنة تكون سلاحهم فى الحياة !

لم يكن جافريل بيتروفيتش قادرا على ذلك لو لم تكن الى جواره زوجته الكسندرا فاسيليفنا ، تلك المرأة الهمامة التى تنتمى الى رعيل فلاحات اوريول ، والى اولئك النسوة اللواتى يسمونهن فى روسيا «بالمرأة المقاتلة» . لقد كانت وما تزال قوية البنيان ، لا تعرف المرض . كما وانها كانت ايضا لا تعرف القراءة والكتابة . بيد انها كانت حين يتطلب الامر ، تبدو صلبة الارادة يمكن ان تبدى ضروب الخداع ، وان تتحلى بالصمت ، وان تدلى بحلو الحديث وان

تكون شريرة وطيبة ومنافقة ومثابرة وثقيلة الظل . هذا الى جانب انها كانت تبدو خصما عركته الحياة حين يعن للبعض مجادلتها حول امرما .

وهكذا وجد العشرة الكبار مكانهم فى الحياة ، بينما لا يزال الصغير سيريوجكا ينمو كما الحشائش فى البرارى ، وان كان يواصل دراسته . ولم يكن يعرف ملبسا او حذاء خاصا به ، بل كان كل ما يرتديه ويحتذيه قد اعيدت حياكته للمرة العاشرة بعد اخوته الكبار . وقد كان صلب العود لا تؤثر فيه شمس او رياح ، امطار او صقيع ذا قدمين تجلدت بشرتهما لتغدو كما لدى الجمال ، تلتئم اية جراح تصيبه على التو كما للبطل الاسطورى .

وكان ابوه الذى يغمره اكثر من اخوته الاخرين بشخيره وسعاله وصفيره يعتبره رغما عن ذلك احب اولاده جميعا واقربهم الى قلبه .

وكان يقول بارتياح بينما يمسح بيده شاربه الكث :

– ياله من مقدام ! أليس حقا يا شوركا ! – وقد كانت شوركا هى رفيقة عمره الكسندرا فاسيلييفنا التى بلغت من العمر ستين عاما – فلتنظرى اليه ! انه لا يهاب اية معارك ، كما كنت فى شبابى ! اليس كذلك ؟ – وهنا غلبه سعال استسلم له تماما .

ان لديك ايها القارئ قلب نسر ، بيد انك ما تزال صغيرا تغمر البثور قدميك . . . فماذا انت فاعل فى هذه الحياة ؟ او كنت تقوم بطبيعة الحال على اتيان البطولات بادئ ذى بدء ؟ ومن ذا الذى لا يحلم فى طفولته باتيانها – بيد ان ذلك امر ليس باليسير فى كل الاحوال .

انك اذا ما كنت تلميذا بالصف الرابع تطلق العصافير من درج قمطرك اثناء حصة الحساب ، فلن يعود ذلك عليك بالامجاد . ان ناظر المدرسة سوف يقوم – كالعادة – باستدعاء والديك ، اى ماما شوركا ذات الستين عاما . اما «الجد»، جافريل بيتروفيتش ، – وقد كان الجميع يدعونه «بالجد» احتذاء بالكسندرا فاسيلييفنا – فكان يسعل ويصفر متمنيا ان يصفعك على قفاك لو لم يكن عاجزا عن الوصول اليك ، ومكتفيا بدق الارض بعكازه الذى لم يكن يستطيع ان يقذفك به حيث هو فى حاجة للاستناد اليه بجسده الضامر . غير ان ماما شوركا كانت حين تعود من المدرسة تلهب خدك بصفعة قوية تظل

تذكرها اياما . هذا وقد كانت قوة الام شورا تتضاءف من يوم لآخر .

وماذا عن رفاقك ؟ اى رفاق ! ليس عبثا ما يقال حول ان الشهرة كما الدخان ، حيث ان الغد سوف ياتى بنسيان مأثرة عصافيرك .

انك تستطيع فى فترة العطلة الصيفية ان تغدو اشد الجميع سمرة ، وامهرهم فى الغطس والسباحة وصيد صغار الاسماك بيديك . كما وتستطيع حين ترى سربا من الفتيات اللواتى يسرن بمحاذاة الشاطئ ، الجرى ثم القفز من على حافة الشاطئ لتطير كما الطائر الذى لفحته الشمس فوق الماء لتغطس فى ميـــاه النهر ؛ ثم وحين تتظاهر الفتيات بعدم الاهتمام ، ويرحن ينتظرن لحظة طفوك ثانية فوق السطح ، تقوم بخلع سروالك تحت الماء ، لتظهر فجاة لهن مؤخرتك البيضاء الوردية ، ذلك الجزء الذى لم تلفحه الشمس من جسدك كله .

انك سوف تشعر بلحظة من الارتياح حين ترى الفتيات يهرولن بعيدا تبدو كعوبهن الوردية ويلفح الهواء ثيابهن وكانما ثمة من نفخ فيهن ليبتعدن عن الشاطئ . كما وسوف تنال اعجاب قرنائك الذين يفترشون الرمال معك معرضين اجسادهم للشمس . انك ستحوز الى الابد اعجاب الصبية الصغار الذين سوف يتبعونك اسرابا يقلدونك ، ويمتثلون لكل كلمة تقولها او اشارة تند عن اصبعك . لقد ولت عصور قياصرة روما ، ومع ذلك فسوف يرفعك الصبية الى مصاف الالهة .

غير ان ذلك لن يكفيك . وسوف تقوم ذات يوم ، لن يختلف عن بقية ايام حياتك ، بالقفز من الطابق الثانى بالمدرسة الى الفناء حيث يمارس التلاميذ هواياتهم اثناء الفسحة . وسوف تشعر اثناء تحليقك من الطابق الثانى بلحظة ارتياح خاطفة ، ازاء قفزتك ، وازاء خوفك الهائل ، وكذلك وفى نفس الوقت ازاء رغبتـــك فى الاعلان عن نفسك ، وازاء صرخات فتيات الصفوف من الاول وحتى العاشر . غير ان ما عدا ذلك لن يعود عليك الا بخيبة الامل والحرمان .

ان مواجهة ناظر المدرسة امر عسير . وسوف يسفر ذلك عن فصلك من المدرسة . كما سوف تكون مضطرا لان تغلظ القول

للناظر ، لانك لست على حق . وسوف يزور ناظر المدرسة مسكن والديك فى «شانغهاى» ، ليقول فى لهجة تنم عن اهميته وتأدبه وما يعنى لومهما :

— اننى اود معرفة الظروف التى يعيش فيها ذلك الصبى . اننى اود ان اعرف فى نهاية الامر تلك الاسباب التى تدفعه الى مثل هذا السلوك .

وسوف يرنو والداك — الام بيديها الرقيقتين البضتين اللتين لا تعرف مكانا لهما حيث كانت قد فرغت على التو من سحب الاوانى من الفرن ، ولم تكن ترتدى مريلة تمسح بها السناج العالق بهما ، والاب الذى ارتبك وتلعثم محاولا النهوض احتراما للناظر متكئا على عصاه — سوف يرنوان نحوه وكانما هما مذنبان فى حقيقة الامر .

وحين يرحل ناظر المدرســـة ، لن يسبك احد على الاطلاق فى البداية ، وسوف يشيح الجميع بوجوههم عنك . سيجلس «الجد» غير عابئ بك ، يسعل من آن لآخر ، يبدو شاربه على غير عادته مرتخيا مثل شارب رجل انهكته الحياة . اما الام فسوف تروح تمارس اعمالها المنزلية ، بينما يتعالى دبيب قدميها تارة هنا واخرى هناك ، ليقع نظرك عليها فجاة حين تميل بقامتها نحو الفرن الروسى ، وهى تمسح خلسة دمعة انزلقت من عينها بيدها الرائعة التى اصابها الكبر ولوثها السناج . سوف يكونان على نحو وكانما يبغيان ان يؤكدا رغبتهما فى ان يقولا لك : «فلتنظر الينا . . . فلتمعن النظر لتعرف اى اناس نحن !» .

انك سوف تلحظ لاول مرة فى حياتك ان والديك اللذين تقدم بهما العمر لا يملكان ما يرتديانه فى الاعياد . انهما لم يجلسا طوال حياتك تقريبا يتناولان طعامهما حول مائدة واحدة ، بل يفعلان ذلك وحدهما حتى لا يرى احد من ابنائهما ، انهما لا يتناولان سوى الخبز الاسمر والبطاطس كى يوفرا لهم ما يعينهم على الحياة الواحد تلو الآخر ، وحتى تصبح انت كذلك ، اصغر الاولاد ، انسانا متعلما .

وتخترق دموع الام فؤادك ، بينما يبدو لك وجه الوالد لاول مرة حزينا يتسم بالاهمية . وليس ثمة ما يضحك فى انه يسعل ويصفر ، بل على العكس . . . انها مأساة !

وتنم نظرات شقيقاتك التى ترميانك بها وهن منهمكات فى اشغال

الابرة بالغضب والاحتقار ، هذا بينما يتسم بالفظاظة سلوكك حيال والديك وشقيقاتك مما يجعلك لا تنام الليل من فرط احساسك فى آن واحد بمشاعر المهانة ، وبمشاعر ادراك مدى جرمك ، لتروح تمسح براحتك التى لم تغسلها دمعتين وحيدتين انزلقتا على وجنتيك البارزتين الصغيرتين .

ويراودك بعد تلك الليلة احساس بانقضاء عهد الطفولة .

ويمثل امام ناظريك فيما بين تلك الايام الحزينة المفعمة بالصمت والادانة عالم حافل بالتضحيات الرائعة التى لا تخطر على بال .

سوف تجد رجالا يقطعون عشرين الف فرسخ تحت الماء ، ويكتشفون اراضى جديدة . . . يطأون جزرا قفرة يشيدون بها كل ما يلزمهم ، يرتقون اعلى قمم العالم ، بل ويهبطون على سطح القمر ، يواجهون اعتى عواصف المحيط ، يتشبثون بالصوارى التى تتلاعب بها الرياح ، ينسابون على متن سفنهم فوق الصخور الناتئة يصبون براميل زيوت الحيوانات البحرية فوق الامواج الهادرة ، يعبرون المحيطات على متن اطواف صغيرة ، ينهكهم الظما تتلاعب السنتهم برصاصة داخل افواههم الجافة ، يتحملون رياح السموم فى الصحارى ، يتصدون للافاعى والفهود والتماسيح والاسود والفيلة ويصرعونها . ويفعل هؤلاء الناس ذلك سعيا وراء رزق او بغية حياة افضل او حبا فى المغامرة ، او بدافع المشاعر الرفاقية والصداقة المتينة ، بغية انقاذ محبوبة من كارثة ، او لهدف مجرد مثل خير البشرية ومجد الوطن ، ورفع راية العلم . . . كامثال ليفينجستون * واموندسين ** وسيدوف *** ونيفيلسكى **** .

واية بطولات يحققها المقاتلون فى الحروب ! تشهد البشرية

---

* دافيد ليفينجستون (١٨١٣ـ١٨٧٣) رحالة وعالم انجليزى تخصص فى شئون افريقيا . **المترجم** .

** راؤول اموندسين (١٨٧٢ـ١٩٢٨) رحالة وعالم نرويجى من مشاهير الباحثين فى القطبين الشمالى والجنوبى . **المترجم** .

*** ج . يا . سيدوف (١٨٧٧ـ١٩١٤) رحالة روسى من مشاهير الباحثين فى القطب الشمالى . **المترجم** .

**** ج . ا . نيفيلسكى (١٨١٣ـ١٨٧٦) عالم روسى شهير تخصص فى منطقة الشرق الاقصى . **المترجم** .

الحروب منذ الاف السنين ، ويحقق الالاف الامجاد الخالدة فى مثل تلك الحروب . بيد انك محظوظ حيث ولدت فى زمن السلم . انك تعيش فى تلك الاماكن التى تضم رفات الشهداء الذين بذلوا حياتهم فى سبيل ان تعيش سعيدا ، وتعلن عن نفسها حتى يومنا هذا مدوية صاخبة ، بطولات قادة تلك السنوات المجيدة . وتخفق روحك بشىء يتسم بالبسالة ويوحى بالالهام وكأنه نشيد مسيرة ، حين تشدك صفحات تاريخهم الى اعماق الليل دون ان تدرى . وتراودك رغبة جارفة فى العودة اليها كى تسجل روحك صور اولئك العظام ، لتشرع فى تجسيدها – كلا . . . ليس هكذا – انك ترسم صورهم عن طريق نقلها على الورق بقلم اسود تبلله بلعابك حتى تظهر الخطوط على نحو اوضح وتغدو اكثر تعبيرا حتى تصل الى النهاية بعد ان يكون لسانك قد غرق فى السواد لدرجة لا تستطيع معها تنظيفه حتى لو استخدمت حجرا فى ذلك . وتظل هذه الصور معلقة فوق فراشك حتى يومنا هذا .

لقد امنت اعمال ومآثر اولئك الناس حياة جيلك وسوف تظل البشرية تذكرها ابد الدهر . هذا فى حين ان هؤلاء الناس بسطاء لا يختلفون عنك فى شىء . انهم ميخائيل فرونزه ، وكليم فوروشيلوف ، وسيرجو اوردجونيكيدزيه ، وسيرجى كيروف * وسيرجى تيولينين . . . حقا . . . لقد كان اسمه ، اسم عضو الكومسومول العادى ، يمكن ان يسجل الى جوارهم لو اسعفته الحياة لابداء ضروب البطولة . ويا لها حقا لمدهشة وفريدة حياة اولئك الناس . لقد مارسوا العمل السرى ايام القيصر ، وطوردوا واودعوا السجون ونفيوا الى سيبيريا والى الشمال ، الا انهم كانوا يلوذون بالفرار المرة تلو الاخرى ، ويخوضون المعارك ايضا المرة تلو الاخرى . لقد هرب سيرجو اورجونيكيدزيه من النفى . وهرب ميخائيل فرونزه من النفى مرتين . . . وهرب ستالين عدة مرات . وكان يتبعهم فى البداية افراد معدودون ، ثم راحوا يصبحون مئات ، ثم مئات الالاف ، الى ان بلغ تعدادهم الملايين .

لقد ولد سيرجى تيولينين حين لم يكن هناك داع لممارسة

---

* من مشاهير الحزب الشيوعى والدولة السوفييتية . **المترجم** .

العمل السرى . ولم يهرب من اى مكان ، حيث لم يكن امامه ما يفر منه . لقد قفز من نافذة الطابق الثانى بالمدرسة ، وكان ذلك حماقة كما غدا واضحا اليوم . كما انه ليس هناك من يتبعه سوى فيتكا لوكيانتشينكو .

بيد انه يستحيل فقدان الامل . فقد حطم جليد المحيط المتجمد الشمالى السفينة «تشيليوسكين» . وكم روعت البلاد باكملها تلك الصدمة التى تعرضت لها السفينة ليلا . بيد ان طاقمها لم يهلك وبارح السفينة ليستقر على جليد المحيط . وراح العالم اجمع يتابع عملية انقاذهم ، تلك العملية التى كان النجاح حليفها . فثمة من يحمل بين جوانحه فى عالمنا هذا قلب نسر زاخر بالبسالة . واولئك اناس بسطاء من امثالك ، راحوا يقاومون العواصف والصقيع يشقون طريقهم على متن طائرات بغية انقاذهم . . . يحملوهم بعيدا ، معلقين فى اجنحة طائراتهم . . . ولقد كان هؤلاء طليعة ابطال الاتحاد السوفييتى .

تشكالوف ! انه انسان بسيط مثلك ، لكن اسمه يدوى فى ارجاء العالم اجمع . لقد حقق حلم البشرية – الطيران الى امريكا عبر القطب الشمالى . ويا لهم من ابطال . . . تشكالوف ! جروموف ! مجموعة بابانين * .

وهكذا تسير الحياة عامرة بالبطولات ، وبالاعمال العادية المألوفة .

وكم من الاناس البسطاء من امثالك يكدحون على الارض السوفييتية ، وفى كراسنودون نفسها ، لا يتميزون الا بمآثرهم وامجادهم التى لم تسجلها الكتب فيما سبق . وهناك فى الدونباس ، وليس فى الدونباس وحده ، يعرف كل امرئ اسمى نيكيتا ايزوتوف وستاخانوف ** . كما ويستطيع اى طفل من الطلائع ان يحدثك عن باشا انجيلينا رئيسة اول فرقة نسائية للجرارات ، وعن العامل

* مجموعة بابانين . نسبة الى ايفان دميتروفيتش بابانين (ولد ١٨٩٤) رئيس العاملين باول محطة ابحاث علمية اقيمت على الجليد العائم فى القطب الشمالى (١٩٣٧–١٩٣٨) . **المترجم** .

** من مشاهير العمال السوفييت ، اصحاب مبادرة تعميم الحركة الجماهيرية لرفع الكفاءة الانتاجية فى الصناعة والزراعة . **المترجم** .

الماهر كريفونوس ومقار مازاى * اولئك الذين يحظون باحترام الجميع .

كما ويطالبه والده بان يطالع عليه ما تنشره الجرائد حول هؤلاء الناس ليروح فيما بعد يسعل ويشخر طويلا لسبب غير مفهوم ، او ربما يكون ذلك لكونه قد اصبح هرما ، اقعدته عربة الفحم . لقد حملت الحياة فى حقيقة الامر «الجد» جافريل تيولينين عبئا ينوء به كاهله . وكان يدرك سيريوجكا مدى ما يعانيه ، من انه اصبح غير قادر على ان يكون فى مصاف اولئك الناس .

حقا . . . ان امجاد هؤلاء مفخرة حقيقية ! بيد ان سيريوجكا ما يزال صغيرا وينبغى عليه مواصلة الدراسة . وسوف يكون قادرا على تحقيق كل ذلك فيما بعد حين يصبح كبيرا . لكنه قادر اليوم تماما على اتيان بطولات مثل بطولة تشكالوف وجروموف ، وينبئه حدسه بكونه قد شب بما يكفيه لذلك . غير ان ماساته فى انه الوحيد ، وليس هناك سواه فى ذلك العالم يدرك ذلك . وهكذا يعيش منعزلا باحساسه هذا عن البشرية جمعاء .

وعلى هذا الحال ادركته الحرب ، ليروح يبذل المحاولة تلو الاخرى للالتحاق بالمدرسة العسكرية الخاصة ، حيث انه لابد وان يصبح طيارا . وفى كل مرة تبوء محاولاته بالفشل .

وينطلق كافة تلاميذ المدارس للعمل بالحقول ، عداه هو الذى طعن فى فؤاده ، يلتحق بالعمل فى المناجم . وبعد انقضاء اسبوعين غدا قادرا على العمل فى استخراج الفحم على قدم المساواة مع الكبار .

انه نفسه لا يعرف مدى تقدير الآخرين له . لقد كان يخرج من البئر اسود البشرة تماما لا تبدو منه سوى عينيه اللامعتين واسنانه البيضاء الصغيرة التى ظهرت ناصعة ، يرافق الكبار ، يسير رصينا نحو الحمام ينخر ويسعل مثلما كان يفعل ابوه ، ثم يتوجه عائدا الى منزله فى غير عجلة حافى القدمين حيث كان ما يحتذيه ملكا للمنجم .

* مقار مازاى (١٩٠٩–١٩٤١) . من مشاهير العاملين فى مجال الحديد والصلب . نفذ فيه الهتلريون حكم الاعدام فى بداية الحرب الوطنية العظمى . **المترجم** .

كان يعود متاخرا بعد ان يكون الجميع قد فرغوا من تناول طعام الغذاء ليقدموا اليه طعامه على حدة . لقد غدا ناضجا مكتمل الرجولة ، عاملا حقيقيا .

وكانت الكسندرا فاسيلييفنا تسحب اناء حساء الكرنب من الفرن لتمسك به بكلتا يديها البضتين تملأ له طبقـــه الذى يتعالى منه البخار ، وتقدم له الخبز الذى صنعته بنفسها والذى لم يستطعم مذاقه الى هذا الحد فيما سبق . وكان الاب ينظر الى ابنه فيما تبرق عيناه الثاقبتان من تحت حاجبيه الكثين ، ويهتز شاربه ، يحادثه فى هدوء وكانما هو عامل حقيقى دون ان يسعل او يصفر . لقد كان يهمه سماع كل شىء حول العمل فى المنجم ، وكم بلغ مقدار انتاج سيريوجكا والآخرين هناك . كان يتساءل حول المعدات ، حول ملابس العمل ، يتحدث عن المناسيب وعن الاسراب وعن الممرات واماكن الحفر فى المنجم وكانما يتحدث عن حجرات وزوايا مسكنه الشخصى . وكان العجوز قد عمل فى الواقع فى كافة مناجم المنطقة تقريبا ، اما وبعد ان اصبح عاجزا عن العمل فقد ظل على اطلاع تام بكافة الامور عن طريق رفاقه . كان يعلم اتجاهات ومدى النجاح فى استخراج الفحم ، ويستطيع ان يشرح لاى من الآخرين ، مشيرا فى الهـــواء بسبابته الطويلة بارزة العظام ، الى مواقع استخراجه تحت الارض والى كل ما يجرى هناك .

وفى الشتاء كان سيريوجكا يتوجه بعد انصرافه من المدرسة مباشرة ودون ان يتناول طعامه ، الى اى من اصدقائه – من رجال المدفعية او سلاح المهندسين او الطيارين ، ويجلس فى الثانية عشرة ليلا لاعداد واجباته المدرسية والنوم يغالبه ، ليستيقظ فى الخامسة صباحا ليتوجه الى ميدان الرماية حيث يعلمه فيمن يعلم من رجاله ، رقيب من اصدقائه الدوريين على الرماية بالبندقية او بالرشاش الخفيف . وقد كان بالفعل يجيد الرماية ، مثل اى مقاتل آخر ، بالبندقية والمسدسات من كافـــة الانواع ، والقاء القنابل اليدوية والزجاجات الحارقة ، وكذلك حفر الخنادق وزرع الالغام وتطهير المناطق منها ، ويعرف اشكال كافة الطائرات الموجودة على ظهر البسيطة ، ويستطيع ابطال مفعول اية قنبلة . . . وقد اجتاز كل ذلك برفقة فيتكا لوكيانتشينكو الذى كان يرغمه على مصاحبته

اينما ذهب . وقد كان فيتكا معجبا بسيريوجكا اعجاب الاخير بسيرجو اوردجونيكيدزيه او بسيرجى كيروف .

وقد بذل فى ربيع هذا العام محاولة اخرى ، بل اكثر محاولاته اصرارا للالتحاق بمدرسة الطيران الخاصة بالكبار ، وليس بمدرسة الشباب التخصصية . ولم يحالفه التوفيق مرة اخرى ، حيث اجابوه بانه ما يزال فتيا بعد ، مشيرين عليه بالتقدم فى العام القادم .

ولقد كان حقا فشلا ذريعا ، اذ بدلا من الالتحاق بمدرســـة الطيران ، كان عليه التوجه لبناء التحصينات الدفاعية عند مشارف فوروشيلوفجراد . غير انه اتخذ قرارا بعدم العودة الى منزله .

وكم بذل من محاولات ومناورات للالتحاق بالوحدة العسكرية ! ولم يكن قد قص على نادية حتى جزء من المائة من محاولاته ، ومدى ما تعرض له من اهانات تحتم عليه بذلها وتحملها . وها هو اليوم يدرك معنى المعركة ومعنى الموت وماهية الخوف .

وغطّ سيريوجكا فى سبات عميق لم يقطعه حتى سعال ابيه فى الصباح ، ولم يستيقظ الا بعد ان تربعت الشمس كبد السماء . وبالرغم من ان نوافذ الغرفة كانت مغلقة ، فقد ادرك الوقت كعادته من موقع انعكاس اشعة الشمس الذهبية التى تسللت عبر درف النافذة لتستقر على الارض الطينية ، وعلى اثاثها كما وادرك فور استيقاظه ان الالمان لم يصلوا بعد .

وخرج الى الفناء للاغتسال ، حيث شاهد «الجـــد» يجلس فى مقعده ، وعلى مقربة منه كان يجلس فيتكا لوكيانتشينكو . اما الام فقد كانت مشغولة بالعمل فى الحديقة بينما كانت شقيقتاه قد انصرفتا الى عملهما منذ فترة طويلة .

وراح «الجد» يحيى ابنه قائلا :

– أوهوه ! يا لك من مقاتل رائع ! اما زلت حيا ؟ – وغلبه سعال جعله يتوقف قليلا ليمضى قائلا : ان صديقك يجلس فى انتظارك منذ الفجر – وهنا اوما «الجد» فى مودة بالغة نحو فيتكـــا لوكيانتشينكو الذى لزم مكانه على نحو يومىٌ بالاذعان ، ينظر فى جدية بعينيه السوداوين الى وجه صديقه الجسور ذى الوجنتين الصغيرتين ، والذى اثقله النعاس ومع ذلك يبدو متعطشا لاتيان كافة ضروب النشاط . ثم استطرد يقول فى ارتياح : – ياله من

صديق طيب كان يزورنا فجر كل يوم سائلا عنك . . . وكانما سيريوجكا هو كل ما لديه فى هذا العالم .

وهكذا اثبت «الجد» بكلماته هذه ، مدى عمق الصداقة التى تربطهما .

لقد كانا يعملان سويا فى حفر الخنادق عند مشارف فوروشيلوفجراد . وكان فيتكا الواقع كلية تحت تاثير صديقه ، راغبا فى البقاء معه للالتحاق بالوحدة العسكرية . بيد ان سيريوجكا ارغمه على العودة الى منزله ، ليس اشفاقا عليه ، او على والديه من باب اولى ، بل لانهما لن يستطيعان الالتحاق بالوحدة العسكرية سوية ، ولان وجوده يمكن ان يعرقل كذلك قبوله وحده . واضطر فيتكا الى الرحيل مفعما بالحزن والسخط على صديقه الطاغى . ولم يكن مضطرا فقط الى الرحيل ، بل والى ان يقسم بالا يخبر والديه وكذلك والدى سيريوجكا او اى انسان آخر على وجه الارض بما يعتزمه سيريوجكا . وقد كان سيريوجكا فى حاجة الى ذلك للحفاظ على كرامته فى حالة اخفاقه .

ومن الواضح استنادا الى حديث «الجد» ان فيتكا لم ينكص عن وعده .

وجلس سيريوجكا وفيتكا لوكيانتشينكو خلف المنزل على شاطئ نهير عكر المياه تغطيه الطحالب ، كان يتصدر احد المراعى . وتراءت خلف المرعى بناية كبيرة منعزلة شيدت حديثا ، كحمام لعمال المناجم لم يفتح بعد . استقرا مكانهما على حافة الوهدة يدخنان ويتبادلان الاخبار .

لم يبق فى المدينة من رفاقهما بالمدرسة – وكان كلاهما يتلقى تعليمه فى مدرسة فوروشيلوف – سوى توليا اورلوف ، وفولوديا اوسموخين ولوبكا شيفتسوفا التى اتسم سلوكها بالغرابة ، حيث لزمت منزلها لا تغادره الى اى مكان آخر . وقد كانت لوبكا شيفتسوفا تدرس بمدرسة فوروشيلوف الا انها انقطعت عن دراستها بعد الصف السابع فيما قبل الحرب حيث قررت العمل بالفن والتحقت بالعمل فى المسارح واندية المنطقة تمارس هوايتها فى الغناء والرقص . وقد سر سيريوجكا بالذات ببقاء لوبكا فى المدينة ، فقد

كانت فتاة جسورة تتسم بنفس طباعه وكانما هى سيريوجكا فى زى نسائى .

واسر فيتكا الى سيريوجكا بما علمه من ان اجنات فومين يخفى لديه شخصا مجهول الهوية ، وقد راح الجميع فى «شانغهاى» يضربون اخماسا فى اسداس بغية معرفة كنه ذلك الشخص الذى غدوا يرهبونه . كما وجدت فى حى «سينياكى» حيث كانت مستودعات الذخيرة ، بضع عشرات من الزجاجات الحارقة فى قبو مكشوف ، لابد وان يكون ثمة من خلّفها حين كان فى عجلة من امره .

ولمح فيتكا بانه من المستحسن اخفاء تلك الزجاجات فى مكان ما ، غير ان سيريوجكا تذكر فجاة امرا ما لتعلو وجهه امارات تنم عن صرامة معلنا انه يجب عليهما التوجه فورا الى المستشفى العسكرى .

الفصل الرابع عشر

التحقت نادية تيولينينا بدراسات التمريض منذ تلك اللحظة التى اصبح فيها خط الجبهة قريبا من الدونباس ، وحين بدأ اوائل الجرحى يتوافدون على كراسنودون . وها هى تعمل للعام الثانى كبيرة للممرضات فى المستشفى العسكرى الذى استقر بالطابق الاسفل من مستشفى المدينة .

وقد استمر مستشفى المدينة يعمل وفق نظامها السابق على الرغم من انه جرى تهجير منذ عدة ايام غالبية الطاقم الطبى لمستشفى المدينة برئاسة كبير الاطباء وكل موظفى المستشفى العسكرى باستثناء الطبيب فيدور فيدوروفيتش . وسرعان ما حظيت هذه المستشفى باحترام سيريوجكا وفيتكا ، حين دخلا غرفة الاستقبال ، لتستوقفهما الممرضة المناوبة وتامرهما بمسح حذائيهما بخرقة مبللة ، والانتظار فى الردهة ريثما تنادى نادية .

وبعد برهة من الوقت خرجت نادية فى صحبة الممرضة . الا انها لم تكن شبيهة بنادية التى بادلها الحديث الليلة الماضية فى فراشها . فقد تبدت على وجهها ذى الوجنتين البارزتين والحاجبين الرفيعين ، وكذلك على وجه الممرضة الرقيق الذى تغمره الغضون ، امارات تنم عن جديد غاية فى الرزانة والصرامة والعمق .

وهمس سيريوجكا ، بينما راح يعرك غطاء راسه بيديه ، تبدو عليه سيماء الارتباك لسبب غير معروف :

– نادية ! نادية . . . يتوجب علينا تقديم العون الى الجرحى . وينبغى عليك ادراك ذلك . اننى وفيتكا نستطيع تدبير اماكن لهم بمساكننا . وعليك ابلاغ فيدور فيدوروفيتش بذلك .

وراحت نادية تحدق النظر الى سيريوجكا بعض الوقت فى صمت ، تقلب الامر فيما بين نفسها ، ثم اومأت برأسها بما يعنى التشكك فى الامر .

وذكر سيريوجكا وقد علت وجهه امارات تجهم :

– فلتنادى على الطبيب ، او فلترافقينا اليه .

وتحدثت نادية الى الممرضة قائلة :

– لوشا ! فلتعطى الشابين معطفين ابيضين .

وفتحت الممرضة صوانا طويلا طلى بالدهـــان الابيض ، حيث تناولت معطفين سلمتهما الى الشابين ، بل وساعدتهما بحكم العادة ، على ارتدائهما .

وفجاة راحت العمة لوشا تقول فيما تنظر الى ناديـــة بعينين وادعتين :

– حقا يتحدث الفتى . سوف يأوونهم الناس . كما واننى على استعداد لايواء احدهم . ومن ذا الذى لا تراوده مشاعر الشفقة ازاء هؤلاء الجرحى ؟ اننى اعيش وحيدة برفقة ابنتى فى ضواحى المدينة ، بينما ابنائى يقاتلون فى الجبهة . واذا ما جاء الالمان فسوف اقول انه ابنى . ويجب تحذير الجميع حتى يؤكدوا نفس الشىء .

وذكرت نادية :

– انك لا تعرفين الالمان !

واجابت العمة لوشا :

– اننى حقا لا اعرف الالمان ، لكننى اعرف ذوينا . ويمكننى ان ادلكم على اناس شرفاء يعيشون فى ضواحى المدينة .

وتقدمت نادية الشابين عبر ردهة مضيئة تطل نوافذها على المدينة . وكانت رائحة الجروح النفاذة الدافئة والملابس الداخلية غير النظيفة ، والتى لم تستطع رائحة الدواء التغلب عليها ، تفرض نفسها عليهم كلما مروا الى جوار باب عنبر مفتوح . كما وتبدت

عبر نوافذ المستشفى مدينتهم الحبيبة الغارقة فى اشعة الشمس ، وديعة آمنة مضيئة تضفى الراحة على النفوس .

وقد كان الجرحى الباقون فى المستشفى غير قادرين على النهوض من اماكنهم ، سوى قلة كانت تذرع الردهة مستندة الى عكاكيزها . وقد كانت كل الوجوه الفتية والمسنة ، الحليقة وغير الحليقة لعدة ايام ، تنم عن نفس الشىء الذى يتسم بالجد والصرامة والعمق ، والذى اتسم به وجه نادية والممرضة لوشا .

وما ان تعالى وقع خطوات الصبيين فى الردهة حتى راح الجرحى فى اسرتهم يرفعون رؤوسهم يحدوهم امل ، اما اولئك الذين كانوا يتكئون على عكاكيزهم فقد صاروا بدورهم وفى صمت يتابعون باعينهم التى كانت تنم كذلك عن حيوية مشوبة بالغموض ، هذين الصبيين وهما يسيران فى معطفيهما فى اثر الممرضة نادية التى يعرفونهـا جيدا بوجهها الذى تكسوه امارات الجد والصرامة .

وتقدم الجميع نحو الباب الوحيد المغلق فى نهاية الردهـة ، والذى فتحته على مصراعيه نادية بحركة سريعة من يدها الصغيرة الرقيقة دون ان تطرقه . وذكرت مفسحة الطريق امام الصبيين :

– انهما يودان مقابلتك يا فيدور فيدوروفيتش .

واذ ارتبك كل من سيريوجكا وفيتكا بعض الشىء ، دلفا الى مكتب الطبيب الذى نهض يستقبلهما . وقد كان انسانا فـــارع القامة عريض المنكبين ، جاف العود ، قوى البنية ، حليق الوجه ، تقدم به السن وخط الشيب راسه وكست الغضون العميقـــة وجهه الذى لفحته الشمس جيدا ، بارز الوجنتين محدودب الانف ذا ذقن واضحة الرسم ، يبدو وكانما صب فى قالب نحاسى . واذ كان الطبيب جالسا عند دخولهما الى جوار منضدة لم يكن موجودا عليها كتاب او جريدة او دواء ، وحيدا فى غرفة مكتبه فقد ادرك الصبيان انه لم يكن مشغولا بشىء سوى بمجرد التفكير فى امور نرجو من الله الا ترد بخاطر احد . كما وادركا ذلك حين شاهدوه كذلك وقد استبدل زيه العسكرى بزى مدنى – جاكتة رمادية اللون يبدو طرف ياقتها بارزا من تحت معطفه الابيض ، وسروال رمادى وحذاء قذر ، يبدو انه لم يكن يخصه .

ونظر الى الصبيين دون ان تعتريه الدهشة ، وفى صرامـــة

شديدة مثل تلك التى اتسمت بها نادية ولوشا وكل الجرحى فى العنابر .

– فيدور فيدوروفيتش ! لقد جئنا لمساعدتكم فى ايواء الجرحى بمساكن اهل المدينة .

لم يقل سيريوجكا اكثر من هذا ، حيث ادرك على الفور انه ازاء انسان فى غير حاجة الى الاطالة فى الحديث . وتساءل الطبيب :

– وهل سيقبلونهم ؟

واجابت نادية بصوت رخيم :

– سوف نجد من يقبلهم يا فيدور فيدوروفيتش . لقد اعلنت لوشا ، الممرضة فى المستشفى عن استعدادها لاستضافة احدهم ، ووعدت بالبحث عن آخرين للقيام بذلك ، علاوة على ان الصبيين وكذلك انا ، سوف نفعل ذلك . كما وان الآخرين من سكان كراسنودون لن يضنوا بتقديم العون . ولقد كان من الممكن ان نفعل ذلك ، نحن آل تيولينين ، لو كنا نملك مكانا – وهنا علت الحمرة وجنتيها الصغيرتين البارزتين ، وكذلك وجه سيريوجكا على الرغم من انها لم تذكر سوى الحقيقة .

وذكر فيدور فيدوروفيتش :

– فلتنادى على ناتاليا الكسييفنا !

وقد كانت ناتاليا الكسييفنا طبيبة بالمستشفى ما تزال فى مقتبل العمر ، لم تنزح مع بقية الطاقم الطبى حتى لا تترك امها المريضة وحيدة فى مسكنها الكائن بمستعمرة المناجم فى كراسنودون على مسافة ثمانية عشر كيلومترا من المدينة . ولما كان ما يزال هناك بالمستشفى الجرحى ، والمتاع والادوية والمعدات الطبية فقد اخذت ناتاليا الكسييفنا على عاتقها طواعية مهمة القيام باعباء وظيفة كبير الاطباء ، وقد اعتراها الخجل ازاء زملائها النازحين من كونها لم ترافقهم لتظل باقية تحت نير الالمان .

وخرجت نادية . وجلس فيدور فيدوروفيتش فى مكانه الى جوار المائدة ، وطرح جانبا طرف معطفه الابيض بحركة حاسمة تتسم بالحيوية ، واخرج من جيب جاكتته علبة تبغ وجريدة مطوية مجعدة قديمة انتزع طرفها ، وبسرعة فائقة راح يلف بيده الكبيرة المعروقة وشفتيه الورقة التى حشاها بالتبغ . واشعل لفافته ،

قائلا وهو ينظر فى جدية الى الصبيين الجالسين فى هدوء على الاريكة :

– حقا . . . ياله من حل !

وتحول بنظراته من سيريوجكا الى فيتكا ليعود بها ثانية الى سيريوجكا وكأنما يدرك انه اهمهما . وقد فهم فيتكا مغزى هذه النظرة ولم يغضب على الاطلاق لانه كان يعرف ايضا ان سيريوجكا هو الاهم ، وذلك امر كان يريده ويفخر به .

ودلفت الى القاعة بصحبة نادية امرأة قصيرة القوام يناهز عمرها الثامنة والعشرين وان كانت تبدو كطفلة يتسم وجهها ويداها وساقاها بامارات رقة وبدانة تلك التى غالبا ما تخفى الحقيقة عند النساء ، فيما تضفى عليهن طابعا غير حقيقى . فقد قطعت ناتاليا الكسييفنا الطريق من كراسنودون حتى خاركوف سيرا على هاتين القدمين الصغيرتين البدينتين حين اعلن ابوها عن عدم رغبته فى مواصلتها تعليمها بمعهد الطب . كما وكفلت نفسها بفضل هاتين اليدين الصغيرتين البضتين اللتين مارستا غسل وحياكة الملابس للآخرين ، بغية توفير نفقات الدراسة . وحين توفى والدها كفلت هاتان اليدان ايضا اسرة من ثمانية افراد يحارب بعضهم اليوم فى الجبهة ، ويعمل البعض الآخر فى مدن اخرى ، بينما يوجد منهم من يواصل دراسته . وقد اجرت هاتان اليدان وفى جسارة عمليات طبية لم يقبل عليها اطباء رجال يفوقونها سنا وخبرة . كما وكانت ناتاليا الكسييفنا ذات عينين تنطقان بالاستقامة والقوة والروح العملية ، مما يمكن ان تكون معه مثار حسد مديرى المؤسسات الكبيرة .

ونهض فيدور فيدوروفيتش يستقبلها . وواجهته قائلة وهى تضع يديها البضتين على صدرها بما يتناقض مع الروح العملية التى تنطق بها عيناها ومع طريقتها الجافة والمالوفة فى الحديث :

– لا تجهد نفسك . اننى اعلم كل شىء ، ويبدو ان ذلك امر معقول ، بطبيعة الحال .

وتوجهت بنظراتها الى سيريوجكا وفيتكا بما ينم عن لامبالاة بوجودهما ، وان كانت تبحث فى نفس الوقت امكانية استخدامهما . ثم نظرت الى فيدور فيدوروفيتش تسأله :

– وانت ؟

وفهم على التو ما تقصده .

– اننى افضل البقاء معك فى المستشفى بوصفى طبيبا محليا ، وذلك امر يتيح لى مساعدتهم فى كل الظروف – وادرك الجميع ان «هم» هنا تعنى الجرحى – فهل يمكننى ذلك ؟

واجابت ناتاليا الكسييفنا :

– نعم .

– الن يشى بي احد فى هذا المستشفى ؟

واجابته واضعة يديها البضتين على صدرها :

– لن يشى بك احد فى هذا المستشفى !

– شكرا . . . شكرا لكما !

واذ علت الابتسامة عينى فيدور فيدوروفيتش لاول مرة مد يده الكبيرة ذات الاصابع القوية الى سيريوجكا اولا ، ثم الى فيتكا .

وذكر سيريوجكا وهو يحدق النظر الى وجه الطبيب بعينين صافيتين جازمتين وكانما يعنى «يمكنكم وكل الآخرين ان تحكموا على اقوالى كيفما تشاؤون ، الا اننى سوف اقول ذلك ، لاننى اعتبره واجبا على» :

– فيدور فيدوروفيتش ! انكم يمكنكم دائما الاعتماد علي ، وعلى رفيقى فيتيا لوكيانتشينكو . ويمكنكم ان تعتبروا نادية حلقة الوصل فيما بيننا . كما واود ان اقول لكم باسمي وباسم رفيقى فيتيا لوكيانتشينكو ان سلوككم هذا ، كونكم قد بقيتم الى جوار الجرحى فى مثل ذلك الوقت ، يعد عملا نبيلا .

وهنا تصبب جبينه عرقا .

وذكر فيدور فيدوروفيتش بلهجة جادة :

– شكرا . وما دمتم قد تحدثتم عن ذلك ، فينبغى علي ان اقول انه مهما كانت المهنة التى يمارسها المرء ، فانه يمكن ان يصادف ظروفا تحتم عليه ليس فقط مغادرة اولئك الناس الذين تتوقف مصائرهم عليه ، ينيطون به الرجاء ويسيرون فى اثره ، بل وان يكون ذلك الرحيل اكثر جدوى لان ثمة مصلحة فى ذلك اسمى شانا . واعيد القول ان ذلك وارد بالنسبة لكافة المهن ، حتى للقادة العسكريين والموجهين السياسيين ، الا مهنة الطبيب ،

ولا سيما الطبيب العسكرى . ذلك لان الطبيب يجب ان يلازم مكانه الى جوار الجرحى . . . ودائما ومهما كانت الاسباب . وليس هناك ما هو اكثر جدوى من ذلك . بل ويمكن حتى عدم الانصياع للنظام والاوامر العسكرية التى تتناقض مع هذا الواجب . اننى لم اكن لانفذ حتى امر قائد الجبهة اذا ما صدر بالرحيل وترك الجرحى . بيد انه ايضا لم يكن ليصدر مثل هذا الامر . شكرا . . . شكرا لكما . – ثم حنى فيدور فيدوروفيتش ازاء الصبيين راسه الذى وخطه الشيب ووجهه الاسمر اللامع ، ذلك الراس الذى بدا وكانما صب فى قالب برونزى .

ولزمت ناتاليا الكسييفنا مكانها فى صمت تضم يديها البضتين الى صدرها ، تعكس عيناها المتعلقتان بفيدور فيدوروفيتش امارات وقار واشراق .

واسفر عن خطة العمل ذلك الاجتماع الذى جرى فى غرفة الانتظار ، ولم يشارك فيه سوى سيريوجكا ونادية والعمة لوشا وفيتكا لوكيانتشينكو ، وكان اقصر الاجتماعات منذ ربع قرن حيث لم يستغرق اكثر من تلك المدة التى خلع فيها الصبيان معطفيهما . وانطلق الصبيان الى الخارج ، غير قادرين على البقاء ما هو اطول من ذلك بالمستشفى ، لتلفح اعينهما اشعة شمس يوليو الحارقة ، تغمرهما مشاعر فرحة مبهمة ، وفخر بنفسيهما وبالبشرية ، وتعطش للعمل .

وقال سيريوجكا وهو ينظر الى صديقه فى حماس :

– يا له من انسان ذلك الشخص ! اليس حقا ؟

واجابه فيتكا لوكيانتشينكو فيما يرمش بعينيه :

– حقا تقول .

وفجاة ذكر سيريوجكا ما لا رابط بينه وبين محور حديثهما ومشاعرهما .

– اننى سوف اعرف كنه ذلك المجهول الذى يختبئ لدى اجنات فومين !

– وكيف ستعرف ذلك ؟

– اننى سوف اعرض عليه استضافة احد الجرحى .

وذكر فيتكا على نحو لا يرقى اليه الشك :

– سوف يشى به لدى الالمان .

– او تظن اننى سوف اقول له الحقيقة . اننى لا ابغى سوى دخول مسكنه .

وضحك سيريوجكا ، بينما كانت تشع عيناه واسنانه فى دهاء ومرح . وكانت هذه الفكرة قد ملكت كل حواسه لدرجة انه كان على يقين من نجاحها .

وتوقف سيريوجكا امام باب مسكن اجنات فومين ، حيث كانت نباتات عباد الشمس ذات الاوراق السميكة الملينة بالثقوب تتدلى تحت نوافذه ، فى ضاحية «شانغهاى» البعيدة عن موقع السوق .

واذ طرق سيريوجكا الباب ، لزم مكانه فترة طويلة فى انتظار من يستجيب له ، وقد وقف ملتصقا بالباب بحيث تستحيل رؤيته من الداخل بعد ان فطن امكانية معرفة الطارق عبر النافذة . وفى النهاية انفرج الباب عن اجنات فومين يمسك باحدى يديه مزلاجه ، ويتكئ بالاخرى على قائمته ، يميل برأسه نحو الامام – وقد كان ذا قامة طويلة مثل الدودة – ينظر بفضول بالغ الى سيريوجكا بعينيه الرماديتين الصغيرتين الغائرتين فى غضون وجهه الكثيرة المتباينة .

– اشكركم لقاء ذلك . . .

ندت عن سيريوجكا فى هدوء ، وكانما الباب لم يفتح الا لكى يدخل ، وانحنى بقامته الى ما تحت يد اجنات فومين المتكئة الى قائمة الباب ليظهر ليس فقط بردهة المنزل ، بل وتمكن من فتح باب الغرفة قبل ان يتمكن اجنات من التعبير حتى عن دهشته ليدخلها قائلا :

– عفوا ايها المواطن !

وحنى هامته ازاء اجنات فومين الذى وقف حياله فى جاكتة ذات مربعات وصديرى تتدلى منه سلسلة مذهبة على بطنه ، وسروال ذى مربعات كذلك دسّت اطرافه فى حذائه الجلدى الطويل اللامع ، فارع القامة ، ذو وجه مستطيل علته اخيرا امارات الدهشة ، بل والغضب احيانا .

وتساءل اجنات فومين وهو يرفع حاجبيه خفيفي الشعر ،

لتبدو غضون وجهه الكثيرة المتباينة الشكل حول عينيه على نحو غريب ، وكانما فى اتجاه الزوال :

– ماذا تريد ؟

واجابه سيريوجكا فى حماس وبصوت اجش وعلى نحو فوجئ به كذلك اجنات فومين ، وكانما هو احد اعضاء لجان الادارة ابان الثورة الفرنسية :

– ايها المواطن ! . . . ايها المواطن ! فلتنقذ مقاتلا جريحا !

وجمدت الغضون المحيطة بعينى اجنات فومين على الفور ، وكذلك عيناه المتعلقتان بسيريوجكا ، لتبدو كعينى دمية .

وادرك سيريوجكا ما جعل اجنات فومين يتجمد على هذا النحو ليقول :

– كلا . . . لست جريحا . لقد تراجع المقاتلون ، ليتركوا احد جرحاهم فى عرض الشارع الى جوار السوق . وقد هرعت اليك مباشرة ، فور ان شاهدت والصبية ذلك .

وفجأة علت وجه اجنات فومين المستطيل الكريه الملامح امارات كثير من المشاعر التى اجتاحته ، ليسترق النظر فى عفوية الى باب الغرفة الاخرى الموصد . وتساءل بصوت خافت اقرب الى الهمس ، يحدق النظر غاضبا فى سيريوجكا ، تتحرك من جديد غضون وجهه فيما حول عينيه على نحو مستمر معقّد :

– ولم قصدتنى انا بالذات ؟

واجابه سيريوجكا بعينين صافيتين ، طاعنا اياه وفى غير ما شفقة بذلك السهم المسموم :

– ومن عسانا ان نقصده دونك يا اجنات سيميونوفيتش ؟ ان المدينة بأسرها تعلم انك اول من استجاب لمبادرة ستاخانوف لدينا .

وتساءل اجنات فومين فيما تشتد دهشته وارتباكه :

– ابن من تكون ؟

– اننى ابن بروخور ليوبيزنوف الذى تعرفونه جيدا ، واحد رعيل حركة ستاخانوف .

اجابه سيريوجكا بحسم شديد ، لا يقل عن احتمال عدم وجود اى بروخور ليوبيزنوف فى هذا العالم .

وهنا ذكر اجنات فومين وقد استرد رباطة جاشـــه ، وراح يشيح بيديه دونما داع :

– لست اعرف شخصا بهذا الاسم ، كما ليس هناك مكـان لمقاتلك الجريح علاوة على ان زوجتى مريضة ، ولك ان تعـــرف يا صاح ... يا رف . . يا . .

واشاح بيديه نحو الباب الخارجى فى حركة لم تكن تنم صراحة عن ذلك .

وذكر سيريوجكا بصوت تنم نبرته عن ادانة ، محدقا النظر الى فومين بعينين ناصعتين جسورتين كما عينى طفل :

– ان سلوكك غاية فى الغرابة ايها المواطن ، ولا سيما ان الجميع يعرفون انك تملك غرفتين .

وتحرك سيريوجكا فى خطوة لم تتسم حتى بالسرعة ، نحو باب الغرفة المجاورة ليفتحه على مصراعيه ، قبل ان يتسنى لفوميـــن الحركة من مكانه او التفوه بكلمة واحدة .

وفى تلك الحجرة النظيفة ذات النوافذ نصف المغلقة ، والعامرة بالاثاث واصص الزهور كان يجلس الى جوار المائدة انسان يرتدى زى العمال ، قوى المنكبين عريضهما ، ذو راس حليق ضخم ووجه يغطيه النمش ، رفع راسه لينظر فى هدوء الى سيريوجكا الذى دلف الى الحجرة .

وقد ادرك سيريوجكا على التو انه ازاء رجل جيد المعدن ، قوى البنية هادئ الجنان ، ليداخله الخوف الشديد ، ويفقد على التو رباطة جاشه . لقد بلغ به الخوف درجة انه فقد القدرة على التفوه بكلمة ، والتحرك قيد انملة من مكانه ، بينما ظهر عند البـــاب اجنات فومين تعلو وجهه سيماء السخط والخوف الشديدين .

وذكر ذلك المجهول الذى كان يجلس الى جوار المائدة يخاطب اجنات فومين وقد شاهده يندفع نحو سيريوجكا :

– تمهل يا صاح !

ثم تساءل لدى سيريوجكا :

– ولماذا لم تحمل ذلك المقاتل الجريح الى منزلك على سبيـل المثال ؟

ولزم سيريوجكا الصمت .

– هل ما يزال والدك يعيش هنا ام رحل ؟

واجاب سيريوجكا والحمرة تعلو وجهه :

– لقد رحل مع النازحين .

– وامك ؟

– امى بالمنزل .

– ولماذا لم تذهب اليها قبل الاخرين ؟

ولم يرد سيريوجكا .

– لعلها لا تريد استضافة مقاتل جريح ؟

واومأ سيريوجكا برأسه علامة الايجاب ، تجتاح اعماقـــه مشاعر مروعة . اذ ومنذ تلك اللحظة التى انتهت فيها اللعبة ، راح يتصور فيما وراء كلمتى «الام» و«الاب» والديه فى حقيقـــة الامر ، وكم تعذب خجلا من كونه يصمهما بهذه الكذبة الدنيئة .

بيد ان الرجل وعلى ما يبدو ، كان يصدقه . وذكر وهو يتمعن النظر فى سيريوجكا :

– لقد ذكر لك اجنات سيميونوفيتش الحقيقة حول انـه لا يستطيع ايواء المقاتل . غير انك سوف تجد من يأويه . فلتبحث عن مثل ذلك الشخص وسوف تجده . الا انك يجب ان تعتبر الامر سرا ، مما يلزمك بالا تقصد ايا كان . وعليك ان لم تجد احدا ان تعود الىّ ، واذا ما وجدت ذلك الذى يستطيع ايوائه ، فلا تعد . ومن الافضل ان تترك لى الان عنوانك ، حتى استطيع الاهتداء عليك اذا ما تطلب الامر .

وهنا اضطر سيريوجكا الى دفع ثمن شقاوته على اســـوا نحومعيب محزن . ففى تلك اللحظة التى راودته فيها رغبة ملحة فى ترك عنوانه الحقيقى ، يضطر الى ترك اول عنوان يرد الى خاطره وليقطع بكذبته هذه على نفسه طريق امكانية الاتصال مستقبـلا بهذا المجهول .

ووجد سيريوجكا نفسه مرة اخرى فى عرض الطريق ، يعانى مشاعر الارتباك والحيرة . بيد انه لم يكن هناك ادنى شك فى ان ذلك المجهول الذى كان مختبئا لدى اجنات فومين شخص جيـــد

المعدن عظيم الاهمية ، كما وانه ليس من الممكن ان يكون مثار شك كون اجنات فومين انسانا غير جيد على اقل تقدير . غير انهما كانا بالتاكيد مرتبطين كل بالاخر ، وذلك امر يتسم بالغموض .

الفصل الخامس عشر

توجه ماتفى شولجا فى ذات اليوم الذى غادر فيه منزل آل اوسموخين الى ضاحية «جولوبياتنيكى» كما كانت تسمى قديما ، غير بعيد عن وسط كراسنودون حيث يعيش صديقه الفدائى القديم ايفان كوندراتوفيتش جناتينكو .

وقد كانت مساكن هذه المنطقة شان كثير من مناطق كراسنودون ، قد شيدت على الطراز النموذجى . غير ان ماتفى كوستيفيتش كان يعلم ان كوندراتوفيتش يقطن ، كما فى السابق ، بيته الخشبى الصغير واحد تلك البيوت التى كانت مصدر تسمية الحى «جولوبياتنيكى» (عشش الحمام) .

واستجابت لطرق النافذة امراة ظهرت عند الباب ، اشبه بغجرية فى مقتبل العمر ، وان كانت متهدلة الوجه قذرة الملابس التى لم تكن رثة بالية . وذكر كوستيفيتش انه عرج الى البيت اثناء عبوره للمنطقة لحاجته الى ايفان كوندراتوفيتش الذى يرجو اذا كان ممكنا ، ان يخرج اليه للحديث بعض الوقت .

وقد جرى لقاء ماتفى شولجا وايفان جناتينكو فيما خلف ذلك البيت الصغير ، وسط البرارى التى هبطا اليها بغية ان يتواريا عن الانظار ، تحت وقع قصف المدفعية الذى تعالى الى الاسماع آنذاك .

وقد كان ايفان جناتينكو ، او باختصار كوندراتوفيتش ، احد احفاد تلك الاجيال من عمال المناجم الذين يمكنهم اعتبار انفسهم وعن حق مؤسسى مناجم الدونيتس . ولقد انعم الله عليه وعلى جده وابيه – اوكرانيى الاصل – بان يكونوا عمال مناجم حقيقيين ، شيدوا الدونباس ، وغدوا حماة امجاد وتقاليد المهنة ، وذلك الحرس الذى كان صخرة تحطمت عليها جحافل المتدخلين الالمان ، والبيض فى عامى ١٩١٨–١٩١٩ .

لقد كان كوندراتوفيتش هو نفسه الذى فجر المنجم رقم ١ برفقة مديره اندريه فالكو وجريجورى ايليتش شيفتسوف .

وها هو ذلك الحديث الذى جرى مع ماتفى كوستيفيتش فى تلك الوهدة بالبرارى تحت اشعة الشمس المائلة نحو الغروب .

– اوتدرى يا كوندراتوفيتش سبب مجيئى اليك ؟

واجابه كوندراتوفيتش فى حزن دون ان ينظر اليه :

– لست ادرى ، وان كنت اخمن ذلك السبب يا ماتفى قسطنطينوفيتش .

وهب نسيم البرارى فى الوهدة يداعب اطراف سترة العجوز الرثة ، التى الت اليه عن جده ، والتى تدلت فوق جسده النحيل ، وكانما من صليب قائم .

وذكر كوستيفيتش :

– لقد ابقيت هنا للقيام بنفس ما قمت به فى عام ١٩١٨ ، وذلك ما دفعنى الى المجىء اليك .

وذكر كوندراتوفيتش بصوت مبحوح خافت دون ان ينظر الى شولجا :

– انك تعلم ان حياتى رهن اشارتك يا ماتفى قسطنطينوفيتش ، الا اننى لا استطيع ايوائك بمنزلى !

وقد كان ما ذكره كوندراتوفيتش مبالغتا ، وغير معقول لدرجة ان ماتفى كوستيفيتش لم يجد ما يقوله ، ولزم الصمت . كما ولزمه ايضا كوندراتوفيتش .

وتحول فجاة شولجا الى اللغة الروسية يتساءل بصوت خافت خائفا النظر الى العجوز :

– ان كنت قد ادركت مقصدك يا كوندراتوفيتش ، فانت ترفض ايوائى فى بيتك ، اليس كذلك ؟

واجاب العجوز فى اسى :

– اننى لا ارفض ... بل لا استطيع .

وظلا يتبادلان الحديث برهة من الوقت دون ان ينظر احدهما الى الاخر .

وتساءل كوستيفيتش وصدره يجيش غضبا :

– ولم تكن قد ابديت موافقتك ؟

ونكس العجوز راسه .

– الم تكن على علم بما يجب عليك القيام به ؟

ولم يرد العجوز .

– هل تدرك انك تكون بذلك قد ارتكبت ما يعنى الخيانة ؟

وتحدث العجوز بصوت مبحوح خافت للغاية ، بدا وكانما النباح ، المشوب بالوعيد :

– ماتفى كوستيفيتش ... لا تفه بما يستحيل تقويمه فيما بعد !

وذكر شولجا فى سخط وحدق النظر فى وجه كوندراتوفيتش الضامر ذى اللحية قليلة الشعر اشبه بالمنتوفة ، اكسبها دخان التبغ صفرة ، بينما احتقنت عيناه بالدم :

– وما عساى ان اخشى ؟ ليس ثمة ما هو افظع مما اسمعه الان !

ورفع كوندراتوفيتش هامته ، وامسك بمرفق ماتفى كوستيفيتش بيد برزت عظامها ، وتشوهت اظافرها السوداء ، قائلا :

– مهلا !

– وتساءل بصوت ملؤه الاسى ، شديد الخفوت وبالغ العمق :

– هل تصدقنى ؟

وحاول شولجا الحديث ، الا ان العجوز ضغط على مرفقه ناظرا اليه بعينين ثاقبتين ، قائلا بصوت يكاد يكون توسلا :

– تمهل . . . فلتسمعنى . . !

وهنا راح كل منهما يحدق فى عينى الاخر .

وهمس العجوز بصوت مبحوح وهو يدنو بوجهه من وجه ماتفى كوستيفيتش :

– اننى لا استطيع ايوائك بمنزلى ، لخوفى من ابنى الاكبر . اننى اخاف ان يشى بك . اوتذكر يوم كنت لدينا فى عام ١٩٢٩ ؟ هل تذكر اخر مرة زرتنا فيها ، يوم احتفلنا والعجوزة بذكرى زواجنا الخامسة والعشرين . . بيوبيلنا الفضى ! انك وعلى ما يبدو لا تذكر ، ولست ملزما بان تذكر ، كل اولادنا . – وضحك العجوز ساخرا – بيد انك لا بد وان تذكر الابن الاكبر منذ عام ١٩١٨ . . .

ولزم شولجا الصمت .

وهمس كوندراتوفيتش بصوت مبحوح :

– لقد انحرف عن الطريق القويم . . . هل تذكر انه قد فقد ذراعه آنذاك فى عام ١٩٢٩ ؟

وتذكر شولجا على نحو مبهم ذلك الصبى مقطب الجبين ، بطىء الحركة شحيح الكلام والذى كان قد شاهده لدى كوندراتوفيتش فى عام ١٩١٨ . بيد انه لم يذكر بالتحديد ذلك الصبى ضمن اولئك الذين احاطوا به فى عام ١٩٢٩ بمسكن كوندراتوفيتش ، ومن ذا الذى كان منهم بلا ذراع . وقد فطن والدهشة تعتريه ، الى انه لا يعى جيدا تلك الامسية . من المؤكد انه ذهب آنذاك الى كوندراتوفيتش بحكم الواجب ، ليبتلع النسيان تلك الامسية ، مثل كثير غيرها من الامسيات المشابهة اضطر الى قضائها بحكم الواجب فى حضرة اخرين وفى ظروف اخرى .

– لقد فقد ذراعه اثناء العمل بالمصنع فى لوجانسك . وقد اورد كوندراتوفيتش الاسم القديم لمدينة فورشيلوفجراد مما ادرك شولجا معه ان الامر كان قديما . ومضى يقول : – وعاد الينا ليعيش فى كنفنا . كما وكان قد غدا فى سن اكبر من ان يلتحق بالمدرسة ، الى جانب اننا لم نفطن الى ذلك فى حينه . ولما لم يجد مهنة مناسبة يحترفها ، انحرف عن الطريق القويم ، وادمن الشراب . على نفقة ابيه ، اى على نفقتى . ولم ترض اية فتاة الزواج منه مما دفعه الى الغلو فى فحشه . وفى عام ١٩٣٠ هبطت عليه تلك الحسناء التى رايتها الان ، ولعبت براسه ، ولينغمسا سويا فى ممارسة اسوا الاعمال . فقد شرعت هى تمارس تجارة الكحول المصنعة منزليا ، وانضم اليها يمارسان اعمال المضاربة . كما واعترف صراحة بانهما لا يتورعان عن الاتجار بالمسروقات . لقد اشفقت عليه فى البداية ، ثم صرت اخاف الفضيحة فيما بعد . وقد قررت وزوجتى الصمت . . . وصمتنا . لقد صمتنا امام اطفالنا . . وما زلنا صامتين . لقد حوكم فى ظل السلطة السوفييتية مرتين . وكم كان ضروريا ان تجرى محاكمة تلك الفاسدة ، الا انه كان فى كل مرة يتولى عبء الجريمة وحده . لكنك تعرف ان القضاة يعلمون اننى فدائى قديم وعامل منجم قدير ورجل معروف ، مما جعلهم يوجهون

اليه اللوم فى المرة الاولى ، ثم اصدروا حكمهم فى المرة الثانية مع ايقاف التنفيذ . هذا بينما يغدو اكثر سوءا مع كل عام . هل لك ان تصدق ما اقول ؟ وكيف يمكننى ان استقبلك فى بيتى ؟ انه خليق بان يبيعنا نحن والديه حتى يئول اليه البيت وحده !

وهنا اشاح كوندراتوفيتش بوجهه خجلا من شولجا .

– وكيف استطعت الافصاح عن موافقتك ، فى حين كنت تعرف ذلك ؟

ساله شولجا بنبرة تنم عن قلق ، وهو يحدق فى وجه كوندراتوفيتش الحاد كالخنجر ، دون ان يدرى ما اذا كان عليه ان يصدقه ام لا ، حيث فقد فى اعماقه كافة المعايير التى يمكن بها التمييز فيما بين اولئك الذين يمكن الركون اليهم ، وبين من لا يستحقون ان يكونوا موضع ثقته فى مثل تلك الظروف التى احاطت به .

واجابه كوندراتوفيتش فى لهجة تتسم بالحزن :

– كيف كان يمكننى الرفض يا ماتفى قسطنطينوفيتش ! او كان يمكننى انا ايفان جناتينكو الرفض ؟ يالله العار ! كما وانك تعلم متى جرى ذلك الحديث . لقد ذكروا آنذاك انه ربما لن تستدعى الحاجة ذلك ، وتساءلوا عن موافقتى ، اذا ما استدعى الامر ذلك . لقد كانوا يختبرون استعدادى ... فكيف كان يمكننى ان احدثهم عن ابنى ؟

لقد انقذت ابنى على نحوما من ان يودع السجون ، اذ انه ابنى ايا كانت الظروف . . يا ماتفى قسطنطينوفيتش .

وفجاة تعالى صوت العجوز يقول فى يأس جارف :

– اننى رهن اشارتك ، وعلى استعداد للقيام باى عمل . انك تعلم طابعى . . صموت حتى القبر ، كما واننى لا اهاب الموت . ولتعتمد على ، اعتمادك على نفسك . وسوف اجد مكانا تختبئ به ، حيث اعرف كل الناس ، ولك ان تصدق اننى ساجد اناسا مخلصين . ولقد فكرت انذاك يوم كنا فى لجنة المنطقة فى اننى مستعد للقيام باى عمل . اما فيما يخص ابنى فلم اكن ملزما فى لجنة المنطقة ، بوصفى غير حزبى ، بالحديث عنه . وهذا يعنى براءتى.

ان كل ما يهمنى هو ان تصدقنى . . . اما عن الشقة المطلوبة لايوانك ، فسوف اجدها حتما . .

ولم يلحظ كوندراتوفيتش نبرة التملق والمهانة التى اخذ صوته يتسم بها .

وذكر ماتفى كوستيفيتش :

– اننى اصدقك .

بيد انه لم يذكر الحقيقة كاملة ، حيث كان يصدقه ويكذبه . لقد كان يراوده الشك ، ولم يذكر ذلك الا لانه كان فى مصلحته .

وتغيرت ملامح وجه العجوز على حين غرة ، اذ سرعان ما بدا خائر القوى منكس الراس وراح ينشق فى صمت برهة من الزمن .

اما شولجا فقد اخذ ينظر اليه يزن كل ما ذكره له كوندراتوفيتش يقلب الامور تارة فى ذلك الاتجاه ، واخرى فى ذاك . وقد كان يعرف بطبيعة الحال ان كوندراتوفيتش من رجالهم ، الا انه لم يكن يعرف كيف قضى اثنى عشر عاما كاملة ، علاوة على ان ذلك كان فى تلك الفترة التى شهدت فيها البلاد تغيرات كبرى . بيد ان كونه قد حال دون قصاص السلطة السوفييتية من ابنه ، واخفاه حتى فى ظروف على هذا القدر من الاهمية ، وانحداره نحو الكذب فى مثل تلك القضية الحيوية مثل امكانية استخدام مسكنه للعمل السرى فى ظل الالمان ، جعل ميزان الامور يتحول تجاه استحالة الثقة الكاملة فى كوندراتوفيتش .

وهمس كوندراتوفيتش بصوت اجش :

– عليك ان تجلس او ترقد هنا حتى آتى لك بطعام ، ثم انطلق الى مكان ما لتسوية الامور .

وقد كاد ماتفى كوستيفيتش يوافق على اقتراح كوندراتوفيتش لو لم تحن تلك اللحظة التى قرر فيها على الفور الاذعان الى صوت صادر من اعماقه لم يكن يعتبره دعوة الى الحرص وحسب ، بل وحصاد تجارب اعوام ، جعله يرفض الانصياع الى صوت العاطفة . وتحدث قائلا :

– لا داعى للذهاب . . . اننى اعرف كثيرا من المساكن ، وسوف اجد لنفسى ماوى . اما عن الطعام ، فاننى سوف اصبر

فقد يزيد الطين بلة اذا ما داخلت هذه المراة اللعينة وكذلك ابنك الريبة فى الامر .

وذكر كوندراتوفيتش فى اسى :

– لك ان تقرر ماترى . وارجو الا تفقد املك فى . . . فسوف انفعك يوما .

وذكر شولجا فى محاولة لترضية العجوز :

– اننى اعلم ذلك يا كوندراتوفيتش .

– اذن فلتقل لى ، مادمت محل ثقتك ، الى من سوف تذهب . وسوف اقول لك ما اذا كان يمكنك الذهاب اليه من عدمه ، كما وسوف اعلم مكانك اذا ما احتاج الامر .

واجابه شولجا فيما تند عنه ابتسامة تنم عن دهاء :

– اننى لا املك حق الافصاح عن مقصدى . انك فدائى قديم وتعرف متطلبات السرية . اما الانسان الذى اقصده ، فاننى اعرفه جيد المعرفة .

وقد هم كوندراتوفيتش بان يقول له : «انك كنت تعرفنى كذلك جيد المعرفة وهاك ترى كم يخبئ المجهول لك» ، غير انه خجل من الحديث عن ذلك .

وذكر العجوز فى تجهم ، وقد ادرك تماما ان شولجا فقد ثقته فيه :

– انك حر التصرف .

وتحدث كوستيفيتش بلهجة تنم عن مرح مصطنع :

– هيه ... انى ذاهب يا كوندراتوفيتش ! ورد العجوز فيما هو غارق فى التفكير ودون ان يرفع ناظريه الى ماتفى كوستيفيتش :

– تصرف كما يحلو لك !

وتقدم كوستيفيتش طريق شولجا عبر الشارع المجاور لمنزله الا ان الاخير توقف قائلا :

– انه من الافضل ان تهدينى الى طريق خلفى والا ترانى حسناؤك تلك . . – وابتسم فى سخرية .

وراودت العجوز رغبة فى ان يقول له : «لو كنت تعلم اصول العمل السرى ، لكان ينبغى عليك ان تدرك انه من الافضل العودة

من نفس الطريق الذى جئت منه . فمن ذا الذى سوف يخطر على باله انك جئت الى العجوز جناتينكو فى مهمة سرية» . غير انه كان يعرف انه غدا غير اهل للثقة ، وليس هناك جدوى من الحديث .

وتقدم طريق ماتفى كوستيفيتش حتى بلغا احد الشوارع المجاورة ، ليتوقفا امام مستودع صغير على ناصيته . وذكر شولجا وقد انقبض صدره على نحو لايطاق :

– وداعا يا كوندراتوفيتش ، وسوف القاك فيما بعد .

واجابه العجوز :

– الامر متروك لك .

وانصرف شولجا ، ليلتزم كوندراتوفيتش مكانه الى جوار ذلك المستودع الصغير برهة من الزمن يقتفى بنظراته اثر شولجا جاف العود طويل الساقين تتدلى على كتفيه ، وكانما على صليب قائم ، سترة قديمة .

وهكذا تقدم ماتفى شولجا خطوته الثانية نحو حتفه .

الفصل السادس عشر

استطاع سيريوجكا تيولينين وصديقه فيتكا لوكيانتشينكو وشقيقته نادية والممرضة العجوز لوشا العثور على ما يزيد عن سبعين شقة لايواء الجرحى فى مختلف انحاء المدينة وعلى مدى ساعات قليلة . ورغما عن ذلك ظل حوالى اربعين جريحا بلا مأوى . فلم يكن يعرف سيريوجكا ونادية والعمة لوشا وكذلك فيتكا لوكيانتشينكو واولئك الذين قدموا اليهم العون ، مقصدا يمكن التوجه اليه بمثل هذا الطلب ، كما لم يكونوا راغبين فى التضحية بنجاح القضية باسرها .

وقد اتسم ذلك اليوم بالغرابة على نحو لا يصادف المرء الا فى منامه . فقد توقفت حركة الوحدات العسكرية عبر الطرقات وهدير المعارك فى البرارى منذ الامس ، وخيم السكون الرهيب على المدينة والبرارى فيما حولها . ومكث الجميع فى انتظار وصول الالمان من لحظة لاخرى . وظلت ابواب المؤسسات والمحلات التجارية مفتوحة

على مصاريعها دون ان يدخلها احد . كما وخيم الهدوء على مقار الهيئات التى اقفرت من موظفيها وكان الدخان ما يزال سابحا فى سماء مواقع المناجم التى جرى تدميرها . . . وخلت المدينة من كافة السلطات ، ومن الميليشيا ، وتوقفت حركتها التجارية ونشاط سكانها . واقفرت الشوارع تماما ، الا من مجرد امراة تهرول سعيا وراء الماء من المضخة او البئر القريب ، او من اجل بعض الخضروات من الحديقة ليعود الصمت ثانية . وتخلو الشوارع . ولم يكن ثمة دخان ينبعث من مداخن المنازل ، حيث لم يكن هناك من يعد طعاما . كما ولزمت الكلاب الهدوء نظرا لانه لم يكن هناك غريب يقض مضاجعها . ولربما كانت تهرول عبر الشارع قطة ، ليعود اليه هدوءه ثانية .

وقد جرت عملية اسكان الجرحى فى ليلة ٢٠ يوليو ، غير ان سيريوجكا وفيتكا لم يساهما فى ذلك . اذ انهما راحا آنذاك ينقلان الزجاجات الحارقة من المستودع الكائن فى «سينياكى» الى «شانغهاى» حيث اودعاها حفرة فى الوهدة تحت الشجيرات . كما واودع كل منهما بعض الزجاجات فى حفرة صنعها فى حديقته كى تكون فى متناول يده لاستخدامها اذا ما تطلب الامر ذلك .

لكن اين اختفى الالمان مع كل ذلك ؟

ادرك الفجر سيريوجكا حين كان ما يزال بالبرارى خارج المدينة . كانت الشمس قد راحت تظهر كبيرة مستديرة خلف سحابة وردية رمادية ، مما يتيح للمرء النظر اليها دون ان يرف له جفن . ثم صارت تتبدى اطرافها خارج تلك السحابة ترسل اشعتها ، لتتلالأ بالبرارى ملايين قطرات الندى ، كل بلون يتباين عن الاخر ، ويكسو اللون الوردى قمم التلال الداكنة ذات الشكل المخروطى والتى انتشرت فوق البرارى تارة هنا ، واخرى هناك . ودبت الحياة فى كل ما يحيط بسيريوجا ، ليبدو ناصعا براقا ، مما جعله يبدو مفعما بالنشاط والحيوية مثل كرة من المطاط فى ارض الملعب .

وكان هناك طريق فرعى يمتد بمحاذاة السكة الحديدية ، تارة يقترب منها واخرى يبتعد عنها . وكان كلاهما ينساب فوق تل صغير تعلو الى جانبيه القمم غير المرتفعة التى تفصلها الوهاد المنبسطة ، والتى امتزجت بالبرارى كما وقد غطت الشجيرات والاحراش تلك

القمم والوهاد غير العميقة ، والتى حملت تسمية دغلة فيرخنيادوفانايا .

وسرعان ما ارتفعت الشمس عالية فوق البرارى ، لترسل اشعتها الحارقة . وراح سيريوجا يجيل النظر فيما حوله ليرى كل المدينة تقريبا . وقد انتشرت مساكنها فوق التلال وفى اعماق الوهاد تتركز غالبيتها الى جوار المناجم بمبانيها المميزة فوق سطح الارض ، وحول مبانى اللجنة التنفيذية للمنطقة ومؤسسة «فحم كراسنودون» . وتبدت قمم الاشجار فوق المرتفعات خضراء ناصعة تلفها اشعة الشمس ، بينما كانت ظلال الصباح ما تزال تخيم فوق الوهاد . وكانت القضبان تلمع تحت اشعة الشمس تتلاقى لتتوغل بعيدا ، بعيدا ثم تختفى فيما وراء التل النائى ، حيث ارتفعت سحابة من الدخان بيضاء وادعة – من محطة فيرخنيادوفانايا .

وفجأة ، تبدت فى اعلى ذلك التل ، وعند تلك النقطة التى بدا وكان الطريق الفرعى انتهى عندها ، نقطة داكنة اللون راحت تمتد سريعا فى شكل شريط ضيق قاتم . ولم تنقض سوى بضع ثوانى حتى انفصل ذلك الشريط عن الافق ليبدو شيئا طويلا كثيفا داكن اللون يندفع من بعيد فى اتجاه سيريوجكا ، مخلفا سحابة مخروطية الشكل من الغبار الذى كسته الحمرة . وقبل ان يتمكن سيريوجكا من امعان النظر فى ذلك الشىء حتى ادرك انها فصيلة من راكبى الموتوسيكلات التى تعالى هدير محركاتها فى ارجاء البرارى .

وتسلل سيريوجكا الى الشجيرات الصغيرة ، اسفل الطريق حيث انبطح ارضا فى انتظار مرور فصيلة راكبى الموتوسيكلات . وما كاد ينقضى ربع الساعة حتى دوى هدير محركاتها يملأ كل الارجاء ، ثم مرقت من جانبه لا تبدو منها سوى رؤوسهم-رؤوس رماة الرشاشات الالمان ، راكبى الموتوسيكلات الذين كان عددهم يزيد عن العشرين . كانوا يرتدون زيهم العادى رمادى اللون ، تغطى الكابات رؤوسهم ، بيد ان نظارات كبيرة محدبة كانت تغطى عيونهم وجباههم والجزء الاعلى من انوفهم . وقد اضفى كل ذلك منظرا خرافيا على هؤلاء الذين ظهروا فجاة ، هنا فى برارى الدون .

وتوقف هؤلاء عند البيوت الصغيرة فى اطراف المدينة ، ليقفز جميعهم ، عدا ثلاثة او اربعة ظلوا الى جوار الموتوسيكلات ، وينتشرون

فى شتى الجهات . بيد انه ما كادت تنقضى عشر دقائق حتى راح راكبو الموتوسيكلات يظهرون الواحد تلو الاخر ، ليستقلونها ، مندفعين نحو المدينة .

وغابوا عن ناظرى سيريوجا فيما وراء المنازل الكائنة فى الوهدة ، الا انه كان يدرك انهم اذا ما كانوا يقصدون وسط المدينة ، فى اتجاه الحديقة العامة فانهم سوف يمرون حتما عبر ذلك المرتفع الذى يبدو واضحا للعيان بشكل جيد من هذا المكان ، والموجود بالشارع الواقع خلف المزلقان الثانى مما جعله يركز النظر على ذلك الموقع . وقد اندفع اربعة او خمسة من هؤلاء الجنود فى سرعة فائقة عبر هذا المرتفع ، الا انهم لم يتجهوا نحو الحديقة ، وانما انعطفوا فى اتجاه تلك المجموعة من المبانى فوق التل وحيث مبنيا اللجنة التنفيذية للمنطقة و«بيشينى بارين» . كما وعاد راكبو الموتوسيكلات بعد بضع دقائق ثانية الى المزلقان ، حيث شاهد سيريوجكا مرة اخرى كل افراد الفصيلة وسط البيوت الكائنة فى ضواحى المدينة ، فقد كانوا عائدين الى فيرخنيادوفانايا . وانبطح سيريوجكا ارضا فيما بين الشجيرات الصغيرة ، ليظل هكذا لا يرفع راسه حتى مرقت تلك الفصيلة الى جواره .

وقد انتقل سيريوجا فيما بعد الى ذلك المرتفع الذى تغطيه الاشجار والشجيرات والمشرف على ناحية فيرخنيادوفانيايا من حيث يمكنه رؤية كل المنطقة . وهناك ظل متمددا تحت احدى الاشجار طيلة بضع ساعات . وراحت الشمس تعتلى السماء ، تلفه باشعتها الحارقة مهما جد فى الانتقال من مكان لاخر ، بحثا عن الظل .

وكان النحل يطن فيما بين الشجيرات الصغيرة ، يمتص رحيق ازهار اواخر فصل الصيف والعصير الصافى اللزج من اوراق الاشجار الذى تركته الحشرات عليها ، وما نجمعه فيما بعد مسميين اياه عسل يوليو . وتعالت رائحة اوراق الاشجار والحشائش الكثيفة العالية ، تلف البرارى . وكانت النسمات التى تهب خفيفة فى بعض الاحيان ، تحمل الى الاسماع حفيف اوراق الاشجار . واعتلت كبد السماء بعض السحب الصغيرة التى بدت ناصعة براقة تحت اشعة الشمس .

وادرك سيريوجكا خمول شل كافة اعضائه ، ورزح فوق قلبه ،

مما جعله ينسى لبعض الوقت سبب وجوده فى ذلك المكان . وتواردت الى خاطره ذكريات سنى الطفولة الممتعة الصافية ، حين افترش الاعشاب فى البرارى مغمضا عينيه ، تلسعه اشعة الشمس الحارقة ، تطن الدبابير والنحل فيما حوله ، وتتعالى رائحة الحشائش الدافئة ، ليبدو له الكون حبيبا ، ناصعا خالدا . وتعالى الى اسماعه ثانية هدير محركات الموتوسيكلات ليتراءى امام ناظريه راكبوها بنظاراتهم الضخمة غير الطبيعية وتظهر من خلفهم السماء الناصعة الزرقة ، ليدرك على حين غرة انها لن تعود ابدا مشاعر سنى الطفولة الممتعة الصافية ، ودفقات السعادة المبكرة التى لا مثيل لها ، ليخفق قلبه تارة فى الم ومرارة ، واخرى رغبة جامحة فى خوض المعركة .

ومالت الشمس نحو خط الغروب حين بدا فيما وراء التل البعيد ذلك السهم الطويل القاتم ، ليثير من جديد الغبار كثيفا يحجب الافق . وقد كان ذلك السهم راكبو الموتوسيكلات يسيرون فى رتل طويل لا نهاية له ، يتقدمون السيارات – مئات ، بل الاف عربات النقل ، تتحرك فيما بينها سيارات ركوب القادة . وراحت السيارات تظهر الواحدة تلو الاخرى وبدون انقطاع ، من وراء التل . وقد كان ذلك الرتل مثل افعى طويلة غليظة ، خضراء اللون تلمع قشورها تحت اشعة الشمس ، راسها قريب من ذلك المكان الذى استقر فيه سيريوجكا ، بينما توارى ذيلها بعيدا عن الانظار . وغمر الغبار الطريق ، وتعالى هدير المحركات وكانما ملأ كل الفضاء الرحب فيما بين السماء والارض .

لقد كان الالمان يقصدون كراسنودون ... وكان سيريوجكا اول من وقع نظره عليهم .

وفى حركة خفيفة كما القطة ، عبر الطريق الفرعى وليس ثمة من يدرى كيف ... زحفا ، ام فى قفزات ، ام محلقا فى الجو ثم السكة الحديدية ليهرول عبر الوهدة ، ثم فى الجانب الآخر للتل ، حيث كانت تستحيل رؤيته للرتل الالمانى فيما وراء طريق السكة الحديدية .

وقد ناور سيريوجكا على هذا النحو بغية الوصول الى المدينة قبل الالمان ، واحتلال افضل نقطة للمراقبة فى وسطها ، اى فوق سطح مدرسة جوركى الكائنة فى حديقة المدينة .

وجرى عبر الارض الفضاء الواقعة الى جوار احد المناجم نحو

الشارع الكائن فيما خلف الحديقة ، والذى ظل على شكله القديم ، منعزلا عن المدينة ، يحمل تسمية «ديريفيانايا» .

وهناك وقع نظره على مشهد اذهله لدرجة انه لزم مكانه ساكنا برهة من الوقت ، انزلق بعدها فى هدوء بمحاذاة الاسوار التى تحيط بحدائق السكان المطل على شارع «ديريفيانايا» ليرى فى احداها تلك الفتاة التى ساقته اليها الاقدار فى عربة النقل بالبرارى فى الليلة قبل الماضية .

وكانت الفتاة تفترش بطانية مخططة داكنة اللون ، بسطتها فوق الحشائش تحت شجيرات الاقاصيا ، على بعد حوالى خمس خطوات من سيريوجكا ، وقد اسندت راسها الى وسادة ووضعت ساقا فوق ساق ، لفحتهما الشمس ، منتعلة حذاءها ، تطالع كتابا دون ان تعير اهتماما لما يجرى حولها من احداث . وقد استقرت فوق الوسادة احدى ضفيرتيها الكبيرتين الذهبيتين فى دعة وحرية ، تلقى بظلالها على وجهها البرونزى اللون ، واهدابها الداكنة وشفتها العليا المكتنزة ، والبارزة الى اعلى فى اباء . نعم ، لقد كانت الفتاة تفترش البطانية تطالع كتابا تمسكه بيديها الموحفتين اللتين لفحتهما الشمس بينما كانت تتقدم نحو كراسنودون الاف العربات – جيش المانى باكمله – تملأ كل الفضاء فيما بين السماء والارض بهدير محركاتها وغازاتها العادمة .

واذ حبس سيريوجكا انفاسه التى كانت تنطلق صافرة من صدره ، راح ينظر الى الفتاة وقد امسك بكلتا يديه قائمتى السور تغمره السعادة وتعشى بصره برهة من الزمن . فقد كانت تجسد شيئا يتسم بالسذاجة والروعة ، كما الحياة نفسها وهى تفترش الحديقة ممسكة فى يديها بكتاب فى يوم من اشد ايام البشرية هولا ورعبا.

وقفز سيريوجكا فى جسارة فائقة متخطيا السور ، ليقف عند قدمى الفتاة . ونحت الكتاب جانبا لترتسم على عينيها ذات الاهداب الداكنة امارات دعة ودهشة وسعادة ، واللتين استقرتا على سيريوجكا .

وفى تلك الليلة التى جاءت فيها ماريا اندرييفنا بورتس بالتلاميذ من منطقة بيلوفودسك الى كراسنودون ، ظلت ساهرة حتى الفجر اسرة بورتس – ماريا اندرييفنا ، وزوجها وابنتاها الكبرى فاليا والصغرى ليوسيا ذات الاثنى عشر ربيعا . كانوا يجلسون على ضوء

مصباح يعمل بالكيروسين ، حيث توقفت محطة الكهرباء التى كانت تغذى المدينة منذ السابع عشر من الشهر يحيطون بالمائدة يواجه كل منهم الاخر وكانما فى ضيافة اخرين . وقد كانت الانباء التى يتبادلون الحديث حولها تتسم بالبساطة ، لكنها رهيبة لدرجة كان يستحيل عليهم معها رفع اصواتهم لتخدش ذلك السكون الذى خيم على المنزل والشارع ، وعلى المدينة باسرها . لقد كان اوان الرحيل قد فات ، كما واصبح البقاء كذلك مريعا ! وراود الجميع ، حتى ليوسيا التى كانت ذات شعر اكثر ذهبية من شعر شقيقتها ، وعينين يكبران ايضا عينى شقيقها ، يتوسطان وجهها الشاحب ، شعور بان ما حدث امر لم يعد اصلاحه ممكنا لدرجة ان العقل اصبح عاجزا عن تصور مدى فظاعة الكارثة .

كان الاب فى مظهر يدعو الى الشفقة ، حيث راح يواصل لف سجائره من التبغ الرخيص والتى لم ينقطع عن تدخينها . وغدا صعبا على الاسرة تصوره هكذا ، فى حين كان دائما مثال القوة وعماد العائلة ونصيرها . لقد بدا نحيفا صغيرا ، بلغ نظره الذى كان فيما سبق ضعيفا ، حد النهاية تقريبا فى السنوات الاخيرة ليصبح عاجزا عن اعداد الدروس ببساطة . وكان الاب شان ماريا اندرييفنا يدرس الادب . وغالبا ما كانت تصحح زوجته كراسات تلاميذه بدلا منه . كما وكان لا يرى شيئا فى ضوء المصباح الصغير ، اذ كانت عيناه ، الشبيهتان بعيون الفراعنة المصريين التى سجلتها اثارهم ، تشخصان الى الامام دون ان يرف لهما جفن .

لقد كان كل شىء بالمنزل عاديا مالوفا منذ سنى الطفولة ، ومع ذلك فقد اتسم بالغرابة . مائدة الغداء التى كان يغطيها مفرش ملون ، والبيانو الذى كانت تعزف عليه فاليا كل يوم مقطوعاتها ، والصوان الزجاجى حيث استقرت فى شكل تناسبى الاوانى التى تنم عن ذوق وبساطة منتقيها ، وخزانة الكتب المفتوحة كان كل ذلك عاديا كسابق عهده ، ومع ذلك فقد بدا غريبا غير مالوف . لقد كان المعجبون الكثيرون بفاليا يقولون بان منزل آل بورتس يتسم بالرومانسية ويدعو الى الراحة ، وكانت فاليا تدرك انما هى ، الفتاة التى تقطن ذلك البيت ، سبب اضفاء الرومانسية على كل ما حولها . وقد تبدى كل ذلك امام ناظريها عاريا مجردا .

لقد كان الخوف يراودهم جميعا ازاء اطفاء المصباح ، والبقاء كل وحيد فى فراشه الا من افكاره ومشاعره ، ليظلوا هكذا على هذا النحو حتى الفجر ، لا يقطع صمتهم سوى صوت الساعة .

ولم يطفئوا المصباح ويفتحوا نوافذ مسكنهم الا بعد ان تعالى صوت الجيران يخرجون سعيا وراء المياه من المضخة او من الصهريج الموجود قريبا من منزلهم . وراحت فاليا تخلع ملابسها ، تثير عن عمد اكبر قدر من الضجيج ، ثم انزلقت فى فراشها تغطى جسدها وحتى راسها باللحاف . وسرعان ما استغرقت فى سبات عميق غلب كذلك شقيقتها ليوسيا . اما ماريا اندرييفنا وزوجها فلم يغمض لهما جفن .

واستيقظت فاليا تحت وقع اصوات فناجين الشاى الذى راح يستعد الاب والام لتناوله فى غرفة الطعام ، اذ ان ماريا اندرييفنا لم تتخل عن عادة تناول الشاى من السماوار رغما عن كل ذلك . وقد كانت الشمس ترسل اشعتها عبر النافذة ، لينتاب فاليا شعور تقزز مفاجئ حين راود خاطرها مشهد جلستهم طوال الليل . فكم كان مهينا ورهيبا ان يصل بهم الامر هذا الحد !

ما شانها بالالمان فى نهاية الامر ! ان لها عالمها الروحى الخاص بها . فليعان اى كان من وطأة الانتظار والرهبة . . . اما هى فلا . وهبت تغسل شعرها بالمياه الدافئة تراودها سعادة بالغة ثم جلست تستمتع باحتساء الشاى . وقامت بعد ذلك فتناولت من المكتبة احد اجزاء مؤلفات ستيفينسون حيث قصتا «الاختطاف» و«كاتريونا» ، وخرجت الى الحديقة لتفترش البطانية وتستغرق فى القراءة .

كان الهدوء يخيم على المكان ، وكانت الشمس مستقرة فوق حوض الزهور المهمل ، وروضة الحشائش . واتخذت مكانها فوق احدى الزهور فراشة بنية اللون تفرد جناحيها تارة ، وتضمهما تارة اخرى . وراح النحل الموبر داكن اللون ذو الخطوط البيضاء العريضة فيما حول البطن ينتقل من زهرة لاخرى ، فيما يتعالى طنينه الى الاسماع . والقت شجرة الاقاصيا القديمة كثيرة الفروع ، ومتعددة الالوان ظلالها على المكان . وتبدت السماء زرقاء زرقة البحار من بين اوراقها التى مالت فى بعض الاماكن نحو الاصفرار . وتداخل ذلك العالم الاسطورى للسماء والشمس والخضرة والنحل والفراشات مع

العالم الاخر الخيالى ، عالم الكتاب والمغامرات والطبيعة البرية ، والبسالة البشرية والنبل والصداقة النقية والحب الصافى .

وكانت فاليا تنحى الكتاب جانبا فى بعض الاحيان ، لتطيل النظر حالمة الى السماء ، تراها فيما بين فروع شجرة الاقاصيا . ففيم كانت تحلم ؟ لم تكن تدرى . لكن كم كان عظيما ان ترقد وحدها مع هذا الكتاب المفتوح فى هذه الحديقة الاسطورية !

وراحت تتذكر رفاقها فى المدرسة . . . «من المحتمل ان يكونوا قد رحلوا . . . اسعفهم الوقت للرحيل . ولربما يكون قد رحل اوليج ايضا» . لقد كانت على صداقة مع اوليج ، شأن صداقة والديها مع والديه . لقد نسيها الجميع ، وسافر اوليج . وها هو ستيوبكا لا يظهر . اى صديق هو . . . «اقسم !» . . . ياله من ثرثار . انه من المحتمل لو كان ذلك الفتى الذى قفز الى العربة . . ما اسمه . . آه . . سيرجى تيولينين . . سيريوجكا تيولينين لو كان قد اقسم ، لما حنث بوعده . . .

وتخيلت نفسها فى مكان «كاتريونا» اما بطل قصة الاختطاف المفعم بالبسالة والنبل فقد تمثلته فى ذلك الشاب الذى قفز ليلا الى العربة . وكانت تتصور شعره خشنا لتراودها الرغبة فى لمسه . وراحت تفكر فى حزن بالغ . . «اى صبى هذا ان كان شعره ناعما كشعر الفتيات . اذ يجب ان يكون شعر الصبية خشنا» . وغرقت ثانية فى عالم الكتاب الاسطورى ، والحديقة السابحة فى بحر من اشعة الشمس ، تحلق فى ارجائها الفراشة بنية اللون والنحل الموبر .

هكذا قضت طيلة يومها ، لتعود فى صباح اليوم التالى الى نفس المكان تحمل بطانيتها ووسادتها وكتاب ستيفينسون . انها سوف تعيش هكذا ، بالحديقة فى ظلال الاقاصيا ، مهما حدث فى هذا العالم . . .

ولم يكن مثل هذا النمط من الحياة ، وللاسف ، فى متناول والديها . فلم تكن ماريا اندرييفنا لتصبر على ذلك . اذ كانت امرأة مفعمة بالحيوية والنشاط وافرة الصحة ، مكتنزة الشفتين ، ذات اسنان كبيرة وصوت جهورى . كلا . . ان المعيشة على هذا النحو لامر مستحيل . وتوقفت امام المرآة تعدل من هيئتها ، ثم انصرفت قاصدة آل كوشيفوى للسؤال عما اذا كانوا بالمدينة ام غادروها .

وكان آل كوشيفـــوى يعيشون فى شارع سادوفايا الذى يفضى مباشرة الى المدخل الرئيسى للحديقة العامة ، يشغلون نصف احـــد المنازل النموذجية المبنية من الاجر والذى كانت مؤسسة «فحـــم كراسنودون» قد افردتـــــه لخال اوليج – نيكولاى نيكولايفيتش كوروستيليف ، او الخال كوليا . وكان يشغل النصف الثانى من المبنى احد المدرسين ، من زملاء ماريـــا اندرييفنا بالمدرسة ، برفقة اسرته .

كان الهدوء مخيما الا من صوت بلطة تدق راح يدوى فى ارجاء شارع سادوفايا ، مما ادركت معه ماريا اندرييفنا انه يصدر مـن فناء مسكن آل كوشيفوى . وخفق قلبها وصارت تجيل النظر فيما حولها عما اذا كان ثمة من يراها ، قبل ان تدلف الى الفناء ، وكانما ترتكب عملا خطيرا غير مشروع .

ونهض الكلب الاسمر كث الشعـــر الذى كان يرقد امام الباب يتدلى لسانه الاحمر من حرارة الجو ، على وقع اقدام ماريـــا اندرييفنا . لكنه ماكاد يتعرف عليها حتى نظر اليها على نحو يوحى بالاعتراف بالذنب وكانما يريد ان يقول «معذرة ، اننى غير قادر فى مثل هذا القيظ على تحريك ذيلى احتفاء بك» ، ثم عاد الى مكانه .

لقد كانت الجدة فيرا فاسيليفنا ، فارعة القامة ، نحيفة الجسد ، معروقة العود ، تقوم بتكسير الحطب . . وكانت يداها الطويلتان بارزتا العظام ترتفعان بالبلطة عاليا ، ثم تهويان بها فى قوة لدرجة كان يندفع الهواء من صدرها صفيرا مبحوحا . وهكذا يرى المرء انها لم تشك بعد من آلام فى الظهر ، او ربما كانت تعتبر ان العمل خير دواء . كانت الشمس قد تركت اثارها سمرة شديدة على وجـــه الجدة ، الذى بدا نحيفا . وقد كانت الجدة «فيرا» ذات انف رقيق ، يرتجف منخاراها ، يبدو منظرها الجانبى فى عينى ماريا اندرييفنـــا اشبه بصورة دانتى اليجيرى التى كانت قد شاهدتها فى طبعـــة «الكوميديا الالهية» التى صدرت قبل الثورة متعددة الاجزاء . وكان شعرها الرمادى الكستنائى الذى وخطه الشيب يحيط بوجهها ، منسدلا فى حلقات على كتفيها . وكانت الجدة تضع عادة عـــلى عينيها نظارة ذات اطار رقيق اسود اللون كانت قد اشترتها منذ زمن بعيد جعل احد ذراعيها يبلى من القدم ، لتثبته ثانية مستعينة فى ذلك

بخيط اسود . بيد انها لم تكن ترتديها فى تلك اللحظة .

كانت تعمل بهمة بالغة ، تضاعفت قوتهـــا مرتين او ثلاث ، لتتطاير قطع الاخشاب فى شتى الجهات ، يتعالى صوتها . وقد كانت التعبيرات التى ارتسمت على وجه الجدة وقوامها وكانما تعنى . . «فليذهب الالمان الى الجحيم ! ولتذهبوا انتم كذلك الى الجحيـــم مادمتم تخافونهم ! اننى افضـــل تكسير الحطب . . . هيـــه ! هيه ! ولتتطاير قطعه هذه فى شتى الجهات . . الى الجحيم ! نعم انه من الافضل لى ان امارس هذا العمل ، من الانحدار الى وضعكم المهين الى ذلك الحد ! ولئن كان مقدرا لى الهلاك ، فاننى عجوز لا اهاب الموت . . . هه ! هه !»

واذ غرزت الجدة فيرا البلطة فى كتلة الخشب ، رفعتهمـــا والتفتت فجاة لتهوى بهما فى قوة هائلة ، لتنشطر الكتلة شطرين ، كاد احدهما يصطدم بقدم ماريا اندرييفنا ويطرحها ارضا .

وهنا وقع نظر الجدة فيرا على ماريا اندرييفنا ، لتقطب جبينها ، وتلقى بالبلطة جانبا ، لتقول لها بذلك الصوت الجهورى الذى بدا وكانما دوى فى كل ارجاء الشارع :

– آه . . ماريا ، اعنى ماريا اندرييفنا . انه لجميل ، لطيب منك ان تزورينني ، وفى غير ما تكبر ! ها هى ابنتى لينا تدفن راسها فى الوسادة وتجهش بالبكاء لليوم الثالث على التوالى . وكم رحت اتساءل لديها كم من الدموع يمكن ان تذرف ! تفضلى بالدخول .

وداخل الروع نفس ماريا اندرييفنا ازاء صوتها العالى ، وان كان قد ادخل الطمانينة الى قلبها فى ذات الوقت ، اذ انها كانت نفسها تهوى الحديث بصوت عال . لكنها رغما عن ذلك تساءلت بصوت خافت مشيرة الى مسكن المدرس :

– هل رحلوا ؟

– لقد رحل هو الى مكان ما ، بينما بقيت اسرته التى تذرف الدمع ايضا . هل لك ان تتناولى معى طعام الغـــذاء ؟ لقد اعددت حساء الكرنب الطازج ، ومع ذلك فليس هناك من يرغب فى تناوله .

كلا . . لقد كانت الجدة فيرا كعادتها ، ابية النفس ! وكانت قد ولدت فى اسرة نجار ريفى من محافظـــة بولتافا . وكان زوجها من كييف ، عاملا فى مصنع بوتيلوف ، استقر فى قريتها بعد عودتـــه

من الحرب العالمية الاولى مصابا بجروح خطيرة . وقد راحت الجدة فيرا تسلك طريقها الخاص ، على الرغم من كونهـــا متزوجة ، فاختيرت مندوبة عن قريتها ، وعملت بلجان فقراء الفلاحين التى تشكلت فى اوكرانيا فى الفترة ١٩٢٠-١٩٣٣ ، ثم التحقت بالعمل فى المستشفى . ولم ينل موت زوجها من عزيمتهـــا ، بل على العكس فقد حفز سمة الاستقلالية فى طابعها . وها هى الان تعيش على راتب تقاعدى بيد انها ما تزال قادرة اذا ما احتاج الامر ، على الافصاح عن قوة شكيمتها . وقد انخرطت الجدة فيرا فى صفوف الحزب الشيوعى منذ ما يقرب من اثنتى عشر سنة .

كانت يلينا نيكولايفنا ، والدة اوليج ، ترقد فى فراشها وقد دفنت راسها فى الوسادة ، مرتدية فستانها المنقوش المجعد ، عارية القدمين تغطى ضفيرتاها المحلولتان الكثتان ذهبيتا الشعر ، واللتان كانتا عادة ما تزينان راسها فى تسريحة كبيرة معقدة ، جسدهـــا الصغير الذى ينم عن جمال وقوة ، لتصلا حتى كعبيها .

ودلفت الجدة فيرا وماريا اندرييفنا الى الحجرة ، لترفع يلينـــا نيكولايفنا عن الوسادة الغارقة فى دموعها ، وجهها بارز العظام ، والذى ينم عن طيبة وذكاء ورقة ، منتفخة العينين ، ولتلقى بنفسها فى احضان ماريا اندرييفنا ، وقد ندت عنها صرخة . وراحتا تتعانقان وتتبادلان القبلات ، ثم اجهشتا بالبكاء ، الذى تحول الى ضحك . لقد كانتا سعيدتين لكونهما فى مثل هذه الايام العصيبة يستطيعان الابقاء على مثل هذه العلاقة فيما بينهما واقتسام عناء الكارثة التى حاقت بهم جميعا . راحتا تضحكان وتبكيان ، بينما وقفت الجدة فيرا وقد وضعت يديها المعروقتين على خصرها ، تهز راسها الاجعـــد الشبيه براس دانتى الليجيرى تردد القول :

– يالها من حماقة . . . تارة تبكيان واخرى تضحكان . عن الضحك ليس ثمة ما يضحك ، امـــا عن البكاء . . فسوف يكون لدينا متسع للبكاء .

وفى تلك اللحظة تعالت الى سمع النسوة من اتجاه الشارع ضجة غريبة آخذة فى التزايد ، وكانما هدير كثير من المحركات يرافقه نباح آخذ كذلك فى التنامى لكلاب المدينة التى غدت اشبه بالتى اصابها السعار .

وانفصلت كل من يلينا نيكولايفنا وماريا اندرييفنا عن الاخرى . بينما اسدلت الجدة فيرا يديها ، ليعلو الشحوب وجهها البرونزى . وقد وقفن على هذا النحو بضع لحظات ، دون ان تجرؤ احداهن على تفسير كنه تلك الضجة ، وان كن يعلمن سببها ، وفجاة رحن يهرولن تتقدمهن الجدة ، ثم ماريا اندرييفنا ، ثم يلينا نيكولايفنا ، نحو البستان ، ودون سابق اتفاق ، ووفق حاسة ادراك امثـل السبل ، تحاشين الجرى نحو البوابة مباشرة ، بل عبر فواصـــل الاحواض ، ونباتات عبـــاد الشمس وشجيرات الياسمين بمحاذاة السور .

وقد كان هدير كثير من محركات العربات يتعالى الى الاسماع من الجزء الاسفل للمدينة ، متزايدا من لحظـــة لاخرى . وكان صرير عجلاتها يترامى عند المزلقان الثانى الذى لم تكن تبلغه الانظار من هذا المكان . وفجاة ، ظهرت عند نهاية الشارع ، سيارة رمادية مكشوفة راحت تتهادى فى اتجاه النسوة اللواتى اختبئن فيما خلف شجيرات الياسمين ، يعكس زجاجها اشعة الشمس على نحو يعشى الابصار . وكان يجلس بالعربة عسكريون جامدو الوجوه ، صارمون فى زيهم الرمادى ، تغطى رؤوسهم كابات رمادية ارتفعت مقدماتها عالية .

وكانت هذه السيارة تتقدم عدة عربات ركوب اخرى ، انعطفت جميعها عند المزلقان نحو الشارع ، وبدات فى التوجه بطيئة الواحدة تلو الاخرى نحو الحديقة العامة .

وقد قامت يلينا نيكولايفنا دون ان تغض النظـــر الى هذه العربات ، وعلى حين غرة فى حركة محمومة بالامساك باصابعهـــا الصغيرة الغليظة بعض الشئ باحدى ضفيرتيها ، ثم بالاخرى ، ومكثت تلفهما حول راسها . وقد فعلت ذلك فى حركـــة سريعة وبصورة عفوية ، واذ فطنت الى عدم وجود دبابيس الشعر ، ظلت واقفـــة مكانها تنظر الى الشارع ، ممسكة بضفيرتيها فوق راسها بكلتـــا يديها .

اما ماريا اندرييفنا ، فقد اطلقت صرخة خافتة ، واندفعـــت خارجة من وراء شجيرات الياسمين حيث كانت ، عائدة نحو البيت ، وليس فى اتجاه بوابة السور المفضية الى الشارع . ودارت حول

البيت من تلك الناحية ، حيث يقطن المدرس ، لتخرج من البوابة الاخرى الى الشارع المقفر والموازى لمثيله الذى كان يتحرك فيه الالمان ، تقطعه مهرولة نحو بيتها . وهناك راحت تخاطب زوجها قائلة :

– معذرة ، حيث لم استطع تحذيرك . . فلتتشجع . . يجب عليك الاختفاء على الفور ! من المنتظر ان يجيئوا من لحظة لاخرى .

ووضعت يدها على صدرها لاهثة ، لكنها كانت كسائر كل الاصحاء تتصبب عرقا تعلو الحمرة وجهها ، بعد ذلك المشوار الذى قطعته جريا ، وغدا مظهرها المشوب بالقلق لا يتناسب وهول الفكرة التى كانت تعبر عنها .

– الالمان ؟

تساءلت ليوسيا بصوت خافت اتسمت نبراته بالرعب المشوب بالرصانة ، مما جعل ماريا اندرييفنا تتوقف عن الحديث فجاة ، ترنو نحو ابنتها وتجيل النظر فى ارتباك الى ما حولها . ثم تساءلت :

– اين فاليا ؟

وكان زوج ماريا اندرييفنا يقف فى مكانه صامتا وقد كسا الشحوب شفتيه .

وذكرت ليوسيا بصوت هادىء للغاية يتسم بالجدية :

– ساخبركما عن كل شىء ، حيث شاهدت كل ما جرى . لقد كانت تطالع كتابا بالحديقة ، حين قفز عبر السور الى الحديقة صبى ، بلغ سن الفتوة . وكانت راقدة مكانها ، فاستوت قاعدة ليتبادلا الحديث برهة ، ثم قفزت من مكانها ، ليتسلقا السور الى الخارج ويهرولان بعيدا .

وسالت ماريا اندرييفنا شاخصة بناظريها :

– يهرولان الى اين ؟

– نحو حديقة المدينة . . وتركت البطانية والوسادة والكتاب فى اماكنها . وظننتها سوف تعود بسرعة ، وخرجت فى انتظارها ، الا انها لم تعد ، فجمعت كل ما كان بالبستان لاعود به الى المنزل .

– يا الهى !

ندت عن ماريا اندرييفنا ، لتهوى الى الارض فى تثاقل .

الفصل السابع عشر

اما الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا فقد مكثتا فى مكانهما بين شجيرات الياسمين يواصلان النظر الى السيارات الضخمة العالية الطويلة التى راحت تهدر عند اعلى الشارع ، تزحف الواحدة تلو الاخرى ، يجلس على متنها الجنود الالمان صفوفا فى ستراتهم واغطية رؤوسهم الرمادية يتصببون عرقا ، سمر الوجوه ، يعلوهم الغبار ، وقد وضعوا اسلحتهم فيما بين سيقانهم . وراحت الكلاب تنبح فى كافة الافنية فى غضب ، وتندفع نحو السيارات ، تتقافز حولها فى غمرة الغبار احمر اللون .

وما كادت السيارات الامامية التى تحمل الضباط توازى بستان منزل آل كوشيفوى ، حتى دوى خلف المراتين نباح مسعور ، ليندفع الكلب الاسود طويل الشعر كما البرق الخاطف ، وسط عباد الشمس ، ويثب فوق السور المنخفض للبستان ليتراقص حول السيارة الاولى فى عواء غاضب ، يتعالى نباحه رنانا هادرا .

والتفتت المراتان تنظر كل منهما الى الاخرى فى ذعر . فقد بدا لهما ان ثمة امرا رهيبا وشيك الحدوث . الا ان شيئا لم يحدث . فقد تجاوزتهما العربة فى طريقها نحو حديقة المدينة ، لتتوقف عند مبنى مؤسسة «فحم كراسنودون» ، حيث وصلت فى اثرها سيارات الركوب الاخرى . وما لبثت السيارات التى تحمل الجنود ان ملات الشارع باسره . وراح الجنود يثبون من السيارات يحركون اذرعهم وسيقانهم التى تصلبت ، يملاون الارجاء بلهجتهم الحادة التى لم تالفها الاذن الروسية ، يتدفقون على الافنية والبساتين ، يدقون ابواب المساكن . واستقر الكلب الاسود اشعث الشعر عند البوابة حائرا يملأ ارجاء الشارع بنباحه .

ووقف الضباط الى جوار مبنى المؤسسة يدخنون ، بينما راح الجنود القائمون على خدمتهم ينقلون حقائبهم الى داخل المبنى . وقد وقف يشرف على هذه العملية ضابط قصير القامة مكترش رفع مقدم قبعته عاليا ، عاليا لدرجة ان راسه بدت من تحتها لا معنى لها . وهرول ضابط فى مقتبل العمر طويل الساقين بشكل غير طبيعى يرافقه جندى فارع القامة اهوج الحركة ، ينتعل حذاء ثقيلا ، تغطى

طاقيته شعره الاصفر الناصع ، يجتاز الشارع ليدخل ذلك المبنى الذى كان يقطنه بروتسينكو . وما هى الا دقيقة حتى خرج الضابط وكذلك الجندى من هناك لينعطفا نحو بوابة المبنى المجاور حيث كان يقطن العاملون فى لجنة الاقليم ، الا انهم غادروه برفقة سكانه منذ عدة ايام ، وغادر الضابط والجندى الحديقة ليتوجها نحو فناء منزل آل كوشيفوى .

واخيرا وقع نظر الكلب اشعث الشعر على عدو حقيقى يتحرك نحوه مباشرة فاندفع يثب على الضابط الشاب فيما يتعالى نباحه . وتوقف الضابط مباعدا بين ساقيه الطويلتين ، وقد بدت على وجهه امارات صبيانية ، يطلق الشتائم من بين اسنانه ، ثم اخرج مسدسه من جرابه واطلق الرصاص على الكلب . وارتمى الكلب بوجهه على الارض ليزحف قليلا فى اتجاه الضابط وهو يعوى ، ثم تمدد مكانه .

وذكرت الجدة فيرا :

— لقد قتلوا الكلب . . . فما عساهم يفعلون بعد ذلك ؟

والتفت الضباط عند مبنى المؤسسة ، والجنود الواقفون بالشارع ينظرون فى اتجاه مصدر الطلقة ، واذ ابصروا الكلب المقتول انصرف كل منهم الى ما كان يشغله . وتعالى صوت طلقات تدوى تارة هنا ، واخرى هناك . وكان الضابط برفقة الجندى فارع القامة ، قد فتح البوابة المفضية الى بيت ال كوشيفوى .

ومضت الجدة فيرا براسها الاشبه بدانتي الليجيرى الجامدة المستقيمة ، تستقبلهما ، بينما لزمت يلينا نيكولايفنا مكانها بين شجيرات الياسمين تمسك بكلتا يديها ضفيرتيها الصفراوتين الملفوفتين حول راسها .

واذ توقف الضابط طويل الساقين حيال الجدة التى وان كانت فارعة القامة ، فقد راح ينظر اليها من على بعينين باردتين لا لون لهما يسالها :

— من ذا الذى سوف يدلنا على مسكنكم ؟

وقد ذكر ذلك بلغة توقعها لغة روسية سليمة ، وتحول بنظره من الجدة الى يلينا نيكولايفنا فى مكانها بين شجيرات الياسمين وقد عقدت يديها حول راسها ، ثم عاد به ثانية ليستقر على الجدة .

وذكرت الجدة فى ارتباك وبصوت اجش :

— ماذا بك يالينا ؟ هيا دليه . . .

وتوجهت يلينا نيكولايفنا نحو البيت تشق طريقها فيما بين احواض النباتات ممسكة بيديها ضفيرتيها فوق راسها .

وتاملها الضابط فى دهشة بعض الوقت ، ليحول نظره من جديد فى اتجاه الجدة . وذكر وهو يرفع حاجبيه الناصعين ، يتسم وجهه الفتى المدلل بأمارات جموح وهوائية :

— هيه ؟

وانطلقت الجدة تهرول فى خطوات غير مالوفة نحو البيت ، ليتبعها الضابط ومرافقه .

وكانت شقة آل كوشيفوى تتكون من ثلاث غرف ومطبخ . وكان المطبخ يفضى مباشرة الى الغرفة الكبيرة التى كانت غرفة للطعام ، ذات نافذتين تطلان على الشارع المجاور والموازى لشارع سادوفايا . وفى هذه الغرفة كان يوجد سرير يلينا نيكولايفنا وكنبة كان اوليج يستخدمها عادة فراشا له . وفى الغرفة الواقعة على يسار غرفة الطعام كان يعيش نيكولاى نيكولايفيتش وزوجته وطفلهما . اما فى الغرفة الاخرى الى اليمين فقد كانت صغيرة للغاية ، تعيش بها الجدة . وقد كانت هذه الحجرة ذات جدار مشترك مع المطبخ والذى كان الموقد مستندا اليه . ولذا فقد كانت حرارة الغرفة تصبح على نحو لا يطاق ولا سيما صيفا ، حين يجرى اشعال الموقد . بيد ان الجدة شان كل عجائز القرى ، كانت تحب الدفء ، وحين كانت تشتد حرارة الغرفة كانت تفتح النافذة الصغيرة المطلة على الحديقة وحيث كانت تنبت تحتها شجيرات الليلاك .

ودخل الضابط الى المطبخ حيث تفقده على عجل ، ثم خرج وقد حنى راسه حتى لا يصطدم بأعلى الباب ، الى غرفة الطعام ، ليقف مجيلا النظر فيما حوله . ويبدو انها نالت اعجابه . فقد كانت نظيفة الجدران ، ناصعة البياض تغطى ارضيتها المدهونة حصر قماشية نظيفة يدوية الصنع ، تتوسطها مائدة يغطيها مفرش ناصع البياض ، اما سرير يلينا نيكولايفنا فقد كان مغطى بملاءة ناصعة البياض كذلك ، عليه وسادات صفت فوق بعضها على نحو مدرج يغطيها مفرش مطرز رقيق . وكانت اصص الزهور تزين النوافذ .

ودلف الضابط على عجل الى غرفة آل كوروستيليف وقد حنى

راسه عند الباب ايضا ، الا ان يلينا نيكولايفنا والتى لم تلحظ متى وكيف ثبتت ضفيرتيها ، فقد ظلت مكانها بغرفة الطعام مستندة الى عارضة الباب وقد مالت براسها المتوجة باكليل من الشعر الاشقر . اما الجدة فيرا فقد اقتفت اثر الالمانى .

وقد نالت اعجاب الضابط هذه الحجرة ايضا ، حيث استقر مكتب صغير عليه محبرة انيقة وادوات كتابية ، وادوات هندسية علقت فى مسمار بعارضة الباب الى جانب المكتب . وقال فى ارتياح :

— Schön ! *

وفجاة وقع نظره على الفراش غير المرتب ، حيث كانت ترقد يلينا نيكولايفنا لحظة دخول ماريا اندرييفنا ، فتقدم نحوه فى خطوة سريعة ورفع اللحاف والملاءة ، ثم تناول المخدة باصبعيه فى تقزز ، ثم مال بقامته يتشمم الهواء . وسال الجدة فيرا مقطب الجبين :

— الا يوجد بق ؟

واجابت الجدة وقد اجتهدت فى تكسير اللغة الروسية ، حتى يفهمها الالمانى وهى تومىء براسها علامة النفى فى غضب :

— لا . . لا يوجد بق !

وذكر الالمانى وقد مال بقامته ليجتاز الباب عائدا الى غرفة الطعام :

— Schön !

واكتفى بالقاء نظرة خاطفة الى حجرة الجدة ، ليلتفت فى حدة الى يلينا نيكولايفنا ، قائلا :

— هنا سوف يسكن الجنرال بارون فون فينتسيل . يجب اخلاء هاتين الغرفتين — واشار الى غرفة الطعام وغرفة آل كوروستيليف . مسموح لكما بسكنى هذه الغرفة — واشار الى غرفة الجدة . — ولكما ان تاخذا الان من هاتين الغرفتين ما يلزمكما . خذا هذا . . هذا . ولمس باصبعيه فى تقزز الملاءة ناصعة البياض واللحاف والمفرش على سرير يلينا نيكولايفنا . ومضى يقول :

— كما وينبغى اخلاء تلك الحجرة ايضا . . وبسرعة .

---

* تعنى بالالمانية — رائع .

وقفل خارجا من الغرفة الى جوار يلينا نيكولايفنا التى تراجعت متحاشية اياه .

وطفقت الجدة فيرا تقول بصوت جهورى :

— الا يوجد بق ؟ يالك من افاق ! او يكون هذا ما قدر للجدة فيرا ان تراه فى اخريات سنوات عمرها ! — ثم مضت تقول فى غضب :

— لينا . . . هل تسمرت مكانك ؟ او لم تسمعى بوجوب ترتيب كل شىء لاستقبال البارون ، الذى نتمنى ان تفقا عيناه ! فتمالكى نفسك يا عزيزتى ! ولعل من حسن حظنا ان يسكن عندنا بارون ، ربما يكون اقل عنجهية من الاخرين .

ومضت يلينا نيكولايفنا تنزع اغطية فراشها فى صمت ، ثم حملتها الى غرفة الجدة التى لزمتها ولم تبارحها . اما الجدة فيرا فقد نقلت السرير الكائن فى غرفة الابن وعروسته ونزعت صور ابنها وحفيدها من على الجدار لتودعها الخزانة (حتى لا يسالونها من هذا . . . ومن ذاك) وحملت الى غرفتها ملابسها وملابس ابنتها (حتى لا تمتد اليها اياديهم . . اولئك الذين نتمنى ان يصيبهم الطاعون) . بيد ان الفضول كان يقض مضاجعها ، فلم تستقر فى مكانها لتنطلق خارجة الى الفناء .

وقد ظهر عند بوابة السور ذلك الجندى فارع القامة ، مكتنز الوجه المغطى بالنمش يحمل فى كلتا يديه حقيبتين طويلتين عريضتين مسطحتين فى كيسيهما المصنوعين من الجلد . وقد سار فى اثره جندى آخر يحمل السلاح المتمثل فى ثلاث بنادق آلية ، ومسدسين ماوزر وسيفا فى جرابه الفضى ، وجنديان آخران يحمل احدهما حقيبة ، بينما كان الاخر يحمل جهاز راديو ثقيل وان كان غير كبير . ودلفوا جميعا الى داخل المنزل دون ان يعيروا الجدة اهتماما .

وبعد برهة اجتاز بوابة السور جنرال ، نحيف الجسد ، فارع القامة ينتعل حذاء مدببا لامعا لم يغطه الغبار الا قليلا ، تغطى راسه قبعة عسكرية ترتفع مقدمتها عالية ، يبدو وقد تقدم به السن ، تغطى الغضون وجهه ، نظيف الوجه والرقبة ، ليدخل الى البستان ، يرافقه على نحو يوحى بالاحترام ذلك الضابط طويل الساقين ، يسير فى اثره منكس الراس .

وكان الجنرال يرتدى سروالا رمادى اللون ذا شريطين مزدوجين ، وسترة ذات ازرار ذهبية لامعة وياقة سوداء منقوش عليها سعف ذهبى فوق قماش احمر . وقد بدا فى مشيته مرفوع الهامة الطويلة الضيقة ، يغطى الشيب فوديه ، يتمتم ببعض الكلمات . اما الضابط الذى كان يتخلف عنه قليلا فقد كان يسير منكس الراس ، مصغيا لكل كلمة يقولها .

واذ دلف الجنرال الى البستان ، توقف يجيل النظر فيما حوله ، يدير فى تثاقل راسه المرتكزة على عنق طويل تشوبه الحمرة مما بدا معه اشبه بالاوزة ، ولا سيما ان مقدمة قبعته كانت طويلة مرتفعة بشدة الى اعلى . وفرغ الجنرال من تفقد ما حوله ، الا ان وجهه الجامد لم يعكس شيئا عن انطباعاته . ثم اشار بيده ذات الرسغ الصغير واصابعه الجافة فى حركة سريعة ، وكانما يصدر حكمه على كل ما وقعت عليه عيناه ، وتمتم ببعض الكلمات . واحنى الضابط راسه على نحو اكثر احتراما .

ودلف الجنرال الى داخل المنزل وقد نكس راسه حتى لا يصطدم باعلى الباب ، تنبعث منه رائحة عطر غريب شملت الجدة فيرا ، التى تعلقت بها لحظة من الزمن عيناه عديمتا اللون واللتان ادركهما التعب . واشار الضابط طويل الساقين الى الجنود الذين اصطفوا عند مدخل المنزل بعدم مغادرة المكان ، ثم دخل فى اثر الجنرال . اما الجدة فقد ظلت مكانها بالفناء .

وبعد بضع دقائق خرج الضابط ليصدر امرا مقتضبا مشيرا بيده الى البستان فى حركة دائرية ، مكررا بذلك نفس اشارة الجنرال . واذ استدار الجنود على اعقابهم فى حركة عسكرية ، انطلقوا يغادرون البستان كل فى اثر الاخر ، اما الضابط فقد عاد ادراجه الى المنزل .

مالت نباتات عباد الشمس بزهورها الذهبية نحو الغرب ، لتمتد ظلالها طويلة تغطى الاحواض . وترامت الى الاسماع من ناحية الشارع فيما وراء شجيرات الياسمين اصوات ضحكان ولهجة غريبة ، بينما كانت محركات السيارات ما تزال تهدر عند المزلقان الى اليمين ، الى جانب اصوات طلقات تارة هنا ، واخرى هناك ، وعواء كلاب وقوقاة دجاج .

وظهر عند بوابة السور جنديان من اولئك الذين شاهدتهم الجدة

فيرا فيما قبل ، يحملان فى يديهما ساطورين . ولم تكد الجدة تفكر فى جدوى هذين الساطورين حتى شاهدتهما كل فى ناحية ، يشرعان فى ازالة شجيرات الياسمين المزروعة على طول السور . ولم تتمالك الجدة نفسها فاندفعت نحوهما ، ممسكة باطراف جونلتها :

– ماذا تفعلان . . . وفيم تضايقكما هذه الشجيرات ؟

ومضت تسألهما فى غضب ، بينما تركض من احدهما فى اتجاه الاخر ، تبذل فائق الجهد كى تتمالك نفسها ، فلا تتشبث بشعرهما :

– انها ازهار ، وازهار جميلة ، فاية مضايقات تسببها لكم ؟

وصار الجنديان ، دون ان يرفعا ناظريهما نحو الجدة ، يواصلان فى صمت ، وهما ينشقان ، قطع الشجيرات . ثم خاطب احدهما زميله ببضع كلمات لينفجر كلاهما ضاحكا . وذكرت الجدة فى احتقار :

– ويتجاسران ايضا على الضحك !

وانتصب الجندى ومسح بكمه العرق الذى تصبب على جبهته ، ونظر الى الجدة مبتسما يقول لها بالالمانية :

– انه امر صادر من اعلى . ضرورة عسكرية . فلتنظرى . انهم يفعلون ذلك فى كل مكان .

واشار بساطوره الى البستان المجاور .

ولم تفهم الجدة ما تفوه به ، لكنها نظرت فى الاتجاه الذى اشار اليه بساطوره لتجد الجنود الالمان يقطعون الاشجار والشجيرات فى كل البساتين المجاورة .

وحاول الجندى الالمانى تفسير ما قاله ، فجلس فيما وراء الشجيرات ومد سبابته القذرة ذات الظفر السميك قائلا :

فدائيين . . . بم . . . بم !

واصاب الانهاك الجدة فجاة ، فاشاحت بيدها وابتعدت عن الجنديين لتجلس امام المنزل .

وعند البوابة ظهر جندى يغطى راسه بطاقية الطباخين ، يرتدى معطفا ابيض يبدو من تحته سرواله الرمادى وحذاؤه الغليظ ذو النعل الخشبى . كان يحمل فى احدى يديه سلة كبيرة مستديرة تتعالى منها صوت ارتطام اوانى ، بينما يمسك بالاخرى قدرا كبيرا من الالومنيوم . وكان يسير فى اثره جندى فى سترته الرمادية التى علقت

بها اثار دهون يحمل اناء كبيرا ممتلئا بشيء ما . وتجاوزا الجدة فى اتجاه المطبخ .

وفجأة تعالت من داخل المنزل ، وكانما من العالم الآخر ، اصوات مقطوعات موسيقية ، وقرقعة ، وازيز ، وكلمات بالالمانية تبعها ثانية ازيز وقرقعة وموسيقى .

قام الجنود بازالة كل نباتات البساتين فى الشارع . وسرعان ما ظهر الشارع واضحا للعيان فى المنطقة الواقعة بين المزلقان وحتى الحديقة العامة ، والتى بدت زاخرة بالجنود الالمان يذرعونها على متن موتوسيكلاتهم .

وفجأة تعالت اصوات موسيقى رقيقة بعيدة من تلك الغرفة التى كانت الجدة تجلس بجوارها . وقد كانت ثمة حياة هادئة تجرى بعيدا . . . بعيدا عن كراسنودون ، لا يربطها رابط مع ذلك الذى يجرى اليوم هنا . لقد كانت هذه الموسيقى قد كتبت لاولئك الذين يعيشون بعيدين عن الحرب ، وعن هؤلاء الجنود الذين يذرعون الشوارع ويزيلون الاشجار ، وبعيدين عن الجدة فيرا كذلك . ومن المؤكد ان هذه الحياة كانت بعيدة وغريبة عن هؤلاء الذين يزيلون الاشجار فى البساتين لانهم لم يرفعوا هاماتهم ولم يكفوا عن العمل ولم ينصتوا السمع ، ولم يتبادلوا كلمة واحدة حول هذه الموسيقى .

ولقد قام الجنديان بازالة كل الاشجار والنباتات حتى نافذة غرفة الجدة فيرا ، حيث جلست يلينا نيكولايفا فى صمت ، ثم شرعا فى اجتثاث نباتات عباد الشمس التى مالت بزهورها الذهبية نحو الغرب . وحين فرغا من اجتثاث نباتات عباد الشمس غدا كل ما حول المنزل واضحا ، بحيث لن يعثر الفدائيون على مكان يطلقون منه ... بم . . . بم !

الفصل الثامن عشر

تفرق الجنود والضباط الالمان من مختلف انواع وصنوف الأسلحة ، فى الليلة الماضية فى جميع احياء المدينة ، عدا حى

شانغهاى الكبير وشانغهاى الصغير ، وكذلك حى «جولوبياتنيكى» النائى وشارع ديريفيانايا حيث كانت تقطن فاليا بورتس .

وبدت المدينة التى اقفرت شوارعها من سكانها الأصليين وقد غصّت بذوى الأزياء رمادية اللون المشوب بالقذارة ، والكابات والقبعات من ذات اللون والتى يعلوها النسر الالمانى الفضى . وراحت الأزياء الرمادية تنتشر من الافنية والمنازل والحدائق ، وعند أبواب المخازن والمستودعات والمنازل .

وقد كان الشارع الذى تقطنه اسرتا اوسموخين وزيمنوخوف من أول الشوارع التى وصلها المشاة على متن عرباتهم . وهو شارع عريض بما يكفى لايواء تلك العربات ، الا أن الجنود وتنفيذا لأوامر قادتهم قاموا بتحطيم اسوار البساتين المنخفضة لافساح الطريق امام العربات للمرور بحرية الى الأفنية للاختباء بجوار المنازل وبنايات المخازن الملحقة بها خوفا من ان تكون مثار اهتمام الطيران السوفييتى .

وتحركت الى الخلف العربة الطويلة العالية التى غادرها الجنود ، تهدر محركاتها ، وتحطم اطاراتها الثنائية الضخمة سور بستان بيت آل اوسموخين . وتعالى صوت الارتطام ، وتهاوى السور ، لتتهادى العربة فى فناء آل اوسموخين الى جوار جدار البيت وقد داست الزهور وأحواض النباتات ، بينما ملأت الفضاء بغازاتها العادمة وضجيجها .

وتقدم عريف ، تعلوه السمرة ، أسود الشارب ، أجعد الشعر اسوده ، يغطى فوديه وقفاه تحت كابه الذى مال فوق جبهته ، يدفع الباب بقدمه لينفتح على مصراعيه وليجد نفسه فى ردهة مسكن آل اوسموخين ترافقه مجموعة من الجنود .

وكانت يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا تجلسان متجاورتين على فراش فولوديا ، تشبه كل منهما الأخرى ، وقد فردتا قوامهما على نحو غير طبيعى . وكان فولوديا يرقد فى فراشه يعتريه القلق ، وان كان يحاول الا يبدى ذلك فى حضرة ذويه ، تغطى الملاءة كل جسده وحتى ذقنه ، يحدق النظر فى تجهم بعينيه الكستنائيتين الضيقتين . بيد أنه وحين تعالى ذلك الضجيج فى مدخل المنزل ، لتبدو تلك الوجوه القذرة التى يتصبب العرق منها ، وجوه العريف وجنوده ، فى الردهة التى كان بابها مفتوحا ، نهضت يليزافيتا

الكسييفنا فى حدة من مكانها ، وخرجت منتصبة القوام لملاقـــاة الألمان تكسو وجهها تلك السمة الحاسمة التى تميزها .

وذكر العريف وهو يضحك فى مرح ، فى صراحة تتسم بالوقاحة ، متاملا وجه يليزافيتا الكسييفنا فى مودة :

– هذا رائع جدا – قالها بروسيـــة ركيكة – سوف يعيش جنودنا فى ذلك المكان . . . ليس اكثر من ليلتين او ثلاث . – وذكر بالالمانية : Nur zwei oder drei Nächte ، رائع جدا .

وكان الجنود يقفون الى الخلف منه فى صمت ، ودون أن تند عن احدهم ابتسامة ، مكثوا يتاملون يليزافيتا الكسييفنا ، التـــى فتحت باب الغرفة ، حيث كانت يعيش هى وليوسيـــا . كانت قد قررت قبل وصول الألمان الانتقال الى غرفة فولوديا ليعيشـــوا جميعا سوية ، اذا ما تم احتلال البيت . بيد ان العريف لم يدخل تلك الغرفة ، بل ولم ينظر اليها ، حيث اخذ ينظر عبر الباب المفتوح الى ليوسيا التى جلست الى جوار شقيقها جامدة لا تبدى حراكا .

– اوهوه – صاح العريف وهو يبتسم الى ليوسيا مشيرا الى مقدمة كابه محييا اياها ؛ ثم اشار باصبعه الأسود نحو فولوديا فى وقاحة :

– أهو شقيقك ؟ هل هو جريح ؟

وهبت لوسيا تجيبه :

– كلا . . . انه مريض .

وذكر العريف ضاحكا ملتفتا نحو الجنود الذين كانوا فى اماكنهم بالردهة لا تند عنهم الابتسامة :

– انها تتحدث الألمانية ! هل تريدين اخفاء كون شقيقك جنديا احمر او فدائيا ، وانه جريح . غير اننا نستطيع دائما التاكد من ذلك .

وقد ارتسمت الابتسامة على وجه العريف الذى راح يداعـــب ليوسيا بعينيه اللامعتين السوداوين .

واجابته ليوسيا فى اضطراب :

– كلا . . . كلا ! انه تلميذ لم يتعد عمره السابعة عشرة . انه يلازم الفراش بعد عملية جراحية أجريت له .

– لا تخافى فلن نمس شقيقك بسوء .

ثم ابتسم اليها محييا اياها باشارة الى مقدمة كابه . والتفت يلقى بنظره على الغرفة التى اشارت يليزافيتا الكسييفنا اليها .

– حسنا جدا .

ثم سأل يليزافيتا الكسييفنا :

– الى اين يفضى هذا الباب ؟

ودفعه قبل أن تند عنها اجابة على سؤاله ، ليجد انه يفضى الى المطبخ .

وذكر وهو يبتسم فى مودة ، وبصراحة تتسم بالغباء :

– عظيم ! فلتوقدى الفرن . هل لديكم دجـــاج ؟ بيض . . . بيض .

وقد كان من المدهش انه ذكر ما كان محور النكات حول الألمان طوال اشهر الحرب ، وما كان يمكن أن يسمعه المرء من شاهدى العيان او يطالعه على صفحات الجرائد فى تحقيقات المراسلين او تعليقات راسمى الكاريكاتور . ومع ذلك فقد كان هذا هو ما ذكره بالتحديد .

– فريدريك . . . فلتهتم باعداد المائدة !

قالها ودلف فى صحبة الجنود الى الغرفة التى اشارت اليهـــا يليزافيتا الكسييفنا ، لتدوى ضحكاتهم واحاديثهم فى كل أرجـــاء البيت .

وهمست ليوسيا :

– ماما . . . هل فهمت ؟ انهم يريدون دجاجا ، كما ويودون اشعال الموقد .

وردت الأم دون أن تغير من وقفتها وفى هدوء يفوق الحد :

– لقد فهمت كل شىء !

وخرج من الغرفة جندى متوسط العمر ، يبرز فكه الأسفل بشكل غير طبيعى ، وقد بدا من تحت طاقيته ندب بلغ حاجبه .

وتساءلت يليزافيتا الكسييفنا :

– هل تكون انت فريدريك ؟

وذكر الجندى فى تجهم :

– فريدريك ؟ نعم . . . انا فريدريك !

– هيا بنا ، لتساعدنى فى حمل الحطب . أما البيض فسوف احضره بنفسى .

وتساءل ، حيث لم يفهم شيئا :

– ماذا ؟

بيد أنها اشارت له بيدها وخرجت الى المدخل . وتبعها الجندى . وذكر فولوديا دون ان يرفع ناظريه الى ليوسيا :

– آه . . . اغلقى الباب .

واغلقت ليوسيا الباب ، ظنا منها ان شقيقها يود ان يدلى اليها بشىء . بيد أنها وجدته ، حين عادت الى فراشه ، يرقد مغمض العينين فى صمت . وفى تلك اللحظة ظهر عند الباب ، ودون ان يطرقه ذلك العريف عارى الصدر يغطيه الشعر ، ويعلوه السواد ممسكا فى يده بصبانة بينما تدلت على كتفه منشفة ، متسائلا :

– اين الحوض ؟

واجابته ليوسيا :

– ليس لدينا حوض ، اننا نستخدم كوزا نصب منه كل للآخر ، فى الفناء .

– يالها من بربرية !

ونظر العريف الى ليوسيا فى مرح مباعدا بين ساقية فى حذائه ذى النعل السميك والذى علاه الاصفرار .

– ما اسمك ؟

– ليودميلا !

– ماذا ؟

– ليودميلا .

– لست افهمك . . . ليو . . . ليو

– ليودميلا .

– أوه Luise – لويزا – صاح العريف فى ارتياح ، ثم مضى يتساءل فى تقزز :

– كيف لك ان تتحدثى الالمانية ، وتغتسلين من كوز . – هذا سىء جدا .

ولم ترد ليوسيا .

وصاح العريف :

– وكيف تفعلون شتاء ؟ ها ها ! يا لها من بربرية ! فلتصبى على اى حال !

ونهضت ليوسيا لتخطو نحو الباب ، الا انه مكث واقفا عند الباب ، مباعدا بين ساقيه ، اسود الشعر ، يحدق النظر مبتسما الى ليوسيا فى صراحة متناهية .

وتوقفت امامه منكسة الراس وقد اعتراها الخجل .

– ها . . . ها .

ولبث العريف واقفا برهة من الزمن ثم افسح لها الطريق .

وخرجا الى مدخل البيت .

وقد رقد فولوديا الذى كان يفهم حديثهما ، فى فراشه ، مغمض العينين ، يشعر بنبضات قلبه القوية تتردد فى كل اعماقه . آه . . . لو لم يكن مريضا ، لكان قد خرج يصب للعريف الماء بدلا من ليوسيا . لقد كان خبلا من مهانة ذلك الوضع الذى يعيش واسرته فيه اليوم ، يرقد فى فراشه وقد علا وجيب قلبه ، مغمضا عينيه حتى لا يفضح مشاعره .

لقد تعالى الى سمعه دبيب خطوات الجنود الالمان فى احذيتهم الثقيلة التى تنتشر المسامير فى نعالها ، يذرعون الردهة ذهابا الى الفناء وايابا منه . وقد سمع الأم تتحدث بصوتها الحاد فى المدخل . ثم تدخل الى المطبخ لتعود ثانية الى المدخل ، يتعالى وقع خطواتها . ودخلت ليوسيا الى الغرفة لتغلق الباب خلفها ، فقد حلت الأم محلها . وسرعان ما راحت تهمس الى شقيقها :

– فولوديا ! يا له من امر رهيب ! لقد حطموا الاسوار فى كل مكان وداسوا الزهور ، وغصت الافنية بالجنود الذين راحوا ينظفون ملابسهم من القمل . وها هم يقفون كما ولدتهم امهاتهم يصبون بالدلو المياه كل على الآخر . لقد كاد الغثيان يصيب امنا .

وكان فولوديا يرقد مغمض العينين فى صمت .

وفى الفناء تعالى صياح احدى الدجاجات .

وذكرت ليوسيا فجأة بنبرة تتسم بالسخرية :

– انه فريدريك يذبح دجاجنا !

ودلف العريف الى الغرفة مرورا بالردهة حيث تعالى نخيره

واصوات اخرى متقطعة ، من المؤكد أنه كان يستخدم المنشفة فى مسح ما علق بجسمه من مياه . وبعد برهة من الوقت تعالى صوته الجهورى الذى ينم عن قوة وحب للحياة . لقد ذكرت له يليزافيتا الكسييفنا شينا ، لتعود بعد قليل الى غرفة فولوديا تحمل اغطيـــة فراش ملفوفة وضعتها فى زاوية الغرفة .

ونفذت حتى عبر الباب المغلق ، رائحة شواء ترامت من المطبخ . كما وتحولت الشقة الى مكان عام يشهد قدوم البعض ورحيل البعض الآخر . وتعالت الضحكات واللهجة الألمانية فى المطبخ والفناء ، وفى الغرفة التى كان يقيم بها العريف وجنوده .

وكانت ليوسيا ، التى تتميز بموهبة خاصة ازاء معرفـــة اللغات ، قد انكبت طوال سنة الحرب . وبعد تخرجها من المدرسة على دراسة اللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية ، اذ كانت تحلم بالالتحاق بمعهد اللغات الأجنبية فى موسكو حتى تتمكن فيما بعد من الالتحاق بالسلك الدبلوماسى . كما واضحت على الرغم منها تسمع وتفهم كثيرا من احاديث الجنود التى تتخللها النكات والكلمـــات النابية .

– آه . . . يا صديقى آدم . . . عظيم . ماذا تحمل يا آدم !

– دهن خنزير اوكرانى . اننى اود مشاطرتك اياه !

– رائع . هل لديك كونياك ؟ كـــلا ؟ فلنشرب اذن ، الفودكا الروسية ، عليك اللعنة – وقد قالها بالالمانية !hol's der Teufel

– سمعنا أن هناك عجوزا فى نهاية الشارع يملك عسلا .

– سوف أرسل هانسن . يجب اغتنام هذه الفرصة ، فمن ذا الذى يعلم كم من الزمن سوف نقضى هنا ، وما سوف يحل بنـــا مستقبلا .

– وماذا سوف يحل بنا مستقبلا ؟ فى انتظارنا الدون وكوبان ؛ وربما الفولجا . واوكد لك أن الحال هناك لن يكون اسوا مـــن هنا .

– اننا هنا أحياء على اقل تقدير !

– عليها اللعنة ، مناطق المناجم هذه ! ففيها الرياح والغبار او القاذورات ، وفيها ينظر كل امرىء اليك وكانك ذئب تواجهه .

– واين رايتهم ينظرون اليك فى حنان ؟ ولماذا تظن انك تجلب اليهم السعادة ؟ ها . . . ها .

ودلف الى الردهة انسان راح يقول بصوت مخنث :

– هايل هتلر !

– اتفو . . . ياللشيطان ، انه بيتر فينبونج ! هايل هتلر ! آه verdammt noch mal – عليك اللعنة ، اننا لم نرك بعد فى مثل هذا الزى الاسود ! هيا . . . ارنا نفسك . فلتنظروا ايها الأخوة . . . بيتر فينبونج ! ياله من أمر . . . اننا لم نلتق منذ كنا عـــلى الحدود .

وعلا ذلك الصوت المخنث يقول فى سخرية :

– قد يظن المرء انكم تحرقتم شوقا لرؤيتى !

– بيتر فينبونج ! اية رياح حملتك الينا ؟

– فلتسأل من الأفضل ، الى اين ؟ لقد صدر لنا الأمر باحتلال هذه الحفرة .

– ما هى تلك الميدالية المعلقة على صدرك ؟

– اننى الآن روتينفوهرر !

– اوهوه . . . ليس عبثا ان تصبح بدينا الى هذا الحد . من المؤكد ان الغذاء فى وحدات «اس . اس .» افضل كثيرا .

– بيد انه من المؤكد ما يزال كما فى الماضى ، ينام مرتديا زيه العسكرى ، ولا يغتسل ، مما يبدو واضحا من رائحته .

وعلا الصوت المخنث يقول :

– لا تمزح هكذا ابدا ، حتى لا تندم فيما بعد .

– معذرة يا عزيزى بيتر . اولسنا اصدقاء قدامى ؟ وماذا يتبقى للجندى ، اذا ما خطر عليه المزاح ! كيف وصلت الينا ؟

– اننى ابحث عن شقة .

– أوتبحث أنت عن شقة ؟ انكم دائما تحظون بافضـــل المساكن .

– لقد قمنا باحتلال المستشفى ، ذلك المبنى الضخم . بيد اننى فى حاجة الى شقة .

– اننا سبعة فى هذا المسكن .

– هذا ما اراه – كما فى علبة السردين .

– نعم ، انك تسير نحو المجد . ومع ذلك ، عليك الا تنسى رفاقك القدامى . فلتزرنا طالما نحن هنا .

وتمتم الرجل ذو الصوت المخنث ببعض الكلمات ، انفجر فى اثرها الحاضرون ضاحكين . وخرج يجرجر قدميه فى تثاقل .

– يا له من انسان غريب الأطوار هذا البيتر فينبونج !

– غريب الأطوار ؟ انه يبحث عن المجد ، وهو محق فى ذلك .

– اورايته مرة واحدة فى حياتك ، ولن اقول عاريا ، بل فى ملابسه الداخلية ؟ انه لا يغتسل ابدا .

– اننى اشك فى اصابته بمرض جلدى ، يخجل ان يراه احد فريدريك ، الم يحن الوقت بعد ؟

واجاب فريدريك فى تجهم :

– اننى فى حاجة الى ورقة غار لاضافتها الى الطعام .

– او تظن ان النهاية قريبة ، وتود ان تنسج لنفسك اكليلا من الغار ؟

وذكر فريدريك فى كآبة :

– لن تكون هناك نهاية ، لاننا نقاتل العالم باسره .

وكانت يليزافيتا الكسييفنا تجلس الى جوار النافذة متكئة بمرفقها الى اسفل النافذة مستغرقة فى التفكير ، تتراءى امامها ارض فسيحة قفرة تغمرها اشعة الشمس المائلة نحو الغروب . وعند اطراف تلك المساحة كان يبدو مبنيان من الآجر منعزلان عن بعضهما البعض ، احدهما – مدرسة فوروشيلوف ، والآخر ، ويصغر المبنى الأول – مستشفى الأطفال . وكان المبنيان خاليين ، حيث جرى اخلاؤهما . وفجأة نادت يليزافيتا الكسييفنا وهى تستند بفودها الى زجاج النافذة :

– ليوسيا . . . فلتنظرى ، ما هذا ؟

وهرولت ليوسيا نحو النافذة . كان رتل من الناس يقطع الطريق عبر تلك الارض الفضاء ، على مقربة من هذين المبنيين . ولم تدرك ليوسيا فى البداية من يكونون اولئك الناس . رجال ونساء فى ملابس داكنة اللون ، عاريو الرؤوس يتقدمون فى عناء ، بينما يتوكأ آخرون على عكاكيز وكذلك مجموعة ثالثة تسير بالكاد ، ومع ذلك تحمل على النقالات بعض المرضى او الجرحى . وكانت

النسوة يغطين رؤوسهن بمناديل بيضاء ويرتدين معاطف بيضاء ، وكذلك المواطنون والمواطنات فى ملابسهم العادية يسيرون محملين بالصرر الثقيلة على اكتافهم . وكان ذلك الرتل البشرى يمتد من تلك الناحية من المدينة التى لم تكن من الممكن رؤيتها من النافذة . وقد راح هؤلاء يتجمعون أمام المدخل الرئيسى لمستشفى الأطفال ، حيث كانت امرأتان فى معطفيهما الأبيضين تحاولان فتح الباب . وذكرت ليوسيا وهى تلتفت الى شقيقها :

– انهم مرضى مستشفى المدينة . لا ريب انهم طردوا من هناك . هل تسمعنى ؟ هل فهمت ؟

واجاب فولوديا بنبرة تعكس ما يجيش بنفسه من اضطراب :

– نعم . . . نعم ، سمعتك . لقد فكرت على الفور فى ماذا سوف يحل بالجرحى ؟ لقد كنت ارقد بينهم فيما قبل . ان ثمة جرحى كانوا يرقدون هناك .

ومكثت ليوسيا ويليزافيتا الكسييفنا تراقبان لبعض الوقت عملية انتقال المرضى ، وتهمسان بما تشاهدانه الى فولوديا ، حتى شغلهما عن ذلك ضجيج الجنود الألمان . فقد تجمع فى غرفة العريف ، وحسبما تدل الأصوات على ذلك ، ما لا يقل عن عشرة او اثنى عشر شخصا . وعلى اى حال ، فقد كان البعض يخرج ، ليدخل البعض الآخر . وقد بدأوا فى تناول طعامهم اعتبارا من السابعة ، وها هو الظلام يسدل ستائره بينما هم ما يزالوا ياكلون ، كما وما يزالوا يشوون شيئا فى المطبخ . وكان يتعالى بالردهة وقع اقدام الجنود ، يذرعونها فى احذيتهم الثقيلة ذهابا وايابا . ومن غرفة العريف ترامت الى الاسماع اصوات قرقعة كئوس وانخاب وضحكات . وكانت احاديثهم تحتدم تارة ، وتخف اخرى حين يظهر طبق جديد ، كما وبدأت اصواتهم تتخذ نبرات السكارى .

وكان الجو خانقا فى الحجرة التى يقيم بها اهل البيت ، حيث ترامت الحرارة والدخان من المطبخ ، ومع ذلك فلم يتجاسروا على فتح النافذة . علاوة على انهم واستنادا الى اتفاق بلغوه صمتا ، فلم يضيئوا المصباح على الرغم من ان الظلمة قد تسللت الى الغرفة .

كان ظلام احدى ليالى يوليو يسدل ستائره ، بينما ظلوا جالسين

فى اماكنهم دون ان يهيئوا اماكن نومهم ، او يتجاسروا على ذلك . ولم يكن ثمة ما يمكن تمييزه عبر النافذة فى تلك الأرض الخلاء ، ولم يكن باديا سوى قمة التل الطويل داكنة اللون على اليمين ، بما عليها من مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة ، ومبنى «النبيل المسعور» فيما تبدو السماء من خلفها ناصعة بعض الشىء .

وراح الجالسون فى غرفة العريف يترنمون بالأغانى ، على نحو يدل على أنهم ليسوا مجرد سكارى ، بل المان سكارى . . . أصوات خافتة غاية فى التشابه ، تتسم بتوتر بالغ ، مبحوحة ، حيث كانوا يودون الغناء بصوت منخفض وعال فى آن واحد . وقد تعالت ثانية قرقعة الكئوس ، ثم الأغانى ، ليعودوا الى تناول الطعام ، وليسود الهدوء فى تلك اللحظات .

وفجأة ترامى الى الاسماع وقع احذية ثقيل بالردهة ، يدنو من باب غرفة أصحاب المسكن ، حيث توقف ذلك القادم يتنصت السمع فيما وراء الباب .

وتعالى صوت اصبع يطرق الباب بقوة . واشارت يليزافيتا الكسييفنا بعدم فتح الباب وكأنهم قد لزموا مخادعهم . وتعالى الصوت من جديد ، ثم راح الطارق بعد بضع ثوانى يقرع الباب بقبضة يده بقوة ، لينفتح الباب على مصراعيه ، وتبدو منه رأس العريف السمراء الذى تساءل بالروسية :

– من هنا ؟ يا صاحبة البيت !

ونهضت يليزافيتا الكسييفنا من مقعدها متوجهة نحو الباب ؛ وتساءلت بصوت خافت :

– ماذا تريد ؟

واجاب :

– اننى وجنودى نطلب منكم ان تتناولوا معنا قليلا من الطعام . انت ولويزا . قليلا . وكذلك الصبى ! يمكنكما ان تحضراه معكما . قليلا .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا :

– لقد تناولنا طعامنا ، ولا نريد الاكل .

– اين لويزا ؟

تساءل العريف ، دون ان يفهم ما قيل ، بينما يمضغ بقية

طعام ، تفوح منه رائحة الفودكا . ثم قال وتعلو الابتسامة وجهه :

– لويزا . . . اننى اراك . اننى وجنودى نطلب منك ان تتناولى معنا قليلا من الطعام . . . ومن الشراب ، ان لم يكن لديك اعتراض .

وذكرت ليوسيا :

– ان شقيقى فى حالة غير طيبة ، ولست بقادرة على تركه وحيدا .

– لعلكم تريدون رفع الأوانى عن المائدة ؟ هيا بنا ، اننى سوف اساعدكم . . . هيا !

واذ امسكت يليزافيتا الكسييفنا بكم العريف ، خرجت معه الى الردهة ، مغلقة الباب خلفها .

كان الدخان الخانق الأزرق المشوب بالصفرة يملأ كل ارجاء المطبخ والردهة والغرفة ، حيث اقيمت الوليمة . وفى خضم ذلك الدخان كانت تتراقص اشعة صفراء لأضواء تنبعث من مصابيح مستديرة صنعت من علب صفيحية مملوءة بالدهن والشحوم ، لتبدو وكانما فى طريقها الى الزوال . وكانت هذه القناديل البدائية موضوعة على المائدة ، وأسفل النافذة فى المطبخ ، وكذلك فى أعلى المشجب المعلق بالردهة ، وعلى المائدة فى الغرفة التى غصت بالجنود الألمان وحيث دخلت يليزافيتا الكسييفنا برفقة العريف .

كان الألمان قد جلسوا حول المائدة التى وضعت قريبا من السرير كانوا يجلسون متلاصقين على السرير وعلى المقاعد ، والكراسى ، بينما اتخذ فريدريك عبوس الوجه ، مكانه فوق كتلة الخشب التى يجرى عليها عادة تكسير الحطب . وكانت هناك على المائدة بضع زجاجات من الفودكا ، وكثير من الزجاجات الفارغة التى استقرت ايضا تحت المائدة وفى اسفل النافذة . كما وكانت المائدة تغص بالأطباق الفارغة وعظام ضأن ودجاج ، وبقية خضروات وفتات خبز .

وكان الألمان قد خلعوا ستراتهم ، ليبدون فى قمصانهم غير النظيفة ، مفتوحة الياقات ، تفوح منهم رائحة العرق ، ويكسو الشعر اجسادهم ، فيما كانت سواعدهم حتى المرافق ملوثة بالدهون .

وزار العريف :

– فريدريك ! لماذا تجلس هكذا ؟ او لا تعرف كيف من الواجب احاطة امهات الحسان بالرعاية والاهتمام ! وانفجر ضاحكا على نحو اكثر بذاءة ومرحا مما كان يفعل قبل ان يغدو مخمورا ، ليضحك كل من بالغرفة .

واذ راود يليزافيتا الكسييفنا شعور بانهم يضحكون سخرية منها ، وتوقعت ان يكون العريف قد تفوه بما هو اسوأ مما قاله ، شرعت فى صمت تجمع بقايا الطعام من على المائدة فى اناء فارغ قذر وقد علت امارات الغضب والشحوب وجهها .

وتساءل جندى شارب تعلو الحمرة وجهه ، وتلعب الخمر براسه ، فيما تناول على نحو اخرق زجاجة الفودكا من على المائدة ، وشرع يجول بناظرية بحثا عن كوب فارغ ، ليملأ فى نهاية الأمر كوبه :

– أين ابنتك لويزا ؟ فلتشربى معنا . ولتدعيها الى هنا ! ان الجنود الالمان يطلبونها . يقال انها تعرف الالمانية . فلتعلمنا الاغانى الروسية .

ولوح بيده التى كانت تمسك بزجاجة الفودكا ، ثم بدأ يغنى بصوت عريض وقد جحظت عيناه :

فولجا ... فولجا ، يا أمنا الحبيبة
فولجا ... فولجا ، يا نهرنا الروسى ...

ونهض من مكانه وهو يشير كالمايسترو بالزجاجة التى سالت منها الفودكا على الجنود والمائدة والسرير . وقهقه العريف الأسمر ، ثم شرع بدوره فى الغناء ، يحذو حذوه كل الباقين فى اصوات كريهة .

وصاح المانى بدين ، مبلل الحاجبين محاولا ان يسود صوته اصوات الآخرين :

– اننا سوف نصل الفولجا . فولجا ... فولجا ، يا نهرنا الالمانى ! Deutschlands Fluss هكذا يجب الغناء !

ودفع الى المائدة بشوكة فى يده بقوة وعلى نحو يود ان يكون

اشارة لتاكيد كلماته والافصاح عن ذاته ، مما جعل أسنانها تلتوى .

وقد استغرق الالمان فى الغناء لدرجة لم يلحظوا معها يليزافيتا الكسييفنا حين خرجت تحمل الاناء المملوء ببقايا الطعام الى المطبخ . وقد رغبت فى تنظيف الاناء ، الا انها لم تجد ابريق المياه الساخنة على الموقد والذى عادة يضعونه لاعداد الشاى . وهنا ورد بخاطرها ... انهم الآن لا يحتسون الشاى .

واذ فرغ فريدريك من عمله أمام الموقد ممسكا فى يده بمزقة من القماش ، خرج من المطبخ يحمل مقلاة مملوءة بقطع اللحم الضان التى تسبح فى الدهن . وهنا توارد الى ذهنها أنهم من المؤكد قاموا بذبح خروف آل سلونوف ، بينما راحت تصيخ السمع الى تلك الأصوات النشاز المخمورة التى تترنم بالألمانية باغنية الفولجا القديمة . غير ان ذلك ، كسائر كل ما جرى فيما حولها ، لم يكن يؤثر فيها لأن معيار المشاعر والتصرفات الانسانية الذى كان يحكم سلوكها وسلوك طفليها فى اطار الحياة العادية لم يكن ليصلح للحكم على ما تحفل به هذه الحياة التى راحوا يعيشونها فى ظل ما يجرى . لقد كانوا يعيشون فى عالم غريب كل الغرابة عن عالم العلاقات البشرية المألوف ، لدرجة بدا معها وكأنما هو عالم وهمى ، يجبرهم على التعامل معه سلوكا وفكرا . وثمة من كان يظن أن المرء ليس فى حاجة سوى الى ان يفتح عينيه ليتبدد ذلك الوهم .

ودلفت يليزافيتا الكسييفنا فى هدوء الى غرفة فولوديا وليوسيا . وكانا يتهامسان ، ليكفا عن ذلك بمجرد ظهورها . وذكرت يليزافيتا الكسييفنا :

– أوليس من الافضل أن تعدى فراشك وتخلدى الى النوم ؟ لعل من الأجدى ان تنامى !

وأجابت ليوسيا بصوت خافت :

– اننى اخاف النوم .

وفجأة ذكر فولوديا الذى نهض قليلا من فراشه نحيفا ، تغطيه الملاءات البيضاء ، متكئا بيديه ، يلف الضباب ناظريه :

– اننى ساقتله ذلك الكلب ، اذا ما حاول مرة أخرى . . . نعم ، ساقتله وليحدث ما يحدث !

وفى تلك اللحظة تعالى مرة اخرى صوت الباب يطرق ، لينفتح بطيئا بطيئا ، وليظهر العريف مرتديا قميصا دست اطرافه فى سرواله وممسكا فى يده بقنديل راح يلقى باشعته المتراقصة على وجهه الاسمر البدين . وتوقف يحدق النظر فى فولوديا الجالس فى فراشه ، وفى ليوسيا التى استقرت على مقعدها قريبا من قدمى اخيها . ثم قال فى رصانة :

– لويزا ! ينبغى عليك الا تحتقرى اولئك الجنود المعرضين كل يوم وكل ساعة لان يلقوا حتفهم ! اننا لن نسىء اليك . ان الجنود الالمان ، اناس نبلاء . . . ويمكننى القول ، انهم فرسان . اننا نرجو ان تشاطرينا مجلسنا ، ليس الا .

وذكر فولوديا وهو ينظر اليه فى حقد وكراهية :

–اغرب عن وجهنا !

وذكر العريف فى مودة :

– اوه . . . انك فتى طيب اقعده المرض للأسف !

ولم يستطع العريف فى تلك الظلمة تبين وجه فولوديا ، كما ولم يفهم ما قاله .

وليس ثمة من كان قادرا على التنبؤ بما قد يحدث فى تلك اللحظة ، الا ان يليزافيتا الكسييفنا تقدمت الى ابنها بسرعة لتحتضنه وتضم وجهه الى صدرها ، وترقده فى فراشه قسرا ، بينما تهمس الى اذنه بشفتيها الجافتين الدافئتين :

– اسكت ، اسكت !

وذكر العريف المخمور الذى كان يترنح عند الباب فى قميصه ، الذى برز من تحته صدره كثيف الشعر ، ممسكا بالقنديل فى يده :

– ان جنود جيش الفوهرر فى انتظار اجابتك يا لويزا !

وقد كانت ليوسيا تجلس شاحبة اللون لا تدرى اجابة .

ونهضت يليزافيتا الكسييفنا الى العريف تقول له وهى تومئ براسها :

– حسنا . . . حسنا جدا : جوت ! انها سوف تاتى حالا . . .

هل فهمت ؟ فيرشتين ؟ سوف تغير ملابسها وتاتى . – واشارت بيديها وكانما تشرح له بالحركة ما قالته .

وذكرت ليوسيا بصوت مشوب بالرعشة :

– ماما . . .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا وهى تومئ براسها وتدفع العريف الى خارج الغرفة :

– فلتسكتى اذن ، طالما لم يهبك الله عقلا !

وخرج العريف . وتعالت بالردهة الأصوات والضحكات وقرع الكئوس . وصار الالمان يغنون من جديد باصواتهم العريضة المتشابهة :

فولجا ... فولجا ! يا امنا الحبيبة !

وسرعان ما تقدمت يليزافيتا الكسييفنا الى صوان الملابس ، وادارت المفتاح فى بابه ، وهمست قائلة :

– ادخلى . . . سوف أغلق الباب عليك . هل تسمعينى ؟

– كيف ...

– سنقول انك خرجت الى الفناء . . .

وتكومت ليوسيا فى الصوان ، لتغلق الأم بابه بالمفتاح الذى وضعته أعلاه .

انخرط الألمان فى صخب . وخيمت الظلمة الحالكة ، بحيث لم يعد ممكنا عبر النافذة التمييز بين مبنيى المدرسة ومستشفى الأطفال والتل الطويل ، وبين مقر اللجنة التنفيذية للمنطقة وبيت «النبيل المسعور» ؛ ولم يكن هناك سوى بصيص من ضوء تسلل من الردهة عبر باب الغرفة الى الداخل . وفكرت يليزافيتا الكسييفنا «يا الهى . هل يكون كل هذا حقيقة واقعة ؟»

وفرغ الألمان من الغناء ، ليتجادلوا فيما بينهم فى مرح . واندفع الجميع ضاحكين يهاجمون العريف ، بينما راح يحاول التملص منهم بصوت مبحوح يتسم بالمرح ، كجندى لا تعرف روحه الشجن ابدا .

وها هو يعود ثانية ليظهر عند الباب ممسكا فى يده بالقنديل .

– لويزا ؟

واشارت يليزافيتا الكسييفنا قائلة :

– لقد خرجت الى الفناء . . . الى الفناء .

وخرج العريف مترنحا الى المدخل ممسكا فى يده بالقنديل ، فيما تعالى وقع خطواته . وترامت الى الاسماع تلك الجلبة التى واكبت هبوطه السلم المفضى الى الفناء . واذ فرغ الجنود من تبادل الاحاديث بعض الوقت ، توجهوا الى الفناء كذلك تعلو ضحكاتهم ووقع خطواتهم فى الردهة وعند المدخل . وخيم على المكان هدوء لم يقطعه سوى ضجيج ارتطام اوانى كان يرفعها فريدريك بالغرفة المجاورة . وترامى الى الاسماع كيف كان الجنود يتبولون بالفناء الى جوار المدخل مباشرة وسرعان ما عاد بعضهم ثانية فى صخب وجلبة . ولم يظهر العريف بعد ، الا ان دبيب خطواته ترامى فى نهاية الأمر الى الاسماع على السلم وفى المدخل . وانفتح الباب ، ليظهر العريف ، بدون القنديل فى هذه المرة يلفه ضوء خافت والدخان المنبعث من المطبخ . وراح يهمس مناديا :

– لويزا . . .

وظهرت يليزافيتا الكسييفنا قبالته كما الظل تقول :

– كيف هذا ؟ الم تجدها ؟ انها لم تعد بعد . . . انها غير موجودة .

واخذت تومئ براسها وتشير بيدها علامة النفى .

وجال العريف بناظريه اللذين لم يكونا يريان شيئا فى الغرفة .

– مو . . . و . . . و .

وزار فجاة على نحو يوحى بكونه مخمورا غاضبا ، فيما ركز عينيه العكرتين السوداوين على يليزافيتا الكسييفنا . وفى ذات اللحظة وضع يده الكبيرة التى تعلوها الدهون على وجهها ثم قبض اصابعه على نحو كاد يفقأ معه عينيها ودفعها بعيدا ، ليغادر الغرفة مترنحا . وهنا سارعت يليزافيتا الكسييفنا باغلاق بابها بالمفتاح .

وظل الالمان يعيشون جلبة وصخب المخمورين حتى غلبهم النوم دون ان يطفئوا الأنوار .

ومكثت يليزافيتا الكسييفنا قابعة مكانها فى صمت الى جوار فولوديا الذى لم يغمض له جفن . لقد كانا يعانيان انهاكا معنويا

لا يطاق ، ومع ذلك فلم يكن النوم يراودهما . وانتظرت يليزافيتا الكسييفنا بعض الوقت ثم افرجت عن ليوسيا . وهمست ليوسيا فى اضطراب .

– لقد كدت اختنق ، وها هو ظهرى ، وحتى شعرى يتصببان عرقا . – ثم مضت تقول وكانما بعثت هذه المغامرة فيها شيئا من الحيوية :

– اننى سوف افتح النافذة فى هدوء ، حيث أكاد اختنق .

وفى هدوء فتحت النافذة القريبة من السرير واطلت براسها الى الخارج . كان الجو خانقا ، لكنه بدا رطبا عقب تلك الحرارة التى كانت تسود الغرفة ، وبعد كل ما حفل به المنزل من احداث . كما وخيم الهدوء على المدينة ، وكانما لم تكن تلك المدينة موجودة ، ولا يوجد هناك سوى ذلك البيت الصغير ، حيث يغط الالمان فى نومهم ، يتوسط تلك الارض الفضاء التى يلفها الظلام الحالك . وفجاة ، تعالى وميض نيران هناك فى الناحية الأخرى للمزلقان عند الحديقة العامة ، ليمزق ظلام السماء وكل الأرض الفضاء والتل ومبنيى المدرسة والمستشفى . وماهى الا لحظة اخرى ، حتى تعالى وميض آخر اكثر قوة ليعلن كل شىء فى هذا الظلام عن نفسه ، حتى الغرفة غمرها الضياء لحظة من الزمن واعقب ذلك شىء ليس أشبه بالانفجارات ، بل اهتزازات هوائية لا صوت لها وكانما نتيجة انفجارات وقعت بعيدا ، يتوالى كل منها الواحد تلو الآخر فوق هذه الأرض الخلاء ، ليعم الظلام من جديد .

وتساءلت يليزافيتا الكسييفنا بنبرة تعكس خوفها :

– ما هذا ؟ ما هذا ؟

حتى فولوديا نهض من مكانه بعض الشىء .

وراحت ليوسيا تحدق النظر وقد انقبض قلبها بشكل غريب فى الظلام الحالك ، نحو تلك الجهة التى تراءى بها ذلك الوميض . وكان ثمة وهج لهيب لا يرى تارة ضعيفا ، واخرى متناميا ، يتراقص هناك فوق التل يمزق الظلام الذى يلف سقفى اللجنة التنفيذية للمنطقة ومنزل «النبيل المسعور» احيانا ، وينحسر عنهما احيانا اخرى . وفجاة تتعالى هناك ، حيث مصدر ذلك الوهج

الغريب ، ألسنة اللهيب عالية لتصبغ السماء بلون أرجوانى ، وتلقى بأضوائها على المدينة بأسرها والارض الفضاء ، وكذلك الغرفة لدرجة غدا ممكنا معها رؤية كل ما بها من أثاث وبشر .

والتفتت ليوسيا الى الداخل تصيح :

– حريق !

وكان صوتها يحمل نبرة المنتصر على نحو غير مفهوم . وقد عادت ثانية تتامل السنة اللهب العالية .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا فى خوف :

– أغلقى النافذة !

واجابت ليوسيا وقد أصابتها الرجفة ، وكأنما بتأثير برودة الجو :

– ليس هناك من يرانا .

ولم تكن تعرف ماهية ذلك الحريق وكيفية اندلاعه . بيد أن ذلك اللهيب العنيف الذى ارتفع عاليا يحمل فى طياته سمة انتصار ، كان يحمل شيئا يزيح عن الارواح ما علق بها ، ويعنى أمرا ساميا رهيبا . ولم ترفع ليوسيا عينيها عنه ، بينما كان يغمرها بضوئه .

وقد انتشر وهج الحرائق يخيم ليس فقط فوق وسط المدينة ، بل وعلى مسافات بعيدة فيما حوله . ولم يكن بنائى المدرسة ومستشفى الأطفال هما فقط اللذان قد ظهرا كما فى وضح النهار ، بل ومناطق المدينة البعيدة الملاصقة للمنجم رقم ١ فيما وراء الأرض الفضاء . وشكلت تلك السماء الأرجوانية اللون واضواء الحريق فوق اسقف المبانى والتل لوحة خيالية اسطورية ، وكذلك عظيمة فى آن واحد .

وغدا واضحا أن المدينة بأسرها قد استيقظت من سباتها . فقد ترامت الى الاسماع حركة الناس فى وسط المدينة ، وكذلك بعض الأصوات والصيحات وهدير محركات عربات النقل . واستيقظ الألمان وتعالت جلبتهم فى الشارع الذى كان يقطن به آل أوسموخين ، وفى فنائهم . وتعالى نباح الكلاب ، متناسية رعب الأمس – ويبدو أنهم لم يجدوا متسعا من الوقت لقتلها كلها .

ولم يكن هناك سوى الألمان المخمورين النائمين فى الغرفة المواجهة ، لا يسمعون شيئا .

وقد استمر تأجج النيران ما يقرب من ساعتين ، لتخف فيما بعد شيئا فشيئا . وعادت الظلمة تلف من جديد مناطق المدينة البعيدة والتلال . ولم تكن هناك غير ومضات أخيرة متفرقة كانت تكشف فى بغض الأحيان قمة التل تارة ، ومجموعة الاسقف تارة أخرى ، وهضبة مخروطية الشكل داكنة اللون تارة ثالثة . بيد أن السماء ظلت فوق الحديقة العامة أرجوانية اللون الذى يبهت حينا ، لينصبغ حينا آخر ، وليظهر واضحين ولفترة طويلة مبنيا اللجنة التنفيذية للمنطقة و«النبيل المسعور» فوق التل . الا ان الظلمة بدأت تعودهما تدريجيا ، الى أن غرقت كل الأرض الفضاء فى خضم الظلمة الحالكة .

أما ليوسيا فقد لزمت مكانها الى جوار النافذة ، تنظر فى اضطراب الى ناحية الحريق . كما ولم ينم فولوديا ، ويليزافيتا الكسييفنا .

وفجأة تراءى أمام ناظرى ليوسيا وكأنما قطة قد قفزت فى الأرض الفضاء الى يسار النافذة ، وترامى الى سمعها حفيف غير بعيد عن البيت . كان ثمة من يحاول القفز الى النافذة . وتراجعت ليوسيا الى الوراء فى حركة غريزية تراودها رغبة صفق النافذة . بيد أن همسا تعالى ، جعلها تتوقف عن ذلك . لقد كان هناك من يناديها باسمها :

– ليوسيا . . . ليوسيا . . .

وتجمدت مكانها .

– لا تخفى . . . اننى تيولينين .

وبدا رأس سيريوجكا الذى لم يكن شىء يغطى شعره الأجعد الكث على مستوى اسفل النافذة .

وسألها :

– هل لديكم ألمان ؟

وهمست ليوسيا وهى تنظر فى خوف وفرح الى عينى سيريوجكا الضاحكتين الجسورتين :

– نعم لدينا ، وانتم ؟

– ليس لدينا بعد .

وتساءلت يليزافيتا الكسييفنا وقد صعقها الرعب .

– من هذا ؟

وكشف وهج الحريق البعيد وجه سيريوجكا لتتعرف عليه يليزافيتا الكسييفنا ، وكذلك فولوديا .

وتساءل سيريوجكا وقد اتكا ببطنه على أسفل النافذة :

– أين فولوديا ؟

– انني هنا .

– ومن بقى غيرك ؟

– توليا اورلوف . ولست ادرى غير ذلك ، حيث انني الازم الفراش بعد عملية الزائدة الدودية .

وذكر سيريوجكا :

– لقد بقى هنا فيتكا لوكيانتشينكو وليوبكا شيفتسوفا . وقد شاهدت كذلك ستيوبكا سافونوف من مدرسة جوركى .

وساله فولوديا :

– وأية صدفة ساقتك الينا ؟ وليلا ؟

– لقد كنت أشاهد الحريق من الحديقة العامة ، ثم رحت عبر بيوت شانغهاى الصغيرة اتلمس طريقى نحو البيت حيث شاهدت من الوهدة نافذتكم مفتوحة .

– وما الذى كان يحترق ؟

– مبنى المؤسسة .

– أحقا ذلك ؟

– لقد تمركزت به رئاسة اركانهم ، ومنه كانوا يتقافزون فى سراويلهم الداخلية .

وضحك سيريوجكا بصوت خافت . وتساءل فولوديا :

– هل تظن أن هناك من اضرم النار ؟

وصمت سيريوجكا فيما برقت عيناه فى الظلمة كما القطة ، ثم قال ضاحكا :

– لا شك انه لم يحترق من تلقاء نفسه .

ثم سأله فجأة :

– كيف تنوى الاقامة ؟

– وانت ؟

– وكانك لا تعرف كيف !

وذكر فولوديا بارتياح :

– كم انا . . . كم انا سعيد بك . هل تعلم . . . كم انا سعيد !

وذكر سيريوجكا فى غير ما رغبة ، حيث لم يكن يحب الاعترافات العاطفية :

– وانا كذلك . هل الألمان الموجودون عندكم شريرون ؟

– لقد ظلوا يسكرون طوال الليل ، والتهموا كل دجاجنا .

وقد ذكر هذا ، ليبدو فى نفس الوقت وكانما يشعر بالفخر ازاء سيريوجكا ، من كونه قد عرف الألمان بنفسه . بيد انه لم يذكر ان العريف كان يغازل شقيقته قسرا .

وذكر سيريوجكا فى هدوء :

– هذا يعنى ان الأمر هين . لقد تمركز رجال «اس . اس» بالمستشفى ، حيث كان باقيا حوالى اربعين جريحا قادوهم جميعا الى دغلة فيرخنيدوفانايا حيث اطلقوا عليهم رشاشاتهم . اما الطبيب فيودور فيودوروفيتش ، فقد تصدى لهم حين راحوا ينقلون الجرحى ، حيث لم يصبر على ذلك ، مما دفعهم الى اطلاق النار عليه فى مكانه بالردهة .

وذكر فولوديا وقد قطب جبينه :

– آه . . . يا للشيطان !كم كان انسانا عظيما . لقد كنت مريضا عنده .

وذكر سيريوجكا :

– ان امثاله قلة .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا فى انين خافت :

– ماذا سوف يحل بنا يا الهى !

– وقال سيريوجكا .

– سامضى سريعا قبل أن ينبزغ الفجر . وسوف نكون على اتصال فيما بيننا .

ونظر الى ليوسيا مشيرا بيده على نحو ينم عن تانق قائلا :

– اوفيدرزين !

فقد كان يعلم ولعها باللغات الاجنبية .

وانزلق جسده النحيف الذى ينم عن مهارة وجسارة لتلفه الظلمة ، ويغدو اثرا بعد عين .

الفصل التاسع عشر

كان اكثر ما يثير الدهشة كونهما قد اتفقا بهذه السرعة . فقد ذكر سيريوجكا وهو يقف عند قدميها حابسا انفاسه :

– كيف تستطيعين ايتها الفتاة القراءة ؟ ان الالمان يدخلون كراسنودون . الا تسمعين هدير السيارات يتعالى من ناحية فيرخنيدوفانايا ؟

ونظرت اليه فاليا فى صمت تعلو وجهها امارات الدهشة والهدوء والسعادة ؛ ثم سالته :

– الى اين هربت ؟

وارتبك لحظة من الزمن . كلا . . لا يمكن ان تكون هذه الفتاة شخصا غير جيد .

– اود الصعود الى سقف مدرستكم لاستطلاع ما سوف يسفر عنه ذلك .

– وكيف سوف تفعل ذلك ؟ هل زرت مدرستنا فيما سبق ؟

وذكر سيريوجكا انه زارها مرة واحدة منذ عامين لحضور امسية ادبية ، ثم مضى يقول :

– اننى لن اعجز عن ذلك .

وذكرت فاليا :

– لكن الالمان قد يحتلون المدرسة بالدرجة الاولى .

واجابها سيريوجكا :

– اننى سوف انزل الى الحديقة العامة بمجرد رؤيتهم قادمين نحوها .

وذكرت فاليا وهى تستوى جالسة مكانها تسوى شعرها وبلوزتها :

– انه من الافضل الصعود الى اعلى الجمالون ، حيث يمكن رؤية كل شىء دون ان يراك احد . انى اعلم كيفية الوصول الى هناك وسوف ادلك عليها .

وفجاة داخلت الحيرة نفس سيريوجكا بعض الشىء ، ليقول :

– ان الامر يكمن فى ضرورة القفز من الطابق الثانى ، اذا ما دخل الالمان المدرسة .

واجابت فاليا :

– وماذا عسانا ان نفعل .

– وهل تستطيعين ذلك ؟

– وهل هذا سؤال . .

ونظر سيريوجكا الى ساقيها المتينتين اللتين لفحتهما الشمس وعلاهما الشعر الذهبى الخفيف ، ليغدو على يقين من انها قادرة ، بطبيعة الحال على القفز من الطابق الثانى .

وها هما يهرولان سوية يقطعان الحديقة العامة نحو المدرسة .

وكانت المدرسة الكبيرة ذات الطابقين من الطوب الآجر ، والفصول المضيئة ، وقاعة الرياضة الفسيحة تقع الى جوار المدخل الرئيسى للحديقة العامة وفى مواجهة مبنى مؤسسة «فحم كراسنودون» . وقد كانت مغلقة ، لا يسكنها احد . بيد ان سيريوجكا ، وانطلاقا من اهداف نبيلة ، لم يكن يرى عيبا فى تكسير بعض افرع الاشجار ليستعين بها فى تحطيم زجاج احدى نوافذ الطابق الارضى المطلة على اعماق الحديقة العامة .

وقد انقبض قلباهما حين راحا يعبران احد الفصول على اطراف اصابعهما فى اتجاه ردهة الدور الارضى . وكان الهدوء يخيم تماما على ذلك المبنى فسيح الارجاء ، بحيث تعالى اى حفيف بسيط مدويا كمن يمزق السكون . وقد شهدت الايام القليلة الماضية تغييرات كثيرة فى كل مكان ، وفقد كثير من المبانى كسائر كثير من البشر وظيفته واهميته السابقة ، دون ان يجد بعد بديلا لهما . بيد ان هذا المبنى كان رغما عن ذلك تلك المدرسة التى كان يتعلم بها الاطفال ، تلك المدرسة التى امضت بها فاليا كثيرا من ايام حياتها الناصعة .

ووقع نظرهما على باب معلقة عليه لوحة صغيرة كتب عليها «غرفة المدرسين» ، وباب آخر – «غرفة الناظر» ، وابواب اخرى : «غرفة الطبيب» ، «غرفة علم الفيزياء» ، «غرفة الكيمياء» ، «المكتبة» .

نعم . . لقد كانت المدرسة التى شهدت تعليم المدرسين للاطفال المعارف وانماط الحياة .

وهبت من هذه الفصول المقفرة وقماطر الدراسة العارية ، والمبانى التى ما زالت تحمل رائحة المدرسة المميزة ، رياح تغمر سيريوجكا وفاليا ، لتنقلهما الى ذلك المحيط الذى شهد طفولتهما وغدا بالنسبة لهما جزءا ينتزع ، بينما يفارقهما اليوم ، والى الابد على ما يبدو . وها هو فجاة يصادفهما عالما رائعا مفعما بالعلاقات النقية الصافية التى تتسم بالصراحة بين المدرس وتلميذه . اين هم اليوم . . من كان يعلّم ومن كان يتعلّم ، واين شتتهم الاقدار ؟

وانشرح قلبا سيريوجكا وفاليا للحظة من الزمن مفعمان بالحب والاجلال المبهم والقدسية السامية لذلك العالم الراحل الذى لم يقدراه فى حينه حق تقدير .

لقد كان كلاهما يعيش ذات المشاعر التى يعيشها الآخر ، وكانا يدركان ذلك دونما حديث ؛ كما وجعلتهما هذه اللحظات قريبين من بعضهما البعض الى حد غير معقول .

وتقدمت فاليا سيريوجكا عبر سلم داخلى ضيق يؤدى الى الطابق الثانى ، ثم الى الابواب الصغيرة والتى تفضى الى ما تحت الجمالون . وكانت هذه الابواب مغلقة ، الا ان ذلك لم يثبط من عزم سيريوجكا الذى تحسس جيب سرواله ليتناول منه مطواة تضم الى جوارها مختلف الادوات ، والتى انتقى منها مفكا . واذ قام بفك مسامير اكرة الباب ، رفعها ليبدو عاريا ذلك التجويف الذى كان يستقر فيه لسان القفل . وضحكت فاليا ساخرة :

– انك تعمل بشكل رائع ، مما يبدو معه على الفور انك لص محترف .

والتفت اليها سيريوجكا والابتسامة تعلو وجهه قائلا :

– ان العالم يعرف الى جوار من يحترف تحطيم الابواب ، اولئك الذين يمارسون مهنة البرادة .

وراح ينقب ويحفر فى تجويف القفل الى ان فتح الباب ، لتهب عليهما نسمة حارة من سقف المبنى المعدنى الذى التهب تحت اشعة الشمس ، ورائحة ارضية الجمالون الساخنة والغبار ونسيج العنكبوت .

وحنى سيريوجكا وفاليا راسيهما تفاديا للاصطدام بأعلى الجمالون ، وتسللا الى احدى النوافذ التى علاها الغبار ، حيث استندا بوجهيهما الى زجاجها دون ان ينظفا ما علق به من غبار حتى تستحيل رؤيتهما من الخارج ، متجاورين لدرجة كادت وجناتهما تلامس كل منها الاخرى .

وتراءى لهما من مكانهما الى جوار النافذة كل شارع سادوفايا الذى ينتهى عند بوابة الحديقة ، ولا سيما تلك الناحية ، حيث المبانى النموذجية للعاملين فى اللجنة الحزبية للاقليم . كما ومثل امام انظارهما مباشرة مبنى مؤسسة «فحم كراسنودون» ذو الطابقين عند ناصية الشارع .

لقد مر كثير من الزمن منذ تلك اللحظة التى غادر فيها سيريوجكا دغلة فيرخنيدوفانايا ، وحتى تلك التى استندا فيها بوجهيهما الى زجاج نافذة الجمالون الذى يعلوه الغبار . . فقد تمكنت القوات الالمانية فى تلك الفترة من دخول المدينة ، وتزاحمت العربات فى شارع سادوفايا ولينتشر الجنود الالمان هنا وهناك .

«الالمان . . . ها هم الالمان ، فاى قوم هم ! انهم هنا فى كراسنودون» . .

كان هذا ما توارد الى خاطر فاليا ليعلو وجيب قلبها ، ويجيش صدرها اضطرابا .

اما سيريوجكا فقد كان مشغولا بالجانب العملى الظاهرى للقضية ، اذ راحت عيناه الحادتان تسجلان تفاصيل كل ما يقع فى مجال الرؤية دون ان يلحظ ذلك .

لم يكن مبنى المؤسسة يبعد باكثر من عشرة امتار عن مبنى المدرسة الذى فاقه ارتفاعا بحيث تيسر لسيريوجكا مشاهدة سقفه المعدنى وحجرات طابقه الثانى وارضية ذلك الجزء من الطابق الاول القريب من النافذة . كما وشاهد سيريوجكا عدا شارع سادوفايا ، كثيرا من الشوارع الاخرى التى حجبت المنازل بعض اجزائها . . . شاهد الافنية والبساتين التى راح الجنود الالمان يعيثون فيها . وقد استطاع بالتدريج استمالة فاليا الى دائرة اهتماماته قائلا :

– انهم يجتثون الشجيرات الصغيرة . . انظرى ، حتى نباتات

عباد الشمس . وهنا . . يبدو ان رئاسة اركانهم سوف تتمركز فى المؤسسة . فلتنظرى كيف يعملون . . .

مبنى وراح الضباط والجنود الالمان – المشرفون والكتبة – ينتشرون للاقامة فى كلا طابقى المبنى ، يسودهم المرح . وقد قاموا بفتح كافة النوافذ ، وتفقد الغرف التى آلت اليهم ، يفتشون فى ادراج المكاتب ، يدخنون ويرمون بأعقاب سجائرهم الى الشارع المقفر الذى يفصل مبنى المؤسسة عن المدرسة . وبعد برهة من الوقت ظهرت بالحجرات النسوة الروسيات ، الشابات والعجائز يحملن المكانس والاسطال . واذ رفعن اطراف ثيابهن ، رحن يغسلن الارضية ، بينما اخذ الكتبة الالمان حسنو الهندام ونظيفو الملبس يتبادلون النكات بشأنهن .

وقد جرى كل ذلك على مسافة قريبة من سيريوجكا وفاليا ، لدرجة جعلت فكرة واضحة صارمة مؤلمة ، تدخل السعادة الى النفس فى آن واحد ، تطرق قلب سيريوجكا على حين غرة . كما وقد لاحظ ان نوافذ الجمالون يمكن خلعها بسهولة ، اذ كانت اطاراتها خفيفة تستند الى مسامير رقيقة ثبتت مائلة فى الحائط .

ومكث سيريوجكا وفاليا مكانهما طويلا بما جعلهما يملكان فرصة تبادل الحديث حتى حول موضوعات اخرى .

وقد سألها سيريوجكا :

– هل رأيت ستيوبكا سافونوف بعد تلك الليلة ؟

– كلا .

وتوارد الى خاطره فى ارتياح «أن هذا يعنى ان الوقت لم يسعفها لان تقول له شيئا» .

وذكر سيريوجكا :

– انه سوف يأتى حتما . . انه من اصدقائنا . كيف تظنين العيش بعد ذلك ؟

وهزت فاليا كتفيها بعزة نفس .

– من ذا الذى يستطيع ان يتحدث عن ذلك الآن ؟ ليس هناك من يدرى ماذا سوف يحل بنا .

وذكر سيريوجكا :

– هذا صحيح . هل يمكننى زيارتك فى بعض الاحيان ؟

اولن يغضب والداك ؟

– والدىّ ! . . فلتات غدا اذا ما اردت ذلك . كما وسوف ادعو ستيوبا .

– ما اسمك ؟

– فاليا بورتس .

وقد ترامى آنذاك الى سمعهما اصوات رشاشات تطلق نيرانها طويلة فى البداية ، ثم قصيرة بعد ذلك هناك فى دغلة فيرخنيدوفانايا .

وتساءلت فاليا :

– انهم يطلقون النار . هل تسمع ؟

وذكر سيريوجكا فى جدية :

– ليس ثمة من يدرى اية مصائب يمكن ان تحل بالمدينة ، ريثما نجلس سويا هنا . ربما يكون الالمان قد استقروا فى شقتنا وشقتكم وكانما هم فى بيوتهم .

وهنا فقط تذكرت فاليا تلك الظروف التى كان يعيشها بيتها حين رحلت ، وظنت سيريوجكا على حق ، فلربما تكون امها وابوها قلقين بسببها . وقد منعها كبرياؤها من ان تكون البادئة باعلان ضرورة الرحيل ، الاّ ان سيريوجكا لم يفكر ابدا فى ان احدا يمكن ان يسأل عليه . وذكر :

– حان وقت العودة !

وغادرا المدرسة بنفس الطريقة التى لجآ اليها فى طريق الذهاب .

وتوقفا برهة من الزمن الى جوار سور الحديقة . فقد كان كلاهما يشعر بعد تلك الجلسة المشتركة فى اعلى الجمالون بشىء من الارتباك والحيرة . وذكر سيريوجكا :

– سوف اعرج لزيارتك غدا .

وقد علم سيريوجكا حين وصل منزله ما اخبر به ليلا فولوديا اوسموخين : انباء نقل الجرحى الباقين فى المستشفى ، واستشهاد الطبيب فيدور فيدوروفيتش . فقد جرى كل ذلك على مرأى من شقيقته نادية والتى اخبرته بتفاصيله .

وصلت الى المستشفى عربتا ركوب وبعض اللوريات المحملة بجنود «اس اس» . واستقبلتهم ناتاليا الكسييفنا عند المدخل

ليطالبونها باخلاء المبنى فى خلال نصف ساعة . واصدرت ناتاليا الكسييفنا تعليماتها حول ضرورة انتقال كل قادر على السير والحركة الى مستشفى الاطفال ، الاّ انها راحت رغما عن ذلك تطالب بمد فترة التهجير استنادا الى وجود كثير من الجرحى غير القادرين على الحركة وعدم وجود وسيلة لنقلهم .

وكان الضباط قد اتخذوا اماكنهم ثانية فى عربتهما .

– فينبونج ! اى شىء تريده هذه المراة ؟

تساءل اكبر الضباط رتبة لدى احد ضباط الصف فارع القامة ، هش العود ، ذهبى الاسنان يضع على عينيه نظارة ذات اطار ناصع .

وقد اضفت هذه النظارة على ضابط الصف من قوات «اس اس» ان لم يكن مظهر العالم ، فمظهر الانسان المثقف على اقل تقدير . غير انه وحين تقدمت ناتاليا الكسييفنا اليه برجائها ، بل وحاولت الحديث معه بالالمانية ، رماها بنظرة بدت وكانما لا تعير وجودها اهتماما . وبصوت مخنث دعا ضابط الصف الجنود الذين اخذوا فى القاء المرضى الى الفناء ، دون ان ينتظروا حتى ذلك النصف من الساعة ، الذى وعدوا به كمهلة .

لقد راحوا يجرجرون المرضى فوق الحشايا او يمسكون بهم من تحت الابط ليلقون بهم فوق الاعشاب بالفناء . وهنا اكتشف الالمان فيما بينهم وجود الجرحى فى المستشفى العسكرى .

وقد حاول فيدور فيدوروفيتش الذى اعلن نفسه طبيبا بمستشفى المدينة توضيح ان هؤلاء من ذوى الجراح الخطيرة ولن يصبحوا ابدا قادرين على القتال ، وجرى الابقاء عليهم تحت الرعاية المدنية . بيد ان ضابط الصف ذكر انه اذا كان هؤلاء من العسكريين ، فانهم يعتبرون من الاسرى ، يجب ارسالهم الى حيث يتوجب الامر . وبداوا فى انتزاع الجرحى من الاسرّة فى ملابسهم الداخلية والقائهم فى اللوريات الواحد تلو الآخر ، كيفما اتفق .

واذ كانت ناتاليا الكسييفنا تعرف فيدور فيدوروفيتش انسانا متوقد الطباع ، فقد طالبته بالانصراف ، الا انه لم ينصرف ، وظل واقفا بالردهة الى جوار الحائط فيما بين النافذتين . وتبدى وجهه اللامع الذى لفحته الشمس رمادى اللون ، واختلجت شفتاه ، واصابت الرعشة ركبته لدرجة انه مال بقامته يدعكها بيده .

وخافت ناتاليا الكسييفنا من ان تتركه وحيدا ، فلزمت مكانها الى جواره ، كما وطلبت من نادية البقاء ايضا الى ان ينتهى كل شىء . وكم شعرت نادية بالشفقة والرهبة ازاء كونهم يجرجرون الجرحى فى ضماداتهم الغارقة فى الدماء ، بل واحيانا على ارض الردهة . وقد خافت ان تذرف الدمع ، لكنه انزلق رغما عنها ومع ذلك فقد لزمت مكانها لانها كانت خائفة اكثر على فيدور فيدوروفيتش .

وشرع جنديان المانيان يحملان جريحا كان فيدور فيدوروفيتش قد اجرى له منذ اسبوعين عملية جراحية استاصل فيها احدى كليتيه التى اصابتها شظية من شظايا الالغام . وقد كان ذلك الجريح يشعر بتحسن بالغ فى الايام الاخيرة ، مما كان مدعاة لفخر فيدور فيدوروفيتش . كانا يسيران به فى الردهة حين تعالى صوت ضابط الصف فينبونج ينادى احدهما . والقى الجندى بالجريح الذى كان يمسك بقدميه ليهرول الى ضابط الصف فى غرفته ، بينما راح الجندى الثانى يجر الجريح على الارض .

وفجاة ابتعد فيدور فيدوروفيتش عن الحائط ، بحيث لم يسعف الوقت احدا لملاحظة انه صار بجوار الجندى ، الذى يجر الجريح . ولم يكن هذا الجريح ، مثله فى ذلك مثل معظم الجرحى يئن بالرغم من كل تلك الآلام التى كان يعانيها ، لكنه حين وقع نظره على فيدور فيدوروفيتش قال له :

– هل رايت يا فيدور فيدوروفيتش ماذا يفعلون ؟

هل يكون هؤلاء بشرا ؟

وانفجر فى البكاء .

وذكر فيدور فيدوروفيتش بالالمانية شيئا ما للجندى ، ربما حول استحالة ذلك التصرف ، وربما عارضا عليه المساعدة . بيد ان الجندى الالمانى ضحك مواصلا جر الجريح بعيدا . وفى تلك اللحظة خرج ضابط الصف فينبونج من الغرفة ، ليتوجه فيدور فيدوروفيتش نحوه مباشرة يعلو الشحوب وجهه ويرتجف كل كيانه . لقد اندفع يواجهه ويتحدث اليه فى حدة . وهب ضابط الصف فى زيه الاسود الذى تجمّع فى ثنايات حول جسده النحيف الطويل تلمع على صدره علامة معدنية مرسوم عليها جمجمة وعظمتين متلاقيتين ، فى وجه فيدور فيدوروفيتش يدفعه بمسدسه .

وتراجع فيدور فيدوروفيتش قليلا ، ليقول له شيئا ، اثار غضبه على ما يبدو . عندئذ جحظت عينا ضابط الصف ليطلق النار على فيدور فيدوروفيتش ليصيبه فيما بين عينيه . وشاهدت نادية الدماء تتدفق من جبهته ، ليسقط على الارض . اما ناتاليا الكسييفنا ونادية فقد لاذتا بالفرار من المستشفى . ولم تكن نادية نفسها قادرة على ادراك كيفية وصولها الى المنزل .

وقد جلست نادية منذ ان وصلت من المستشفى فى معطفها الابيض ومنديلها الذى غطت به راسها تقص وتقص ما وقعت عليه عيناها . لم تذرف الدمع ، الا ان وجهها كان شاحبا ، اما عظمتا وجنتيها الصغيرتين فقد اشتعلتا نارا ، بينما شخصت عيناها لا تريا من تحادثه .

وسعل الاب مخاطبا سيريوجكا فى حنق :

— هل سمع ذلك «الصايع» بما حدث ؟ قسما بالله اننى قادر على جلده بالسوط . ان الالمان فى المدينة بينما يتجول حيثما اتفق له . انه لم يقدر بعد فعلته التى كادت تودى بامه الى القبر .

واجهشت الام بالبكاء .

— لقد اضنيتنى . . وظننتهم قد قتلوك .

وفجاة ذكر سيريوجكا بلهجة غاضبة .

— قتلونى ! انهم لم يقتلونى . اما الجرحى فقد قتلوهم . فى دغلة فيرخنيدوفانايا . لقد سمعت ذلك بنفسى . . .

ودلف الى الغرفة حيث ارتمى فى فراشه دافنا راسه فى الوسادة . كانت مشاعر الثار تجتاح كل كيانه ، لدرجة لم يغد معها قادرا على التنفس . لقد راح يتجسد فى تلك اللحظة ما انهكه واضناه اثناء وجوده فى اعلى الجمالون . «عليكم بالانتظار . . . ولتسدل الظلمة ستائرها !» هذا ما كان يفكر فيه وهو متكور فى فراشه . ولم تكن ثمة قوة قادرة على اثنائه عما اعتزم القيام به .

خلد الجميع الى مخادعهم فى وقت مبكر ، دون اضاءة الانوار . غير انهم كانوا فريسة القلق الذى حال دون نومهم . ولم تكن هناك امكانية التسلل الى الخارج على نحو غير ملحوظ ، ولذا فقد خرج على مرأى من الجميع وكأنما يقصد فناء المنزل ، وانسل الى الحديقة . وراح يحفر بيديه تلك الحفرة التى خبأ فيها الزجاجات

الحارقة ، وذلك لانه كان من الخطر ان يحفرها بالمجرفة ليلا .

وسمع صوت الباب يصر لتخرج شقيقته نادية تناديه بصوت خافت عدة مرات :

— سيريوجا . . سيريوجا . .

ثم انتظرت قليلا ، لتناديه مرة اخرى . وتعالى صوت صرير الباب . . لقد ذهبت اخته .

ودس سيريوجا فى جيبى سرواله زجاجتين بينما وضع الثالثة فى عبه ، لينطلق فى عتمة ليلة خانقة من شهر يوليو الى الحديقة العامة متجاوزا وسط المدينة عن طريق مساكن «شانغهاى» الصغيرة .

كان الهدوء يخيم على الحديقة المقفرة ، بيد انه كان مطبقا بشكل خاص على المدرسة التى تسلل اليها عبر تلك النافذة التى حطمها نهارا . وقد كان الهدوء مريعا لدرجة بدت معها كل خطوة وكانما يتعالى وقعها ليس فقط فى ارجاء المبنى بل وفى المدينة باسرها . وتسرب ضوء معتم من الخارج عبر كوات النوافذ العالية يلقى بظلاله على الدرج . وعندما ظهر سيريوجكا بقوامه الى جوار احدى تلك النوافذ ، ترااى له وكانما سوف يشاهده ويطبق عليه انسان ما توارى فى ظلمة احد الاركان . غير انه انتصر على خوفه ، ليجد نفسه سريعا فى نقطة المراقبة التى اختارها نهارا باعلى الجمالون .

وجلس فى مكانه بعض الوقت الى جوار النافذة التى لم يكن يرى من خلالها آنذاك شيئا . جلس لا لشىء الا من اجل التقاط انفاسه . ثم صار يتحسس بيديه تلك المسامير التى كانت تحمل اطار النافذة ، ليثنيها رافعا اياه فى هدوء . وهبت نسمة باردة منعشة تلفحه ، بينما كان الجو ما يزال خانقا فى اعلى الجمالون . كما وغدا قادرا بعد الظلمة التى كانت تعيشها المدرسة ، ولا سيما اعلى الجمالون ، على تمييز كل ما يجرى بالشارع ازاء ناظريه . لقد ترامت الى سمعه حركة السيارات بالمدينة وشاهد انوار مصابيحها التى جرى تعتيمها ولم تنقطع تحركات الوحدات من ناحية فيرخنيدوفانايا حتى فى الليل . فقد تبدت هناك وعلى طول الطريق انوار مصابيح السيارات . وكانت هناك بعض السيارات تسير

بكامل انوار مصابيحها التى تعالت من وراء التل كضوء الكشافات العاكسة تمزق ظلمة السماء او تغمر جزءا من البرارى او اشجار الدغلة التى تبدت اوراقها وكانها مقلوبة يكسوها اللون الابيض .

وكانت الحياة العسكرية الليلية تتبدى فى كافة صورها عند المدخل الرئيسى لمبنى المؤسسة . كانت تتوافد العربات والموتوسيكلات ، ينتشر الجنود والضباط ما بين داخل وخارج ، فيما يتعالى صليل اسلحتهم ومهاميزهم ، واحاديث مبهمة بلهجة غريبة حادة . بيد ان نوافذ المؤسسة كانت معتّمة .

وكانت كل مشاعر سيريوجكا قد توترت وتركزت حول هدف واحد لدرجة ان ذلك الظرف الجديد الذى لم يكن يتوقعه وهو تعتيم النوافذ ، لم يكن ليغير من قراره . وهكذا استقر فى مكانه هذا الى جوار النافذة ما لا يقل عن ساعتين . وقد راح الهدوء يخيم على المدينة ، كما وتوقفت الحركة امام المبنى ، الاّ ان من بداخله لم يكن قد خلد الى النوم بعد ، وقد ادرك سيريوجكا ذلك استنادا الى بصيص الانوار الذى تسرب الى الخارج من عند اطراف الاوراق السوداء التى تغطى النوافذ . لكن ها هو الضوء يطفأ فى اثنتين من نوافذ الطابق الثانى ، ثم قام احد المقيمين هناك يفتح من الداخل النافذة الاولى ، ثم الثانية . لقد شعر سيريوجكا به يقف الى جوار النافذة تلفه ظلمة المكان . ثم تلاشت الاضواء فى بعض نوافذ الطابق الاول التى فتحت بدورها .

– من هناك ؟

تعالى صوت آمر من نافذة الطابق الثانى ، حيث استطاع سيريوجكا تمييز شبح شخص مال بقامته عبر النافذة ، يكتنفه الغموض . لقد كان يتساءل :

– من هناك ؟

واجابه صوت فتى من اسفل :

– اننى الملازم ماير يا هر اوبرست .

– اننى لا انصحكم بفتح نوافذ الطابق الاسفل .

– ان الجو خانق بدرجة لا تطاق يا هر اوبرست . بيد انه وبطبيعة الحال اذا كنتم تحظرون . . .

– كلا ، اننى لا اود ابدا تحويلكم الى لحوم مشوية .

ذكر ذلك الصوت الآمر من عل ، ضاحكا .

وقد راح سيريوجكا يرهف السمع الى ذلك الحديث بالالمانية ، فيما يعلو وجيب قلبه .

وراحت الاضواء تغيب عن النوافذ التى اخذت الستائر تنحسر عنها ، يفتحونها الواحدة تلو الاخرى ، ليترامى منها الى الاسماع صفير ، واحاديث متقطعة فى بعض الاحيان . وفى احيان اخرى كان ثمة من يشعل عود ثقاب لينعكس ضوؤه على وجهه وسيجارته واصابعه ، لتظل طويلا تلك النقطة المضيئة من السيجارة فى اعماق الغرفة .

وذكر شخص ما يقف الى جوار النافذة يخاطب صديقه فى اعماق الغرفة :

– يا لها من بلاد شاسعة ، لا نهاية لها .

وخلد الالمان للنوم ، وصار الهدوء يخيم على المكان وعلى المدينة بأسرها . ولم يكن هناك سوى بعض الانوار تنبعث من مصابيح العربات التى كانت ما تزال تتحرك من ناحية فيرخنيدوفانايا ، تنزع الظلام من سماء الليل .

وتعالى وجيب قلب سيريوجكا ليبلغ اسماعه ، ويبدو له انه يدوى فى كل ارجاء الجمالون . وقد كان الجو رغما عن كل شىء خانقا للغاية ، جعله يتصبب عرقا .

وتراءى امام ناظريه على نحو مبهم مبنى المؤسسة بنوافذه المفتوحة تلفه الظلمة والنعاس . لقد شاهد النوافذ المفتوحة فى كلا الطابقين لا تغطيها سوى غلالة من الظلمة الحالكة . وهنا ادرك انه من الواجب عليه التصرف فى تلك اللحظة . . . شرع يلوح بيده عدة مرات وكانما يحاول قياس مدى باعها المحتمل ، ولتحديد الهدف ولو على وجه التقريب .

كانت الزجاجات الحارقة التى اخرجها من جيبه وعبّه بمجرد وصوله ، موجودة الى جانبه . وتحسس واحدة منها ، وامسك بعنقها مشددا قبضته عليه ثم قاس المسافة بنظره وحسه ، ليلقى بالزجاجة فى قوة نحو النافذة السفلى المفتوحة . واضاء لهيب يغشي الابصار كل النافذة بل وبعض مساحة الشارع الصغير فيما بين مبنى المؤسسة والمدرسة ، وتعالى فى نفس تلك اللحظة صوت

انفجار خفيف ورنين زجاج ، وكانما تحطمت احدى اللمبات الكهربائية . وتعالت من النافذة السنة اللهب . وفى نفس تلك اللحظة القى سيريوجكا بالزجاجة الثانية فى ذات النافذة ، لتنفجر فى النيران بقوة هائلة . وقد تأججت النيران داخل الغرفة ، واشتعلت اطر النافذة ، وتدافعت السنة اللهب تتسلق الجدران تكاد تصل الى الطابق الثانى . وراح احد سكان تلك الغرفة يعوى ويئن ، وتعالى الصراخ يدوى فى كل ارجاء المبنى . وامسك سيريوجكا بالزجاجة الثالثة ليلقى بها فى النافذة المواجهة بالطابق الثانى .

وسمع صوت تحطمها ثم شاهد وميض نيرانها الذى بلغت قوته حد اضاءة كل اعلى الجمالون ، ولكنه كان قد ابتعد عن النافذة فى تلك اللحظة ، حيث كان قد بلغ بداية السلم الخلفى والذى اندفع اليه لا يلوى على شىء . واذ لم يكن ثمة وقت للبحث فى ذلك الظلام عن الفصل ذى النافذة المحطمة ، اندفع الى اقرب حجرة ، ويبدو انها كانت غرفة المدرسين ، ليفتح نافذتها بسرعة ، ويقفز عبرها الى الحديقة حيث راح يركض نحو اعماقها وقد مال بقامته .

لقد كان سيريوجكا منذ تلك اللحظة التى القى فيها بالزجاجة الثالثة وحتى ادراكه انه يجرى فى اعماق الحديقة العامة مسيّرا بوحى الغريزة ، ولعل ذاكرته لم تكن لتستطيع استيعاب كل ما حدث . بيد انه ادرك آنذاك انه من الضرورى الانبطاح ارضا والتزام الهدوء لحظة للتنصت على ما يجرى حوله .

كان ثمة فأر يعبث بالحشائش غير بعيد عن سيريوجكا . ولم يكن يرى من مكانه السنة اللهب ، بيد انه تعالت من هناك ، من الشارع الصرخات ووقع اقدام تهرول . وهب من مكانه يجرى بعيدا الى اطراف الحديقة ، نحو تل من بقايا صخور المنجم المتروك .

وقد تصرف هكذا تفاديا لاحتمال تطويق الحديقة العامة ، وحيث كان قادرا على الهروب فى كل الاحوال .

والآن ، غدت واضحة من مكانه هذا تلك الهالة الضخمة التى صارت تنشر اضواءها الارجوانية فى ارجاء السماء لتبلغ حتى ذلك التل الضخم القديم الواقع بعيدا عن مصدر الحريق ، وقمم اشجار الحديقة . وراود سيريوجكا شعور الاحساس بالراحة وكانما بارح

فؤاده اعماق جوانحه ليحلق فى الاعالى ، وقد اصابت الرعشة جسده ، وراح يمسك نفسه عن الانفجار فى الضحك .

– هذا ما تستحقونه ! زيتسين زى زيخ ! شبريخين زى دويتش ! جابين زى ايتفاس ! – راح يكرر فى اعماقه وفى لهجة تفوق الوصف كل تلك الجمل التى تواردت الى ذهنه من دروس قواعد الالمانية .

وتعالت الهالة تصبغ سماء الحديقة ، وترامى الى الاسماع الصخب والهرج والمرج فى وسط المدينة . وكان ينبغى الانسحاب . وراودته رغبة جارفة لزيارة تلك الحديقة مرة اخرى ، حيث شاهد اليوم فاليا بورتس ، تلك الفتاة التى يعرف الآن اسمها .

وانزلق فى الظلمة بخفة نحو ما وراء شارع ديريفيانايا ، وتسلق سورا صغيرا ليقفز الى الحديقة حيث همّ بالخروج عبر البوابة الى الشارع فى تلك اللحظة التى سمع فيها ضجيج مكتوم لجمهرة من الناس تجمعت هناك . فقد تجاسر السكان على مبارحة منازلهم والخروج لمشاهدة الحريق ، مستفيدين من كون الالمان لم يكونوا قد احتلوا شارع ديريفيانايا . واذ دار سيريوجكا حول البيت من الناحية الاخرى ، قام بالقفز فى هدوء عبر السور متوجها نحو البوابة ، حيث احتشدت مجموعة من النسوة تغمرهن هالة الحريق . وقد اكتشف وجود فاليا ضمن تلك المجموعة ، ليتساءل حتى يوجه اهتمامها اليه :

– ما هذا الذى يشتعل ؟

واجابت احدى النسوة بنبرة تنم عن اضطراب :

– هناك فى شارع سادوفايا . . . وربما تكون المدرسة .

وذكرت فاليا بصوت حاد يحمل نبرة التحدى :

– انه مبنى المؤسسة .

ثم قالت وهى تتثائب بشكل مصطنع :

– ماما . . اننى سوف انصرف للنوم .

ودلفت الى الداخل . وتحرك سيريوجكا فى اثرها ، الاّ انه سمع دبيب خطواتها على درج المدخل ، وصوت الباب يصفق بعد دخولها .

الفصل العشرون

اخذت وحدات القوات الالمانية الرئيسية تتحرك على مدى ايام كثيرة عبر كراسنودون والمدن والقرى القريبة . . . وحدات الدبابات ، والمشاة المحمولة ، والمدفعية الثقيلة والهاوتزر ، ووحدات الاشارة ، وارتال العربات ، ووحدات المهندسين والخدمات الطبية واركان التشكيلات ، الصغيرة والكبيرة . وتعالى هدير المحركات عاليا يدوى فى الارض والسماء ، وانتشر الغبار غلالة كثيفة تدثر سماء المدينة والبرارى .

وقد كان ثمة نظام ثابت — Ordnung يفرض نفسه فى خضم تلك الحركة الايقاعية الثقيلة للقوات والمدافع التى لا حصر لها . وبدا انه ما من قوة على ظهر البسيطة يمكن ان تتصدى لتلك القوة ذات النظام الحديدى الثابت .

وانسابت اللوريات العالية مثل عربات السكك الحديدية ، تحمل الذخيرة والمؤن ، وعربات نقل البنزين بصهاريجها الانسيابية المنبعجة تضغط باطاراتها الضخمة الارض بحثا عن اعماقها . وكان الجنود يرتدون زيهم المشدود الى اجسادهم على نحو جيد والذى يبدو متينا ، اما الضباط فقد كانوا حسنى الهندام . وقد كان يسير جنبا الى جنب مع الالمان الرومانيون والمجريون والايطاليون . كما وكانت مدافع ودبابات وطائرات ذلك الجيش تحمل علامات كافة المصانع الاوروبية ، مما كان يجعل عينى المرء الذى لم يقتصر معرفته للغات على الروسية ، تجهران ازاء ماركات عربات الركوب واللوريات فقط ، ليداخله الرعب حين يتصور اية قوة انتاجية فى معظم بلدان اوروبا تتولى تمويل وامداد الجيش الالمانى الذى يقطع اليوم برارى الدونباس فى خضم هدير تلك المحركات ، واطار تلك الغلالة الكثيفة من الغبار التى حجبت السماء .

لقد صار اصغر البشر ، والذى لا يدرى ، عن شؤون الحرب الا القليل ، يشعر ويرى الجيوش السوفييتية تتراجع تحت ضغط هذه القوة نحو الشرق ، والجنوب الشرقى ، بعيدا بعيدا ، على ما يبدو الى غير ما رجعة . . نحو ثوفوتشيركاسك ، وروستوف ، الى ما وراء الدون ، نحو الفولجا وكوبان . ومن ذا الذى يعلم الآن موقعها . كما

ولا نستطيع اليوم سوى من نشرات الاخبار الالمانية واحاديث الجنود الالمان ، معرفة تلك الخطوط التى يقاتل عندها ، وربما يكون قد استشهد فيها ، ابنك الحبيب او ابوك . . او الزوج . . او الشقيق !

وفى الوقت الذى كانت فيه الوحدات الالمانية ما تزال تواصل زحفها ، تأكل كما الجراد ، ما لم تأت عليه الوحدات التى سبقتها ، كانت قد تمركزت فى كراسنودون ، وكأنما فى بيتها الخاص ، مؤخرات الجيوش الالمانية المهاجمة ، واركانها ، واقسام الامداد والتموين والوحدات الاحتياطية .

ولم يكن ثمة احد من السكان المحليين فى اولى ايام السلطة الالمانية يميز بين الرئاسة الدائمة ، والرئاسة العابرة ، واية سلطة تسود المدينة ، وماذا يجب عليه ان يقدم علاوة على ما يشهده كل منزل من عبث الجنود والضباط العابرين . لقد كانت كل اسرة تعيش وحدها تدرك مع كل يوم جديد مدى هول وعقم اوضاعها ، تحاول التأقلم على النحو الذى يناسبها مع هذا الوضع الرهيب الجديد .

ولقد كان ذلك الجديد الرهيب فى حياة الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا هو تحول بيتهما الى مقر لاحدى هيئات الاركان الالمانية برئاسة الجنرال البارون فون فينتسيل ومساعده وخادمه شاحب الشعر الذى يغطى النمش وجهه . كما ان حارسا المانيا لزم مكانه بصورة دائمة امام المنزل . علاوة على انه غدا عامرا بالضباط والجنرالات الالمان الغادين والرائحين ، وكأنهم فى بيتهم ، تارة لحضور اجتماع ، واخرى لمجرد تناول الطعام والشراب ، تترامى فى ارجائه الاصوات الناطقة بالالمانية ، والاناشيد العسكرية الالمانية بالاذاعة . اما اصحاب البيت ، الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا فقد اودعتا فى الغرفة الصغيرة ، خانقة الجو ، المجاورة للمطبخ حيث الموقد مشتعل على الدوام ، يقومان منذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل بخدمة السادة الجنرالات والضباط الالمان .

بالامس القريب كانت الجدة فيرا مواطنة تتقاضى معاشا تقاعديا متميزا ، وتتمتع فى القرية بمكانة اجتماعية مرموقة ، وامّا لمهندس جيولوجى فى واحدة من اكبر مؤسسات الدونباس ؛ اما يلينا نيكولايفنا

فقد كانت ارملة مشاهير رجال السلطة المحلية ، رئيس قسم الزراعة فى مدينة كانيف ، وام افضل تلاميذ مدرسة كراسنودون ؛ لقد كانتا بالامس القريب شخصيتين مرموقتين تحظيان باحترام الجميع . اما اليوم فتخضعان لسلطان الخادم الالمانى ذى الوجه الذى يغطيه النمش ، يأمر فيهما وينهى كما يشاء .

وقد كان الجنرال البارون فون فينتسيل غارقا فى شؤون الحرب لدرجة لم يلحظ معها الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا . كان يجلس بالساعات منكبا على الخريطة ، يقرأ ويكتب ويوقع اوراقا كان يعرضها عليه مساعده ، ويحتسى الكونياك برفقة جنرالات آخرين . كما وكان الجنرال فى بعض الاحيان يحتدم غضبا ، ليصبح وكأنما يصدر اوامره فى ساحة التدريب لينتصب الجنرالات الآخرون فى حضرته ، فى وقفة عسكرية صارمة . وقد ادركت الجدة فيرا ، وكذلك يلينا نيكولايفنا انه ووفقا لارادة الجنرال فون فينتسيل تتحرك الوحدات الالمانية بدباباتها وطائراتها ومدافعها ، تعبر كراسنودون لتتوغل فى اعماق البلاد ، وانه يعير اهمية الى تحركها ووصولها الى الهدف المرجو وفى الميعاد المحدد بالذات . اما عن تصرفات جنوده فى تلك النواحى التى يعبرونها فلم تكن تهم الجنرال فون فينتسيل ، مثلما لم يكن يهمه انه يعيش فى بيت الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا .

لقد كانت ترتكب الى جوار الجنرال فون فينتسيل او فيما حوله المئات بل والآلاف من الاعمال الاجرامية البشعة نزولا على امر اصدره ، او استنادا الى موافقته الضمنية . كانوا ينهبون اشياء من كل منزل ، كما نهبوا منزل الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا بما فيه من دهون وعسل وبيض وزبد ، الا ان ذلك لم يكن يحط من قدره ، حيث كان يسير مرفوع الهامة الثابتة الضيقة فوق عنقه القرمزى المرتكز فيما بين سعفتى النخيل المطرزتين على ياقته ، وكأنما ليس هناك شىء سيىء او بشع يمكن ان يمس وعيه .

ولقد كان الجنرال شخصا محبا للنظافة ، يغتسل بالمياه الدافئة مرتين يوميا ، صباحا وقبل نومه مساء ، من قمة رأسه حتى اخمص قدمه . وكانت غضون وجهه النحيل واعلى عنقه دائما نظيفة ، حليقة ، معطرة . ولقد اقيم له مرحاض خاص ، كان يتوجب على الجدة فيرا تنظيفه يوميا حتى يستطيع الجنرال قضاء حاجته دون ان

يضطر الى الجلوس القرفصاء . وكان ذلك الجنرال يتردد على المرحاض صباحا فى وقت محدد لا يتغير ، بينما كان الخادم يقف قريبا ليناوله ورق خاص يستخدمه للنظافة حين يسمع سعاله . بيد ان الجنرال وبالرغم عن حبه للنظافة لم يكن ليستحى فى حضرة الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا التجشؤ بعد تناول الطعام ، اما وحين كان ينفرد بنفسه فى غرفته ، يفسح المجال لامعائه لتطلق غازاتها دون اعتبار لكون الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا تقطنان الغرفة المجاورة .

اما عن مساعده طويل الساقين فقد كان يحاول التشبه بالجنرال فى كل شىء . وقد بدا له انه قد شب طويل القامة ، لا لشىء الا من اجل ان يكون مناسبا الى جوار جنراله فارع القامة . كما وحاول ، شأن الجنرال ، عدم اعارة ادنى اهتمام لوجود الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا .

فلم تكن الجدة فيرا وكذلك يلينا نيكولايفنا موجودتين سواء كبشر او ادوات ، بالنسبة للجنرال او لمساعده على حد سواء . اما الخادم فقد غدا آنذاك رئيسهما وسيدهما المطلق .

واذ راحت الجدة فيرا تعايش هذا الوضع الجديد الرهيب ، وجدت نفسها منذ اول يوم انها غير قادرة على التعايش مع مثل هذا الحال . وقد ادركت الجدة الماكرة ان الخادم النمش لم يكن يملك السلطة الكافية كى يتجاسر فى حضرة رئيسيه على قتلها . وكانت تغدو مع كل يوم اكثر جرأة فى تعاملها معه ، وحين كان يصيح فى وجهها ، كانت ترد له الصاع بمثله . وذات مرة قام الخادم فى اوار غضبه بضربها فى ظهرها بكعب حذائه الثقيل ، فما كان منها الا ان هوت بالمقلاة التى كانت تمسك بها على رأسه بكل قوتها ، لتصيب الغصة حلقه . هكذا سادت مثل تلك العلاقات الغريبة المعقدة بين الجدة فيرا والخادم ذى الوجه المغطى بالنمش . اما يلينا نيكولايفنا فقد كانت ما تزال تعيش حالة ذهول نفسى ، تسير دائما مرفوعة الراس المتوجة بشعرها الذهبى الكث ، صامتة تنفذ كل ما يطلب منها ، بصورة آلية .

وذات يوم كانت يلينا نيكولايفنا تسير فى الشارع الموازى لشارع سادوفايا سعيا وراء الماء ، ليقع نظرها فجأة على مركبة

غير غريبة عنها تسير فى اتجاهها ، ويجرها جواد اصهب ، ويسير الى جوارها ابنها اوليج .

وتلفتت يلينا نيكولايفنا فيما حولها ، لتخور قواهـا ويسقط الدلو من يدها ؛ وتفتح ذراعيها مندفعة نحو ابنها .

– اوليجكا* . . يا ولدى !

لقد راحت تناديه وهى تدفن رأسها فى صدره تارة ، وتمسح شعره الاشقر الذى اكسبته الشمس ذهبية تارة اخرى ، او تربت براحتها على صدره وكتفيه وظهره تارة ثالثة .

لقد كان يفوقها طولا بعض الشىء ، واكسبتـه الشمس سمرة شديدة خلال تلك الايام ، ونحل وجهه قليلا ، وبدا اشد رجولة . بيد ان تلك الرجولة لم تكن لتخفى تلك السمات التى بدت اوضح من ذى قبل ، وعلقت بذاكرتها الى الابد ، والتى كان يتسم بها يوم بدأ فى نطق اولى الكلمات ، والسيـر اولى الخطوات بقدميـه الصغيرتين البضتين اللتين لفحتهما الشمس ، ليترنح جانبا وكانما تدفعه الرياح . لقد كان فى واقع الامر طفلا كبيرا ، راح يعانق امه ، يحيط جيدها بيديه الكبيرتين القويتين ، بينما شعّت عيناه من تحت حاجبيه العريضين ، كما كانتا تشعان طيلة ستة عشر عاما ونصف ، ضياء بنويا ناصعا صافيا .

– ماما . . مامو . . مامو . .

لم يكونا يعيران اهتماما لاى شىء او اى انسان فى تلك اللحظات المعدودات . . لهذين الجنديين الالمانيين اللذين كانا يراقبانهما من الفناء المجاور ، عما اذا كانا يخالفان النظام الحديدى ، وللاقارب الموجودين الى جوار المركبة تجتاحهم شتى المشاعر ازاء رؤية لقاء الام بابنها . . . لقد كان الخال كوليا ينظر ساهما مكتئبا ؛ بينما تنظر العمة مارينا وقد ترقرقت الدموع فى عينيهـا السوداوين الجميلتين المتعبتين ؛ اما الطفل ذو الثلاثة اعوام فقد كان ينظر اليهما فى دهشة وغضب ، ازاء كون العمة لينا لم تعانقه وتقبله قبل اوليج . امـا الحوذى العجوز فقد راح يتأملهما تعلو وجهه امارات التأدب وكانما يود القول . . يا لها من احداث يمكن ان يحفل بها هذا العالم . ولقد كان يمكن ان يظن الناس من ذوى الارادة الطيبة ، الذين كانوا

* اسم التدليل لاوليج .

يراقبون خلسة من نوافذ منازلهم لقاء الفتى فارع القامة ذى الشعر الذى صبغته الشمس بلونها الذهبى بالمرأة التى كانت فى مقتبل العمر ذات الضفيرتين الكثتين اللتين تحيطان برأسها واللذين يشبه كل منهما الآخر الى حد كبير ، ان شقيقا التقى بشقيقته ، حيث لم يكونوا يعلمون بعد ان الفتى ما هو الاّ اوليج كوشيفوى قد عاد الى امه ، كما عاد اليوم المئات والالوف من سكان كراسنودون الذين لم يسعفهم الوقت للنجاة من الكارثة ، الى ذويهم فى بيوتهم التى احتلها الالمان .

وكم كان عصيبا فى تلك الايام حال كل من رحل عن ارضـه وبيته وذويه . بيد ان اولئك الذين اسعفهم الوقت للفرار مـن الالمان ، يسيرون اليوم على ارضهم ، على الارض السوفييتية . امّا الوضع فقد كان اكثر ترديا وسوء بالنسبة لاولئـك الذين بذلوا الجهود بغية الفرار من الالمان ، وعاشوا مرارة احباطها ، وواجهوا الموت ، ليعودوا ثانية الى اراضيهم ، التى كانت بالامس القريـب موطنهم ، بينما تصبح اليوم ارضا المانية . . لقد راحوا يهيمون على وجوههم وحيدين دون مأوى او غذاء ، يائسين ، فريسة رحمة المانى منتصر ينظر اليهم وكانهم مجرمون .

وفى تلك اللحظة حين غدا اوليج ورفاقه فى البرارى الشاسعة يغمرهم ذلك الضياء الابيض المعتم ، يواجهون الدبابات الالمانية التى اندفعت فى اتجاههم لا تلوى على شىء ، اصابت الرجفة اعماقهم حين صاروا ازاء الموت وجها لوجه . بيد ان المنية ترافت بهم مؤجلة حكمها .

لقد احاط راكبو الموتوسيكلات الالمان بكل من لم يستطـع العبور ، ليقتادونهم جميعا الى مكان قريب من نهر الدونيتس . وها هم هنا ثانية اوليج ورفاقه ، وفانيا زيمنوخوف برفقة كلافا وامها ، وفالكو مدير المنجم رقم ١ . وقد كان فالكو يتصبب عرقا ، بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، لدرجة تشبع سترته وسرواله بمـا يسيل منه ، ليتجمع فى حذائه الطويل .

وقلّ من كان فى مثل تلك البلبلة العامة يعير اهتماما بالآخر . بيد أن كل من كان يتأمل فالكو ، يغدو يفكر . . «حتى هذا لـم يستطع عبور النهر» . اما هو فقد اقتعد الارض تعلو وجهه الاسمر الغجرى غير الحليق امارات غضب مركز ، وخلع حذاءه جيد الصنع

ليفرغه من المياه ، وقام بعصر جوربه ثم انتعل حذاءه والتفت الى الصبية بوجهه المكتئب ، ليغمز بعينيه وكأنما يود ان يقول لهم : ما عليكم . . اننى معكم !

وتقدم احد ضباط المدرعات الالمان فى خوذته السوداء ، تعلو امارات الغضب وجهه الإسمر الذى يغطيه الغبار ، يصدر اوامره بلغة روسية ركيكة ليتقدم كل العسكريين الموجودين ، بين المدنيين . وبدأ العسكريون ، فرادى وجماعات ، لا يحملون سلاحا يتقدمون الحشد . وراح الجنود الالمان يقتادونهم جانبا ، يدفعون ظهورهم بأعقاب بنادقهم . وسرعان ما ظهرت غير بعيد عن حشود النازحين فى البرارى ، جمهرة من العسكريين اقل عددا .

وقد اتسمت بالحزن والكآبة نظرات ووجوه اولئك الرجال الذين راحوا يتزاحمون جنبا الى جنب ، فى ثيابهم الباهتة القذرة واحذيتهم التى علاها الغبار ، فى اعماق تلك البرارى التى تغمرها اشعة الشمس .

واصطف العسكريون رتلا دفعوا به الى اعلى نهر الدونيتس . اما المدنيون فقد جرى اطلاق سراحهم ليعودوا الى منازلهم .

وانتشر النازحون في البراري مبتعدين عن نهر الدونيتس . وسلك الجزء الاعظم الطريق نحو الغرب ، عبر العزبة التى قضى بها فانيا وجورا ليلتهما فى اتجاه ليخايا .

وقد كان ابو فيكتور بيتروف وكذلك الحوذى العجوز الذى كان يقود مركبة كوشيفوى واقاربه قد انضموا بمركبتهما الى ذويهم حين شاهدا الدبابات الالمانية فى البرارى . اذ انسابت مجموعتهم التى غدت تضم كذلك كلافا كوفاليوفا وامها ضمن خضم التيار البشرى والمركبات الذى تراجع نحو الغرب فى اتجاه ليخايا .

وظل البعض لا يصدق برهة من الزمن ، ان الامر سوف يكون على هذا النحو بالذات ، اى يطلق سراحهم بدون ان تكون فى الامر خدعة ، ولذا فقد راحوا ينظرون فى خوف الى ارتال الجنود الالمان التى كانت تتحرك فى الاتجاه المقابل . بيد ان الجنود ذوى الوجوه المغبرة ، المتعبة اولئك المهمومين الذين كانوا يتصببون عرقا لم يعيروا النازحين الروس اى اهتمام تقريبا .

وحين تلاشت اول موجة من الذهول ، ذكر احد السائرين على نحو ينم عن بعض التشكك :

– ثمة امر اصدرته القيادة الالمانية بعدم التعرض للسكان المحليين . . .

وندت عن فالكو الذى كان البخار يتعالى من ملابسه المبللة عرقا تحت اشعة الشمس كما الحصان ، ابتسامة كئيبة ليومئ براسه نحو ارتال الجنود الالمان الغضوبة ، الملطخة بالغبار كالشياطين ، قائلا :

– الا ترى كيف انهم على عجلة من امرهم ، والا لم يكونوا ليتيحون لك حتى فرصة الشرب .

– وكأنما تكون قد تناولت ما عن لك من شراب !

وقد كان ذلك صوتا تعالى فجأة ، كأحد الاصوات المرحة التى لا يخلو منها حشد روسى ، حتى فى اشد ظروف الحياة رهبة وكآبة .

وذكر فالكو موافقا فى كآبة :

– لقد تذوقت ما قدموه !

ثم مضى يقول :

– بيد اننى لم اجترع الكاس حتى النهاية !

وهاكم ما حدث لفالكو منذ اللحظة التى فارق فيها الفتيان وانحدر نحو المعبر . لقد اجبرت هيئته وقسمات وجهه الصارم ، احد اولئك العسكريين الذين كانوا يشرفون على حركة المعبر على تبادل الحديث معه بعض الوقت ، حيث عرف منه ان قيادة المعبر موجودة على الشاطئ الآخر من النهر . «اننى سوف ارغمه ورفاقه على الاضطلاع بعبء تنظيم الحركة كما يجب» – هذا ما توارد الى خاطره بينما يجيش صدره غضبا ، ليروح يثب من احد جانبى الكوبرى العائم الى جانبه الآخر على مقربة من العربات التى تنساب فوقه . وفى تلك اللحظة انقضت القاذفات الالمانية ، ليضطر شأن كل الناس ، الى الانبطاح ارضا . ثم شرعت المدفعية الالمانية تقذف بحممها ليسود الهرج والمرج فوق الكبارى العائمة . وهنا تردد فالكو بعض الشىء .

فقد كان وضعه يحتم عليه الاستفادة من فرصة عبور الدونيتس الاخيرة . بيد أنه يحدث احيانا ان ينقاد اقوى الناس شكيمة وعزيمة واشدهم حمية وغيرة الى اهوائهم الشخصية ومصالحهم متناسين فى ذلك واجبهم الاشمل والاعم والاساسى .

وما كاد فالكو يتخيل ما قد يظنه بشأنه العمال – صديقه جريجورى ايليتش شيفتسوف ، والفتية شباب الكومسومول الذين بقوا على الشاطئ حتى اندفع الدم يغلى برأسه ، ليستدير عائدا ادراجه . وفى تلك اللحظة كان النازحون يندفعون فوق الكوبرى العائم كتلة متراصة تواجهه ، مما جعله يلقى بنفسه الى مياه نهر الدونيتس ، ليسبح فى ملابسه عائدا الى الشاطئ

وقد راح فالكو يشق الامواج بذراعيه القويين ، يسبح فى اتجاه ذلك الشاطئ الذى كان الألمان آنذاك يقصفونه ويحاصرونه ، فيما يهرول النازحون فوق الكبارى العائمة لا يلوون على شىء ، يتزاحمون عند مداخلها ، يلقى البعض بنفسه الى المياه ليعبر النهر سباحة الى الشاطئ الآخر . لقد كان يدرك انه سوف يكون من اوائل الذين سوف يفتك الالمان بهم ، ومع ذلك فقد راح يسبح لان ضميره لم يكن يسمح له بغير ذلك .

اما الالمان ولسوء حظهم ، قد سلكوا مسلكا يتسم بقصر النظر ، فلم يقتلوه واطلقوا سراحه مع الآخرين . وها هو وبدلا من ان يتجه نحو الشرق الى ساراتوف حيث كان واجبه يحتم عليه التوجه الى هناك ، وحيث كانت تعيش زوجته واطفاله ، فقد راح يتحرك فى خضم النازحين نحو الغرب .

وبدا رتل النازحين يتفرق هنا وهناك قبل ان يبلغ ليخايا . وعرض فالكو على ابناء كراسنودون التجمع بعيدا عن الرتل ، لينطلقوا متجاوزين ليخايا فى طريقهم الى كراسنودون ، عبر القرى الصغيرة واحيانا الاراضى البكر ، دون اللجوء فى ذلك الى الطرق الرئيسية العامة .

وكما يحدث دائما وحين تعانى الشعوب والبلدان المحن العصيبة ، تختلط افكار ابسط الناس بشأن مستقبله ومصيره ، بافكاره حول مستقبل ومصير بلده وشعبه .

وقد كان الكبار والصغار فى تلك الفترة التى اعقبت ما عانوه من محن فريسة حالة نفسية كئيبة ، لا يتبادلون فيها بينهم اية احاديث على وجه التقريب . اذ كانوا يفكرون فيما يخبئ لهم المستقبل وما قد يحل بسائر الارض السوفييتية . بيد ان كلا منهم كان يعانى ذلك على نحو خاص .

وقد كان ابن مارينا ، ذو الاعوام الثلاثة ، وابن خال اوليج اكثر الجميع اتزانا . فلم يكن يراوده ادنى شك فى استقرار ذلك العالم الذى يعيشه ما دامت امه وابوه الى جواره دائما . بيد انه وللحقيقة شعر بالرهبة ذات مرة حين ارعدت السماء وابرقت ، وراح الناس يهرولون مذعورين فيما حوله . بيد انه شب فى زمن كان كل شىء فيه يبرق ويرعد دائما ، ولذا فلم يبك الا قليلا ، وليهدأ روعه حيث بدا كل شىء على ما يرام . الا انه وجد ان الرحلة قد طالت بعض الشىء . وقد سيطر عليه ذلك الشعور على نحو خاص فى منتصف النهار حين شعر بالانهاك وراح يبكى متسائلا عما اذا كان سرعان ما سوف يصل الى جدته . لكنه ما كاد الركب يتوقف للاستراحة ، ليتناول طعامه ، وينهمك فى اللعب بعصاه ، ويدور رافعا هامته حول الجوادين كماتيى اللون ، اللذين كان كل منهما يعلو الجواد الاصهب مرتين ، ثم يغط فى نومه دافئا راسه بين ركبتى امه ، ما كاد يحدث كل ذلك حتى استقر كل شىء فى مكانه ، ليزخر العالم من جديد بكل الروائع والاعاجيب .

وقد كان الحوذى العجوز يظن ان حياته كانسان بسيط تقدم به العمر فى معزل عن الخطر فى ظل السيطرة الالمانية . بيد انه كان يخشى ان يستولى الالمان على حصانه اثناء رحلته هذه . علاوة على انه كان يخشى كذلك ان يحرمه الالمان من معاشه الذى كان يتقاضاه بوصفه حوذيا عمل بالمناجم اربعين عاما ؛ كما وتمادى بتفكيره الى ان الالمان لن يحرموه فقط من تلك المنحة التى كان يتقاضاها عن انخراط اولاده الثلاثة فى وحدات الجيش الاحمر المقاتلة بالجبهة ، بل وسوف يضطهدونه ازاء انه اب لمثل هذا العدد من الابناء المقاتلين فى الجيش الاحمر . هذا وقد كان القلق يساوره ازاء ما اذا كانت روسيا سوف تكسب الحرب . كان الخوف يراوده خشية الا تنتصر روسيا . عندئذ اسف الجد نحيف الجسد رمادى الشعر ، مويره عند مؤخرة راسه ، ازاء كونه لم يمت فى شتاء العام الماضى حين المت به «النوبة» على حد قول الطبيب . غير انه كان يتذكر فى بعض الاحيان كل مراحل حياته ، تلك الحروب التى خاضها ، ويتذكر ان روسيا عظيمة ، غنية ، ازدادت فى السنوات العشر الاخيرة ثراء . . فهل يستطيع الالمان قهرها . . قهر روسيا ؟ لقد

كان الجد ، حين تراوده مثل هذه الافكار ، يصاب بالرعشة ، وتهتز اعصابه ، مما يدفعه الى حك كعبيه الجافين السوداوين نتيجة الشمس الحارقة ، ويروح يحث الحصان الاصهب بصوته فيما ينفخ بشفتيه كالاطفال .

اما نيكولاى نيكولايفيتش خال اوليج ، فقد كان آسفا بالدرجة الاولى ازاء كونه قد بدأ العمل بالمؤسسة على نحو جيد ، حيث استطاع كمهندس جيولوجي شاب تحقيق اكتشافات موفقة فريدة فى اولى سنوات عمله ، فيما تضطره الظروف الى الانقطاع عن عمله بمثل هذه الصورة المباغتة الرهيبة . وقد بدا له ان الالمان سوف يقتلونه حتما ، وان لم يفعلوا ذلك فسوف ينبغى عليه اظهار ضروب الخداع حتى يتخلص من الخدمة لديهم . هذا بينما كان يدرك انه لن يعمل لديهم فى كل الظروف ، حيث ان ذلك امر غير طبيعى وغير مريح كالسير على اربع .

وكانت العمة مارينا التى لم يتقدم بها العمر تستعرض فى ذاكرتها مصادر دخل الاسرة قبل وصول الالمان . وقد وجدتها كالتالى . . مرتب نيكولاى نيكولايفيتش ؛ معاش يلينا نيكولايفنا الذى كانت تتقاضاه عن المرحوم زوجها ، زوج ام اوليج ؛ معاش الجدة فيرا فاسيليفنا ؛ الشقة التى افردتها لهم ادارة المؤسسة ، المزرعة الصغيرة الى جوار بيتهم . واتضح ان البنود الثلاثة الاولى قد فقدت بلا شك بوصول الالمان ، وقد يحرموا كذلك من بقية المصادر الاخرى . كانت تتذكر اولئك الاطفال الذين لقوا حتفهم عند المعبر ، ليتحول اشفاقها عليهم الى طفلها وتشرع فى البكاء . لقد تواردت الى خاطرها تلك الاقاصيص التى يحكونها بشأن تعرض الالمان للنساء بفظاظة ، واغتصابهن ، وعندئذ تذكرت نفسها هى المراة المليحة التى ربما تتعرض لملاحقة الالمان ، ليصيبها الرعب تارة ، ولتفكر فى انها سوف تتبسط فى ملابسها وتغير من تسريحة شعرها تارة اخرى ، عسى ان يمر الامر بسلام .

اما والد فيكتور بيتروف – ناظر الغابة فقد كان يعلم ان العودة الى بيته تنذر بالخطر القاتل الذى يتهدده هو الانسان المعروف فى المنطقة بمساهمته فى النضال ضد الالمان عام ١٩١٨ ، ويتهدد ابنه عضو الكومسومول . بيد انه لم يجد الى الخلاص سبيلا حين راح

يفكر فيما عسى ان يفعله اليوم . لقد كان يعلم ان ثمة من ابقى حتما من رجال الحزب لتنظيم العمل الفدائى والسرى . بيد انه انسان تقدم به العمر عمل طوال حياته بشرف كناظر الغابة وتعود على كونه سوف يظل الى الابد فى هذه الوظيفة . لقد كان يحلم بأن يستطيع منح ولده وبنته الفرصة كى يحصلا على مستوى جيد من التعليم . بيد انه وحين كانت تتسلل الى نفسه فكرة امكانية بقاء ماضيه مجهولا ، وانه سوف يحتفظ بامكانية العمل كناظر الغابة فى ظل السلطة الالمانية كان يشعر بحزن واشمئزاز يجعلاه ازاء رغبة جامحة تجتاحه هو الانسان القوى ، ضخم البنيان على الاشتباك فى عراك مع اى كان .

وفى نفس الوقت كان ابنه فيكتور يعيش مشاعر الاهانة والمرارة لتراجع الجيش الاحمر الذى كان موضع احترامه منذ الطفولة . ولقد كان مشرفا على حلقة النشاط العسكرى بمدرسته ، يعلّم الآخرين فنون القتال ويصقل قدراتهم الجسمانية تحت الامطار وفى الصقيع ، كما اوصى سوفوروف . ولم يكن انسحاب الجيش الاحمر ليحط من مكانته بطبيعة الحال ، لدى فيكتور . غير انه كان حزينا ، لعدم استطاعته فى حينه الانخراط فى صفوف الجيش الاحمر ضابطا ، اذ تصور انه لو كان قد تمكن من الالتحاق ضابطا به ، لما كان الجيش الاحمر قد تورط بالتاكيد فى مثل هذا الموقف العصيب الذى يثير الحزن . اما فيما يخص مصيره فى ظل الالمان ، فلم يكن يفكر فى ذلك ، حيث كان يعتمد كلية فى ذلك على ابيه وصديقه اناتولى بوبوف الذى كان يستطيع فى كل الظروف الحرجة ايجاد المخرج المباغت والسليم تماما .

وقد كان صديقه اناتولى يعانى بكل وجدانه لما تعرض الوطن له ، بينما يقضم اظافره فى صمت ، يفكر طوال الطريق فيما عساه اليوم ان يفعل . لقد قام طوال اشهر الحرب بالقاء سلسلة من المحاضرات باجتماعات الكومسومول حول الدفاع عن الوطن الاشتراكى ، لكنه لم يكن ليستطيع ان يعبر فى اى منها عن ذلك الاحساس بالوطن كشىء كبير صداح مثل امه تائيسيا بروكوفيفنا بقوامها الفارع البدين ووجهها المتورد المفعم طيبة ، واغانيها القوزاقية القديمة العجيبة والتى كانت تصدح بها الى جوار مهده . لقد كان

الاحساس بالوطن امرا لا يفارق كيانه ، يجعله يذرف الدمع حين تترامى الى مسمعه انغام اغنية حبيبة او حين يرى سنبلة قمح تداس ، او كوخ اضرمت فيه النيران . وها هو وطنه يعاني الكارثة ، تلك الكارثة التى لم يكن لينظر اليها او يفكر فيهـا دون ان يهصر الالم قلبه . يجب العمل . . العمل فورا . لكن اين ، ومع من ؟

لقد كانت هذه الافكار تراوده وتراود كل رفاقه ، بنسب متفاوتة .

ولم تكن هناك سوى اوليا تملك القدرة على التفكير سواء فى مصير وطنها ، او فى مصيرها الشخصى . فقد كان كل ما عانته منذ تلك اللحظة التى شاهدت فيها برج المنجم رقم ١ يتهاوى . . اى وداعها مع اعز صديقاتها وامها ، وذلك الطريق الذى قطعته عبر البرارى التى احرقتها الشمس واخيرا ، منطقة المعبر حيث جسد كل كيانها ما عانته ازاء منظر الجزء العلوى من جسد المراة ذات المنديل الاحمر الذى كان يغطى راسها وقد تضرج بالدماء ، والطفل الذى جحظت عيناه من محجريهما ، كان كل ذلك يتجلى ثانية ، وثالثة امام ناظريها ليبدو كخنجر يغمد فى قلبها ثم يدور كرحى طاحونة ، فيما يقطر هذا الفؤاد دما . لقد كانت تسير الى جوار المركبـة صامتة ، وكانما هى هادئة الجنان ، ولم يكن يعكس ما يجيش به صدرها سوى امارات قوة كئيبة تجلت فى عينيها ومنخاريها وشفتيها .

غير ان جورا اروتيونيانتس كان على النقيض منها ، يعرف تماما كيف ستكون حياته فى ظل الالمان . فقد راح يفكر بصوت عال على نحو يوحى بالاعتزاز بنفسه :

— هؤلاء الضوارى ! هل يستطيع شعبنا مهادنتهم ؟ انه سوف يهب دون شك حاملا السلاح كما يفعلون فى المناطق المحتلة اليوم . ان ابى انسان يتسم بالهدوء ، غير اننى لا اشك فى انـه سوف يحمل السلاح . اما امى ، بما تتميز به من طباع ، فسوف تفعل ذلك ايضا وبالتاكيد . وكيف لنا ان نفعل ، نحن الشباب وقد سلك كبارنا هكذا ؟ اننا نحن الشباب ، يجب ان نجتمع ، او نلم اولا شمل بقية الرفاق الذين لم يرحلوا ، ثم نجتمع للاتصال فورا بمنظمة العمل الفدائى السرية . اننى اعلم انه قد بقى بكراسنودون وعلى اقـل تقدير ، فولوديا اوسموخين ، وتوليا اورلوف ، فهل سيقفان مكتوفى

الايدى ؟ اما ليوسيا ، شقيقة فولوديا ، فهى فتاة رائعة — وقد تجلت مشاعر جورا فى هذه الجملة — لن تنتحى جانبا باى حال من الاحوال .

وذكر فانيا زيمنوخوف لجورا فى تلك اللحظة التى لم يكن هناك سوى كلافا يعيرهما سمعا :

— اسمع . . انك ابرك ! ولعمرى نحن جميعا متفقون معك . الاّ انه يجب عليك الصمت . اولا . . فان هذا الموضوع رهن ضمير كل واحد فينا . وثانيا . . انك قادر على كفالة الجميع . فماذا يمكن ان نفعل ، نحن وانت ، اذا ما تولى هذا الامر آخر ، ثم باح بالسر ؟ وتسائل جورا وقد علت امارات الرضى عينيـه السوداوين :

— ولماذا سميتنى ابرك ؟

— لانك اسمر ، وتتصرف كما الفارس القوقازى .

وهمس جورا بصوت خافت :

— لك ان تعلم يا فانيا اننى سوف اختار كنية «ابرك» حين انضم للعمل الفدائى السرى .

وقد كان فانيا يشاطر جورا افكاره ومشاعره . بيد ان كل ما توارد الى خاطر فانيا كان مشبعا باحساسه بالسعادة ازاء كونه قريبا من كلافا ، وبالفخر حين تذكر سلوكه عند المعبر ، لحظة توجه اليه كوفاليوف قائلا : «فانيا . . انقذهما !» ، حيث تصور نفسه منقذ كلافا . وقد كانت هذه المشاعر فياضة متدفقة لان كلافا كانت تشاطره اياها . ولو لم يكن القلق يساور كلافا بشأن مصير ابيها ، وكذلك نحيب امها ، لكانت قد شعرت بالسعادة ، فى بساطة وصراحة مع محبوبها فى برارى الدونيتس الغارقة فى اشعة الشمس الحارقة وبالرغم من ظهور بروج الدبابات الالمانية تارة هنا واخرى هناك ، ومواسير المدافع المضادة للطائرات وخوذات الجنود الالمان الذين اندفعوا ينهبون حقول القمح الذهبية ، يلفهم هدير المحركات والغبار .

وبين كل اولئك النازحين الذين كانوا يفكرون على نحو متباين فى مصيرهم ومصير شعبهم كان ثمة شخصان متباينى ايضا الطابع والعمر ، لكنهما متشابهان اشد ما يكون التشابه بحماسهما الفائق

وحميتهما المتوقدة . وقد كان اول هذين الشخصين فالكو ، بينما كان الثانى – اوليج .

كان فالكو انسانا صموتا بطبعه ، ولم يكن هناك من يستطيع ادراك ما يجول بخاطره ويخفيه مظهره الغجرى . وقد خيّل ان حياته تشهد تبدلا نحو الاسوا . ومع ذلك فلم يسبق لاحد ان رآه على هذا القدر من الحيوية والنشاط والمرح . لقد كان يقطع الطريق سيرا على الاقدام ، يعنى بالجميع ، يبادل الصبية الاحاديث عن طيب خاطر ، مع كل على حدة وكانما يختبرهم ، ويكثر من المزاح .

اما اوليج فلم يستقر كذلك فى مكانه على المركبة . كان يعرب علنا عن فروغ صبره ازاء رغبته فى رؤية امه وجدته . كان يفرك اطرافه فى سعادة ، منصتا الى جورا اروتيونيانتس ، بينما يروح تارة اخرى يضحك من فانيا وكلافا ، او يشرع فى تأتأة خفيفة محاولا تهدئة روع اوليا ، او يهدهد الطفل ذا الثلاثة اعوام ، او يفصح عن مشاعره فى حضرة العمة مارينا ، او يخوض حديثا طويلا حول الشؤون السياسية مع الجد . واحيانا كان يشرع فى السير الى جوار المركبة صامتا ، تغطى التجاعيد وجهه ، يند شبح ابتسامة عن شفتيه المكتنزتين اللتين انطبقتا على نحو طفولى مشوب بالعناد ، تشخص عيناه فى شرود ، مفعمة بامارات الاستغراق فى التفكير ، والرقة والقسوة فى آن واحد .

لقد كانوا على مسافة قريبة من كراسنودون حين هبت تلاقيهم مجموعة منعزلة من الجنود الالمان . وشرع الجنود الالمان على نحو عملى لا يتسم بالفظاظة ، يفتشون المركبتين ، ليأخذوا كل ما هو حريرى من حقيبتى مارينا واوليا ، وانتزعوا حذائى والد فيكتور وفالكو ، كما صادروا ساعة الاخير الذهبية القديمة التى كانت تعمل على افضل وجه رغما عن انها غرقت فى المياه حين كان فالكو يشق امواج نهر الدونيتس .

وما لبث ذلك التوتر العصبى الذى ألم بهم فى اول مواجهة مباشرة مع الالمان ، والتى كانوا يتصورون نهايتها اسوأ من ذلك ، ان تحول الى شعور بالارتباك والحيرة ، توارى فيما بعد لتنتاب الجميع حيوية غير طبيعية . اذ راحوا يقلدون الالمان لحظة تفتيشهم للعربتين ، يسخرون من مارينا التى اسفت كثيرا لفقدان جواربها

الحريرية ، ولم ينج من سخريتهم حتى فالكو ووالد فيكتور ، اللذين كانا اكثر الجميع احساسا بالارتباك والضيق ، بينما ينتعلان شبشبين . ولم يكن هناك سوى اوليج الذى لم يشارك الركب مرحه المصطنع ، تعلو وجهه امارات الحدة والحنق .

ووصل الركب الى مشارف كراسنودون ليلا ، لكنه لم يدخل المدينة وفقا لنصيحة فالكو الذى توقع فرض حظر التجول ليلا ، ولذا فقد توقف الجميع لقضاء الليل فى الوهدة . وكانت ليلة مقمرة لم يغمض لاى من النازحين فيها جفن لمدة طويلة ، حيث اضناهم القلق .

ومضى فالكو يستكشف ارجاء الوهدة ، ليتعالى الى سمعه فجاة دبيب خطوات فيما خلفه . والتفت الى الوراء ثم توقف ليتبين على ضوء القمر الذى عكست قطرات الندى اضواؤه الناصعة ، اوليج الذى شرع يقول بصوت خافت مشوب بتأتأة خفيفة :

– ايها الرفيق فالكو ! اننى فى اشد الحاجة للحديث معك بعض الوقت .

واجابه فالكو ضاحكا :

– حسنا ، لكن يتحتم علينا ذلك وقوفا ، حيث الارض مبللة كما ترى !

وذكر اوليج وهو يتأمل عينى فالكو الغائرتين تحت حاجبيه الكثّين :

– فلتساعدنى للاتصال بأى من القائمين على العمل الفدائى بالمدينة .

ورفع فالكو راسه فى حدة يحدق النظر فى اهتمام الى وجه اوليج . فقد كان يقف حيال انسان من ممثلى الجيل الجديد الناشىء .

وقد كانت تشكل الوجه الناصع لهذا الجيل سمات فريدة لا رابط بينها على ما يبدو . الاحلام والواقع ، الخيال والحقيقة ، حب الخير والقسوة الصارمة ، التسامح والتقدير الدقيق للامور ، الحب الجارف للحياة ومباهجها وضبط النفس ازاء ذلك .

ولقد كان فالكو يدرك جيدا جوهره ، جوهر ذلك الجيل لانه كان جزءا منه على اقل تقدير .

وذكر فالكو مبتسما :

– ربما تكون قد وجدت هكذا احد الفدائيين ، فماذا علينا اذن ان نفعله . . ذلك هو ما سوف نتحدث بشأنه .

وراح اوليج ينتظر صامتا ، ليقول فالكو :

– اننى ارى ان قرارك هذا ليس وليد اليوم .

وقد كان محقا ، اذ انه ما كاد الخطر يحيق بفوروشيلوفجراد حتى توجه اوليج الى لجنة الناحية للكومسومول ، يعرض جهوده للاستفادة بها فى تنظيم مجموعات العمل الفدائى . وقد كانت تلك هى المرة الاولى التى يخفى فيها نواياه عن امه .

ولشد ما اساؤوا اليه حين اجابوه دون تفسير الاسباب :

– اسمع يا اخ ! فلتجمع حاجياتك وترحل سريعا قبل ان تسوء الأمور .

لم يكن يعرف ان لجنة المنطقة للكومسومول لم تشكل مجموعات خاصة للعمل الفدائى ، اما اعضاء الكومسومول الذين بقوا تحت تصرف منظمات الفدائيين ، فقد جرى تحديدهم فيما قبل . ولذا فقد كانت الاجابة التى جُوبه بها فى لجنة المنطقة لم تكن فظة بل كانت الى حد ما تعبيرا عن اهتمام بأمره . ولذا فقد اضطر الى الرحيل .

بيد انه وحين تبددت تلك الصدمة الاولى التى اثارتها الاحداث عند المعبر ، وحين ادرك اوليج انه لم يستطع الرحيل ، تواردت الى خاطره فكرة فحواها ان ما كان يحلم به قد غدا قريبا من التحقيق . وانزاح عن كاهله عبء الهروب ، وفراق امه ، والحيرة ازاء المستقبل المجهول ، ليترك العنان لكل القوى الكامنة فى اعماقه ، ولكل رغباته واحلامه وآماله ، وكل ما يجيش به صدره من حمية واندفاع الشباب .

ومضى فالكو يقول :

– لقد شعرت بالراحة حين اتخذت مثل ذلك القرار . وذلك امر يجعل طباعك شبيهة بطباعى . اننى وحتى الامس كنت اسير افكار لا تبارح مخيلتى . . كيف قمنا بتفجير المنجم تارة ، وكيف ينسحب جيشنا ويتعذب النازحون والاطفال تارة اخرى .

ثم اردف يقول فى صراحة متناهية : ان قلبى غارق فى دياجير الظلام . لقد كان من المفروض ان أتهلل غبطة لقرب لقاء عائلتى ، التى لم ارها منذ بداية الحرب ، بينما يتعالى وجيب قلبى . . «ماذا

بعد ؟» لقد كان الامر هكذا بالامس . . فماذا يخبئ لنا اليوم ؟ لقد تراجع جيشنا ، وفرض الالمان سيطرتهم علينا . . ولن ارى عائلتى . . وقد لا اراها ابدا . هذا بينما قد هدأ روعى . . فما السر فى ذلك ؟ ربما لانه لم يصبح امامى سوى طريق واحد ، وذلك امر غاية فى الاهمية .

وكان اوليج يشعر فى تلك اللحظة وبالوهدة الكائنة فى ضواحى كراسنودون التى يغمرها ضوء القمر ، الذى تتلألأ اشعته فوق قطرات الندى ، ان ذلك الرجل صارم القسمات المتحفظ ذا الحاجبين الكثين كما الغجر يتحدث اليه فى صراحة ، ربما لم يكن يفصح عنها مع اى انسان آخر .

وقد ذكر فالكو :

– اسمع يا صديقى . . يجب عليك الاّ تفقد الصلة بهولاء الشباب ، فانهم من ذوينا . لا تظهر ما فى مكنونك ، ولا تفقد صلتك بهم . ولتبحث عن شباب آخرين يصلحون للعمل معنا . وحذار ان تتصرف بدون علمى والاّ كان الفشل حليفك . اننى سوف اخبرك بماذا يجب عليك ان تفعله ومتى يجب ذلك .

وتساءل اوليج :

– هل تعلم من الذى ابقى للعمل الفدائى بالمدينة ؟

واعترف فالكو صراحة :

– لست ادرى . .. لكننى سوف اجدهم حتما !

– وكيف لى ان اجدك ؟

– لا داعى لأن تجدنى . وما كنت لأنبئك بعنوان مسكنى ، ان كان لى مسكن . غير اننى وصراحة لا املك بعد مسكنا .

وكم كان من المؤلم ان يحمل فالكو نبأ استشهاد الزوج والأب ، الاّ انه كان قد قرر الاختباء فى الايام الاولى لدى اسرة شيفتسوف ، التى كانت تحبه وتعرفه . كما وكان يأمل عن طريق فتاة جسورة مثل ليوبكا تنظيم اتصالاته والبحث عن مسكن فى منطقة نائية مهجورة .

– من الافضل ان تترك لى عنوانك . وسوف اجدك عند الضرورة .

وراح فالكو يردد عنوان اوليج حتى وعته ذاكرته . ثم قال بصوت خافت :

– لا تخف وسوف اجدك حتما . واذا ما طال الوقت ولم تصلك اخبارى ، فلا تقلق وانتظر .

واردف يقول وهو يربت براحته العريضة كتف اوليج قائلا :

– والآن . . اذهب !

وذكر اوليج بصوت يسمع بالكاد :

– شكرا لكم !

وتقدم عائدا ادراجه الى الركب تجتاح اعماقه مشاعر اضطراب تحلق به فوق الاعشاب المغطاة بقطرات الندى . كان الجميع قد خلدوا الى النوم ، وليس هناك سوى احصنة تلوك الاعشاب ، وكذلك فانيا زيمنوخوف الذى جلس الى جوار راس كلافا النائمة ، وامها ، وقد احاط ركبته المدببة بذراعيه .

وتوارد الى خاطر اوليج فيما تجتاحه مشاعر الحب والحنان ازاء كل الناس . . «آه ، يا فانيا ايها الصديق الحبيب !» . وتقدم نحو رفيقه ، ليجلس الى جواره مفترشا الاعشاب الغارقة فى قطرات الندى .

واستدار فانيا اليه بوجهه الذى كساه ضوء القمر شحوبا ، يساله فى حيويه بصوت اجش :

– هيه . . ماذا قال لك ؟

وساله اوليج وقد اعترته الدهشة والحيرة فى آن واحد :

– عما تسال ؟

– ماذا ذكر لك فالكو ؟ هل يعرف شيئاً ؟

وتامله اوليج فى غير ما حسم .

وذكر فانيا فى أسى :

– أوتظن انك قادر على ان تغرّر بى ؟ لسنا بصغار فى حقيقة الامر .

وهمس اوليج متسائلا ، وقد تزايدت دهشته ، محدقا بعينيه اللتين اتسعتا تعبيرا عن ذلك :

– كيف عرفت ؟

وذكر فانيا وهو يضحك ساخرا :

– ليست بالامر الصعب معرفة علاقاتك السرية ، حيث انها لا تتباين عن علاقاتى . اوتظن ان ما جال بخاطرك ، لم يرد الى خاطرى

كذلك .

– فانيا !

وامسك اوليج بيديه الكبيرتين راحة زيمنوخوف الضيقة يشد عليها بقوة ، ليجيبه فانيا بدوره على نفس النحو .

– هل يعنى ذلك اننا معا ؟

– بطبيعة الحال . . معا !

– الى الابد ؟

واجابه فانيا بصوت خافت للغاية وبكل جدية :

– الى الابد ، وطالما تجرى الدماء فى عروقى .

وراح كل منهما يتامل الآخر ، فيما تشع اعينهما . ذكر اوليج فى فخر :

– اؤكد لك انه لا يعرف شيئا بعد . غير انه ذكر انه سوف يجدهم . .. وحقا يقول . وعليك الاّ تتاخر كثيرا فى نيجنيا الكسندروفكا .

واجابه فانيا وهو يومئ براسه فى حسم ، وقد اعترته بعض الحيرة :

– كلا . . عليك الاّ تفكر فى ذلك . اننى سوف اعينهما فقط على الاستقرار فى البداية .

ومال اوليج الى وجه فانيا يهمس اليه متسائلا :

– هل تحبها ؟

– وهل يمكن الحديث فى مثل هذه الامور ؟

وذكر اوليج بنبرة تنم عما اتسم به وجهه من امارات سعادة مشوبة بالسذاجة :

– لك الاّ تخجل من ذلك ، حيث ان هذا الامر شىء رائع ، غاية فى الروعة . يا لها من رائعة . . رائعة . اما انت . . فاننى لا اجد ما يعيننى على التعبير عن فضائلك .

وذكر فانيا :

– ان الحياة رائعة رغما عن كل شىء ، وعن كل ما نعانيه ويعانيه سائر البشر .

– صحيح . . صـ . . . صحيح !

ذكر اوليج متاتئا على نحو اكثر من العادة ، بينما ترقرقت

الدموع فى عينيه .

كان قد انقضى اكثر من اسبوع قليلا منذ تلك الفترة التى شاء فيها القدر ان يجمع بالبرارى كل هؤلاء الناس متباينى الطباع ، الشباب منهم والشيوخ . وها هم يجتمعون للمرة الاخيرة وقد نشرت الشمس اشعتها فوق البرارى ، ليخيل اليهم انهم عاشوا حقبة طويلة من عمرهم جنبا الى جنب لتجتاحهم مشاعر الحزن والاضطراب والحنان حين تحين لحظة الفراق .

– هيه . . ايها الشباب ، وايتها الفتيات !

بدأ فالكو حديثه هكذا ، حين وقف وسط الوحدة ينتعل شبشبا ، الا انه لم يقل اكثر من ذلك ليشيح بيده التى لوحتها الشمس على نحو غامض .

وتبادل الشباب عناوينهم ، وقطعوا على انفسهم عهودا بالتزاور ، ثم تواعدوا فيما بينهم . وافترق الجميع تحتويهم كافة اتجاهات البرارى ، الا انهم كانوا ما يزالوا فى مرمى ابصار كل منهم الآخر ، ليروح البعض يلوح فى اتجاه الآخر بمنديل او بيده . وما لبثوا ان تواروا الواحد تلو الآخر فيما وراء التل او فى الوهدة ، وكأنما لم يكن ذلك الطريق الطويل ، وتلك الحقبة الرهيبة تحت اشعة الشمس الحارقة .

وهكذا تجاوز اوليج كوشيفوى عتبة بيته الحبيب الذى احتله الالمان .

الفصل الحادى والعشرون

استقرت مارينا مع صغيرها فى الغرفة الصغيرة المجاورة للمطبخ ، حيث كانت تقيم الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا . اما نيكولاى نيكولايفيتش واوليج فقد صنعا لنفسيهما فراشين من الواح الخشب ، ليستقرا على اى نحو كان فى عنبر خشبى الى جوار المنزل .

وسرعان ما انهالت عليهم الجدة التى اضناها غياب سامعيها (حيث لم تكن لتستطيع ان تعتبر سميرها ذلك الخادم ذا الوجه الذى يغطيه النمش) بفيض من اخبار المدينة .

فمنذ يومين ظهرت المنشورات البلشفية المكتوبة بخط اليد على جدران مداخل اكبر المناجم ، وعلى مبانى مدرستى جوركى

وفوروشيلوف ، واللجنة التنفيذية للمنطقة ، وفى اماكن اخرى كثيرة . وكانت تلك المنشورات تحت توقيع «لجنة الحزب الشيوعى لعموم الاتحاد السوفييتى (البلشفى) بمنطقة كراسنودون» . وكان اكثر ما يثير الدهشة هى تلك الاعداد القديمة من جريدة «البرافدا» ، التى صدرت منذ سنوات تحمل صور لينين وستالين ، وتعلق اليوم جنبا الى جنب مع المنشورات . وتقول الاشاعات التى انتشرت استنادا الى اقوال الجنود الالمان ان الفدائيين يهاجمون خطوط مواصلات الالمان ووحداتهم العسكرية فى مختلف مناطق الاقليم ولا سيما عند الدونيتس وعلى حدود اقليمى روستوف وفوروشيلوفجراد فى منطقتى بوكوفو – انتراتسيتوفسكى وكريمينسكى .

وحتى اليوم لم يمثل اى من الشيوعيين او شباب الكومسومول لتسجيل اسمه لدى الحاكم العسكرى الالمانى (وفكرت الجدة فيما بين نفسها . . هل يمكننى ان امضى كى القى بنفسى فى اشداق الذئاب ؟ فليخنقهم الله كمدا وحسرة !) ، بيد ان هناك الكثيرين الذين افتضح امرهم وجرى القبض عليهم . ولم تكن هناك مؤسسة او هيئة تمارس عملها المعتاد ، بيد ان امر الحاكم العسكرى كان ينص على ضرورة توجه الجميع الى مقار اعمالهم والبقاء هناك طيلة ساعات العمل المحددة . وذكرت الجدة فيرا ان المهندس الميكانيكى باراكوف وفيليب بيتروفيتش ليوتيكوف يترددان للعمل بالورش الكهربائية الميكانيكية المركزية لمؤسسة «فحم كراسنودون» . وتقول الاشاعات ان الالمان لم يمسونهما . علاوة على انهم قاموا بتعيين باراكوف مديرا للورش ؛ اما ليوتيكوف فقد جرى الابقاء عليه فى وظيفته القديمة اى رئيسا للورشة الميكانيكية .

وظلت الجدة تفكر فى دهشة وسخط :

– من ذا الذى كان يتوقع ذلك من هذين الشخصين ؟ انهما عضوان حزبيان قديمان ! كما وكان باراكوف قد نال شرف القتال بالجبهة وجرح . اما ليوتيكوف فقد كان شخصية اجتماعية يعرفها الجميع . فما الذى حل بهما ؟

كما وذكرت ان الالمان يتصيدون اليهود بالمدينة ، لينقلوهم الى ضواحى فوروشيلوفجراد ، حيث اقيم لهم حسبما يقال «جيتو» ، بيد ان الكثيرين يؤكدون انهم ينقلونهم الى دغلة فيرخنيدوفانايا

حيث يعدمونهم ويهيلون عليهم التراب . وقد كانت ماريا اندرييفنا بورتس قلقة جدا ازاء احتمال ان يشى احد بزوجها .

وقد تبدد ذلك الذهول الذى وقعت يلينا نيكولايفنا فريسة له ، وتزايد على نحو خاص مع مقدم الالمان ، منذ تلك اللحظة التى عاد فيها اوليج ادراجه الى منزله وكأنما مسّتها يد سحرية . وغدت تتسم ثانية بحماسها الفائق وحيويتها البالغة . وراحت تحوم حول ابنها كأنثى النسر حول وليدها الذى سقط من عشة . وكثيرا ما كان يشعر بنظراتها التى تتسم بالقلق المشوب بالتوتر والاهتمام متعلقه به وكأنها تود ان تسأله . . كيف حالك يا بنى ؟ هل فى مقدورك تحمل كل ذلك يا وليدى ؟

اما هو وبعد تلك الموجة من الحماس المعنوى التى اجتاحته اثناء طريقه ، فقد ادركته موجة من الذهول النفسى ازاء شعوره بأن الامور ليست كما تصورها باى حال من الاحوال .

اذ يتخيل الشاب الذى ينخرط فى غمرة النضال ، الحياة عامرة بسلسلة من المآثر والبطولات التى يحققها ضد التعسف والشر . الا ان الشر يبدو بعيدا عن متناول يده ، شيئا يصادفه يوميا دنيئا لا يطاق .

لم يجد اوليج حيا ذلك الكلب الكبير الاسود كث الشعر والذى كان يهوى ملاعبته . وبدا عاريا ذلك الشارع الذى اجتثت نباتات واشجار بساتينه وافنيته ؛ شأن الالمان الذين كانوا يذرعونه عراة ايضا وعلى ما يبدو .

ولم يعر الجنرال البارون فون فينتسيل اهتماما باوليج ومارينا ونيكولاى نيكولايفيتش ، كما لم يكن يعيره الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا .

ولم تكن الجدة فيرا تشعر فى الواقع ، باية اهانة فى تصرفات الجنرال على هذا النحو . وكانت تعلق على ذلك قائلة :

— هذا هو نظامهم ، وهو اشبه بذلك النظام العبودى الذى عاشه جدى وقص على احكامه وظروفه . لقد كان هناك آنذاك المان ، من كبار الملاك لا يقلون غطرسة وتعاليا عن ذلك البارون الذى ارجو ان تفقأ عيناه . فما الذى يجعلنى اعانى مشاعر الحزن والاسى ؟ انه لن يتبدل حتى يجىء رجالنا وينزلون به اقسى العقاب .

بيد ان اوليج كان يعتبر الجنرال بحذائه الضيق اللامع وعنقه المغسول ، المسؤول الرئيسى عن تلك المهانة التى لا تطاق والتى يعيشها اوليج وذووه وسائر البشر فيما حوله . وخيل اليه ان قتل الجنرال هو الامر الوحيد الذى يمكن ان يمحو آثار المهانة ، الاّ ان غيره سوف يحل محله ، وفى نفس الهيئة — ذو حذاء ضيق لامع وعنق مغسول .

اما مساعده طويل الساقين فقد راح يبدى اهتمامه الذى يتسم بالبرود والتهذيب ، بمارينا التى غدا يجبرها كثيرا على القيام بخدمته وخدمة الجنرال . وقد كانت عيناه عديمتا اللون حين تقعا على مارينا ، تتسمان بامارات الاحتقار والفضول الصبيانى وكأنما يتأمل حيوانا غريبا قد يكون قادرا على تسليته كثيرا ، الاّ انه لا يدرى وسيلة للتعامل معه .

واليوم غدت التسلية المحبّبة لدى المساعد ، محاولة استمالة ابن مارينا الصغير ، بتقديم قطعة من الحلوى اليه ، ليلقى بها فى فمه حين تمتد يد الطفل اليها . وقد كان المساعد يعيد تلك الحركة مرة واثنتين وثلاث حتى ينخرط الطفل فى البكاء . وعندئذ يجلس المساعد القرفصاء يمد لسانه وقد علقت به قطعة الحلوى ، ليروح يمصها ويلوكها فى حركة استعراضية ، ضاحكا بصوت عال محملقا بعينيه الباهتتين .

وقد كانت مارينا تمقت كل شىء فيه . . . من ساقيه الطويلتين وحتى اظافره البيضاء على نحو غير طبيعى . انها لم تكن تتصوره ليس انسانا وحسب ، بل وحيوانا ايضا . لقد كان يثير فى نفسها الاشمئزاز ، كما يشمئز شعبنا من الضفادع والسحالى . وقد كانت تشعر حين كان يجبرها على خدمته ، بالاشمئزاز المشوب بالرعب ازاء كونها تخضع لسلطان مثل هذا المخلوق .

بيد ان الخادم ذا الوجه الملىّ بالنمش هو الذى كان فى حقيقة الامر ، يجعل حياة الشباب صعبة لا تطاق . فقد كان وقت فراغه كثيرا لدرجة تثير الدهشة . . وكان يعتبر نفسه رئيسا للخدم الآخرين وجنود الخدمة والطهاة الذين يعملون فى خدمة الجنرال . وقد راح يقضى وقت فراغه فى توجيه الاسئلة الى الموجودين من الشباب حول تفاصيل محاولتهم الهروب من الالمان ، وفشلهم فى

ذلك ، ليعيد عليهم مرارا تصوراته حول انه لا يمكن ان يفر من الالمان سوى المتوحشين والحمقى .

كان يلاحقهم فى العنبر الخشبى ، حيث كانوا يقيمون ، وفى الفناء ، حين كانوا يخرجون اليه لاستنشاق الهواء ، وفى البيت حين يكون الجنرال غائبا . ولم يكن يحررهم من ملاحقته سوى ظهور الجدة .

وكم كان غريبا ان ترهب الجدة فيرا ذلك الخادم ضخم القامة ذو اليدين الحمراوين ، والذى كان يعاملها مع ذلك على نفس النحو الذى يعامل به الآخرين . ولقد كان الخادم الالمانى والجدة فيرا يتفاهمان فيما بينهما بخليط عجيب من اللغتين الالمانية والروسية ، تدعمه ايماءات واشارات وتعبيرات للوجه والجسد ، دقيقة لاذعة عند الجدة ، بليدة ، بذيئة ، تتسم بالحماقة عند الخادم . بيد انهما كانا يفهمان بعضهما البعض على اكمل وجه .

ومنذ ذلك الحين يتجمع كل افراد الاسرة فى العنبر الخشبى صباحا وظهرا ومساء يتناولون طعامهم ، خلسة دون ان يراهم احد تقريبا . كانوا يتناولون حساء الكرنب الطازج والخضروات والبطاطس المسلوقة ، واقراص من دقيق القمح صنعتها الجدة كبديل عن الخبز . فقد افلحت الجدة فى اخفاء كثير من المؤن . بيد انه وبعد ان التهم الالمان كل ما وقعت عليه ايديهم ، راحت الجدة تعد طعاما لا يغنى عن جوع متظاهرة امامهم بانه لا يوجد لديها ما يؤكل . بيد انها كانت حين يخلد الالمان الى النوم ليلا ، تقوم بالتوجه الى العنبر الخشبى حاملة قطعة من الدهن او بيضة نيئة . وكان ذلك الامر ، تناول الطعام خلسة تحت جنح الظلام ، يثير مشاعر المهانة .

لم يعلن فالكو بعد عن نفسه . كما ولم يظهر فانيا . وغدا صعبا على المرء تصور تلك الطريقة التى سوف تجمعهم . كان الالمان موجودين فى كل بيت . وكانوا يترصدون بانتباه بالغ كل زائر . كما وكانت تثير شكوكهم اية لقاءات عابرة ، او حديث فى عرض الشارع .

وكان اوليج حين يتمدد فى فراشه مستندا برأسه الى ذراعيه وقد هجع الجميع فيما حوله ، وتسلل نسيم البرارى العذب عبر باب العنبر المفتوح ، وحين يبعث البدر بأشعته الفضية يمزق ظلمة السماء ، راسما مثلثا قائم الزاوية من الظلال عند قدميه ، كان يشعر بسعادة مفعمة بالآلام لحظة تفكيره فى ان لينا بوزدنيشيفا

تقطن الى جواره فى نفس هذه المدينة . وقد كان طيفها يحوم حوله غامضا مبهما . . اذ تصور عينيها كثمرتى كرز تتالقان ليلا ، ذهبيتين تحت ضوء القمر . نعم ، لقد شاهد هاتين العينين فى الحديقة العامة ايام الربيع ، وقد يكون ذلك فى منامه . وترامت الى سمعه ضحكتها ذات النبرات الفضية ، والتى بدت على نحو غير طبيعى بحيث يغدو المرء قادرا على تحديد اصواتها ، وكأنما هى اصوات ملاعق ترتطم كل منها بالاخرى فيما وراء الجدار . لقد كان اوليج يرقد فريسة احساسه بقربه منها وافتراقه عنها ، ذلك الاحساس الذى يراود الشباب خاليا من الرغبة وتأنيب الضمير ، يحدوه امل اللقاء بها فى منامه .

وقد كان اوليج ونيكولاى نيكولايفيتش لا يدخلان بيتهما الحبيب الا لحظة تغيب الجنرال ومساعده عنه ، لتلسع انفيهما رائحة عطر معقدة ، ودخان مستورد ، وكذلك تلك الرائحة الخاصة بغير المتزوجين والتى لا يمكن لرائحة عطر او دخان ان تسودها ، وتميز على حد سواء مساكن الجنرالات والجنود الذين يعيشون بعيدا عن عائلاتهم .

ودلف اوليج الى المنزل لزيارة امه فى احدى تلك الساعات التى تتسم بالهدوء . وكان الطاهى الالمانى والجدة فيرا يلزمان مكانهما الى جوار الموقد كل يعد ما يخصه من طعام . اما الخادم فقد كان مستلقيا يدخن على كنبة فى الغرفة التى جرى استخدامها كغرفة للطعام ، دون ان يخلع حذاءه وكابه ، معانيا على ما يبدو من وطأة الملل . لقد كان مستلقيا فوق الكنبة التى كان اوليج يستخدمها عادة فراشا له .

وما كان اوليج يدخل الى الغرفة حتى تعلقت به عينا الخادم اللتان تعلوهما امارات الكسل والملل . وصاح الخادم :

– قف ! يبدو ان الغرور قد بدأ يراودك . نعم ... اننى الحظ ذلك مع كل يوم . ثم استوى جالسا ، وقد القى الى الارض بقدميه الضخمتين فى حذائه ذى النعل السميك ، ليمضى قائلا :

– فلتسدل يديك جانبا وتضم كعبيك . انك تحادث من هو اكبر منك سنا !

لقد كان الخادم يحاول بذلك اثارة مشاعر الغضب فى نفسه ،

او الحساسية على اقل تقدير ، بيد ان حرارة الجو الخانقة انهكتـه لدرجة لم يعد معها قادرا على ذلك ، ليمضى صائحا :

– فلتنفذ ما تؤمر به ! هل سمعت ؟ هيه ، يا انت . . .

وفجأة تظاهر اوليج الذى كان يفهم كل ما ذكره الخادم وينظر الى النمش الذى يغطى وجهه فى صمت ، بالخوف ، ليجلس سريعا القرفصاء ، فيما يدق على ركبتيه ، صائحا :

– لقد اقبل الجنرال !

وهب الخادم على الفور واقفا ، لينتزع من فمه بسرعة سيجارته التى فركها بين اصابعه . وكست امارات استكانة بليدة وجهه الكسول ، ودق كعبيه كل بالآخر ، ليقف جامدا . . انتباه !

وعلق اوليج على ذلك بصوت خافت فيما يشعر بسعادة ازاء كونه قادرا على الافصاح عما يجول بخاطره دون خوف من ان يفهمه :

– حسنا . . ايها الاجير ! لقد استلقيت كما يحلو لك ، ما دام سيدك غائبا . . وعليك الآن ان تظل واقفا هكذا !

ومضى الى غرفة امه ، التى كانت تقف الى جوار بابها ، شاحبة الوجه ، ممسكة فى يدها بقطعة قماش كانت تحيكها . وكانت قد سمعت بكل ما دار هناك ، حيث قالت :

– وهل يصح ذلك يا بنى . .

بيد ان الخادم اقتحم الغرفة فى تلك اللحظة وقد استشاط غضبا ، ليصيح :

– فلتعد ثانية ! تعال هنا !

وكست الحمرة وجهه لدرجة لم يعد النمش معها باديا للعيان .

وقال اوليج بصوت شابته الرعشة ، ودون ان يرفع ناظريه الى الخادم وكأنما لا وجود له :

– لا تعيرى اهتماما يا اماه الى هذا الابله !

وزأر الخادم غاضبا :

– تعال هنا . .. ايها الخنزير !

واندفع فجأة الى اوليج ، ليمسك بكلتا يديه بتلابيبه ويهزه كما المسعور ، يحدقه بعينين بدتا ناصعتى البياض فى اطار وجهه القرمزى .

وصارت يلينا نيكولايفنا تتوسل الى ابنها ، فيما تحاول بيديها الصغيرتين ابعاد قبضتى الخادم الكبيرتين القرمزيتين عـن صدر ابنها ، قائلة :

– لا داعى . . ! لا داعى . . . ! فلتتنازل يا بنى . . ماذا يدعوك الى هذا . .

واذ كست الحمرة وجه اوليج كذلك ، امسك بكلتا يديه الخادم من حزامه فى اسفل السترة ، ليغمد عينيه البراقتين بكراهية لا حد لها فى وجهه ، مما جعله يرتبك لحظة من الزمن .

– دعنى . . هل تسمع ؟

همس اوليج بنبرة تنم عن الرعب ، فيما يشد الخادم ناحيته ، وقد غدا اكثر هياجا مما جعل الخادم يتردد بعض الشىء ، تعلو وجهه امارات شىء أشبه بالخوف ، يعنى تشككه ازاء جدوى موقفه وسلوكه .

واطلق الخادم سراحه ، ليقف كل منهما فى مواجهة الآخر ، يلتقط انفاسه .

وراحت يلينا نيكولايفنا تردد :

– انصرف يا بنى . . انصرف !

وطفق الخادم يغمغم محاولا اضفاء معانى الاحتقار الى كلماته :

– همجى . . اشد الهمجيين همجية ! انه من الواجب ترويضكم جميعا بالسوط كما الكلاب .

وذكر اوليج وهو يتأمل عينيه البيضاوين فى كراهية شديدة :

– ليس هناك اشد الهمجيين همجية سواك ، حيث انك خادم المتوحشين ، ولا تستطيع سوى سرقة الدجاج ، والعبث فى حقائب النسوة ، ومصادرة احذية المارة .

كان الخادم يتحدث الالمانية ، بينمـا كان اوليج يتحدث الروسية ، بيد ان وجهيهما ووقفتهما كانت تعبر خير تعبير عن فهم كل منهما لما يقوله الآخر . وقد رفع الخادم راحته الغليظة ، حين كان اوليج يفرغ من سبابه ، لتهوى على وجهـه بقوة كادت ان تطرحه ارضا .

لم ترتفع طيلة حياة اوليج ، على مدى ستة عشر عاما ونصف ، يد لتهوى على وجهه سواء عقابا ، او تحت تأثير غضب او انفعال .

فقد كان الجو المحيط به منذ طفولته ، فى الاسرة وفى المدرسة جوا نقيا ، جو المنافسة الشريفة ، حيث العنف الجسمانى الفظ مرفوض ، شأن السرقة والقتل والحنث بالقسم . واندفعت الدماء الحارة الى راس اوليج ، لينقض على الخادم ، الذى نكص نحو الوراء مستندا الى الباب . وتعلقت الام بكتفى ابنها ، تضمه الى صدره ، فيما تلمع عيناها الجافتان ، قائلة :

– اوليج ! عد الى وعيك ! والاّ فقد يقتلك .

وتحدث وقع تلك الضجة هرعت الجدة فيرا ، ونيكولاى نيكولايفيتش والطاهى الالمانى فى طاقيته المميزة ومعطفه الابيض الذى ارتداه فوق سترته العسكرية . وقد كان الخادم ينهق كما الحمار . اما الجدة فيرا فقد راحت تصيح وتقفز حول الخادم ، كالدجاجة قبل ان تضع بيضتها ، تدفعه نحو غرفة الطعام وقد فردت ذراعيها الناحلتين اللتين تغيبهما اكمام عريضة مزيّنة برسوم متعددة الالوان .

واخذت يلينا نيكولايفنا تهمس فى اذن ابنها :

– اوليجكا . . يابنى . . ارجوك واتوسل اليك . هناك النافذة مفتوحة . فلتنج بنفسك . . فلتهرب .

واجابها اوليج فى عزة نفس ، فيما ترتجف شفتاه ومنخاراه :

– من النافذة ؟ لن اهرب من نافذة بيتى .

ومضى يقول وقد هدأ روعه :

– لا تخافى يا اماه ! دعينى وسوف امضى رغما عن كل شىء .

ثم اضاف فجأة : اننى سوف اذهب الى لينا .

وتقدم فى خطوات حاسمة خارجا من غرفة الطعام ، ليفسح له الجميع طريقه . والتفت الى الخادم يقول له :

– يا لك من خنزير . . واى خنزير ! تضربنى حين تعلم انه يستحيل الرد عليك بالمثل . .

ثم خرج فى خطوات متثاقلة .

كانت وجنته تستعر نارا ، ومع ذلك فقد كان يشعر بانه حقق انتصارا معنويا . اذ انه لم يستكن ازاء الألمانى وحسب ، بل وادخل الرهبة فى نفسه ايضا . لقد كان عازفا عن التفكير فى عواقب فعلته . ان الامر سيان ! وقد كانت الجدة على حق حين تساءلت : هل لنا ان نرضخ لنظامهم الجديد ؟ كلا ، بحق الشيطان ! انه سوف

يعيش حسبما يتراءى له . وسوف نرى من ذا الذى يقهر الآخر !

وتجاوز بوابة السور الى الشارع الموازى لشارع سادوفايا . وقد التقى عند عتبة البيت بستيوبا سافونوف .

وتساءل ستيوبا القصير القامة ذو الراس الاشقر بنبرة تعكس سعادته بلقاء اوليج الذى راح يشد على يده الكبيرة بكلتا يديه :

– الى اين ؟ اننى قادم اليك . .

واعترى اوليج الارتباك .

– اننى ذاهب لقضاء امور . . .

وقد كان يود ان يضيف «عائلية» ، الاّ انه لم يجرؤ على ذلك .

وسأله ستيوبا فى دهشة ، تاركا يده ، وكأنما يتعمد طرح الأسئلة المحرجة :

– ان الاحمرار يعلو وجنتك . . فماذا حدث ؟

وذكر اوليج والابتسامة تعلو وجهه :

– لقد تشاجرت مع احد الالمان .

ونظر ستيوبا الى وجنة اوليج الحمراء فى احترام ليقول :

– ماذا تقول ؟ ان ذلك امر رائع ! ولقد جئت اليك بشأن بحث قضية من هذا النوع .

وضحك اوليج متسائلا :

– اية قضية تقصد ؟

وامسك ستيوبا سافونوف باوليج من تحت ابطه قائلا :

– هيا بنا . . سوف ارافقك فى طريقك ، فقد يظن احد الالمان شيئا !

وذكر اوليج فى تاتاة :

– من الافضل ان ارفقك الى حيثما تشاء .

– لعلك تستطيع تأجيل ما اعتزمت القيام به لبعض الوقت لتذهب معى ؟

– الى اين ؟

– الى فاليا بورتس .

وشعر اوليج بتأنيب ضميره ازاء كونه لم يزر فاليا حتى ذلك الوقت .

– الى فاليا ؟ وهل يسكن المان بيتهم ؟

– كلا . . ولذا يغدو الامر اكثر اهمية . ولقد كنت قادما اليك من قبل فاليا فى حقيقة الامر .

يا لها من سعادة حقيقية ان تجلس فى بيت لا يسكنه الالمان ! تجلس فى حديقة وارفة الظلال ، ذات احواض الزهور تبدو وكانما داخل اطار من الفراء ، بما يجعلها اشبه بطاقية الامير مونامـــاخ وحيث شجرة الاقاصيا الباسقة الاغصان ذات الاوراق الخضراء الندية ، التى ترتفع ثابتة وكانها التصقت بسماء البرارى الزرقاء .

وكانت ماريا اندرييفنا لا تزال تعتبر تلاميذها صغارا ، فراحت تضم اوليج الى صدرها ، تقبله قائلة :

– هل نسيت اصدقاءك القدامى ؟ انك لم تكلف نفسك منذ عدت ، عناء الظهور . . هل نسيتنا ! من ذا الذى يحبك اكثر منا ؟ من ذا الذى كان يجلس لدينا بالساعات قاطبا جبينه مرهفا السمع الى عزف البيانو ؟ واية مكتبة كنت تستمتع بكتبها وكانما هى مكتبتك الخاصة ؟ هل نسيت . . يا اوليج ! آه منك يا اوليج . هذا ولك ان تعلم ان لدينا . . . وهنا امسكت برأسها – كيف . .انه مختبئ ! !

وكست امارات الرعب عينيها ، لتهمس بصوت تعالى كما بخار القاطرة ليدوى فى كل ارجاء الشارع :

– نعم . . نعم . اننى لن اخبرك عن مكانه . كم هو مهين ان تختبئ فى بيتك . . يا له من عار ! ويبدو انه سوف يتحتم عليه الرحيل الى مدينة اخرى . ان هيئته لا تدل بوضوح على انه يهودى . . كيف ترى ذلك ؟ قد يشون به هنا . اما فى دونيتسك ، فلدينا اصدقاء اوفياء واقاربى من الروس . واردفت ماريا اندرييفنا تقول بينما علت امارات الحزن والاسى وجهها :

– نعم . . يتحتم عليه الرحيل !

بيد ان ماريا اندرييفنا كانت تتمتع بصحة جيدة ، لا تعكس فى واقع الامر مشاعر الاسى التى تجيش بصدرها والتى ينم عنها وجهها على نحو مصطنع بالرغم من صدق هذه المشاعر واخلاصها اللامحدود .

وتخلص اوليج من احضانها بعناء شديد .

وذكرت فاليا وهى ترفع شفتها العليا المكتنزة فى انفة :

– انها لصفاقة منك فى حقيقة الامر ! كيف لك ان تعود ولا تاتى لزيارتنا !

وذكر اوليج مبتسما على نحو ينم عن ارتباك :

– لقد كان فى امكانك ايضا زيارتنا .

وعلقت ماريا اندرييفنا على ذلك قائلة بصوت عال :

– ان كنت تؤمل على ان تكون الفتيات هن البادئات بزيارتك ، فاننى اضمن لك شيخوخة بلا رفيق !

ونظر اليها اوليج بمرح ، لينفجرا ضاحكين فى آن واحد .

وذكر ستيوبا سافونوف بامتنان :

– هل تعلمون انه تشاجر مع احد الالمان . الا ترون الحمرة تعلو وجهه !

ونظرت فاليا الى اوليج بفضول تساله :

– هل تشاجرت حقا ؟ ماما ! – والتفتت نحو امها – يبدو لى انهم ينتظرونك بالبيت !

وذكرت ماريا اندرييفنا وهى تشيح بيديها البضتين عاليا :

– يا الهى . . يا لها من اسرار ! اننى ذاهبة . . ذاهبة !

واردفت فاليا تستجوب اوليج :

– مع ضابط ؟ ام مع جندى ؟

لم يكن اوليج يعرف ذلك الصبى الذى كان يجلس بالحديقة برفقة فاليا وستيوبا سافونوف . كان نحيفا عارى القدمين ذا شعر اشقر اجعد مفروق عند الجانب ، وشفتين بارزتين بعض الشىء ، يجلس فى صمت بين اغصان شجرة الاقاصيا ، لم يرفع ناظريـــه الحادين الثاقبين عن اوليج منذ لحظة وصوله . وكان ثمة ما يوحى فى نظرته ومظهره بالاحترام ، ولذا فقد كان اوليج يختلس النظر اليه من آن لآخر .

وذكرت فاليا بحسم عكسه صوتها وقسمات وجهها ، حين دلفت امها الى داخل المنزل :

– اوليج ! فلتساعدنا على الاتصال بمنظمة العمل الفدائـى السرى . – ثم استطردت تقول حين لمحت على وجهه امارات عدم الاكتراث ، وان كان قد ابتسم فى ود :

– كلا . . فلتصغ الى ! لعلك تعرف كيف يتم ذلك ! فقد كان يزوركم كثيرون من اعضاء الحزب ، كما واعلم انك تصادق الكبار اكثر من مصادقتك للصغار .

واجابها اوليج والابتسامة تعلو وجهه :

– لقد فقدت الاتصال بهم للاسف !

وصاحت فاليا تقول وهى تلقى بنظرة سريعة الى ذلك الصبى الذى جلس بين اغصان الاقاصيا فى صمت . .

– فلتقل هذا لآخرين . ليس ثمة غريب بيننا .

لم تضف فاليا شيئا ، الاّ ان ذلك كان كافيا للاشارة الى ما يتسم به سيريوجا تيولينين .

وتوجه اوليج الى سيريوجا تيولينين ، دون ان يراوده ادنى شك فى انه ، سيريوجا تيولينين صاحب هذه المبادرة ، يقول له :

– اننى حقا اقول . اننى اعلم بوجود منظمة للعمل الفدائى السرى . اولا . . حيث اصدرت المنشورات ، وثانيا ، ليس ثمة شك فى ان حريق المؤسسة ومبنى الحمام من تدبيرها – وهنا لم يلحظ اوليج تلك الشرارة الصغيرة التى ومضت فى عينى فاليا ، وطيف الابتسامة الذى راود شفتها البضة العليا – . كما واننى اعلم اننا معشر الكومسومول سوف نتلقى التعليمات بشأن ما يتوجب علينا عمله .

وذكر سيريوجكا :

– ان الوقت يمضى ، فيما نتحرق شوقا للعمل !

وراحوا يستعرضون اسماء الفتيان والفتيات الباقين بالمدينة . وشرع ستيوبا سافونوف ، ذلك الودود الذى كان يصادق كل صبية وفتيات المدينة ، يصف كلا منهم على نحو جعل فاليا واوليج وسيريوجكا ينفجرون ضاحكين وقد نسوا اولئك الالمان الذين اثاروا هذا الموضوع بسببهم .

وتساءلت فاليا على حين غرة :

– واين لينكا بوزدنيشيفا ؟

وصاح ستيوبا :

– انها هنا !لقد شاهدتها ذات مرة بالشارع . . تسير هيفاء القامة وقد عنيت بمظهرها على نحو غير طبيعى ، ترفع هامتها هكذا – ورفع ستيوبا يقلدها راسه بانفه الشامخ الذى يغطيه النمش ، ليبدو وكانما يحلق فى الحديقة ثم مضى يقول :

– لقد رحت اناديها «. . لينكا ! لينكا !» بينما لم تعرنى

اهتماما سوى بايماءة من راسها هكذا . . .

وضحكت فاليا فيما تختلس النظر الى اوليج فى دهاء :

– ليس ثمة شبه على الاطلاق !

وذكر اوليج وقد ندت عن شفتيه ابتسامة حزينة وتعلقت انظاره بفاليا :

– هل تذكرين كيف كنا نصدح بالاغانى فى بيتها على نحو رائع ؟ لم يمر على ذلك اكثر من ثلاثة اسابيع . . فمن ذا الذى كان يتوقع ذلك .

ثم هب من مكانه يعتزم الانصراف . كما ونهض يرافقه سيريوجا ، الذى راح يخاطبه فيما يرميه بنظرة سريعة تتسم بالحيرة :

– لقد حدثتنى فاليا عنك كثيرا يا اوليج . كما وان الارتياح قد داخلنى حين رايتك . اننى اقول لك ذلك للعلم ، ولن اتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد . ولتسمع منى الحقيقة . . ليست ثمة منظمة فدائية سرية اشعلت النيران فى المؤسسة والحمام . لقد فعلت ذلك بنفسى !

ونظر اوليج الى سيريوجكا فيما تشع عيناه :

– كيف ذلك . . وحدك ؟

– نعم وحدى .

وسارا دون ان ينبسا ببنت شفة بعض الوقت ، ليقطع اوليج ذلك الصمت وامارات الود المشوب بالقلق فى آن واحد ترتسم على وجهه .

– انه لسيئ ان تفعل ذلك وحدك . انه لعمل رائع يتسم بالجراة ، ومع ذلك فسيئ ان تقوم به وحدك .

ثم استطرد يقول ، دون ان يعير اهتماما ملاحظات سيريوجكا الذى اشاح بيده فى حزن :

– اما عن المنظمة السرية فهى موجودة ، واعلم ذلك . . وليس فقط عن طريق المنشورات . لقد افلحت فى العثور على ما يهدينى اليها . . الاّ اننى لم اقتنص الفرصة .

وقص على اوليج اخبار زيارته لاجنات فومين بكل تفاصيلها ، ودون ان يخفى كونه قد اضطر الى ترك عنوان وهمى لذلك

الرجل الذى كان يختبئ هناك .

وتساءل اوليج فجأة :

– وهل حكيت لفاليا عن ذلك ؟

واجابه سيريوجكا فى هدوء :

– كلا . . اننى لم احك لها عن ذلك !

وأمسك اوليج بيده قائلا فى اضطراب :

– حسنا . . حسنا جدا ! لعل فى وسعك ان تلتقى بهذا الرجل من جديد ، ما دام قد دار بينكما مثل هذا الحديث .

وذكر سيريوجكا وقد ظهر الى جانب شفتيه الممتلئتين ما ينم عن غضب :

– ان المسألة تكمن فى اننى غير قادر على ذلك ، حيث ان اجنات فومين قد وشى به لدى الالمان . انه لم يفعل ذلك على الفور ، بل انتظر خمسة او ستة ايام بعد وصول الالمان . وثمة من يقول فى «شانغهاى» انه كان يود عن طريق ذلك الشخص اكتشاف امر التنظيم ، الا ان الرجل كان بالغ الحرص . لقد انتظر ، الى ان طال به الانتظار ، ثم وشى به ، لينخرط فيما بعد فى العمل مع شرطتهم .

وهتف اوليج متسائلا :

– اية شرطة ؟

يا لها من امور قد شهدتها المدينة ريثما كان قابعا فى عنبره الخشبى !

– هل تعرف ذلك المبنى الخشبى ، الكائن فيما وراء اللجنة التنفيذية للمدينة ، حيث كانت تتمركز الميليشيا ؟ . . ان الدرك الالمانى يحتله اليوم ، ويقوم هؤلاء بتشكيل شرطة من الروس . ويقال انهم وجدوا وغدا نصبوه رئيسا ، ويدعى سوليكوفسكى ، كان يعمل رئيسا للعمال باحد المناجم الصغيرة فى المنطقة ، بينما يقوم فى الآونة الراهنة بالبحث عن رجال يعملون بالشرطة ، فيما بين حثالة القوم .

وساله اوليج .

– وماذا فعلوا بالرجل ؟ هل قتلوه ؟

وذكر سيريوجكا :

– اننى اعتقد انهم لم يبلغوا بعد هذه الدرجة من البلاهة كى

يقتلوه . انهم يسعون لمعرفة كل ما لديه من اسرار ، بيد انه ليس من اولئك الذين يتكلمون ! لعلهم يكونوا قد احتجزوه بالمبنى يسومونه العذاب ، فى محاولة لارغامه على الاعتراف . كما ان هناك محتجزين آخرين ، لكننى لست ادرى شخصياتهم . .

وفجأة انقبض قلب اوليج ازاء خاطرة مروعة . . فلربما يكون فالكو ذو الروح الفيّاضة والعينين السوداوين رهينة ذلك المبنى الخشبى ، فى زنزانة ضيقة معتمة ، بينما هو قابع مكانه فى انتظار اخباره ، وقد يكون اليوم عرضة لاقسى صنوف العذاب كما ذكر سيريوجكا .

وذكر اوليج بصوت اجش :

– اشكرك . . اشكرك على كل ما ذكرت لى من اخبار .

وقد افضى اوليج الى سيريوجكا بكل ما دار بينه وبين فالكو ، ثم وبين فانيا زيمنوخوف دون ان يراوده ادنى خوف من انه يحنث بوعده الذى قطعه على نفسه امام فالكو ، ولا يفكر الا فيما يجب عمله .

راح سيريوجكا واوليج يتهاديان السير بشارع ديريفيانايا الاول حافى القدمين ، بينما الثانى كعادته فى حذاء نظيف يدق به الارض فى قوة ورشاقة ، مستعرضا امام رفيقه خطة العمل : البحث بدأب وبحذر عن الفدائيين البلاشفة وعلى نحو لا يضر بالقضية ؛ وسبر اغوار الشباب فى نفس الوقت ، والتركيز على اكثرهم اخلاصا وصمودا وجدوى ، ومعرفة اسماء الذين جرى اعتقالهم بالمدينة والمنطقة ، ومكان احتجازهم ، والبحث عن امكانية تقديم العون لهم ، واستطلاع كافة اخبار القيادة الالمانية وتحركاتها العسكرية والمدنية .

وسرعان ما انتعش سيريوجكا ، وراح يعرض على زميله تنظيم عملية جمع الأسلحة التى تناثرت كثيرة فى كل ارجاء المنطقة وحتى فى البرارى ، فى اعقاب تلك المعارك .

لقد كان كلاهما يدرك مدى عادية تلك الامور ، التى فى متناول قدراتهما ، لتستيقظ فى اعماقهما مشاعر الاحساس بالواقع .

وذكر اوليج شاخصا بعينيه اللامعتين الواسعتين :

– يجب ان يظل كل ما تبادلنا الحديث حوله ، وكل ما سوف نعرفه ونقوم به ، طى الكتمان لا يعرفه احد مهما كانت صلته

بنا ، وصداقته لنا . – ثم اضاف بنبرة قوية : – فالصداقة صداقة و . . . انها مسالة حياة او موت ! ان الامر يجب الاّ يعرف به سوى ثلاثتنا : أنت وفانيا وانا . وسوف نعرف ما يتوجب علينا القيام به حين نجد وسيلة للاتصال .

ولزم سيريوجكا الصمت بعض الوقت ، فلم يكن يحب التشدق بالوعود والكلمات الرنانة .

وساله اوليج :

– ماذا هناك اليوم فى الحديقة العامة ؟

– لقد حولوها الى جراج للسيارات ، تحيط بها المدافع المضادة للطائرات ، وحفروا ارضها مثل الخنازير .

– يا لحديقتنا المسكينة ! وهل يقطن بيتكم المان ؟

وضحك سيريوجكا ساخرا وقد ادرك مغزى سؤال اوليج :

– انهم ما بين غادى ورائح ، حيث لم يرق بيتنا فى اعينهم . غير انه يستحيل اللقاء عندنا ، فالبيت عامر بالناس .

– سوف نظل على اتصال عن طريق فاليا .

وذكر سيريوجكا فى ارتياح :

– بالتاكيد .

وظلا يسيران حتى بلغا المزلقان حيث شد كل منهما على يد الآخر . وقد كانا متقاربى السن ، جمعهما ذلك الحديث القصير ، ووطّد علاقتهما وحفز حماسهما .

كانت عائلة بوزدنيشيف تقطن حى «سينياكى» ، تشارك آخرين بيتا نموذجيا ، كما كانت تشاطر اسرة كوشيفوى بيتها آل كوروستيليف . وابصر اوليج على البعد نوافذ مسكنها المفتوحة على مصاريعها ، تغطيها ستائر قديمة من التل ، وترامت الى اسماعه انغام بيانو وضحكات لينا الرنانة ذات النبرات الفضية . وكان ثمة من عزف بقوة وحماس على البيانو مقدمة لحن يعرفه ، بينما شرعت لينا تغنى ، بيد أن العازف اخطأ اللحن ، لتنفجر لينا ضاحكة ، ثم راحت تنشد وحدها تشرح له الخطأ وتبين الصواب ليعود كل شىء من جديد .

وقد داخل الاضطراب اوليج تحت وقع صوت لينا وانغام البيانو لدرجة جعلته برهة من الزمن عاجزا عن تجاوز عتبة البيت . فقد كانت تلك الاصوات تعيد الى ذاكرته تلك الامسيات الخوالى

التى كان يقضيها فى ضيافة لينا فى دائرة عدد من الاصدقاء كان يبدو آنذاك كبيرا . كانت فاليا تعزف على البيانو بينما كانت لينا تصدح بالغناء ، اما اوليج فقد كان يرنو الى وجهها الذى تعكس قسماته بعض الاضطراب ، سعيدا معجبا باضطرابها وصوتها وانغام البيانو التى سجلتها روحه الى الابد وملأت كل عالم صباه .

آه ، لو لم يكن تخطى عتبة هذا البيت الى ابد الآبدين !آه . . لو كان قد احتفظ فى اعماق كيانه بتلك المشاعر التى جسدتها انغام الموسيقى ورونق الصبا ، وخفقان قلبه ازاء حبه الاول !

بيد انه كان قد دلف الى المدخل ، ثم الى المطبخ . وفى ذلك المطبخ الضعيف الاضاءة ، والكائن فى الجهة التى لا تزورها الشمس الاّ قليلا ، وقع نظره على ام لينا ، نحيفة القوام ترتدى رداء داكن اللون ، وقد صففت شعرها فى دوائر كما كانوا يفعلون فى الماضى ، تجلس حول مائدة المطبخ الصغيرة برفقة جندى المانى – اشقر الشعر ، مثل ذلك الخادم الذى تشاجر معه ، ولا يختلف عنه الاّ فى غياب النمش عن وجهه ، قصير القامة ، بدين الجسد ، وتؤكد كل المعايير انه خادم كذلك . كانا يجلسان فى دعة والفة ، بما يوحى انهما لا يفعلان ذلك للمرة الاولى ، كل يواجه الآخر . وكان الخادم الالمانى وقد ندت عن شفتيه ابتسامة تنم عن تادب ورضا ، يتناول شيئا من كيس كان يضعه على ركبتيه ، ليمد به يده يناوله لام لينا ، بينما تحمل نظراته اليها معنى الدلال . اما الأم فقد كانت تتناول ذلك بيديها المرتجفتين لتضعه فيما بين ركبتيها وقد علت وجهها النحيل امارات العرفان النسائى العجائزى بحقيقة ان ذلك امر لا يستهدف سوى ارضائها ، فيما تند عن شفتيها ابتسامة تملق ومداهنة . وقد كان كلاهما منهمكا فى هذا الامر غير المعقد ، وان كان قد ملك عليهما كل حواسهما ، لدرجة انهما لم يلحظا دخول اوليج الذى استطاع تمييز ما استقر على ركبتى ام لينا . . . علبة سردين عريضة ، قالب من الشيكولاته ، وعلبة من الصفيح سعة نصف لتر ذات سدادة لولبية ، مستطيلة الشكل تغطيها ورقة صفراء اللون ازرقه ، مثل تلك التى كان يراها عند الالمان فى بيتهم – انها علبة زيت زيتون .

ولاحظت والدة لينا دخول اوليج لتتحرك يداها بصورة عفوية ،

لتبدو وكأنما تحاول اخفاء ما استقر على ركبتيها ، بينمـــا ابصره الخادم كذلك ليحدق النظر اليه ممسكا بكيسه .

وفى نفس الوقت توقف عزف البيانو وغناء لينـــا ، لتتعالى ضحكتها ، وضحكات رجال آخرين مشوبة بمقاطع جمـــل قيلـــت بالالمانية . وذكرت لينا بصوت انفرط عقد نبراته الفضية :

– كلا . . كلا . . اكرر ، هنا وقفة ، ثم تكرار مرة اخرى ، ثم الاستمرار . . .

وجرت بأصابعها الرقيقة على مدرجات البيانو . ورفعت الام حاجبيها القليلى الشعر تقول فى دهشة بصوت يتسم بحنان مصطنع :

– آه . . لقد جئت يا اوليج ! الم تكن قد رحلت ؟ هل تود رؤية لينا ؟

وبمهارة فائقة ، اخفت ما استقر على ركبتيها فى درج المائدة ، وتحسست شعرها باصابعها المعروقة ، وكأنما تتأكد من تصفيف دوائره ، وهبطت بعنقها ليستقر فيما بين كتفيها ، وشمخت بأنفها وذقنها ، ثم دلفت الى الغرفة ، من حيث تعالى صوت لينا وانغام البيانو .

ولبث اوليج واقفا مكانه فى منتصف المطبخ وقد امتقع وجهه وانسدلت يداه ، ليبدو كما الاهوج الاخرق ، تلسعه نظرات الخادم الالمانى التى تنم عن اللامبالاة .

وتناهى الى سمعه صيحة دهشة وارتباك ندت عن لينا ، التى همست بشىء الى الرجال الموجودين بالغرفة ، وكأنما تعتذر لهم ، ليتعالى دبيب خطواتها تهرول الى الخارج . وبدت لينـــا عند باب المطبخ فى رداء رمادى ذى رسومات داكنة اللون ، يبدو فضفاضا ، يحيط بقدها الاهيف ، عارية العنق الرقيق ، سمراء ، عارية الذراعين اللتين اتكأتا على قائمتى الباب ، لتقول فى ارتباك جعلت الحمرة تكسو وجهها الاسمر :

– اوليج ؟ اننا هنا . . .

بيد انها بدت وكأنما لم تكن قد اعدت ما تفسر به قولهـــا «اننا هنا . .» ، لتندفع نحو اوليج فى طيش انثوى ، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة كاذبة ، لتمسك بيده تجره وراءها ، ثم تتركها

قائلة «هيا ، هيا» ، وتوقفت عند عتبة الباب ، ثم التفتت اليه ، تومئ برأسها ، تدعوه مرة اخرى .

ودلف اوليج الى الغرفة فى اثرها ، وقد كاد يصطدم بامها التى مرت سريعة من جواره . كان ثمة ضابطان المانيان يرتديان لباسا رماديا متشابها ، يجلس احدهما الى البيانو وقد التفت قليلا نحوهما ، بينما كان الآخر يقف فيما بين النافذة والبيانو ، ينظران الى اوليج بلامبالاة ، لا تنم قسمات وجهيهما عن شىء سوى عن تقبل وضع حتمته الظروف .

وذكرت لينا بصوتها الفضى :

– انه احد تلاميذ مدرستنا . فلتجلس يا اوليج . . الا تذكر هذه الاغنية ؟ اننى ابذل قصارى جهدى ساعة بأكملها حتى يحفظاها . اننا سوف نكررها ثانية ايها السادة ! فلتجلس يا اوليج . .

ورفع اوليج عينيه ذات الاهداب الذهبية ، يتأملها ليقول بصوت واضح مركز ، لتبدو كل كلمة من كلماته ، صفعة تهوى عـــلى وجهها :

– ماذا يدفعون لك ؟ يبدو . . انهم يدفعون زيت زيتون ؟ يا لك من بخسة الثمن !

ودار على عقبيه ، لينسل الى الشارع متجاوزا امها ، وذلك الخادم البدين ذا الراس الاشقر الذى يشبه رؤوس كافة الخدم الالمان .

الفصل الثانى والعشرون

وهكذا اختفى فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف ، ليظهر على نحو جديد تماما . فماذا شهدته حياته ابان تلك الفترة ؟

اننا نذكر انه كان قد اختير فى خريف العام الماضى للعمـــل الفدائى السرى . وقد اخفى فيليب بيتروفيتش هذا النبأ آنذاك عن زوجته ، وكان سعيدا بقراره هذا والذى يؤكد بعد نظره ، حيث كان خطر الاحتلال قد تلاشى بعض الشىء .

بيد ان فيليب بيتروفيتش كان يذكر ذلك دائما ، كما وكان ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو كرجل بالغ الحرص بعيد النظر ، يجعله على استعداد معنوى دائم .

– من ذا الذى يدرى ما يخبئه لنا المستقبل ! ان قضيتنا المشتركة تحتم علينا التمسك كما الطلائع بشعارى «. . كن مستعدا !» ، «انى على استعداد دائما !» .

هذا وقد ظلا فى موقعيهما هذين اللذين جرى اختيارهما فى خريف العام الماضى . . بولينا جورجيفنا سوكولوفا ، ربة منزل ، التى لم تكن عضوا بالحزب ، وتعرفها المدينة كاحدى نشطاء العمل النسائى ؛ ليوتيكوف ، النائب بمجلس المدينة ، الذى يعرفه كل سكان كراسنودون . وقد كانت ظروف العمل السرى تحد من تحركاته واتصالاته بالمدينة . كما وكان من المفروض ان تقوم بولينا جيورجيفنا سوكولوفا بدور حلقة الاتصال . . اى تكون عينيه وذراعيه وقدميه .

وقد تخلت سوكولوفا تماما عن نشاطها الاجتماعى منذ تلك اللحظة التى وافقت فيها على القيام بهذه المهمة ، وبناء على نصيحة ليوتيكوف . وفى بادئ الامر اثارت تلك الظاهرة حيرة النسوة من صديقاتها ، ثم رحن فيما بعد يلمنها ازاء كونها فى مثل تلك المرحلة العصيبة التى يواجهها الوطن تنتحى جانبا ، بعيدا عن النشاط الاجتماعى . بيد ان الامر بدا على النحو التالى . . لم يكن هناك من عيّنها او رشحها لهذه المهمة ، حيث كانت تعمل من تلقاء نفسها ، طواعية ريثما كان ذلك يروق لها . وكم من الامور يمكن ان تشهدها حياة المرء ! فلربما يطرأ على حياته ما يجعله ينغمس فى اموره المعيشية . وقد تكون الحياة العصيبة فى ظل الحرب هى التى دفعته الى مثل هذا النمط . وتدريجيا بدأ سكان المدينة ينسون وجود بولينا جيورجيفنا .

لقد ابتاعت بقرة ، دفعت ثمنها نقودا الى احدى العائلات النازحة نحو الشرق ، وشرعت تتردد على السكان تبيعهم اللبن . ولم تكن اسرة فيليب بيروفيتش تحتاج الى كمية كبيرة من اللبن . فلم يكن تعدادها يتجاوز الثلاثة اشخاص . . هو ، وزوجته يفدوكيا فيدوتوفنا ، وابنته رايا ذات الاثنى عشر ربيعا . كما وكانت تبتاع الحليب لدى بولينا جيورجيفنا ، صاحبة البيت بيلاجيا ايلينيتشنا ، واطفالها الثلاثة وامها العجوز التى كانت تعيش معها . كما واعتاد كل الجيران رؤية مع تباشير صباح كل يوم امراة ذات وجه روسى

صبوح ، متواضعة الملبس ، تغطى راسها بمنديل ابيض كما الريفيات ، تسير فى خطوات متثاقلة نحو بيت بيلاجيا ايلينيتشنا ، تمد اصابعها الرقيقة بين القوائم الخشبية ترفع مزلاج بوابة السور ، تدق فى رفق النافذة المطلة على المدخل . وكانت تهرع تفتح الباب والدة بيلاجيا ايلينيتشنا التى كانت تصحو من نومها مبكرا عن الآخرين ، بينما كانت سوكولوفا تلقى بتحية الصباح فى مودة ، وتدلف الى داخل المنزل ، لتخرج بعد برهة من الزمن حاملة سطل اللبن فارغا .

كانت اسرة ليوتيكوف تسكن ذلك البيت منذ مدة بعيدة . وقد تصادقت زوجة ليوتيكوف يفدوكيا فيدوتوفنا مع بيلاجيا ايلينيتشنا . هذا وكانت رايا وليزا الابنة الكبرى لصاحبة البيت ، والمتقاربتان فى السن ، تدرسان فى صف واحد بمدرسة واحدة . اما زوج صاحبة البيت والذى سافر الى الجبهة منذ اول ايام الحرب ، فقد كان يصغر فيليب بيتروفيتش بحوالى خمسة عشر عاما ، ويعتبر نفسه تلميذه ويعامله بوصفه استاذا له . وقد احيل الى الاستيداع بعد ان كان ضابطا بسلاح المدفعية ، ليعمل فى مجال النجارة .

وقد توصل فيليب بيتروفيتش فى خريف العام الماضى الى معرفة ان بيلاجيا ايلينيتشنا لن تتجاسر وهى صاحبة هذه الاسرة الكبيرة وبدون عائلها ، على مبارحة المدينة وترك بيتها وممتلكاتها اذا ما حل الالمان . وعندئذ بالذات طرات لدى فيليب بيتروفيتش فكرة ارسال اسرته الى الشرق اذا ما استدعت الضرورة ذلك ، على ان يبقى وحده بمسكنه القديم .

وقد كانت صاحبة ذلك المسكن ، بيلاجيا ايلينيتشنا احدى اولئك النسوة البسيطات الشريفات اللاتى يزخر بهن مجتمعنا . وكان فيليب بيتروفيتش يدرك انها لن تساله عن شىء ، بل وسوف تتظاهر حتى بانها لا تدرى او تعلم شيئا . وسوف يكون ضميرها بذلك اكثر راحة واستقرارا ، اذ لم تلتزم بشىء ، ومن ثم فهى غير مسؤولة عن اى شىء . كما وسوف تلتزم الصمت ، وتقوم باخفائه ولن تشى به حتى اذا تعرضت للتعذيب ، من وحى ايمانها بالانسان ، وبعدالة قضيته ، بل وشفقة وعطفا بوصفها انثى .

وقد كانت شقتها مكانا يناسب فيليب بيتروفيتش ، اذ كان

بيت بيلاجيا ايلينيتشنا من اوائل البيوت الخشبية التى جرت اقامتها الى جوار منجم تشوريلين ، ولذا فقد سميت المنطقة وحتى اليوم «تشوريلينو» . كما وكانت وحدة «تشوريلينسكايا» ، تمتد فيما وراء المنزل مباشرة الى اعماق البرارى . وبوجه عام فقد كانت المنطقة ، تعتبر منطقة نائية مقفرة ، وان كانت بالفعل كذلك .

وفى تلك الساعة الرهيبة من شهر يوليو ، وحين اضطر فيليب بيتروفيتش رغما عن كل شىء الى مصارحة زوجته يفدوكيا فيدوتوفنا ، اجهشت فى البكاء قائلة :

– لقد تقدم بك العمر ، وصرت مريضا . فلتذهب الى لجنة المنطقة وتعرض عليهم الامر ، وسوف يعفونك حتما . . . فلنرحل الى كوزباس .

قالتها فجاة لترتسم على عينيها تلك الامارة التى كانت تبدو دائما حين تشاطره ذكريات الصبا ، والرفاق الطيبين وما يجيش به صدرها . فقد جرى الى كوزباس تهجير كثير من عمال المناجم برفقة عائلاتهم ، وضمنا اصدقاء فيليب بيتروفيتش وصديقات زوجته منذ سنى الطفولة . . فلنرحل الى كوزباس ! – لقد قالتها وكانما يمكنهم العيش هناك على نحو طيب كما كان حالهم فى موطنهم ايام الصبا .

يا لها من امراة مسكينة ! وكانما لم تكن تعرف زوجها فيليب بيتروفيتش .

وذكر فى صرامة محدقا فى عينيها اللتين كانتا تعكسان امارات التوسل ، بما يعنى انه لن يتحمل توسلاتها ودموعها :

– لا تتحدثى معى حول هذا الموضوع اكثر من ذلك . فلقد تقرر الامر . كما ويستحيل بقاؤكما هنا ، حيث سوف يكون ذلك عقبة فى طريقى . ان وجودكما معى سوف يضنى روحى . . .

ثم انحنى يقبل زوجته ، وظل فترة طويلة يضم الى صدره ابنته الوحيدة الحبيبة .

كانت اسرته ، شأن عائلات اخرى كثيرة ، قد تاخرت كثيرا فى الرحيل عن المدينة ، وعادت ثانية حتى دون ان تبلغ الدونيتس . غير ان فيليب بيتروفيتش لم يسمح لزوجته وابنته رغما عن ذلك بالبقاء معه ، وبحث لهما عن مكان لاقامتهما فى عزبة بعيدة عن المدينة .

وعلى مدى ثلاثة اسابيع ، أسفرت عن تغيرات بالجبهة لصالح الجيوش الالمانية ، شهدت اللجنة الحزبية للاقليم ، ولجنة الحزب بمدينة كراسنودون نشاطا جارفا استهدف استقطاب أعضاء جدد للعمل بالمنظمات السرية وفرق العمل الفدائى . وقد ارسلت للعمل تحت اشراف ليوتيكوف مجموعة كبيرة من قادة منطقة كراسنودون وغيرها من المناطق .

وفى ذلك اليوم المشهود ، حين توادع فيليب بيتروفيتش مع بروتسينكو ، عاد الرجل كعادته فى ايام العمل الى منزله . وكان الاطفال يلعبون بالشارع ، بينما لزمت العجوز الغرفة المعتمة ذات الشبابيك المغلقة اتقاء لحرارة الجو . وكانت بيلاجيا ايلينيتشنا تجلس بالمطبخ وقد وضعت احدى يديها المعروقتين اللتين لفحتهما الشمس فوق الاخرى ، مستغرقة فى تفكير عميق عكسته قسمات وجهها الوسيمة ، لدرجة لم يعدها حضور فيليب بيتروفيتش الى وعيها على الفور ، حيث راحت تشخص ببصرها نحوه دون ان تراه برهة من الزمن .

وراح فيليب بيتروفيتش يحادثها :

– اننى لم ارك تجلسين هكذا ، لا تفعلين شيئا على مدى تلك السنين الطوال التى اعيش فيها لديك . ماذا يدعوك الى الحزن ؟ هوّنى عليك !

ورفعت فى سكون يدها المعروقة لتضعها ثانية فوق اليد الاخرى .

ولزم فيليب بيتروفيتش مكانه بعض الوقت امام صاحبة المسكن ، ثم ولج الى الداخل فى خطوات متئدة ثقيلة . ثم عاد بعد قليل وقد خلع غطاء راسه ورباط عنقه ، ينتعل حذاء ويرتدى فوق جاكتته الجديدة فوق قميص ابيض مفتوح الياقة . وقد صار اثناء سيره يمشط شعره الكث الذى خطه الشيب على نحو غير متسق ، بمشط اخضر كبير .

واذ فرغ من تمشيط شاربه القصير الشائك ذكر :

– لقد كنت اود الحديث معك يا بيلاجيا ايلينيتشنا . لقد اشتركت فى جريدة «البرافدا» منذ قبلونى عضوا بالحزب فى عام ١٩٢٤ ، تلبية «لنداء لينين» . وقد احتفظت بكافة اعدادها ، حيث استفدت منها كثيرا فى عملى ، فى اعداد التقارير ، والقاء المحاضرات

فى الندوات السياسية . ولعلك كنت تظنين ان الصندوق الكائن فى حجرتى ملىء بمختلف الملابس . . . انه ملىء فى الواقع بالجرائد .

وابتسم فيليب بيتروفيتش . ولم يكن يبتسم كثيرا ، ولذا فقد اضفت تلك الابتسامة على وجهه ملامح الرقة ، ليبدو على نحو غريب . ومضى يتساءل :

– ماذا انا فاعل بها اليوم ؟ لقد ظللت اجمعها سبعة عشر عاما . كم يؤسفنى ذلك . . .

ولزم كلاهما الصمت بعض الوقت . ثم تساءلت بيلاجيا ايلينيتشنا ، وكانما توجه الى نفسها ذلك السؤال :

– اين لنا ان نخبئها ؟ يمكن دفنها بالارض . . فلنحفر فى الحديقة ، لنضعها كما هى ، فى صندوقها .

وسأل فيليب بيتروفيتش :

– واذا ما احتجنا اليها ؟ قد نحتاج اليها . .

وكما توقع ، لم تسأله بيلاجيا ايلينيتشنا عن السبب الذى يمكن ان يجعله فى حاجة الى الجرائد السوفييتية فى ظل الالمان ، بل ولم تبد على وجهها امارات الاهتمام بالامر . الاّ انها سألته فيما بعد :

– انك يا فيليب بيتروفيتش تسكن لدينا منذ زمن بعيد ، ولعلك تعرف كل خبايا بيتنا ، ولذا اسألك عما اذا كنت تستطيع ان تلحظ شيئا اذا ما جئت خصيصا لتفتيش المطبخ ؟

وراح فيليب بيتروفيتش يجيل النظر فى امعان وجدية الى المطبخ . . مطبخ انيق صغير لبيت ريفى صغير . ولم يتوقف نظره كانسان عامل الاّ على الارضية الخشبية المدهونة ، من الواح عريضة قصيرة صفت متجاورة فيما بين قائمتين ، وليست من الواح طولية كالعادة ، مما يعنى بعد نظر من صاحب البيت الذى وضع فى اعتباره امكانية تاثر الاخشاب تحت ثقل الفرن الروسى ، وحيث يغسلونها كثيرا ، مراعاة للنظافة . وذكر ليوتيكوف :

– ليس ثمة شىء يدعو الى الغرابة !

– هنا قبو قديم تحت المطبخ .

ونهضت بيلاجيا ايلينيتشنا من مكانها ومالت قليلا لتتحسس نقطة داكنة باحد الالواح ، قائلة :

– من المفروض ان تكون هنا حلقة ما . وهناك سلم صغير . . .

وتساءل فيليب بيتروفيتش :

– هل يمكن رؤيته ؟

واغلقت بيلاجيا ايلينيتشنا مزلاج الباب ، ثم سحبت بلطة من وراء الموقد . بيد ان فيليب بيتروفيتش رفض استخدامها ، حتى لا يترك آثارا بالارضية . وتسلح ليوتيكوف بسكين كبير بينما امسكت بيلاجيا بسكين صغير آخر ، وراحا ينظفان فى حرص ما علق باللوح من قاذورات ، الى ان استطاعا فى نهاية الامر وبصعوبة رفع ثلاثة الواح قصيرة ثقيلة ثبتت متشابكة .

وكان ثمة سلم صغير من اربع درجات يفضى الى القبو . وهبط فيليب بيتروفيتش اليه واشعل عود ثقاب ، ليبدو كل شىء فى القبو جافا ، لا اثر للرطوبة فيه . وقد كان من الصعب تصور مدى جدوى ذلك القبو المدهش .

وصعد فيليب بيتروفيتش الدرج الى المطبخ ثم اغلق فتحة القبو فى حرص قائلا :

– ارجو الا تغضبى منى ، الاّ اننى اود الحديث اليك فى موضوع آخر . اننى سوف اسوى اموری بطبيعة الحال فيما بعد ، ولن يمسنى الالمان ، غير اننى اخاف ان يقتلونى بمجرد وصولهم ، وتحت تاثير الانفعال . ولذا فاننى اذا ما تطلب الامر سانزل الى هناك – واشار باصبعه الى القبو .

– واذا ما حدث واقام الجنود هنا ؟

– لن يقيموا هنا . . انه حى تشوريليتو ! كما واننى انسان متواضع ، وسوف الزم مكانى هنا ! وليس ثمة ما يدخل الحيرة الى نفسك .

وعلت امارات الارتباك والحيرة وجهه ازاء تلك اللامبالاة التى اتسم بها وجه بيلاجيا ايلينيتشنا .

– ليس هناك ما يحيرنى ، حيث ان دورى بسيط .

– اذا ما تساءل الالمان عن ليوتيكوف فلتقولى لهم انه يعيش هنا ، وذهب الى القرية لابتياع الماكولات وسوف يعود حتما . وستعاوننى ليزا وبيتكا على الاختباء . كما وسوف اجعلهما يتناوبان الحراسة بشانى نهارا .

وتحولت بيلاجيا ايلينيتشنا بنظرها اليه ، لتهز راسها فجاة

ثم تنفجر ضاحكة . وقد كان فيليب بيتروفيتش صارم المظهر ، مربيا بالفطرة ، يحب الاطفال ويعلم خصائصهم مما يجعله قادرا على ترويضهم . كما وكانوا بدورهم يتوقون اليه . كان يعاملهم كالكبار ، ويستطيع كصانع ماهر وفي حضرتهم الاستفادة من اية مواد ، يصنع منها كل شيء اعتبارا من اللعبة البسيطة وحتى الاشياء المفيدة معيشيا .

لم يكن يفرق على الاطلاق في معاملاته بين ابنته وابناء اصحاب البيت ، ولذا فقد كانوا جميعا ينفذون في سعادة بالغة كل ما يشير اليهم به .

وكان زوج بيلاجيا ايلينيتشنا يقول له احيانا :

– لعله من الافضل ان تدعوهم للاقامة لديك يا عم فيليب ، لقد عودتهم عليك ، بينما هم يرون فيك اباهم متناسين والديهم .

– وكان يتساءل فيما ينظر الى الاطفال غاضبا :

– اولا تنتقلون للعيش عند العم فيليب بصفة دائمة ؟

وكانوا يجيبون جوقة واحدة ، وهم يحيطون بالعم فيليب يحتضنونه :

– لا . . لن نذهب !

ويمكن للمرء أن يصادف في شتى مجالات النشاط ، مختلف الطباع التي تميز القيادات الحزبية ، التي تتسم بصفة خاصة تبدو للعيان على نحو اكثر وضوحا . ولعل الموهبة التربوية هي ما يميز غالبية الشخصيات الحزبية القيادية . ولسنا بمعرض الحديث هنا عن العاملين الذين تعتبر التربية الحزبية ، والتوعية السياسية هي صلب مهمتهم الاساسية ، بقدر ما نتحدث عن نمط المربي الحزبي في شتى المجالات الاقتصادية او العسكرية او الادارية او الثقافية . ولقد كان فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف من اولئك المربين الحزبيين الذين جرى الحديث عنهم .

فلم يكن يحب ممارسة العمل التربوي بين الناس ويعتبره ضروريا فحسب ، بل وكان يشعر بذلك كضرورة طبيعية . لقد كان تعليم الآخرين وتربيتهم ومشاطرتهم معلوماته وخبراته ، امرا يفعله بوحي الفطرة .

وللحقيقة نقول ان ذلك اضفى سمة الوعظ والارشاد على كثير من اقواله . بيد ان عظات ليوتيكوف لم تكن تحمل طابع الارشادات

اللجوجة ، حيث كانت من ثمار عمله وتفكيره ، وقد تقبلها الناس على هذا النحو بالذات .

وكان ليوتيكوف ، شأن هذا النمط من القادة بوجه عام ، يتسم بتوافق اعماله مع اقواله . وكانت السمة الاساسية التي جعلت من فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف مربيا من طراز جديد ، تكمن في قدرته على تجسيد كل كلمة يقولها عمليا ، وعلى جمع الناس مختلفي الطباع حول هذا العمل ، وغرس الحماسة في نفوسهم بهذا الشأن . لقد كان مربيا جيدا لكونه بالذات رجلا يحسن التنظيم ، ويجيد تسيير الامور الحياتية . لم تكن عظاته لتمر دون ان تؤثر في الآخرين ، ومن ثم دون ان تستحثهم على العمل ، وخاصة في اوساط الشباب الذين يتميزون بتوقد الانفعالات ولا سيما ازاء الفكرة التي يجدونها مجسدة في قدوة ماثلة امامهم .

وقد كان يكفيه في بعض الاحيان ان يتفوه بكلمة واحدة ، او يرنو بمجرد نظرة . هذا وكان ليوتيكوف غير محب للكلام بطبعه ، ان لم يكن صموتا بوجه عام . كما وكان يبدو للوهلة الاولى بطيء الحركة ، بل وخاملا في نظر بعض الناس ، الا انه كان في الواقع هادئ الجنان ، متزن التفكير ، واضح الافق ، ينظم وقت فراغه ببراعة فيما بين النشاط الاجتماعي والقراءة والعمل الجسماني واللهو .

وكان فيليب بيتروفيتش ساكن الطباع ، لا يفقد السيطرة على نفسه ، يستطيع التزام الصمت في نقاشه مع الآخرين ، يحسن الاصغاء الى الآخرين ، وتلك صفة غاية في الندرة . ولذا فقد جمع بين سمات السمير الجيد ، والانسان ذي الروح الفياضة ، مما جعل الآخرين يلجأون اليه لبحث امور اجتماعية وشخصية لم يكونوا ليتجاسرون الحديث بشأنها حتى مع ذويهم .

وعلى الرغم من كل تلك السمات التي اتصف بها لم يكن يمكن القول عنه انه انسان طيب ، او ومن باب اولى لين الطباع . لقد كان نزيها ، صارما ، وعنيفا لا يلين ان تطلب الامر ذلك .

لقد كان البعض يكن حياله مشاعر الاحترام ، فيما يكن البعض الآخر مشاعر الحب ، كما وكان هناك من يرهبه . ويجب القول بوجه ادق ان كل من كان يتعامل معه ، وزوجته واصدقاؤه

ضمنا ، كانوا يكنون ازاءه كل تلك المشاعر مجتمعة ، بنسب تتجاوب مع طابع كل منهم على حدة . واذا ما قسمنا هؤلاء الناس وفقا لاعمارهم يمكننا القول ان الكبار كانوا يحترمونه ويحبونه ويرهبونه فى آن واحد ، اما الشباب فقد كانوا يحترمونه ويحبونه ، بينما كان الاطفال يحبونه .

وهذا هو ما دفع بيلاجيا ايلينيتشنا الى الضحك حين ذكر فيليب بيتروفيتش ان «ليزا وبيتكا سيساعداننى» .

وقد قام الاطفال بالفعل وطيلة اولى ايام اختفاء فيليب بيتروفيتش بعد وصول الالمان ، بتناوب مراقبة الشارع وحراسته .

لقد كان سعيد الحظ ، حيث لم يسكن اى من الجنود الالمان منزل بيلاجيا ايلينيتشنا ، اذ كان هناك كثير من المنازل الافضل والاكثر رحابة بالمدينة ، بل وحتى على مقربة منه . كما وكانت الوهدة فيما وراء المنزل تبث الرهبة فى قلوب الالمان الذين كانوا يخشون الفدائيين . وللحقيقة فقد كان الجنود الالمان يعرجون فى بعض الاحيان الى منزل بيلاجيا ايلينيتشنا ، لتفتيشه ، والحصول منه على ما تقع عليه اياديهم . وكان فيليب بيتروفيتش يلجأ دائما الى القبو الكائن تحت ارضية المطبخ . بيد انه ما من احد كان يسأل عنه .

وصباح كل يوم وكالعادة ، كانت تأتى بولينا جيورجيفنا متواضعة هادئة تعصب راسها كالقرويات بمنديل ابيض ، لتصب الحليب فى قدرين من الفخار ، ثم تتوجه حاملة سطلها الى فيليب بيتروفيتش . وقد كانت بيلاجيا ايلينيتشنا تلزم مكانها برفقة امها بالمطبخ ريثما تقوم بزيارته . اما الاطفال فقد كانوا يغطون فى نومهم آنذاك . وكانت بولينا جيورجيفنا تخرج من عند ليوتيكوف لتجالس المرأتين بعض الوقت تبادلهما الثرثرة .

وهكذا مرت فترة من الزمن تناهز الاسبوع او ما يزيد قليلا . وذات مرة وقبل ان تفضى بولينا جيورجيفنا باخبار ما يدور من احداث ، ذكرت بصوت خافت :

– يدعونك للعمل يا فيليب بيتروفيتش . . .

وتغيرت ملامح الرجل فجأة ، حيث تخلت عنه فى لحظة واحدة

امارات الهدوء واللامبالاة ، وتناقل الحركة التى كانت تبدو احيانا كما الجمود .

وهب فى قوة كما الاسد نحو الباب ، ليجول بنظره فى الحجرة المجاورة تأكدا من ان لا احد هناك ، ثم سألها :

– هل يدعون الجميع ؟

– نعم الجميع . .

– اهو نيكولاى بيتروفيتش ؟

– نعم هو . .

وحدق النظر فى عينى سوكولوفا متسائلا فى فضول :

– وهل كان هو ؟

ولم يكن فيليب بيتروفيتش بحاجة الى ان يشرح لبولينا جيورجيفنا ، كيف لها ان تجد باراكوف ، فقد كانت تعرف كل ذلك ، حيث اتفقت معه فيما سبق حول ذلك الامر . واجابته بصوت يسمع بالكاد :

– نعم كان .

ولم يبد الرجل حراكا ، ولم يرفع عقيرته ، الاّ ان جسده الضخم ووجهه المتهدل وعينيه وصوته عكسوا دفقة من الطاقة وكانما ثمة مفتاح لولبى قد لُفّ حتى نهايته .

ودس اصبعيه المستقيمين الرقيقين والبدينين فى آن واحد فى جيب سترته الخارجى ، ليتناول قصاصة من الورق صغيرة ، مكتوب عليها بخط دقيق ثم ناولها الى بولينا جيورجيفنا .

– غدا . . صباحا ، وبكمية اكبر !

ودست بولينا جيورجيفنا الورقة فى صدرها على التو ، مخفية اياها .

– فلتنتظرى قليلا بغرفة الطعام ، وسوف ارسل لك اصحاب البيت .

ودلفت بيلاجيا ايلينيتشنا وامها الى الغرفة المجاورة حيث انتقلت فى اثرهما بولينا جيورجيفنا تحمل سطلها . وراحت النسوة يتبادلن وقوفا انباء الشارع ، الى ان نادى فيليب بيتروفيتش على سوكولوفا لتذهب اليه بالمطبخ .

كان فيليب بيتروفيتش يمسك بلفة من الجرائد ، مما جعل

امارات الدهشة ترتسم على وجه بولينا جيورجيفنا . لقد كانت مجموعة من اعداد «البرافدا» طواها مرتين ثم لفّها على شكل اسطوانى ؛ ومد يده بها اليها قائلا :

– فلتضعيها بالسطل ، وعليهم ان يلصقونها هناك فى نفس الاماكن البارزة للعيان .

وعلا وجيب قلب بولينا جيورجيفنا ، حين تصورت للوهلة الاولى ، ومع استحالة ذلك الامر ، ان فيليب بيتروفيتش تسلم آخر اعداد «البرافدا» . ولم تتمالك نفسها صبرا ، حيث القت بنظرها على تاريخها قبل ان تدسها بالسطل قائلة دون ان تخفى مشاعر خيبة الامل :

– انها قديمة .

وذكر ليوتيكوف :

– كلا . . انها ليست قديمة . ان البرافدا (الحقيقة) البلشفية لا تقدم !

وتصفحت على عجل بعض الاعداد ، وكانت فى مجملها اعدادا صدرت ايام الاعياد فى مختلف السنين ، تحمل صور لينين وستالين . وقد ادركت المغزى الذى كان يقصده ليوتيكوف ، لتطوى الجرائد على الفور وتدسها بالسطل .

وذكر فيليب بيتروفيتش :

– وحتى لا أنسى . . فليخرج اوستابتشوك الى العمل اعتبارا من الغد . .

واومات بولينا جيورجيفنا براسها فى صمت . ولم تكن تعرف ان اوستابتشوك هو ماتفى شولجا ؛ كما لم تكن تعرف مكانه ، حيث كان يتوجب عليها نقل تعليمات ليوتيكوف الى مسكن كانت تبيع اللبن اليه ايضا .

ومد فيليب بيتروفيتش يده اليها قائلا :

– شكرا . . هذا هو كل شىء !

وعاد ثانية الى الغرفة ، حيث ارتمى الى المقعد فى تثاقل ، وقد اتكأ براحتيه مفرودتى الاصابع على ركبتيه ليظل هكذا برهة من الزمن . ونظر الى الساعة التى كانت قد تجاوزت السابعة بقليل . وراح يخلع قميصه الذى اتسخ ، فى تثاقل وبطء ، ليرتدى آخر

ابيض نظيفا وربطة عنق . ثم مشط شعره الذى وخطه الشيب عند مقدمه وفوديه ، وارتدى جاكتته وخرج الى المطبخ ، حيث كانت بيلاجيا ايلينيتشنا وامها تجلسان بعد خروج بولينا جيورجيفنا . وذكر يخاطبهما :

– هيه يا بيلاجيا ايلينيتشنا ، فلتقدمى الى قليلا من حليب البقرة المسعورة ، وبعض الخبز ما دام موجودا . اننى سوف انصرف الى العمل .

وبعد عشر دقائق تقريبا راح فيليب بيتروفيتش يخطو فى تثاقل وعلى مشهد من الجميع بشوارع المدينة فى اتجاه الورش المركزية لمؤسسة «فحم كراسنودون» انيقا ، نظيف الملبس ، يغطى راسه بكاب اسود .

الفصل الثالث والعشرون

وصلت الى كراسنودون فى اثر قوات الجيش العامل وحدات «النظام الجديد» الادارية بجنودها وضباطها من مختلف الرتب . وكان واحدا من اولئك الملازم شفيديه ، عجوز ناحل الجسد وخط الشيب راسه ، فنى يعمل بمايسمى بكتيبة المناجم . ولم يكن اى من سكان كراسنودون قد لاحظ وصوله ، حيث كان شأن بقية العسكريين الالمان يرتدى نفس الزى الذى لم يكن ثمة من يميز علاماته الدالة على الرتبة العسكرية .

وقد شغل الملازم شفيديه منزلا نموذجيا يتكون من اربع شقق ، به اربعة مطابخ عمرت جميعها بالحركة والنشاط منذ اللحظة الاولى التى ظهر فيها هذا السيد الالمانى . وكان شفيديه قد جاء برفقة عدد كبير من الموظفين الالمان ، الا انهم شغلوا جميعا مساكن اخرى ، ولم يقطن معه سوى عدد من الطباخين الالمان ، ومدبرة منزل المانية وجندى للقيام على خدمته . وسرعان ما تكاثر عدد العاملين لديه بقدوم «السيدات الروسيات» ، كما كان يدعو الخادمات – الغسالة والمترجمة والخياطة ، وكذلك المشرفات على حظائر الابقار والخنازير والطيور ، اللاتى ارسلهن اليه مكتب العمل . وكانت الابقار والخنازير قد ظهرت لدى السيد

شفيديه وكانما استجابة لعصا سحرية ، الا أن تربية الدواجن المنزلية كانت هوايته المفضلة .

بيد أن ذلك لم يجعل ملازم كتيبة المناجم متميزا فى نهاية الأمر عن قرنائه الضباط الالمان الآخرين . ورغما عن كل ذلك فقد أثار اهتمام المدينة بأسرها . فقد شغل الملازم شفيديه والموظفون الآخرون القادمون معه مدرسة جوركى الكائنة بالحديقة العامة ، والتى ظهرت محلها مؤسسة جديدة سميت «بالادارة رقم ١٠» .

وقد اتضح أن «الادارة رقم ١٠» أى تلك المؤسسة العسكرية هى هيئة اقتصادية ادارية رئيسية تشرف على كافة مناجم منطقة كراسنودون والمؤسسات التابعة لها بما فيها من معدات وأدوات لم يسعف الوقت العاملين بها لنقلها أونسفها ، وبعمالها الذين لم يسعفهم الوقت للرحيل ، أو الذين عجزوا عن ذلك . وقد كانت هذه المؤسسة احد فروع كثيرة لجمعية مساهمة كبيرة ذات اسم كبير يوحى بالكثير «الشركة الشرقية لتشغيل مؤسسات الفحم والمعادن» . وقد كان مقر الشركة بمدينة ستالينو التى اطلق عليها الألمان «يوزوفسك» ، وقد اعتمدت ماتسمى «بالشركة الشرقية» على «الادارات المحلية لمؤسسات المناجم والتعدين» . وكانت الادارة رقم ١٠ ، شأن الادارات الأخرى تتبع الادارة المحلية بمدينة شاختى .

وقد جرى تنظيم وتخطيط كل شىء على نحو لم يبق معه سوى ان ينساب فحم ومعادن حوض الدونباس السوفييتى ليصب فى جيوب «الشركة الشرقية» الألمانية . وأصدر السيد شفيديه تعليماته بأن يبدأ العمل على الفور كل عمال وموظفى ومهندسى وفنيى مناجم ومصانع مؤسسة «فحم كراسنودون» السابقة .

وكم من الشكوك المضنية انهكت آنذاك روح العامل قبل ان يضطر الى اتخاذ قرار الاستمرار فى العمل ، حين أصبحت مناجمه ومصانعه ملكا لاعداء الوطن ، وحين يستشهد الابناء ، والاخوة ، الازواج والآباء فى ساحة القتال ضد اعداء الوطن . وقد كانت امارات الكآبة والتجهم والحيرة تعلو وجوه العمال والموظفين الذين خرجوا للعمل بالورش المركزية ، كما وكانوا يتحاشون النظر كل الى الآخر ، فيما يلتزمون جميعا الصمت .

كانت ابواب الورش مفتوحة على مصاريعها منذ آخر أيام التهجير . لم يكن ثمة من يغلقها او يحرسها ، حيث لم يكن هناك من يهمه أمر بقاء معدات الورش فى الحفظ والصون . كانت ابواب الورش مفتوحة ، الا انه لم يكن هناك من دخلها . وقد استقر العمال فرادى ، وليس جماعات ، أو ازواجا فيما ندر ، بين الحطام وبقايا المعادن فى الفناء ينتظرون الرئاسة فى صمت .

وهنا ظهر المهندس الميكانيكى باراكوف ، فارع القامة ، قوى البنية يبدو فى سن تقل عن عمره الحقيقى الذى يناهز الخامسة والثلاثين ، يعكس وجهه ، امارات ثقة فى النفس ، متانق الملبس الى حد كبير . كان يرتدى رباط عنق اسود ، يمسك فى يده بقبعته بينما تبدى راسه الحليق لامعا تحت اشعة الشمس . وتقدم باراكوف الى مجموعة العمال المتناثرة بالفناء ، يحييهم فى تأدب ، ثم تمهل برهة ، ليندفع فى خطوات حاسمة نحو المبنى الرئيسى . ولم يرد العمال تحيته ليرافقوه بانظارهم صامتين حتى دلف الى المكتب عبر الورشة الميكانيكية .

لم تتعجل القيادة الألمانية الحضور . وكانت الشمس قد اتخذت مكانها عاليا بالسماء حين عبر البوابة الى الفناء السيد فيلدنير نائب شفيديه ، برفقة مترجمة روسية صففت شعرها على نحو احتفالى .

وكما يحدث كثيرا فى حياتنا هذه كان السيد فيلدنير يقف على طرفى نقيض مع رئيسه من حيث مقوماته البدنية والنفسية . فقد كان الملازم شفيديه نحيل القوام ، دائم الشك صموتا ، بينما كان فيلدنير عريض المنكبين ، ربعة وثرثارا . وكان صوته جهوريا ، يمكن أن يسمعه المرء على مسافة بعيدة متعدد النبرات بحيث يتصوره مجموعة من الألمان احتدم نقاشها . وكان السيد فيلدنير يرتدى الزى العسكرى تعلو راسه قبعة رمادية ارتفعت مقدمتها عالية .

وتقدم فيلدنير برفقة المترجمة الى العمال الذين راحوا ينهضون من اماكنهم الواحد تلو الآخر ، مما كان مثار ارتياحه بعض الشىء . وطفق يتحدث مع المترجمة ليواصل على الفور حديثه الموجه الى العمال والذى بدا جملة طويلة ، أو بضع جمل قصيرة متصلة . وقد واصل صراخه فيما كانت المترجمة تقوم بعملها ، مما يؤكد انه

لم يكن يعرف فى حياته معنى الصمت . ولربما كان يواصل صراخه منذ تلك اللحظة التى اطلق فيها صرخته الاولى عقب ولادته مباشرة ، لتبدو حياته اشبه بمراحل من الصراخ الدائم بكافة صوره .

لقد كان يتساءل عما اذا كان قد بقى احد من الرئاسات القديمة ، ثم أصدر أوامره للعمال بالانصراف الى الورش لاطلاعه على العمل هناك . ورافق بعض العمال الالمانى الصارخ الذى تقدمهم برفقة المترجمة الى ادارة الورشة الميكانيكية ، حيث كان يوجد باراكوف . ودفع فيلدنير الباب بقبضة يده البدينة ليدخل الى المكتب وقد رفع هامته تغطيها قبعته التى ارتفعت مقدمتها عالية ، فى محاولة لتاكيد الذات . ودلفت المترجمة الى الداخل فى اثره ثم اغلقت الباب ، حيث لزم العمال اماكنهم بجواره ينصتون السمع الى ما يدور بالحجرة .

ترامى الى أسماعهم فى البداية صراخ فيلدنير الذى بدا وكانما هناك عدد من الألمان يتجادلون حول أمرما . وانتظروا ان تشرع المترجمة فى نقل ماذكره ، الا انهم بوغتوا بباراكوف يرد عليه بالالمانية . كان يتحدث فى لهجة مهذبة وفى هدوء وطلاقة ، كما تصور العمال الواقفون الى جوار المكتب .

وخفت حدة صراخ فيلدنير شيئا فشيئا . ولربما كان ذلك عائدا الى كون باراكوف قد بادله الحديث بالالمانية ، او يكون قد ذكر ما بعث الارتياح الى نفسه . وفجاة حدثت المعجزة . . فقد صمت الالمانى ؛ وصمت بالتالى باراكوف . وبعد برهة صاح الالمانى فى نبرة مسالمة تماما . وخرج ثلاثتهم يتقدمهم فيلدنير ، يتبعه باراكوف ثم المترجمة . ورمى باراكوف العمال بنظرة تتسم بالبرودة ، منبها عليهم بضرورة انتظاره . وتوجهوا على هذا النحو الى البوابة عبر الورشة ، بينما كان باراكوف الوسيم القوى يهرول فى اثر الالمانى القصير المستدير والاشبه بالرسوم الكاريكاتورية يشير له الى الطريق . ولقد كان منظرا يثير الاشمئزاز .

وبعد برهة من الزمن كان باراكوف يجلس فى غرفة المدرسين بمدرسة جوركى والتى أصبحت مكتب رئيس الادارة رقم ١٠ – الملازم شفيديه . وحضر فيلدنير والمترجمة المجهولة اللقاء ، الا ان المترجمة لم تجد فرصة لاظهار مواهبها فى اللغة الالمانية .

وكما ذكرنا فيما سبق ، لم يكن الملازم شفيديه يجيد الحديث ، على النقيض من نائبه الثرثار فيلدنير . وقد كان يبدو متجهم الوجه لعدم قدرته على التعبير عن افكاره ، على الرغم من ان ذلك لم يكن يعكس واقع الحال ، حيث كان يعشق مباهج الحياة ومفاتنها . وقد كان نحيلا على الرغم من شراهته فى تناول الطعام . ويصعب على المرء معرفة اين يمكنه اختزان كل تلك الكميات من الطعام التى كان يلتهمها وكيف لجسده النحيل هذا هضمها . وكان مولها فى حب السيدات والآنسات ، ولاسيما السيدات والآنسات الروسيات فى تلك الاونة . وقد كان يقيم لاستمالة اضعفهن مقاومة ، الامسيات الصاخبة فى مسكنه ذى الاربع شقق ، يقدم اليهن فيها مختلف أنواع الطعام والحلوى والخمور . وكان يقول لطباخيه :

– فلتعدوا اكبر كمية من الاطعمة كى تاكل السيدات الروسيات ، ويشربن بما فيه الكفاية !

وللحقيقة وازاء عدم طلاقته فى الحديث ، كانت هذه الطريقة هى الوسيلة الوحيدة لاستمالة السيدات الروسيات من ذلك النوع الذى كان يمكنه زيارته .

وقد كان عجز السيد شفيديه عن الحديث بشكل منمق وفى طلاقة ، يجعله غير واثق فى كل أولئك الذين يستطيعون ذلك فى سلاسة . فلم يكن يثق فى نائبه فيلدنير ، وللمرء ان يتخيل فى ظل مثل هذا الوضع مدى تشكك شفيديه فى الآخرين من القوميات الأخرى .

وفى ظل مثل هذه الظروف يكون باراكوف قد وقع فى احرج المواقف . غير انه كان قد أذهل شفيديه بقدرته على الحديث بطلاقة ليس بالروسية ، بل بالالمانية ، هذا اولا . اما ثانيا فقد اغرق باراكوف السيد شفيديه فى بحر من الثناء والتملق ، مما لم يجد معه السيد الملازم مفرا من تقبله . اذ راح باراكوف يقول دون ان يرفع ناظريه الجامدين عن شفيديه :

– اننى احد القلائل الباقين على قيد الحياة من رعيل الطبقة المميزة ايام روسيا القديمة . لقد كنت منذ طفولتى مولها بحب المانيا ، ولاسيما فى مجال الاقتصاد ، وبالتحديد فى مجال الانتاج . لقد كان

أبى مديرا لواحد من أكبر مصانع شركة «سيمونز – شوكيرت» فى روسيا القديمة . وكانت اللغة الالمانية هى اللغة الرئيسية الثانية فى اواسط عائلتنا . هذا بالاضافة الى ان تعليمى استند أساسا الى الادبيات الفنية الالمانية . وها انذا سوف أكون سعيدا للعمل تحت رئاسة خبير محنك مثلكم أيها السيد شفيديه . اننى سوف انفذ كل ماتأمروننى به . . .

وفجاة وقع نظر باراكوف على المترجمة تنظر اليه فى دهشة عجزت عن اخفائها . . . ومن ذا الذى يعلم أين وجد الألمان هذه الدودة كثة الشعر ! ولئن كانت هذه المترجمة من سكان المنطقة ، فقد كانت تعلم بالتاكيد ان باراكوف ليس احد القلائل الباقين من ممثلى الطبقة المميزة فى روسيا القديمة ، بل من خير سلالة عائلة باراكوف التى حظيت بشهرة فائقة بين عمال مناجم الدونيتس . وهنا تصبب راسه الحليق عرقا .

وكان السيد شفيديه ، ريثما يتحدث باراكوف ، يفكر فى صمت وعلى نحو لم تعكسه قسمات وجهه ، ليقول بما يحمل معنى التساؤل والتاكيد :

– انت شيوعى . . .

واشاح باراكوف بيده ، على نحو توافق مع قسمات وجهه بما يعنى «اى شيوعى اكون !» او «انك تعلم أننا اضطررنا جميعا لان نكون شيوعيين !» او حتى «نعم . . شيوعى ، وذلك افضل ما يمكن ان يكون ، اذا ما تقدمت اليكم لخدمتكم» .

وارضت هذه الاشارة السيد شفيديه بعض الوقت . فلقد كان من الضرورى ان يشرح لهذا المهندس الروسى مدى اهمية تشغيل الورش المركزية بغية اصلاح معدات المناجم . وحاول السيد شفيديه توضيح هذه الفكرة المعقدة على النحو التالى اذ قال وهو ينظر الى فيلدنير مستنجدا :

– ليس هناك اى شىء .

واذ كان فيلدنير قد عانى طويلا ازاء صمته هذه المدة الطويلة فى حضرة رئيسه ، فقد هب يصيح بصورة آلية «لا» مؤكدا فكرة الملازم :

– لا معدات ! . . لا سبل نقل ! . . لا آلات ! لا اخشاب ! لا عمال !

كما وكان ياسف اشد الاسف لعدم استطاعته اكتشاف شىء آخر يضيفه الى تلك القائمة المبتدئة «بلا . . .» .

واوما الملازم شفيديه بماينم عن ارتياح ، ثم فكر قليلا ، ليقول بالروسية فى صعوبة شديدة :

– لا شىء ! وكذلك لا فحم !

ومال بظهره الى مسند الكرسى وراح يتامل باراكوف ، ثم فيلدنير . واذ ادرك الأخير مغزى هذه النظرة بما يعنى البدء فى العمل ، راح يصيح حول ماتنتظره «الشركة الشرقية» فى نهاية الامر من باراكوف .

واستطاع باراكوف وبصعوبة بالغة ان يجد لحظة صمت فى خضم ذلك الصراخ ليتفوه بجملة قصيرة حول انه سوف يبذل كل ما فى وسعه .

وهنا تملكت مشاعر الشك السيد شفيديه من جديد ليسأله :–

– هل أنت شيوعى ؟

وابتسم باراكوف بما ينم عن سخرية ، واشاح بيده على نفس النحو السابق .

وقام باراكوف حين عاد الى الورش بتعليق اعلان كبير على البوابة يفيد انه مدير الورش المركزية للادارة رقم ١٠ يدعو كافة العمال والموظفين والمهندسين للعودة الى عملهم ، ويقبل كافة طلبات الراغبين فى الالتحاق بالعمل فى بعض التخصصات .

وقد اصاب الذهول حتى آخر اولئك الذين خدروا ضمائرهم حين قرروا الانخراط فى العمل ، ازاء كون المهندس باراكوف الذى خاض الحربين الفنلندية والوطنية ، يوافق طواعية على العمل مديرا لاحدى المؤسسات ، التى تشكل اهمية فائقة للالمان . بيد انه وحتى قبل أن يجف حبر ذلك الاعلان ظهر فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف . . . نعم ليوتيكوف الذى كانوا يسمونه الضمير الشيوعى ، ليس فقط بالورش ، بل وفى كل المنظمة الحزبية بكراسنودون .

لقد جاء صباحا على مراى من الجميع ، انيق الملبس ، حليق الوجه ، يرتدى قميصا ابيض ورباط عنق جميل تحت جاكتة سوداء

اللون . وسرعان ما جرى تسجيله بالورش فى نفس وظيفته القديمة ، اى رئيس الورشة الميكانيكية .

وقد توافق موعد بدء العمل فى الورش مع لحظة ظهور اولى منشورات لجنة الحزب السرية بالمنطقة . وجرى لصق المنشورات واعداد جريدة «البرافدا» القديمة فى ابرز الأماكن . فلم يترك البلاشفة كراسنودون الصغيرة فى مهب الرياح ، حيث راحوا يواصلون النضال ويدعون كافة السكان لمشاركتهم هذا النضال . . . وقد كان ذلك جوهر ماجاء بتلك المنشورات ! وكم تصور اولئك الذين عرفوا باراكوف وليوتيكوف فى افضل فترات حياتهما ، ماعسى ان يفعلاه حين تعود السلطة السوفييتية الى المدينة ، وكيف لهما ان يرفعا انظارهما لتأمل عيون الرفاق الطاهرة ؟

وللحقيقة فلم يكن ثمة من يمارس عملا جديا فى تلك الورش . وكان باراكوف يزيد من اتصالاته وعلاقاته بالقيادات الالمانية ، لا يهتم كثيرا بما يجرى داخل الورش . أما العمال فكانوا يتأخرون عن العمل ، ويتسكعون فيما بين المخارط ، ويفترشون الأعشاب بالساعات فى احد اركان الفناء ، ويدخنون . ومن المؤكد ان ليوتيكوف كان يحاول استرضاء العمال ، اذ راح يشجعهم على القيام بأجازات وقضائها بالريف ، ويمنحهم المستندات الرسمية الدالة على انهم فى مهمات رسمية خاصة بشئون المناجم . وكان العمال يقومون بتنفيذ طلبات صغيرة خاصة بالسكان بغية التكسب . كانوا يصنعون بصفة خاصة كثيرا من الولاعات ، حيث اختفى الكبريت . أما عن البنزين اللازم فقد كانوا يحصلون عليه من الجنود الألمان لقاء بعض الماكولات .

كما وكان خدم الضباط يهرولون عدة مرات كل يوم يحملون العلب التى ملأوها بالزبد والعسل بغية اغلاقها باللحام لارسالها الى المانيا .

وحاول بعض العمال الحديث مع ليوتيكوف ، فلم يكونوا قادرين على الوصول الى باراكوف ، فى محاولة لاستيضاح سبب الانخراط فى خدمة الألمان ، وماذا سوف تسفر الحياة عنه مستقبلا . كانوا يحاولون الاشارة من بعيد الى هذا الموضوع ، ويناورون لمعرفة الحقيقة . الا ان فيليب بيتروفيتش كان يقطع عليهم الطريق قائلا :

– لا بأس . . سوف نعمل على خدمتهم !

واحيانا يجيب فى خشونة :

– ان هذا ليس من شانك ياصاح ! ألم تخرج للعمل بنفسك ؟ لقد خرجت بنفسك . من فينا يراس الآخر ؟ اننى اراسك . وهذا يعنى أننى ولست انت املك حق السؤال . انك سوف تفعل ما آمرك به . هل فهمت ؟

كان فيليب بيتروفيتش يخطو بطيئا فى تثاقل لمعاناته من الربو ، يجتاز المدينة نحو طرفها الاخر فى طريق الى العمل ومنه الى البيت فى المساء . ولم يكن هناك من ورد الى خاطره مدى النشاط والطاقة والسرعة والدقة فى آن واحد التى تميز بها فيليب بيتروفيتش فى عمله الأساسى ، الذى حقق شهرة عالمية فيما بعد لكراسنودون – مدينة المناجم الصغيرة .

وكم عانى حين علم فجأة عند بدء نشاطه باختفاء ماتفى شولجا ، احد مساعديه المقربين ، وعلى نحو غامض ؟

لقد كان فيليب بيتروفيتش بوصفه سكرتيرا للجنة السرية للمنطقة يعرف كافة مساكن الايواء واماكن اللقاءات فى المدينة والمنطقة . كما وكان يعرف عنوان مسكنى ايفان كوندراتوفيتش واجنات فومين اللذين كان من المفروض أن يختفى لديهما شولجا . بيد أن فيليب بيتروفيتش لم يكن يملك حق ارسال اى من رجال اتصال لجنة المنطقة ومن باب أولى بولينا جيورجيفنا الى هذين المسكنين . فاذا كان شولجا قد سُلم الى الالمان فى احدى هاتين الشقتين ، فسوف يكون كافيا لصاحبيهما مشاهدة حلقة الاتصال حتى يقتفون اثرها للاهتداء الى مكان ليوتيكوف وبقية اعضاء لجنة المنطقة .

ولئن كان شولجا لم يمس ، فقد كان يمكنه معرفة موعد خروجه الى العمل من مكان اللقاء الرئيسى . لم يكن من المفروض عليه حتى دخول ذلك المسكن ، بل كان يكفيه المرور الى جواره . اذ جرى وضع اصيص زهور فى النافذة المجاورة للباب مباشرة فى نفس اليوم الذى نقلت فيه بولينا جيورجيفنا تعليمات فيليب بيتروفيتش . بيد ان يفدوكيم أوستابتشوك – اى شولجا – لم يخرج الى العمل .

ولقد مرت فترة طويلة للغاية ، حتى علم فيليب بيتروفيتش الذى كان يستقصى الاخبار حول الخونة الذين التحقوا بالعمل فى شرطة

الألمان ، بحقيقة أمر اجنات فومين . من المؤكد ان يكون فومين هو الذى وشى بشولجا . لكن كيف ذلك .. وماذا كان مصير ماتفى كوستيفيتش ؟

كانت لجنة الحزب بالمنطقة فى فترة التهجير وبناء على تعليمات بروتسينكو ، قد دفنت حروف مطبعة المنطقة فى حفرة بالحديقة العامة . وجرى فى اللحظة الاخيرة تسليم ليوتيكوف الرسم التفصيلى لمكانها . وكان ليوتيكوف يخشى وقوع هذه الحروف فى حوزة جنود الدفاع الجوى ، وجنود الجراج الالمان . ولذا فقد قرر ضرورة الحصول على حروف المطبعة باى شكل كان وفى حضرة الحراس الالمان . فمن ذا الذى يستطيع ذلك ؟

الفصل الرابع والعشرون

انقطع فولوديا اوسموخين عن متابعة دروسه بالصف العاشر فى مدرسة فوروشيلوف بعد وفاة أبيه ، ليلتحق فى شتاء اول اعوام الحرب بالعمل فى الورشة الميكانيكية بمؤسسة «فحم كراسنودون» . وقد عمل تحت اشراف ليوتيكوف الذى كان صديقا لعائلة ريبالوف التى انحدرت منها أمه ، ويعرفه جيد المعرفة . وقد ظل فولوديا يعمل بالورشة حتى ذلك اليوم الذى نقلوه فيه الى المستشفى لاجراء عملية الزائدة الدودية .

ولم يكن فولوديا يفكر بطبيعة الحال فى العودة للعمل بالورشة بعد وصول الألمان . بيد انه وبعد صدور امر باراكوف وانتشار اشاعة نفى كافة الرافضين للعمل الى المانيا ، وبعد التحاق فيليب بيتروفيتش بالذات بالعمل جرت المشاورات بين فولوديا وافضل اصدقائه توليا أورلوف بشأن ما ينبغى عمله .

وكانت مسالة العمل فى ظل السلطة الالمانية بالنسبة لفولوديا وتوليا من اصعب القضايا ، شانهما فى ذلك شأن بقية المواطنين السوفييت . لقد كان الالتحاق بالعمل هو اسهل الطرق لتوفير سبل العيش وتفادى الاضطهاد الذى يلحق بالمواطن السوفييتى الذى يرفض العمل فى خدمة الألمان . هذا علاوة على أن كثيرا من الناس كانوا يؤكدون استنادا الى خبراتهم امكانية عدم العمل والاكتفاء بالتظاهر

به . بيد أن فولوديا وتوليا شأن كل المواطنين السوفييت كانا بحكم تربيتهما عازفين عن العمل ، قليلا او كثيرا ، لصالح العدو ، بل على العكس كانا يشعران بضرورة ترك العمل ، والتصدى بكافة السبل لمقاومته ، والانخراط فى العمل السرى ، فى صفوف الفدائيين . لكن كيف الاتصال بهم ؟ وكيف العثور عليهم ؟ وكيف العيش ريثما يجدان وسيلة للعثور عليهم ؟

ولم يكن ثمة مايفعلانه — توليا ، وفولوديا الذى بدأ يتماثل للشفاء ، وصار قادرا على السير ، سوى الاستلقاء فى البرارى تحت اشعة الشمس ، وتبادل الحديث حول قضيتهما الاساسية ، حول ما ينبغى القيام به .

وذات مساء عرج فيليب بيترويتش بنفسه لزيارة آل اوسموخين فى مسكنهم . وقد وصل فى تلك اللحظة التى كان فيها المنزل يغص بالجنود الالمان ، ليس بأولئك الذين كان يتراسهم ذلك العريف الذى حاول مرارا الفوز بليوسيا ، بل بمجموعة ثانية وربما تكون ثالثة ، حيث كان آل اوسموخين يعيشون فى منطقة يقع عبرها الطريق الرئيسى لمرور القوات الالمانية . وصعد فيليب بيتروفيتش الدرج الى مدخل المنزل فى خطوات بطيئة ، متثاقلة بوصفه رجلا ذا مكانة ، وخلع كابه وحيا فى تأدب الجندى الواقف بالمطبخ ، طرق باب الغرفة التى كانت تعيش فيها يليزافيتا الكسييفنا برفقة ليوسيا وفولوديا .

— فيليب بيتروفيتش ! أوجئت لزيارتنا ؟

واندفعت اليه يليزافيتا الكسييفنا وشدت على يديه بكلتا يديها الجافتين الدافئتين .

وكانت يليزافيتا الكسييفنا من اولئك الذين لم يدينوا فيليب بيتروفيتش ازاء عودته للعمل بالورش . فقد كانت تعرفه جيد المعرفة ، ولم تكلف نفسها حتى عناء بحث أسباب ذلك التصرف . فاذا كان فيليب بيتروفيتش قد تصرف على هذا النحو فان هذا يعنى انه لم يجد مفرا خيرا من ذلك ولربما كانت الضرورة هى التى حتمت ذلك .

لقد كان فيليب بيتروفيتش أول صديق يزور آل اوسموخين منذ احتلال الالمان للمدينة . وقد تجلت تلك السعادة الفائقة برؤيته

فى اندفاعة يليزافيتا الكسييفنا نحوه . وادرك ذلك ، كمـــا وكان شاكرا لها فى قرارة نفسه على هذا التصرف .

وذكر فيما تعلو وجهه أمارات الصرامة التقليدية :

– جئت لاستدعاء ابنك للعمل . فلتجلسى وابنتك بعض الوقت بحكم العادة ، ثم ارجو ان تخرجا وكانكما ذاهبتان لقضاء امر ما ، لنبحث الأمر معه على نحو ما .

وارتسمت ابتسامة على شفتيه ، لتغدو قسمات وجهه اكثر رقة .

لم يرفع فولوديا عنه عينيه منذ تلك اللحظة التى دلف فيها الى الغرفة . وقد كان فولوديا فى احاديثه مـــع توليا ، يحاول كثيرا الاشارة الى ان ليوتيكوف لم يخرج الى العمل بحكم الضرورة ، ومن ثم ليس جبنا منه ، فلم يكن من امثال اولئك الجبناء . من المؤكد ان يكون ثمة امر آخر اكثر عمقا دفعه الى ذلك ، وربما يكون ذلك الأمر غير بعيد عن التصورات التى تدور كثيرا فى مخيلتهما ، هـو وتوليا . وعلى اى حال فقد كان شخصا يمكن مشاطرته وبكـــل شجاعة ما عقد عليه النية .

وبدا فولوديا الحديث بمجرد ان خرجت يليزافينا الكسييفنـا وليوسيا ، وعلى نحو يحمل نبرة التحدى :

– الى العمل ! لقد قلت . . الى العمل ! ان الأمر سيان . . عملت ام لم اعمل . . فسوف يبقى هدفى واحدا فى كلتا الحالتين . اننى استهدف النضال ، والنضال الذى لاهوادة فيه . ولئن ذهبت للعمل ، فلن يكون ذلك الا من اجل التمويه .

ولم يثر اندفاع الشاب وسذاجته وحدة انفعاله التى كسرها بعض الشىء وجود الجنود الالمان فيما وراء الباب ، خوف فيليب بيتروفيتش على مصيره او حزنه اوسخريته منه ، بل جعل كـل ذلك الابتسامة ترتسم على شفتيه . فقد كان رجلا لاتعكس قسمات وجهه ما يجيش به صدره . وراح يقول :

– هذا حسن للغاية . يجب عليك ان تقول ذلك لكل من يجىء اليك ، مثلما فعلت معى . بل ومن الأفضل ان تخرج الى الشارع لتعلن كل من يصادفك عرضا : «اننى ذاهب لخوض نضال لاهوادة فيه ، واود التمويه على ذلك . . ساعدونى !» .

وهب فولوديا يقول فى تجهم :

– انك لست شخصا قابلته صدفة .

واجابه ليوتيكوف :

– لعلنى لا اكون كذلك ، بيد انك لاتستطيع ادراك ذلك فى مثل هذا الوقت .

وادرك فولوديا ان فيليب بيتروفيتش سوف يبدأ فى القـــاء المواعظ عليه . وقد بدأ ليوتيكوف هذا بالفعل :

– ان الثقة فى مثل تلك الامور يمكن ان تكلف المرء عمره . لقد تغيرت الظروف ، علاوة على القول السائد . . . «ان للجدران آذانا» . – واومأ ليوتيكوف براسه نحو الباب . – ان من حسن حظك ان اكون انسانا معروفا ، مكلفا باعادة الجميع الى العمل بالورش ، وذلك ماجعلنى ازورك اليوم . وتخبر امك وشقيقتك بذلك . ولتقل لهؤلاء ذلك – واومأ براسه تجاه الباب – اننا سوف نعمـــل فى خدمتهم . – وهنا رفع عينيه الصارمتين يتأمل فولوديا الذى ادرك كل شىء على الفور مما جعل الشحوب يكسو وجهه .

وتساءل فيليب بيتروفيتش :

– هل بقى من رفاقك أحد فى المدينة يمكن الركون اليه ؟

واشار فولوديا الى اولئك الذين يعرفهم شخصيا : توليـــا اورلوف ، وجورا اروتيونيانتس وفانيا زيمنوخوف ، ثم اضاف :

– وسوف نجد غيرهم .

– فلتقم علاقات باولئك الذين ترى امكانية الاعتماد عليهم ، بيد انه يجب عليك ان تقيم علاقاتك بكل منهم على حدة . واذا ما تاكدت من اخلاصهم . . .

– انهم مخلصون يافيليب بيتروفيتش .

واستطرد ليوتيكوف يقول وكانما لم يسمع ملاحظة فولوديا :

– اذا ما تاكدت من اخلاصهم ، فلتشر اليهم فى حرص الى انه توجد الامكانية . . . وتسالهم بشكل غير مباشر عن موافقتهم .

– انهم موافقون ، بيد ان كلا منهم سوف يسالنى عما يجب ان يفعله .

– فلتجبهم . . سوف تصدر لك التعليمات . اما الآن فسوف اعهد اليك بمهمة . – وتحدث معه بشأن حروف المطبعة ، واشار

له الى مكانها بالتحديد فى الحديقة العامة . – فلتستطلع الأمر ، ولتخبرنى اذا ما كان ذلك مستحيلا .

واستغرق فولوديا فى التفكير . ولم يتعجل فيليب بيتروفيتش الاجابة ، فقد كان يعرف انه لن يتردد ، بل يقلب الامور بوصفه انسانا جاد الطباع . بيد ان فولوديا لم يكن يفكر فى ذلك الذى عرضه عليه ليوتيكوف ، ليقول :

– فلأكن صريحا معك . لقد طلبت أن أتحدث مع كل من الاخوة على حدة . بيد أننى يجب أن اشير فى حديثى الى أننى لا أتحدث باسمى . اذ أن الامر سوف يكون مختلفا اذا كنت أتصرف من تلقاء نفسى ، عنه اذا ما قلت أننى قد تلقيت تعليمات من شخص مرتبط بالتنظيم . اننى لن أذكر اسمك ، بل ولن يسأل أحد منهم عن ذلك . أو لا يفهمون ؟

وقد أراد فولوديا بذلك ان يقطع طريق ليوتيكوف للاعتراض ، الا أن فيليب بيتروفيتش لم يعترض مواصلا الانصات الى فولوديا – انهم كانوا ليصدقوننى ايضا ان تحدثت معهم باسمى انا اوسموخين ، غير أنهم كانوا سوف يواصلون البحث عن وسيلة للاتصال بالمنظمة السرية ، حيث لست بالنسبة لهم مرجعا ، وثمة منهم من يكبرنى سنا – وهنا كان يود أن يقول «يفوقنى ذكاء» . – وبوجه عام هناك من يهتم منهم بالسياسة ، ويفهم امورها أفضل منى . ولذا فمن الأفضل مصارحتهم بأننى لا أعمل من تلقاء نفسى ، بل بتكليف من المنظمة . هذا اولا . أما ثانيا . تلزمنى مساعدة بعض الصبية لتنفيذ المهمة التى أوكلتها الى بشأن المطبعة . وينبغى شرح خطورة هذه القضية والاشارة الى مصدر التكليف . وهنا يحضرنى سؤال . . لدى ثلاثة اصدقاء ، أحدهم قديم وهو توليا أورلوف ، والاخران جديدان : فانيا زيمنوخوف وجورا أروتيونيانتس الا أننى اعرفهما فيما سبق ، ويمكننى الاعتماد عليهما ، حيث أثبتت الحياة مدى اخلاصهما . اننى أثق فيهما ، ثقتى بنفسى . فهل لى ان اجمع ثلاثتهم للتشاور سويا ؟

وصمت ليوتيكوف برهة من الزمن متأملا حذاءه ، ثم رفع ناظريه الى فولوديا ، يعلو شفتيه ظل ابتسامة ، الا أن وجهه اتسم ثانية بقسمات الصرامة المعهودة .

– حسنا . فلتجمع هؤلاء الصبية ، ولتعلنهم صراحة عن الجهة التى كلفتك بهذه المهمة ، لكن دون أسماء ، بطبيعة الحال .

وأومأ فولوديا براسه وهو يكاد يتمالك نفسه ازاء ذلك الاضطراب الذى اجتاح كل كيانه .

ومضى فيليب بيتروفيتش يقول ، وكأنما فى حديث مع نفسه ، بينما تتغلغل عيناه الصارمتان فى هدوء وصراحة الى أعماق روح فولوديا :

– لقد اصبت التفكير . اذ ينبغى أن يعلم كل امرئ ان الحزب يقف مؤيدا لكافة اعمالنا . كما وانك ادركت عن حق ضرورة ان يكون لدى تنظيمنا الحزبى مجموعته الشبابية . وقد جئت اليك خصيصا لبحث هذا الأمر . وما دمنا قد اتفقنا بهذا الشأن ، فاننى اود الادلاء اليك بنصيحتى ، بل وان أردت ، فلتعتبرها أمراً . . لا تفعل شيئا على الاطلاق دون التشاور معى بشانه ، حيث ان ذلك يمكن ان يكلفك حياتك ، ويضع تنظيمنا فى وضع حرج . اننى لا افعل شيئا من تلقاء نفسى ، ودون التشاور مع الآخرين . اننى اتشاور مع رفاقى ومع قياداتنا . . نعم هناك قيادات تشرف على عملنا ، فى مقاطعة فورشيلوفجراد . ولتبلغ أصدقاءك بذلك ، وعليكم كذلك التشاور فيما بينكم . ولعلنى اكون قد تحدثت معك بمافيه الكفاية .

وابتسم ليوتيكوف ، ثم نهض قائلا :

– فلتخرج الى العمل اعتبارا من الغد .

وابتسم فولوديا ، ثم قال :

– فليكن . . بعد غد . وهل لى ان ادعو توليا اورلوف معى ؟

وضحك ليوتيكوف :

– كنت اود تحريض واحد للعمل لصالح الألمان ، لأجد اننى قد فعلت ذلك مع اثنين فى آن واحد . فلتدعه . . ان هذا من الأفضل .

وخرج فيليب بيتروفيتش الى المطبخ ليتبادل الحديث مع يليزافيتا الكسييفنا . وليوسيا والجندى الألمانى ، بل ومزح معهم قليلا ثم انصرف . وأدرك فولوديا انه يستحيل كشف ذلك السر الذى أؤتمن عليه ، لذويه . بيد انه كان غير قادر على اخفاء توتره واضطرابه عن عيون امه وشقيقته . وراح

فولوديا يتثاءب على نحو مفتعل ، قائلا انه يجب عليه النهوض غدا مبكرا ، وان النوم يغالبه بوجه عام . ولم تساله يليزافيتا الكسييفنا عن شيء على الاطلاق ، مما جعله يشك فى انها قد ادركت ان فيليب بيتروفيتش لم يقتصر فى حديثه معه على العمل فى الورش . وقد كان ذلك طالع سوء . اما ليوسيا فقد سالته صراحة :

– حول ماذا كان حديثكما الطويل ؟

واجابها فولوديا فى غضب :

– عن ماذا . . عن ماذا . انك تعلمين عن ماذا .

– وهل سوف تذهب ؟

– وما العمل ؟

– هل سوف تعمل فى خدمة الألمان ؟

وقد كانت نبرات صوت ليوسيا تحمل معانى الدهشة والسخط ، لدرجة ان فولوديا لم يجد معها ما يقوله .

– اننا سوف نعمل فى خدمتهم .

وتلك كانت كلمات فيليب بيتروفيتش التى رددها فى تجهم دون ان يرفع ناظريه الى ليوسيا ، بينما كان يخلع ملابسه استعدادا للنوم .

الفصل الخامس والعشرون

سرعان ما اقام جورا اروتيونيانتس بعد فشله فى النزوح وعودته الى المدينة ، علاقات ودية صريحة مع فولوديا وتوليا اورلوف . الا ان علاقته بليوسيا بدت رسمية يشوبها التوتر . وكان جورا يقطن مسكنا صغيرا فى اطراف المدينة ، حيث لم يكن الألمان يترددون على تلك الأماكن . ولذا فقد كان الاصدقاء غالبا ما يلتقون لديه .

وفى اليوم التالى لتلقى فولوديا مهمة استطلاع امر حروف المطبعة ، تجمع ثلاثتهم لدى جورا اروتيونيانتس فى حجرته الصغيرة التى اتسعت بالكاد لفراشه ومكتبه ، الا انها كانت حجرة مستقلة ، وتلك ميزتها . وهناك لحق بهم فانيا زيمنوخوف الذى عاد لتوه من قرية نيجنى الكسندروفكا . كان فانيا قد غدا اكثر نحافة ، بينما

بليت ثيابه وعلاه الغبار ، فلم يكن قد عرج بعد الى منزله . بيد انه كان فى حالة نفسية طيبة ، يتحرق نشاطا . وسأل فولوديا :

– هل يمكنك الاتصال مرة اخرى بذلك الرجل ؟

– ولماذا ؟

– لسؤاله التصريح بضم اوليج كوشيفوى الى المجموعة فورا .

– لقد ذكر انه لاداعى لضم احد بعد ، ويجب التدقيق فى اختيار الصبية المناسبين .

وذكر فانيا :

– ولذا اسالك ان تطلب منه الاذن بذلك . هل تستطيع الالتقاء بذلك الشخص اليوم . . ولنقل قبل حلول المساء ؟

وذكر فولوديا بنبرة يشوبها الغضب :

– لست ادرى سر هذه العجلة !

– دعنى ، اقول لك هذا السر . اولا ، لان اوليج شاب ممتاز ، ثانيا ، لانه اعز اصدقائى ، وهذا يعنى انه فتى مضمون . وثالثا ، انه يعرف على نحو افضل من جورا ، تلاميذ مدرسة جوركى اعتبارا من الصف السابع وحتى التاسع . واولئك اكثر الذين بقوا بالمدينة .

ورمى جورا فولوديا بناظريه السوداوين المتوقدتين قائلا :

– لقد حدثتك بعد محاولتى الفاشلة للرحيل عن اوليج وبكل تفصيل . وعليك ايضا ان تراعى انه يعيش على مقربة مباشرة من الحديقة العامة ، وبذا يكون افضل من يستطيع المساهمة فى تنفيذ المهمة التى اوكلت الينا .

لقد كانت احاديث جورا وبفضل موهبته فى صياغة افكاره فى جمل سليمة تبدو اشبه بتعليمات رسمية . وتردد فولوديا بعض الشيء . بيد انه ورغما عن ذلك لم يستطع التنازل ، حيث انه لم ينس تحذيرات ليوتيكوف .

وذكر فانيا :

– حسنا . يمكننى ان اسوق لك حجة اخرى ، لكن على انفراد .

والتفت الى جورا وتوليا اورلوف وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة تتسم بالجسارة والخجل فى آن واحد متسائلا :

– الن تغضبا ؟

واجاب جورا قبل أن يخرج برفق توليا أورلوف :

– ان مراعاة السرية أمر يحتم عدم الاهتمام بأية ضيوم شخصية ، واعلاء كل ماتطلبه شئون القضية العامة على اى شيء آخر .

وضاعت سمة الخجل فى ابتسامة فانيا زيمنوخوف لتبدو ابتسامة جريئة لانسان حاسم جسور ، وهو ما كان يتسم به ، ثم قال :

– سوف اثبت لك اننى اثق فيك ، اكثر من ثقتك فى . هل ذكر لك جورا اروتيونيانتس أن فالكو عاد برفقتنا ؟

– نعم ، ذكر لى ذلك .

– وهل حدثت ذلك الرفيق عن ذلك ؟

– كلا . .

– حسنا . فلتعلم ان اوليج على اتصال بفالكو ، اما فالكو فيبحث عن منظمة البلاشفة للعمل السرى . فلتحدث ذلك الرفيق بهذا الشأن . ولتنقل له رجاءنا فى آن واحد ، مؤكدا اننا نضمن اوليج .

وهكذا شاءت الاقدار ان يذهب فولوديا الى الورش المركزية قبل الميعاد الذى وعد به ليوتيكوف .

وريثما غاب فولوديا ، كلف فانيا توليا الملقب «بالرعد» معرفة بشكل غير مباشر ما اذا كان ثمة المان يعيشون لدى آل كوشيفوى ، وحول امكانية زيارته .

وشاهد «الرعد» حين اقترب من منزل آل كوشيفوى من جهة شارع سادوفايا ، امراة جميلة ، سوداء الشعر المنفوش ، عارية القدمين ، ترتدى فستانا قديما تخرج مهرولة والدموع على خديها من المسكن الذى يقوم جندى المانى على حراسته ، لتدلف الى عنبر خشبى حيث تعالى بكاؤها ، وصوت رجل يحاول تهدئة روعها . وخرجت عجوز نحيفة الجسد سمراء البشرة تحمل بيدها المعروقة دلوا ملأته بالماء من برميل عند المدخل ، لتعود ثانية الى الغرفة فى سرعة . كان الهرج والمرج يعمان المنزل ، وتعالى صوت احد السادة الالمان فيما يعبر عن غضبه ، وصوت نسوة يقدمن اعتذارهن . ولم يكن توليا قادرا على البقاء اكثر من هذا ، حتى لا يلفت الانظار اليه ، فاستدار حول الحى فيما جوار الحديقة العامة ، ليعود الى المنزل من جهة الشارع الموازى لشارع سادوفايا . بيد انه لم يكن ليرى او يسمع شيئا من ذلك المكان . ولذا فقد استغل كون حديقة المنزل المجاور ،

شأن حديقة منزل آل كوشيفوى ، تطلان على كلا الشارعين ، ليجتاز الفناء المجاور عبر الحديقة ويقف حوالى دقيقة الى جوار جدار العنبر الخشبى المجاور للحديقة . وقد ترامى الى سمعه من الداخل اصوات لثلاث نساء ، ورجل . وكانت امراة فى مقتبل العمر تقول باكية :

– اننى لن أعود الى المنزل ولو قتلونى !

وكان الرجل يحاول اقناعها قائلا :

– وما العمل . . اين يذهب اوليج ؟ والطفل ؟ . .

كان اوليج يفكر فيما بين نفسه ، حين كان يعود ادراجه من منزل بوزدنيشيفا وقد امضته الغيرة ومشاعر الاعتزاز بالنفس . . «يالها من بغى ! فى سبيل نصف لتر من زيت الزيتون ! يالها من بغى ! سوف اعلمك قدرى . . سوف تسمعين عنى ! وسوف تندمين لفقدانى !» . وكانت اشعة الشمس المائلة نحو الغروب ، حمراء تلسع عينيه ، اللتين تراءى لهما وجه لينا الاسمر الرقيق ، ينساب فى دوائر حمراء تندمج كل منها بالأخرى ، ورداؤها ، والالمان الرماديون ، والبيانو . . رسما داكنا جاثما فوق روحه . كان يردد طوال الوقت : «يالها من بغى ! . . يالها من بغى !» وخنق انفاسه الم ، اشبه بآلام الطفولة .

وادرك مارينا جالسة بالعنبر الخشبى ، تدفن وجهها فيما بين راحتيها ، منكسة الراس ، وقد غطتها سحابة من الشعر الاسود المنكوش ، يحيط بها ذووها من كل جانب .

لقد راودت المساعد طويل الساقين فى غياب الجنرال رغبة الاستحمام بمياه باردة ، واصدر اوامره الى مارينا باحضار طست ودلو مملؤ بالماء ، اليه بغرفته . وحين فتحت مارينا باب غرفة الطعام حاملة دلو الماء والطست ، وقع نظرها على المساعد يقف قبالتها عاريا كما ولدته امه . لقد كان طويلا ، ابيض «كما الدودة» . واستطردت مارينا تصف الموقف باكية انه كان يقف فى الركن الاقصى الى جوار الكنبة ، مما جعلها لا تبصره على الفور . وفجاة ظهر الى جوارها ، ينظر اليها فى فضول واحتقار ووقاحة ، لتنتابها مشاعر الخوف والرهبة والاشمئزاز ، مما جعلها تترك الدلو والطست يسقطان الى الارض ، وتسيل المياه لتملأ ارض الغرفة . اما مارينا فقد هرولت الى الخارج نحو العنبر الخشبى .

وراح الجميع يترقبون ما يمكن ان ينجم عنه ذلك السلوك الذى اقدمت عليه مارينا دون حساب للعواقب .

وذكر اوليج فى فظاظة :

– لماذا تبكين ؟ هل تظنين انه كان يود الاعتداء عليك ؟ انه لم يكن ليرحمك لو كان الآمر فى هذا المكان ، ولكان قد استعان بالخادم فى ذلك . انه لم يكن يفكر سوى فى الاستحمام فى حقيقة الأمر . وان كان قد استقبلك عاريا ، فما ذلك الا لأن الخجل لم يخطر له ببال . اذ اننا اشبه بالمتوحشين فى نظر اولئك الحيوانات . كما ويجب ان تكونى شاكرة ازاء كونهم لايتبولون على مرأى منا ، كما يفعل جنود وضباط الصاعقة الألمان فى اماكن اقامتهم . – ثم مضى يقول فى لهجة لاذعة : – كم اعرف اليوم هذا الجنس الفاشى القذر المتعجرف . انهم ليسوا حيوانات ، بل حثالة الحيوانات . وياله من امر مهين يدعو الى الاسى ان نتجمع حولك فى هذا المكان ، بينما تذرفين الدمع . ينبغى علينا احتقار هذه الحثالة ، طالما لانستطيع بعد سحقها وتدميرها . نعم . . يجب احتقارها وليس التونى لنذرف الدمع ، ونغرق فى النحيب والعويل ! انهم سوف يدفعون الثمن !

وغادر العنبر يجيش صدره ضجرا ، لتراوده من جديد مشاعر الاشمئزاز ازاء منظر البساتين الجرداء ، والشارع الذى لا أثر للخضرة فى المسافة الواقعة بين مزلقان السكة الحديدية والحديقة العامة ، ويبدو عاريا يذرعه الجنود الالمان .

وخرجت يلينا نيكولايفنا فى اثره لتساله شاخصة بناظريها فى اهتمام وتمعن الى وجهه المربد :

– لقد اصابنى القلق ازاء غيابك هذه الفترة الطويلة . كيف حال لينوتشكا ؟

واختلجت شفتا اوليج ليبدو كطفل كبير .

– انها بغى ! لا تعودى للحديث عنها بعد اليوم . .

وراح ، كعادته دائما ، يقص على امه كل ماوقعت عليه عيناه فى بيت لينا ، وكيف كان رد فعله ازاء ذلك . ثم صاح قائلا :

– ياله من موقف فى حقيقة الأمر .

وقالت امه فى لين :

– لاتأسف عليها . ان القلق يساورك لانك آسف عليها ، فلاتأسف . ومادامت قد سلكت هذا المسلك ، فان ذلك يعنى انها كانت دائما هكذا ، وليست كما كنا نظنها . – وقد كادت تقول له : «كما كنت تظنها» ، الا انها لم تتجاسر على ذلك . واستطردت تقول : – انه لعار عليها ، وليس علينا !

كان البدر يرتفع قليلا ، كبيرا ، فوق آفاق الجنوب ، تبدد اشعته الصيفية ظلمة البرارى . ولم يستطع نيكولاى نيكولايفيتش واوليج الخلود الى النوم ، ليجلسا الى جوار باب العنبر المفتوح على مصراعيه ، يسرحان النظر فى ارجاء السماء .

راح اوليج يتامل ذلك البدر المعلق بسماء المساء الزرقاء ، تحيط به هالة تلقى ظلالها على الحارس الألمانى الواقف عند المدخل ، وعلى أوراق القرع النابت بالحديقة . كان اوليج ينظر الى القمر وكانما يراه للمرة الأولى . لقد الف حياة المدينة الصغيرة الواقعة فى احضان البرارى ، حيث يتضح للمرء كل ما على الأرض وفى السماء . وهاهو كل شىء يفارقه . . فلم يلحظ كيف ظهر القمر . . كيف تحول هلالا ثم بدرا استقر فى كبد السماء واضحة الزرقة . ومن ذا الذى يدرى ما اذا كان المرء سوف يعيش ثانية هذه الحقبة السعيدة الزاخرة بكل ما يحفل به عالمنا من بساطة وجمال وروعة ؟ !

واجتاز الجنرال بارون فون فينتسيل ومساعده المدخل ليدلفان الى المنزل فى صمت لايقطعه سوى حفيف سترتيهما . كان النعاس قد خيم على كل ما حولهما . ولم يكن هناك سوى الحارس الذى راح يذرع المكان . أما نيكولاى نيكولايفيتش فلم تطل به جلسته ليغلبه النعاس كذلك ، بينما ظل اوليج شاخصا بعينين طفوليتين ، فى مكانه الى جوار الباب المفتوح على مصراعيه تغمره أشعة القمر .

وفجاة ، ترامى الى سمعه حفيف فيما وراء الجدار ، هناك فى الفناء المجاور . وتعالى همس انسان التصق بجدار العنبر الخشبى :

– اوليج . . هل انت نائم ؟ فلتستيقظ . . .

وهب اوليج من مكانه على الفور ، ليقفز الى جوار الجدار هامسا :

– من المنادى ؟

– اننى فانيا . هل الباب مفتوح ؟
– اننى لست وحدى ، كما ان الحارس يذرع المكان .
– اننى ايضا لست وحدى . أو تستطيع الخروج الينا ؟
– نعم . . استطيع ...

وقبع أوليج مكانه حتى ابتعد الحارس نحو البوابة المفضية الى الشارع الآخر ، ثم خرج ملتصقا بالحائط ليستدير حول العنبر . وهناك وقع نظره على ثلاثة اشخاص انبطحوا على بطونهم ارضا ، على شكل مروحة فى الحديقة المجاورة ، يلفهم ظل العنبر . . لقد كانا فانيا زيمنوخوف ، وجورا أروتيونيانتس ، أما الثالث فكان مثلهما طويلا ، راسه بكاب ، جعل من الصعب تبين وجهه .

وذكر جورا ، فيما تبرق عيناه واسنانه :

– ياللشيطان ! ويالها من ليلة نيرة ، جعلتنا نصل اليك بالكاد ! انه فولوديا اوسموخين من مدرسة فوروشيلوف .

ثم مضى يقول بقناعة بالغة حول انه يفصح باسمى توصية يمكن أن ينالها رفيق :

– بوسعك ان تثق به تمام الثقة التى توليها اياى .

وانبطح اوليج ارضا فيما بينه وبين فانيا . ثم همس وابتسامة عريضة تلوح على شفتيه :

– ينبغى الاعتراف باننى لم اكن انتظرك فى مثل هذا الوقت المحظور فيه التجول !

وذكر فانيا ضاحكا فى سخرية :

– اننا يمكن ان نموت ضجرا لو اتبعنا قواعدهم .

وضحك كوشيفوى فيما وضع يده العريضة على كتفى فانيا ، يحتضنه قائلا :

– ايها الصديق الحبيب !

ثم دنا منه قريبا يهمس اليه :

– هل يسرت اقامتهما ؟

وسأله فانيا :

– هل يمكننى الجلوس فى عنبركم حتى مطلع الصبح ؟ اننى لم اذهب بعد الى بيتى الذى احتله الألمان .

وتدخل جورا يقول ساخطا :

– لقد ذكرت لك أنه يمكنك المبيت عندنا !

– ان بيتك بعيد جدا . انك وفولوديا تعتبران الليلة نيرة جدا ، أما أنا فلربما ألقى حتفى فى احدى الحفر الرطبة .

وأدرك أوليج أن فانيا يود الحديث معه على انفراد . وقال فيما يشد على كتفى فانيا :

– يمكنك ذلك حتى مطلع الصبح فقط !

وهمس فانيا بصوت يسمع بالكاد :

– جئنا نزف اليك نبأ بالغ الأهمية . لقد أفلح فولوديا فى الاتصال بأحد رجال العمل السرى . وقد جرى تكليفه بمهمة ... فلتتحدث عنها بنفسك !

لم يكن ثمة شىء يثير حمية أوليج المتوقدة ، مثل ظهور الصبية ليلا على هذا النحو المفاجىء ، ولاسيما بما أسر به اليه فولوديا أوسموخين . وقد راود خاطره للحظة من الزمن ، ان فالكو هو الوحيد الذى يمكن ان يكون قد أوكل الى فولوديا مثل هذه المهمة . ثم راح يدنو بوجهه الى وجه فولوديا يحدق النظر الى عينيه الداكنتين الضيقتين ، متسائلا فى الحاح :

– كيف وجدته ؟ ومن هو ؟

وذكر فولوديا مرتبكا بعض الشىء :

– اننى لا أملك حق الافصاح عن اسمه . هل تعرف مواقع الالمان بالحديقة العامة ؟

– كلا .

– انا وجورا نود استطلاع الحديقة الآن ، الا أن ذلك امر يصعب علينا وحدنا . – ثم أضاف ضاحكا : – لقد كان توليا أورلوف يود مرافقتنا الا أنه يسعل كثيرا .

ولبث أوليج ينظر الى ماحوله صامتا برهة من الزمن . ثم قال :

– اننى لا أنصحكما القيام بذلك اليوم . انهم يلحظون كل من يدنو قريبا من الحديقة ، بينما ليس ثمة من يستطيع رؤية ما يجرى بداخلها . ان من الأفضل أن نفعل ذلك نهارا وبدون اية احابيل .

كانت الحديقة العامة محاطة بسور حديدى ، تفضى اليها اربعة

شوارع . وقد عرض أوليج بما عرف عنه من ادراك عملى ، ارسال فى الغد اربعة كشافين يستطلعون الأمر فى أوقات مختلفة من النهار ، كل فى شارع ، وتنحصر مهمتهم فى معرفة مواقع المدافع المضادة للطائرات والملاجىء والعربات القريبة من الشوارع .

وفترت بعض الشىء حماسة الصبية التى كانت تتأجج فى صدورهم لحظة وصولهم عند أوليج . الا انه لم يكن من الممكن الا يذعنوا لوجاهة الحجج التى أدلى بها .

ونسالك ايها القارىء ما اذا كنت قد ضللت ذات مرة طريقك فى غابة غارقة فى ظلام حالك ، أو ألفيت نفسك وحيدا فى بلاد غريبة ، أو واجهت خطرا يداهمك وحدك ، أو حلت بك كارثة ، جعلت حتى اصدقاءك وذويك يتخلون عنك ، أو صرت تعيش منبوذا ، غريبا بسبب سعيك وراء اكتشاف المجهول ؟ انك لوكنت قد تعرضت يوما لواحد من مثل هذه المواقف ، فانت مدرك حقا مدى السعادة النيرة الجسورة ، وذلك الشعور اللامحدود النابع من القلب بالعرفان ، وتلك الدفقة من القوى التى تطبق على روح الانسان حين يلتقى بصديق لم يتغير وفاؤه واخلاصه وبسالته ! وذلك يعنى انك لست وحيدا بهذا العالم ، انك تشعر بنبض قلب انسان يقف الى جوارك ! لقد كان هذا السيل الفياض من المشاعر هو الذى يتاجج فى اعماق اوليج حين بقى برفقة فانيا ، وحيدين تحت أشعة قمر البرارى الذى يستقر فى مكانه بالسماء ، وحين تامل وجه صديقه الذى تعلوه أمارات الهدوء والدعة ويبعث المرح فى النفس قليلا ، وعينيه المغمضتين طيبة وقوة .

واحاط أوليج صديقه بيديه الكبيرتين ، يضمه الى صدره ، ضاحكا بصوت خافت مفعم بالسعادة ، يقول فى تاتاة :

– فانيا ! هاانذا اراك اخيرا ! ماذا جعلك تتاخر هكذا ؟ لقد اضنانى فراقك ! يالك من شيطان !

وضحك فانيا بصوت خافت وهو يحاول الافلات من أحضانه :

– دعنى . . لقد حطمت اضلاعى . اننى لست فتاة حتى تضمنى هكذا !

وذكر اوليج فى خبث :

– اننى لم أكن اظنها تستهويك لهذه الدرجة !

وارتبك فانيا قائلا :

– كيف لك الا تخجل مما تقول ! هل تظنني كنت قادرا وبعد كل ماحدث على التخلى عنهما دون معاونتهما والتيقن من أن خطرا لايتهددهما ؟ هذا علاوة على أنها فتاة رائعة ! – ثم مضى يقول فى وله : – يالروحها الشفافة ! يالارائها الثاقبة !

وللحقيقة فقد استطاع فانيا خلال تلك الايام القليلة التى قضاها فى قرية نيجنى الكسندروفكا الافصاح لكلافا عن كل ما كان يرد بخاطره ويجيش بصدره وكتبه شعرا طيلة عمره البالغ تسعة عشر عاما . وقد كانت كلافا ، تلك الفتاة الطيبة المولهة فى حبه ، تصغى الى ما يقوله فى صمت وأناة . كما وكانت حين يسالها عن شىء تومىء برأسها عن طيب خاطر ، توافقه فى كل ما يقوله . ولم يكن ثمة ما يدعو الى الدهشة فى أن فانيا كلما طالت فترة صحبته لكلافا ، كلما ازداد ايمانا بصحة آرائها .

وتاتا اوليج وهو يرنو الى صديقه بعينين ضاحكتين :

– ان الامر واضح . . . لقد أسرتك فى حبها !

واذ لاحظ استياء فانيا ، ذكر فى جدية :

– لاتغضب منى . اننى امزح معك ، بينما لايهمنى فى حقيقة الأمر سوى ان تكون سعيدا . نعم اننى سعيد حقيقة من أجلك !

كان أوليج يتحدث بينما تجتاحه المشاعر الفياضة ، وتعلو جبهته الغضون ، ويشخص بنظراته بعض الوقت بعيدا عن فانيا . ثم تساءل بعد برهة من الزمن :

– فلتقل صراحة ما اذا كان فالكو هو الذى أوكل هذه المهمة الى أوسموخين !

– كلا . . لقد طلب هذا الرجل من فولوديا أن يعرف عن طريقك مكان فالكو . ولقد بقيت هنا هذه الليلة خصيصا للحديث معك بهذا الشأن .

واجابه اوليج :

– ان الكارثة تكمن فى اننى نفسى لا اعرف مكانه . اننى خائف عليه . وعلى اى حال فهيا بنا نتسلل عائدين الى العنبر الخشبى .

واغلقا الباب خلفيهما ، ثم استلقيا دون أن يخلعا ملابسهما ، متجاورين على السرير الخشبى الضيق ، يتبادلان الهمس فى حلكة

الظلام ولفترة طويلة ، وقد بدا الامر لهما وكانما ليس هناك وجود لحارس الماني يذرع المكان بجوارهما ، ولا لجنود ألمان آخرين ينتشرون فى كل مكان حولهما . وكم من مرة رددا فيها :

– كفى . . ينبغى النوم قليلا !

لكنهما كانا يشرعان ثانية فى تبادل الهمس .

وفى الصباح ايقظ الخال كوليا اوليج ، فى حين كان فانيا قد رحل . وتساءل الخال كوليا بسخرية عكستها شفتاه وعيناه :

– لماذا خلدت الى النوم فى ملابسك ؟

وتملص اوليج من الأجابة وهو يتمطى ، ليقول مازحا :

– لقد غلب النوم البطل!

– بطل . . بطل . لقد سمعت حديثكم فيما وراء جدار العنبر ، وكذلك حديثكما انت وزيمنوخوف .

واستوى اوليج فى فراشه بينما ينم وجهه المثقل بالنعاس عن دهشة عميقة ليتساءل :

– هل سمعت حقا ؟ ولماذا لم تنبهنا الى انك لست نائما ؟

– حتى لا اعكر صفوكم .

– اننى لم اكن انتظر منك ذلك !

وذكر نيكولاى نيكولايفيتش بنبرته المتانية :

– يجب الا تنتظر منى الكثير . هل تعرف على سبيل المثال اننى اخفى جهاز راديـــو تحت اقدام الألمان . . تحت الأرض الخشبية ؟

وارتبك اوليج على نحو جعل وجهه يتسم بأمارات تحمل معنى البلاهة .

– كيف ذلك ؟ ألم تسلمه فى حينه ؟

– لم اسلمه !

– هذا يعنى انك كنت تخفيه عن السلطة السوفيتية .

– نعم كنت اخفيه !

وذكر اوليج دون أن يعرف هل له أن يضحك أم يغضب :

– آه منك ياكوليا ! لم اكن اعلم انك على هذا القدر من الدهاء .

وذكر الخال كوليا :

– أولا . . لقـــد تسلمت الجهاز كمكافأة على حسن عملى ، وثانيا ، فهو جهاز أجنبى ذو سبع لمبات .

– لقد وعدوا باعادته !

– نعم لقد وعدونى بذلك . لو كنت قد سلمته ، لوقع الآن فى حوزة الألمان ، بينما هو لدينا اليوم تحت الأرضية الخشبية . وقد أدركت جدواه حين استمعت الى حديثكم بالأمس . وهكذا أكون محقا من كافة الجوانب .

وذكر أوليج وقد اعتدل مزاجه تماما :

– مهما يكن من أمر فانت رائع ياخال كوليا ! هلم نغتسل ، ثم نلعب دور شطرنج قبل تناول طعام الافطار . . . ان السلطة السائدة هنا المانية ، ولذلك فليس هناك ما يدعونا للعمل .

وفى تلك اللحظة ترامى الى سمعهما صوت فتاة يدوى رنانا فى كل أرجاء الفناء ، متسائلا :

– فلتقل لى أيها الأبله . . هل يسكن أوليج كوشيفوى هذا البيت ؟

وأجابها الحارس عند المدخل :

! • Was sagst du? Ich verstehe nict

وعلق الصوت الرنان :

– هلا رأيت يانينوتشكا مثل هذا المعتوه ؟ انه لا يفهم مثقال ذرة بالروسية . فلتنتح اذن جانبا ، أو فلتدع لنا انسانا روسيا اصيلا .

وأطل الخال كوليا وأوليج برأسيهما من عنبرهما ، يستطلعان الأمر .

كانت ثمة فتاتان تقفان عند المدخل قبال الحارس الألمانـــى الذى قد اعتراه بعض الارتباك . وقد كانت تلك الفتاة التى تبادلت الحديث مع الحارس حسنة الهيئة على نحو لفت أنظار أوليـــج ونيكولاى نيكولايفيتش . وقد كان أشدهما يلفت الأنظار فيها ، رداؤها باهر الألوان . كرز أحمر ونقط خضراء ، وزخارف صفراء بنفسجية على أرضية سماوية زرقاء . كما وكانت شمس الصباح

• بالألمانية : ماذا تقولين ؟ اننى لست افهمك !

تنعكس براقة على شعرها المتموج ذهبيا فوق جبهتها ، والمنسدل على رقبتها وكتفيها فى خصل جرى تصفيفها بعناية . هذا الى جانب أن ذلك الرداء كان مشدودا فى احكام حول خصرها ، ومتهدلا فى اناقة وبساطة حول ساقيها اللدنتين المستقيمتين داخل جورب امتزج لونه بلونهما ، وحذاء خفيف عالى الكعبين بيج اللون ، مما جعل الفتاة تبدو رشيقة بسيطة فى غير ما تكلف .

وفى تلك اللحظة التى اطل فيها أوليج والخال كوليا من العنبر ، كانت الفتاة تهم بارتقاء درج المدخل ، الا أن الحارس الواقف الى جانبه ممسكا برشاشة باحدى يديه ، حال دون ذلك بيده الأخرى .

الا أن الفتاة التى لم تجفل لحظة واحدة ، دفعت فى غير اكتراث بيدها الصغيرة البيضاء يده القذرة ، وصعدت سريعة الى المدخل ، لتلتفت الى صديقتها تناديها :

– هيا . . يانينوتشكا . . هيا !

وترددت صديقتها بعض الشئ . كما وقفز الحارس الى المدخل ، يتدلى من رقبته البدينة رشاشة ، ليبسط ذراعيه يسد بهما باب المسكن . وتجمدت على وجه الألمانى غير الحليق ابتسامة تنم عن سعادة مشوبة بالبلاهة تعكس ارتياحه ازاء قيامه بواجبه ، وتعنى فى نفس الآن خوفه ازاء ادراكه أن هذه الفتاة لم تكن لتقدم على معاملته هكذا ، لو لم تتمتع ببعض الحقوق .

وهنا ذكر أوليج خارجا من العنبر :

– اننى كوشيفوى . . تعالى هنا !

والتفتت الفتاة ناحيته فى حدة ، تتأمله برهة بعينين زرقاوين مزرورتين ، وتهبط فى تلك البرهة تقريبا ، الدرج ، تدقه بكعبى حذائها .

ووقف أوليج يستقبلها فارع القامة ، وقد أسدل يديه فيما ينظر اليها على نحو يتسم بالسذاجة المشوبة بالتساؤل ، وبالطيبة وكأنما يود أن يقول لها . . «هائنذا أوليج كوشيفوى . . فلتخبرينى اية جدوى يمكن أن تعود عليك من تعارفنا : اذا ماكنت تبغين الخير . . فعلى الرحب والسعة ، أما اذا كنت تبغين شرا ، فما الذى يدعوك الى اختيارى انا بالذات ؟ . . .» وتقدمت الفتاة اليه ، حيث تأملته بعض الوقت ، وكأنما تقارنه بصورة مرتسمة له

بمخيلتها . ودنت فى اثر صديقتها ، تلك الفتاة الاخرى التى لم يكن قد أعارها أوليج بعد اهتمامه ، الا أنها انتحت جانبا .

وذكرت الفتاة الاولى مؤكدة فى ارتياح ، وكأنما تحدث نفسها :

– حقا . . انه أوليج ! ينبغى أن نتحادث على انفراد .

وغمزت اوليج بعينها الزرقاء .

واذ اعترت مشاعر الاضطراب والحيرة أوليج ، افسح الطريق لهما ، لتدلفا الى داخل العنبر . وأمعنت الفتاة ذات الرداء الملون النظر الى الخال كوليا ، وقد زرت عينيها ، ثم انتقلت بنظراتها فى دهشة وتساؤل ، الى أوليج .

وذكر أوليج :

– يمكنك التحدث فى حضرته ، وكأنما اجلس وحدى .

والفتت نحو صديقتها تقول ضاحكة :

– كلا . . انها قضايا غرامية . . أليس ذلك حقا يانينوتشكا ؟

وتوجه أوليج وخاله نيكولاى بنظرهما نحو الفتاة الاخرى . وقد كانت ذات وجه ضخم القسمات ، لوحته الشمس باشعتها الحارقة ، وذراعين عاريتين حتى المرفقين ، سمراوين ، جميلتين قويتين ، وشعر داكن كثيف ، يتهدل على كتفيها العريضتين محيطا بوجهها كما البرونز . كما وكان وجهها العريض ينطق بالبساطة المتناهية التى تجلت فى شفتيها المكتنزتين وذقنها المستديرة ، وخطوط انفها ، وبالقوة والتحدى والرغبة والتى تتجلى فى جبهتها المقعرة ، وحاجبيها ، وعينيها العريضتين الكستنائيتين ذات النظرات الجسورة الصريحة .

وتوقفت عينا أوليج رغما عنه عند هذه الفتاة ، التى ظل يشعر بوجودها فيما بعد ، ليتأتأ فى حديثه .

واذ انتظرت الفتاة حتى تعالى دبيب خطوات الخال كوليا بعيدا عن المكان حتى دنت الفتاة ذات العينين الزرقاوين من وجه أوليج قائلة :

– اننى من طرف العم اندريه .

وصمت أوليج قليلا ليقول مبتسما :

– يالجراتك . . كيف استطعت التعامل هكذا مع الحارس ؟ !

– لا بأس ، فالخادم يهوى قرع العصا !

– ومن تكونين أنت ؟
وذكرت الفتاة ذات الرداء الملون الناصع :
– اسمى ليوبكا !

الفصل السادس والعشرون

كانت ليوبوف شيفتسوفا تنتمى الى ذلك الرعيل من شباب وفتيات الكومسومول الذين جرى تحديدهم فى خريف العام الماضى ليكونوا تحت تصرف اركان الفدائيين ، لاستخدامهم فى مؤخرة العدو .

كانت على وشك الانتهاء من دراسات التمريض العسكرى فى مدينة فوروشيلوفجراد ، وتتاهب للتوجه الى الجبهة ، الا أنه جرى تحويلها لدراسة اللاسلكى بنفس المدينة .

وبناء على تعليمات الاركان فقد اخفت امر تحولها الى دراسة اللاسلكى عن ذويها ورفاقها ، فى حين راحت تواصل الكتابة الى ذويها والحديث مع رفاقها حول أنها ما تزال تتابع دراسات التمريض العسكرى . وقد كانت ليوبكا مغرمة بتلك الحياة التى تلفها السرية والكتمان ، اذ كانت تهوى طوال حياتها اللهو والتمثيل ، ولم يكن عبثا ان يدعونها «ليوبكا الممثلة . الثعلبة الماكرة» !

ففى طفولتها كانت تهوى تقمص دور الطبيبة ، فتروح تلقى من النافذة بدميها ، ثم تشرع فى السير حولها ممسكة بحقيبة صغيرة مرسوم عليها صليب أحمر ، مليئة بالضمادات والشاش والقطن ، فتاة بيضاء بدينة ذات عينين زرقاوين ، وغمازتين بوجنتيها . كانت تقوم بتضميد اباها وامها وكل المعارف كبارا وصغارا ، وكذلك الأطفال والكلاب والقطط .

وذات يوم قفز صبى يكبرها سنا عبر السور ليستقر اخمص قدمه فوق طرف زجاجة مكسورة . وقد كان الصبى مجهولا من شارع بعيد ، وليس ثمة أحد من الكبار يمكن أن يمد له يد العون . وهنا قامت ليوبكا ذات الستة أعوام بغسيل قدمه وسكبت على الجرح صبغة اليود ثم ضمدتها . وانصرف الصبى الذى كان يدعى سيريوجا ليفاشوف دون ان يبدى تجاه ليوبكا أية مشاعر سوء

عرفانا بالجميل او اهتماما بها . كما ولم يعد ثانية الى فناء بيتها لأنه كان يحتقر الفتيات عموما .

اما وحين انتظمت فى الدراسة ، كانت تدرس فى سهولة ، مثيرة حولها جوا من المرح وكأنما هى ليست تلميذة فى واقع الأمر ، بل تلعب هذا الدور . بيد أنها كانت آنذاك قد تخلت عن احلامها بأن تصبح طبيبة او مدرسة او مهندسة ، لتراودها الرغبة فى ان تصبح ربة بيت ومهما كان العمل الذى تمارسه سواء تنظيف الأرضية او طهى الطعام – فقد كانت تقوم به على نحو افضل من امها وفى جو يسوده المرح كما وساورتها الرغبة فى ان تصبح تشاباييف* ، وتشاباييف ، بالذات ، وليس آنكا** رامية الرشاشات ، لأنها ايضا كانت وكما اتضح ، تحتقر الفتيات . كانت ترسم تحت أنفها شاربا بفليفة محروقة ، متشبهة بتشاباييف لتقاتل الصبية الى ان تحرز النصر . بيد أنها وحين كبرت قليلا ، احبت الرقص – الباليه الروسى والأجنبى ، والرقص الشعبى الأوكرانى والقوقازى . هذا علاوة على أنها كانت ذات صوت جميل مما غدا معه واضحا انها سوف تصبح فنانة . وقد راحت تظهر على مسارح قصور الثقافة والمسارح المقامة فى الهواء الطلق بالحدائق العامة ، اما حين بدأت الحرب فقد راحت تؤدى أدوارها الفنية بسعادة بالغة امام الجنود . بيد أنها لم تكن على الاطلاق فنانة اصيلة ، بل كانت تؤدى دور الفنانة ، حيث أنها كانت ماتزال تبحث عما يستهويها فى واقع الامر . كانت اعماق روعها جياشة بشىء متعدد الألوان ، يرقص ويغنى تارة ، ليتاجج كما النيران على حين غرة تارة اخرى . ثمة شىء حى كان يجعلها لا تعرف الى الراحة سبيلا . كانت متعطشة لبلوغ المجد ، تراودها رغبة جارفة فى التضحية بذاتها . كانت البسالة اللامحدودة والشعور بالسعادة الطفولية الثاقبة المشاكسة تدعوها وتلح فى الدعوة عليها للتقدم نحو الامام والارتقاء نحو الاعلى ، حتى تحفل حياتها دائما بالجديد ، وما يمكن أن تصبو اليه

---

* فاسيلى تشاباييف (١٨٨٧–١٩١٩) بطل شعبى ابان الثورة والحرب الأهلية . **المترجم** .

** آنكا احدى شخصيات الفيلم المعروف «تشاباييف» ، كانت مرافقة للبطل الاسطورى ، قائد الفرقة . **المترجم** .

نفسها . لقد كانت تهذى باتيان البطولات على الجبهة ، اذ انها سوف تكون طيارة او ممرضة عسكرية على اقل تقدير . ولكن ها هى تصبح عاملة لاسلكى بقوات الاستطلاع فى مؤخرة العدو . وقد كان ذلك افضل الأمور بطبيعة الحال .

لقد كان شيئا غاية فى السخرية والغرابة ان يدرس معها من ابناء كراسنودون واعضاء الكومسومول سيريوجا ليفاشوف ، ذلك الذى عالجته فى طفولتها ، ليكون جزاءها آنذاك الاحتقار والتجاهل . وهاهى تحين اللحظة لترد له الصاع صاعين بعد ان وقع اسير حبها . اما هى فلم يكن يستهويها وان كانت شفتاه واذناه بالغة الجمال ، كما وكان بوجه عام فتى يتسم بالجدية والروح العملية . لم يكن يجيد على اطلاق طرق التودد الى الفتيات ، ليجلس قبالتها فى صمت وينظر اليها فى استسلام ، بينما كانت تسخر منه ، تضايقه هو عريض الكتفين ، حسبما يحلو لها .

وكثيرا ما كان يحدث ايام كانت تحضر دراسات اللاسلكى ، ان يختفى احد الدارسين ، ليعلم الجميع انه قد جرى ارساله قبل الأوان للعمل فى صفوف العدو الخلفية .

وفى احدى امسيات مايو الخانقة كان القمر يغمر بضيائه حديقة المدينة ، بينما ازدهرت اشجار الأقاصيا لتلعب رائحتها بالرؤوس . وكانت ليوبكا التى يستهويها وجود الكثيرين حولها تدعو سيريوجا الى السينما او التجول فى شارع لينين . اما هو فكان يجيبها بينما تشع عيناه بقوة مبهمة فى ممرات الحديقة التى تكتنفها الظلال :

– انظرى ما اجمل المكان ! أولست سعيدة بذلك ؟

كانا يذرعان ممرات الحديقة ذهابا وايابا ، بينما راحت ليوبكا تضيق ذرعا ازاء صمت سيريوجا ، وازاء عدم استجابته لها .

وفى تلك اللحظات اندفعت الى الحديقة مجموعة من الصبية والفتيات ، يترامى فى ارجائها صدى ضحكاتهم واصواتهم . وقد كان ضمن هؤلاء احد ابناء فوروشيلوفجراد ، ودارس اللاسلكى بوركا دوبينسكى الذى كان هائما بدوره بليوبكا ، يثير ضحكاتها دائما بنكاته .

وصاحت تناديه :

– بوركا !

وعرف على الفور صوتها ليهرول اليها والى سيرجى ، وليغرق على الفور فى الثرثرة على نحو بدا معه من الصعب ارغامه على الصمت . وتساءلت ليوبكا :

– مع من تسير ؟

– انهم رفاقى بالمطبعة . أتودين التعرف عليهم ؟

– طبعا !

وجرى التعارف على الفور ، لتدعوهم ليوبكا الى التجول بشارع لينين . اما سيرجى فقد اعتذر عن مصاحبتهم . واذ ظنته ليوبكا قد غضب ، ورغبة منها فى تلقينه درسا تابطت ذراع بوركا دوبينسكى ، لينطلقا الى خارج الحديقة ، بسرعة لم يكد سيرجى معها سوى ان يلحظ فستانها يتطاير فيما بين الأشجار .

وفى الصباح لم تقع عيناها على سيرجى فى قاعة الطعام بمساكن الدارسين ، كما لم تره فى قاعة الدرس ، وكذلك عند الغداء وعند العشاء ، وكان من غير المجدى ان تسأل عن مكانه .

وبالطبع فلم تكن تفكر فيما جرى بالحديقة مساء الامس ، حيث ان ذلك لم يكن يعنى لها امرا ذا قيمة . بيد انه وعند المساء راودها الحنين الى بيتها وتذكرت اباها وامها ، وبدا لها انها لن تراهما ابدا . كانت مستلقية فى فراشها فى هدوء ، بغرفة يشاطرها اياها خمس من صديقاتها . وقد كن جميعهن قد خلدن الى النوم ، بينما تغلغلت اشعة القمر الى الداخل عبر النافذة القريبة المفتوحة على مصراعيها ، لتدرك ليوبكا وقد لفها الحزن .

أما فى اليوم التالى فقد فارق سيرجى ليفاشوف مخيلتها الى الأبد ، وكأنما لم يكن .

وفى السادس من يوليو ، استدعى مدير الدراسات ليوبكا لابلاغها بتردى الاوضاع بالجبهة ، وبقرار تهجير مقر الدراسات . اما هى فسوف تبقى تحت امرة اركان فدائيى المقاطعة ، وعليها ان تعود الى مدينتها كراسنودون والى حين استدعائها . واذا ما احتل الالمان المدينة ، يجب الا يكون سلوكها مثار شك . وجرى تسليمها عنوان احد منازل كامينى برود حيث ينبغى عليها الذهاب قبيل الرحيل للتعرف على صاحبة البيت .

وقد قامت ليوبكا بزيارة كامينى برود حيث تعرفت على ربة

البيت ، ثم جمعت حاجياتها وخرجت لتستقل احد اللوريات العابرة الذى توقف استجابة لاشارة من الفتاة الجسورة الشقراء ، والذى كان يمر طريقه عبر كراسنودون .

قضى فالكو بعد توادعه مع رفاقه ، طيلة يومه مستلقيا بالبرارى ، وعندما بدأ الظلام يسدل ستائره اتخذ طريقه عبر الوهدة ، نحو اطراف ضاحية شانغاى ، ثم عبر الحوارى والازقة الى منطقة المنجم رقم ١ . فقد كان يعرف المدينة التى شب فيها وترعرع ، جيد المعرفة .

كان يخشى الالمان الذين ربما يكونون قد استقروا لدى آل شيفتسوف . ولذا فقد تسلل خلسة الى الفناء عبر السور ، ثم توارى الى جانب بنايات المخازن الملحقة ، عسى ان يخرج أحد الى الفناء . وقد ظل ينتظر طويلا حتى أوشك صبره على النفاد ، والى ان صفق الباب الخارجى لتظهر امرأة تمسك بدلو ، تمر قريبا منه ، عرف فيها يفروسينيا ميرونوفنا زوجة شيفتسوف . وبارح مكانه يستقبلها . وتساءلت بصوت خافت :

– يا الهى . . من هذا ؟

ودنا فالكو قريبا منها ، بوجهه الاسمر غير الحليق ، لتعرفه على الفور ، ثم سألته :

– او تكون انت ؟ وأين . . .

لم يكن من الممكن تبين وجه يفروسينيا ميرونوفنا الذى امتقع فى ظلمة الليل التى كان يقاومها ضياء القمر متسللا عبر ضباب خفيف كان يغشى السماء .

وذكر فالكو بصوت اجش ينوء تحت جسامة ما يجب ان يبلغها به :

– انتظرى قليلا . بادىء ذى بدء يجب أن تنسى لقبى ! ولتناديني بالعم أندريه . هل يقيم المان عندكم ؟ كلا . . هيابنا اذن الى الداخل .

وهبت تستقبله ليوبكا التى كانت جالسة فى فراشها تحيك شيئا ، لتبدو بسيطة فى بلوزة رخيصة وجونلة قصيرة حافية القدمين ، هى الفتاة التى تعود فالكو رؤيتها على مسرح النادى انيقة الملبس ، فى فستانها الزاهى وحذائها ذى الكعب العالى . كان شعرها

الذهبى منسدلا على كتفيها وعنقها ، فيما زرت عينيها تحدق فى غير دهشة الى فالكو ، تحت ضوء مصباح صغير من مصابيح المناجم كان معلقا فوق المائدة التى بدت داكنة اللون .

لم يتحمل فالكو نظراتها ، وشرع يجول بناظريه فى ارجاء الغرفة التى كانت ما تزال تحمل امارات يسر أصحابها . وتوقفت عيناه على صورة صغيرة معلقة بالجدار فوق السرير . .

لقد كانت صورة هتلر .

وذكرت أم ليوبكا :

– لا تظن سوءا يا رفيق فالكو !

وصحح فالكو قولها :

– اسمى العم أندريه .

وعادت الام تقول فى غير ابتسامة :

– حسنا . . العم أندريه .

والتفتت ليوبكا فى هدوء نحو صورة هتلر ، وهزت كتفيها فى احتقار . وذكرت يفروسينيا ميرونوفنا توضح الامر :

– لقد علقها ضابط المانى ، اذ كان يعيش بمنزلنا طوال الايام الماضية ضابطان المانيان لم يرحلا سوى بالامس الى نوفوتشيركاسك . ما كادا يدخلان آنذاك حتى قالا بروسية ركيكة : «فتاة روسية . . جميلة ، جميلة . شقراء» . وراحا يضحكان ، ويقدمان اليها الشيكولاته والبسكويت . وقد وجدتها تلك الشيطانة تتناول ما يقدمانه ، فى غطرسة وغلظة تارة ، لتغرق فى الضحك تارة أخرى . ويالها من لعبة كانت !

ومضت الام تقول فى لوم حنون لابنتها وثقة كاملة فى ان فالكو سوف يفهم الموقف كما يجب :

– كنت أقول لها «لاداعى للعب بالنار» ، بينما كانت ترد قائلة «هكذا ينبغى أن يكون الامر» . – وعادت يفروسينيا ميرونوفنا تقول : – هكذا ينبغى الامر بالنسبة لها . . يالها من لعبة دبرتها . وهل لك ان تتصور أيها الرفيق فالكو . . .

وصحح ثانية قولها :

– العم أندريه .

– ياعم أندريه . . . انها لم تسمح لى بالافصاح عن اننى

امها ، مدعية بأننى مدبرة المنزل . اما هى فقد جعلت من نفسها فنانة . وراحت تقول «كان والداى من الصناعيين ، اصحاب المناجم ، نفتهما السلطة السوفيتية الى سيبيريا» . هل رايت ماذهب اليه خيالها ؟

– ياله من خيال حقا !

ذكر فالكو فى هدوء ، وهو يمعن النظر من باهتمام الى ليوبكا التى وقفت ازاءه ، تمسك ما كانت تحيكه تنظر الى العم اندريه وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة غير ذات معنى .

واستطردت يفروسينيا ميرونوفنا تقول :

– راح الضابط الذى اتخذ فراشا له هذا السرير ، سرير ليوبكا ، حيث انتقلت لتنام سوية بالغرفة الاخرى ، راح يفتش فى حقيبته ، ربما بحثا عن ملبس له ، ليتناول هذه الصورة ويعلقها بدبوس بالحائط . اما هى ، ولك أن تتصور ايها الرفيق فالكو ، فقد اندفعت نحوه لتنتزع الصورة عن الجدار قائلة : «انه سريرى ، وليس سريرك ، كما اننى لست اريد هتلر معلقا فوق سريرى» . وظننته سوف يقتلها . الا انه امسك بذراعها ليلويه ، منتزعا الصورة ليعلقها ثانية على الجدار . وجاء الضابط الاخر ليغرقا فى الضحك سويا . راحا يقولان ضاحكين «آه . . يالها من فتاة روسية ماكرة !» وانظر اليها لاجد الغضب يعتريها والحمرة تعلو وجهها ، وكورت قبضتها . . . وآنذاك كدت اموت هلعا . ولست ادرى فى حقيقة الامر ما اذا كانت قد اعجبتهما للغاية ، او يكونان قد بلغا حدا من الحماقة يجعلهما يقفان على هذا النحو . اما هى فقد راحت تدب الارض بقدميها صائحة «ان هتلركم ، قبيح المنظر ، مصاص للدماء ، ولا يستحق سوى اغراقه فى المراحيض !» . كما راحت تطلق الشتائم لدرجة اننى ظننته سوف يتناول على التو مسدسه ليرديها قتيلة . وحين رحلا ، لم تسمح بانتزاع صورة هتلر قائلة : «دعيه معلقا . . فسوف يكون ذلك مفيدا» .

لم تكن والدة ليوبكا بلغت من العمر كثيرا ، الا انها شان النسوة الطاعنات فى السن ، اللاتى عانين فى شبابهن من ولادة عسيرة ، حيث ترهلت مؤخرتها وخصرها وتضخمت قدماها . وقد شرعت تقص بصوت خافت على فالكو تفاصيل ذلك الحادث ، فيما

تتطلع اليه طوال الوقت فى نظرات تتسم بالتساؤل والحيرة ، بل والتوسل كان يدفن وجهه فيما بين راحتيه . وظلت تتحدث وتتحدث وكانما كانت تود تأجيل تلك اللحظة التى يدلى فيها بما كانت تخشى سماعه . بيد انها كانت قد ذكرت كل ما عندها ، ولبثت تنظر الى فالكو فى انتظار ما سوف يقوله فى اضطراب وحيرة . وذكر فالكو بصوت اجش :

– ربما تكونين يا يفروسينيا ميرونوفنا قد احتفظت ببعض ثياب زوجك البسيطة . اذ اننى لا اشعر بالارتياح فى مثل هذه الجاكتة وهذا السروال والشبشب . ومضى يقول ضاحكا : – والا فسوف يعتبروننى على الفور شخصية ذات اهمية .

واعلن صوته عن شئ ما جعل الشحوب يتسلل الى وجه يفروسينيا ميرونوفنا ، بينما اسدلت ليوبكا يديها ليسقط الى الارض ما كانت تحيكه .

وتساءلت الام بصوت يسمع بالكاد :

– ماذا حدث له ؟

وذكر فالكو بصوت خافت وان كان يتسم بالثبات :

– يفروسينيا ميرونوفنا . . وانت ياليوبا ! اننى لم اكن اظن الاقدار سوف تسوقنى يوما اليكما لازف لكما نبأ غير طيب ، الا اننى لا اود خداعكما . كما انه ليس ثمة ما اخفى به عنكما . لقد استشهد جريجورى ايليتش ، زوجك . . وابوك ياليوبا . . واصدق اصدقائى . . صرعته قنبلة القى بها الالمان الملاعين على السكان الآمنين . . . ، وسوف تظل ذكراه دائمة ، مجيدة فى قلوب ابنائنا !

ولم تصرخ الأم ، بل دفنت عينيها فى طرف منديلها الذى كانت تعصب به راسها واجهشت بالبكاء . اما ليوبكا فقد امتقع وجهها وكانما فارقته الدماء . ولبثت واقفة مكانها بعض الوقت ، لتهوى فجاة الى الأرض فاقدة الوعى والقوى .

ورفعها فالكو على يديه ليضعها فى فراشها .

لقد كان يتوقع أن تنفجر الفتاة ، ذات الطابع المتوقد ، عويلا وصراخا مما قد يخفف عنها . بيد أن ليوبكا رقدت فى فراشها جامدة ، ممتقعة الوجه ، شاخصة العينين ، وقد ارتسمت على جانبى شفتيها تجعيدة الم كتلك التى ظهرت لدى امها .

اما الام فقد عبرت عن حزنها فى بساطة وعمق وهدوء شأن النسوة الروسيات البسيطات . كانت الدموع تنهمر من عينيها لتمسحها بطرف منديلها ، او براحة يدها حين كانت تصل الى شفتيها وذقنها . ولما كان حزنها طبيعيا فقد راحت تمارس ما يجب على ربة البيت القيام به حين تستقبل ضيفا . فقد ناولت فالكو ماء للاغتسال ، واشعلت له المصباح وتناولت من الصندوق قميصا قديما وجاكتة وسروالا كان زوجها يرتديها عادة داخل المنزل .

وتناول فالكو المصباح وخرج الى الغرفة الاخرى ، حيث قام بتغيير ملابسه . وقد كانت الثياب ضيقة بعض الشيء ، الا انه كان يشعر فيها بنفسه اكثر حرية ، اذ غدا اشبه بعامل عادى شأن الكثيرين غيره .

وراح يقص تفاصيل استشهاد جريجورى ايليتش ، مدركا انه على الرغم من فظاعتها فانها تعتبر الشيء الوحيد الذى يمكن ان يكون نوعا من العزاء لذويه . ومع انه كان مضطربا مهموما فقد اكل كثيرا وشرب زجاجة كاملة من الفودكا ، اذ كان قد قضى طيلة يومه بلا طعام . وعلى الرغم من انه كان منهك القوى فقد طلب من ليوبكا النهوض من فراشها للتحدث بعض الوقت . وخرجا الى الغرفة المجاورة .

– لقد جرى الابقاء عليك هنا للعمل . وذلك ، امر واضح تماما .

هنا ماذكره فالكو وتراجعت على اثره ليوبكا فيما تغيرت ملامح وجهها ،الا انه تظاهر بعدم ملاحظة ذلك ، ومضى يقول رافعا راحته الثقيلة حين حاولت الاعتراض :

– لا تحملى نفسك هذا العناء . . فلست اسالك اسماء من ابقى عليك وسبب ذلك ، كما انك لست ملزمة بتأكيد او نفى ذلك . اننى ارجوك مساعدتى . . . وسوف افيدك بدورى ذات يوم .

وطلب منها ان تقوم باخفائه فى مكان ما لمدة يوم ، وان تعد له لقاء بكوندراتوفيتش الذى قام معه بتفجير المنجم رقم ١ .

وتاملت ليوبكا فى دهشة وجه فالكو الاسمر الذى عرفته دائما انسانا ذكيا مرموقا . وبالرغم من ان فالكو كان صديق ابيها ،

فقد كان يبدو لها دوما اسمى وارفع منها . وهاهى اليوم مبهورة ازاء نظره الثاقب .

وقد اعدت لفالكو فراشا فى مخزن للدريس ، بجمالون عنبر مجاور كان الجيران يستخدمونه حظيرة للماعز . اما اليوم فقد هاجر الجيران ، واتى الالمان على الماعز ، ليقفر المكان الذى استغرق فيه فالكو فى سبات عميق .

اما الام والابنة فقد استقرتا بفراش الاولى ، حيث راحتا تجهشان بالبكاء حتى مطلع الفجر .

لقد راحت الام تبكى حياتها ، حياة المراة التى ارتبطت منذ صباها بجريجورى ايليتش ، والتى حلت اليوم نهايتها . وقد تواردت الى ذاكرتها تفاصيل تلك الحياة حين كانت تعمل خادمة فى تساريتسين ، بينما كان جريجورى ايليتش يعمل بحارا على متن سفينة تمخر عباب نهر الفولجا . تذكرت كيف كانا يلتقيان بالمرفا الغارق تحت اشعة الشمس او بحديقة المدينة ريثما كان يجرى شحن السفينة بالبضائع ، وكيف عاشا حياة بائسة فى بداية فترة زواجهما ، حين لم يكن جريجورى ايليتش قد وفق بعد فى العثور على وظيفة جديدة . تذكرت يوم انتقلا فيما بعد الى الدونباس ، الى ذلك المكان حيث عاشا فترة عصيبة فى بداية الامر . . . تذكرت كيف راح زوجها جريجورى ايليتش يرتقى سلم الشهرة عاليا عاليا حتى راحت الجرائد تتحدث عنه ، وحصلا على هذا المسكن ذى الغرف الثلاث حيث تحسنت احوالهما وظهرت ليوبكا التى صارت تترعرع كما الاميرة .

لقد حلت النهاية . . نهاية كل ذلك . فقد رحل جريجورى ايليتش ليبقيان هما امراتان لا حول لهما ولا قوة . . احداهما تقدم بها العمر بينما الاخرى ماتزال فى مقتبله .وانهمرت الدموع غزيرة غزيرة من عينى يفروسينيا ميرونوفنا ، بينما كانت ليوبكا لا تفتر عن الترديد فى همس مبهم حنون :

– لا تبكى يا امى العزيزة . . اننى اليوم اجيد مهنة ، سوف تنفعنا حين يطرد الالمان وتنتهى الحرب . فسوف التحق بالعمل فى الاذاعة ، لاغدو عاملة لاسلكى شهيرة وليعينونى فيما بعد مديرة لها . اننى اعرفك تكرهين الضجيج ، وسوف اتكفل باقامتك معى

بالشقة التى سوف يفردها لى العمل ، حيث يخيم الهدوء التام ... فالجدران مبطنة لا تسمح بتسلل الاصوات ، علاوة على أن الناس سوف يكونون قليلين . سوف تكون الشقة غاية فى النظافة ، نقيم فيها وحدنا . سوف أزرع الحشائش فى الفناء ، وحين تتحسن احوالنا سوف نقتنى الدواجن التى ستشغلك تربيتها .

كانت تهمس لامها بذلك وهى تزر عينيها وتطوق عنقها بينما تلوح فى الظلام بيدها الصغيرة البيضاء ذات الاظافر الرقيقة .

وفى تلك اللحظة تعالى طرق خفيف على زجاج النافذة . وسمعته الام والابنة فى آن واحد ليشيحا بأياديهما ، ويروحان يصيخان السمع وقد توقفتا عن البكاء .

وهمست الأم متسائلة فى اذعان :

– ألمان ؟

بيد أن ليوبكا تدرك أن الألمان ما كانوا يطرقون النافذة خفيفا هكذا . وهرولت حافية القدمين نحو النافذة ترفع طرف البطانية التى كانت تغطيها . كان القمر قد اختفى ، الا أنها استطاعت ان تميز فى الظلمة ثلاثة اشباح بالحديقة ، رجلا يقف الى جوار النافذة وامراتين على مقربة منه .

وتساءلت بصوت عال :

– ماذا تريدون ؟

ودنا الرجل بوجهه من زجاج النافذة ، لتتعرف ليوبكا عليه فورا ، ولتندفع الى حلقها دفقة حارة حبست أنفاسها . او كان يلزمه ان يظهر الآن ، فى اعصب لحظات حياتها !

ولم تدر كيف هرولت تقطع الغرف لتطير وكأنما على أجنحة الرياح الى المدخل ، وراحت من كل قلبها المفعم بمشاعر الاسى والامتنان تحيط جيده الشاب بذراعيها القويتين الماهرتين ، والتصقت به باكية نصف عارية ، تحمل دفء احضان الام .

ثم تركت احضانه ، ممسكة بيده ، تجره نحو الداخل قائلة :

– هيا . . سريعا . . سريعا .

ثم تذكرت رفيقتيه لتسأله وهى تحدق النظر فى الفتاتين :

– من معك ؟ آه . . أوليا ! نينا ! يا عزيزتاى !

واذ احتضنتهما بذراعيها القويتين راحت تضم رأسيهما اليها

لتغمرهما بقبلاتها الحارة الواحدة تلو الاخرى . ثم راحت تهمس بشكل محموم :

– هيا . . هيا . . سريعا !

الفصل السابع والعشرون

توقف ثلاثتهم عند عتبة الباب ، لاتواتيهم الجراة على دخول الغرفة ، بملابسهم القذرة وأجسادهم التى غمرها الغبار . . سيرجى ليفاشوف غير حليق الوجه ، يرتدى ملابس اشبه بملابس السائق او عامل التركيبات ؛ وأوليا ونينا قويتا البنية ، الا ان نينا كانت اضخم قليلا من زميلتها ، بينما كانت كل منهما ذات وجه برونزى ، سوداء الشعر الذى بدا وكأنما غطى بمساحيق الغبار الرمادى ، ترتدى ثوبا قاتم اللون ، تحمل على كتفها كيسا .

كانت الفتاتان بنتى عم من آل ايفانتسوف . وكثيرا ما كان الآخرون يخلطون بينهما لتشابه الاسماء مع الشقيقتين ليليا وتونيا ايفانيخينا من حى «بيرفومايكا» . كما وتداولوا ذلك القول المأثور «اذا ما شاهدت بين بنتى العم ايفانتسوف فتاة شقراء ، عليك ان تعلم انهما الشقيقتان ايفانيخينا» . (كانت ليليا ايفانيخينا التى التحقت بالجبهة ممرضة عسكرية من حيث اعتبرت من المفقودين ، هى تلك الفتاة الشقراء) .

لقد كانت أوليا ونينا ايفانتسوفا تقطنان احد البيوت النموذجية على مقربة من آل شيفتسوف . وكان والدهما يعمل سوية مع جريجورى ايليتش فى منجم واحد .

– ايتها العزيزتان ، من اين انتما قادمتان ؟

تساءلت ليوبكا وهى تشيح بيديها البيضاوين ، فقد توقعتهما عائدتين من نوفوتشيركاسك ، حيث كانت الكبرى اوليا تدرس بمعهد التصنيع . غير انه كان غريبا ان يتواجد سيرجى ليفاشوف فى تلك المدينة .

وأجابت اوليا فى تحفظ وهى تضم شفتيها الجافتين ، ليتقطب وجهها وحاجبيها واهدابها التى علاها الغبار على نحو لا يتسم بالسيميترية .

– لقد اختفينا من حيث كنا .

ثم تساءلت وهى تجيل النظر فيما حولها بحكم عادتها التى الفتها فى فترة ترحالها الاخيرة :

– او تعلمين ما اذا كان يقطن الالمان بيتنا ؟

واجابتها ليوبكا :

– كانوا يقطنونه ، شأن بيتنا كذلك . الاّ انهم رحلوا صباح اليوم .

وازدادت ملامح اوليا تغيرا ، يجمع ما بين السخرية والاحتقار ، اذ وقع نظرها على صورة هتلر المعلقة على الحائط ، تتساءل :

– او من اجل تامين الذات ؟

واجابتها ليوبكا :

– فلنتركها مكانها . انكم ولا ريب جائعون ؟

– كلا . . اننا سوف نعود الى مسكننا ما دام خاليا .

– ليس ثمة ما تخشانه حتى ان لم يكن خاليا . فهناك الكثيرون الذين تصدى لهم الالمان عند الدون او الدونيتس ، يعودون اليوم الى منازلهم . ولكم ان تقولا صراحة انكما عائدتان من نوفوتشيركاسك .

وذكرت اوليا فى تحفظ :

– ليس هناك ما نخشاه .

وريثما كانت الفتاتان تتحادثان ، لبثت نينا التى كانت اصغر سنا من اوليا تقف صامتة على نحو يتسم بالتحدى تنقل نظراتها ما بين اوليا وليوبكا . اما سيرجى فقد القى الى الارض بكيس حاجياته الذى تركت اشعة الشمس الحارقة اثارها عليه ، ووقف مستندا الى المدفأة واضعا يديه خلف ظهره ، ينظر الى ليوبكا تعلو شفتيه بسمة خفيفة .

وتوارد الى خاطر ليوبكا . . «كلا . . انهم لم يكونوا فى نوفوتشيركاسك» . وانصرفت بنتا العم ايفانتسوف . ورفعت ليوبكا ستائر تعتيم النوافذ واطفأت المصباح الصغير ، ليتسم كل شىء باللون الرمادى . . النوافذ والأثاث والوجوه .

– هل تريد الغسل ؟

وسألها سيرجى ريثما هرولت الى العنبر خارج الغرفة لتعود حاملة دلو الماء والطست والكوز والصابون :

– او لا تعرفين ما اذا كان يقيم لدينا المان ؟

– لست ادرى . . يذهب البعض ليأتى البعض الاخر ! فلتخلع سترتك وبلا حرج .

كانت القذارة تعلوه لدرجة ان المياه كانت تنسال منه الى الطست شديدة السواد . غير ان ليوبكا تهللت لرؤية يديه القويتين الكبيرتين ، ولرؤيته يغسلهما بالصابون فى نشاط وحيوية بالغة . وكانت اشعة الشمس قد لفحت رقبته لتكسبها سمرة ، بينما تبدت اذناه جميلتين كبيرتين ، تنطق شفتاه بالجمال والرجولة ، اما حاجباه فقد كانا اكثى الشعر قريبا من منبت الانف الذى تغطى كذلك بشعر خفيف ، بينما ندر شعرهما فى طرفيهما اللذين ارتفعا قليلا الى اعلى ، وحيث تبدت التجاعيد على جبهته تنطق بالقوة . لقد تهللت فيما تنظر اليه حين راح يغسل وجهه بيديه القويتين ، يرفع ناظريه نحوها من آن لآخر ، ليرميها بابتسامته .

وسألته :

– اين وجدت بنتى العم ايفانتسوف ؟

واصل اغتساله فى جلبة دون ان يجيبها بشىء .

وذكرت بصوت خافت واقتضاب :

– ما دمت قد جئت الى هنا ، فذلك يعنى انك تأمن جانبى . فعلام ترددك اذن ؟ اننا ورقتان من شجرة واحدة .

وقال سيرجى :

– هاتى المنشفة . شكرا !

وصمتت ليوبكا ولم تعد الى سؤاله ، الاّ ان عينيها الزرقاوين راحتا تتسمان بأمارات تنم عن برودة ، وان كانت قد اخذت تواصل رعايته ، فاشعلت الموقد ووضعت فوقه برّاد الشاى الكبير ، وقدمت اليه الطعام وبعض الفودكا .

وذكر سيرجى والابتسامة تعلو وجهه :

– هذا ما لم اتذوقه منذ بضعة اشهر .

وصب كأسا من الفودكا ليفرغه جوفه ، ثم شرع فى تناول الطعام فى نهم .

راحت حلكة الظلام تنقشع ، حيث بدأت السماء تبدو وردية

اقرب الى الذهبية فيما وراء غلالة الضباب الرمادية التى كست الافق عند الشرق .

وصار سيرجى يفكر بصوت عال يتسم بالرتابة :

– ما كنت احسب اننى سوف القاك هنا . لقد عرجت اليك على سبيل الصدفة . . وهانذا اراك . .

لقد كانت كلماته تعنى ضمنا تساؤله عن كيف وصلت ليوبكا التى حضرت معه دورة دراسات اللاسلكى ، لتقيم فى بيتها . الا ان ليوبكا لم تجبه على سؤاله . فقد كانت حانقة ازاء احتمال ان يكون سيرجى ما يزال يظنها كما فى الماضى ، تلك الفتاة الطائشة الهوائية ، بينما هى غارقة فى خضم مشاعر الأسى .

وسالها سيرجى :

– هل انت وحدك هنا ؟ اين ابوك وامك ؟

واجابته فى برود :

– او ليس الأمر بالنسبة لك سيان ؟

– هل حدث شىء ؟

– كل . . تناول طعامك !

ولبث ينظر اليها بعض الوقت ، ثم صب لنفسه بعض الفودكا وتابع الأكل فى صمت .

واذ فرغ من تناول طعامه ، مسح فمه بطرف كمه قائلا :

– شكرا لك !

لقد لاحظت ما طرا على حركاته من خشونة طيلة فترة حلكه وترحاله تلك ، الا انها لم تكن قد تاثرت لهذا السبب بالذات ، بل كانت عدم ثقته فيها مثار استيائها .

وتساءل :

– ليس ثمة بالطبع ، ما يمكن تدخينه ؟

– سوف اجد لك ما تطلبه . .

ودلفت الى المطبخ ، لتعود اليه ببعض اوراق التبغ من حصاد حديقتهم فى العام الماضى . فقد كان ابوها يزرع كل عام بعض شجيراته ، التى يجنى ثمارها عدة مرات فى العام ، ليقوم بتجفيفها ، وتقطيع ما يلزمه منها بموسى ليحشو بها غليونه .

جلسا الى المائدة فى صمت ليوبكا وسيرجى الذى كانت تلفه

غلالة من الدخان . وكان الصمت يسود الغرفة الاخرى حيث تركت ليوبكا امها ، التى كانت تعرف انها لم تنم بعد ، بل تذرف الدمع هناك .

وذكر سيرجى فى هدوء :

– يبدو ان مصابا حل بكم . ان وجهك ينطق بهذا ، فلم ارك هكذا ابدا !

كانت نظراته عامرة بالدفء والرقة مما بدا غير متوقع على قسمات وجهه الخشن الجميل .

واجابت ليوبكا :

– لقد حلت المصائب اليوم بالجميع !

وذكر سيرجى بمرارة شديدة وسحب الدخان تدثره :

– آه لو تتصورين مدى ما شاهدته من اهوال طيلة تلك الفترة ! لقد نزلنا بالمظلات فى مقاطعة ستالينو . كان الالمان قد القوا القبض على الكثيرين ، مما جعلنا نصاب بالدهشة ازاء عدم افتضاح امر مساكن اللقاء . كانـــوا يعتقلون الآلاف ، المذنبين والابرياء . ولم يكن ذلك نتيجة وشاية ، بل لان الالمان كانوا يسوقونهم بالجملة . ومن الواضح ان من كانت تحوم حوله ادنى الشكوك ، كان يلقى نفس المصير . – ومضى سيرجى يقول بنبرة تنم عن اضطرابه : – لقد ملأوا آبار المناجم بالجثث . كنا بادىء الامر نعمل منفصلين عن بعضنا البعض ، الا ان الصلة كانت قائمة فيما بيننا ، لتنقطع فيما بعد . لقد وقع رفيقى الذى كنت اعمل معه فى قبضتهم ، ليحطموا ذراعيه ويقطعوا لسانه . وقد كان يمكن ان القى نفس المصير لو لم اتلق امر الانسحاب ، ولو لم التق صدفة بنينا فى احد شوارع ستالينو . لقد كانت لجنة مقاطعة ستالينو ايام تمركزها فى مدينة كراسنودون قد ابقت عليها واوليا للقيام باعمال الاتصال . وتلك هى المرة الثانية التى جاءتا فيهـــا الى ستالينو . وقد علم الجميع هنا ان الالمان بلغوا الدون . وادركنا آنذاك ان الذين ارسلوهما ، قد غادروا كراسنودون . وقمت بتسليم جهاز الارسال الى لجنة المقاطعة للعمل السرى وفقا للامر الصادر ، وقررنا العودة . وها نحن هنا .

وهتف بغتة على نحو صادر من القلب :

– كم راودنى القلق بشأنك ! فقد ظننتهم ارسلوك ، شأننا ، الى مؤخرة الاعداء ، لتبقين وحدك هناك ! لقد خلتك قد وقعت فى قبضة الالمان الذين اودعوك سجونهم يذيقونك شتى صنوف العذاب .

كان يتحدث فى هدوء ، محاولا السيطرة على مشاعره بينما كانت نظراته قد افتقدت معا فى الرقة والحرارة ، لتغدو مفعمة بالرغبة .

وهتفت تناديه :

– سيريوجا . . سيريوجا !

واستندت برأسها الذهبى الى يديها .

وربت بيده الكبيرة المعروقة فى حرص على راسها ويدها . وشرعت ليوبكا تقول بصوت خافت دون ان ترفع راسها فيما تعض شفتيها القرمزيتين :

– لقد استبقيت هنا ، وانت تعرف سر ذلك . . امرونى بانتظار الاوامر . وها هو قد مضى ما يقرب من الشهر دون ان يتصل بى احد ، او أتلقى اى امر . يحوم الضباط الالمان حوالى مثل الذباب حول العسل . ولاول مرة اتظاهر فى حياتى بما لست اتسم به فى حقيقة الامر . ويعلم الشيطان كم نافقت وخادعت ، مما كان يهصر قلبى ألما ورثاء . اما بالامس فقد عاد الآخرون الذين كانو يعتزمون النزوح ، ليبلغونا ان الالمان قد قتلوا ابى اثناء قصفهم لمنطقة الدونيتس .

اشرقت الشمس لتغمر اشعتها البراقة ، تنعكس ساطعة فوق اسطح المنازل التى غطتها قطرات الندى . والقت ليوبكا برأسها الى الوراء ، لتهتز خصلات شعرها قائلة :

– يجب عليك ان تغادر المكان . كيف تظن العيش فيما بعد ؟

وذكر سيرجى ضاحكا :

– كما تظنينه انت . الم تقولى اننا ورقتان من شجرة واحدة؟!

واذ رافقت ليوبكا سيرجى حتى باب الحديقة ، عادت ادراجها لتصلح هندامها وترتدى ابسط الثياب ، حيث كان عليها الذهاب الى العجوز ايفان جناتينكو الذى يقطن حى «جولوبياتنيكى» .

وقد رحلت فى الوقت المناسب ، اذ ما كادت تغادر المنزل حتى تعالت طرقات عنيفة تهز باب منزلهم الكائن على مقربة من طريق فوروشيلوفجراد . لقد كانوا . . . الالمان .

قضى فالكو طوال يومه فى مكانه بمخزن الدريس ، دون ان يتناول طعاما ، حيث لم يكن من الممكن الدخول اليه . وليلا تسللت ليوبكا عبر نافذة غرفة الام ، لتذهب الى العم اندريه تقوده الى حى «سينياكى» حيث شقة ارملة كان ينتظرهما فيها ايفان كوندراتوفيتش .

وفى ذلك المكان عرف فالكو كل تفاصيل لقاء كوندراتوفيتش وشولجا . وقد كان فالكو يعرف شولجا منذ الصبا بوصفهما من ابناء كراسنودون ، وبوصفهما قد عملا بالمقاطعة سوية طيلة السنوات الاخيرة . ولم يكن يراود فالكو ادنى شك فى ان شولجا احد الذين استبقيوا للعمل السرى بكراسنودون . لكنه لم يكن يعلم وسيلة للعثور عليه .

وتساءل فالكو فى خشونة :

– هذا يعنى انه لم يثق بك . أليس الامر كذلك ؟ ياله من احمق !

فلم يكن فالكو يدرك كنه سلوك شولجا ، ليتساءل :

– وهل تعرف آخرين من الذين استبقيوا للعمل السرى ؟

– كلا . . لا اعرف .

وغمز فالكو بعينه متسائلا فى عبوس :

– وكيف حال ابنك ؟

واطرق كوندراتوفيتش براسه مجيبا :

– لست ادرى حقيقة امره . لقد سالته صراحة «هل سوف تعمل فى خدمة الالمان ؟ فلتقل لى ، لابيك ، بصراحة وبشرف عما يمكننى ان انتظره منك» . ورد على قائلا «او تحسبنى احمق ، حتى اقوم بخدمتهم ؟ اننى سوف اعيش فى ظل سلطتهم ، كما كنت اعيش فى السابق ! . .» .

وضحك فالكو قائلا :

– يبدو انه ذكى ، على النقيض من ابيه . وعليك ان تستفيد من ذلك . فلتعلن على الملأ انه قد حُوكم فى ظل السلطة السوفييتية مما سوف يكون من مصلحته ، كما وسيجعل حياتك فى مامن من الالمان الى حد ما .

وذكر كوندراتوفيتش بصوت خافت فى اسى :

– آه ايها العم اندريه ! اننى لم اكن اعلم انك سوف تسخر منى على هذا النحو !

– ايه يا صاح ! يالك من انسان قد تقدم به العمر الى هذا الحد ، ومع ذلك يود منازلة الالمان متحليا بكافة الفضائل ! هل بدات العمل . . ام لا ؟

– اى عمل ؟ لقد نسفنا المناجم !

– او لم تمثل بمكان عملك القديم ؟

– اننى لا افهمك ايها الرفيق المدير . . .

لقد ارتبك كوندراتوفيتش ، اذ بدت اقوال فالكو على النقيض مما تصور ان تبدو حياته عليه فى ظل الالمان .

وذكر فالكو فى هدوء :

– اذن فلم تمثل امامهم بعد ! اننى اشير عليك بالذهاب ، حيث يمكن للمرء العمل على نحو متباين . ان ما يهمنا هو الحفاظ على رجالنا .

قضى فالكو يومه فى ضيافة تلك الارملـــة . الا انه قام فى الليلة التالية بتغيير مسكنه . ولم يكن يعرف مقره الجديد سوى كوندراتوفيتش الذى كان فالكو يوليه ثقته اللامحدودة .

وعلى مدى عدة ايام راح فالكو يتقصى اخبار نشاط الالمان بالمدينة ، ويوطد صلاته باعضاء الحزب الباقين وغيرهم من سكان كراسنودون غير الحزبيين ، يساعده فى ذلك كوندراتوفيتش وليوبكا وكذلك سيرجى ليفاشوف وبنتا العم ايفانتسوف اللتان اوصت بهما ليوبكا . غير انه لم يستطع رغما عن ذلك العثور على شولجا او اى من الآخرين الذين استبقيوا للعمل السرى . وخيل اليه ان ليوبكا هى الخيط الوحيد الذى يمكن ان يفضى به الى مركز العمل السرى بالمقاطعة . غير ان فالكو كان يرى من طباع وسلوك ليوبكا انها فى مهمة استطلاعية ولن تبوح له بشىء قبل الاوان . وقرر العمل وحده على امل انه تلتقى كافة الخيوط ان عاجلا او آجلا . وبعث بليوبكا الى اوليج كوشيفوى الذى قد يفيده اليوم .

وتساءل اوليج وهو يحاول اخفاء اضطرابه :

– هل بوسعى الالتقاء بالعم اندريه بنفسى ؟

واجابت ليوبكا فى ابتسامة غامضة :

– كلا . . انك لا تستطيع رؤيته بنفسك . ان القضية حقا ، غرامية . نينوتشكا . . تعالى هنا وتعرفى على هذا الشاب .

ومدّ اوليج يده يصافح نينا ، ليعترى الاضطراب كليهما . وذكرت ليوبكا :

– لا بأس . سرعان ما سوف يالف بعضكما البعض . اننى سوف اتركما الآن ، ولكما ان تذهبا الى مكان ما للنزهة ، لتتحدثا عما يكنه قلب كل منكما حيال الآخر وحول نمط حياتكما مستقبلا . . . هيا فليتابط كل منكما ذراع الآخر . اتمنى لكما السعادة .

وعلت امارات الدهاء عينيها ، لتغادر العنبر الخشبى فيما يتعالى حفيف ثوبها زاهى الالوان .

ووقف كل منهما قبالة الآخر . . اوليج الذى اعتراه الارتباك والحيرة ، ونينا التى كانت امارات التحدى تعلو وجهها .

وذكرت نينا فى هدوء وصعوبة بعض الشىء :

– يستحيل علينا البقاء هنا . ينبغى الانصراف الى مكان ما . وسوف يكون من الافضل ، حقيقة ، ان تابطت ذراعى .

وارتسمت امارات دهشة بالغة على وجه الخال كوليا الذى كان يتجول فى الفناء ، حين وقع نظره على ابن شقيقته يبارح الفناء متابطا ذراع تلك الفتاة المجهولة .

وقد كانا ، اوليج ونينا ، على درجة من الصبا وعدم الخبرة لم تمكنهما التخلص من مشاعر الحيرة التى هيمنت عليهما . كانا يفقدان القدرة على الحديث ازاء اى تلامس ، وكانا يتصوران ذراعيهمـــا اللذين يتابط كل منهما الآخر ، كما الحديد الكاوى .

وقد كان ينبغى على اوليج وفقا لاتفاق الامس الذى عقده مع رفاقه ، استطلاع الحديقة العامة من تلك الجهة التى يفضى اليها شارع سادوفايا ، ولذا فقد سار برفقة نينا فى ذلك الاتجاه . وكان الالمان قد انتشروا تقريبا فى كل البيوت الكائنة بشارع سادوفايا وبمحاذاة الحديقة العامة . بيد انهما ما كادا يتجاوزان بوابة المنزل حتى شرعت نينا تتحدث حول جوهر المهمة ، بصوت خافت وكانما تبحث امورا شخصية غرامية :

– يستحيل عليك رؤية العم اندريه ، وسوف اكون لك حلقة الاتصال به . ولك الاّ تغضب ، فاننى بدورى لم اره على الاطلاق .

لقد طلب العم اندريه ما اذا كنت تعرف احدا من الصبية يستطيع استطلاع مكان اولئك الذين اعتقلهم الالمان .

وذكر اوليج بسرعة :

– لقد تولى هذا الامر شاب غاية فى الصلابة .

– لقد طلب العم اندريه ان تقص على كل ما تعرفه بشأن رفاقنا ، وبشأن الالمان .

وابلغها اوليج ما سمعه من تيولينين حول رجل العمل السرى الذى وشى به اجنات فومين لدى الالمان ، وما اخبره به فولوديا اوسموخين الليلة الماضية ، وما ذكره زيمنوخوف حول ان رجال العمل السرى يبحثون عن فالكـــو . ثم اعطاهـــا عنوان جورا اروتيونيانتس .

– يستطيع العم اندريه ان يخطره بمكان اقامته دونمـــا خوف . كما وانه يعرفه تمام المعرفة ! اما جورا فسوف يقوم عن طريق فولوديا اوسموخين بابلاغ الجهات المعنية بكل الاخبار .

وابتسم اوليج ليمضى قائلا :

– لقد قمت اثناء حديثنا باحصاء ثلاثة مدافع مضادة للطائرات على يمين المدرسة بالداخل ، الى جانب ملجا هناك . غير اننى لم ار اية عربات .

وسألته على حين غرة :

– الم تر الرشاش المزدوج والالمانيين فوق سطح المدرسة ؟

واجابها اوليج فى دهشة :

– كلاّ . . لم الحظ شيئا !

وقالت بنبرة تحمل بعض اللوم :

– مع انهم من اعلى ذلك السطح يكشفون الحديقة باكملها !

وبرقت عينا اوليج ليتساءل فى فضول :

– او كنت كذلك تستطلعين المكان ؟ هل عهدوا اليك بمثل هذه المهمة ؟

– كلا . . اننى افعل ذلك من تلقاء نفسى . بحكم العادة !

وهنا افاقت لنفسها ، لتنظر اليه فى تحد ، وكأنما تحاول استطلاع ما اذا كانت قد فضحت امرها بنفسها .

بيد انه كان ما يزال غاية فى السذاجة ، لدرجة لا تسمح له بأن يفطن الى ما تعنيه كلماتها .

ومضى اوليج يقول فى حرارة :

– ها هى السيارات صف باكمله ! لقد اختفت مقدماتها فى الخنادق ولم يبد منها سوى اعلى صناديقها . او لا ترين الدخان ينبعث من مطبخهم الميدانى ؟ لا تتطلعى الى تلك الناحية !

وذكرت فى هدوء :

– ليست ثمة جدوى من التطلع . . فما دام مركز المراقبة قائما على سطح المدرسة ، فلن يتمكن احد من التنقيب عن حروف المطبعة .

– حقا !

ونظر اليها بارتياح ثم انفجر ضاحكا .

وكانا قد الفا بعضهما البعض ، وراحا يتهاديان فى سيرهما ، بينما استقرت فى هدوء على يد اوليج يد نينا الكبيرة البضة التى تنم عن انوثة . وتجاوزا الحديقة العامة لتظهر الى يمينهما وبمحاذاة الشارع الى جوار البيوت النموذجية العربات الالمانية ما بين لوريات وعربات ركوب ومحطة لاسلكى ميدانية واوتوبيس اسعاف ، بينما انتشر الجنود الالمان فى كل مكان . اما على يسارهما فقد امتدت ارض فضاء يتوسطها الى جوار مبنى حجرى اشبه بالثكنات رقيب المانى تعلو كتفيه علامات رتبته الزرقاء يقوم بتدريب مجموعة صغيرة من الروس فى ملابسهم المدنيـــة ، والمسلحين ببنادق المانية . كانوا يصطفون تارة ، ويتفرقون تارة اخرى ، ويزحفون ويشتبكون بالسلاح الابيض تارة ثالثة . وقد كان العمر قد تقدم بهم جميعا ، يعلقون على اذرعتهم شارة الصليب المعقوف .

وذكرت نينا فيما تبرق عيناها :

– ان الدركى الالمانى يعلم رجال الشرطة كيفية اصطياد ذوينا .

وسالها متذكرا ما قصه عليه تيولينين :

– ومن اين لك معرفة ذلك ؟

– لقد شاهدتهم بنفسى .

وذكر اوليج فى بغضاء مشوبة بالتقزز :

– يا له من وغد ! ينبغى ابادة امثاله دونما رحمة !

وذكرت نينا :

– هذا ما يستحقونه .

وسالها اوليج فجاة :

– او كنت ترغبين فى ان تكونى فدائية ؟

– اننى اتمنى ذلك .

– او تتصورين معنى ان تكونى فدائية ؟ ان عمل الفدائى ليس عملا يتسم بالمظهرية ، بل عمل مفعم بالشهامة والنبل . ان الفدائى يمكن ان يقتل فاشيا واحدا ، ثم ثانيا ، ثم مائة ، الا ان الواحد بعد المائة قد يرديه قتيلا . انه يستطيع ان يقوم بمهمة ، ثم باخرى ، ثم بعشر مهام ، الا ان المهمة الحادية عشرة يمكن ان تقضى عليه . هل تعلمين مدى التضحية التى يتطلبها هذا الامر ؟ ان الفدائى لا يضن بحياته ، ولا يبيع ولا يخون رفيقه بأى حال من الاحوال . وددت ان اصبح فدائيا !

كان اوليج يتحدث فى حرارة تتسم بالعمق والاخلاص والسذاجة ، لدرجة جعلت نينا ترنو نحوه بعينيها المفعمتين ثقة وبساطة .

وسالها اوليج فجاة :

– هل لى ان القاك بعيدا عن جو العمل ؟

واجابته نينا تعتريها بعض الحيرة .

– كلا . . ولم لا . اننا نستطيع ان نلتقى ، فى اوقات فراغنا !

– اين تسكنين ؟

وذكرت على نحو لا يتسم بالثقة فى حقيقة ما تطلبه :

– هل هناك ما يشغلك الآن ؟ هل تستطيع مرافقتى حتى بيتنا ؟ اننى اود ان اعرفك ببنت عمى الكبرى اولجا .

كانت بنتا العم اوليا ونينا تعيشان فى حى «فوسميدوميكى» ، بمنزل نموذجى تقطن نصفه اسرة نينا ، بينما تقطن النصف الآخر اسرة اوليا . وعندما وصلا الى المنزل ، دعت نينا اوليج الى مسكنها لتتركه فى رعاية امها .

وفى بساطة انخرط اوليج الذى بدا اكبر من سنه فى الحديث مع فارفارا دميتريفنا التى كانت صبية الملامح ، تهوى الثرثرة ، تساعده فى ذلك تربيته الاوكرانية التى تؤكد احترام من هم اكبر

سنا . هذا علاوة على انه كان تواقا لان يحوز اعجابها بوصفها اما لنينا .

وريثما عادت نينا ، كان اوليج قد عرف كل شىء تقريبا حول آل ايفانتسوف . كان والدا اوليا ونينا شقيقين يعملان بالمناجم ، اما اليوم فموجودين بالجبهة . وقد انحدرا اصلا من محافظة اوريول الروسية ، وكانا يعملان آنذاك اجيرين عند اغنياء الفلاحين ، لينتقلا فيما بعد الى الدونباس ويتزوجا من اوكرانيتين . وقد كانت والدة اوليا من محافظة تشيرنيجوف البعيدة ، اما فارفارا دميتريفنا فقد كانت من قرية راسيبنى الواقعة بحوض الدونباس . وقد عملت الاخيرة فى صباها بالمناجم مما ترك بصماته عليها . فقد تبدت على نحو متباين مع ربات البيوت البسيطات . اذ كانت تتسم بالجسارة وتميل نحو الاستقلالية ، وتجيد تمييز طباع الآخرين . وقد ادركت على الفور ان الصبى لم يات لمجرد الزيارة ، لتتامله فى امعان بعينيها المفعمتين دهاء مشوبا بالذكاء ، وتعرف مكنون اعماقه دون ان يدرى .

وعلى اى حال فقد كانا سميرين يناسب كل منهما الآخر ، ادركتهما نينا حين عودتها يجلسان متجاورين على اريكة بالمطبخ فى غاية الحيوية والنشاط . كان اوليج يهز قدميه فى مرح ملقيا براسه الى الوراء ، وهو يفرك اطراف اصابعه ، فيما يقهقه على نحو جعل فارفارا دميتريفنا لا تمسك بدورها عن مشاركته الضحك . واذ شاهدتهما نينا هكذا ضربت كفا بكف لتضحك هى الاخرى . وقد راح ثلاثتهم يشعرون بالراحة والبساطة وكانما تربطهم صداقة طويلة الامد .

وذكرت نينا ان اولجا مشغولة بعض الشىء ، الا انها الحت فى الرجاء حتى ينتظرها اوليج . وقد انقضت فترة ساعتين ريثما جاءت اوليا ، دون ان يشعر اوليج الذى انهمك فى ثرثرة لا معنى لها . هذا بينما كانت هاتان الساعتان حاسمتين فى حقيقة الامر ، حيث خلالهما وفى النهاية تلاقت خيوط جهاز العمل السرى فى كراسنودون . فقد استطاعت اوليا آنذاك الذهاب الى فالكو الذى كان يعيش فى احد اكواخ «شانغهاى» بعيدا عن «فوسميدوميكى» لتنقل اليه كل ما عرفته نينا من اوليج .

وقد خفت بقدوم اوليا حدة المرح الذى كان يسود شقة بنت عمها ، وان كانت اوليا قد عاملت اوليج بحفاوة وترحاب غريبين على طابعها ، اذ علت ابتسامة طيبة عريضة وجهها ضيق الملامح غير المتناسقة ، بل واتخذت مكانها الى جواره على الاريكة بدلا من نينا . غير انها لم تستطع الانخراط بسهولة فى حديثهم العاصف المشوش الذى لم يكن لامرئ غريب ان يدرك معنى له . كما وكانت ما تزال بعد اسيرة تلك المشاعر التى اجتاحت كيانها بعد لقائها بفالكو . وقد كانت اوليا ذات طابع اكثر جدية من نينا ، وليس من ناحية مدى تاثرها وتقبلها للاحداث ، بل فى قدرتها على تجسيد افكارها ومشاعرها فى خطوات عملية . هذا علاوة على انها وبحكم كونها اكبر سنا ، كانت اكثر اطلاعا على جوهر القضية التى كانتا مشغولتين بها ايام عملتا فى جهاز الاتصالات بلجنة مقاطعة ستالينو .

واتخذت مكانها الى جوار اوليج وهى تفك شعرها الاسمر الذى كانت قد عقدته خلف راسها ، دون ان تنبس بحرف . وقد علت عينيها امارات الجمود على الرغم من كل ما بذلته من محاولات للتظاهر بالمرح والابتسامة ، مما جعلها تبدو بالفعل اكبر سنا من نينا ، بل ومن ام نينا نفسها .

غير ان فارفارا دميتريفنا كانت ذات طابع مرهف ودبلوماسية التصرف . فقد ذكرت تقترح عليهم :

– ماذا يدعونا الى الجلوس بالمطبخ ؟ هيا بنا الى الغرفة نلعب الورق .

وانتقل الجميع الى غرفة الطعام . ودلفت فارفارا دميتريفنا سريعة الى الغرفة المجاورة ، التى كانت غرفة نومها ونينا ، لتعود «بالورق» داكن اللون يحمل بصمات كثير من الايدى التى تداولته مرارا . وتساءلت اوليا على نحو يبدو وكانه عن غير قصد :

– سوف تزامل نينا اوليج بطبيعة الحال . اوليس كذلك يا نينا ؟

– كلا . . اننى سوف ازامل امى .

هكذا اجابتها نينا بلهجة قاطعة تحمل معنى التحدى وقد تحولت بناظريها اليها ، حيث كانت فى حقيقة الامر ترغب ذلك الا انها لم تكن لتستطيع الافصاح عن مشاعرها هكذا سريعا .

ولم يفهم اوليج من ذلك الحديث شيئا ، الا انه فطن الى كون والدة نينا سوف تكون لاعبة ورق ممتازة ، بوصفها عاملة مناجم قديمة .

– كلا . . اننى سوف ازامل ماما !

ولما كان اوليج يتاتا فى حديثه ، فلم يكن يتحدث بصوت عال بل يخور على نحو اثار ضحك الجميع بما فى ذلك اوليا .وذكرت فارفارا دميتريفنا :

– يا له من عجوز وصغير ! فلتحذرناه يا بنتى !

وخيم المرح على الجميع ثانية .

وقد كانت عاملة المناجم القديمة ماهرة حقا فى لعبة «البوكر» ، غير ان اوليج انهمك فى اللعب كعادته بحماس جعلهما يخسران فى البداية . وراحت اوليا التى كانت تجيد السيطرة على مشاعرها ، تثير اوليج فى دهاء . اما فارفارا دميتريفنا فقد راحت رغما عن خسارتهما تتامله خلسة ، فقد نال شديد اعجابها .

وها هما يكسبان الدور الرابع فى نهاية الامر . ووزعت اوليا الاوراق ، مما جعل اوليج ينظر الى ورقه ليجده لا يوحى باى امل ، وفجاة ومضت فى عينيه امارة تنم عن مكر ودهاء ، ليرفعهما نحو فارفارا دميتريفنا فى محاولة منه للفت انظارها . وما كادت انظارهما تتلاقى حتى مط شفتيه وكانما يستعد لطبع قبلة ، ليعيدهما ثانية الى وضعهما الطبيعى . وومضت عينا فارفارا دميتريفنا اللتان كانتا ما تزالان تحملان امارات الشباب على الرغم من التجاعيد التى احاطتهما . غير انها لم تحرك ساكنا لتنزل على الفور بالورقة الرابحة «الدينارى» وفقا لاشارة اوليج التى فطنت اليها .

وقد تملكت اوليج نوبة من المرح اللامحدود ، حيث ضمن الفوز دائما الى جانبه . وصار «العجوز والصغير» يشيران بعضهما الى البعض فى مرح ، تارة يرفعان انظارهما نحو السماء مما كان يعنى «الاسباتى» ، واخرى يتحولان بها جانبا «مما يعنى «البستونى» ، وثالثة يلمسان ذقنيهما بسبابتهما مما كان يعنى «كوبة» . وقد بذلت الفتاتان الساذجتان جل جهدهما لتفادى الخسارة المتوالية ، الا انها كانت رغما عن كل ذلك تحل بهما . وكانت نينا تجلس يعتريها الاضطراب وتعلو وجهها الحمرة ، بينما كان اوليج عقب

كل دور يكسبه ، ينفجر فى الضحك وهو يفرك اطراف اصابعه . الا ان اوليا الاكثر خبرة ادركت فى نهاية الامر ان ثمة شيئا غير طبيعى يجرى ، وراحت بما تتسم به من رباطة جاش وقدرة على اخفاء ما يجيش بأعماقها ، تتمعن فى تصرفات خصميها . وسرعان ما اتضح لها الامر ، وانتظرت حتى مط اوليج شفتيه المكتنزتين لتخبطهما باوراقها ثم ترمى بها الى المائدة لتتطاير فى شتى الانحاء قائلة بصوتها الهادئ ذى النبرة الرتيبة :

– ايها النصّابان !

وانفجرت فارفارا دميتريفنا فى الضحك دون ان تشعر بالضيم . اما نينا فقد هبت واقفة فى غضب ، الا ان اوليج الذى نهض من مكانه فى اثرها ، امسك بكلتا يديه يدها الرقيقة السمراء واسند جبهته الى كتفها يطلب الصفح . واخيرا انفجر الجميع فى الضحك .

كان اوليج عازفا عن العودة الى منزله ، على الرغم من ان المساء كان قد غدا وشيكا ، وحيث يسود المدينة قانون حظر التجول بعد السادسة . واعلنته اوليا انه من الافضل ان ينصرف الآن ، والا فسوف يكون الوقت متأخرا ؛ ثم ودعت الجميع وانصرفت الى مسكنها .

وخرجت نينا الى مدخل المنزل الذى غمرته اشعة شمس الغروب ، تودع اوليج . ليقول اوليج فى اخلاص :

– لا اريد الانصراف !

ثم توقف ليسال فى تجهم :

– هل تحيط ببيتكم حديقة ؟

وامسكت نينا فى صمت بيده تقوده الى ما وراء المنزل . وهناك وجدا نفسيهما فى ظله تحيط بهما شجيرات الياسمين التى ترعرعت وغدت على نحو يكاد يكون شبيها بالاشجار .

– كم جميل هو المكان عندكم . اما لدينا . . فقد اجتث الالمان كل شىء .

والتزمت نينا الصمت .

ومضى اوليج يقول فى توسل وبصوت طفولى :

– هل لى ان اقبلك يا نينا ؟ كلا . . اقصد . . اطبع قبلة على وجنتك . . على وجنتك فقط .

لم تند عنه اية حركة ، مكتفيا بالسؤال ، غير انها جفلت عنه تعتريها الحيرة مما جعلها تفقد القدرة على النطق . غير انه لم يشعر باضطرابها وخجلها ، وطفق يواصل النظر اليها بشكل طفولى طبيعى الى ان قالت له :

– كلا . . انك سوف تتاخر !

ولم يبد غريبا كذلك كون طبعه لقبلة على وجنة نينا يمكن ان تتسبب فى تاخيره . . ولذا فقد اعتبرها محقة بطبيعة الحال ، مما جعله يتنهد مبتسما ويمد لها يده الكبيرة التى احتفظت بها نينا بين يديها الرقيقتين بعض الوقت قائلة :

– كلا . . يجب ان تداوم على زيارتنا .

وعاد اوليج ادراجه سعيدا بتعارفه الجديد وبذلك المجرى الجديد الذى انسابت فيه شئونه ، تنتابه رغبة عارمة فى تناول الطعام . بيد انه لم يكن مقدرا له تناول طعامه آنذاك ، حيث استقبله الخال كوليا عند بوابة المنزل قائلا :

– انى فى انتظارك منذ مدة طويلة ، حيث يبحث الجلفط (هكذا كانوا يسمون الخادم الالمانى) عنك منذ غادرت المسكن .

وذكر اوليج فى غير اكتراث :

– فليذهب الى الشيطان .

وذكر الخال كوليا :

– غير انه من الافضل الابتعاد عنه . هل تعلم ان فيكتور بيسترينوف قد عاد بالامس ؟ لقد اعاده الالمان بعد ان كان قد وصل نهر الدون . هيا بنا اليه ، فمن الجيد ان بيته خال من الالمان .

وكان فيكتور بيسترينوف مهندسا فى مقتبل العمر عمل وتصادق مع نيكولاى نيكولايفيتش . وقد استقبلهما بنبأ غاية فى الغرابة ، حيث صاح مكشرا عن اسنانه فى غضب :

– هل تعلمان ان ستاتسينكو عين رئيسا لبلدية المدينة ؟

واصابت الدهشة حتى الخال كوليا ليتساءل مستفسرا :

– اى ستاتسينكو ؟ رئيس قسم التخطيط ؟

– هو ذاته .

– كفى مزاحا !

– ليس هذا اوان المزاح .

– ان ذلك امر غير معقول ! او يمكن ان يفعل هذا ذلك الوديع الذى لم يؤذ احدا طيلة حياته .

واجاب فيكتور بيسترينوف نحيف القوام رفيعه كما الحربة ، فيما يتلظى غضبا وحنقا ، يغص لعابه حلقه .

– نعم انه نفس ستاتسينكو الوديع الذى لم يسأ الى احد طيلة حياته ، ذلك الذى لم يكن للمرء ان يتخيل بدونه اية حفلة ، او اية امسية طريفة ، والذى كان الجميع يعتبرونه طيب القلب لطيفا طريفا : نفس ستاتسينكو . . اصبح حاكمنا !

وذكر نيكولاى نيكولايفيتش وهو ما يزال غير مصدق لما يقال :

– انه بالشرف لامر لا يصدق ! فلم يكن يعقد دونه جمع او لقاء للمهندسين . وكم شاركته الشراب كثيرا ! لم تند عنه كلمة واحدة تنم عن عدم اخلاصه ، كما ولم اسمعه ابدا يتلفظ بكلمة نابية . آه لو كان ماضيه تشوبه شائبة . . لهان الامر ! ان الجميع يعرفونه جيد المعرفة ، ابنا لموظف صغير ، لم يتورط طيلة حياته فيما يعيبه .

– لقد شاركته الشراب ! اما اليوم فسوف يمسك بخناقنا قبل الآخرين ، وبحكم المعرفة القديمة . . فاما ان تعمل ، واما . . . – واشار بيسترينوف باصابعه الرقيقة الى السقف وكأنما يشد حبل المشنقة ليضيف قائلا : – وها هو انسانك اللطيف !

ودون ان يعيرا اهتماما اوليج الذى التزم الصمت ، ظلا فترة طويلة يقلبان فى معاناة كيف ان رجلا عرفاه اعواما ، واحبه الجميع ، يستطيع ان يشغل مثل هذه الوظيفة فى ظل الالمان . وقد كان ابسط التفسيرات ، يكمن فى ان الالمان اجبروه على ذلك تحت سوط التهديد بالقتل . لكن السؤال الذى يطرح نفسه هو : ولماذا وقع عليه بالذات اختيارهم ؟ وهنا تعالى صوت داخلى ، صوت الضمير النقى الذى يحدد افعال البشر فى اكثر اللحظات حرجا يؤكد لهما انه لو كان قد وقع الاختيار عليهما هما المهندسان السوفييتيان البسيطان ، لكانا قد فضلا الموت عن التدنى الى هذا الحد .

– كلا . . ان ستاتسينكو لم يقبل تلك الوظيفة الا تحت التهديد

بالموت ! ان الامر لم يكن على ما يبدو بمثل هذه البساطة . وها هما ازاء هذه الظاهرة المبهمة ، وجها لوجه يرددان :

– ستاتسينكو ! يا له من امر ! ومن ذا الذى كان يتصور ذلك ؟ ومن ذا الذى يمكن ان يحوز ثقتنا بعدئذ ؟

وهزا اكتافهما واشاحا بأياديهما !

الفصل الثامن والعشرون

لم يكن العمر قد تقدم بعد بستاتسينكو رئيس قسم التخطيط بمؤسسة فحم كراسنودون ، حيث كان عمره فيما بين الخامسة والأربعين والخمسين . وقد كان حقا ابن موظف صغير بمؤسسة الضرائب فيما قبل الثورة لم يرتكب طيلة حياته ما يعيبه . كان مهندسا اقتصاديا بحكم دراسته ، كما عمل فى هذه الوظيفة بمختلف المنظمات الاقتصادية .

ويستحيل القول انه قد صعد درجات الترقى سريعا ، الا انه كذلك لم يظل فى وظيفة واحدة فترة طويلة . لقد كان يصعد السلم درجة درجة ، ودونما وثبات . غير انه كان دائما وابدا غير راض عن مكانه فى هذه الحياة .

ولم يكن مبعث سخطه ان حبه للعمل ونشاطه ومعارفه لا يجرى الاستفادة بها على النحو اللائق مما غدا مدعاة لعدم اكتسابه لما يستحقه فى هذه الحياة . لقد كان ساخطا لانه لا يستطيع الاستفادة من كل مباهج الدنيا دون أدنى جهد او نشاط او معرفة . وكان قد لاحظ ان هذه الحياة ممكنة وطريفة فى الأزمان السالفة حين كان ما يزال فى مقتبل العمر ، اما اليوم فقد صار يهوى القراءة حول تلك الحياة ، حول الأزمان الغابرة والحياة فى الخارج .

ويستحيل علينا القول انه كان يود الاثراء الفاحش ، او يرغب فى ان يصبح من ارباب الصناعة الكبار ، او تاجرا او صاحب بنك ، اذ ان هذا يتطلب من المرء بذل كثير من الجهد والطاقة والمعاناة ازاء النضال المستمر ، والمنافسة والاضرابات والأزمات . . . عليها اللعنة ! غير ان هناك ايضا دخولا يمكن الحصول عليها بسهولة مثل ريع الايجار او المرتب الجيد لقاء عمل سهل لوظيفة محترمة ، وتلك

امور يمكن ان يصادفها المرء فى كل مكان وليس «عندنا هنا» فقط . وقد أثبت تطور الحياة «عندنا هنا» ان العمر يتقدم بستاتسينكو ، يأخذه بعيدا عن مثله واحلامه ، ولذا فقد راح يمقت المجتمع الذى يعيش فيه .

غير ان ستاتسينكو وعلى الرغم من سخطه على النظام الاجتماعى وعدم رضائه عمّا سوف يئول اليه مستقبله ، لم يفعل أبدا ما يمكن ان يستهدف تغيير هذا النظام أو ذلك المستقبل لانه كان يخشى كل شىء . كان يهاب الثرثرة كثيرا ، لتقتصر ثرثرته داخل اطار الأحاديث حول علاقات غرامية ومن وكم يشرب ، شأنه فى ذلك شأن البسطاء الآخرين . انه لم يكن ينتقد احدا على الاطلاق ، غير انه كان يهوى الحديث عن البيروقراطية فى المؤسسات ، وعن افتقاد المبادرة الشخصية فى المؤسسات التجارية وعن تدهور تعليم المهندسين الشبان بالنسبة لما كان الحال عليه فى «عهده» ، وعن الخدمة السيئة فى المطاعم والحمامات . لم تكن الدهشة تعتريه ازاء اى شىء ، وكان ميّالا لأن ينتظر من الآخرين كل شىء . وكان ستاتسينكو اذا ما جرى الحديث ذات مرة عن اختلاس او جريمة قتل غامضة او حتى عن متاعب عائلية ، يقول دائما :

– اننى شخصيا لا أعجب ، حيث يمكن للمرء توقع كل شىء . لقد كانت لي عشيقة ، امراة متزوجة عالية الثقافة ، ومع ذلك فقد سرقتنى .

وشأن غالبية الناس كانت ملابسه واثاث منزله وكل ما يستعمله فى استحمامه وتنظيف أسنانه من نتاج الصناعات المحلية . كما وكان ستاتسينكو يهوى حين يجلس لاحتساء كأس من الفودكا فى حضرة مجموعة من المهندسين العائدين من الخارج ، التأكيد قائلا فى بساطة ودهاء :

– انها من انتاجنا ، سوفييتية !

وراح يجذب طرف كم جاكتته المخططة بيده البدينة الصغيرة والتى لم تكن لتتناسب مع بنيته الضخمة . ولم يكن واضحا ما اذا كانت جملته هذه تحمل معنى الفخر ام الادانة . غير انه فى قرارة نفسه كان يحسد رفاقه على ربطات العنق الاجنبية ، وفرش الاسنان ، لدرجة ان رأسه الاصلع الاحمر كان يتصبب عرقا .

– قطعة جميلة للغاية ! فلتتصوروا ولاّعة ومطواة ورشاشة فى آن واحد . كلاّ ... اننا رغما عن ذلك غير قادرين على صناعة مثلها !

هذا ما كان يقوله مواطن ذلك البلد ، حيث تعمل مئات بل آلاف النسوة البسيطات ، يستخدمن الجرارات وآلات الحصاد فى الحقول .

كان يغدق الثناء على الافلام الاجنبية على الرغم ان انه لم يشهدها ، ويقضى الساعات فى تصفح المجلات الاجنبية ، وليست الخاصة باقتصاديات التعدين التى كانت تصل احيانا الى المؤسسة حيث لم تكن تستهويه امثال هذه المجلات لجهله باللغات الاجنبية ، علاوة على انه لم يكن يسعى نحو تعلمها . كان يتصفح ، ولعدة مرات فى اليوم مجلات الموضة التى كان زملاؤه يحضرونها معهم من الخارج ، وكذلك المجلات التى تنشر صورة السيدات الأنيقات ، وغيرهن من أشباه العاريات .

غير ان كل اقوال ستاتسينكو وطباعه وعاداته وميوله لم تكن تميزه كثيرا عن الآخرين ، لان الكثيرين ، والكثيرين جدا من ذوى الاهتمامات والنشاط والافكار والرغبات الاخرى كانوا فى تعاملهم معه بشكل او بآخر يظهرون ما يتشابه معه دونما تفكير فى ان ذلك لا يعنى بالنسبة لهم سوى مسألة عابرة ، بينما هو فى حياة ستاتسينكو تجسيدا لكل طبيعته .

وهكذا كان يمكن ان يعيش ذلك الانسان المترهل ذو الراس الاصلع احمر الوجه ، متئد التصرفات هادئ الطباع ، شخصية زئبقية رصينة ، ذو صوت مبحوح خافت وعينين صغيرتين حمراوين تدل على ادمانه بالشراب منذ زمن بعيد ... كان يمكن ان يعيش هكذا وحتى آخر ايامه دون ان يصادق احدا ، يستقبله الجميع بالترحاب ليلا ونهارا ، اثناء ساعات العمل الذى كان يكرهه ، واجتماعات اللجنة النقابية التى كان يشغل عضويتها بشكل دائم ، وجلسات الشراب ولعب الورق ، يصعد السلم الوظيفى درجة درجة فى بطء ورغما عن ارادته ... كان يمكن ان يعيش هكذا ، لو لم ...

لم تكن الدولة التى يعيش فيها ذلك الانسان الزئبقى لتصمد

ضد ألمانيا ، كما كان واضحا لستاتسينكو منذ البداية . ولم يكن ذلك لانه على علم بامكانيات كلا البلدين ، ويجيد تحليل العلاقات الدولية ، حيث كان يعزى ذلك الى ان البلد الذى لا يتفق ومثله العليا فى الحياة لم يكن ليستطيع الصمود امام ذلك البلد الذى توقع ان يكون متوافقا مع هذه المثل . وقد شعر ستاتسينكو فى ذلك الأحد من شهر يونيو ، حين استمع الى خطاب مولوتوف بالاذاعة ، ببعض القلق الشبيه بما يراود المرء حين يواجه ضرورة تغيير مسكنه .

كان يدرك ضرورة تغيير هذا المسكن مع كل نبأ جديد يتوارد حول انسحاب الجيش الأحمر من المدن التى تتباعد عن الحدود يوما بعد يوم . اما وفى اللحظة التى سقطت فيها كييف فقد كان ستاتسينكو اشبه بمن اتخذ طريقه نحو محل اقامته الجديد تدور براسه الخطط الهائلة بشأن استقراره هناك .

وهكذا وحتى تلك اللحظة التى دخل فيها الألمان كراسنودون ، كان ستاتسينكو قد قطع معنويا ، نفس الطريق الذى قطعه نابليون منذ لحظة هربه من جزيرة آلبا وحتى دخوله باريس .

ظل الحارس ثم الخادم يرفضان طويلا وفى خشونة السماح لستاتسينكو بالدخول الى الجنرال فون فينتسيل . ولسوء حظه خرجت الجدة فيرا التى كان يخشاها ستاتسينكو جدا ، ليرفع قبعته منحنيا انحناءة شديدة دون ان يعى كيف جرى كل ذلك ، متظاهرا بانه يعبر فناء البيت فى طريقه الى الشارع الآخر . ولم تلحظ الجدة فى ذلك شيئا . غير انه ورغما عن ذلك لزم مكانه الى جوار السور فى انتظار خروج المساعد الشاب .

وراح ستاتسينكو البدين بعد ان رفع قبعته يتقافز الى جوار الضابط الألمانى الذى تقدمه قليلا . غير ان المساعد ودون ان يفكر فيما كان يقوله ستاتسينكو ، ودون ان يلتفت نحوه اشار اليه بالتوجه الى مقر القيادة الألمانية .

وقد كان حاكم المدينة شتوبى من ضباط الجستابو ، واحد اولئك المتشابهى النمط من رجال الدرك البروسيين المسنين ، والذى كان ستاتسينكو قد شاهد فى شبابه كثيرا من أمثاله تجسدهم صور لقاء الأباطرة فى مجلة «نيفا» . وكان شتوبى مصابا

بالصرع ، فتل شاربه الذى وخطه الشيب على نحو بدا أشبه بذيل الحصان ، ذا وجه منتفخ تغطيه شبكة رقيقة من العروق الصفراء المشوبة بالزرقة ، اما عيناه الجاحظتان فكانتا عكرتى اللون حيث يستحيل تمييز معالمهما .

تساءل شتوبى بصوت مبحوح :

– هل تود الخدمة فى جهاز الشرطة ؟

واوما ستاتسينكو براسه فى خجل ، وضم الى فخذيه يديه الصغيرتين البدينتين ذات الاصابع الشبيهة فى لونها وشكلها بالسجق الأوروبى ، قائلا :

– اننى اقتصادى واعتقد ...

– الى المساعد بريوكنر !

قاطعه شتوبى محدقا النظر فيه بعينيه باهتتى اللون ، مما جعل ستاتسينكو يتراجع خارجا فى خطوات غير متزنة . كانت ادارة الشرطة تشغل مسكنا خشبيا طويلا من طابق واحد تساقط بياضه ، على حافة التل القريب من مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة فى مكان قفر بعيد عن الحى المسمى «فوسميدوميكى» . وقد كان هذا المبنى فيما سبق مقرا لميليشيا الحى والمدينة . وكان ستاتسينكو قد زار هذا المكان قبيل الحرب بمناسبة حادث السرقة الذى تعرض له مسكنه .

ودلف ستاتسينكو الى المبنى يرافقه جندى ألمانى يحمل سلاحه ، يقطعان ممرا غير غريب عليه ، معتما ، لينكص الى الوراء فى خوف ، فقد كاد يصطدم بانسان أطول منه قامة ، يغطى راسه بسدارة من طراز قديم ، تامله ليعرف فيه اجنات فومين عامل مناجم كراسنودون القديم . وكان اجنات فومين يسير دونما مرافق ، ينتعل حذاء نظيفا ، وفى حلة جيدة مثل تلك التى يرتديها ستاتسينكو . واذ رمى كل من السيدين أنيقى الملبس الآخر بنظرة سريعة ، افترقا وكانما لا يعرفان بعضهما البعض .

وقد شاهد ستاتسينكو فى نفس غرفة الاستقبال التى كانت مقرا لرئيس ميليشيا كراسنودون شوركا ريباند مسؤول مخبز المدينة يغطى راسه الصغير بارز العظام الذى لفحه الشمس بطاقية روسية سمراء لم تكن غريبة عليه . وكانت المدينة باسرها

تعرف شوركا ريباند لانه كان المسؤول عن توزيع الخبز على مطاعم كافة المؤسسات واكشاك بيع الخبز ومحلات البقالة . ولم يكن ثمة من يناديه بغير شوركا ريباند .

– فاسيلي ايلاريونوفيتش !...

ندت فى دهشة عن شوركا ريباند الذى التزم الصمت فور لاحظ الجندى الواقف خلف ستاتسينكو .

ومال ستاتسينكو براسه الأصلع قليلا جانبا ونحو الأمام ثم قال :

– يا ايها السيد ريباند ! اننى أود تقديم خدماتى .

ونهض السيد ريباند من مكانه فى تثاقل ليلزم مكانه ، بعض الوقت ، ثم ودون ان يطرق الباب دلف بسرعة الى غرفة مكتب الرئيس . وغدا واضحا ان شوركا ريباند قد اصبح اليوم جزءا لا ينتزع من «النظام الجديد» .

وقد لبث ريباند هناك فترة طويلة لم يضع حدا لها سوى جرس الرئيس الذى تعالى بغرفة الاستقبال ، ليسوى الجندى الألمانى هندامه مصاحبا ستاتسينكو الى الداخل .

ولم يكن بريوكنر ضابطا بل مساعدا ، كما ان قسم الشرطة لم يكن قسما كبيرا ، بل مجرد نقطة شرطة كراسنودون . أما المركز الرئيسى فقد كان متمركزا فى مدينة روفينكى .

وحين دلف ستاتسينكو الى الداخل كان المساعد بريوكنر واقفا وقد عقد يديه خلف ظهره ، فارع القامة ضخم البنية ، وقد برز بطنه كثيرا الى الأمام . كما وتهدلت تحت عينيه اكياس دهنية معروقة داكنة اللون يمكن ان تفسر ، اذا ما امعن المرء النظر اليها ، سبب قضاء الرقيب الجزء الأعظم من حياته وقوفا وليس جلوسا ، وذكر ستاتسينكو فى خجل وقد ضم قبضتى يديه مسدلا يديه لاصقا اياهما الى جانبيه :

– اننى مهندس اقتصادى بحكم تعليمى وخبراتى ، واعتقد ...

وقاطعه المساعد بريوكنر قائلا بالألمانية موجها حديثه الى ريباند :

– قل له اننى أعينه رئيسا للبلدية ، بتخويل من الفوهرر .

وفى نفس الثانية تخيل ستاتسينكو نفسه ازاء اولئك الذين

كانوا لا يعيرونه اهتماما او على علاقة غير طيبة به ، يقفون حياله وقد توقفت امورهم عليه . وحنى راسه الأصلع كثيرا ، وقد غطته قطرات العرق ، اذ بدا له انه قد لهث بآيات الشكر والعرفان فى حضرة المساعد بريوكنر على الرغم من انه لم يكن فى حقيقة الامر يفعل سوى تحريك شفتيه والميل بهامته .

وقام المساعد بريوكنر بازاحة طرف سترته قليلا ليبدو بطنه المتهدل مستديرا كالبطيخة داخل سروال مشدود حوله ، ويخرج من جيبه علبة سجاير مذهبة ، تناول منها واحدة ليدسها بين شفتيه فى حركة دقيقة . واذ استغرق فى التفكير بعض الوقت تناول اخرى ليمد بها يده الى ستاتسينكو .

ولم يتجاسر ستاتسينكو على رفضها . ثم تحسس المساعد بريوكنر قطعة من الشيكولاته التى فض غلافها على المائدة ، ودون ان يتوجه اليها بانظاره كسر بعض مربعاتها ومد بها يده اليه فى صمت .

وقد ذكر ستاتسيكنو فيما بعد يخاطب زوجته :

– انه ليس انسانا ، بل مثلا اعلى للانسان !

ورافق ريباند ستاتسينكو الى نائب المساعد السيد بالدر والذى كان شبيها فى قوامه وسلوكه وحتى فى صوته بستاتسينكو لدرجة لم يكن يمكن معها تمييز هذا الأخير عنه اذا ما ارتدى الزى العسكرى الالمانى . وقد تسلم ستاتسينكو منه التعليمات الخاصة بتشكيل بلدية المدينة وتعرف على كل بنية السلطة فى ظل «النظام الجديد» .

ووفقا لذلك القوام كانت بلدية مدينة كراسنودون من اقسام نقطة الشرطة الألمانية .

وهكذا اصبح ستاتسينكو رئيسا للبلدية .

امّا فيكتور بيسترينوف ونيكولاى نيكولايفيتش فقد وقفا قبالة بعضهما البعض يشيحان بأياديهما قائلين :

– من ذا الذى يمكن عندئذ تصديقه ؟

فى تلك الأمسية حين توادع ماتفى شولجا مع كوندراتوفيتش لم يكن امامه سوى ان يتخذ طريقه الى اجنات فومين بحى «شانغهاى» .

ترك فومين لدى ماتفى كوستيفيتش انطباعا طيبا وذلك وفقا للمظاهر الخارجية ، والتى لم يكن الأخير بدونها قادرا على تمييز الأشياء . لقد أعجب كوستيفيتش بكون اجنات فومين وحين أدلى بكلمة السر ، لم يعتره الاضطراب ، ولم يكن فى عجلة من أمره ، بل أمعن النظر اليه ، ثم فيما حوله ليسمح له بعد ذلك بالدخول ، وبعد ذلك فقط رد عليه بكلمة السر . وقد كان فومين مقتضبا فى حديثه ، لم يسأله عن شىء ، ظل منصتا الى كل ما يقوله ، يجيب على كافة التعليمات قائلا : «حاضر !» . كما واعجب كوستيفيتش بكون اجنات فومين يرتدى فى منزله كامل ملابسه بما فى ذلك الصديرى ، وربطة العنق ، تتدلى من جيبه سلسلة ساعة الجيب ، حيث شاهد فى ذلك بعض سمات العامل المثقف المتحضر الذى تربى فى ظل السلطة السوفييتية .

وللحقيقة فقد كانت هناك بعض صغار الأمور التى لا يمكن القول انها لم تعجب كوستيفيتش ، بل اثارت مجرد امتعاضه حيث كانت تافهة للغاية ، غير ذات تاثير على انطباعه العام . فقد بدا له ان زوجة فومين امراة بدينة قوية ذات عينين حولاوين ضيقتين ، وابتسامة غير طيبة تكشف عن أسنانها الصفراء المتفرقة ، راحت تتملقه وتحاول كسب رضاءه منذ اللحظة الأولى لتعارفهما . كما ولاحظ عن غير قصد ان فومين الذى راح يناديه بشولجا بدا منذ الامسية الاولى بخيلا بعض الشىء . فقد اجاب على طلب كوستيفيتش للطعام صراحة بانه يواجه صعوبات جمّة فى الحصول على المواد الغذائية . وحقا فلم يكن من الممكن القول انهما أحسنا تغذيته على الرغم من يسر أحوالهما . غير ان كوستيفيتش وجد انهما يتناولان نفس الطعام ، مما دعاه الى التفكير فى انه لا يعرف كافة دقائق حياتهما الشخصية .

ولم تكن مثل هذه التفاهات لتغير من الانطباع العام والجيد الذى تركه فومين لدى ماتفى كوستيفيتش ، بينما كان أسوأ البشر الذى قد يعرج اليه وبمحض الصدفة يمكن ان يكون أفضل من اجنات فومين . ذلك لان اجنات فومين كان اكثر سكان كراسنودون سوء ، كان رهيبا مريعا لانه فقد آدميته منذ زمن بعيد .

لقد كان اجنات فومين ، والذى لم يكن يحمل هذا الاسم قبيل

عام ١٩٣٠ فى بلده بدائرة اوستروج التابعة لمقاطعة فورونيج رجلا يجمع بين قوة الارادة وسعة الثراء . لقد كان يملك بشكل مباشر أو غير مباشر طاحونتين ، وحصّادتين ، وكثيرا من المحاريث ، ومذراتين وآلة دراس ، وثلاث مزارع وما يقرب من عشرة جياد وست بقرات وحديقة فواكه مثمرة ومنحلا به حوالى مائة خلية . هذا وكان قادرا على تشغيل ، الى جانب الاجراء الاربع الذين كانوا يعملون لديه ، كثير من فلاحى القرى الاخرى الذين كانوا فى حاجة مادية اليه .

لقد كان من الاثرياء فيما قبل الثورة ، بيد ان شقيقيه كانا اكثر ثراء ولاسيما الشقيق الأكبر الذى ورث ثروة أبيهم . أما اجنات فومين وبوصفه كان اصغر الاشقاء ، تزوج قبيل حرب عام ١٩١٤ ، وحصل من أبيه على بعض الثروة بما لا يتناسب مع نصيبى أخويه الكبيرين . غير انه وبعد الثورة ، وحين عاد من الجبهة الالمانية استغل فى براعة ما ادعّاه من فقر ، وتسلل هو الذى اساءت اليه السلطة القديمة ، الى كافة أجهزة السلطة السوفييتية والمنظمات الاجتماعية بالقرية ، اعتبارا من لجنة فقراء الفلاحين ، بوصفه انسانا ليس فقط ثوريا معدما ، بل ورجلا مناضلا بلا هوادة ضد اعداء الثورة . واذ استغل اجنات فومين هذه الأجهزة ، وكون شقيقيه ، شأنه هو ، من الاثرياء اعداء السلطة السوفييتية ، فقد قدمهما الى المحاكمة حيث حكم عليهما بالنفى بدء بالاكبر ثم بالاوسط ، وليستولى على ممتلكاتهما ، مشردا عائلتيهما واطفالهما الصغار دونما شفقة نظرا لانه لم يكن لديه اطفال ، الى جانب انه كان غير قادر على الانجاب . وهكذا بقى على وضعه السابق ، وحتى عام ١٩٣٠ حيث راح يعتبره الكثيرون من ممثلى السلطة ورغما عن ثرائه ، ظاهرة فريدة بالارض السوفييتية – ثريا مواليا ، ومالكا مهذبا .

غير ان الفلاحين فى عدد من القرى ، حيث امتد نفوذه كانوا يعرفونه مالكا كبيرا مصاصا للدماء ، وانسانا رهيبا مريعا . وحين بدأ تشكيل المزارع التعاونية فى عام ١٩٣٠ ، وراح الشعب بتاييد من السلطة يصادر ثروات الاغنياء ، شملت اجنات فومين الذى كان يعيش آنذاك باسمه الأصلى القديم موجة الانتقام الشعبى . وفقد

اجنات فومين كل شيء وصدر عليه الحكم بالنفى الى الشمال . غير ان السلطة المحلية لم تعتقله قبيل تنفيذ حكم النفى بوصفه شخصا معروفا ، وعلى ما يبدو مسالما . اما اجنات فومين فقد قام ليلا وبمساعدة زوجته بقتل رئيس مجلس القرية وسكرتير الخلية الحزبية هناك ، واللذين لم يكونا يعيشان برفقة عائلتيهما ، بل فى مقر مجلس القرية . وقد ادركهما فومين آنذاك حين عادا مخمورين من ضيافة بعض الاصدقاء ؛ واذ اجهز عليهما لاذ بالفرار برفقة زوجته الى ليسكى ثم الى روستوف على الدون حيث كان يعيش افضل اصدقائه .

وفى روستوف ابتاع الوثائق التى تثبت انه اجنات سيميونوفيتش فومين عامل ورش السكك الحديدية ، وحيث بدا على اساسها عاملا محترما ، ومن ثم حصل فيما بعد على الوثائق المطلوبة لاثبات هوية زوجته . وهكذا انطلق نحو حوض الدونباس ، وقد علم بحاجتهم الماسة هناك الى الأيدى العاملة وحيث لن يجد من يسأله عن هويته واصله .

لقد كان على يقين تام بان ساعته سوف تحين ان عاجلا او آجلا ، ولذا فقد رسم لنفسه نمطا معينا من السلوك . كان يدرك بادئ ذى بدء ضرورة العمل باجتهاد بالغ . أولا . . . لان ذلك سوف يسهّل عليه مهمة الاختفاء ، وثانيا ، سوف يتيح له عمله المتقانى ومهاراته العيش فى يسر ، وثالثا ، كان الكد والعمل من طبيعته ، مهما كان مدى ثرائه فى الماضى . هذا علاوة على انه قرر عدم الظهور كثيرا ، والبعد عن النشاط الاجتماعى ، وطاعة الرؤساء ، وعدم انتقاد الغير . . . لاقدّر الله !

وهكذا وبمضى الزمن نال هذا الشخص الزئبقى احترام السلطات لا لكونه عاملا ماهرا شريفا وحسب ، بل وشخصا غاية فى التواضع والانضباط . وقد استطاع الحفاظ على هذا النمط من السلوك وحتى بعد ان اقترب الالمان من فوروشيلوفجراد . ولم يكن يراوده ادنى شك فى انهم سوف يصلون الى كراسنودون . وقد كاد يفضح نفسه فقط حين سئل الموافقة على تقديم مسكنه لخدمة منظمة العمل السرى اذا ما احتل الالمان المدينة ، اذ اعترته مشاعر حب الانتقام والشماتة .

ولم يكن مظهر فومين بسترته وربطة عنقه وساعته الذى كان موضع اعجاب شولجا ، يعود الى حبه للاناقة ، اذ كان شأن كل العمال يرتدون فى الاوقات العادية ملابس نظيفة تتسم بالبساطة بل لانه كان ينتظر من ساعة لاخرى قدوم الالمان ، وقد ارتدى افضل ما لديه حتى يروق فى انظارهم .

وقد ارتمى ماتفى كوستيفيتش مضرجا فى دمائه بعد ان نزل به اقسى العذاب فى زنزانة معتمة صغيرة فى النصف الثانى من نفس المبنى الخشبى حيث تواجد ستاتسينكو لدى رئيس الشرطة المساعد بريوكنر ثم لدى المساعد بالدر .

وقد كان هذا الجزء من المبنى حيث شيد عدد من الزنزانات تفصل فيما بينها ردهة ضيقة تعتبر امتدادا لردهة مقر الميليشيا ، هو مكان الاعتقالات الوحيد فى كراسنودون .

وقد كان جوهر «النظام الجديد» باديا فى ازدحام عدد من الزنزانات العامة وزنزانات الحبس الانفرادى التى شكلت دار الاعتقال ، بالرجال والنساء والمراهقين والشيوخ . وقد كان هؤلاء من ابناء المدينة والقرى والعزب المجاورة الذين اعتقلوا بتهمة كونهم من العمال السوفييت والفدائيين والشيوعيين واعضاء الكومسومول ، واناسا اهانوا قولا او فعلا الزى العسكرى الالمانى ، اناسا اخفوا اصلهم اليهودى ، واناسا لا يحملون ما يثبت هوياتهم ، وببساطة لانهم اناس .

لم يكونوا يقدمون لهؤلاء الناس طعاما تقريبا ، ولا يسمحون لهم بالخروج للنزهة او لقضاء الحاجة ، مما جعل الرائحة الكريهة التى لا تطاق تنتشر فى كل ارجاء الزنزانات التى تلوثت وتشبعت ارضيتها بالدماء والبول .

غير ان ماتفى شولجا ، او يفدوكيم اوستابتشوك كما جرى اعتقاله تحت هذا الاسم ، استقر فى زنزانة منفردة على الرغم من ان الزنزانات الاخرى كانت غاصة بالمعتقلين . كان قد تعرض للضرب كثيرا حين جرى اعتقاله وان كان قد ابدى ضروب المقاومة ، تساعده فى ذلك قوته البدنية الخارقة التى حالت طويلا دون السيطرة عليه . ثم تعرض للضرب هنا فى السجن . . . ضربه المساعد اول بريوكنر ، والمساعد بالدر وروتنفوهرر قوات الجستابو فينبونج

الذى القى القبض عليه والشرطى اجنات فومين ورئيس الشرطة سوليكوفسكى ، يحدوهم جميعا امل النيل من ارادته الصلبة وقبل ان يفيق لنفسه . غير انه كان من المستحيل ان يدلى ماتفى كوستيفيتش باية اعترافات فى ظل حالته الطبيعية ، ومن ثم يكون ذلك اكثر استحالة فى خضم نضال ضار يخوض اواره .

كان رجلا قوى البنية ، وها هو اليوم يرقد مضروبا مضرج الدماء ، وليس لان قواه قد انهكت بل طلبا للراحة . غير انه كان قادرا على الصمود ما تطلب الامر ، اذا ما اقتادوه مرة اخرى ... كان وجهه ينضح بالآلام ، تسيل الدماء من احدى عينيه ، بينما اضناه الألم من ضربة قضيب حديدى نزل به صف ضابط فينبونج على اعلى مرفقه . كما واضنته تصوراته بصدد تعذيب الألمان فى مكان ما وعلى نفس النمط لزوجته واولاده وبسببه هو شولجا ، فاقدا كل امل فى انقاذهم .

غير ان كوستيفيتش كان يئن تحت وطأة وعيه بانه وقع فى قبضة الاعداء دون ان يقوم بواجبه ، ونتيجة لخطأ ارتكبه بنفسه ، مما كان يفوق آلامه ومعاناته الجسدية والمعنوية .

وقد بدا له وللوهلة الاولى ان التفسير الطبيعى لما آلت اليه احواله ، يكمن فى خطأ اولئك الآخرين الذين حددوا له مكان اللقاء غير المضمون ، غير انه نفض عن كاهله وبعيدا عن مخيلته هذا التبرير بوصفه سلوى كاذبة للضعفاء .

وقد كان يدرك استنادا الى خبراته ان نجاح اية قضية اجتماعية لا يمكن الا ان يتوقف على مجموعة كبيرة من الناس يمكن للمرء مصادفة من يسىء تنفيذ المهمة الموكلة اليه ، او على الأقل يخطئ فى تنفيذها . غير انه ليس هناك سوى الانسان الضعيف معنويا ، او البائس هو الذى يعزو فشل القضية الخطيرة الهامة الى آخرين دونه . وقد كان صوت الضمير النقى الذى يجيش فى اعماقه يؤكد له انه شخص غير عادى ذو خبرة فى العمل السرى رشحته للقيام بهذه المهمة الخطيرة فى مثل هذه الظروف الاستثنائية حتى يتجاوز بارادته وخبراته وقدرته التنظيمية كافة الاخطار والمصاعب وسقطات واخطاء الآخرين الذين كان يتوقف عليهم نجاح تلك المهمة . وهذا هو ما جعل ماتفى كوستيفيتش عاجزا عن اتهام

الآخرين ، بل ولم يكن ليعزى اليهم سبب سقوطه . كما وكان وعيه وادراكه لكون انه لم يسقط وحسب ، بل ولم ينفذ واجبه ، يضنيان روحه اكثر من اية آلام اخرى يمكن ان تحيق به .

وقد ظل صوت الضمير الصادق الذى لا يهدأ يلح عليه مؤكدا انه المسؤول عن خطأ ارتكبه ذات يوم وفى مكان ما . وراح يستعيد فى مخيلته المرة تلو الاخرى كافة التفاصيل الدقيقة لسلوكه واقواله ، ومنذ تلك اللحظة التى توادع فيها مع ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو وليوتيكوف ودون ان يستطيع ادراك اللحظة والمكان اللذين سجلا خطاه .

لم يكن ماتفى كوستيفيتش يعرف فيما سبق ليوتيكوف ، ومع ذلك فقد اعترته مشاعر القلق والاضطراب بشأنه ، ولاسيما ان عليه وحده اليوم يتوقف نجاح المهمة التى اوكلت اليهما غير ان روحه كانت كثيرا ما تتوجه فى خضم آلامه الرهيبة واحزانه اللامحدودة الى بروتسينكو قائدهما وصديقه الشخصى ، وكانما تتساءل :

«ترى اين انت يا ايفان فيدوروفيتش ؟ او مازلت حيا ؟ او تصارع اولئك الاعداء الملاعين ؟ هل تفوقت عليهم قوة ودهاء ؟ او ربما تكون مثلى عرضة للعذاب والتنكيل ! ربما تكون الغربان تنهش عينيك المفعمتين مرحا ، بينما جسدك مسجى بالبرارى ...» .

الفصل التاسع والعشرون

انضم ايفان فيدوروفيتش بعد ان توادع مع ليوتيكوف وشولجا ، تصحبه زوجته الى فصيل الفدائيين الذى تمركز فى غابات ميتياكين على الضفة الاخرى من نهر الدونيتس . وقد اضطرا الى قطع مشوار طويل للالتفاف حول المساحات التى احتلها الالمان . واستطاع ايفان فيدوروفيتش رغما من ذلك نقل العربة الى الشاطىء الآخر والوصول الى القاعدة ، فى نفس الليلة التى وصلت فيها الدبابات الالمانية الى القرية التى سميت الغابات المجاورة باسمها .

يدور الحديث هنا عن غابات ، فهل يكون من الممكن مقارنة هذه

الادغال التى انتشرت فى تلك المساحة الصغيرة بغابات بيلوروسيا وبريانسك ، وطن المجد الفدائى ؟ ! لقد كانت منطقة غابات ميتياكين غير صالحة لاخفاء فصيل كبير من الفدائيين ، ومن ثم يكون من المستحيل القيام فيها باية عمليات عسكرية .

ولحسن الحظ ، كان الفدائيون قد غادروا القاعدة ليخوضوا المعارك ضد الالمان على طرق الاتجاه الغربى ، حين وصلها ايفان فيدوروفيتش برفقة زوجته .

وكم اسف ايفان فيدوروفيتش فيما بعد ازاء كونه لم يستخلص فى ايام وصوله ، ولم يكن قادرا على استخلاص كافة الاستنتاجات من تلك الفكرة البسيطة الواضحة التى تواردت الى خاطره وهى ان الفصيل الذى يكاد ان يكون اكبر فصائل الفدائيين فى المقاطعة لا يملك قاعدة خاصة به للاختفاء .

كانت مقاطعة فوروشيلوفجراد مقسمة الى عدة دوائر يترأس كلا منها سكرتير لجنة الحزب الاقليمية السرية . وقد كان ايفان فيدوروفيتش احد هؤلاء ، الذين كلفوا بالاشراف على عدد من لجان المنطقة ومجموعات العمل السرى الكثيرة التابعة لها . كما وكانت توجد مجموعات خاصة للاعمال التخريبية يخضع بعضها الى لجنة الحزب المحلية السرية ، بينما يخضع البعض الآخر الى لجنة المقاطعة ، اما البعض الثالث فيخضع مباشرة الى القيادة الاوكرانية او القيادة المركزية .

وقد كانت شبكة العمل السرى المتفرعة تقوم على اساس نظام مساكن اللقاءات واماكن الاختفاء وقواعد المواد الغذائية والتسليح ووسائل الاتصال – الآلية والبشرية . ويعتبر هذا النظام اكثر تعقيدا من حيث طابع الحفاظ على السرية . وقد كانت هناك تحت تصرف ايفان فيدوروفيتش شأن غيره من قادة العمل السرى بالمقاطعة ، وعلاوة على مساكن اللقاءات العادية فى الاحياء المختلفة ، مساكن تقتصر معرفتها عليه وحده ... بعضها للاتصال بقيادة اوكرانيا ، والبعض الآخر ، لاتصالات قادة العمل بالمقاطعة فيما بينهم ، اما البعض الثالث فللاتصال بقادة المناطق او بقادة الفصائل .

وكان يمارس نشاطه فى اراضى كل دائرة عدد من الفصائل الفدائية الصغيرة . علاوة على انه جرى تشكيل فصيل كبير الى حد

ما للعمل فى الدائرة ، وحيث تنص الخطة المبدئية على ان يتواجد بها سكرتير اللجنة الحزبية للمقاطعة المشرف على العمل السرى فى الدائرة ؛ اذ كانوا يعتقدون ان وجوده داخل فصيل الفدائيين الكبير يكفل له الامان النسبى ومن ثم حرية اكبر للحركة .

وقد كان مكان اللقاء الرئيسى لاتصالات قادة العمل السرى فى مقاطعة فوروشيلوفجراد بالنقطة الطبية فى قرية اوريخوفو الكبيرة التابعة لمنطقة اوسبينسكى . وكان ايفان فيدوروفيتش قد عين ربة ذلك المسكن فالنتينا كروتوفا الطبيبة المحلية وشقيقة كسينيا كروتوفا التى كانت تعمل لديه كمراسلة اتصال . هذا وبينما كان ايفان فيدوروفيتش ما يزال فى كراسنودون كانت كسينيا كروتوفا تعيش لدى شقيقتها الطبيبة ، وحيث كان من المفروض عليها ابلاغه باولى انباء الدوائر الاخرى بعد ان يحتلها الالمان .

وتوجه ايفان فيدوروفيتش الى فصيله بعد ان فوض مساعده بالقيام بمهام حراسة المواد الغذائية واسلحة الفدائيين فى غابات ميتياكين ، وفى ذات الوقت بسلطات رئيس الاتصالات بكافة الدوائر الاخرى . وقد قطع ايفان فيدوروفيتش طريقه سيرا على الاقدام ، حيث كانت كل المنطقة تعج بالقوات الالمانية . وكم كان ايفان فيدوروفيتش يمنى نفسه بانه سوف يستخدم عربته فى تنقلاته ، لدرجة انه احتفظ بكمية من البنزين تكفيه لمدة عام على اقل تقدير ، بينما تضطره الظروف الى تخزينها فى احد الكهوف الطينية بالغابة ، والذى اغلق مدخله . وقد ضحكت يكاتيرينا بافلوفنا التى كانت تقوم بمهمة الاتصالات والاستطلاع لدى زوجها ايفان فيدوروفيتش ، ساخرة ازاء هذا الوضع ، وراحا يقطعان سوية الطريق سيرا على الاقدام .

ولم تمض سوى بضعة ايام منذ تلك اللحظة التى قام فيها ايفان فيدوروفيتش بالاتفاق فى مقر لجنة الحزب بكراسنودون مع الجنرال قائد الفرقة حول طرق الاتصال . لكن كم تغيرت الظروف ! وبطبيعة الحال وفى هذه الظروف لم يكن هناك اى حديث عن تنسيق ما مع الفرقة . ذلك لانها كانت قد تمركزت آنذاك على ضفاف الدونيتس قريبا من كامينسك لتلك الفترة التى كان عليها الصمود فيها ، ولتفقد ما يزيد عن ثلاثة ارباع قوامها الذى لم يكن كاملا ، مما

دفعها الى التخلى عن مواقعها والرحيل فيما بعد . كانت خسائرها هائلة لدرجة بدت معها ابعد ما تكون عن الفرقة ، الا انه لم يكن ثمة من يستطيع القول انها «لقيت شر هزيمة» ، او «حوصرت» او «انسحبت» ، بل كان الجميع يقول «تراجعت» . وكانت حقا قد تراجعت حين انتشرت التشكيلات الالمانية الكبيرة فى تلك المساحات الشاسعة الواقعة بين الدونيتس الشمالى والدون .

كانت الفرقة تشق طريقها عبر الاراضى التى احتلها العدو ، تخوض البرارى والانهار والمعارك ، تستخدم الشواطئ شديدة الانحدار لنهيرات البرارى ، تظهر تارة هنا ، واخرى هناك . وفى الايام الاولى كانت الجماهير تردد اخبارها القتالية ايام كانت قريبة من المنطقة ؛ اما اليوم فقد انطلقت الفرقة بعيدا بعيدا نحو الشرق تسعى نحو ذلك الخط الذى حدد لها بعيدا كذلك ، مما جعل اخبارها تنقطع ، ولا تبقى سوى ذكراها فى قلوب افراد الشعب خالدة كما الاسطورة .

وقد راح فصيل الفدائيين الذى يترأسه ايفان فيدوروفيتش يعمل وحده وعلى نحو جيد ؛ اذ قام فى اولى ايامه بتحطيم عدد من وحدات العدو الفرعية الصغيرة فى معركة مكشوفة . . . قتلوا الجنود والضباط الباقين ، واضرموا النيران فى صهاريج البنزين واستولوا على عربات المؤن ، وتصيدوا الاداريين الالمان فى القرى لينفذوا فيهم احكام الاعدام . لم تبلغ ايفان فيدوروفيتش اية انباء عن نشاط فصائل الفدائيين الاخرى ، لكنه ادرك وبناء على الاحاديث التى يتناقلها الناس انها بدأت نشاطها كذلك على نحو جيد . ولقد كانت الاقاويل تبالغ فى بطولات الفدائيين ، وتلك امور لم تكن تعنى سوى ان نضالهم يلقى تأييد الشعب .

وحين قام العدو بتوجيه قواته الضخمة للتصدى لفصيل الفدائيين ، رفض ايفان فيدوروفيتش عرض القيادة بالعودة الى القاعدة وقام بارسائه عبر الدونيتش الى شاطئه الايمن سرا ، حيث اثار الهرج والمرج فى مؤخرة الالمان .

غير ان الصعوبات بدأت تواجهه يوما بعد يوم فى فضاء البرارى ، حيث المنطقة العامرة بالسكان ، وتجاورت المناجم والقرى والنجوع . كان الفصيل فى حركة دائمة تساعده فى الافلات دونما خسائر فطنة ودهاء ايفان فيدوروفيتش ، ومعرفته الممتازة بتضاريس المنطقة

وتسليحه الجيد . فالى متى يمكن المراوغة فى المكان بينما العدو يلاحقنا ؟

ولم تكن فصائل الفدائيين الكبيرة التى جرى تشكيلها على غرار فصائل الغابات او اراضى البرارى الشاسعة غير المأهولة ، تناسب مناطق الدونباس الصناعية الآهلة بالسكان . غير ان ايفان فيدوروفيتش لم يتوصل الى هذا الاستنتاج الا حين اوشكت الكارثة ان تحيق بالجميع .

جاءت كسينيا كروتوفا بتلك الانباء التى اصابته فى الصميم . لقد حوصر وتشتت قوام فصيل الفدائيين الكبير الذى كان يمارس نشاطه على مقربة من فوروشيلوفجراد ، اما سكرتير لجنة الحزب بالمقاطعة ياكوفينكو والذى كان موجودا مع الفصيل ، فقد لقى حتفه . ولم ينج من فصيل كادييفكا الذى جرى تشكيله على غرار فصيل ياكوفينكو وايفان فيدوروفيتش ، سوى تسعة مقاتلين برئاسة قائده . ولقد تكبد العدو ثلاثة اضعاف الخسائر التى الحقها بالفصيل ، غير انه ما من خسائر للعدو يمكن ان تخفف من فداحة الكارثة التى حلت بحرس مناجم كادييفكا الشهيرة ! وقد ابلغ قائد الفصيل ايفان فيدوروفيتش انه يقوم بتجنيد مقاتلين جدد ، الا انه سوف يعمل الآن مع مجموعات صغيرة . اما فصيل بوكوفو انتراتستوفسك فقد استطاع الافلات من الحصار بدون خسائر تذكر ، ليتفرق على الفور الى بعض الفصائل الصغيرة تعمل تحت قيادة موحدة . كما وعملت الفصائل الصغيرة فى مناطق روبيجانسكى ، وكريمينسكى وايفانوفسكى وغيرها من المناطق ،بنجاح ودون خسائر تقريبا . وقد عمل ومنذ البداية فصيل منطقة بوباسنيانسكى ، من اكبر فصائل المقاطعة ، فى مجموعات متفرقة تحت قيادة عامة ، حظيت بشهرة فائقة فى اوساط الجماهير التى اطلقت على الفصيل كنية «الرهيب» . اما الفصائل الجديدة التى تشكلت من تلقاء نفسها فى المناطق من السكان المحليين ومقاتلى وضباط الجيش الاحمر الذين تخلفوا عن وحداتهم ، فقد ظهرت كمجموعات فدائية صغيرة .

وتلك امور فرضتها الحياة .

لقد تلقى ايفان فيدوروفيتش هذه الانباء ، ولم يكن يبغى سوى بضع ساعات يستطيع فيها تقسيم فصيله الى مجموعات صغيرة ،

الا ان القدر لم ينعم عليه بتلك الساعات القليلات . فقد حاصرهم الالمان عند الفجر ، وها هى الشمس تميل نحو الغروب .

كان هناك بذلك المكان وذات يوم نهير تصب مياهـــه فى الدونيتس الشمالى ، الا ان مياهه كانت قد نضبت منذ زمن بعيد لدرجة ان سكان نجع ماكاروف يار القريب منه لم يعودوا يذكرون يوم كانت تجرى به المياه . فلم يبق من ذلك النهير سوى وهدة كثيرة الشجيرات ، ضيقة فى اعلاها ، وعريضة عند المصب مما جعلها تبدو اشبه بالمثلث . لقد كان المكان شريطا عريضا من الغابات التى اشرفت على شاطىء النهر .

رقد ايفان فيدوروفيتش وقد طالت لحيته رمادية الشعر الناعم داكنة ، بين شجيرات قصيرة عند قمة الوهدة ، اى فى اصعب القطاعات الدفاعية . وقد اصابت رصاصة المانية الجانب الايمن من راسه اصابة سطحية ، مطيحة بقطعة من جلده وشعره مما جعل الدم يسيل على فوده ، الا انه لم يشعر بذلك ، ولبث منبطحا مكانه يطلق نيران رشاشه ، بينما تسللت البرودة الى الرشاش المجاور .

كانت يكاتيرينا بافلوفنا ترقد على مقربة من زوجها تطلق النيران وقد علت امارات الشحوب والصرامة وجهها . كانت تحركاتها دقيقة ، نادرة ، مفعمة بالنشاط والرشاقة . وقد ظهرت وكانما توجه رشاشها بأناملها ، بينما استقر الى جوارها العجوز ناريجنى وهو مزارع من ماكاروف يار ، و«مدفعجى الحرب العالمية الاولى» ، كما كان يسمى نفسه .

وكان حفيد ناريجنى ، الصبى ذو الثلاثة عشر ربيعا الذى احاطت به صناديق الذخيرة ، يعمّر اسطوانات الرشاشات . اما فيما وراء الصناديق فكان يرقد فى منخفض من الارض ، ممسكا بسماعة التليفون مساعد القائد الذى لم يكن موجودا الى جوار ايفان فيدوروفيتش ، بل على شاطىء النهر يتمتم بلغة الرموز :

– ماما تسمعك . . ماما تسمعك . . من ؟ حسنا . . . يا عمتى ! تقول ان البرقوق قليل ؟ فلتاخذ من ابن اخيك . مامـــا تسمعك . . . ماما تسمعك . ان الامر عندنا على ما يرام . كيف الحال عندكم ؟ فلتمنحوهم الحرارة والدفء . ايتها الاخت ! ايتها

الاخت ! ايتها الاخت ! ماذا بك . هل ادركك النعاس ؟ ان شقيقك يطلب امداده بالنيران عند اليسار . . .

لقد كان ايفان فيدوروفيتش فريسة الافكار التى تضنى روحه ، ليس بشان احتمال هلاكه وهلاك زوجته ، وليس حتى الشعور بالمسؤولية ازاء حياة الآخرين ، بل لانه كان قادرا على التنبؤ بما يجرى لدرجة كانت تسمح له بتفادى هذا الوضع العصيب .

وعلى الرغم من كل شىء فقد قام بتقسيم فصيله الى بضع مجموعات عين لكل منها قائدا ونائبا للشئون السياسية ، وحدد لكل منها موقعها الذى سوف تتمركز به . وكان من المفروض ان يقوم القائد السابق للفصيل مع نائبه ورئيس اركانه بتولى امور احدى هذه المجموعات الصغيرة . وقد كان ينبغى على هؤلاء القيام بواجبات القيادة العامة لكافة الفصائل والتمركز ، نظرا لتعدادها الضئيل ، فى غابات ميتياكين .

وقد هيأ ايفان فيدوروفيتش القادة والمقاتلين لتقبل البقاء هنا فى الوهدة وحتى حلول الليل ، اما فيما بعد فقد قاموا برئاسته باختراق حصار العدو والعبور نحو البرارى . وقام ايفان فيدوروفيتش بغية تيسير الامور بعد اختراق الحصار ، تقسيم الفصائل الى مجموعات صغيرة يبلغ تعداد كل منها من ثلاثة الى خمسة افراد ، يجب ان تتولى امور انقاذ نفسها بنفسها . اما هو وزوجته فقد وعد العجوز ناريجنى باخفائهما لبعض الوقت .

وكان ايفان فيدوروفيتش يدرك ان جزء من رجاله سوف يلقى حتفه اثناء محاولة الافلات من الحصار ، بينما يقع آخرون فى قبضة الاعداء ، الى جانب البعض الذى سوف يتسلل الرعب الى قلوبهم ليدفعهم بعيدا عن قاعدة الفدائيين . وقد جثم كل ذلك العبء المعنوى على كاهل ايفان فيدوروفيتش يقض مضاجعه . غير انه لم يفصح عن معاناته ، بل على العكس كانت ايماءاته ووجهه وكل سلوكه انعكاسا مناقضا لما كان يجيش باعماقه . وراح ايفان فيدوروفيتش يوجه نيرانه الى الاعداء ، فيما يتبادل النكات مع العجوز ناريجنى ربع القامة قصيرها ، تعلو الحمرة وجهه ذا اللحية صغيرة داكنة اللون ، والقابع فى مكانه بين الشجيرات .

اما وجه ناريجنى فقد كان يتسم بامارات مولدافية ، بل هى

اقرب الى التركية ، اذ كانت لحيته شعثاء سمراء ، وعيناه سمراوين سريعتى الحركة . كما كان نحيفا ، كنبتة جففتها الشمس ، عريض المنكبين ، قوى الساعدين ، مفعم بالطاقة على الرغم من انه كان يبدو بطىء الحركة .

وعلى الرغم من حرج موقفهما ، فقد بديا سعيدين بتجاورهما ، وقانعين بحديثهما بسيط الجوهر .

فقد كان ايفان فيدوروفيتش عقب كل نصف ساعة تقريبا يتساءل فيما تومض عيناه دهاء :

– كيف الحال يا كورنى تيخونوفيتش ، اليس الجو حارا ؟

وكان كورنى تيخونوفيتش يجيبه على نفس المنوال :

– لا استطيع القول انه بارد ، علاوة على انه ايضا ليس حارا يا ايفان فيدوروفيتش .

اما وحين كان الالمان يقتفون اثرهما ، ويصبحون قريبين منهما ، كان ايفان فيدوروفيتش يقول :

– آه ... لو كانوا يحملون مدافع الهاون ... لاصبح الجو حارا بالفعل يا كورنى تيخونوفيتش . اوليس ذلك حقا ؟

واجابه كورنى تيخونوفيتش مجاريا اياه :

– انهم كانوا فى حاجة الى خزين هائل من الالغام يمكن ان يكفى كل هذه الغابة .

وعلى حين غرة وفيما بين هدير الرشاشات تعالت اصوات محركات تتنامى على البعد من ناحية مكاروف يار ، مما جعلهما يتوقفان ثانية من الزمن عن اطلاق النيران .

– هل تسمع يا كورنى تيخونوفيتش ؟

– نعم .

وراح ايفان فيدوروفيتش يجيل النظر فى حذر تجاه زوجته ومط شفتيه بما يعنى ضرورة التزام الصمت .

كان فصيل من راكبى الموتوسيكلات يقطع الطريق الذى لم يكن باديا من ذلك المكان . لا ريب ان ثمة من سمع هدير محركات موتوسيكلاتهم فى كافة ارجاء الوهدة ، حيث راح التليفون يعلن عن نفسه بشكل محموم .

كانت الشمس قد بارحت الافق منذ زمن ، الا ان القمر لم يكن

قد اعتلى السماء بعد ، ولم تسدل الظلمة ستائرها ، بينما عمرت السماء بكثير من الالوان الزاهية ، التى تمازجت فيما بينها وانعكست على الارض والاشجار والشجيرات ، وعلى وجوه المقاتلين واسلحتهم والطلقات الفارغة التى تناثرت وسط الاعشاب ، ضوءا غريبا بدا يتلاشى وكانما يستقر فى اعماق الظلمة ، وهكذا ولبضع لحظات لا غير سادت المكان هذه الصورة غير المحددة الاطر ... فلم يكن ذلك نهارا ، كما ولم يكن مساء . وفجاة بدا الرذاذ او الندى يتبدد بعيدا عن الهواء ليتساقط فوق الشجيرات والارض حيث تتزايد كثافته .

وانتشر هدير محركات الموتوسيكلات من ناحية ماكاروف يار ، ليعم كل ارجاء المنطقة . وتعالى صوت تبادل اطلاق النيران تارة هنا واخرى هناك ، يحتد على نحو خاص قريبا من النهر .

والقى ايفان فيدوروفيتش بنظرة الى ساعته ، ليخاطب مساعده عند التليفون قائلا :

– الانسحاب فى تمام الساعة التاسعة !

وكان ايفان فيدوروفيتش قد اتفق مع قادة مجموعات الفدائيين التى انتشرت بالدغلة على ان تتجمع وفقا لاشارته كل المجموعات فى انحاء الاخدود المطل على البرارى قريبا من شجرة البتولا القديمة ، ومن حيث يتوجب عليها بدء محاولة اختراق الحصار . وكانت اللحظة المناسبة قد حانت .

وبغية خداع الالمان ، كان من المفروض على المجموعتين اللتين توليتا الدفاع عن الدغلة عند مشارف النهر الانتظار بعد رحيل المجموعات الاخرى ، والتحرك كانما فى محاولة اخيرة لعبور النهر . وجال ايفان فيدوروفيتش بنظره سريعا فيما حوله ، بحثا عمن يمكن ارساله اليهما .

وقد كان هناك شاب عضو بالكومسومول يدعى يفجينى ستاخوفيتش من ابناء كراسنودون موجودا ضمن الفدائيين المدافعين عن قمة الوهدة ؛ وكان قبيل وصول الالمان يدرس فى مدرسة قادة الدفاع الجوى والكيميائى بفوروشيلوفجراد . كما وكان متميزا بين الفدائيين بمعلوماته الغزيرة وسلوكه المتحفظ وسمات رجل النشاط الاجتماعى التى تجلت لديه فى وقت مبكر . وكان ايفان

فيدوروفيتش قد اختبر ستاخوفيتش فى مختلف القضايا على امل الاستفادة منه فى الاتصال برجال العمل السرى فى كراسنودون . وها هو يرى الى يساره وجهه الذى علته امارات الشحوب وقطرات العرق ، منكوش الشعر الاصفرالذى كان يستقر دائما فيما سبق متموجا فوق راسه المرفوع فى تباه . كان القلق يعترى الشاب ، غير انه لم يتراجع الى اعماق الوهدة حتى لا يكون ذلك مساسا بكرامته ، مما كان موضع اعجاب ايفان فيدوروفيتش الذى قام بتكليفه بالمهمة المرجوة .

واذ انتزع يفجينى ستاخوفيتش ابتسامة رسمها على شفتيه ، انطلق نحو شاطىء النهر وقد التصق جسده النحيف بالارض .

وذكر بروتسينكو يخاطب العجوز الجسور الذى بقى مع مجموعة الفدائيين لتامين الانسحاب :

– عليك الا تتاخر يا كورنى تيخونوفيتش !

ومنذ تلك اللحظة التى بدا فيها الفدائيون الذين كانوا قد اختبئوا قريبا من النهر ، فى استعراض محاولتهم لعبور النهر ، كانت قد احتشدت على شاطىء الدونيتس قوات الالمان الرئيسية ، توجه كل نيرانها الى ذلك الجزء من الغابة ونحو النهر . وتمازجت اصوات وحفيف الطلقات لتشكل هديرا مكثفا مما بدت معه كانما تتساقط من عل ، ليتنفس المقاتلون الاتربة التى تحمل ذرات الرصاص .

واذ ابلغ ستاخوفيتش امر بروتسينكو الى قائد الفصيل ، قام الاخير بارسال الجزء الاعظم من الفدائيين الى نقطة التجمع ، فى الاخدود بينما لزم مواقعه برفقة اثنى عشر مقاتلا لتامين الانسحاب . وقد كان ستاخوفيتش يشعر بالرهبة فى ذلك المكان ، لتراوده رغبة الرحيل مع الآخرين . غير ان ذلك لم يكن لائقا ، ولذا فقد استغل فرصة انشغال الآخرين ، وانبطح بين الشجيرات الصغيرة ، يدفن وجهه بالارض رافعا ياقة الجاكتة بغية سد اذنيه بعض الشىء .

ولقد كان من الممكن ان تترامى الى الاسماع اصوات القادة الالمان يطلقون اوامرهم ، حين تخف حدة تركيز النيران التى كانت تصم الآذان ، وقد توغلت بعض المجموعات الالمانية فى الغابة من ناحية مكاروف يار .

وذكر قائد الفصيل على حين غرة :

– لقد حان الوقت ايها الرجال . هيا سريعا !

وتوقف الفدائيون عن اطلاق نيرانهم واندفعوا خلف قائدهم . وعلى الرغم من ان العدو لم يخفف من نيرانه وحسب ، بل على العكس زاد من كثافتها . اما الفدائيون الذين كانوا يهرولون بالغابة فقد تخيلوا الصمت المطبق يخيم عليها ، غير انهم شاهدوا بالاخدود اشباح رفاقهم يرقدون متجاورين تدثرهم ظلمة المكان .

وذكر ايفان فيدوروفيتش الواقف الى جوار شجرة البتولا القديمة ، يعلن استحسانه :

– تمنياتى بالتوفيق ! هل ستاخوفيتش هنا ؟

واجاب القائد دونما تفكير :

– نعم هنا !

وتلفت الفدائيون فيما حولهم بحثا عن ستاخوفيتش الذى لم يكن موجودا .

وراح القائد ينادى بصوت خافت متأملا وجوه الفدائيين بالاخدود :

– ستاخوفيتش !

غير ان ستاخوفيتش لم يكن موجودا .

واعترى الغضب بروتسينكو ليصيح قائلا :

– ماذا اصابكم ايها الرجال حتى تفقدوا عقولكم . لعل رصاصة اصابته دون ان تشعروا ! ولربما تكونوا قد تركتموه جريحا !

واجاب القائد غاضبا :

– او صغير انا يا ايفان فيدوروفيتش ؟ لقد كان معنا حين غادرنا المكان . كما قطعنا الطريق متجاورين دون ان يفقد اى منا الآخر .

وفى تلك اللحظة شاهد ايفان فيدوروفيتش شبح العجوز ناريجنى يزحف فيما بين الشجيرات على الرغم من تقدمه فى السن ، يتبعه حفيده ذو الثلاثة عشر عاما وبعض المقاتلين الآخرين .

وصاح ايفان فيدوروفيتش يقول بنبرة لم تخف ما يجيش بكيانه :

– يا لك من صديق صدوق !

والتفت فجأة ليقول بصوت رقيق يسمعه الجميع :

– استعد !

وبدت اشباح الفدائيين الذين انبطحوا ارضا ، وكانما يوجد ما يجمعها بحيوانات الوشق .

وذكر ايفان فيدوروفيتش بصوت خافت :

– كاتيا . . لا تتخلفى عنى . اننى اذا ما . . . – واشـــاح بيده ، ليمضى قائلا : اعذرينى .

ومالت براسها بعض الشىء لتقول :

– فلتعذرنى انت . اذا ما بقيت حيا ، واذا ما حدث لى . . .

وقاطعا قائلا :

– نفس الامر بالنسبة لى . . . فلتذكرى لاولادنا ما حدث . لقد كان ذلك كل ما ذكره كل منهما للآخر .

وصاح بروتسينكو بصوت خافت :

– افتح النيران ! الى الامام !

وكان اول من بارح الاخدود منطلقا نحو الامام .

ولم تكن ثمة فرصة لتحديد تعداد من بقى منهم وكم من الزمن تطلبه مشوارهم . وبدا لهم ان الانفاس والقلوب قد فارقتهم ؛ ليعدو بعضهم فى صمت ، بينما واصل البعض الآخر اطلاق النيران من الحركة . وقد التفت ايفان فيدوروفيتش الى الخلف ليقع نظره على كاتيا وناريجنى وحفيده مما كان يضاعف من قوته .

وفجأة تعالى من خلفهـــم وعلى يمين البرارى هدير محركات موتوسيكلات حملته رياح الليل بعيدا . كما تعالى الهدير فى مكان ما الى الامام مما بدا معه ان ثمة من حاصر المقاتلين من كافـــة الجهات .

واصدر ايفان فيدوروفيتش اشارته ، لينتشر المقاتلون فى كافة الارجاء ، يزحفون كالافاعى فى صمت ، تهديهـــم اضواء القمـــر الخافتة ، وتساعدهم تضاريس المنطقة . واختفى الجميع الواحد تلو الآخر ليصبحوا على التو اثرا بعد عين .

ولم تمض سوى بضع دقائق حتى بقى ايفان فيدوروفيتش وكاتيا وناريجنى وحفيده وحدهم بالبرارى تغمرهم اشعة القمر . كانوا قد

وصلوا اراضى المزرعة التعاونية التى امتدت لمسافة عدد مـــن الهكتارات والى ما وراء التل الطويل .

وذكر ايفان فيدوروفيتش مرتميا على الارض :

– انتظر يا كورنى تيخونوفيتش . لست قادرا على التقاط انفاسى .

واندفع اليه العجوز يقول له وقد انبعثت انفاسه الدافئة لتغمر وجهه :

– فلتستجمع قواك يا ايفان فيدوروفيتش ! اننا لا نملك حق الراحة ! هناك قرية خلف ذلك التل ، يستطيعون فيها اخفاءنا .

وراحوا جميعا يزحفون فى اثر ناريجنى الذى كان غالبا ما يلتفت نحو ايفان فيدوروفيتش وكاتيا بوجهه الداكن ذى العينين الثاقبتين واللحية الجعداء السمراء .

وزحف الجميع حتى وصلوا الى اعلى التل حيث انبسطت امامهم القرية ذات المساكن البيضاء والنوافذ السمراء . وقد كانت بداية القرية على مسافة مائتى متر من ذلك المكان الذى بلغوه ، بينما كانت مزرعة البطيخ تمتد حتى الطريق الواقع بمحاذاة اول مساكن القرية . وفى نفس اللحظة التى بلغوا فيها اعلى التل ، اندفعت تنهب نفس ذلك الطريق مجموعة من راكبى الموتوسيكلات الالمان التى انعطفت الى داخل القرية .

كانت نيران الرشاشات تدوى كما فى السابق تارة هنا ، واخرى هناك . وكان يبدو احيانا ان ثمة من يرد على هذه النيران بالمثل ، لتدوى تلك الاصوات التى تعالى صداها ليلا فى اعماق كيان فيدور فيدوروفيتش الما وحزنا . اما حفيد ناريجنى الذى كان لون بشرته ضاربا الى البياض ، لا يربطه بجده ادنى شبه ، يرفع ناظريه الطفوليين فى تساءل وحيرة نحو ايفان فيدوروفيتش الذى كان من الصعب عليه مواجهتهما .

وفى القرية مارت كعوب الرشاشات تدق الابواب واصوات تتعالى بالسباب بالالمانية ، يعقبها صمت يطبق على المكان تقطعه على حين غرة صيحة طفل او عويل امراة يتحول الى بكاء ، ليتعالى ثانية عويلا مشوبا بالتوسل يمزق جدران الصمت . وكان احيانا يتعالى فى داخل القرية ، وقريبا منها هدير موتوسيكل وربما بضعـــة

موتوسيكلات ، تبدو احيانا فصيلا بأكمله . وكان القمر قد توسط كبد السماء يرسل اشعته الوضاءة ، بينما كان ايفان فيدوروفيتش وكاتيا التى سحج حذاؤها قدمها مما جعلها تئن من الالم ، وناريجنى وحفيده يرقدون على الارض مبللين ، فيما تسللت البرودة الى اوصالهم ، وليظلوا على هذا الحال حتى اطبق الصمت على القرية والبرارى .

وهمس ناريجنى :

– لقد حان اوان التقدم . سوف نتقدم زحفا الواحد تلو الآخر .

تعالى بالقرية دبيب خطوات الحراس الالمان ، ونادرا ما كانت تومض ولاعة او عود ثقاب ، تارة هنا واخرى هناك . ولبث ايفان فيدوروفيتش وكاتيا مكانهما فى الاعشاب خلف احد المساكن الكائنة فى منتصف القرية . اما ناريجنى وحفيده فقد عبرا السياج الى الداخل ، ليبتلع الصمت بعض الوقت كل اصواتهما .

وتعالت صيحات الديكة ، مما جعل ايفان فيدوروفيتش يضحك سخرية . وهمست كاتيا متسائلة :

– ماذا بك ؟

– لقد ذبح الالمان كل ديوك القرية ، ولم يبق منها سوى اثنين او ثلاثة يتصايحون فى كل انحاء القرية .

وللمرة الاولى يتأمل كل منهما الآخر فى تمعن ، مما جعل الابتسامة ترتسم على انظارهما . وفى تلك اللحظة تعالى همس ينادى من وراء السياج :

– اين انتما ؟ تعاليا الى المنزل .

كانت عجوز فارعة القامة نحيفة تتسم بامارات القوة تعصب راسها بمنديل ابيض ، تتمعن النظر اليهما عبر السياج ، بعينين سمراوين راحتا تومضان تحت اشعة القمر . وقالت :

– فلتنهضا . ليس هنا احد .

ومدت يدها الى كاتيا تعاونها فى عبور السور .

وتساءلت كاتيا بصوت خافت :

– ما اسمك ؟

– مارفا .

وسألها ايفان فيدوروفيتش فيما ترتسم على شفتيه ابتسامة

مشوبة بالسخرية والأسى حين استقر برفقة كاتيا والعجوز وحفيده حول مائدة تضيئها اشعة مصباح زيت :

– كيف حال النظام الجديد ؟

واجابته مارفا فى خجل فيما ترنو الى ايفان فيدوروفيتش بعينيها السوداوين اللتين تتسمان بامارات انوثة برية .

– النظام الجديد . . . لقد جاء المانى من مقر الحاكم العسكرى ، ليفرض علينا تقديم ستة لترات لبن عن كل بقرة يوميا ، وتسع بيضات لقاء كل فرخة شهريا !

كان عمرها يناهز الخمسين ، الا ان كافة ايماءاتها وحركاتها حين كانت تقدم الطعام ، وترفع الاوانى عن المائدة تتسم بما ينم عن شباب ومهارة . وكان المسكن النظيف الذى تزينه المفارش الاوكرانية المطرزة عامرا بالصبية الذين يصغر كل منهم الآخر . وقد ايقظت مارفا ابنها البالغ من العمر اربعة عشر عاما ، وابنتها ذات الاثنى عشر عاما ليتوليا الحراسة بالشارع الى جوار المنزل . ومضت تقول :

– لقد صدر منذ اسبوعين قرار جديد بتسليم الحيوانات . ولك ان تتصور قريتنا ذات المائة بيت تقريبا ملزمة بتسليم عشرين بقرة . هاكم هو النظام الجديد !

وذكر العجوز ناريجنى :

– لا تبتئسى يا عمة مارفا ! اننا نعرفهم منذ عام ١٩١٨ . انهم سوف يرحلون بسرعة كما حلوا بسرعة !

وانفجر ضاحكا لينفرج ثغره عن اسنان قوية ، ووميضت عيناه ذات السمات التركية بوجهه الاسمر الذى لفحته الشمس ، على نحو يتسم بالجسارة والدهاء .

وقد كان من الصعب تصور الجالس الذى يقول ذلك ، هو نفس الشخص الذى كان يواجه الموت وجها لوجه منذ لحظات .

ورمى ايفان فيدوروفيتش كاتيا بنظرة جانبية ، ليجد قسمات وجهها الصارمة قد ذابت فى ابتسامة طيبة . ولاحظ ان هذين العجوزين قد اعادا النضارة والصبا اليه وزوجته بعد تلك الايام الطويلة التى خاضا فيها المعارك ، وبعد ذلك الفرار المريع .

وذكر ايفان فيدوروفيتش وهو يغمز للعجوز بعينه مشيرا

بايماءة من راسه الى المائدة التى غطتها مارفا بالزبد والجبن والبيض المقلى بوحى من مشاعر الكرم الفياض :

– اننى ارى يا عمة مارفا الكثير مما لديك على الرغم من كل ما سلبوه منك !

وعلقت مارفا على ذلك ضاحكة تعلو وجهها حمرة الخجل التى تتسم بها الفتيات ، وبصراحة مشوبة بالخشونة مما جعل ايفان فيدوروفيتش والعجوز يدفنان وجهيهما بين راحاتهما ضاحكين ، بينما ارتسمت الابتسامة على شفتى كاتيا :

– لعلكم لا تعرفون ان المنـــزل الاوكرانى عامر دائمـــا بالماكولات ، وبما لا يمكن سرقته ونهبه ما دامت ربته على قيد الحياة .

ثم اضافت ضاحكة :

– لقد قمت باخفاء كل شىء !

وذكر بروتسينكو وهو يهز راسه :

– يا لك من امراة ذكية . او تعملين حاليا فى المزرعـــة التعاونية ام فضلت الابقاء على الملكية الفردية ؟

واجابت مارفا :

– اننى على ما يبدو فى اجازة من المزرعة التعاونية والى ان يرحل الالمان . اذ انهم يظنون اراضينا المانية ، او كما يقولون تابعة للرايخ ؟ اليس كذلك يقولون يا كورنى تيخونوفيتش ؟

وذكر العجوز ضاحكا فى سخرية :

– فليذهب هذا الرايخ الى الشيطان !

– لقد جرت بالاجتماع تلاوة ورقة ، يبدو ان كاتبها كان يدعى روزينبرج . وقد قال ذلك الروزينبرج ان من يعمل فى خدمة الرايخ سوف يحصل على الارض لاستخدامه الشخصى . كما وكانوا يذهبون بنا لحصاد القمح بالمناجل ليصادروا المحصول ويبعثون به الى المانيا . اما نحن النسوة واللاتى نسين حصاد القمح بالمناجل ، كنا نخرج الى الحقول لنرقد فى ظلال ميدان القمح نستمتع بالنوم .

وتساءل ايفان فيدوروفيتش :

– والعمدة ؟

واجابته مارفا :

– انه من ذوينا !

وعلق بروتسينكو على ذلك وهو يهز راسه :

– يا لك من امراة ذكية . واين زوجك ؟

واجابت فى جدية :

– تسالنى اين زوجى ؟ انه بالجبهة . . زوجى جوردى كورنينكو يقاتل بالجبهة .

وتساءل ايفان فيدوروفيتش فجاة :

– فلتقولى صراحة ... ان لديك عددا كبيرا من الاطفال ، بينما تقومى بايوائنا . الا تخافين على نفسك واولادك ؟

واجابته صراحة وهى تتامله بعينيها السوداوين :

– كلا ... اننى لا اخافهم ، حتى وان قطعوا راسى . اننى اعلم ثمن تضحياتى . واسالك بدورى . . هل انت على اتصال برجالنا فى الجبهة ؟

واجابها ايفان فيدوروفيتش :

– نعم !

وذكرت بنبرة تنم عن ايمان وثقة :

– اذن فلتقل لهم كى يحاربوا حتى النهاية ، وان لا يضنوا بحياتهم . واقول . . فليضحى ابونا بحياته – لقد قالت «ابونا» وكانما تتحدث باسم اولادها ، فيما تقصد زوجها – له ان يستشهد بالمعركة التى نعرف ما دعاه الى خوضها ، واذا ما عادت السلطة السوفييتية فسوف تكون ابا لاولادى !

وللمرة الثالثة عاد ايفان فيدوروفيتش يقول فى رقة وقد نكس راسه بعض الوقت :

– يا لك من امراة ذكية !

وتركت مارفا العجوز ناريجنى وحفيده لقضاء الليل بالمسكن ، بينما قامت باخفاء الاسلحة ، ودونما خوف . اما ايفان فيدوروفيتش وزوجته كاتيا فقد رافقتهما الى قبو مهجور بارد رطب تغطيـــه الحشائش ، قائلة فى خجل :

– ان المكان رطب بعض الشىء ، ولذا فقد حملت لكما بعض الدريس وبطانيتين .

ولبثا مكانهما فوق الدريس يجلسان وحيدين صامتين بعض الوقت ، تلفهما الظلمة الحالكة .

وفجأة احاطت كاتيا بيديها الدافئتين راس ايفان فيدوروفيتش لتسنده الى صدرها ، ولتجتاح كيانه بعض المشاعر الرقيقة . وقال :

– كاتيا ! يجب علينا تدبير كل العمل الفدائى على نحو مغاير .

واضطربت مشاعره ليمضى قائلا وقد تخلص من احضانها :

– على نحو مغاير تماما ! كم تؤلمنى روحى . كم يتمزق فؤادى ازاء اولئك الذين لقوا حتفهم بسبب عدم مقدرتنا على تنظيم العمل ! لعلهم لم يموتوا جميعا ! قد تكون الغالبية قد استطاعت الافلات من الحصار .

كان يقول ذلك على نحو يبحث به عن السلوى والدعم . واستطرد يقول فى حنق دون ان يلحظ تحوله الى اللغة الاوكرانية التى كان يخاطب بها مضيفته ، وعلى الرغم من ان زوجته يكاتيرينا بافلوفنا كانت روسية :

– لا بأس يا كاتيا . . لا بأس ! اننا سوف نجد عوضا عنهم بين افراد الشعب الآلاف من امثال ناريجنى ، ومارفا . . سوف نجد الآلاف ! . . كلا ! ولئن كان هذا الهتلر قد وصم بالحماقة كل الامة الالمانية ، فلا اعتقد انه قادر على خداعى انا ايفان بروتسينكو .

الفصل الثلاثون

تماما على نفس النحو الذى لا تلحظ فيه العين البشرية كيف تنساب المياه الجوفية تحت جذوع الاشجار والاعشاب ، عبر شقوق الارض وممراتها الضيقة ، كانت ملايين الرجال والنساء والاطفال والمسنين من كافة القوميات التى تقطن بلادنا تتحرك من مكان لآخر فى ظل السلطة الالمانية عبر الطرق بالغابات والجبال والبرارى والوهاد واسفل ضفاف الانهار ، وفى شوارع وحوارى المدن والقرى ، وبالاسواق العامرة بالروّاد .

كانوا يسيرون ارتالا لا حصر لها من الفدائيين ورجال العمل السرى وجماعات التخريب ، وافراد الدعاية والاستطلاع فى مؤخرة العدو ، وافراد استطلاع جيش عظيم لشعب عظيم ، طردوا من

اراضيهم ، ليعودوا ثانية اليها ، يبحثون عن مكان لا يعرفهم فيه احد ، يعبرون خطوط الجبهة الى الاراضى السوفييتية الحرة ، ويفلتون من الحصار ، ويهربون من الاسر او معسكرات الاعتقال ، او ارغمتهم الحاجة على الرحيل بحثا عن المأكل والملبس ، يحملون السلاح للتصدى للعدو .

وعبر الطريق الممتد من نهر الدونيتس عبر البرارى وتحت اشعة الشمس الحارقة كان يسير شخص قصير القامة متورد الوجه فى ملابس ريفية بسيطة ، ذو لحية ناعمة داكنة اللون يحمل على ظهره كيسا لقد كان يسير شأنه شأن الكثيرين ، لا يختلف عنهم فى شىء . فكيف لنا ان نعرف هويته ؟ لقد كان ذا عينين زرقاوين . فهل كان من الممكن تمعن النظر فى اعين الجميع لمعرفة كنه كل منهم ؟ كما وقد تكون عيناه خير تعبير عن الدهاء ، فى نفس الآن الذى تبدوان فيه عينين عاديتين فى انظار صف الضباط بل وحتى الضباط الالمان .

لقد دخل ذلك الرجل قصير القامة ، فى ملابسه الريفية ، ولحيته داكنة اللون مدينة فوروشيلوفجراد ليضيع فى خضم زحامها . فما الذى دعاه الى زيارة المدينة ؟ ربما يكون قد جاء الى السوق لتصريف ما يحمله من زبد او جبن او اوزة لقاء مسامير او ملح او قماش ؟ وربما يكون بروتسينكو ذاته ، ذلك الانسان الرهيب القادر على تقويض سلطة الدكتور شولتس مستشار القسم السابع للادارة العسكرية ، تلك السلطة التى غدت فى بشاعتها مضرب الامثال !

وفى البيت الخشبى الكائن فى ضاحية مستعمرة المناجم الصغيرة عند اعلى الوهدة الضيقة داكنة اللون الممتد حتى البرارى ، وبغرفة صغيرة غطت بطانية نافذتها الوحيدة ، وفى ظل اشعة مصباح زيت جلس شخصان . . . رجل متهدل الوجه ، تقدم به السن كثيرا ، وفتى مفعم بالقوة ذو عينين واسعتين واهداب ذهبية .

كان ثمة شىء مشترك يجمع ما بين الفتى وسميره العجوز ، فقد جلس كلاهما انيق الملبس ، بربطة العنق ، فى مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وفى مثل هذه الايام العصيبة للاحتلال الالمانى .

وذكر العجوز ، بينما بدا وكأنما ليس ضوء مصباح الزيت

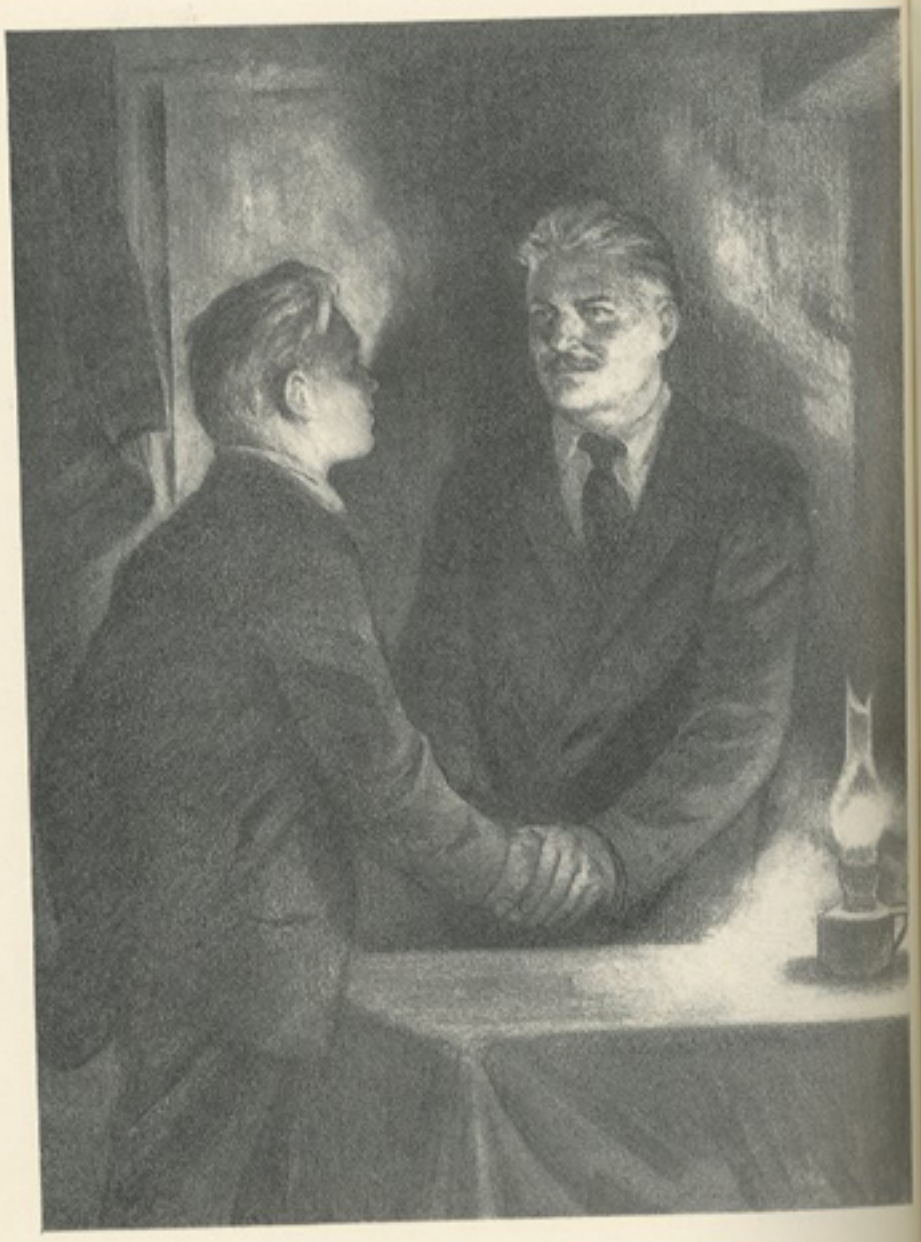

الداهن ، بل بصيص اضواء المعارك القديمة ينعكس فى اعمـــاق عينيه :

– فلتعودوا انفسكم ايها الشباب على الفخر باراضينا ... بالدونباس . هل تذكر كيف ناضل رفاقنا القدامى : ارتيم ، وكليم فوروشيلوف وبارخومينكو ؟ هل تذكر ذلك ؟ وهل ستستطيع محادثة رفاقك عن ذلك ؟

وجلس الشاب منكس الراس الى كتفه اليسرى التى علت اليمنى قليلا على نحو ينم عن سذاجة . واجاب يقول فى تاتاة خفيفة :

– اذكر . . استطيع !

ويمضى العجوز فى حديثه قائلا :

– هل تعرف مفاخر اراضى الدونباس ؟ لقد كنا نقوم بواجبنا دائما وبشرف مهما كانت الظروف ، فى سنوات الحرب الاهلية ، وبعدها وفى سنى الخطتين الخمسيتين الاولى والثانية ، واليوم ... وفى غمار هذه الحرب ! عليك ان تذكر كل ذلك للصبية ...

وتوقف العجوز برهة من الزمن ، بينما لبث الصبى ينظر اليه فى احترام وصمت . ومضى العجوز يقول :

– ولتتذكروا دائما ان اليقظة هى ام العمل السرى .

ثم تساءل فى جدية :

– هل شاهدت فيلم «تشابايف» ؟

– نعم ، شاهدته .

– ما سبب استشهاد فاسيلى ايفانوفيتش تشابايف ؟ لقد لقى حتفه لأن النوم غلب حراسه مما جعل الاعداء يصلون اليه . فلتتسلحوا باليقظة ، ليل نهار . كما وعليكم المبالغة فى الحرص . هل تعرف بولينا جيورجيفنا سوكولوفا ؟

– نعم ، اعرفها .

– كيف تعرفت عليها ؟

– كانت تعمل مع امى فى التنظيم النسائى ، علاوة على انهما ما تزالان صديقتين .

– حسنا . يجب عليك اخطار بولينا جيورجيفنا بكل ما يفترض ان يعرفه كلانا . اما حلقة الوصل العادية فسوف يظل اوسموخين ، شأن اليوم ، حيث يستحيل علينا اللقاء فيما بعد .

وفجأة علت الابتسامة وجه ليوتيكوف وكأنما رغبة منه فى الحيلولة دون ان تظهر امارات الغضب او الاسى وربما الاعتراض على وجه الصبى .

غير ان وجه اوليج لم يعكس ايا من هذه المشاعر . فقد بلغت ثقة فيليب بيتروفيتش به حد السماح له بزيارته بمنزله ، وفى مثل هذه الساعة التى يحظر فيها التجول بالمدينة ، مما جعل قلبه مفعما بمشاعر الفخر والوفاء اللامحدود . واضاءت ابتسامة طفولية عريضة وجهه ليقول فى مرح بالغ :

– شكرا .

استغرق الفتى المجهول وقد اصابت البرودة اوصاله فى النوم بمكان منخفض فى البرارى ، لتتسلل اشعة الشمس اليه تبعث اليه بدفئها ، وتجعل البخار يتصاعد من ملابسه ؛ كما وجففت آثاره التى تركها على الاعشاب حين خرج من النهر . لا ريب انه كان منهكا بعد ان قطع النهر سباحة ، اذ ادركه النعاس بالبرارى فى ملابسه المبتلة .

بيد ان الفتى استيقظ من نعاسه تحت وقع اشعة الشمس ، وطفق يسير وقد تموج على نحو غير متناسق شعره الاصفر الذى بدا جافا جميلا . وقد قضى ليلته الثانية فى احدى شقق مستعمرة المناجم ، حيث آواه اصحابها لانه من نفس المنطقة ، من كراسنودون ، كان يتلقى تعليمه فى فوروشيلوفجراد . وها هو اليوم يعود الى بيته ، يدخل مدينته فى وضح النهار . لم يكن يعرف ما حل بوالديه ، وما اذا كان يقيم لديهما المان . ولذا فقد عرج فى البداية على رفيق الدراسة فولوديا اوسموخين ، والذى كان يقيم لديه الالمان فيما سبق .

– جينيا ! من اين انت قادم ؟

غير ان رفيق فولوديا تساءل بلهجته الرسمية المشوبة بشىء من التفاخر :

– فلتحدثنى بادىء ذى بدء عن اخبارك !

لقد كان ذلك الفتى يفجينى ستاخوفيتش ، عضو الكومسومول والذى يمكن الحديث معه بكل صراحة وبطبيعة الحال عن وجهات

النظر والآراء وليس عن شئون التنظيم . وراح فولوديا يتحدث معه عن كل ما يتعلق به شخصيا .

وذكر ستاخوفيتش :

– هكذا الحال . حسنا ؛ فلم اكن اتوقع منك غير ذلك .

وكانت لهجته تتسم بنبرة ابوية ، مما كان يوحى بأن لديه مبررات ذلك . انه تواق للانخراط فى العمل الفدائى السرى شأن فولوديا الذى ذكر له ، دون الافصاح عن السر ، انه ايضا كذلك . لقد قاتل ستاخوفيتش فى صفوف فصيل الفدائيين ، وارسلته قيادة الفصيل رسميا وعلى حد قوله ، لتنظيم هذا العمل فى كراسنودون .

وذكر فولوديا فى احترام :

– ان هذا رائع ! يجب علينا التوجه فورا الى اوليج .

وتساءل ستاخوفيتش بلهجة تتسم بالكبرياء ، حيث نطق فولوديا اسم اوليج باحترام بالغ :

– من يكون ذلك الاوليج ؟

واجاب فولوديا على نحو مبهم :

– انه يا صاح ، فتى واى فتى ...

كلا . . ان ستاخوفيتش لا يعرف ذلك الفتى ، لكن ولم لا يذهب اليه ما دام فتى جيدا .

طرق خفيفا باب شقة بورتس شخص ذو قوام عسكرى ، فى ملابس مدنية تتسم قسمات وجهه بالجدية .

لم يكن هناك بالبيت سوى الصغيرة ليوسيا . وكانت الام قد قصدت السوق لاستبدال بعض الاشياء لقاء بعض الاطعمة . اما فاليا . . . كلا ، هناك ايضا الاب ، وذلك هو الشىء الرهيب . فلقد دلف على الفور بنظارته الداكنة الى صوان الملابس ، بينما تقدمت ليوسيا نحو الباب وقد توقف وجيب قلبها ، وارتدت قناع الجدية لتتساءل على نحو ينم عن شىء من الاستقلالية :

– من الطارق ؟

واجاب صوت رجولى يتسم بنبرة الخجل :

– هل فاليا موجودة ؟

– كلا ، ليست موجودة .

ولبثت ليوسيا تنتظر ، بينما واصل الطارق حديثه :

– افتحى الباب ، ولا تخافى شيئا . من الذى يرد ؟

– ليوسيا .

– ليوسيا ؟ شقيقة فاليا ؟ افتحى ولا تخافى ...

وفتحت ليوسيا الباب ، لتجد نفسها ازاء فتى مجهول فارع القامة يتسم بالتواضع ، تصورته رجلا فى مقتبل العمر . وقد كانت عيناه تتسمان بامارات طيبة ، بينما تعلو وجهه سمات الجدية . وعكست الابتسامة عيناه ، بينما راح ينظر اليها مشيرا بيده بالتحية العسكرية ، ومتسائلا فى ادب :

– هل سرعان ما سوف تعود ؟

وتاثرت ليوسيا ازاء هذه اللفتة التى تنم عن احترام ، لتجيبه متاملة اياه من اخمص قدميه حتى قمة راسه :

– لست ادرى .

وبدت خيبة الامل فى عينيه ، ليظل واقفا فى صمت برهة من الزمن ثم اشار بيده بالتحية العسكرية . غير انه ما كاد يستدير منصرفا حتى تساءلت ليوسيا على نحو سريع :

– وماذا يمكن ابلاغها به ؟

ووميضت عيناه سخرية ، قائلا :

– فلتبلغيها ان خطيبها قد جاء لزيارتها ...

وهبط الدرج مسرعا .

وذكرت ليوسيا بنبرة سريعة تعتريها امارات القلق :

– وهل لك ان تنصرف هكذا سريعا ؟ وكيف لها ان تجدك ؟

غير انها كانت تتحدث فى ارتباك بالغ وبعد ان كان الاوان قد فات ، حيث كان قد ابتعد فى طريقه نحو المزلقان عبر شارع ديريفيانيا .

يا له من امر . . خطيب لفاليا ! كم اعترت مشاعر القلق والحيرة ليوسيا ، التى لم تكن قادرة بطبيعة الحال على ابلاغ والدها بذلك . لقد كان من المستحيل ابلاغ ابيها وامها بذلك . ورددت فيما بين نفسها : «ليس ثمة من يعرفه فى البيت . لكن ... ربما لم يحن الوقت بعد لزواجهما !»

كانوا يتجولون بالبرارى . . فتاتان وشابان لا يتعدى سنهم

مرحلة الصبا . فما الذى كان يدعو هذين الشابين وهاتين الفتاتين الى التجوال بالبرارى فى مثل ذلك الوقت الرهيب حيث لا يتجول احد على الاطلاق ؟ كانوا يتجولون على مسافة نائية من المدينة ، نهارا ، فى اوقات العمل . بيد ان ذلك كان امرا لم يحظره احد .

كانوا يتجولون ازواجا ... شاب اجعد الشعر ، حافى القدمين سريع الحركة رشيقها برفقة فتاة برونزية اللون ، عارية الساقين والذراعين يغطيهما الشعر الخفيف ، ذات ضفيرتين ذهبيتين ؛ اما الزوج الآخر . . شاب اشقر الشعر ، قصير القامة ، يغطى النمش وجهه برفقة فتاة هادئة الطباع ، بسيطة الملابس ذات عينين مفعمتين ذكاء تدعى توسيا ماشينكو . وكان الزوجان يبتعدان بعيدا بعيدا كل منهما عن الآخر تارة ، ليلتقيان تارة اخرى . وقد كان هؤلاء يتجولون منذ مطلع الصبح وحتى يدركهم المساء ، يعانون الظما واشعة الشمس الحارقة التى زادت من نمش ذلك الفتى الاشقر . لقد كانوا ياتون فى كل مرة وقد عمرت اياديهم وجيوبهم بالطلقات والقنابل اليدوية ، واحيانا ببندقية المانية ، ومسدس ورشاش روسى . ولم يكن ثمة ما يثير الدهشة فى ذلك ، اذ كانوا يذرعون المنطقة التى شهدت آخر معارك الجيش الاحمر الذى انسحب ، الى جوار محطة فيرخنيدوفانايا . وقد قاموا بايداع هذه الاسلحة حفرة ردموها ، بدلا من تسليمها الى الحاكم العسكرى الالمانى . غير انه ما من احد رآهم .

وذات مرة وجد الفتى سريع الحركة والذى كان يشرف على حركة الآخرين لغما قام بابطال مفعوله بدقة متناهية على مراى من الفتاة ذات الضفيرتين الذهبيتين .

وقد كانت المنطقة عامرة ولا ريب بالالغام ، ولذا فسوف يعلم الآخرين كيفية ابطال مفعولها ، اذ انها سوف تنفعهم بالتاكيد فيما بعد .

فى المساء عادت الفتاة ذات الضفيرتين الذهبيتين الى منزلها وقد لفحتها الشمس بشدة ، واضناها الارهاق واعترتها مشاعر الاضطراب والقلق . ولم يكن ذلك للمرة الاولى . واستطاعت ليوسيا استدراجها لحظة من الزمن الى الحديقة حيث همست اليها بامر الخطيب فيما ومضت عيناها فى ظلمة المساء .

وتساءلت فاليا غاضبة وقد ارتبكت بعض الشىء :

– اى خطيب ؟ ما هذا الهراء ؟

وراحت تتنازعها فكرة امكانية ان يكون ذلك جاسوسا بعث به الالمان ، واحتمال كونه ممثلا للمنظمة البلشفية للعمل السرى علم بنشاطها وجاء بحثا عنها . الا ان هاتين الفكرتين سرعان ما تلاشتا . وعلى الرغم من ان فاليا كانت مفعمة بذكريات المغامرات الادبية مثل اللغم المحشى بالمتفجرات ، فقد كانت واقعية التفكير شان كل ابناء جيلها . وراحت تستعرض فى ذاكرتها كل معارفها . وفجاة استضاء وجهها ، حيث تذكرت ربيع العام الماضى حين اقيم الحفل الختامى لحلقة التمثيل بنادى لينين ، وحيث جرى توديع فانيا توركينيتش الذى سافر للالتحاق بكلية سباستوبول للدفاع الجوى . لقد لعب آنذاك دور الخطيب ، بينما قامت فاليا بدور العروسة . «خطيب» . . نعم لقد كان ذلك حقا !

فانيا توركينيتش ! لقد كان يقوم عادة باداء ادوار المسنين فى مسرحيات الكوميديا . ولم تكن حلقات الهواة تتطلب ما يفرضه مسرح موسكو الفنى على سبيل المثال . ولذا فقد كان فانيا يقول : «ان نمطى يتطلب ان يغرق فى الضحك كل المتفرجين من الصف الاول وحتى الاخير» . وقد كان يحقق هذا الهدف دائما . وكان دائما يهوى تقمص دور البستانى العجوز فى كثير من المسرحيات . لكن فانيا اليوم بالجبهة . فما عساه اليوم يظهر فى كراسنودون ؟ اوليس ملازما بالجيش الاحمر ؟ لقد عرج على كراسنودون فى شتاء العام الماضى فى طريقه الى ستالينجراد ، وحيث جرى ارساله للتدريب على قصف الدبابات بالمدافع المضادة للطائرات .

– دائما تصرين على آرائك يا امى . ان هذا ليس من شانك . كما ولست راغبة فى العشاء .

واندفعت فاليا قاصدة اوليج . فلقد ظهر توركينيتش فى كراسنودون .

راحت الفتاة الشقراء الصغيرة تخطو على وجه البسيطة ،تذرع كل مساحات بولندا واوكرانيا ، ذرة رمل فى صحار بشرية لا حد

لها ، الى ان وصلت حى «بيرفومايكا» تدق نافذة احد البيـــوت الصغيرة .

«اذا ما شاهدت بين بنتى العم ايفانتسوف فتاة شقراء عليك ان تعلم انهما الشقيقتان ايفانيخينا . . .»

لقد عادت الى بيتها ليليا ايفانيخينا التى كانت من المفقودات . وقد ابلغت مايا بيجليفانوفا وساشا بونداريفا بذلك اوليا . لقد عادت ليليا ، تلك الفتاة الطيبة المرحة ، التى كانت تعتبر قلب الجماعة ، ومن فيها الاولى ، التى تركت عائلها ورفيقاتها لتدلف الى عالم النضال الرهيب ، وفقد اثرها ، ووريت الثرى لتبعث من جديد .

الصديقات الثلاث ، ساشا بونداريفا النحيفة ذات التصرفات الصبيانية ، ومايا التى تكسو بشرتها سمرة الفجر مكتنزة الشفة السفلى بارزة على نحو يوحى بالانفة وعزة النفس ، مفعمة بالنشاط دائما ، والتى لم تتخل عن عادتها فى الافصاح عن عيوب الآخرين ومحاولة تقويمهم حتى فى ظل السلطة الالمانية ، واوليانا ذات الضفيرتين السوداوين المتموجتين اللتين استقرتا على صدرها الذى احتواه رداء ازرق غامق ذو نقاط بيضاء يتسم بالبساطة ، والوحيد الذى سلم من سطوة الجنود الالمان الذين استقروا فى بيتها ، رحن يهرولن الى مسكن آل ايفانيخين بوسط المستعمرة السكنية وغير بعيد عن المدرسة .

وقد كان غريبا ان تهرول الفتيات بالمستعمرة التى لم يبق بها المانى واحد ، تجتاحهن مشاعر الحرية ودون ان يلحظن مدى الحيوية التى تملكتهن . ووميضت عينا اوليانا السوداوان بابتسامة مرحة اضاءت وجهها على حين غرة ، تجد انعكاسا لها على وجهى صديقتيها وعلى ما يحيط بهن .

وما كدن يقتربن من مبنى المدرسة حتى وقعت اعينهن على صورة كبيرة ملصوقة على احدى ضلفتى باب المدرسة ، ولينـدفعن جميعا الى المدخل وكانما وفقا لاتفاق مسبق .

كانت الصورة تمثل اسرة المانية ، حيث يجلس عائلها ، المانى تقدم به السن ، ارتسمت الابتسامة على شفتيه ، وتعلو رأسه قبعة ، يرتدى مريلة العمال وقميصا مخططا وربطة عنق «ببيونة» ، ويمسك فى يده بسيجار ، اما زوجته فكانت شقراء لم يتقدم بها

العمر بعد ، بدينة تعلو الابتسامة شفتيها كذلك ، ترتدى قلنسوة خفيفة وفستانا وردى اللون ، يحيط بها الاطفال من كافة الاعمار ، بدءا من الغلام البدين ذى الوجنتين المنتفختين والذى لم يكن قد اتم سنته الاولى بعد ، وحتى الفتاة الشقراء ذات العينين الزرقاوين . كانت الاسرة تقف الى جوار باب بيت ريفى ذى سقف عال من القرميد يذرعه الحمام ضخم الحواصل . وقد كانت الابتسامة تعلو وجوه الرجل والمرأة وبقية الاطفال الذين مد صغيرهم يده نحو الفتاة التى كانت تتقدم تجاههم تحمل دلوا ناصع البياض ترتدى ثوبا زاهيا ومريلة بيضاء منقوشة ، وقلنسوة شبيهة بقلنسوة ربة البيت ، وتنتعل حذاء انيقا احمر ، بدينة ذات انف افطس ، تكسو الحمرة وجنتيها على غير طبيعى . هذا وقد كانت الابتسامة ترتسم كذلك على شفتيها ، اللتين انفرجتا عن اسنان بيضاء كبيرة . وقد كان يشكل خلفية الصورة جرن وحظيرة ذات سقف عال من القرميد ، استقر فوقه بعض الحمام ، وجزء من السماء الزرقاء ، وبعض مساحة حقول القمح ، وعدد من الابقار الكبيرة المنقطة قريبا من تلـــك الحظيرة .

كما وكانت تذيل الصورة عبارة كتبت بالروسية «لقد وجدت هنا الاسرة والبيت» والى اسفل اليمين «كاتيا» .

لقد جمعت ما بين الفتيات الثلاث اوليانا ومايا وساشا وعلى نحو خاص فترة تواجد الالمان بالمدينة . بل وكن حين يقيم الالمان فى مسكن احداهن يقضين ليلتهن فى مسكن الاخرى اذا ما كان خاليا من الالمان . غير انهن وكانما وفقا لاتفاق غير معلن ، لم يتحادثن حول اهم واكبر قضايا حياتهن ، اى عن كيفية العيش فى ظـــل الالمان ، كما لم يبلغ النضج بهن لتفهم مثل تلك الامور . وهكذا ايضا كان حالهن فى تلك اللحظة ، حيث رحن يتبادلن النظرات ثم هبطن الدرج فى صمت ، يواصلن طريقهن كذلك فى صمت ودون ان تنظر كل منهن الى الاخرى ، قاصدين آل ايفانيخين .

وهرعت لاستقبالهن تونيا الشقيقة الصغرى متهللة الوجه ذات الساقين الطويلتين التى يتحير المرء فى كونهما لصبية صغيرة ، ام لفتاة فى مقتبل العمر ، والانف الضخم وجدائل الشعر داكن اللون . وذكرت وقد انهمرت الدموع من عينيها :

– ايتها الفتيات . . هل سمعتن ؟ كم انا سعيدة !

كان البيت زاخرا بالفتيات . وقد وقع نظر اوليانا فيما بينهن على بنتى العم ايفانتسوف اوليا ونينا اللتين كانتا قد عادتا منذ مدة قريبة الى المدينة ، بعد ان غابتا عنها بضعة اشهر .

لكن ما الذى حدث لليليا ، تلك الفتاة التى كانت تبدو دائما بيضاء نظيفة رقيقة ، شقراء الشعر ، تعكس عيناها امارات المرح والطيبة المتناهية . ما الذى حدث لها حتى تقف هكذا ازاء اوليانا محدودبة الظهر وقد اسدلت يديها الواهنتين الى جانب جسدها الذى اصابه الضمور ، بينما علت وجهها الشاحب سمرة ابعد ما تكون عن الصحة ، ولم يبق من ملامحها سوى انفها الضخم الذى اصابته النحافة ، وامارات الطيبة تكسو عينيها كما كان الحال فى السابق . كلا . . لم تكن تلك امارات الماضى !

اندفعت اوليانا تحتضن فى صمت ليليا تضم وجهها الى صدرها دون ان تتركها طويلا . اما وحين رفعت ليليا وجهها عن صدر اوليانا ، بدا خاليا من كل امارات الرقة والتاثر . ولم تكن هناك سوى عينيها اللتين تكسوهما امارات الطيبة تتاملان كل من حولها فى غرابة وكانما انتزعتها معاناتها بعيدا عن رفيقات الطفولة ، لتغدو غير قادرة على مشاطرتهن مشاعرهن العادية اليومية مهما رحن يبدين تجاهها كل ضروب المحبة والمشاعر الفياضة .

واختطفت ساشا بونداريفا ليليا تحتضنها وتدور بها فى ارجاء الغرفة فيما تقول بما تتسم به من قدرة سريعة على الافصاح عن مشاعرها :

– ليليا ! او تكونى انت ليليا ، عزيزتى ، حبيبتى ! كم صرت نحيفة ! لكن لا بأس ، فسوف نتولى تغذيتك . يا لها من سعادة فائقة ان وجدناك ، يا سعادتنا !

وضحكت مايا ، بينما برزت شفتها السفلى المكتنزة فى انفة ، قائلة :

– فلتتركيها يا ساشا !

وامسكت بها تحتضنها غامرة اياها بالقبلات . ثم استطردت تقول :

– فلتحكى لنا عن كل شىء . . هيا !

مضت ليليا التى اقتعدت كرسيا فى وسط الفتيات اللاتى تزاحمن من حولها ، تحكى قصتها بصوت خافت يتسم بالهدوء :

– لقد كان وضعنا عصيبا بين الرجال ، غير اننى كنت غاية فى السعادة ازاء كونى متواجدة برفقة الاخوة من مقاتلى الكتيبة . فقد قطعنا طريق الانسحاب سوية ، الا اننا فقدنا الكثير من تعدادنا . هل تعلمن ايتها الفتيات كم من الاسى كان يراودنا حين يستشهد رجالنا . غير انه وحين يتقلص تعداد السرية الى سبعة او ثمانية افراد يعرفهم المرء كلا باسمه ، يصبح كل منهم قريبا ، اشبه بقطعة من القلب . اننى اذكر حين نقلونى جريحة الى احد مستشفيات خاركوف الجيدة فى العام الماضى ، وحين كنت اواصل التفكير فى شئون مقاتلينا بالكتيبة ، وكيف اصبح حالهم بدونى . كنت احرر الرسائل اليهم كل يوم ، ليجيبونى عليها فرادى وجماعة ، مما كان يجعلنى استغرق فى التفكير عن ميعاد خروجى . ثم منحت اجازة ، ارسلونى بعدها الى وحدة اخرى ، مما دعانى الى الالحاح فى طلب الانضمام الى وحدتى السابقة ، وليستجيب القائد لطلبى ويساعدنى فى تيسير الوصول الى وحدتى . كما وكنت اسير فى خاركوف مترجلة ، حيث استقللت الترام ذات مرة لينتابنى حزن عميق ازاء اولئك الذين يتدافعون فيما بينهم ، يهين كل منهم الآخر . لقد انتابتنى مشاعر الاسى ازاءهم وليس نتيجة دوافع شخصية . كما وشعرت بالارتباك ازاء كونى من العسكريين ومع ذلك تنهمر الدموع على وجنتى ، رثاء لحال اولئك الناس . لقد كنت اود ان اقول لهم «آه ، لو تعرفون كم من البشر يلقى حتفه كل يوم على الجبهة ، وفى هدوء دونما كلمة واحدة ، كيف يحرص كل منهم على الآخر ، وليس على نفسه . اوليس هؤلاء هم ازواجكم واباؤكم وابناؤكم ؟.. انكم ولئن تمعنتم التفكير فى ذلك ، لما كنتم تزاحمتم هكذا ، يهين كل منكم الآخر ، ولرحتم تفسحون الطريق لبعضكم البعض ، تنتقون ارق الكلمات ، يهدئ كل منكم روع من اسئ اليه عن غير قصد ، رابتا على راسه فى رقة . . .»

كانت تقص حكايتها بصوت رتيب هادئ دون ان تنظر الى اى من صديقاتها ، بل تحدق فى الفراغ الكائن بينهن ، بينما رحن يصغين اليها فى هدوء دون ان يحولن عنها انظارهن .

– اودعونا معسكرا فى الهواء الطلق . كانت الامطار تتساقط لتحمل البرودة الى اوصالنا . كانوا يطعموننا حساء من النخالة واحيانا من قشور البطاطس فى حين كان العمل شاقا ، حيث كان علينا تمهيد الطرق ، مما جعل شبابنا يتساقطون الواحد تلو الآخر ، ويوما بعد يوم . اما نحن «النسوة» – نعم لقد قالت ليليا «النسوة» وليس «الفتيات» – فقد كنا اكثر تحملا من الرجال . وقد كان هناك شاب من كتيبتنا ، رقيب يدعى فيديا ، صادقته – وخفت صوتها لتضيف – صادقته عن قرب ، راح يمزح قائلا بشأن النسوة «ان النساء يملكن معينا داخليا» . اما هو وحين راحوا يدفعوننا للانتقال الى معسكر آخر ، فقد ادركه التعب مما دفع الحارس المرافق الى اطلاق النار عليه . غير انه لم يلفظ انفاسه الاخيرة على الفور ، بل ظل بعض الوقت حيا ، يقتفى بناظريه اثرى ، بينما لم اكن قادرة على التوقف لمعانقته او تقبيله ، حتى لا اكون عرضة كذلك لنفس المصير» .

وقد ذكرت ليليا قصة نقلهم الى معسكر آخر ، وايداع النسوة فى قسم خاص بهن حيث كانت ثمة حارسة المانية تدعى هرترودا جيبيه ، ذئبة صارت تعذب الفتيات حتى الموت . وتحدثت عن اتفاق النسوة بشأن القضاء على هذه الحارسة ، حتى وان فقدن حياتهن لقاء ذلك . لقد استطعن اثناء عودتهن بعد انتهاء العمل ليلا ، خداع الحراس فى الغابة ، ومهاجمة هرترودا جيبيه ، وتغطيتها بمعطف عسكرى ثم خنقها . وراحت بعض النسوة والفتيات يركضن بعيدا ، الا انهن كن مرغمات على التفرق وقطع اراضى بولندا ثم اوكرانيا كل على حدة . وقد سارت ليليا وحدها المئات ثم المئات من الكيلومترات ، ليأويها ويطعمها البولنديون فى البداية ثم اهالينا فى اوكرانيا .

كانت المتحدثة هى ليليا ، تلك الفتاة العادية من بنات كراسنودون الشقراء البدينة الطيبة ، شأن كل الفتيات اللاتى جلسن يستمعن اليها . وكان من الصعب تخيلها تخنق الحارسة الالمانية ، تقطع اراضى بولندا واوكرانيا التى احتلها الالمان ، سيرا على هاتين القدمين الصغيرتين . وقد راحت كل من سامعاتها تفكر ما اذا كانت

قادرة على تحمل كل ذلك ، وعن سلوكها ان تعرضت لمثل كل تلك المحن .

لقد كانت هى نفس ليليا التى كن يعرفنها فيما سبق ، الا انها كانت فى نفس الآن قد تغيرت كثيرا . ومن غير الممكن للمرء ان يؤكد تحجر قلبها بعد كل ما عانته من اهوال . فلم تشمخ بانفها ولم تتباهى ازاء صديقاتها ، بل على العكس فقد بدت اكثر خبرة ، يجيش صدرها بالمشاعر الفياضة ازاء الآخرين وكأنما راحت تقدرهم خير تقدير . وعلى الرغم من كل ما اصابها من ضمور جسدى ومعنوى ان جاز مثل هذا القول ، فقد غمر وجهها النحيف ضياء انسانى عظيم .

وراحت الفتيات يغمرنها ثانية بقبلاتهن ، تراود كل منهن رغبة فى ان تربت عليها او تلمسها على اقل تقدير . ولم تكن هناك سوى شورا دوبروفينا ، الطالبة واكبرهن سنا ، بدت اكثرهن تحفظا ، حيث راودتها مشاعر الغيرة ازاء تقرب مايا بيجليفانوفا من ليليا .

وصاحت ساشا بونداريفا تقول :

– ماذا حل بكن ايتها الفتيات حتى تكاد كل منكن تذرف الدمع ؟ هيا بنا نغنى !

وراحت تترنم بمطلع اغنية «يلف النعاس التلال السمراء» ، الا ان الفتيات صحن يوقفنها ، خوفا من احتمال تسلل احد رجال البوليس اليهن ، نظرا لان المستعمرة عامرة اليوم بالناس من مختلف النوعيات . ورحن ينتقين اغنية اوكرانية قديمة . واقترحت تونيا اغنية «المنزل الارضى» قائلة فى نبرة تتسم بالارتباك :

–انها من اغانينا على كل حال ولا اعتقد ان ثمة من سوف يعترض عليها .

غير ان الفتيات ذكرن ان هذه الاغنية تثير الشجون ، فيما يعشن لحظات ابعد ما تكون عن المرح . وشرعت ساشا التى اشتهرت بين رفيقاتها من حى «بيرفومايكا» بحبها للغناء ، فى ترديد مطلع الاغنية التالية :

جاء بيتى عند الاصيل
يغمز بعينيه ،

تصمت شفتيه ،
ذلك الفتى الجميل ...

وانطلقت الفتيات يكملن تلك الاغنية التى لم تكن تنص على شىء يمكن ان يثير شبهات الآذان البوليسية . غير انها كانت تلك الاغنية التى سمعتها الفتيات كثيرا فى آداء جوقة بياتنيتسكى من اذاعة موسكو ، مما جعلهن من مكانهن بحى «بيرفومايكا» يقطعن الطريق الى العاصمة على نغماتها .

وقد دلفت الى الغرفة وعلى انغام تلك الاغنية كل تلك الحياة التى عاشتها كل منهن ، وترعرعت فى احضانها ، حياة طبيعية مثل حياة الطيور فى الحقول .

واتخذت اوليانا مكانها الى جوار بنتى العم ايفانتسوف ، الا ان اوليا ، الفتاةالكبرى التى استغرقت فى الغناء صارت تضغط فى قوة وحنان على ذراعها ، بينما شعت عيناها بومضات مشوبة بالزرقة اضفت الملاحة على وجهها ذى القسمات غير المتسقة . اما نينا التى راحت فى تحد تجول بناظريها فيما حولها ، فقد مالت على حين غرة الى اوليانا تهمس اليها قائلة :

– كاشوك يهديك تحياته .

وهمست اوليانا كذلك متسائلة :

– اى كاشوك ؟

واجابت نينا :

– اوليج . انه سوف يكون بالنسبة لنا كاشوك ، اعتبارا من اليوم ودائما .

وشخصت اوليانا بناظريها دون ان تفهم شيئا .

ودبت الحيوية فى الفتيات اللاتى استغرقن فى الغناء ، وعلت الحمرة وجوههن .فكم كن راغبات فى نسيان ، ولو لتلك اللحظة ، كل ما يحيط بهن ... نسيان الالمان والبوليس ، نسيان ضرورة تسجيل اسمائهن فى مكتب العمل ، نسيان الآلام التى تكبدتها ليليا ، نسيان كون امهاتهن يتحرقن قلقا وخوفا على بناتهن اللاتى تأخرن كثيرا عن العودة ! كم كن راغبات فى ان يعود الحال كما كان سابقا ! لقد فرغن من الترنم بالاغنية الاولى ، ليشرعن فى اداء الثانية .

وفجاة صاحت ليليا تقول بصوتها الهادئ النفاذ :

– ايتها الفتيات . انكن لا تتصورن كم تذكرت ايام كنت حبيسة المعسكر ، ايام كنت ليلا اقطع اراضى بولندا حافية القدمين ، اتضور جوعا ، كم تذكرت حيّنا «بيرفومايكا» ومدرستنا ، كم تذكرتكن ... تذكرت ايام لقاءاتنا وتجوالنا وغنائنا بالبرارى . فما الذى دعاهم الى ذلك ... الى تحطيم وتدمير كل ما داسته الاقدام ؟ ما الذى كان ينقص اولئك الناس فى مثل ذلك العالم ؟

وفجاة تحولت بحديثها لتقول :

– اوليانا فلتلقى بعض الاشعار الجيدة ، كما كنت تفعلين فى السابق ...

وتساءلت اوليانا :

– اية اشعار تريدينها ؟

وراحت الفتيات يتصايحن بعناوين القصائد التى سمعن اوليانا ترددها كثيرا .

وذكرت ليليا :

– فلتلق قصيدة «ديمون» * .

– اى جزء منها ؟

– كما تشائين .

– فلتلقيها كلها .

ونهضت اوليانا من مكانها واسدلت يديها الى جانبيها فى هدوء ، وراحت تردد بصوت هادئ صادر من الاعماق ، وفى غير تردد او ارتباك ، على نحو طبيعى تلقائى شأن اولئك الذين لا يقرضون الشعر ولا يحترفون القاءه من على خشبة المسرح ...

ديمون الحزين . . روح طريدة
تحلق فى اجواء الارض الخاطئة
تذكر افضل ايامه الناصعة
تتزاحم فى المخيلة
تتدافع فى الذاكرة
قوافل رحّل
فى فضاء مقفر

* قصة شعرية رومانسية للشاعر الروسى الكبير ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤–١٨٤١) . المترجم .

مفعمة بالثقة والايمان
عامرة بالحب والعرفان ...

وكم هو غريب ، ان يتسم بالحيوية البالغة وعلى الفور كل ما رددته الفتيات من اغان ، وكل ما تلته اوليانا من اشعار : وكأنما تنزلق حياتهن التى قدر لهن ان يعشنها اليوم الى عالم المتناقضات بكل ما يتسم به من جمال وبغض النظر عن طابع وتوقيت تجسيد ذلك الجمال . وكانت كل ابيات القصيدة ، كل ما لديمون وما عليه ، تبدو وكأنما تصور مدى الآلام والمعاناة التى يعشنها ، مما جعلها تلمس شغاف قلوبهن .

ماذا تساوى قصة الحرمان
رواية المتاعب والاعمال
لاجيال الماضى والمستقبل
اذا ما قورنت ...
بما اصابنا من آلام ؟

واصلت اوليانا القاء ابيات القصيدة ، بينما راحت الفتيات يتخيلن انه ما من احد على وجه البسيطة يعيش مثل تلك الاهوال التى قدر لهن مواجهتها .

وها هو الملاك يحمل روح الآثمة تمارا على جناحيه الذهبيين ، بينما تلاحقهن روح الجحيم ...

فلتختف يا روح الشك الكئيبة ...

ومضت اوليانا وقد اسدلت يديها بمحاذاة جسدها ، تتلو .

لقد مضت الايام الكئيبة
ومع رداء الارض الثقيل
سقطت عنها قيود الخطيئة
وانتظرناها طويلا
كانت روحها لحظة
مثل حياة الآخرين لحظة
آلام لا تطاق
اهوال لا تقاس

وكان الجزاء لا يحتمل
جزاء الشكوك والاهوال
كانت تعيش الحب والآلام
تذرع رياض الجنة والاحلام ...

وهوت ليليا برأسها الاشقر تدفنه بين يديها وتجهش بالبكاء كما الاطفال . واندفعت الفتيات ليخففن من روعها وقد غلبهن التأثر . وها هو ذلك العالم الرهيب الذى كن يعشنه ، يدلف ثانية الى الغرفة ليسمم روح كل منهن .

الفصل الحادى والثلاثون

منذ ذلك اليوم الذى عاد فيه اناتولى بوبوف واوليانا وفيكتور برفقة والده الى كراسنودون وبعد فشل محاولتهم الهجرة ، ترك اناتولى بيته ليجد مأوى له فى بيت آل بيتروف بنجع بوجوريلى . ولم تكن الادارة الالمانية قد فرضت سيطرتها بعد على النجع مما جعل آل بيتروف يعيشون فى حرية .

ولم يعد اناتولى الى حى «بيرفومايكا» الا بعد رحيل الجنود الالمان .

وقد قامت نينا ايفانتسوفا بابلاغه واوليانا بضرورة المبادرة بتوطيد العلاقات الشخصية باوليج كوشيفوى ، وان كانت تفضل ان تقوم اوليانا بذلك حيث انها تكاد تكون غير معروفة بالمدينة . وقاموا بتحديد الفتيان والفتيات من «بيرفومايكا» الراغبين فى التصدى للالمان والذين يمكن الاعتماد عليهم . ولمّحت نينا بان اوليج لا يتصرف بوحى من نفسه وحسب ، واشارت الى بعض نصائحه : الحديث مع كل امرئ على حدة ، عدم الاشارة الى اسماء الآخرين ، عدم الاشارة وبطبيعة الحال الى اوليج ، مع ضرورة التلميح بانهم لا يتصرفون بايحاء ذاتهم .

وانصرفت نينا ، بينما انزلق اناتولى واوليانا الى المنحدر الذى يفضى الى الوهـــدة التى تفصـــل ما بين حديقتى عائلتى بوبوف وجروموف ، وحيث اتخذا مكانهما فى ظل شجرة تفاح .

واسدل المساء ستائره على البرارى والحدائق .

وكان الالمان قد امعنوا فى اتلاف حديقة آل بوبوف ، ولا سيما اشجار الكرز التى كسروا فروعها ومع ذلك فقد احتفظت برونقها وجمالها لتبدو كما كانت ايام موضع عناية الاب والابن .

كان مدرس العلوم الطبيعية المغرم بتخصصه قد اهدى اناتولى بعد نجاحه بالصف الثامن كتابا عن الحشرات عنوانه «آفات اشجار الكمثرى» . وكان كتابا بلغ به القدم ، حد ضياع صفحاته الاولى مما لم يكن من الممكن معه معرفة مؤلفه .

وكانت ثمة شجرة كمثرى عند مدخل حديقة آل بوبوف ، اكثر قدما من ذلك الكتاب الذى كان شانها موضع حب اناتولى .

وكانت اشجار التفاح بحديقة آل بوبوف مفخرة الاسرة . وفى الخريف ، موسم جنى المحصول كان اناتولى يقضى عادة لياليه نائما بممرات الحديقة حتى لا يسرق الصبية ثمارها . اما وفى الايام الممطرة وحين تضطره الظروف الجوية لقضاء ليلته بحجرته كان يلجأ الى نظام الانذار الذى ابتكره على هيئة دوبارة رفيعة يربط بها افرع الاشجار ، متصلة بجبل امتد عبر الحديقة وحتى النافذة ، حيث تعلو سريره مجموعة من علب الصفيح الفارغة تعلن عن نفسها عالية ، اذا ما لمس احد ما احدى اشجار التفاح ، ولينـدفع اناتولى الى الحديقة على التو فى ملابسه الداخلية . وها هما ، اناتولى واوليانا ، يجلسان بتلك الحديقة تعتريهما مشاعر الجدية والتركيـــز ، والاحساس بانهما تجاوزا اعتاب عالم جديد منذ تلك اللحظة التى شهدت حديثهما مع نينا .

وذكر اناتولى فى ارتباك ازاء كونه قريبا منها :

– لم تسمح لنا الظروف يا اوليانا بالحديث عن مكنـــون قلبينا ، الا اننى اكن لك مشاعر الاحترام منذ زمن بعيد . واعتقد انه قد حان اوان الافصاح عن مشاعرنا وبكل صراحة . واخال انه ليست ثمة مبالغة فى تقدير دورنا ، او تكبر اذا ما جاز هذا القول ، حين نؤكد اننا ، انا وانت بالذات ، قادران على الاضطلاع بذلك ، بمهمة لَمّ شمل الصبية والفتيات فى حى «بيرفومايكا» . وينبغى علينا ، بادئ ذى بدء ، الاتفاق حول النمط الذى سوف تسير عليه حياتنا مستقبلا . اذ انه وعلى سبيل المثال ، يجرى اليوم تسجيل الاسماء بمكتب العمل . اننى شخصيا لن اقوم بذلك . اننى لا اود

العمل ، ولن اعمل فى خدمة الالمان . – ومضى يقول بصوت مفعم بالقوة ، هادئ النبرة :

– اقسم امامك باننى لن احيد عن هذا الطريق . واذا ما تطلب الامر ، فسوف اقوم بالتخفى ، او بالتحول الى حياة السر ، او الاستشهاد . لكننى لن احيد عن هذا الطريق .

وذكرت اوليانا بصوت خافت :

– هل تذكر يا توليا يدى ذلك العريف الالمانى الذى راح يفتش حقائبنا ؟ . . اننى اراهما دائما امام ناظرى قذرتين سوداوين خشنتين ، قويتين . لقد رايت ثانية حين عدت الى بيتى امثالهما . . كثيرة عبثت بافرشتنا وصناديق ملابسنا ، ومزقت ملابسى وملابس امى واختى لاستخدامها عصبة للرؤوس . انها لم تتورع عن البحث فى تلال الملابس القذرة . لقد كانت تامل فى الوصول الى اعماق ارواحنا . . يا توليا ! لقد قضيت الليالى جالسة فى المطبخ لا يغمض لى جفن . . جلست فى الظلمة انصت الى احاديث الالمان ، والى اوامرهم التى يصدرونها الى امى المريضة يرغمونها على خدمتهم . لقد قضيت اكثر من ليلة على هذا الحال وكانما اختبر قدراتى . لقد استغرقت فى التفكير حول ما اذا كنت املك ما يكفى من القوة ، املك حق الانخراط فى هذا الطريق . وادركت انه لا خيار امامى . اننـــى استطيع الحياة على هذا النحو بالذات ، وليس ثمة مفر . اقسم بامى اننى لن احيد عن هذا الطريق وحتى آخر قطرة فى دمى .

كانت اوليانا تتحدث دون ان ترفع ناظريها السمراوين عن توليا . وقد اعتراهما الاضطراب ، ليلتزما الصمت بعض الوقت .

واذ تملك اناتولى مشاعره ذكر بصوت مبحوح :

– هيا بنا نحدد اسماء من سوف نتحدث معهم بهذا الشان . ولعل من الافضل ان نبدا بالفتيات ؟

وراحت اوليانا تعدهن :

– طبعا . . مايا بيجليفانوفا وساشا بونداريفا ، وليليـــا ايفانيخينا بطبيعة الحال . وسوف تحذو تونيا حذو ليليا . كمـــا واعتقد لينا ساموشينا ونينا جيراسيموفا .

– ونشيطتنا . . المشرفة على الطلائع ، لست اذكر اسمها ؟

– فيريكوفا ؟

واكتسى وجه اوليانا بأمارات تنم عن برودة ، ثم مضت تقول :

– فلتسمع ما اقوله لك . كان يحدث احيانا ان نعلن نحن الفتيات آراءنا ، ننتقد فى حدة مختلف الامور فى الاوقات العصيبة . ان ثمة شيئا مقدسا يجب ان يكمن فى اعماق كل امرئ ، يستحيل السخرية منه ، والحديث فى تهكم عنه مثلما لا يمكن ذلك بشأن الام . اما فيريكوفا . . . من ذا الذى يدرى ما يدور فى خلدها ؟ اننى لم اكن لاعيرها ثقتى .

وذكر اناتولى :

– فلنتركها جانبا ، على ان نتولى مراقبة سلوكها .

وذكرت اوليانا :

– انه من الافضل اختيار نينا مينايفا .

– تلك الفتاة الشقراء ، الهيابة ؟

– لا تظنها هكذا . . انها ليست هيابة بل خجولة ، شديدة الايمان بافكارها .

– ماذا عن شورا دوبروفينا ؟

وابتسمت اوليانا قائلة :

– يمكننا سؤال مايا عنها .

وتساءل اناتولى فجاة وبنبرة تعكس دهشته :

– لماذا لم تشيرى الى فاليا فيلاتوفا ، اقرب صديقاتك ؟

وجلست اوليانا صامتة بعض الوقت ، دون ان يستطيع اناتولى معرفة كنه المشاعر التى ارتسمت على وجهها . واجابت اوليانا وقد اصابت الرعشة شفتيها ومنخاريها :

– حقا كانت افضل صديقاتى ، وما زالت احبها كسابق عهدى ؛ واعلم احسن من اى شخص آخر مدى طيبة قلبها ، غير انها لا تستطيع سلوك هذا الطريق ، اذ يبدو لى انها غير قادرة سوى على اداء دور الضحية .

ومضت تتساءل وكانما رغبة منها فى تحويل الحديث :

– ومن بمكن اختياره من الصبية ؟

– يمكن بطبيعة الحال اختيار فيكتور ، وقد تحدثت معه بهذا الشأن . وما دمت قد اشرت وعن حق الى ساشا بونداريفا ، يكون من الواجب الاشارة الى شقيقها فاسيا ؛ وكذلك جينكا شيبيليف

وفولوديا راجوزين . هذا علاوة ، وحسب اعتقادى ، على بوريا جلافان ، هل تعرفينه . . ذلك الفتى المولدافى الذى جاء من بيسارابيا .

وهكذا راحا يستعرضان اسماء الصديقات والرفاق . وكان القمر قد اوشك على المغيب ، غير انه كان ما يزال بدرا يلقى باشعته الحمراء فيما وراء الاشجار ، فيما تستقر الظلال كثيفة الى ما جوار الحديقة ينتشر الغموض المشوب بالقلق فى كل ارجاء الطبيعة .

وذكرت اوليانا :

– يا لها من سعادة بالغة ، حيث لا يقطن الالمان مسكنينا . اننى لا اطيق رؤيتهم ولا سيما اليوم .

عاشت اوليانا وحيدة منذ عودتها ، فى بناية المطبخ الصغيرة المجاورة للبنايات الملحقة بالمنزل . واذ دلفت الى الداخل ، قامت بايقاد المصباح الصغير الموضوع فوق الفرن ، ثم اقتعدت فراشها بعض الوقت شاخصة بناظريها نحو الامام . لقد كانت تجلس على حدة مع نفسها وحياتها ، تقلب اعماقها فى صراحة متناهية ، لا يبلغها المرء الا فى لحظات الارتياح الروحى العظيم .

وجثت اوليانا الى جوار فراشها لتمد يديها الى حقيبة تناولت منها كراسة قديمة هرئة كانت تعلو ملابسها الداخلية ، لم تكن قد تصفحتها منذ رحلت عن البيت .

وقد كان ما سجلته اوليانا بقلم رصاص على الصفحة الاولى ، ليبدو اليوم واضحا بالكاد اشبه بفقرة مقتبسة ، دليلا على تلك الاسباب التى جعلت اوليانا تقتنى مثل تلك الكراسة ، ومتى فعلت ذلك :

«فى حياة كل امرئ حقبة من الزمن يتوقف عليها مصيره المعنوى ، حين يحدث الانعطاف الحاسم فى تطور اخلاقياته . ويقال ان مثل هذا الانعطاف يحدث حين يبلغ المرء سن الصبا . وذلك امر لا اساس له من الصحة حيث انه يجرى عند الكثيرين فى اوار طفولتهم الوردية . (بوميالوفسكى)» .

لقد اعترتها مشاعر الدهشة المشوبة بالحزن المتمزج بالاسى فى آن واحد حين وجدت نفسها ازاء ما كتبته فى طفولتها ، ويتناسب

مع حالتها المعنوية فى اللحظة الراهنة ، تتصفح كراستها تطالع فقرة من هنا ، واخرى من هناك :

«يجب على المرء الذى يخوض المعركة الاستفادة من كل دقيقة ، والتمتع بقدرة التفكير السريع» .

«ما الذى يمكن ان يكون عائقا دون ارادة الانسان الصلبة ؟ ان فى الارادة تكمن كل الروح . . ان كلمة اريد تعنى القدرة على الكراهية والحب والاسف والفرح والحياة . موجز القول ان الارادة هى القوة الاخلاقية لكل كائن حى ، والطموح الحر نحو خلق او تدمير الاشياء ، والقوة الابداعية التى تستطيع صنع المعجزات من لا شىء ! . . (ليرمونتوف)» .

«ان الخجل يعتصرنى . كم اشعر بالخجل من نفسى ، فليس ثمة ما يشين الانسان اكثر من سخريته من ملابس الآخرين ! ولست ادرى متى اكتسبت هذه العادة . وهاكم ما حدث اليوم مع نينا م . — كلا ، اننى لا استطيع الكتابة . . . ان كل ما يرد الى خاطرى يجعل الحمرة تتسلل وجنتى . . اننى اشتعل خجلاً . لقد تصادقت حتى مع ليزا م . ، لاننا رحنا سوية نسخر من ملابس الآخرين ، وعلى الرغم من ان والديها . . لا داعى للكتابة عنهما ، وعلى اى حال فهى فتاة غاية فى السوء . لقد سخرت اليوم وفى غطرسة ، نعم فى غطرسة ، من نينا ، بل وجذبت بلوزتها التى تركت مكانها داخل جونلتها ؛ بينما شرعت تقول . . . كلا . . اننى لا استطيع تكرار كلماتها . بيد اننى لم اكن افكر ابدا على هذا النحو السيئ فيما سبق . وقد جاء ذلك نتيجة الرغبة فى ان يكون كل شىء فى هذه الحياة جميلا ، بينما حدث النقيض . اننى لم اكن اظن ان ثمة من يزال يعانى الفاقة ، ونينا م . بالذات . . يا لها من فتاة لا حول لها ولا قوة . . اننى اقسم لك يا نينوتشكا بأننى لن افعل ذلك فيما بعد . . ابدا !» .

وفيما بعد وردت تلك الجملة التى كتبت بقلم رصاص ، وعلى ما يبدو فى اليوم التالى :

«وسوف تطلبين منها الصفح . . نعم . . نعم ! . .»

وبعد صفحتين ورد ما يلى :

«ان الحياة هى اعز ما لدى الانسان . اذ انه يعيشها مرة

واحدة ، وينبغى عليه ان يعيشها على النحو الذى لا يوحى اليه فيما بعد بالندم والآلام لقاء تلك الاعوام التى عاشها عبثا ، وحتى لا يقض الخجل مضاجعه ازاء ماضيه التافه الوضيع . (ن . اوستروفسكى)» .

«كم كومدى هو هذا الرجل م . ن ! ولست اخفى بطبيعة الحال انه يسعدنى فى بعض الاحيان قضاء بعض الوقت معه . كما وانه يجيد الرقص . غير انه يعشق دائما التفاخر باوسمته والاشارة الى رتبته . وذلك بالذات امر لا يعنينى . لقد تحدث بالامس عما كنت انتظره منذ زمن بعيد ، وما لم اكن اريده على الاطلاق . لقد سخرت منه ، ولست آسفة على ذلك . اما عما ذكره بشأن انتحاره ، فذلك امر غير صحيح ويتسم بالنذالة من جانبه . انه بدين جدا ، كان من الواجب عليه التواجد بالجبهة حاملا السلاح . لن اغرم به . ابدا . . ابدا» .

«اننى اذكر الرفيق كوتوفسكى* بوصفه اكثر قوادنا المتواضعين بسالة ، واشد قادتنا البسلاء تواضعا . (ستالين)» .

لبثت اوليانا تجلس منكسة الراس ، تتصفح كراستها المدرسية وحتى ترامى الى مسمعها صوت بوابة الحديقة تنفرج فى هدوء ، ليتعالى دبيب قدمين صغيرتين تهرولان عبر الفناء نحو باب المطبخ . وانفرج الباب عن فاليا فيلاتوفا التى لم تطرقه ، لتهرول سريعة دون ان تلوى على شىء وترتمى على الارض عن قدمى اوليانا تدفن وجهها بين ركبتيها .

ولزمتا الصمت بعض الوقت . وشعرت اوليانا بانفاس فاليا تتعالى ووجيب قلبها يعلن عن نفسه ، لتهمس اليها متسائلة :

— ماذا بك يا فاليتشكا ؟

ورفعت فاليا وجهها ليبدو ثغرها نصف مفتوح ومبلل ، وقالت :

— اوليانا ! انهم سوف يبعثون بى الى المانيا .

وكانت فاليا فيلاتوفا تخشى الالمان الى حد كبير الى جانب تقززها الشديد منهم ، وازاء كل تصرفاتهم بالمدينة . لقد كانت ومنذ اول يوم تنتظر حدثا رهيبا يمكن ان يحل بها او بأمها .

* ج . م . كوتوفسكى بطل الحرب الاهلية وقائد عسكرى فذ . المترجم .

وقد ظلت فاليا بعد ان صدر امر تسجيل اسماء المواطنين بمكتب العمل ، ترفض تنفيذه ، لتعيش فى انتظار القبض عليها ، تراودها مشاعر كونها مجرمة اتخذت طريق النضال ضد السلطة الالمانية .

وقد صادفت صباح اليوم حين كانت فى طريقها الى السوق بعض سكان حى «بيرفومايكا» الذين كانوا قد سجلوا اسماءهم بمكتب العمل ، يتوجهون للعمل فى اصلاح احد المناجم الصغيرة ، التى انتشرت كثيرة فى ذلك الحى .

وآنذاك توجهت فاليا لتسجيل اسمها دون ابلاغ اوليانا حيث خجلت من الاعتراف لها بذلك .

كان مكتب العمل كائنا بمبنى ابيض من طابق واحد فى اعلى التل .

كانت بضع عشرات من المسنين والشباب ، غالبيتهم من النسوة والفتيات ، تتخذ مكانها صفا غير طويل ، امام مدخل المبنى . وقد عرفت فاليا ضمن ذلك الصف ، ومن مكانها بعيدا عن المبنى ، زينائيدا فيريكوفا رفيقتها فى ايام سنى الدراسة فى مدرسة «بيرفومايكا» . لقد عرفتها بقامتها القصيرة وشعرها الذى استقر ناعما فوق راسها ، بينما برزت ضفيرتاها القصيرتان الى الامام ، واقتربت منها لاختصار بعض مسافة ذلك الطابور .

كلا . . انه لم يكن واحدا من تلك الصفوف التى اضطر الناس الى الوقوف بها كثيرا فى ايام الحرب – صفوف الخبز والاغذية ، وتسلم البطاقات التموينية ، بل وصفوف التجنيد بالجبهة . وقد كان الناس آنذاك ، يتدافعون ويتزاحمون كل يحاول تقدم مكانه ، يعربون عن سخطهم اذا ما استطاع ذلك احد ما مستغلا معارفه او وظيفته . لقد كان ذلك صفا عند مكتب العمل الالمانى ، حيث لم يكن ثمة من يحاول تقدم الآخر . ولذا فقد راحت فيريكوفا تتامل فاليا فى صمت وبعينين مزرورتين تعلنان عن عدم استحسانها ، مفسحة لها مكانا امامها .

كان الصف يتحرك سريعا ، حيث كانوا هناك يستقبلون الزائرين ازواجا . وقد دلفت برفقة فيريكوفا ، فاليا التى كانت تمسك هويتها الشخصية فى يدها المعروقة المضمومة الى صدرها .

وكان باب غرفة التسجيل ينفرج عن مائدة مستطيلة يجلس اليها عريف المانى بدين ، وامراة روسية وردية اللون ذات ذقن طويل على نحو غير طبيعى . وقد عرفت فيريكوفا وفاليا فيها مدرسة اللغة الالمانية التى كانت تعمل بمدارس كراسنودون ، «بيرفومايكا» ضمنا . وكم كان غريبا ان تحمل لقب نيمتشينوفا» * .

والقت الفتاتان عليها بالتحية .

– او هو . . تلميذتاى !

ندت عن نيمتشينوفا ، التى ابتسمت على نحو غير طبيعى ، مسبلة اهدابها الطويلة داكنة اللون .

كانت الآلات الكاتبة تدق بالغرفة ، بينما امتد طابوران غير طويلين الى يسار الباب ويمينه .

وقد سالت نيمتشينوفا فاليا حول سنها ، ووالديها ، وعنوانها لتسجل كافة هذه البيانات فى سجل طويل مفرود امامها . كما وكانت تقوم فى نفس الآن بترجمتها الى العريف الالمانى ، ليتولى بدوره تسجيلها بالالمانية فى سجل آخر .

وبينما كانت نيمتشينوفا توجه اسئلتها ، شاهدت فاليا شخصا يخرج من يمين الغرفة ليحل محله آخر ، لقد كانت امراة فى مقتبل العمر تهدلت تسريحة شعرها ، واصطبغ وجهها بلون احمر غير طبيعى ، تترقرق الدموع فى مآقيها . وتقدمت هذه المراة الى الباب بخطوات سريعة ، بينما تغلق احدى يديها ازرار بلوزتها عند الصدر .

وفى تلك اللحظات ، كانت نيمتشينوفا قد وجهت سؤالا الى فاليا ، لم تنتبه اليه لتتساءل وهى تشيع بنظراتها هذه المراة الشابة ذات الشعر المنكوش .

– ماذا ؟

وسالتها نيمتشينوفا :

– هل انت فى صحة جيدة ؟ او لا تشكين من شىء ؟

واجابت فاليا :

– كلا . . اننى بصحة جيدة .

وفجاة جذبت فيريكوفا بلوزتها من الخلف . والتفتت فاليا

* هنا مشاركة لفظية مع كلمة الالمانية . المترجم .

اليها ، الا انها شخصت بناظريها المزرورين اللذين لم يستقرا على شيء .

وذكرت نيمتشينوفا :

– الى المدير !

وتحولت فاليا الى الطابور الايمن على نحو تلقائى والتفتت الى فيريكوفا التى كانت تجيب بصورة آلية على نفس الاسئلة التى وجهت الى صديقتها .

كان يخيم على غرفة المدير هدوء لا يقطعه سوى بعض عبارات مقتضبة بالالمانية . وبينما كانوا يستجوبون فيريكوفا ، غادر الغرفة شاب فى السابعة عشرة من العمر تبدت عليه امارات الحيرة والشحوب ، فيما كان يعيد حال سترته الى ما كانت عليه .

وآنذاك تعالى الى سمع فاليا صوت الصغيرة فيريكوفا تقول :

– انك تعلمين يا اولجا قسطنطينوفنا بمرضى . ولتسمعى ما يعلن عنه صدرى !

وراحت فيريكوفا تتنفس على نحو استعراضى امام نيمتشينوفا والعريف الالمانى البدين ، الذى تراجع الى الوراء بمقعده فيما ينظر اليها بعينيه المستديرتين كعينى الديك . وقد كانت ثمة حشرجة يعلن عنها صدرها فى واقع الامر . ومضت تقول محدقة فى غير خجل تارة فى نيمتشينوفا ، واخرى فى العريف الالمانى :

– اننى فى حاجة الى عناية منزلية ، الا انه اذا ما وجد عمل لى هنا بالمدينة ، فاننى سوف اقوم به وبكل سعادة ، نعم بكل سعادة ! وكل ما ارجوه يا اولجا قسطنطينوفنا ان تجدى لى عملا نظيفا بين اناس مهذبين ؛ وسوف اعمل فى خدمة النظام الجديد ، وبكل سعادة !

ودلفت فاليا الى غرفة المدير ، يعلو وجيب قلبها ، فيما تفكر «يا الهى . – ماذا تقول تلك المجنونة ؟ !»

وفى الغرفة ، وقفت ازاء المانى بدين ، استقر شعره الاحمر مفروقا لامعا ، يرتدى سترة عسكرية وسروالا قصيرا واصفر من الجلد . وجوربا بنى اللون ، عارى الركبتين يعلوهما شعر شبيه بالصوف . ورمى فاليا بنظرة خاطفة لا معنى لها ، ثم صاح بلغة روسية ركيكة :

– اخلعى ملابسك ! اخلعى !

وجالت فاليا بناظريها فى ذهول . لم يكن بالغرفة سوى كاتب المانى يجلس الى المائدة ، حيث استقرت هويات شخصية قديمة فى كومة كبيرة .

وذكر الكاتب الالمانى بلغة اوكرانية :

– اخلعى ملابسك . هل تسمعين ؟

واعتلت الحمرة فاليا التى غرقت خجلا ، متسائلة :

– كيف ذلك ؟

وذكر الكاتب بلهجة تنم عن سخرية :

– كيف ! كيف ! فلتلقى بملابسك بعيدا !

وذكر الالمانى ذو الركبتين العاريتين اللتين غطاهما الشعر :

– بسرعة !

وفجأة مد يده نحو ثغر فاليا يفتحه باصابعه المغسولة التى غطاها الشعر كذلك ، ويباعد ما بين اسنانها ، ليلقى بنظرة الى داخل فمها ، ثم راح يفك ازرار ردائها .

واذ اجهشت فاليا فى البكاء خوفا ومهانة ، طفقت تخلع ملابسها ، ليعتريها الارتباك عندما بلغت ملابسها الداخلية .

وقد ساعدها الضابط فى ذلك لتبدو عارية تماما الا من حذائها . والقى الالمانى عليها بنظرة سريعة ، ثم تحسس بيديه فى تقزز كتفيها وفخذيها وركبتيها ، ليلتفت الى الجندى قائلا بالالمانية ، وكأنما يتحدث عن احد الجنود :

– يصلح !

ومد الكاتب يده ، صائحا دون ان يرفع ناظريه الى فاليا :

– الهوية !

وقدمت فاليا هويتها الشخصية ، بينما راحت تغطى نفسها بثيابها ، باكية .

– العنوان !

وذكرت فاليا عنوانها .

وذكر الكاتب بصوت هادئ كئيب ملقيا بهويتها فوق الهويات الاخرى على المائدة :

– ارتدى ملابسك ! سوف يجرى اخطارك بموعد الامتثال بنقطة التجمع .

ولم تتمالك فاليا نفسها الا عندما خرجت الى الشارع . كانت اشعة شمس منتصف النهار قد استقرت فوق المساكن والطريق المترب والحشائش الجافة . فلم تهطل الامطار لما يزيد عن الشهر ، مما بدا معه كل شيء جافا وكانما يوشك على الاحتراق . وكان الهواء يتراقص حارا لاسعا . وتوقفت فاليا وسط الطريق ، الذى بلغ ترابه كعبى قدميها . وفجأة هوت جالسة على الارض المتربة صائحة فى الم . وملأ الهواء رداءها لينتفخ مستقرا مستديرا فيما حولها . ودفنت فاليا وجهها بين راحتيها .

وقد ساعدتها فيريكوفا حتى تمالكت روعها ، لتهبطا سوية التل حيث مقر اللجنة التنفيذية للمنطقة تقصدان مسكنهما فى حى «بيرفومايكا» عبر «فوسميدوميكى» والى جوار مبنى الميليشيا . وكانت فاليا تشعر تارة ببرودة الجو ، واخرى بحرارته . وذكرت فيريكوفا :

– يالك من حمقاء ! وهذا هو جزاؤك ، وجزاء امثالك !

ومضت فيريكوفا تقول فى احترام ، بل وبنوع من الاعجاب المبالغ فيه :

– انهم المان ويجب التاقلم وفقا لما تتطلبه الظروف !

وسارت فاليا مطرقة دون ان تعيرها سمعا ، بينما راحت فيريكوفا تقول فى حقد :

– يا لك من حمقاء ! لقد جذبت بلوزتك مما كان يعنى ضرورة التلميح بانك تودين تقديم خدماتك هنا ، وذلك امر يحظى بتقديرهم . كما وكان ينبغى ان تدعى المرض . وهناك بالمستشفى تترأس الطبيبة ناتاليا الكسييفنا لجنة الفحص ، تمنح الجميع الشهادات اللازمة ، حيث ان الالمانى المرافق ممرض لا يفقه شيئا على الاطلاق . انك حمقاء وسوف تظلين هكذا ! لقد وزعونى للخدمة فى مؤسسة اللحوم حيث يصرفون تغذية للعاملين هناك .

وتمثلت اولى تعبيرات اوليانا ازاء ذلك الموقف فى اعلانها عن اسفها وشفقتها . فقد ضمت راس فاليا الى صدرها وراحت تقبله ،

وشعرها وعينيها فى صمت . ثم تولدت لديها خطط ترمى الى انقاذها ، فتحدثت قائلة :

– يجب عليك الهرب . نعم الهرب !

وذكرت فاليا بنبرة تنم عن ضعف مشوب بالتأفف :

– الى اى مكان . . يا الهى ؟ ! لست املك الآن اية وثائق !

وهمست اوليانا تقول :

– فاليتشكا يا عزيزتى ! اننى اعلم بطبيعة الحال ان الالمان يحيطوننا ، بيد ان هذه الاراضى اراضينا ، وهى مترامية الاطراف ، يقطنها شعبنا الذى نشانا فى احضانه . ان ثمة حلا سوف نجده بالتأكيد ! اننى سوف اساعدك ، وسوف يفعل نفس الشيء الصبية والفتيات .

– وامى ؟ ماذا تقولين يا اوليانا ؟ ! انهم سوف يسومونها العذاب .

وهنا اجهشت فاليا فى البكاء .

وذكرت اوليانا فيما بين نفسها :

– لا تبكى ايتها الاخت ! او تظنين ان حالها سوف يكون افضل اذا ما بعثوا بك الى المانيا ؟ هل تعتقدين انها سوف تتحمل ذلك ؟

– اوليتشكا . . اوليتشكا ! ما الذى يدعوك الى تعذيبى هكذا ؟

وذكرت اوليانا تعبر عن مشاعرها القاسية الرهيبة :

– مقزز ذلك الذى تتحدثين عنه . . ان ذلك امر مهين يتسم بالدناءة . . اننى احتقرك ! نعم . . احتقر عجزك ودموعك . . . فلتنظرى كم من الكوارث فيما حولك ، وكم من البشر الاصحاء الاقوياء الممتازين يلقون حتفهم بالجبهة وفى معسكرات الاعتقال والسجون . . ولتتمعنى فيما تعانيه زوجاتهم وامهاتهم ، ومع ذلك يواصل الجميع العمل والنضال ! اما انت فتاة فى مقتبل العمر ، ما تزال كافة الطرق مفتوحة امامك ، علاوة على ان ثمة من يعرض عليك العون ، بينما تثنين باكية ، الى جانب انك تودين مواساة الآخرين ، وشفقتهم عليك . اما عن نفسى فاننى لا اشفق عليك . . نعم . . لا اشفق عليك !

وهبت من مكانها واقفة ، وتوجهت نحو الباب تتكئ عليه بيديها اللتين وضعتهما خلف ظهرها لتقف ساهمة بناظريها السوداوين

الغاضبين . وجثت فاليا على ركبتيها فى صمت دافئة وجهها فى فراش اوليانا . وذكرت اوليانا فجاة :

– فاليا ! فاليتشكا ! فلتتذكرى كيف كنا نعيش سوية يا عزيزتى ! يا مهجتى !

وانفجرت فاليا باكية .

– او تذكرينني قد اديت اليك بنصيحة سيئة ذات مرة ؟ هل تذكرين حادثة البرقوق ، او عندما رحت تصيحين خوفا من عدم امكانية الوصول الى الشاطئ الآخر للنهر سباحة بينما قلت لك اننى سوف اغرقك بنفسى ؟ فاليتشكا . . اننى اتوسل اليك . . .

وذكرت فاليا فيما تجهش بالبكاء :

– كلا . . كلا . . لقد رحلت عنى ! نعم رحلت بقلبك لتنقطع الصلات فيما بيننا . او تظنيننى لم اشعر بذلك ؟ فماذا يحدث اليوم ؟ اننى وحيدة تماما فى هذا العالم . . .

ولم تجبها اوليانا بشىء .

ونهضت فاليا ، لتمسح دموعها دون ان تعير اهتماما اوليانا التى قالت بنبرة هادئة تتسم بالبرود :

– فاليا . . اننى اقول لك للمرة الاخيرة . اما ان تستجيبى لنصيحتى ، ونوقظ اناتولى الآن لمرافقتك الى فيكتور فى نجـــع بوجوريلى ، واما . . فلا داعى لانهاك قلبى .

– وداعا يا اوليتشكا ! وداعا . . والى الابد !

واذ امسكت فاليا عن ذرف الدمع ، هرولت خارجة من المطبخ الى الفناء الذى غرق فى بحر من ضياء القمر .

وامسكت اوليانا نفسها بالكاد عن اللحاق بها وغمر وجههـــا البائس الذى بللته الدموع ، بقبلاتها .

واطفات المصباح وفتحت النافذة ، وارتمت فى فراشها دون ان تخلع ملابسها . بيد ان النوم لم يراودها ، لتصيخ السمع الى اصوات تترامى غير واضحة من البرارى والمستعمرة السكنية . وكانت ما تزال تتخيل الالمان وقد وصلوا بالفعل الى فاليا ليقتادوها دون ان تجد المسكينة من يهدئ روعها بكلمة طيبة ، فى ذلك الحين الذى تمددت فيه بفراشها .

وفجاة ترامى الى سمعها دبيب خطوات خفيفة وحفيف اوراق

الاشجار بالحديقة . وتعالى هذا الدبيب قريبا ، ليعلن انه لاقدام كثيرة ، وليس لقدمين وحسب . وكان من الواجب اغلاق النافذة الا ان القادمين كانوا قد وصلوا اسفلها ، وحيث بدت عبرها راس اناتولى البيضاء فى طاقيته الاوزبكية .

وهمس اناتولى متسائلا :

– هل تنامين يا اوليانا ؟

كانت اوليانا قد بلغت مكانها الى جوار النافذة .

وذكر اناتولى :

– كارثة رهيبة . لقد اعتقل ابو فيكتور .

ووقع نظر اوليانا على وجه فيكتور الشاحب الذى تتسم قسماته بالبسالة وعينيه الغارقتين فى الظلال ، فيما راح يتقدم نحو النافذة يغمره ضياء القمر .

– ومتى اعتقلوه ؟

واجاب فيكتور فى حقد :

– لقد جاء مساء اليوم المانى من رجال اس اس يرتدى زيا اسود ، بدين ذو اسنان ذهبية ، نتن الرائحة ، يرافقه جندى روسى يعمل بجهاز الشرطة . وراحوا يكيلون له الضربات ، ثم اقتادوه الى مكتب ادارة الغابة ، حيث كان لورى يغص بالمعتقلين ، الذين جاؤوا بهم الى هنا . وقد رحت اركض وراءهم مسافة عشرين كيلومترا .

ومضى يقول وقد توجه بناظريه الى اناتولى :

– لو لم ترحل اول امس ، لكنت قد اعتقلت كذلك .

الفصل الثانى والثلاثون

طالت كثيرا تلك الفترة التى قضاها ماتفى شولجا بالسجن ، حتى فقد القدرة على حساب الزمن . فقد كانت الظلمة تخيم على زنزانته طوال الوقت تقريبا ، حيث لم يكن الضوء يصلها سوى عبر كوة ضيقة قرب السقف نصف مغطاة ومشدودة بسلك شائك امتد من داخلها الى الخارج .

وقد كان شعور الوحدة يراود ماتفى كوستيفيتش ظنا منه ان الجميع قد نسوه .

كانت هذه المرأة او تلك ، سواء كانت والدة او زوجة تستطيع فى بعض الاحيان استمالة الجندى الالمانى من رجال الدرك او احد رجال الشرطة الروس لتسليم ابنها او زوجها المقبوض عليه بعض الطعام او الملابس . غير انه لم يكن يوجد اقارب لكوستيفيتش فى كراسنودون . كما لم يكن ثمة احد من معارفه عدا ليوتيكوف والعجوز كوندراتوفيتش ، يعرف انه قد استبقى فى كراسنودون للعمل السرى ، وان يفدوكيم اوستابتشوك المجهول رهين هذه الزنزانة المعتمة هو كوستيفيتش . وقد كان يدرك ان ليوتيكوف قد لا يكون على علم بما حدث له ، كما ولن يستطيع الوصول اليه اذا ما عرف بمكانه . ولذا فلم يكن يؤمّل على عون يقدمه له .

لم يكن على اتصال سوى باولئك الذين كانوا يسومونه العذاب ، اى برجال الشرطة الالمان ، الذين لم يكن يوجد بينهم من يتحدث الروسية سوى اثنين : مترجم المانى تعلو رأسه بارز العظام ، طاقية كوبانية ، وسوليكوفسكى رئيس الشرطة الذى كان يرتدى سروالا قوزاقيا واسعا ذا شريطين اصفرين على جانبيه ، ذا قبضتين اشبه بحافرى الجواد ، ومن كان يمكن القول بشانه انه اسوا من رجال الشرطة الالمان ، اذا ما جازت امكانية وجود من هو اسوا منهم .

لم يكن كوستيفيتش منذ اللحظة الاولى التى قبض فيها عليه يخفى شيوعيته وانتماءه الحزبى ، حيث ان اخفاء ذلك لم يكن مجديا ، علاوة ان الصراحة والحقيقة كانتا تدعمان قدرته وقواه فى النضال ضد اولئك الذين كانوا يعذبونه . غير انه لم يذكر سوى انه شخص عادى ، ومع ذلك فمهما كانت درجة غباء معذّبيه ، فقد ادركوا انهم حيال شخص آخر يميزه مظهره وسلوكه . لقد دأبوا على تعذيبه حتى يعترف باسماء شركائه . ولذا فلم يكونوا قادرين ، بل وراغبين فى الاجهاز عليه مرة واحدة . وراح المساعد اول شرطة بريوكنر او نائبه بالدر يستجوبانه مرتين يوميا على امل فضح منظمة البلاشفة فى كراسنودون ، وبغية نيل تقدير الجنرال كلير الحاكم العام للمقاطعة .

كانا يستجوبان كوستيفيتش يذيقانه صنوف العذاب حين يفقدهما القدرة على تمالك اعصابهما . غير ان روتينفوهرر فينبونج ، ضابط الصف البدين ، صليع الراس ، ذو الاسنان الذهبية والصوت الأخنث ، والنظارة القرنية كان اكثر من يضربه ويذيقه العذاب تنفيذا لاوامرهما . وكانت تنبعث من ضابط الصف رائحة كريهة جعلت المساعد بالدر والمساعد اول بريوكنر يتحولان بأنفيهما بعيدا عنه حين تاتى به الظروف قريبا منهما ، وينظران اليه فى احتقار . وكان ضابط الصف فينبونج يكيل الى كوستيفيتش المكبل والذى امسك به الجنود الى جانب ذلك ، ضرباته ، يسومه صنوف العذاب فى اتقان ولامبالاة . فلقد كانت هذه العملية هى مهنته وتخصصه . اما فى تلك الاحيان التى كان فيها كوستيفيتش حبيس زنزانته غير مقيد ، بعيدا عن قبضة الجنود ، صار يبدو بعيدا عن قبضة فينبونج الذى لم يكن يمسه خوفا منه آنذاك ، ولأنه كان فى غير اوقات العمل يقضى راحته فى غرفة خصصت له ولجنوده بفناء السجن .

غير ان ماتفى كوستيفيتش لم يغير من سلوكه شيئا على الاطلاق ومهما كانت الوان العذاب التى تعرض لها ، وطالت فترتها . فقد ظل مستقلا جموحا عنيدا ، انهك الجميع واثار لهم العديد من المشاكل .

ففى ذلك الحين الذى كانت تجرى فيه حياته الجسدية على نمط لا يوحى بالأمل ، يغص بالآلام ، كانت حياته الروحية تنمو وتتطور على نحو جارف . وشأن كل العظام الشرفاء فى مواجهة الموت ، تمثلت حياته امام مخيلته بكل الوضوح والشفافية صريحة مفعمة بقوة الحقيقة .

لقد كان يدفع عن نفسه بعيدا واستنادا الى قوة ارادته الافكار التى تراوده بشأن زوجته واولاده حتى لا تتسلل مشاعر الضعف اليه . غير انه راح يفكر فى حب وحرارة حول اولئك الذين يعيشون قريبا منه ، هنا فى المدينة ، اصدقاء شبابه من امثال ليزا ريبالوفا وكوندراتوفيتش ، لتجتاحه مشاعر الاسى ازاء احتمال عدم معرفتهما بنبأ موته الذى يمكن ان يجعله بريئا فى انظارهما . نعم . . لقد ادرك السبب الذى جاء به الى هذه الزنزانة ، لتضنيه آلام العذاب

لكونه غير قادر ليس فقط على اصلاح خطاه ، بل وشرح ظروفه للآخرين حتى يهدأ روعه ، ويتخذ الآخرون العبرات من ذلك الخطأ .

وذات يوم وحين خلد كوستيفيتش للراحة بعد استجواب الصباح ، ترامت الى اسماعه اصوات الى جوار باب زنزانته الذى صرّ منفرجا عن شخص يحمل على ذراعه شارة الشرطة يتدلى من حزامه مسدس ثقيل مربوط بشريط اصفر . لقد دلف الى الداخل ليتوقف عند باب الزنزانة مناوب الردهة الجندى الالمانى من رجال الدرك ذو الشارب الكث .

وقد استطاع كوستيفيتش الذى تعودت عيناه على ظلمة الزنزانة ، تفحص الشرطى الزائر على الفور . كان ما يزال فى مقتبل العمر ، أشبه بالصبية ، اسمر البشرة ، يرتدى زيا اسود ، غير قادر على النظر طويلا الى كوستيفيتش ، تعتريه مشاعر الحيرة والاضطراب ، يحاول التماسك والظهور بشكل لائق ، يجول فى ارتباك بناظريه الوحشيين ، يتمايل كمن ثبت الى مفصلات .

وذكر جندى الدرك كث الشارب وهو يقهقه عاليا وقبل ان يصفق الباب خلف الشرطى صغير السن :

– وها انت فى قفص الوحش ! وسوف نغلق الباب الآن لنرى ماذا سوف يكون حالك .

وسارع الشرطى بالميل نحو كوستيفيتش الذى افترش الارض متكئا على مرفقيه ، ليهمس اليه موجها اليه نظرة ثاقبة تتسم بالخوف :

– ان اصدقاءك يقظون . فلتنتظر الاسبوع القادم ليلا ، وسوف انذرك مسبقا .

وفى نفس اللحظة انتصب الشرطى واقفا ، وقد ارتدى قناع الوقاحة ، يقول بصوت متردد :

– اننى لن اخافك . لقد تصديت لمن هو اشد ، ايها الالمانى الملعون !

وفتح الجندى الالمانى الباب ضاحكا بصوت عال وصاح بكلمات توحى بالمرح .

وذكر الشرطى الشاب وهو يتمايل بجسده النحيف ازاء شولجا :

– هيه . . أوبلغت المراد ؟ من حسن حظك اننى شخص شريف ولا اعرفك .

وصاح فجأة :

– هيه ، يا انت !

ولوّح بيده النحيفة ، ودفع كوستيفيتش خفيفا فى كتفه التى قبض عليها لحظة من الزمن ، ليجعل كوستيفيتش يشعر فى هذه القبضة الضعيفة بشىء ينم عن ود .

وخرج الشرطى من الزنزانة ، ليصفق الباب ويصر المفتاح فى قفله .

قد يكون ذلك بطبيعة الحال امرا من قبل الاستفزاز . بيد انه ما من سبب يدعو الى ذلك ما دام قد وقع فى قبضتهم واصبح فى امكانهم قتله فى اية لحظة . لعل ذلك يكون من قبيل التجربة لكسب ثقته حتى يفصح له كوستيفيتش عن مكنونه فى حضرة ذلك الشرطى كما لو كان فى حضرة ذويه . لكن هل من المعقول ان يظنونه ساذجا الى هذه الدرجة ؟

وبزغ وميض الأمل فى قلب كوستيفيتش ، وتحركت الدماء دفقات تجتاح جسده القوى الذى اضنته الآلام .

اويعنى هذا ان فيليب بيتروفيتش ما يزال حيا يعمل ؟ هل يعنى ذلك انهم يذكرونه هناك ؟ حقا . . كم كان من الخطأ ان يفكر على نحو متباين !

وتمازجت فى صدره مشاعر العرفان ازاء اصدقائه الذين عنوا بامره ، والأمل فى نجاة اسرته الذى انتعش من جديد ، وفرحة الخلاص المحتمل من آلامه وافكاره التى لا تطاق ، دفقة هائلة تجتاح روحه تناديه للنضال والتمسك بالحياة . وشعر هو الرجل المسن الكبير بدموع الفرح تجيش فى صدره حين تخيل نفسه وقد كتبت له الحياة بما يجعله قادرا على الوفاء بواجبه .

وقد تناهت الى اسماعه وعبر الجدران والابواب الخشبية دلائل حياة السجن . . كيف كانوا يجيئون ويروحون بالمعتقلين ، كيف كانوا يعذبونهم ويردونهم قتلى فيما وراء الجدران بالفناء . وذات ليلة استيقظ على وقع ضجة واصوات ودبيب اقدام فى الزنزانات والردهات ، وصيحات رجال الشرطة بالالمانية والروسية ، وقرقعة

اسلحة ونحيب النسوة والاطفال . لقد راوده انطباع حول انه يجرى ترحيل المعتقلين الى خارج السجن . كما وترامى عاليا هدير محركات بعض عربات اللورى التى راحت تبارح المكان الواحدة تلو الاخرى .

وقد كان ذلك حقيقة واقعة ، اذ انه حين اقتيد للاستجواب الصباحى شعر بان السجن غدا مقفرا .

كانت هذه هى المرة الاولى التى لم يزعجه فيها احد ليلا . وقد سمع هدير محرك سيارة لورى تقترب من السجن ، بينما تعالت اصوات رجال الدرك والشرطة بالسباب المكتوم ، يسارعون فى توزيع المعتقلين على الزنزانات فى صمت ، يجرجرون اقدامهم فى الردهات ، على نحو يبدون معه وكأنما يخجل كل منهم من الآخر . وقد ظلوا يستقبلون المعتقلين طوال الليل .

كان الوقت ليلا حين ايقظوا كوستيفيتش ، يقتادونه للاستجواب دون ان يقيدوا يديه . وادرك انهم لن يكيلون له العذاب . وبالفعل ، فلم يقتادوه الى الزنزانة المخصصة للتعذيب بل الى مكتب المساعد بريوكنر حيث شاهده يجلس فى سرواله الذى شد الى كتفيه بحمالة (كانت سترته الرسمية معلقة على الكرسى بالغرفة التى كانت تسودها الحرارة الخانقة) ، وكذلك بالدر فى زيّه الرسمى الكامل والمترجم شوركا ريباند وثلاثة جنود المان يرتدون ستراتهم رمادية اللون .

وتعالى فيما وراء الباب دبيب خطوات ثقيلة ، ليدلف الى المكتب وقد حنى قامته حتى لا يصطدم باعلى الباب ، سوليكوفسكى رئيس الشرطة فى قبعة قوزاقية قديمة ثم شاهد كوستيفيتش ، يدخل فى اثره ضابط الصف فينبونج الذى كان يكيل له اقسى صنوف العذاب ، برفقة جنود اس اس ، يمسكون برجل مسن فارع القوام ذى وجه بدين قوى ، قيدت يداه خلف ظهره ، حافى القدمين تمزقت ملابسه ليبدو نصف عار . وقد عرف ماتفى كوستيفيتش فيه مواطنه الذى شارك فى النضال الفدائى عام ١٩١٨ . لقد كان بيتروف الذى لم يره طيلة خمسة عشر عاما . وكان واضحا ان الرجل لم يسر حافى القدمين منذ مدة بعيدة ، اصابت الجروح قدميه حتى غدا عاجزا عن السير . ولم تكن قسمات وجهه تحمل كثيرا من التغيرات فى اتجاه الكبر منذ تلك اللحظة التى شاهده فيهـــا كوستيفيتش للمرة

الاخيرة ، حيث بدا بدينا علته الكدمات ، وكل ما هنالك ان السمنة تسللت الى كتفيه وخصره . كما وكان يقف متجهم الوجه وان كان على نحو ينم عن كبرياء .

وساله المساعد بريوكنر :

– هل تعرفه ؟

وترجم شوركا ريباند السؤال الى كوستيفيتش .

وتظاهر كل من بيتروف وكوستيفيتش بانهما لا يعرفان بعضهما البعض ، حيث يلتقيان هنا للمرة الاولى . وظلا على هذا الموقف طوال فترة الاستجواب .

وصاح المساعد بريوكنر فى بيتروف الواقف امامه حافى القدمين متجهم الوجه :

– يا لك من كاذب . . كاذب ، وفار عجوز !

وراح يدق الارض بحذائه العسكرى النظيف بقوة جعلت بطنه المتهدل يترجرج مكانه .

ثم شرع سوليكوفسكى يوجه لكماته القوية الى بيتروف حتى طرحه ارضا . وراودت شولجا رغبة التصدى لسوليكوفسكى ، غير ان صوتا داخليا الهمه بان ذلك يمكن ان يكون فى غير صالـــح بيتروف . كما وشعر علاوة على ذلك بانه قد آن الاوان الذى يكون فيه من الافضل البقاء طليق اليدين . وصار ينظر فى صمت اليهم وهم يوسعون بيتروف ضربا فيما يتمالك نفسه ويرتعش منخاراه .

واقتادوا كليهما فيما بعد الى الخارج .

وعلى الرغم من ان كوستيفيتش لم يتعرض للضرب فى هذه المرة الاّ ان الذهول اصابه ازاء ذلك المشهد الذى جرى امام ناظريه اثناء هذا الاستجواب الثانى فى ذات اليوم ، لدرجة ان جسده الضخم غدا عاجزا عن تحمل كل ذلك . ولم يذكر كوستيفيتش ، كيف اقتيد الى زنزانته ، حيث سقط فاقد الوعى لم يعده اليه سوى صرير المفتاح فى بابها . لقد تعالى الى سمعه صخب عند الباب ، الاّ انه لم يكن قادرا على الاستيقاظ ثم خيّل اليه الباب وقد فتح ليدفعوا عبره الى داخل الزنزانة شخصا ما . وضغط كوستيفيتش على نفسه ، وفتح عينيه ليجد نفسه امام شخص

اسمر الحاجبين كثّهما ، ذى لحية سوداء كما الغجر مال اليه فى محاولة لتأمله .

وكان القادم شخصا ترك عالم الضوء ليدلف الى الزنزانة المعتمة ، وليبدو عاجزا عن تأمل وجه كوستيفيتش ، حيث لم يكن قد تعود بعد على النظر فى عتمة الظلام ، وامّا لأن كوستيفيتش قد غدا ابعد ما يكون عن منظره الاصلى . بيد ان كوستيفيتش عرف فيه على الفور مواطنه ، واحد الذين خاضوا حرب الفدائيين الاولى . انه فالكو مدير المنجم رقم ١ . وهمس كوستيفيتش :

– اندريه ...

– ماتفى ؟ يا له من قدر . . قدر !

واندفع فالكو يحتضن كتفى كوستيفيتش الذى نهض من مكانه بعض الشىء .

– لقد رحنا نبذل جهدنا لاطلاق سراحك ، بينما تاتى بى الاقدار اليك فى مكانك هذا . دعنى اتاملك .

ومضى فالكو يقول بصوت حاد مبحوح :

– ماذا فعلوا بك !

وترك فالكو رفيقه ، ليروح يذرع الزنزانة . وقد بدا وكأنما استيقظت فيه طبيعته الغجرية المتوقدة ، فيما ظهرت الزنزانة ضيقة لدرجة بدا معها اشبه فعلا بالنمر المحبوس فى قفصه .

وذكر كوستيفيتش فى هدوء ، ليجلس وقد احاط ركبتيه بيديه :

– يبدو انهم قد نالوا منك كذلك !

كانت ملابس فالكو غارقة فى الاتربة ، وكم سترته نصف ممزق ، فيما تمزق سرواله عند احدى ركبتيه ، وتفللت خيوطه عند الركبة الاخرى ، وسحجت جبهته . ومع كل ذلك فقد كان فالكو ينتعل حذاء .

وذكر كوستيفيتش بارتياح وقد تخيل ما جرى :

– يبدو انك خضت عراكا ! يالك من رائع ! على اى حال هون عليك ، فليس ثمة ما يدعو الى التاثر كثيرا . فلتجلس لتقص على اخبار الخارج .

واقتعد فالكو الارض قبالة كوستيفيتش متربعا ساقيه ولمس الارض ، مصعرا خده ، ليتحدث عن نفسه فى سخرية :

– يبدو اننى كنت مسئولا كبيرا ، لم اتعود على ذلك . ماذا يمكننى ان اقوله ؟ ان احوالنا على ما يرام . اما عن نفسى ...

وفجأة علت وجه ذلك الشخص الخشن امارات آلام فظيعة ، جعلت القشعريرة تصيب ظهر كوستيفيتش . واشاح فالكو بيده ، ودفن وجهه فيما بين راحتيه .

الفصل الثالث والثلاثون

استطاع فالكو منذ تلك اللحظة التى تيسر له فيها توطيد الاتصالات بفيليب بيتروفيتش ، تجميع كل الخيوط السرية لعمليات التخريب فى المنطقة بوصفه رجلا يعرف جيد المعرفة كافة مناجم مؤسسة «فحم كراسنودون» .

لقد تيسرت لفالكو دائما معرفة كل المبادرات الاقتصادية للادارة عن طريق باراكوف الذى اتاحت له ذلك صلته القريبة منها ، وبالملازم شفيديه بالذات ، ولاسيما بمساعده فيلدنير الذى كان على النقيض من رئيسه الصموت ثرثارا كبيرا .

ولقد كان يصعب على الغريب ، بل واكثر الغرباء دقة فى الملاحظة معرفة الصلة بين لقاء دورى يجرى بين باراكوف وفيلدنير ، وظهور فتاة فى شوارع كراسنودون متواضعة تتسم بالهدوء ، ذات وجه برونزى غير متسق القسمات لفحته اشعة الشمس تدعى اوليا ايفانتسوفا . لقد كانت هذه الفتاة المتواضعة تعرج الى احد البيوت لبيع بعض ثمار الطماطم ، بينما تدلف الى بيت آخر لمجرد زيارة اصحابه ، فيما وبعد برهة قليلة وعلى نحو يتسم بالغرابة تهوى كل مبادرات الادارة الالمانية .

لقد كانت اوليا ايفانتسوفا تعمل بصفة مراسلة خاصة بفالكو . بيد ان باراكوف لم يكن يعلم من فيلدنير مجرد اخبار الشئون الاقتصادية . فقد كان رجال الدرك المحلى يقضون الليل والنهار حول مائدة الشراب بمنزل الملازم شفيديه . وكان كل ما يثرثرون

به فيما بينهم عن غير قصد ، ينقله فيلدنير كذلك فى اطار ثرثرته وعن غير قصد .

وكم من الليالى سهرها فيليب بيتروفيتش يقلب الامور بحثا عن وسيلة لتخليص ماتفى كوستيفيتش وكل المعتقلين بسجن كراسنودون . غير انه ظل وقتا طويلا عاجزا حتى عن ايجاد وسيلة اتصال بذلك السجن .

ولم يستطع ايجاد هذه الوسيلة سوى ايفان تورکينيتش .

وقد انحدر تورکينيتش من احدى عائلات كراسنودون التى تتمتع بسمعة طيبة ويعرفها ليوتيكوف . وكان رب هذه العائلة فاسيلى اجناتيفيتش عامل مناجم قديم خرج الى التقاعد بسبب عجز اصابه ، اما زوجته فيونا ايفانوفنا فقد كانت اوكرانية من محافظة فورونيج تروّست ، وانتقلا سويا الى الدونباس فى الايام العجاف من عام ١٩٢١ . وقد كان فانيا آنذاك طفلا رضيعا حملته امه طوال الطريق ، اما شقيقته الكبرى فقد قطعته سيرا على قدميها ممسكة بذيل رداء امها .

لقد كانت الاسرة تعيش فقرا مدقعا لدرجة ان احد اعضاء الجمعية التعاونية ، — رجل مسن وزوجته عاقران ، راحا يقنعان فيونا ايفانوفنا حين استضافاهم فى ميلليريفو ترك الطفل الصغير لهما كى يتوليا تربيته . وقد اصاب التردد الوالدين ، الاّ انهما وبعد نقاش وجدل وخصام ودموع رفضا تسليم ابنهما الحبيب .

وهكذا راحت الاسرة تسير حتى بلغت منجم سوروكين حيث حطت رحالها . وكان فاسيلى اجناتيفيتش وفيونا ايفانوفنا يهويان ترديد قصة محاولة عضو الجمعية التعاونية تبنى ابنهما فى ميلليريفو ، ورفضهما لها على مسمع ضيوفهما ، وبعد ان كان ايفان قد شب وتخرج من مدرسته الثانوية والتحق بحلقة التمثيل .

واثناء فترة اختراق الالمان لخطوط الجبهة الجنوبية ، تلقى الملازم تورکينيتش قائد البطارية المضادة للدبابات امرا بالصمود حتى الموت وراح يصد هجمات الدبابات الالمانية فى منطقة كالاتش على نهر الدون حتى توقفت مدافعه وسقط جريحا . وقد جرى اسره مع فلول السرايا والبطاريات . ولما كان عاجزا عن الحركة فقد اطلق عليه ملازم المانى الرصاص ، ليبقى مكانه . غير انه لم

يكن قد لفظ انفاسه الاخيرة ، لتلتقطه ارملة قوزاقية تولت علاجه . ولم ينقض سوى اسبوعين حتى ظهر فى منزله ، تغطيه الضمادات طولا وعرضا تحت سترته .

وقد تولى ايفان تورکينيتش ايجاد الصلة مع سجن المدينة عبر زميلى الدراسة القديمين منذ ايام مدرسة جوركى : اناتولى كوفاليوف وفاسيا بيروجوك .

كم كان من الصعب ان يجد الانسان صديقين متباينى الشكل والطباع الى هذا الحد !

لقد كان كوفاليوف فتى ذا قوة خارقة ربع القامة بطىء الحركة طيبا لدرجة السذاجة . كان يود منذ طفولته ان يصبح من الرباعين المشاهير على الرغم من ان الفتاة التى كان يتودد اليها كانت تسخر منه مؤكدة ان لاعبى الشطرنج يعتلون اسمى درجات عالم الرياضة ، بينما يعتلى الرباعون ادنى درجاته ، وليس هناك من يدنو عنهم سوى خلايا الاميبا . لقد كان يعيش نمطا من الحياة غايـــة فى الاعتدال . فلم يكن يهوى الشراب والتدخين ، كان يسير عارى الراس دون معطف فى صقيع الشتاء ، يستحم كل صباح فى حوض المياه المحفور بين الجليد ، يتدرب يوميا على رفع الاثقال .

اما فاسيا بيروجوك فقد كان نحيفا سريع الحركة ، متوقد الطباع ذا عينين سوداوين ، موضع اعجاب الفتيات ، يعشقهن فى نفس الآن ، محبا للعراك . ولم يكن يهوى من انواع الرياضـــة الاّ الملاكمة . وبوجه عام فقد كان من هواة المغامرة .

وقد بعث تورکينيتش بشقيقته الصغرى المتزوجة الى بيروجوك لاحضار بعض الاسطوانات ، لتعود بالاسطوانات وفاسيا فى آن واحد . اما فاسيا فقد وصل برفقة كوفاليوف بحكم الصداقة .

وكم كانت درجة سخط كافة سكان كراسنودون ، ولاسيما الشباب منهم الذين يعرفون شخصيا كوفاليوف وبيروجوك حين شاهدوهما يحملان علامة الصليب المعقوف على كميهما ، بعد ان انخرطا فى عداد رجال الشرطة الذين يتدربون على مهام وظيفتهـــم الجديدة فى الارض القفرة المجاورة للحديقة العامة وتحت اشراف رقيب ذى علامات كتف زرقاء .

لقد كانا يتخصصان فى المحافظة على النظام بالمدينة . كانا

يتوليان القيام بالمناوبة فى ادارة المدينة ، ادارة المناجم والادارة الزراعية للمنطقة ، وفى مكتب العمل ، والسوق ، وكذلك الدوريات الليلية . وكانت شارة الشرطى دليلا على اخلاصهما اثناء تعاملهما مع الجنود الالمان فى ادارة الدرك . ولذا فقد استطاع فاسيا بيروجوك معرفة مكان شولجا ، بل والتسلل الى زنزانته للتلميح له بان الاصدقاء يسعون من اجل تخليصه .

تخليصه ! لقد كانت الرشوة والدهاء غير كافيين لذلك . فلم يكن اطلاق سراح ماتفى كوستيفيتش والاخرين امرا ممكنـــا الاّ بمهاجمة السجن .

وقد كانت هذه العملية فى مقدور منظمة العمل السرى بالمنطقة . وفى ذلك الحين كانت المنظمة قد ضمت الى صفوفها ضباط الجيش الاحمر من اولئك الجرحى الذين كانوا بمستشفى كراسنودون ، وانقذتهم جهود سيريوجكا تيولينين وشقيقته نادية والممرضة لوشا .

وقد اسفر ظهور توركينيتش عن ان مجموعة الشباب التى شكلها فيليب بيتروفيتش ، لدى لجنة الحزب السرية بالمنطقة صار لها قائد عسكرى ، وعسكرى بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى .

وقد كانوا يودون تشكيل التنظيم الشبابى على غرار لجنة العمل السرى للمنطقة ، بما يعنى تحولها اثناء العمليات العسكرية الى هيئة قيادة ، اما المشرفان على لجنة المنطقة باراكوف وليوتيكوف فيتوليان اعمال قائد وقوميسار الفصيل .

وقد كان باراكوف وليوتيكوف يشرفان خلال تلك الايام من شهر اغسطس على اعداد المتطوعين الذين سوف يقومون بالهجوم على السجن . وقام ايفان توركينيتش واوليج بتفويض منهما باختيار مجموعة الشباب التى سوف تشترك فى هذه العملية . وقد اتخذ فانيا واوليج اعوانا لهما زيمنوخوف وسيريوجكا تيولينين وليوبا شيفتسوفا ويفجينى ستاخوفيتش بوصفه شخصا عمّدته رائحة البارود .

وعلى الرغم من انهماك اوليانا فى دورها الجديد ، وادراكها لاهمية سرعة اللقاء مع اوليج ، لم تكن قد تعودت على خداع ابيها وامها ، علاوة على ان الامور المنزلية شغلتها لدرجة انها لم تستطع

سوى فى مساء اليوم التالى الذهاب الى اوليج بعد حديثها مع فيكتور واناتولى ، حيث لم تجده بالمنزل .

كان الجنرال بارون فون فينتسيل واركانه قد رحلـــوا الى الشرق . اما الخال كوليا الذى فتح الباب لاوليانا ، فقد عرفها على الفور الاّ انه ، وكما بدا لها ، لم يكن سعيدا بلقائها ، بل ولم يرحب بها بعد كل ما تعرضا له سوية ، وطوال فترة الفراق التى لم ير فيها كل منهما الآخر .

ولم تكن بالمنزل الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا . وكانت مارينا واوليا ايفانتسوفا تجلسان متقابلتين حول المائدة ، تلفان خيوط الصوف .

وما ان شاهدت مارينا اوليانا ، حتى وقعت شلّة الصوف عن يدها واندفعت تعانقها . ثم قالت فى فرح وقد ترقرقت الدموع فى مآقيها :

– اوليتشكا ! اين كنت ؟ فلتحل اللعنة بهم هؤلاء الاشرار ! اننى افك جاكتتى لنصنع منها حلة لابنى الصغير . اذ اننى اظنهم سوف يصادرون الجاكتة على كل حال ، اما ملابس الصغير فلربما يبقون عليها .

وراحت بلهجتها السريعة تستعرض طريقهما المشترك ، ومقتل الاطفال عند المعبر ، وانفجار القنبلة فى مديرة ملجـــأ الاطفال ، ومصادرة الالمان لملابسهما الحريرية .

وراحت اوليا ممسكة بالصوف فى يديها القويتين اللتين علتهما السمرة الشديدة ، تكسو وجهها امارات الغموض والقلق كما بدا لاوليانا ، تشخص بناظريها فى صمت ، ودون ان يرف لها جفن .

ولم تر اوليانا ضرورة لشرح اسباب مجيئها ، ولم تذكر سوى خبر القبض على والد فيكتور . والقت اوليا دون ان تغير وضع يديها ، بنظرة سريعة الى الخال كوليا الذى بادلها اياها . وعلى الفور ادركت اوليانا ان الخال كوليا لم يكن بشوشا مرحبا ، بل كان قلقا لسبب لم تعرف كنهه . وتملكتها مشاعر القلق المبهم كذلك .

وذكرت اوليا ضاحكة دون ان تتخلى عن امارات الغموض التى تبدو عليها ، انها اتفقت على اللقاء مع بنت عمها نينا عند الحديقة العامة ، وسوف تعودان سوية . وقد ذكرت ذلك دون ان توجه حديثها لاحد ، ثم بارحت الغرفة على التو .

وظلت مارينا تواصل ثرثرتها دون ان يراودها ادنى شك ازاء كل ما يجرى حولها .

وعادت اوليا ونينا بعد برهة من الوقت .

وذكرت نينا دون ان تبتسم :

– لقد كنا نتحدث بشأنك . هل تودين ان أعرفك على من كنت أتحدث معه عنك ؟

وصحبت اوليانا فى صمت الى وسط المدينة بعد ان قطعتا طريقهما عبر الشوارع والافنية . ولم تنظر نينا طوال الطريق الى اوليانا ، وكانت امارات التشتت والوحشية تكسو عينيها الواسعتين الكستنائيتين .

وتساءلت اوليانا فى هدوء :

– ماذا حدث يا نينا ؟

– لعلهم يبلغونك هنا بما حدث ، اما انا فلست استطيع ان اقول شيئا .

وذكرت اوليانا :

– هل تعلمين ان ابا فيكتور بيتروف قد اعتقل ؟

واشاحت نينا بيدها قائلة :

– حقا ؟ لقد كان ذلك شيئا متوقعا .

ودلفتا الى منزل نموذجى لا يختلف فى شىء عما حوله من البيوت ، لم تكن اوليانا قد زارته من قبل .

وهناك كان عجوز ضخم الجسد مستلقيا على سرير خشبى عريض يرتدى كافة ملابسه ، استقر راسه بين الوسائد المنفوشة بحيث لم تظهر منه سوى جبهته وانفه البدين واهدابه الصفراء الكثيفة ؛ وامراة تقدم بها العمر نحيفة ، بارزة العظام كستها الشمس صفرة ، اقتعدت كرسيا الى جوار الفراش وانهمكت فى حياكة شىء ما ؛ وامراتان شابتان جميلتان حافيتا الاقدام الكبيرة ، تجلسان بلا عمل على الاريكة المجاورة للنافذة . وقد توجه كل هؤلاء بانظارهم يستطلعون اوليانا بفضول . والقت اوليانا عليهم بالتحية ؛ الا ان نينا صحبتها بسرعة الى الغرفة الاخرى .

وفى الغرفة الكبيرة وحول المائدة التى استقرت عليها الاقداح وزجاجات الفودكا والطعام جلس عدد من الشباب وفتاة واحدة .

وعرفت اوليانا فى الجالسين اوليج ، وفانيا زيمنوخوف ، ويفجينى ستاخوفيتش الذى كان قد القى قبيل اندلاع الحرب محاضرة امام سكان «بيرفومايكا» . كما وكان هناك شابان غير معروفين . اما الفتاة فكانت «لوبكا الممثلة» التى شاهدتها اوليانا الى جوار سور منزلها فى ذلك اليوم المشهود . وقد كانت ظروف ذلك اللقاء غريبة الى الحد الذى اصابها بالذهول حين وقع نظرها على لوبا هنا فى ذلك المكان . غير انها وفى نفس اللحظة ادركت مغزى سلوكها آنذاك على نحو لا يدع مجالا للشك .

وأدخلت نينا اوليانا الى الغرفة لتتركها وترحل .

ونهض اوليج يستقبل اوليانا وقد اعتراه بعض الارتباك وجال بعينيه بحثا عن مكان لها ، فيما ظهرت على شفتيه ابتسامة واسعة . وقد ادخلت هذه الابتسامة الراحة اليها فجاة ، وقبل سماعها لتلك الانباء الغامضة المريعة .

ففى نفس الليلة التى جرى فيها اعتقال والد فيكتور ، جرت بالمدينة حملة اعتقالات واسعة شملت تقريبا كل من لم يسعفه الوقت للهجرة من اعضاء الحزب ورجال السلطة المحلية وكل من مارس النشاط الاجتماعى بشكل او بآخر ، وكثيرا من المعلمين والمهندسين ومشاهير عمال المناجم وبعض العسكريين الذين تخفوا بالمدينة .

وقد ذاع هذا الخبر الرهيب فى كل انحاء المدينة منذ الصباح . غير انه لم يكن هناك سوى فيليب بيتروفيتش وباراكوف يعرفان مدى الضرر الذى الحقته بالمنظمة السرية تلك العملية التى قام بها الدرك ، ليس نتيجة لفشل احد منا بل لاجل اتخاذ تدابير وقائية . فقد القت الشرطة اثناء «دورياتها العادية» القبض على كثير من اولئك الذين كان من المفروض ان يشاركوا فى عملية الهجوم على السجن .

وهرعت بنتا العم اوليا ونينا ايفانتسوفا الى اوليج ، الذى انتقل اليه وعلى التو شحوب وجهيهما البرونزيين ، حيث ابلغتاه نقلا عن ايفان كوندراتوفيتش نبأ القبض على العم اندريه الليلة الماضية .

لقد تعرضت للتفتيش فجاة الشقة التى كان يختفى بها فالكو والتى لم يكن هناك من يعرفها سوى كوندراتوفيتش . وكما اتضح فيما بعد ، فانهم لم يكونوا يبحثون عن فالكو بل عن زوج صاحبة

الشقة الذى كان قد رحل مع النازحين . وقد جرى التفتيش فى احد مساكن حى «شانغهاى» الصغيرة ، وقام به اجنات فومين الذى عرف فالكو على التو .

وطبقا لاقوال صاحبة الشقة ، اتسم فالكو اثناء القبض عليه بالهدوء . الاّ انه وحين صفعه فومين على وجهه ، استشاط غضبا ووجه اليه لكمة طرحته ارضا . وعندئذ اندفع جنود الدرك يمسكون بفالكو .

وسارع اوليج ونينا بالذهاب الى توركينيتش بعد ان تركا اوليا مع ذويه . فقد كان غاية فى الضرورة ومهما كان الامر الالتقاء بفاسيا بيروجوك او بكوفاليوف .

بيد ان ما عرفته شقيقة توركينيتش الصغرى والتى ذهبت الى مسكن بيروجوك وكوفاليوف كان امرا مبهما يثير القلق . فقد ذكر اهلهما انهما قد غادرا المنزل فى وقت مبكر من مساء الامس . وقد جاءهما بعد وقت قليل الشرطى فومين الذى يعمل معهما بحثا عنهما ، وتساءل عن مكانهما واغلظ القول بسبب عدم استطاعته العثور عليهما . كما وجاء بعد ذلك ليلا ، وراح يردد «ان جزاءهما سوف يكون عظيما» . وقد عاد كوفاليوف وفاسيا قبيل مطلع الصبح بقليل مخمورين لدرجة شديدة ، مما كان امرا غاية فى الغرابة حيث ان كوفاليوف لم يكن يقرب الخمر ابدا . وقد اخبرا اهليهما انهما كانا يسكران ، وخلدا الى النوم على التو دون ان يعيرا تهديدات فومين التى عرفا بها ادنى اهتمام . وفى الصباح جاءت الشرطة والقت القبض عليهما .

وقد ابلغ اوليج عن طريق نينا كل هذه الانباء بولينا جيورجيفنا سوكولوفا حتى تنقلها فى اول فرصة الى فيليب بيتروفيتش . وجرى استدعاء سيريوجكا تيولينين وليوبكا وفانيا زيمنوخوف وستاخوفيتش لحضور اجتماع بشقة توركينيتش .

وقد استعر جدل بين ستاخوفيتش وفانيا فى تلك اللحظة التى ولجت فيها اوليانا الى الغرفة ، والذى سرعان ما استولى عـــلى اهتمامها .

وكان ستاخوفيتش يقول :

– لست افهم ، اين المنطق فى هذا ؟ لقد رحنا نستعد لاطلاق

سراح اوستابتشوك ، وتعجلنا ذلك وجمعنا السلاح وجندنا الشباب ، وحين يلقون القبض على العم اندريه ، اى حين تفاقمت ضرورة التعجيل بالعملية ، يقترحون علينا الانتظار الى ما هو ابعد من ذلك .

يبدو ان ستاخوفيتش كان يتمتع بين الشباب بمكانة جيدة . وتساءل فانيا بصوته الأجش :

– وماذا تقترح ؟

– اننى اقترح مهاجمة السجن فى موعد لا يتعدى بعد غد ليلا . لقد كنا قادرين على القيام بذلك فى هذه الليلة لو كنا قد قمنا بالاستعداد منذ صباح اليوم ، وبدلا من الانخراط فى الاحاديث .

وراح يواصل توضيح مغزى فكرته . وقد لاحظت اوليانا انه تغير منذ تلك اللحظة التى استمعت فيها الى خطابه باجتماع الكومسومول فى «بيرفومايكا» قبيل الحرب . وكان آنذاك يورد فى طلاقة كلمات الكتب من امثال «المنطق» ، و«الموضوعية» و«التحليل» ، الاّ انه لم يكن يبدو واثقا من نفسه الى هذا الحد . انه اليوم يتحدث فى هدوء ودون اللجوء الى اية ايماءات او اشارات ياتيها بيديه . كان يقف مرفوع الهامة استقر شعره مصففا فوق راسه ، ومتكئا بقبضتى يديه النحيفتين الطويلتين الى المائدة .

ويبدو ان اقتراحه اذهل الجميع ، حيث لم يظهر من يعلق عليه فى الحال .

واخيرا ذكر فانيا فى خجل ، وان كان بصوت يتسم بالقوة :

– انك تتلاعب بمشاعرنا . . هذا ما اقوله لك . وليس هناك داع للمناورة . وعلى الرغم من اننا لم نتحدث ابدا عن ذلك ، الاّ اننى اظنك ، شان الجميع ، تعرف جيدا ان عملية اعداد الشباب لمثل هذه المسالة الخطيرة لم تجر وفقا لمبادرتنا الشخصية . اذ لا نملك حق الاتيان باية حركة ريثما تصلنا التعليمات بهذا الشان فذلك امر لن يسفر عن انقاذ المعتقلين ، بل عن اعتقال آخرين

وفجأة مضى يقول فى غضب :

– اننا لسنا صغارا فى نهاية الامر !

وضم ستاخوفيتش شفتيه على نحو يوحى بحب الذات :

– لست ادرى . . ربما يكون ثمة من لا يثق بى ، ومن لا يحدثنى عن كل شىء . وعلى اى حال فلم اتلق بعد اية تعليمات

واضحة صريحة . وما لبثنا ننتظر وننتظر ، وسوف ننتظر حتى يجهزون على المعتقلين ، ان لم يكونوا قد قتلوهم بالفعل .

واتسمت هذه الجملة الاخيرة بشيء من القوة .

وذكر فانيا غاضبا :

– اننا نتألم من اجل هؤلاء الناس وبدرجة متساوية . لكننى اسالك ما اذا كنت حقا تظننا قادرين وحدنا على ذلك ؟

وتوجه ستاخوفيتش يسأل فجأة اوليانا ، محدقا فى عينيها على نحو يوحى بالسيطرة :

– هل نستطيع ان نجد شبابا شجعانا مخلصين من ابناء حى «بيرفومايكا» ؟

واجابته اوليانا :

– نعم ، بالطبع !

ونظر ستاخوفيتش الى فانيا دون ان ينبس ببنت شفة .

وجلس اوليج وقد دس راسه فيما بين كتفيه وراح يمعن النظر فى جدية الى ستاخوفيتش ، ثم الى فانيا تارة ، ويشخص بناظريه الكبيرين الى الامام تارة اخرى ، ليبدوان وكأنما يترقرقان بالدموع .

اما سيريوجكا فقد التزم الصمت منكس الراس . وركز توركينيتش انظاره على ستاخوفيتش ، دون ان يشترك فى ذلك النقاش ، وكأنما يحاول التغلغل الى اعماق افكاره .

وكانت ليوبكا قد انتقلت من مكانها فى ذلك الحين لتستقر الى جوار اوليانا ، متسائلة فى همس :

– هل عرفتنى ؟ او تذكرين والدى ؟

– لقد حدث كل ذلك على مشهد منى . .

وراحت اوليانا تنقل همسا تفاصيل استشهاد جريجورى ايليتش . وذكرت ليوبكا :

– كم من المصاعب والآلام يتحتم على المرء معاناتها !

ومضت تقول وامارات القسوة المشوبة بالسذاجة تبدو فى عينيها :

– آه لو تعلمين مدى الحقد الدفين فى قلبى تجاه اولئك الفاشست ورجال الشرطة . كم اود تمزيقهم باصابعى اربا اربا .

وذكرت اوليانا فى هدوء :

– نعم . . نعم . اننى اشعر احيانا فى قرارة نفسى بمثل شعور الانتقام هذا ، لدرجة تجعلنى اخشى التهور .

وهمست ليوبكا متسائلة :

– هل يروقك ستاخوفيتش ؟

وهزت اوليانا كتفيها .

وذكرت ليوبكا فيما تفكر فى سيرجى ليفاشوف :

– انه يهوى الاستعراض كثيرا . غير انه على حق ، حيث يمكن العثور على الشباب بطبيعة الحال .

وأجابتها اوليانا هامسة :

– ان الامر ليس فى العثور على الفتيان ، بل فيمن سوف يتولى الاشراف علينا .

وبدا الامر وكأنما تواطات مع اوليج الذى ذكر فى نفس اللحظة ، وبصوت فتى رنان ، لتتزايد تأتأته ويوجه اليه الصبية انظارهم :

– اننا يمكن ان نجد الصبية الجسورين فى كل وقت . غير ان الامر يكمن فى ضرورة توفير الاشراف والقيادة . ذلك لأننا لسنا بمنظمة ! لقد تجمعنا للتشاور وتبادل الاحاديث . ان لدينا حزبا ، ولسنا نملك حق العمل بدون اشرافه ، ورعايته !

وذكر ستاخوفيتش فيما ارتسمت على وجهه امارات الارتباك والاسى :

– كان يجب الاشارة الى ذلك ، والا يبدو الامر وكأننى اقف ضد الحزب . لقد كنا قبل ذلك على صلة بك وبفانيا توركينيتش وليس بالحزب . يجب عليكم توضيح الامر بكل التفاصيل والاشارة الى اسباب استدعائنا اليوم ؟

– هاكم السبب !

قالها توركينيتش بنفس صوته الخافت الهادئ حتى التفت الجميع اليه . ومضى يقول :

– يجب ان نكون على استعداد . فمن اين تدرى انهم لن يستدعونا هذه الليلة حقا ؟

واذ القى بهذا السؤال ، توقف بانظاره على ستاخوفيتش الذى لزم الصمت . ومضى توركينيتش يقول :

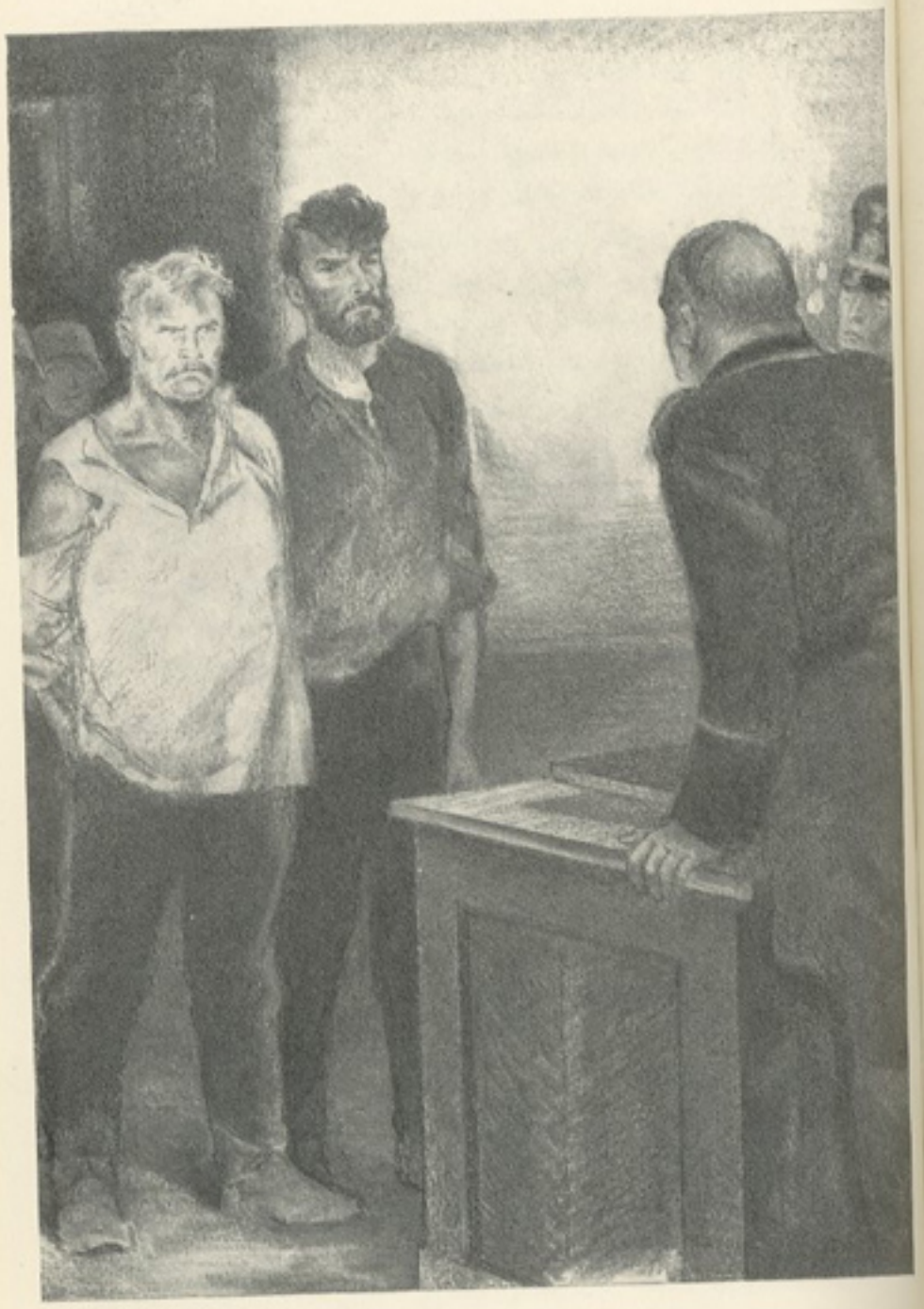

– هذا اولا . اما ثانيا . . فنحن لا ندرى ماذا حدث لكوفاليوف وبيروجوك . وهل يمكننا العمل دون خطة واضحة ؟ اننى لن اسمح لنفسى ابدا النيل من حق الشابين . لكن ما العمل اذا كانا قد اخفقا ؟ وهل يمكننا اتخاذ خطوة واحدة دون اتصال بالمعتقلين ؟

وذكر اوليج بلهجة سريعة :

– اننى سوف اتولى ذلك . لا ريب ان احدا من الاقارب سوف يرسل اليهم طعاما ، يمكن ان ندس فيه او فى الاوانى قصاصة صغيرة . اننى سوف اتولى تنظيم هذا الامر بمساعدة ماما . .

وذكر ستاخوفيتش ساخرا :

– بمساعدة ماما !

وتضرّج وجه اوليج بالحمرة ، وواصل ستاخوفيتش حديثه قائلا :

– يبدو انك لا تعرف الالمان .

وتمالك اوليج نفسه بالكاد وذكر متحاشيا النظر الى ستاخوفيتش :

– لا داعى للتكيف مع ظروف الالمان ، حيث ينبغى ان نرغمهم على التكيف مع ظروفنا . ما رايك يا سيريوجا ؟

وذكر سيريوجكا فى ارتباك :

– هذه هى القضية . لا تخشى فسوف نجد القوى اللازمة لذلك !

وسرعان ما انتعش ستاخوفيتش ، حيث شعر بمن يؤيد موقفه .

وتضرجت وجنتا اوليج لينهض قائلا :

– اما انا فاقول اننا لا نملك منظمة ولا انضباطا !

وفى هذه اللحظة فتحت نينا الباب ، ليدلف الى الغرفة فاسيا بيروجوك . وقد كانت الجروح والكدمات تغطى وجهه ، بينما كان ذراعه مربوطا .

لقد كان منظره غريبا عصيبا مما جعل الجميع ينهضون من اماكنهم يندفعون نحوه فى حركة آلية . وبعد صمت وجيز سأله توركينيتش :

– اين فعلوا بك هكذا ؟

– فى مقر الشرطة .

وقف بيروجوك الى جوار الباب ينظر الى الحاضرين بعينيه السمراوين المفعمتين بالأسى والارتباك .

– واين كوفاليوف ؟ الم تر رجالنا المعتقلين ؟

واجاب بيروجوك :

– اننا لم نر احدا . لقد اوسعونا ضربا فى مكتب رئيس الشرطة .

وذكر توركينيتش غاضبا ، دون ان يرفع صوته :

– لا تكن طفلا ، وحدثنا عن الامر بالتفصيل . أين كوفاليوف ؟

واجاب بيروجوك بشىء من التأفف :

– ان كوفاليوف يستريح بعد ذلك العناء فى منزله . وماذا يمكن ان اقوله ؟ لقد استدعانا سوليكوفسكى بالامس ليأمرنا بالامتثال فى مكتبه عند المساء ومعنا اسلحتنا ، حيث سوف نتوجه لاعتقال احد المواطنين ، لكنه لم يذكر اسمه . وقد كانت هذه هى المرة الاولى التى يوكل الينا مثل هذا العمل ، كما ولم نكن نعلم بطبيعة الحال ان ذلك كان فى اطار حملة اعتقالات واسعة . وعدنا ادراجنا نفكر «كيف لنا اعتقال احد اخواننا ؟ اننا لن نغفر لنفسينا ذلك ما حيينا !» . . وذكرت لأناتولى : «فلنذهب الى خمّارة سينيوخا لنشرب حتى الثمالة ، وبحيث لا نعود ، على ان نقول فيما بعد ان الشراب قد افقدنا ذاكرتنا» . وقلبنا الامر لنصل الى نتيجة انهم لن يستطيعوا شيئا معنا ، حيث لسنا موضع شكوكهم ؛ ولن يفعلوا بنا ، وعلى أسوا الاحوال ، سوى ضربنا وطردنا من الخدمة .

ومضى بيروجوك يقول فى ارتباك بالغ :

– وقد كان ذلك ما حدث . فقد احتجزونا لبضع ساعات ثم قاموا باستجوابنا . . وضربنا . . وطردنا من خدمتهم .

وكان مظهر بيروجوك ومع كل جدية الامر ، يدعو الى الشفقة والضحك . كما وكان ذلك امرا يتسم بالغباء لدرجة ان الابتسامة علت شفاه الجميع مشوبة بمشاعر الارتباك .

وذكر اوليج بصعوبة بالغة ، بينما علت عينيه امارات الغضب على نحو يتسم بالقسوة :

– هذا بينما يظن بعض الرفاق انهم قادرون على مهاجمة مقر الشرطة الالمانية !

لقد كان يشعر بالخجل ازاء ليوتيكوف حيث ان كثيرا من سمات عدم الانضباط والتنظيم والرعونة الصبيانية شابت اول عمل جدى انيط بالشباب . لقد كان يعانى مشاعر الخجل ازاء رفاقه ، لكونهم

يعيشون نفس المعاناة التى تضنيه . كما وكان ساخطا ازاء كون ستاخوفيتش مغرورا معتزا بنفسه الى هذا الحد . الى جانب انه كان يظن ستاخوفيتش وبخبرته القتالية ، يملك حق الامتعاض من طريقة اوليج فى تنظيم كل هذه العملية . هذا وقد بدا لاوليج ان العملية قد فشلت بسببه ونظرا لضعفه ، مما جعله مفعما بمشاعر الادانة الاخلاقية الذاتية ، يحتقر نفسه اكثر مما يحتقر ستاخوفيتش .

الفصل الرابع والثلاثون

بينما كان اجتماع الصبية جاريا فى شقة توركينيتش كان اندريه فالكو وماتفى شولجا يمثلان امام المساعد بريوكنر ونائبه بالدر فى نفس الغرفة التى جرت فيها مواجهتهما ببعضهما البعض .

كان كلاهما مسنا ربع القامة عريض الكتفين ، يقفان متجاورين مثل شجرتى بلوط تشابكت جذورهما وسط المروج . وقد كان فالكو انحف قليلا ، اسمر البشرة ، قطوبا ، تومض حدقتا عينيه من تحت حاجبيه الكثين على نحو يوحى بالغضب ، اما وجه كوستيفيتش الزاخر بالنمش فقد كان يتسم بما يوحى بالهدوء على الرغم من قسماته الرجولية الواضحة .

وقد كان عدد المعتقلين كبيرا لدرجة انهم راحوا يستجوبونهم وعلى مدى عدة ايام فى مكاتب المساعد بريوكنر ، ونائبه بالدر ورئيس الشرطة سوليكوفسكى . غير انهم لم يستدعوا بعد فالكو وكوستيفيتش مرة واحدة . بل وبلغ الأمر بهما انهم راحوا يحسنون تغذيتهما ، افضل مما كان الأمر مع شولجا وحده . وطوال تلك الايام تناهت الى اسماع كليهما فيما وراء الجدران التاوهات والشتائم ودبيب الاقدام والحركة المستمرة وقرقعة السلاح ، ورنين الدلاء والطسوت ، وطرطشة المياه حين كانوا يغسلون الارضية من الدماء . واحيانا كان يتعالى بكاء طفل فى زنزانة بعيدة .

واخيرا اقتادوهما الى التحقيق ، دون ان يقيدوا اياديهما ، ومن هنا عرفا انهم قد يحاولون رشوتهما وخداعهما بالرقة والدهاء . بيد انهم وحتى يظلا متمسكين بكل اطر النظام الحديدى تواجد بغرفة

المساعد بريوكنر وعلاوة على المترجم ، اربعة جنود مسلحين ، اما ضابط الصف فينبونج الذى اقتاد المعتقلين ، لزم مكانه خلفهما ممسكا بمسدسه .

وبدأ الاستجواب بالتحقق من شخصية فالكو ، والذى ذكر كل البيانات الخاصة به . فقد كان شخصا تعرفه المدينة باسرها ، ومن ثم فقد كان يعرفه شوركا ريباند . وحين كانت تجرى ترجمة أسئلة المساعد بريوكنر ، شاهد فالكو فى عينى شوركا ريباند السمراوين امارات خوف وفضول حاد .

ثم سأل المساعد بريوكنر فالكو عما اذا كان يعرف الشخص الواقف الى جواره ، ومن يكون . وابتسم فالكو على نحو ينم عن سخرية ، قائلا :

– لقد تعارفنا فى الزنزانة .

– ومن يكون ؟

ذكر فالكو يخاطب ريباند فى عبوس :

– قل لسيدك الا يحاول التلاعب . انه يدرك اننى لا اعرف سوى ما ذكره لى هذا المواطن .

والتزم المساعد بريوكنر الصمت بعض الوقت ، واستدارت عيناه كما البومة ، مما بدا معه انه لا يعرف اية اسئلة اخرى يوجهها ، ولا يستطيع توجيه الأسئلة اذا ما كان الشخص الجالس امامه غير موثق اليدين ، ولا يتعرض للضرب . وقد كان ذلك مبعث مللة وضجره . غير انه قال :

– اذا ما كان يود ان يلاقى معاملة تتفق ووضعه ، عليه ان يذكر اسماء الذين استبقوا للعمل التخريبى .

وترجم ريباند .

– اننى لا اعرف هؤلاء الاشخاص . ولست اظن ان الوقت اسعفهم لاستبقائهم . لقد عدت من عند الدونيتس حيث لم يسعفنى الوقت للنزوح . ويستطيع كل امرئ تاكيد ذلك .

وقد كان فالكو يتحدث وهو يحدق ناظريه السوداوين فى ريباند ليحولهما فيما بعد الى المساعد بريوكنر .

تجمعت الغضون السميكة التى تنم عن غطرسة وتعال ، عند اسفل ذقن المساعد بريوكنر . وقد ظل واقفا على هذا النحو بعض الوقت ،

ثم التقط علبة سيجاره من على المائدة ، ليتناول منها سيجارا امسك به من منتصفه باصبعيه ، ليناوله الى فالكو ، ويساله :

– هل أنت مهندس ؟

وقد كان فالكو اقتصاديا قديما برز من بين صفوف عمال المناجم منذ أيام الحرب الأهلية ، وتخرج من الاكاديمية الصناعية فى الثلاثينات . غير انه لم تكن هناك ادنى جدوى من اطلاع الألمانى على كل ذلك ، ولذا فقد اجاب على سؤال المساعد بريوكنر بالايجاب متظاهرا بانه لا يلاحظ يده الممدودة اليه بالسيجار .

وذكر المساعد بريوكنر وقد مال برأسه جانبا ، مادا يده بالسيجار :

– ان شخصا فى مستوى تعليمك وخبراتك كان يستطيع ان يشغل مكانة اكثر سموا ، ويحصل على مستوى مادى افضل فى ظل النظام الجديد ، اذا ما رغب فى ذلك .

وهمس شوركا ريباند بنبرة صفيرية تتسم بالخوف :

– خذ السيجار . . خذه !

ولبث فالكو ينظر فى صمت الى المساعد بريوكنر ، فيما تتسم عيناه السمراوان بامارات المرح ، وكانما لم يسمع ما قيل له .

وبدات الرعشة تتسلل الى يد المساعد بريوكنر الكبيرة ، الصفراء المعروقة الممسكة بالسيجار .

وذكر بريوكنر :

– لقد انتقلت كل منطقة الدونيتسك بكل مناجمها ومصانعها الى ملكية الشركة الشرقية لتشغيل مؤسسات الفحم والتعدين .

وتنهد على نحو يوحى بانه كان صعبا عليه التفوه بذلك . ثم مال برأسه كثيرا الى جانبه ومد يده بالسيجار الى فالكو فى اشارة حاسمة قائلا :

– اننى وبتفويض من الشركة أعرض عليك منصب كبير المهندسين بالادارة المحلية .

وهنا جمدت أوصال شوركا ريباند ، هابطا برأسه الى ما بين كتفيه ثم قام بترجمة كلمات المساعد بريوكنر بلهجة بدت وكانما غص حلقه .

ولبث فالكو ينظر فى صمت ولبعض الوقت الى المساعد بريوكنر ، وحتى ضاقت عيناه السمراوان . وذكر :

– اننى أوافق على هذا العرض اذا ما وفرت لى الظروف الملائمة للعمل .

وقد وصل به الامر أن وجد فى نفسه القوة كى يضفى على صوته نبرة الاستعطاف . وكان اكثر ما يخافه ، الا يفهم شولجا اية افاق يمكن أن يوفرها هذا العرض المفاجئ للمساعد بريوكنر . بيد أن شولجا لم يبد اية حركة تجاه فالكو ، ولم ينظر اليه . ولعله كان يدرك حقيقة الأمر .

وبدت على وجه المساعد ابتسامة سافرة اضفت عليه امارات الوحشية ، ليقول :

– الظروف ؟ ان الظروف طبيعية . . عليك فى البداية ان تفصح عن كل قوام تنظيمكم . . كله . . كله ! عليك ان تفعل ذلك وفى هذه اللحظة !

ونظر بريوكنر الى ساعته ليمضى قائلا :

– وبعد خمس عشرة دقيقة سوف تكون حرا . اما وبعد ساعة واحدة فسوف تحتل مكانك فى مكتبك بالادارة .

وادرك فالكو جوهر الامر على الفور ، ليرد بصوته العادى :

– لست اعرف اى تنظيم ، لقد جئت الى هنا بمحض الصدفة .

– يالك من سافل !

صاح بها المساعد بريوكنر فى شماتة ، وكانما يتعجل التاكيد على صحة فهم فالكو له . واستطرد يقول بروسية ركيكة :

– انك هنا الرئيس ! اننا نعرف كل شىء .

ولم يستطع تمالك نفسه ، وغرز سيجاره فى وجه العم اندريه ، وانكسر السيجار لتنغرز فى شفتيه اطراف اصابع الشرطى التى فاحت منها رائحة مقززة .

وفى نفس اللحظة لوح فالكو بقبضة يده السمراء القوية فى حدة لتستقر فيما بين عينى المساعد بريوكنر .

وغمغم المساعد بريوكنر ، وسقط السيجار من يده ، ليهوى فى اثره بكل جسده الى الارض .

ومرت بضع لحظات خيم فيها الذهول على الجميع ، واستقر

خلالها بلا حراك جسد بريوكنر وقد برز بطنه عاليا مستديرا ، ثم تمازج كل ما فى غرفة المساعد على نحو لا يمكن تخيله .

كان الرقيب اول بالدر قصير القامة البدين الهادئ يقف طوال فترة التحقيق صامتا الى جوار المائدة ، يجول ببطء بناظريه الزرقاوين الخبيرتين ، المفعمتين بالدموع والنعاس ، يئز فى رتابة ليعلو ويهبط جسده البدين فى سترته الرمادية مع شهيقه وزفيره ليبدو كما العجين المختمر . وعندما افاق الجمع من ذهوله ، انتفض الرقيب اول بالدر فجاة وترجرج فى مكانه صائحا :

– فلتقبضوا عليه !

وهجم ضابط الصف فينبونج والجنود من خلفه على فالكو . وعلى الرغم من أن فينبونج كان اقرب الجميع اليه الا انه لم يستطع الامساك به ، حيث أن ماتفى كوستيفيتش صرخ بصوته المبحوح يعلن امتعاضه الشديد ، ووجه لكمة الى ضابط الصف فينبونج ليطيح به بعيدا الى ركن الغرفة ، واندفع نحو الجنود منكسا راسه العريضة ، كما الثور الحارد .

ذكرها فالكو فى اعجاب ، فيما يحاول تخليص نفسه من قبضات الجنود الألمان ليندفع الى بالدر البدين المضرج بالحمرة والذى مد راحتيه الصغيرتين البضتين الزرقاوين دفاعا عن نفسه ، صائحا :

– لا تطلقوا عليهما الرصاص ! امسكوا بهما . . فلتحل عليهما اللعنة !

وراح ماتفى كوستيفيتش وبقوة خارقة وضراوة يعمل بقبضتيه وقدميه ورأسه ، ليطيح بالجنود الواحد تلو الاخر .

واندفع فالكو الذى استطاع التخلص من الجنود نحو بالدر الذى تمكن رغم بدانته وبحركة غير متوقعة من الجرى الى ما حول المائدة .

ومرة أخرى حاول ضابط الصف فينبونج تقديم العون الى رئيسه الا ان فالكو الذى كشر عن أسنانه ركله بقدمه فيما بين ساقيه ليهوى الى الارض .

وذكر ماتفى كوستيفيتش بارتياح وهو يتقلب يمنة ويسرة ليلقى فى كل حركة باحد الجنود بعيدا عنه :

– يالك من رائع يا أندريه ! فلتقفز من النافذة . هل تسمعنى !

– هناك اسلاك شائكة . حاول الاقتراب منى .

– لعنة الله عليهم ! . .

زار كوستيفيتش بهذه العبارة وخلص نفسه فى قوة من قبضة الجنود ، ليندفع مرة واحدة ، ليجد نفسه الى جوار فالكو ، واذ امسك بكرسى المساعد بريوكنر رفعه فوق راسه .

ونكص الى الوراء الجنود الذين كانوا قد اندفعوا فى اثره . وقام فالكو مكشرا عن اسنانه تعلو عينيه السوداوين امارات الشراسة والوحشية ، ببعثرة كل ما كان على المائدة : المحبرة والأقلام والملفات وبقية ادواتها ، فى قوة وضراوة وصخب نحو خصمه لدرجة ان الرقيب بالدر سقط على الارض مغطيا بيديه البدينتين راسه الصليع ، اما شوركا ريباند الذى كان قد التصق بالجدار ، فقد تسلل الى ما تحت الاريكة وهو يعوى فى هدوء .

وفى البداية وحين اندفع فالكو وكوستيفيتش يخوضان هذه المعركة ، كانا اسيرى تلك المشاعر الاخيرة للتحرر التى تعترى البواسل الاقوياء الذين يعرفون ان الموت فى انتظارهم . وقد منحتهم آخر مشاعر الحياة عشرة اضعاف قواهم . غير انهما واثناء المعركة ادركا فجاة ان العدو لا يستطيع ، ولا يملك حق قتلهما دون أوامر الرئاسة ، وقد افعمهما ذلك بمشاعر الحرية وعدم الخوف من العقاب مما جعلهما فوق اية هزيمة .

واستندا بظهرهما متجاورين الى الحائط مضرجين بالدماء رهيبين ، دون أن يجرؤ أحد على الاقتراب منهما .

وعندما عاد المساعد بريوكنر الى وعيه امر جنوده بمهاجمتهما مرة اخرى . واستغل شوركا ريباند اشتعال العراك ثانية لينزلق من تحت الأريكة الى خارج الغرفة . وبعد عدة دقائق اقتحم الغرفة بعض آخر من الجنود ليجتمع كل رجال الدرك والشرطة يهاجمون فالكو وكوستيفيتش ؛ وطرحوا الفارسين ارضا ، واطلقوا العنان لغضبهم وراحوا يضغطون عليهما ويضربونهما بقبضات أياديهم وكعوب احذيتهم وركابهم ، وظلوا يعذبونهما حتى بعد أن فقدا وعيهما .

وفى تلك الساعة الهادئة المظلمة من آخر الليل ، وحين غادر الهلال مكانه فى السماء ، بينما كانت نجمة الصباح الناصعة لم تبزغ

بعد ، وحين كانت الطبيعة وكانما ادركها الانهاك ما تزال تغط فى سباتها ، ولحظة تجثم احلى لحظات النوم فوق اعين البشر ، حتى الجلادون والضحايا يكونون اسرى ذلك النوم داخل جدران السجون ...

فى تلك الساعة الهادئة المعتمة قبل مطلع الفجر ، كان ماتفى شولجا اول من استيقظ من سباته العميق الهادئ النائى عما هو فى انتظاره من حياة رهيبة ومصير فظيع . وتقلب قليلا على الارض التى لفتها العتمة ليستقر جالسا فى مكانه . وفى نفس اللحظة تقريبا وفى انين غير مسموع ، بل ولم يكن ذلك أنينا ، بل تنهيدة خافتة ، استيقظ اندريه فالكو . وجلس كلاهما على الأرض الغارقة فى الظلمة ودنا كل منهما من الآخر يتمعن فى وجهه الذى تضرج بالدماء وعلته الكدمات .

لم تكن ثمة بارقة ضوء فى تلك الزنزانة المعتمة الضيقة غير انه بدا لهما ان كلا منهما يستمتع برؤية الآخر . لقد كان كل منهما يرى الآخر قويا رائعا . وذكر فالكو بصوته الاجش :

— انك قوزاقى رائع يا ماتفى . فليمنحك الله القوة .

واذ استند بكل جسده على يديه انفجر ضاحكا وكانما قد اطلق سراحهما . واستجاب شولجا بدوره ليقهقه عاليا ، ثم يقول :

— وانت تملك قوة هائلة يا اندريه . . ويالها من هائلة !

وقد هزت جدران السجن قهقهتهما العالية القوية فى هدوء الليل وعتمته .

وفى الصباح لم يقدموا اليهما طعاما ، ولم يقتادوهما الى التحقيق . ولم يكن هناك من جرى استجوابه فى ذلك اليوم . وخيم هدوء غريب على المبنى ، لا يقطعه سوى حديث مبهم يجرى فيما وراء جدران الزنزانة كخرير مياه نهير تحت اوراق الاشجار . وفى منتصف النهار وصلت عربة ركوب ذات محرك هادئ الصوت لتنصرف بعد قليل .

وقد كان كوستيفيتش الذى تعود على تمييز كافة الاصوات التى تتناهى اليه من خلف الجدران ، يعرف أن هذه العربة تصل وترحل حين يغادر المبنى المساعد بريوكنر ، او مساعده ، او كلاهما سوية .

وذكر شولجا بصوت هادئ يتسم بالجدية :

— لقد رحلت الرئاسة .

وتبادل فالكو وكوستيفيتش النظرات دون ان يتفوها بكلمة واحدة ، بيد أن نظراتهما اكدتا لبعضهما البعض أن كلا منهما يعرف

ان النهاية قريبة وانهما على استعداد لمواجهتها . ويبدو ان كل من فى السجن كان يعرف ذلك ، حيث اطبق الصمت على كل ارجاء المكان .

وهكذا لبثا جالسين على هذا النحو بضع ساعات فى صمت لا يقطع عليهما خلوتهما سوى ضميريهما ، والى أن ذكر شولجا فى هدوء :

— اندريه . . اننى لم احدثك بعد عن كيفية اعتقالى . فلتسمعنى !

لقد توارد كل ذلك الى خاطره مرارا حين كان وحده حبيس زنزانته . غير انه وحين تحدث بصوت عال عن ذلك مع ذلك الشخص الذى تربطه به ، اواصر وثيقة طاهرة ليس لها بهذه الارض مثيل ، كاد أن يئن من الاسف المفعم بالآلام حين شاهد امام مخيلته وجه رفيقة شبابه ليزا ريبالوفا الذى غمرته غضون العمل ، ومشاعر الامومة الطيبة ، حين استقبلته ، ولحظة ودعته .

ودون أن يترفق بمشاعره راح يحكى لفالكو عن كل ما ذكرته له ليزا ريبالوفا ، وما ذكره لها حين اجتاحته مشاعر الثقة بالنفس ، وكم كانت تود بقاءه ، ترنو اليه بعينى الام ، بينما تركها ليصدق ما هو غير صحيح بدلا من الانصات لصوت قلبه الطبيعى البسيط .

وكان وجه فالكو يزداد اكفهرارا مع كل كلمة حادة يتفوه بها شولجا ، ليصيح قائلا :

— الورقة ! هل تذكر ما حدثنا بشانه ايفان فيدوروفيتش . لقد صدقت الورقة اكثر مما صدقت الانسان .

ومضى يقول فى أسى :

— نعم . . هذا ما يحدث عندنا غالبا . اننا نكتبها بانفسنا ، ثم لا نلحظ مدى تاثيرها علينا .

وذكر شولجا فى أسى :

— ليس هذا كل ما فى الامر . اننى اود ان احدثك كذلك بشان كوندراتوفيتش . . .

وذكر له كيف راوده الشك فى كوندراتوفيتش الذى كان يعرفه منذ سنى صباه . تشكك فى امره حين علم بقصة ابنه ، وبانه اخفاها حين افصح عن موافقته على تقديم شقته لتكون فى خدمة منظمة العمل السرى .

وثانية تذكر ماتفى كوستيفيتش كل ذلك ، ليصيبه الذهول ازاء

كون قصة بسيطة من آلاف امثالها فى حياة البسطاء من الناس ، تجعله يفقد ثقته فى كوندراتوفيتش . وفى نفس الآن ، يحوز اعجابه شخص مثل اجنات فومين الذى لم يكن يعرفه على الاطلاق ، وتحفل تصرفاته بالكثير مما لا يروقه .

وتجهم وجه فالكو الذى عرف كل ذلك من كوندراتوفيتش ، ليغدو اكثر عبوسا .

وذكر فالكو بصوته الاجش :

– الشكل ! العادة والشكل . . ان الكثيرين منا قد تعودوا على ان الناس يعيشون افضل مما عاش آباؤنا فى الايام السالفة لدرجة انهم غدوا يحبون رؤية الانسان انطلاقا من شكله ، نظيفا لامعا . لقد فقد كوندراتوفيتش ، صاحب الروح الالهية ، شكله ليبدو فى ناظريك اسود اللون . اما فومين ، عليه اللعنة فقد كان لامعا نظيفا يتناسب مع «الشكل» تماما ، بينما هو فى الواقع اشد سوادا من حلكة الليل . لقد كنا نحن الذين اضفينا عليه البياض ومجدناه وجعلناه يتفق مع الشكل الذى وفيما بعد أعمى بصيرتنا . . . اما الآن فهاك تدفع حياتك ثمنا لذلك .

– انها الحقيقة . . الحقيقة المقدسة يا اندريه !

قالها ماتفى كوستيفيتش بينما ومضت عيناه بضوء ناصع ، ثم مضى يقول :

– كم من الأيام والليالى قضيتها فى ذلك المكان دون ان تمر ساعة واحدة لا افكر فيها بشأن هذا الموضوع . اننى من قاع المجتمع ، ولن اقول كم من المتاعب والآلام اثقلت بها الحياة كاهلى . اننى وحين القى بنظرة على مراحل حياتى ، اكتشف خطئى ، واجد اننى لم ارتكبه اليوم فقط . لقد تعديت اعتاب عامى الخامس والاربعين بينما ما ازال فى وظيفتى المتواضعة التى اشغلها على مدى عشرين عاما . اننى اشغل طوال الوقت وظيفة النائب لانسان آخر . اننى اتسم بذلك . ومضى شولجا يقول فى سخرية :

– لقد كانوا يقولون عنا فى الماضى اننا رجال لجنة الدائرة ، بينما يقولون اليوم – رجال لجنة المنطقة . كم من العاملين فيما حولى صعدوا سلم الرقى ، وكم من الرفاق من امثالى رجال لجنة المنطقة بلغوا اعلى الدرجات ! هذا بينما اواصل طوال الوقت جر نفس العربة . ولقد

تعودت على ذلك لست أدرى كيف ظهرت هذه العادة ! وما دمت قد تعودت ، فان ذلك يعنى اننى قد تخلفت عن الركب .

وانقطع صوت شولجا فجاة ، ليمسك راسه بيديه الكبيرتين ، تعتريه مشاعر الاضطراب .

وادرك فالكو ان ماتفى كوستيفيتش يلقى ما علق بروحه قبيل مواجهته الموت ، مما يستحيل معه انتقاده او تبرئته ، ليواصل الاستماع اليه فى صمت . وواصل شولجا حديثه :

– ماذا اعز ما لدينا يمكن ان نعيش من أجله ونضحى بحياتنا فى سبيله ونعمل من اجل رفعته ؟ انه انساننا . . انه الانسان ! هل ثمة بهذا العالم اسمى واجمل من الانسان ؟ كم تحمل وقاسى كثيرا من اجل رفعة بلادنا وشعبنا ! لقد كان يقتات اثناء الحرب الاهلية بكسرة من الخبز دون ان يئن ، ويقف فى الصفوف اثناء فترة التعمير ، يرتدى الاسمال دون أن يرتضى استبدال جوهره السوفييتى باى شىء آخر . وها هو فى هذه الحرب الوطنية مستعد لبذل حياته بكل سعادة وفخر ، يتقبل كل الآلام والمصاعب . ان الطفل ، ولسنا نقول المراة ، على استعداد لتحمل كل ذلك ، وكل هؤلاء هم شعبنا شانى وشانك . لقد انحدرنا منهم ، وانحدر منهم افضل واذكى الناس واكثرهم موهبة ومعرفة . وليس ثمة ما يدعونى لان اقول لك اننى وهبت كل حياتى فى سبيلهم . انك تعرف كيف تجرى الامور ، تكد وتكدح فى سبيلها بينما هى تسير هامة عاجلة دون ان تلحظ تلقائيتها ، وبينما يعيش المرء كذلك نمطه الخاص . آه ، لو تعرف يا اندريه ! لقد شاهدت يوم غادرت ليزا ريبالوفا ، ثلاثة شبان وفتاة – ابنتها وابنها وشابين آخرين كما اتصور . اندريه ! يالها من اعين كانت ! كم راحت تتاملنى فى امعان ! لقد استيقظت ذات ليلة هنا فى هذه الزنزانة ، لتصيبنى الرجفة . لقد كانوا من اعضاء الكومسومول ! نعم لقد كانوا على الارجح كذلك . كيف تجاوزتهم ورحلت ؟ وكيف حدث ذلك ؟ ولماذا ؟ اننى اعلم السبب . كم من المرات طلب منى اعضاء كومسومول المنطقة : «يا عم ماتفى . فلتعد محاضرة للفتيان عن سير عملية الحصاد ، عن الزراعة ، عن خطة تطوير المنطقة ، عن مؤتمر سوفيتات المقاطعة . . وعن اشياء اخرى كثيرة» . بينما كنت ارد عليهم . . «ليس هناك وقت لدى ، او

فلتتصرفوا وحدكم بدونى يا اعضاء الكومسومول !» واحيانا كنت اعلن موافقتى لاعانى الصعوبات فى اعداد مثل هذه المحاضرة !

وكم كان من الصعب تنفيذ ذلك حيث كان يتوجب اعداد الاخبار لابلاغها الى قسم الزراعة بالمقاطعة ، والمشاركة فى اعمال لجنة التنسيق وتخطيط النشاط ، وزيارة مدير ادارة المناجم ولو لساعة واحدة للاحتفال بعيد ميلاده الخمسين ، بينما يجب ايضا حضور عيد ميلاد ابنه الذى اكمل عامه الاول مما يفخر به ، وتلك امور ان تركها المرء تسبب فى اغضاب الآخرين . وهكذا كنت اذهب فيما بين تلك الاعمال ودونما استعداد لالقاء المحاضرة ، ولاتحدث الى الكومسومول من الذاكرة «عن عموميات غير دقيقة» ابسط العبارات مما اشعر معه بالضجر ، اما هم الشباب فكانوا يؤملون كثيرا على هذه المحاضرة . ياله من عيب ! – ذكرها فجاة ماتفى كوستيفيتش لتعلو الحمرة وجهه الذى دفنه فيما بين يديه – لقد كانوا ينتظرون كلمة طيبة تنفعهم فى حياتهم ، بينما كنت احدثهم عن «عموميات» . من يكون المربى الاول للشباب ؟ انه المدرس . نعم المدرس ! ويالها من كلمة . . لقد تخرجت من المدرسة التابعة للكنيسة ، كما تخرجت انت منها فى موعد يسبقنى بخمسة اعوام . الا اننا نذكر سوية المدرس نيكولاى بيتروفيتش . لقد عمل لدينا بمنطقة المناجم مدرسا طيلة خمسة عشر عاما ، الى ان وافته المنية اثر سل رئوى اصابه . اننى اذكر وحتى اليوم ما ذكره لنا بشأن بنية هذا العالم – الشمس والارض والنجوم . لعله يكون اول من اثر فى افكارنا وفتح اعيننا على هذا العالم . المدرس ! كم يسهل النطق بهذه الكلمة ! ان المدرس فى بلادنا ، وحيث يتعلم كل طفل من اطفالنا ، يعد الانسان الاسمى . ان مستقبل اطفالنا ، ومن ثم شعبنا فى يدى المدرس وقلبه الذهبى . يجب على المرء ان يحنى هامته احتراما له حين يراه على البعد . اما انا ؟ كم من المخجل تذكر يوم كان نظار المدارس يلاحقوننى من مكتب لآخر يتوسلون الاخشاب والطوب والفحم والجير ، وحين فرض نفسه موضوع اصلاح المدارس وتدفئتها . لقد كنت اتملص منهم بحجة اننى لست المسؤول عن ذلك ، موجها اياهم الى قسم التدريب فى المنطقة . لم اكن آنذاك اعتبر ذلك عيبا ، ولم اكن افكر سوى فى ان خطة استخراج الفحم قد نفذت ، والمحصول

جرى جمعه بما يزيد عن الخطة ، كما وجرت حراثة الارض ، وتسليم كمية اللحوم والصوف المطلوبة ، وارسال برقية تحية الى سكرتير لجنة الحزب بالمقاطعة ، وبذا اكون قد قمت بكل واجبى . اليس ذلك صحيحا ؟ لقد غدا الوقت متاخرا حين ادركت كل ذلك ، لكننى اشعر بالارتياح رغما عن هذا لاننى ادركت كل ذلك . وعلى اى حال فمن اكون ؟ – تساءل ماتفى وابتسامة وجلة طيبة تنم عن اعتذار ترتسم على شفتيه ، ومضى يقول : اننى من بسطاء الشعب ، من قاع المجتمع ، وابنه وخادمه . اننى وفى عام ١٩١٧ ادركت حين سمعت ليونيد ريبالوف ، انه ليس هناك اسمى من خدمة الشعب ، ومن هنا بدات حياتى ومصيرى كعامل شيوعى . هل تذكر عملنا الفدائى السرى آنذاك ؟ هل تذكر يوم وجدنا نحن ابناء الاباء والامهات الجهلة ، قوة الروح والبسالة لتحمل وتحقيق النصر على المحتلين الالمان والبيض ؟ وقد بدا آنذاك اننا تجاوزنا الصعب ، وسوف نعيش الحياة الاسهل . بيد انه اتضح ان اصعب الامور ما تزال فى انتظارنا . هل تذكر لجان فقراء الفلاحين ولجان توزيع المواد الغذائية ، وعصابات كبار الملاك ، ورجال ماخنو* . . . وفجاة «السياسة الاقتصادية الجديدة»** ، حيث توجب على المرء اتقان ممارسة التجارة . ورحنا نمارسها ، وعلى خير وجه .

وفجاة ذكر فالكو فى حيوية بالغة :

– وهل تذكر كيف اعدنا تشغيل المناجم . كنت آنذاك قد انهيت خدمتى بالجيش ، ليعينونى مديرا لذلك المنجم القديم المائل ، الذى نضب اليوم . وياله من امر كان ! فلم تكن لدى اية خبرات اقتصادية ، الخبراء يعطلون العمل ، الآلات متوقفة ، ولم تكن هناك كهرباء ، والبنك يرفض اقراضنا ، وليس ثمة ما ندفعه للعمال ، بينما لينين يرسل البرقيات – ارسلوا الينا الفحم ، انقذوا موسكو وبتروجراد . وقد كنت اعتبر هذه البرقيات امرا مقدسا . اذ كنت قد رايت لينين كما اراك ماثلا امامى الآن ، فى المؤتمر الثانى للسوفييتات

* زعيم احدى العصابات الكبيرة التى ظهرت بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ . **المترجم .**

** سياسة سمحت بالاقتصاد الحر لفترة مؤقتة فى العشرينات تحت ظل السلطة السوفييتية . **المترجم .**

ايام ثورة اكتوبر وحين كنت جنديا على الجبهة . اذكر اننى اقتربت منه ، وتحسسته بيدى ، حيث اننى لم اكن اتصوره شخصا حيا من امثالى . ثم ماذا ؟ لقد ارسلنا الفحم !

وذكر شولجا فى فرح :

– حقا . . كم من الاهوال وقعت على كواهل اخواننا اعضاء لجان الاقليم والمنطقة ! كم من الضربات تلقيناها ! من ذا الذى تعرض للوم ايام السلطة السوفييتية قدر ما تعرض له اعضاء تلك اللجان ؟ اعتقد انه ما من امرئ تعرض لمثل هذا اللوم ولفت النظر من رجال السلطة السوفييتية ، مثلما تعرضنا نحن !

كان ماتفى كوستيفيتش يتحدث وامارات السعادة تعلو وجهه . وذكر فالكو ضاحكا !

– كلا ! اعتقد ان اخواننا الاقتصاديين لا يقلون شأنا عنكم فى هذا الصدد .

وذكر شولجا بصوت صادر من أعماق قلبه :

– اننى حقا اقول . مهما كان مدى انتقاداتى ولومى لنفسى ، فاننى اعتقد انه من الواجب ، وعلى كل الاحوال ، اقامة تمثال لرجل اللجنة الحزبية للمنطقة يخلده على مدى الاجيال . لقد كنت دائما اطالب . . الخطة ثم الخطة . بيد انك لا تتصور صعوبة القيام عاما بعد عام ، ويوما بعد يوم وبدقة الساعة بحرث وزرع وحصاد الملايين من هكتارات الاراضى ، لتقديم المحصول الى الدولة ، وتوزيع كل ذلك المجهود حسب خطة تنص على ما يجب القيام به يوميا . هذا بالاضافة الى مسألة طحن الحبوب ، وزراعة البنجر وعباد الشمس ، وتربية الخرفان ، وتوريد اللحوم ، وتنمية الثروة الحيوانية ، واصلاح الجرارات وبقية المعدات التى لا يملك العالم مثلها ، بل وليس ثمة من يحلم بها ! ان كل امرئ من شعبنا يهوى ارتداء احسن الملابس ، وتناول افضل الطعام والشراب . ولذا يكد ويعمل عضو لجنة المنطقة ليل نهار ، لتلبية احتياجات الآخرين . ان مثل هذا الرجل ، ويجوز لنا تاكيد ذلك ، قد حمل عبء توفير الغذاء والمواد الخام طوال الحرب الوطنية .

وقاطعه فالكو محتدا :

– والاقتصادى ؟ ان ذلك من يجب حقا ان يقام له تمثال ! فهو

الذى تولى القيام باعباء الخطتين الخمسيتين الاولى والثانية ، ويحمل على كاهله اعباء الحرب الوطنية ! اليس ذلك حقا ؟ هل خطة القرية تعتبر خطة ذات شأن ؟ كلا . . ان خطة الصناعة هى الخطة الحقيقية . هل تعمل القرية بوتيرة المؤسسات الصناعية ؟ كم نجحنا فى بناء المصانع ! بنيناها نظيفة دقيقة تعمل كالساعة ! وماذا يمكن القول عن مناجمنا ! هل يملك الراسماليون منجما شبيها بمنجمنا رقما ؟ انه قطعة من الحلوى ! انهم ، هم الراسماليون ، قد تعودوا على استلام كل شىء جاهزا ، دون ادنى تعب . اما نحن فنعمل بهذه الوتيرة ، وعلى هذا النطاق فى توتر دائم . . . نقص فى القوى العاملة . . فى مواد البناء ، تخلف وسائل النقل . . الف نقص ، ونقص . . كبير وصغير ، بينما نواصل التقدم فى طريقنا . كلا . . ان الاقتصادى السوفييتى رجل عملاق !

وذكر شولجا وقد ارتسمت الفرحة على أساريره :

– هذه هى القضية ! اننى اذكر يوم حضرت مؤتمر مزارعى الكولخوزات بموسكو ، حيث استدعيت الى لجنة اعداد القرارات . وهناك جرى الحديث عن عضو لجنة المنطقة . وراح رجل فى مقتبل العمر يضع نظارة على عينيه ، يبدو انه من رجال التعليم ، لا اذكر اسمه ، يتحدث عن عضو لجنة المنطقة بتعال ، حيث ذكر انه متخلف ، لم يقرأ هيجل ، واشياء اخرى بلغت به وصمه بانه لا يغتسل يوميا . وقد قيل له آنذاك «يجدر بك أن تتوجه الى اعضاء لجنة المنطقة للتدرب على ايديهم ، ولتصبح اكثر ذكاء» وهنا قهقه شولجا عاليا ، ثم مضى يقول : لقد كنت اعتبر آنذاك خبيرا فى شؤون القرية ، وراحوا يبعثون بى من قرية الى اخرى لتقديم العون الى المزارعين للتخلص من قبضة كبار الملاك واقامة المزارع التعاونية الجماعية . كلا . . لقد كانت فترة عظيمة لا يمكن نسيانها ! لقد انخرط كل افراد الشعب فى خضم العمل ليل نهار دون ان يراود النوم اجفانهم . كان التردد يراود البعض ، اما وفيما بعد وقبيل اندلاع الحرب غدا اكثر الناس تخلفا يدرك جدوى الثمار العظيمة لجهود تلك السنين . وحقا . . صرنا نعيش قبيل اندلاع الحرب على نحو افضل كثيرا عن ذى قبل .

وذكر فالكو وهو يومض بعينيه السوداوين :

– وهل تذكر حالة المناجم آنذاك ؟ لقد كنت اقضى الليالى بالمنجم دون ان اعود الى مسكنى طيلة اشهر باكملها . اقسم بالله ان المرء لا يمكن أن يصدق ذلك اليوم حين يتخيل ما كان يجرى آنذاك فيما يتأمل ما جرى تشييده . ويبدو لى اننى لم اقم نفسى بذلك ، بل قريب لى هو الذى تولى كل تلك الامور . اننى اغمض عينى الآن لاتخيل كل حوض الدونباس ، وكل بلادنا المشغولة بالبناء ، وكل تلك الليالى التى سهرناها نكد ونكدح .

وذكر شولجا بنبرة طفولية ساذجة :

– نعم ليس ثمة فى التاريخ من وقع على كاهله ما تحملنا نحن اعباءه ، دون ان نئن . واتساءل : اى صنف من الناس نحن ؟

وضحك فالكو ساخرا :

– بينما أعداؤنا الحمقى يظنوننا نهاب الموت . لقد تعودنا نحن البلاشفة مواجهة الموت . وكم من البلاشفة سقط صريع الكفاح ضد العدو ! لقد قتلوا الكثيرين جلادو القيصر ورجال الدرك والشرطة وطلبة الكليات العسكرية أيام ثورة اكتوبر ، والبيض والمتدخلون من كافة بلدان العالم ورجال عصابات ماخنوا وانطونوف ، كما واطلق كبار الملاك نيرانهم علينا . . ومع ذلك فنحن نعيش استنادا الى حب الشعب لنا . ولربما يقتلنا الالمان الفاشيست ، ومع ذلك فلن يورى علينا التراب . . او ليس حقا ذلك يا ماتفى ؟

– انها الحيقيقة العظمى . . . الحقيقة المقدسة يا اندريه ! اننى سوف اظل الى أبد الابدين فخورا بان قدرى انا الانسان العامل البسيط قد جعلنى اشق طريق حياتى فى اطار صفوف حزبنا ، الذى مهد طريق الحياة السعيدة للآخرين .

وذكر فالكو تعتريه مشاعر قلما يتسم بها مثل ذلك الشخص الخشن الطباع :

– انها الحقيقة المقدسة يا ماتفى ، انها سعادتنا العظمى ! كما وقدر لى ان احظى بهذه السعادة ، لكونى اواجه الموت الى جوار رفيق مثلك يا ماتفى !

– اننى اعلنك بامتنانى الشديد الجزيل لقاء ذلك الشرف الذى شملتنى به . لقد ادركت على الفور مدى جمال روحك يا اندريه .

وذكر فالكو بصوت هادئ :

– فلينعم الله بالسعادة على كل من يبقى بعدنا من افراد شعبنا .

وهكذا وفى لحظاتهما الاخيرة كشف كل من أندريه فالكو وماتفى شولجا عن مكنون نفسيهما أمام بعضهما البعض ووجها لوجه مع ضميريهما .

الفصل الخامس والثلاثون

رحل المساعد بريوكنر ونائبه بالدر الى مقر ادارة الشرطة للدائرة فى مدينة روفينكى والكائنة على مسافة ثلاثين كيلومترا من كراسنودون . أما بيتر فينبونج ، روتنفوهرر فرقة «اس اس» والذى كان قد جرى تكليفه بنقطة شرطة كراسنودون ، فقد كان يعرف أن بريوكنر وبالدر قد توجها الى ادارة شرطة الدائرة ومعهما مواد التحقيق ، وحيث سوف يتسلمان التعليمات الخاصة بشأن المعتقلين . غير أن بيتر فينبونج كان يعرف استنادا الى خبرته جوهر الاوامر التى سوف تصدر هناك ، كما عرفه رئيساه . ذلك لأنهما وقبيل الرحيل ، اصدرا تعليماتهما اليه بمحاصرة جنود «اس اس» للحديقة العامة وعدم السماح بدخولها لاى امرئ كان . كما وجرى ارسال جماعة جنود الشرطة برئاسة الرقيب ادوارد بولمان الى الحديقة لحفر حفرة كبيرة تتسع لثمانية وستين شخصا متجاورين وقوفا .

وكان فينبونج يعرف ان رئيسيه لن يعودا قبل وقت متأخر من المساء ، ولذا فقد أرسل جنوده الى الحديقة العامة تحت رئاسة مساعده بينما بقى فى الدار الملحقة بالسجن .

وفى الايام الاخيرة كان غارقا فى العمل ، لدرجة بدا معها دائما غير قادر على البقاء وحده دقيقة واحدة ، يستطيع خلالها ليس فقط الاغتسال من رأسه وحتى اخمص قدميه . ، بل ولتغيير ملابسه الداخلية لانه كان يخشى أن يوجد ثمة من يرى ما يرتديه تحت هذه الملابس .

وحين رحل المساعد بريوكنر ونائبه بالدر ، وانصرف جنود «اس اس» وجنود الشرطة الى الحديقة العامة توجه ضابط الصف فينبونج الى مطبخ السجن يطلب من الطباخ وعاء به ماء ساخن

وطست ، اما عن الماء البارد فقد كان متيسرا فى البرميل الموجود بالمدخل .

ولاول مرة منذ تلك الأيام الحارة هبت رياح باردة حملت معها بعيدا تلك السحب المنخفضة التى كانت تنبئ بالامطار ؛ وكان النهار أشبه ما يكون بايام الخريف ، لتبدو فى أسوا صورها كل طبيعة منطقة مناجم الفحم ، ناهيك عن المستعمرة المكشوفة من جميع الجهات بمبانيها النموذجية وغبارها المشبع بذرات الفحم . وكان المبنى مضيئا بما يكفى فينبونج للاغتسال ، غير أنه وحتى لا يفاجئه أحد على حين غرة ، لينظر اليه من النافذة ، قام باغلاقها واسدل الورق الأسود يغطيها واضاء نور الغرفة .

ومهما كان قد تأقلم على العيش على هذا النمط منذ أندلاع الحرب ، ومهما كان قد تعود على رائحته غير الطيبة ، الا انه كان يشعر براحة فائقة حين استطاع فى نهاية الأمر خلع ملابسه ، ليظل بعض الوقت عاريا من ذلك العبء الذى اثقل كاهله . كان بدينا بطبيعته ، ومع مرور السنين غدا أكثر بدانة ، وصار جسمه يفرز كميات اكبر من العرق تحت زيه الاسود . وقد كانت ملابسه الداخلية التى لم يغيرها طيلة اشهر كاملة ، مشبعة بعرقه اللزج ذى الرائحة غير الطيبة ، صفراء اللون المشوب بسواد سترته العسكرية .

خلع بيتر فينبونج ملابسه الداخلية ليبقى عاريا تماما ، ليبدو جسده الذى لم تلمسه المياه طويلا ، الا انه ابيض اللون بطبيعته ، يكسوه الشعر الاصفر عند صدره وساقيه واعلى ظهره . ولقد اتضح حين تخلص من ثيابه انه يحيط جسده باحزمة ذات نمط فريد . لم تكن هذه احزمة ، بل شيئا أشبه بشريط لحمل الطلقات ، مثل ذلك الذى كان يحمله الجنود الصينيون فى القدم . لقد كان ذلك شريطا طويلا مقسما الى عدة جيوب صغيرة ذات أزرار ، مصنوعا من قماش لا تنفذ منه المياه يحيط بجسد بيتر فينبونج من اعلى كتفيه وحتى وسطه على شكل صليب ، تشده من الجانبين اشرطة بيضاء ربطت فى نهايتها «كفيونكة» . وقد كان الجزء الاعظم من هذه الجيوب الصغيرة ممتلئا تماما ، بينما كان الباقى فارغا .

وفك بيتر فينبونج هذه الاشرطة ليخلع عن نفسه شريط الطلقات . وكان ذلك الشريط قد احاط بجسده فترة طويلة ، لدرجة

انه ترك على ذلك الجسد الابيض البدين أثرا داكن اللون ، اشبه بما تحمله أجساد المرضى الذين يضطرون الى الرقاد طويلا . وخلع بيتر فينبونج الشريط فى دقة وحرص ، فقد كان طويلا وثقيلا فى واقع الامر ، ليضعه على المائدة ، ثم راح يهرش جسده بقوة ، باصابعه القصيرة . . صدره وبطنه وساقيه ، محاولا الوصول الى ظهره تارة من عند كتفه اليمنى ، واخرى من عند كتفه اليسرى ، وثالثة بثنى ذراعه الأيمن من اسفل . كان يقوم بذلك فيما يئن ويتاوه اعلانا عن سعادته البالغة .

وبعد ان ارضى رغبته بعض الشىء ، فك فى حرص زرار جيب سترته الداخلى ليتناول كيسا صغيرا من الجلد اشبه بكيس التبغ وقلبه ليسقط منه حوالى ثلاثين سنتا ذهبية . وقد كان يود توزيعها على جيبين او ثلاثة من جيوب شريطه الفارغة . غير أنه وما دام قد اسعده الحظ ليبقى وحيدا ، فلم يستطع امساك نفسه عن الاستمتاع بمحتويات الجيوب الاخرى ، فلم يكن قد حظى برؤيتها منذ زمن بعيد . واذ راح يفك ازرار تلك الجيوب الزرار تلو الآخر ، أخذ يفرغ محتوياتها على المائدة اكواما سرعان ما ملأت كل المائدة . وحقا . . لقد كان ذلك شيئا يستحق النظر اليه .

لقد كانت عملات كثير من بلدان العالم . . الدولار الأمريكى والشلنج الانجليزى والفرنك الفرنسى ، والبلجيكى ، والكرونة النمساوية والتشيكية ، والنرويجية ، والليرة الايطالية . وقد جرى تجميعها وفقا لبلدانها ، الذهبية وحدها ، والفضية وحدها ، واوراق البنكنوت كذلك ، التى كانت تضم ضمنا الورقة السوفيتية الزرقاء اى من فئة المائة وربل . ولم يكن حقا ينتظر من تلك اية جدوى مادية ، لكنه رغما عن ذلك فقد استبقاها ، حيث تحولت شراهته الى هواية جمع العملات التى بلغت به حد الهوس . هذا وكانت مجموعته تضم كذلك بعض المصوغات الذهبية الصغيرة مثل الخواتم والدبابيس ، والدبل ، والبروشات المرصعة بالاحجار الثمينة ، الى جانب أحجار ثمينة اخرى واسنان ذهبية .

كان الضوء الكهربائى المنبعث من مصباح فى أسفل السقف لوثه الذباب بمخلفاته ، ينبعث خافتا يضىء هذه النقود والمجوهرات الملقاة على المائدة ، بينما جلس فينبونج قبالتها عاريا صليع الراس

يضع على عينيه نظارة قرنية فاتحة مباعدا بين ساقيه ، يهرش جسده من آن لآخر ، وقد ثارت حميته ، راضيا عن نفسه .

وعلى الرغم من كثرة هذه الاشياء الصغيرة والنقود المختلفة ، فقد كان فى امكانه ان يحكى قصة كل منها متى وكيف وفى ظل اية ظروف اقتناها ، وممن اخذها او انتزعها ، وممن انتزع تلك الأسنان الذهبية ، ذلك لانه ومنذ تلك اللحظة التى قرر فيها الاثراء من هذه الحرب ، ركز كل قواه وحواسه لخدمة ذلك الغرض ، اما ما بقى من مظاهر حياته فلم يكن سوى من قبيل المراء .

لم يكن ينتزع الاسنان من جثث الموتى وحسب ، بل من افواه الاحياء ايضا ، غير انه كان يفضل انتزاعها من افواه الموتى حيث لم يكن ذلك يسبب له المتاعب . وحين كان يقع نظره على أشخاص من ذوى الاسنان الذهبية ضمن مجموعة من المعتقلين ، كان يركز كل حواسه حول الرغبة فى سرعة انهاء كافة اجراءات التحقيق ، حتى يتمكن من الاجهاز عليهم فى اقرب فرصة .

وكم كانوا كثيرين أولئك الرجال والنسوة والاطفال الذين قتلوا وعذبوا وسرقوا ، ليصبحوا مصدر تلك النقود والاسنان والمجوهرات ، ولدرجة أن بعض القلق كان يشوب مشاعر فرحته ورضاه عن نفسه حين كان ينظر اليها . غير ان القلق لم يكن نابعا منه شخصيا ، بل من جنتلمان آخر تخيله انيق الملبس ، يضع خاتما فى خنصره ، وقبعة خفيفة غالية الثمن على رأسه ، حليق الوجه ، تجيش بصدره مشاعر الادانة تجاه بيتر فينبونج .

لقد كان شخصا بالغ الثراء ، أكثر ثراء من بيتر فينبونج بكل مجوهراته . بيد ان هذا الشخص ورغما عن ذلك كان يعتبر نفسه على حق فى ادانة بيتر فينبونج بسبب طريقته فى الاثراء ، معتبرا انها طريقة دنيئة . وقد دار بين ذلك الجنتلمان وبيتر فينبونج جدل لا نهاية له ، يتسم بالهدوء لانه قد دار من جانب بيتر فينبونج وحده ، والذى يتصور نفسه مستندا الى اسس اسمى واشد منطقية ، كانسان عملى معاصر خبرته الحياة .

وكان بيتر فينبونج يقول «هيه . . هيه ! اننى فى نهاية الامر لا أصر على ممارسة ذلك طوال حياتى . اننى سوف أصير فى نهاية الامر من رجال الصناعة او التجارة ، او صاحب حانوت اذا ما راق لك

هذا . غير اننى يجب ان ابدأ بشىء ما . نعم اننى اعرف جيد المعرفة انك مشغول بالتفكير فى شأنى ، وشأن نفسك . انك تفكر : اننى جنتلمان ، يعرف الجميع كافة شركاته ، ويرى كل انسان مصدر ثرائه : ان لدى اطفالا واسرة ، اننى نظيف الجسم ، أنيق الملبس ، مهذب فى علاقاتى مع الآخرين . اننى قادر على مواجهتهم . اننى أقف احتراما للمرأة التى اتحدث معها اذا كانت واقفة ، اننى اطالع الصحف والكتب واشغل عضوية جمعيتين خيريتين ، وتبرعت بمبالغ كبيرة لبناء المستشفيات العسكرية ايام الحرب ؛ اننى أهوى الموسيقى والزهور ومشاهدة ضوء القمر فى عرض البحر . هذا بينما بيتر فينبونج يقتل الآخرين من اجل اموالهم ومجوهراتهم التى يصادرها لنفسه . انه لا يتورع عن انتزاع أسنان الناس ، ليخفيها مع بقية ما يصادره حول جسده حتى لا يراها احد . انه مضطر الى البقاء اشهرا كاملة دونما اغتسال ، تفوح منه الرائحة غير الطيبة ولذا املك حق ادانته» . . . هيه . . فلتسمح لى يا صديقى العزيز والمحترم ! لا تنس ان عمرى خمسة واربعين عاما . كنت بحارا جبت كافة بلدان العالم ، حيث شاهدت كل ما يحفل به هذا العالم ! انك لا تعرف ما استطعت كبحار مشاهدته مرارا فى تلك البلدان النائية . كم من ملايين البشر تموت هناك فى امريكا اللاتينية والهند او فى الهند الصينية ، جوعا وعلى مرأى من اولئك السادة المحترمين ؟ وعلى اى حال ، لماذا نبتعد هكذا وراء الأمثلة ! ان سنوات ما قبل الحرب المزدهرة تشهد على وجود احياء باكملها فى كافة عواصم العالم تقريبا ، تغص بالعاطلين الذين يتضورون جوعا على مشهد من السادة المحترمين ، يلفظون انفاسهم الاخيرة حتى على اعتاب الكنائس القديمة . كم يصعب على المرء تصديق القول القائل انهم يموتون وفقا لارادتهم . ومن ذا الذى لا يعرف أن بعض السادة المحترمين يلقون خارج مؤسساتهم بملايين الرجال والنسوة الاصحاء اذا ما كان ذلك يعود عليهم بالنفع . ولما كان هؤلاء الرجال والنسوة لا يستكينون لاوضاعهم ، تقوم الشرطة والجنود بايداع الاعداد الهائلة منهم السجون ، او بقتلهم فى الشوارع والميادين وبشكل لا يتعارض فى ادنى صوره مع القانون . . . ! لقد اوردت لك بعض النماذج الحية وكنت استطيع الاستشهاد بالكثير غيرها ، من تلك الملايين من

الرجال الاصحاء ، بل والنسوة والاطفال والشيوخ الذيـــن يلقون حتفهم لكى تزداد ثراء . كما واننى لا اتحدث بعد عن الحروب التى تهلك الكثيرين لصالح اثراء امثالك . صديقى المحترم والعزيز ! ما الذى يدعونا الى اخفاء الحقيقة والمناورة ؟ فليصارح كل منا الآخر بحقيقة انه اذا ما كنا نريد من الآخرين العمل لصالحنا ، يجب ان نقوم سنويا ، بشكل او بآخر ، بقتل بعضهم . انك تخشانى لكونى اقف عن اسفل مفرمة اللحم ، اذا ما جاز هذا القول . اننى من صغار خدم هذه العملية ، وبحكم وظيفتى مضطر الى عدم الاغتسال ، لتفوح منى هذه الرائحة النتنة . غير انك يجب ان تتفق معى فى انك لم تكن لتستطيع ان تكون غير ذلك ، وكلما ينقضى الزمن وتمر الايام ، كلما يزيد احتياجك لامثالى . اننى ثمرة من شجرتكم ، اننى ظلك . . اننى الوجه الآخر لك ، اذا ما أراد الآخرون رؤيتك من الداخل ، ومعرفة جوهرك الحقيقى . وسوف يسعفنى الوقت لاغتسل ، وابدو أنيقا ، صاحب حانوت صغير ، اذا ما راقك ذلك ، ابيع لك السمك الجيد طعاما يزّين مائدتك . . .»

خاض بيتر فينبونج هذا الحوار المبدئى مع ذلك الجنتلمـان الذى تصوره فى مخيلته حليق الوجه مليح القسمات ، نظيف السروال جيد الكى . وقد اضفى كسبة لذلك الحوار فى هذه المرة أيضا وكالعادة ، عليه مزاجا طيبا . وراح يخبئ النقود والمجوهرات فى الجيوب الخاصة بها ، واحكم اغلاقها ، ثم انصرف للاغتسال وهو يتاوه ويصرخ سعادة ، وحين اخذ يسكب المياه الممتزجة برغاوى الصابون على الأرض مما لم يكن يعنيه على الاطلاق ، حيث سوف يأتى الجنود ويتولون تنظيف المكان .

وفرغ من الاغتسال ، وان لم يكن الى حد النظافة التامة ، الا انه شعر ببعض الراحة . ثم شرع ينز فيمـــا يلف الشريط حول جسده ، وارتدى ملابسه الداخلية النظيفـــة ، ليخفى القذرة ، ويرتدى سترته العسكرية السوداء . ورفع نهاية الورقة السوداء التى تغطى النافذة ، ليلقى بنظره الى الخارج ، حيث لم ير شيئا . فقد كانت الظلمة تخيم على فناء السجن . وقد أدرك بخبرته التى تحولت الى شىء اشبه بالغريزة أن رئيسيه على وشك الوصول . وخرج الى الفناء ، ليلزم مكانه الى جوار المبنى بعض الوقت حتى تتعود

عيناه على ظلمة الليل . غير أنه لم يكن قادرا على ذلك . فقد جاءت الرياح الباردة بتلك السحب الداكنة تغطى المدينـة وبرارى الدونيتس ، لا يصل النظر اليها ، وان كانت بدت وكأنما تتسابق فيما بينها تحاول كل منها تجاوز الاخرى ، ليصدر عنها حفيف اصطدام جوانبها الموحفة الرطبة ببعضها البعض .

وفى تلك اللحظة سمع بيتر فينبونج هدير محرك خافت لسيارة آخذة فى الاقتراب ، ووقع نظره على وميض مصباحيها المضيئين اللذين جرى تعتيمهما ، حين هبطت التل الى جدار مبنى اللجنـــة التنفيذية سابقا والادارة الزراعية للمنطقة حاليا ، والذى كشـف ضوء المصباحين عن احد جناحيه . كان رئيساه يعودان مـن ادارة شرطة الدائرة . ودلف بيتر فينبونج الى مبنى السجن عبر الفناء والممر السرى الذى كان يحرسه جندى الشرطة والذى ادى التحية له حين عرف هويته .

كما وترامى الى اسماع المعتقلين هدير محرك السيارة التى وصلت الى مبنى السجن . وبدد ذلك الهدوء غير العادى الذى خيم على السجن طيلة النهار ، دبيب خطوات يتعالى بالردهة ، وصريـــر مفاتيح فى الاقفال ، وصفق أبواب ، وضجيج بالزنزانات ، وبكاء ذلك الطفل الذى يمزق القلوب ، يتعالى من زنزانة بعيدة . وفجأة دوى ذلك البكاء عاليا ليتحول الى صراخ لا يطاق ، لقد كان الطفل يصرخ فى توتر بالغ ، وبكل قواه حتى بح صوته .

وسمع ماتفى كوستيفيتش وفالكو تلك الجلبـــة التى سادت الزنزانات المجاورة ، وبكاء الطفل فى الزنزانة البعيدة . وقد خيل اليهما احيانا انهما يستمعان الى صوت امرأة ، تتحدث فى حرارة ، تصرخ وتتوسل ، بل وتبكى على ما يبدو . ثم تعالى صرير المفتاح فى القفل ، ليغادر جنود الشرطة الزنزانة حيث أودعت المرأة مع طفلها ، ليدلفوا الى الزنزانة المجاورة التى سادتها الجلبة على الفور . بيد انه وفى خضم تلك الجلبة تعالى ذلك الصوت الحزين الرقيـق لامرأة تحاول تهدئة طفل أخذ بالفعل يعود الى حالته الطبيعية تدريجيا وكأنما يهدئ نفسه بنفسه .

وولج جنود الشرطة الى الزنزانة المجاورة لتلك التى يجلس بها فالكو وماتفى كوستيفيتش ، اللذان ادركا على التو سبب ذلك الصخب

الذى يتعالى مع دخول رجال الشرطة . . لقد كانوا يوثقون أيادى المعتقلين .

لقد حانت ساعتهم الاخيرة .

كانت الزنزانة المجاورة غاصة بالمعتقلين ولذا فقد استغرق رجال الشرطة هناك وقتا طويلا . واخيرا خرجوا من هناك ليغلقوا الباب وراءهم ، لكنهم لم يدخلوا على التو الى فالكو وكوستيفيتش ، فقد لبثوا فى الردهة يتبادلون الملاحظات السريعة ، ثم هرول احدهم نحو المخرج . وخيم الهدوء بعض الوقت ، لم يقطعه سوى أصوات رجال الشرطة يتبادلون الاحاديث فى غمغمة . ثم تعالى بالردهة دبيب خطوات بعض الأشخاص يقتربون من الزنزانة ، ودوت صيحة بالالمانية تنم عن ارتياح ، ليدلف الى الزنزانة بعد اضاءة مصباحها الكهربائى بعض رجال الشرطة وعلى راسهم ضابط الصف فينبونج . كانوا ممسكين بمسدساتهم فى وضع استعداد لاطلاق النار ، ولزم مكانهم عند الباب حوالى خمسة جنود . يبدو ان رجال الشرطة كانوا يخشون ان يبدى هذان المعتقلان ضروب المقاومة . غير أن ماتفى كوستيفيتش وفالكو لم يسمحا لنفسيهما حتى بالسخرية منهم ، فقد كانت روحاهما بعيدة عن كل ذلك البهرج الباطل . وسمحا لهم وفى هدوء بتقييد أياديهما خلف ظهريهما ، وحين اشار فينبونج بضرورة الجلوس حتى توثق اقداماهما ، سمحا بذلك ليربطوا اليها الاصفاد حتى لا يمكنهما سوى السير فى خطوات قصيرة ، ومما يستحيل معه الهرب .

ثم تركوهما وحدهما ، ليجلسا فى الزنزانة بعضا آخر من الوقت ، وحتى فرغ الألمان من تقييد كل المعتقلين .

وهاهو دبيب اقدام تخطو سريعة فى رتابة ، يتعالى شيئا فشيئا حتى ملأ كل ارجاء الردهة . وراح الجنود يتحركون «محلك سر» ثم صدر الأمر لهم بالوقوف ثم الالتفاف وانزال السلاح من على اكتافهم ليستقر الى جوار اقدامهم . وتعالى صرير أبواب الزنزانات تنفرج عن المعتقلين الذين جرى اخراجهم الى الردهة .

وعلى الرغم من الضوء الخافت الذى كان يخيم على الردهة فقد زر ماتفى كوستيفيتش وفالكو أعينهما رغما عنهما ، نظرا لذلك الوقت الطويل الذى قضياه فى الظلمة . ثم راحا فيما بعد يتأملان النظر فى

جيرانهما ومن لزم مكانه فى الصف الممتد على يمنتهما ويسرتهما فى الردهة .

وعلى مبعدة معتقل واحد وقف رجل عارى القدمين تحيط بهما الاصفاد شمالهما ، فارع القامة وقد تضرجت ملابسه الداخلية بالدماء . واصابت المفاجأة كلا من فالكو وماتفى كوستيفيتش حين عرفا فيه بيتروف . لقد كان جسده محطما لدرجة ان ملابسه الداخلية التصقت به ، كما تلتصق بالجرح الكبير ، لتجف عليه . ومن المؤكد ان كل حركة كان يأتيها كانت تعود عليه هو الانسان القوى بالآلام التى لا تطاق . كانت احدى وجنتيه متهدلة حتى تبدت عظامها اثر ضربة سكين او سونكى ، واصابها الصديد . كما وعرفهما بيتروف بدوره ليحنى هامته تحية لهما .

غير أن ماذا جعل الرجفة تتسلل الى كيانى فالكو وماتفى كوستيفيتش شفقة وغضبا ؟ لقد كان ذلك اثر مشاهدتهما لتلك التى تقف فى نهاية الردهة البعيدة الى جوار باب السجن وحيث تعلقت انظار كل المعتقلين ، تنم عن الآلام والرعب والدهشة . لقد كانت تقف هناك امراة كست وجهها امارات الانهاك ، وان ظل يتسم بالقوة ترتدى فستانا أحمر اللون تحمل على يديها طفلا ، بينما كانت تحيط الحبال بهاتين اليدين وبالطفل الذى كانت تحتضنه ، مما بدا معه أن الطفل قد ثبت الى جسد أمه وحتى ابد الآبدين . لم يكن ذلك الطفل قد بلغ بعد عامه الاول وكان راسه الرقيق ذو الشعر الخفيف الذى تجعد بعض الشىء أعلى قفاه مستقرا على كتف امه ، مغلق العينين . غير انه لم يكن ميتا بل مستغرقا فى سباته .

وفجأة تخيل ماتفى كوستيفيتش زوجته واطفاله لتملأ الدموع مآقيه . وقد كان يخشى ان يرى جنود الشرطة وكذلك مواطنوه المعتقلون هذه الدموع ليظنوا شيئا غير صحيح بشأنه . وكان سعيدا حين فرغ ضابط الصف فينبونج من عد المعتقلين ، ليقتادوهم الى الخارج يحيط بهم صفان من الجنود .

كانت الليلة معتمة الى حد ان الواقفين لم يكونوا قادرين على رؤية بعضهم البعض . وجرى تصفيفهم طابورا عرضه اربعة اشخاص ، احاطوا به ، ثم اقتادوهم عبر البوابة نحو الشارع المفضى الى التل ، فيما كانت المصابيح الكهربائية تضئ الطريق وتلقى بأشعتها

عليهم تارة من الأمام واخرى من الخلف ، وثالثة من الجانبين . ولفتهم برطوبتها الرياح الباردة التى كانت تهب على المدينـــة فى رتابة ، وتعالى الى اسماعهم فى خضم ذلك الهدوء حفيف تلك السحب التى حلقت فوق رؤوسهم منخفضة الى الحد الذى بدا معه أن المرء يستطيع التقاطها من مكانه . وراح المعتقلون يستنشقون الهواء فى فمهم ، بينما يسيرون فى خطوات متثاقلة دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة . ونادرا ما كان ضابط الصف فينبونج الذى كان يسير فى مقدمة الطابور يلتفت الى الخلف ، يوجه اليه اشعة المصباح المعلق بيده ، لتظهر من جديد فى اطار هذه العتمة تلك المرأة التى أوثق الطفل الى جسدها تسير فى طرف الصف الاول ، تطيح الرياح بذيل ثوبها الاحمر .

كان ماتفى كوستيفيتش وفالكو يسيران متجاورين ، يتلامس كتفاهما . وكانت الدموع قد بارحت مآقى ماتفى كوستيفيتش . وكلما كان الطريق يمتد بهما بعيدا ، كلما كانت تبتعد ابعد فابعد تلك المشاعر الشخصية ، ولتكن اهم المشاعر واعزها والتى مست شغاف قلبيهما حتى اللحظة الاخيرة ، تود عدم السماح لهما بمفارقة هذا العالم . وفردت العظمة والجلال اجنحتهما تخيم عليهما . وخيم على روحهما هدوء ناصع لا يمكن التعبير عن كنهه . هذا بينما راحا يسيران يصعدان وجهيهمـــا للرياح ، فى هدوء وصمت يواجهان نهايتهما ، تظللهما تلك السحب التى كانت تحف فوق راسيهما .

وتوقف الطابور عند مدخل الحديقة . ولبث ضابط الصف فينبونج ورقيب الشرطة ادوارد بولمان ، وروتنفوهرر الثانى الذى كان يترأس جنود «اس اس» الذين يتولون حراسة الحديقة ، يتفحصون تحت ضوء المصباح الكهربائى الورقة التى تناولها فينبونج من جيب سترتـه الداخلى .

ثم قام الرقيب يعد المعتقلين فى الطابور فيما يلقى عليهم اشعة مصباحه المتقطعة .

وانفرجت بوابة الحديقة فى صرير على مصراعيها . واعيد ترتيب الطابور ليصبح عرضه شخصين ، ليقتادوه عبر الممر الرئيسى للحديقة فيما بين بنائى نادى لينين ، ومدرسة جوركى ، حيث كانت قد تمركزت اليوم ادارة المؤسسات المتحدة التى كانت تضمها فيما سبق مؤسسات «فحم كراسنودون» . غير ان ضابط الصف فينبونج

والرقيب بولمان انحرفا الى ممر جانبى فيما خلف المدرسة تقريبا ، وانعطف الطابور كذلك خلفهما .

كانت الرياح تتمايل بالاشجار تطيح باوراقها فى اتجاه واحد ، ليتنامى حفيفها متعدد النغمات رتيبها ، عاليا لا يسكن يملأ كل ارجاء العتمة المحيطة .

اقتادوهم الى طرف الحديقة المهجور ، الذى قل من كان يزوره فى ايام السلم ، حيث كانت تشرف على الأرض الخلاء التى توسطها مبنى مدرسة الشرطة الالمانية ذو الطابق الواحد . وفى ذلك المكان ، فى وسط ذلك المرج المستطيل الذى تحيط به الاشجار من كل جانب كانت قد حفرت حفرة طويلة . وقد تعالت رائحة الأرض الرطبة التى جرى حفرها ليسمعها جميع من كان بالطابور حتى قبل ان تقع انظارهم عليها .

وقاموا بتشتيت طابور المعتقلين فى ارجاء الحفرة ، ليفترق فالكو وماتفى كوستيفيتش . وراح هؤلاء يتعثرون فى أكوام الاتربـة التى جاورت الحفرة ، ليتساقطوا ارضا ، لكن الشرطة كانت تجبرهم على النهوض فورا ، تحت وقع ضربات كعوب البنادق .

وفجأة توجهت اشعة عشرات المصابيح تضئ تلـــك الحفرة الطويلة ، وما علا جانبيها من اتربـة ، واوجه أولئك المعذبين ، والسناكى اللامعة لاسلحة الجنود الألمان الذيـــن احاطوا بالمرج جدارا هائلا . وقد شاهد كل من وقف الى جوار الحفرة ، انه قـد استقر عند نهايتها المساعد بريوكنر ونائبه بالدر وقد القيا على كاهليهما بمعطفى مطر اسودى اللون . اما وعلى مسافة قريبة خلفهما انتحى جانبا حاكم المدينة فاسيلى ستاتسينكو ، بدين الجسد ، متضرج الوجنتين منفوخ العينين .

واشار المساعد بريوكنر بيده ، ليرفع ضابط الصف فينبونج المصباح المعلق بيده عاليا ، واصدر امره بصوت مخنث مبحوح . وتقدم الجنود خطوة الى الامام وراحوا بسناكيهم يدفعون المعتقلين نحو الحفرة . وراح المعتقلون يعتلون فى هدوء أكوام الأتربة على جانبيها ، لتتعثر أقدامهم ، ويتساقطون ، ثم ينهضون لتنفيذ الامر . واطبق الصمت على المكان لا يقطعـه سوى حفيف أوراق الأشجار وانفاس الجنود .

واعتلى ماتفى شولجا التل وبخطوات متثاقلة بقدر ما سمحت بها قدماه المكبلتان . وشاهد على أضواء المصابيح كيف راحوا يدفعون المعتقلين الى الحفرة . كانوا يقفزون اليها او يتساقطون فيها ، يلتزم بعضهم الصمت ، بينما يعلن البعض الآخر احتجاجاته أو توسلاته .

وكان المساعد بريوكنر ونائبه بالدر يقفان جامدين تحت الاشجار ، بينما راح ستاتسينكو ينحنى فى حرارة الى اولئك الذين يلقى بهم الى الحفرة . . لقد كان مخمورا .

ومرة اخرى شاهد شولجا تلك المرأة ذات الرداء الاحمر التى شد الى جسدها طفلها الذى لم يكن يسمع او يرى شيئا ، لا يحس سوى بدفء الأم ، يواصل نومه وقد استقر رأسه الى كتفها . وقد هوت الأم الى الأرض لتجلس على حافة الكوم ، فى محاولة منها لعدم ايقاظ طفلها ، وراحت تزحف بساقيها حيث كانت موثقة اليدين ، لتنزل الى الحفرة . بعد ذلك لم يرها والى الابد ماتفى شولجا !

وصاح شولجا بصوت قوى اجش ساد كل ما حوله من جلبة واصوات :

– ايها الرفاق ! يا رفاقى الرائعين ! فليكن المجد والخلود قدركم ! يعيش . . .

وهنا انسل السونكى فى ظهره الى ما بين اضلعه . واستجمع شولجا كل قواه الهائلة حتى لا يسقط ، بل قفز الى الحفرة التى تعالى منها صوته ينادى :

– يعيش الحزب الشيوعى الذى هدى الناس الى طريق العدالة !

وهتف اندريه فالكو الذى شاء القدر أن يجمعه ثانية الى جوار شولجا :

– الموت للاعداء !

غصت الحفرة بالمعتقلين لدرجة انه لم تكن هناك ادنى امكانية للتحرك او الالتفاف . وحانت لحظة آخر التوترات الروحية . . فقد راح كل منهم يعد نفسه لتلقى الرصاص . بيد ان الموت على هذا النمط لم يكن مقدرا لهم . فقد انهالت اكوام الاتربة فوق رؤوسهم واكتافهم وفى افواههم واعينهم ، ليدركوا أنهم يدفنون احياء . وتعالى صوت شولجا يغنى :

وراح فالكو يردد من خلفه وبصوت خافت ، الاغنية ، التى اخذ الآخرون ينشدونها ، لتتعالى أنغام «الأمميـة» من تحت الارض الى السماء الداكنة العامرة بالغيوم .

وفى تلك الساعة الرهيبة المظلمة ، انفرج فى هدوء باب منزل صغير بشارع ديريفيانايا ، تخرج ماريا اندرييفنا بورتس وفاليا ، وشخص آخر متوسط القامة يرتدى الكثير من الثياب ، يحمل على كتفه كيسا ويمسك فى يده بعصا ، يهبطون درج المدخل .

وامسكت ماريا اندرييفنا وفاليا بالرجل من تحت ابطيه وقادتاه عبر الشارع الى البرارى . وراحت الرياح تتمايل بفستانيهما .

وبعد بضع خطوات توقف الرجل يقول بصوت كاد يكون همسا :

– ان الظلمة حالكة ، ومن الافضل أن تعودى !

واحتضنته ماريا أندرييفنا ، ليقفا على هذا الحال بعض الوقت . وذكر ملوحا بيده فى وهن :

– وداعا يا ماريا !

وبقيت ماريا أندرييفنا وحدها ، بينما انصرف الاب والابنة التى لم تترك يده . فقد كان من الواجب أن ترافق فاليا اباها وحتى يعلن الصباح عن نفسه . أما وفيما بعد وعلى الرغم من ضعف نظره فقد كان عليه وحده تقع مهمة الوصول الى مدينة ستالينو ، حيث كان يفترض امكانية الاختفاء لدى اقارب زوجته .

وترامت الى اسماع ماريا أندرييفنا خطواتهما بعض الوقت ، لتضيع فيما بعد بعيدا . كانت الظلمة الباردة الحالكة تطبق على كل ما حولها . اما ما راح يجثم على روحها فقد كان أكثر حلكة وسوادا . فقد ضاعت وتحطمت وتبددت كل حياتها بما فيها من عمل واسرة واحلام وحب واطفال ، بينما لا يحمل لها المستقبل شيئا .

لزمت مكانها غير قادرة على الحركة ، بينما راحت الرياح مصفرة تلف فستانها حول ساقيها ، وتناهى الى اسماعها حفيف السحب المنخفضة التى تعلو راسها .

وفجأة بدا لها . . . انها تفقد عقلها . . . واصاخت السمع . . .

كلا انه لم يخيّل لها ، فلقد كان ثمة من يعلو صوته بالغناء ! انهم ينشدون «الأممية» . . .

لقد كان مستحيلا تحديد مصدر تلك الاصوات . فقد تمازجت مع الرياح وحفيف السحب لتتطاير بعيدا فى كل ارجاء الكوكب المظلم .

وبدا لماريا اندرييفنا ان قلبها قد توقف وجيبه ، لتعترى الرجفة كل اوصالها . . .

لقد تعالى الى اسماعها وكأنما من تحت الأرض :

انا سوف نحطم عالم العنف
نجتث كل جذور عالم العنف
نشيد صروح الحياة الجديدة
نمنح الجميع الحياة السعيدة ...

محتويات

الفصل الاول ١٧
الفصل الثانى ٣١
الفصل الثالث ٤٢
الفصل الرابع ٥٢
الفصل الخامس ٦٥
الفصل السادس ٧٦
الفصل السابع ٨٨
الفصل الثامن ١٠١
الفصل التاسع ١١٠
الفصل العاشر ١٢٤
الفصل الحادى عشر ١٣٤
الفصل الثانى عشر ١٤٢
الفصل الثالث عشر ١٥٧
الفصل الرابع عشر ١٦٩
الفصل الخامس عشر ١٨٠
الفصل السادس عشر ١٨٧
الفصل السابع عشر ١٩٤
الفصل الثامن عشر ٢٠٨
الفصل التاسع عشر ٢٣٠
الفصل العشرون ٢٤٤
الفصل الحادى والعشرون ٢٦٤
الفصل الثانى والعشرون ٢٨٩
الفصل الثالث والعشرون ٢٩٥
الفصل الرابع والعشرون ٣٠٤
الفصل الخامس والعشرون ٣١٠
الفصل السادس والعشرون ٣٢٤
الفصل السابع والعشرون ٣٣٥
الفصل الثامن والعشرون ٣٥٣
الفصل التاسع والعشرون ٣٦٥

الفصل الثلاثون ٣٨٣
الفصل الحادى والثلاثون ٣٩٩
الفصل الثانى والثلاثون ٤١٣
الفصل الثالث والثلاثون ٤٢٣
الفصل الرابع والثلاثون ٣٤٣
الفصل الخامس والثلاثون ٤٤٩

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكـــم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتى